

السُّفَا

بِتَغْرِيفِ حُقُوقِ الْمُصْطَفَى



تَأْيِيفِ

الْعَلَامَةِ الْقَاضِي أَبِي الْفَضْلِ عِيَّاضُ بْنُ مُوسَى الْيَحْصِي

(٤٧٦ - ٥٤٤ هـ = ١٠٨٣ - ١١٤٩ م)

دار ابن حزم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن خزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - صرب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

الشِّمْفَا

بِتَعْرِيفِ حُقُوقِ الْمُصْطَفَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة المؤلف

هو عِيَّاض بن موسى بن عِيَّاض بن عمرو بن اليحصبي السبتي، أبو الفضل: عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته.

ولد في مدينة سبتة بالأندلس سنة ٤٧٦هـ. وتربى في أحضان أسرة عربية أصيلة، فنشأ على الصلاح والتقوى، معرضاً عن اللهو، شغوفاً بالعلم، محباً للجهاد، حافظاً لكتاب الله تعالى كثيراً من تلاوته.

وكان أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم. ولي القضاء بسبتة، ثم قضاء غرناطة فكان قاضياً عادلاً، لا تأخذه في الحق لومة لائم، وكان إماماً بارعاً، متفتناً في علم الحديث، والفقه، واللغة والنحو، وعاصر دولتي: المرابطين والموحدين.

من تصانيفه:

- «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» - وهو كتابنا هذا -.
- «الغنية» وهو في ذكر مشيخته.
- «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك.
- «شرح صحيح مسلم».
- «مشارك الأنوار»، وهو في الحديث.
- «الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع» وهو في مصطلح الحديث.

- وكتاب في «التاريخ».

- «العقيدة».

- «مطامح الأفهام في شرح الأحكام». وغيرهم كثير.

توفي رحمه الله بمراكش سنة ٥٤٤هـ مسموماً؛ قيل: سُمِّه يهودي.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه أتوكل

قال الفقيه القاضي الإمام الحافظ أبو الفضل: عِيَاضُ بْنُ مُوسَى بْنِ عِيَاضٍ
الْيَحْضَبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَقَرِّدِ بِاسْمِهِ الْأُسْمَى، الْمُخْتَصِّ
بِالْمُلْكِ الْأَعَزِّ الْأَحْمَى، الَّذِي لَيْسَ ذُوْنُهُ مُتْنَهًى، وَلَا وَرَاءَهُ مَزْمَى، الظَّاهِرِ لَا تَخِيْلًا
وَوَهْمًا، وَالْبَاطِنِ تَقْدُسًا لَا غُدْمًا، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، وَأَسْبَغَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ
نِعْمًا عُمًّا، وَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، أَنْفَسَهُمْ غُزْبًا وَعُجْمًا، وَأَزْكَاهُمْ مَخْتِدًا
وَمُنْمًى، وَأَرْجَحَهُمْ عَقْلًا وَجِلْمًا، وَأَوْفَرَهُمْ عِلْمًا وَفَهْمًا، وَأَقْوَاهُمْ يَقِينًا وَعِزْمًا،
وَأَشَدَّهُمْ بِهِمْ رَافَةً وَرُحْمًى، وَزَكَّاهُ رُوحًا وَجِسْمًا، وَحَاشَاةُ عَيْنًا وَوَضْمًا؛ وَأَتَاهُ
حِكْمَةٌ وَحُكْمًا، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمِيًّا، وَقَلْبُوبًا غُلْفًا، وَأَذَانًا صُمًّا؛ فَأَمَّنَ بِهِ وَعِزَّهُ،
وَنَصَرَهُ مَنْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ فِي مَغْنَمِ السَّعَادَةِ قِسْمًا، وَكَذَّبَ بِهِ وَصَدَفَ عَنْ آيَاتِهِ مَنْ
كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّقَاءَ حَتْمًا ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْيُنٌ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ [الإسراء: ٧٢]
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةً تَنُمُو وَتُنْمَى، وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

أما بعد: أشرقَ اللَّهُ قَلْبِي وَقَلْبَكَ بِأَنْوَارِ الْيَقِينِ، وَلَطَفَ لِي وَلَكَ بِمَا لَطَفَ بِهِ
لأَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ شَرَّفَهُمُ اللَّهُ بِنُزُلِ قُدْسِهِ، وَأَوْحَشَهُمُ مِنَ الْخَلِيقَةِ بِأَنْسِيهِ،
وَخَصَّهُمُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَمَشَاهِدَةِ عَجَائِبِ مَلَكُوتِهِ، وَأَثَارِ قُدْرَتِهِ بِمَا مَلَأَ قُلُوبَهُمْ حَيْرَةً،
وَوَلَّهَ عَقُولَهُمْ فِي عَظَمَتِهِ حَيْرَةً؛ فَجَعَلُوا هَمَّهُمْ بِهِ وَاحِدًا، وَلَمْ يَرَوْا فِي الدَّارَيْنِ
غَيْرَهُ مُشَاهِدًا؛ فَهُمْ بِمَشَاهِدَةِ جَمَالِهِ وَجَلَالِهِ يَتَنَعَّمُونَ، وَبَيْنَ أَثَارِ قُدْرَتِهِ وَعَجَائِبِ
عَظَمَتِهِ يَتَرَدَّدُونَ، وَبِالْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ يَتَعَزَّزُونَ، لِهَيْجِنِ بَصَادِقِ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ
اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

فإنك كررت عليّ السؤال في مجموع يتضمن التعريف بقدر المصطفى عليه الصلاة والسلام، وما يجب له من توفير وإكرام، وما حُكْمُ مَنْ لم يُوفَّ واجب عظيم ذلك القدر، أو قصّر في حق منصبه الجليل قلاماً ظفّر؛ وأن أجمع لك ما لأسلافنا وأئمتنا في ذلك من مقال، وأبينّه بتنزيل صور وأمثال.

فاعلم - رحمك الله - أنك حملتني من ذلك أمراً إمرأ، وأرهقتني فيما ندبتني إليه عُسراً، وأرقتني بما كلفتني مُرتقى صعباً، ملأ قلبي رُعباً؛ فإنّ الكلام في ذلك يستدعي تقرير أصول، وتحرير فصول، والكشف عن غوامض ودقائق من علم الحقائق، مما يجب للنبي ﷺ ويضاف إليه، أو يمتنع، أو يجوز عليه، ومعرفة النبي والرسول، والرُسالة والنبوة، والمحبة والخلة، وخصائص هذه الدرجة العلية، وما هنا مهامه فيح تحار فيها القطأ، وتقصر بها الخطأ؛ ومجاهل تفضل فيها الأحلام - إن لم تهتد بعلم علم، ونظر سديد - ومداحض تزل بها الأقدام، إن لم تعتمد على توفيق من الله وتأيد.

لكني لما رجوته لي ولك في هذا السؤال والجواب من نوال وثواب، بتعريف قدره الجسيم، وخلقه العظيم، وبيان خصائصه التي لم تجتمع قبل في مخلوق، وما يُدان الله تعالى به من حقه الذي هو أرفع الحقوق ﴿لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ وَرَدَادَ الَّذِينَ مَأْثُوا إِلَيْنَا﴾ [المدثر: ٣١] المدثر ولما أخذ الله تعالى على الذين أوثوا الكتاب ليبيّنه للناس ولا يكتُمونه.

١ - ولما حدثنا به أبو الوليد: هشام بن أحمد الفقيه - رحمه الله - بقراءتي عليه؛ قال: حدثنا الحسين بن محمد، حدثنا أبو عمر التَّمَرِيُّ، حدثنا أبو محمد بن عبدالمؤمن، حدثنا أبو بكر: محمد بن بكر، حدثنا سليمان بن الأشعث، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حمّاد، أخبرنا علي بن الحكم، عن عطاء، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سِئَلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلْجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [أبو داود (٣٦٥٨)، الترمذي (٢٦٤٩)، ابن ماجه (٢٦١)].

فَبَاذَرْتُ إِلَى نُكَبَتِ مُسْفِرَةٍ عَنْ وَجْهِ الْغَرَضِ، مُؤْذِيّاً مِنْ ذَلِكَ الْحَقِّ الْمُفْتَرَضِ، اخْتَلَسْتُهَا عَلَى اسْتِعْجَالٍ، لَمَّا الْمَرْءُ بَصَدِيدِهِ مِنْ شُغْلِ الْبَدَنِ وَالْبَالِ، بِمَا طَوْقَهُ الْإِنْسَانُ مِنْ مَقَالِيدِ الْمِخْنَةِ الَّتِي ابْتُلِيَ بِهَا، فَكَادَتْ تَشْغَلُ عَنْ كُلِّ فَرْضٍ وَتَقْلُ، وَتَرَدُّ بَعْدَ حِضْنِ التَّقْوِيمِ إِلَى أَسْفَلِ سَفْلٍ؛ وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ بِالْإِنْسَانِ خَيْراً لَجَعَلَ شُغْلَهُ وَهَمَّهُ كُلَّهُ، فِيمَا يُحَمَّدُ غداً أَوْ يُذَمُّ مَحَلُّهُ؛ فَلَيْسَ ثَمَّ سِوَى خَضِرَةِ النَّعِيمِ، أَوْ

عذاب الجحيم، ولكان عليه بِخَوِصَّتِهِ، واستنْقَافِ مُهْجَتِهِ، وَعَمَلِ صَالِحٍ يَسْتَزِيدُهُ، وَعِلْمٍ نَافِعٍ يَفِيدُهُ، أَوْ يَسْتَفِيدُهُ.

جَبَرِ اللهُ صَدْعَ قُلُوبِنَا، وَغَفَرَ عَظِيمَ ذُنُوبِنَا، وَجَعَلَ جَمِيعَ اسْتِعْدَادِنَا لِمَعَادِنَا، وَتَوَفَّرَ دَوَاعِينَا فِيمَا يُنْجِينَا، وَيَقْرُبُنَا إِلَيْهِ تَعَالَى رُفْقَى، وَيُخْطِنَا بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَلَمَّا نَوَيْتُ تَقْرِيبَهُ، وَدَرَجْتُ تَبْوِيئَهُ، وَمَهَّدْتُ تَأْصِيلَهُ، وَخَلَصْتُ تَفْصِيلَهُ، وَانْتَحَيْتُ حَضْرَهُ وَتَحْصِيلَهُ، تَرَجَّمْتُ بِهِ (الشُّفَا بِتَعْرِيفِ حَقُوقِ الْمُصْطَفَى) وَحَصَرْتُ الْكَلَامَ فِيهِ فِي أَقْسَامٍ أَرْبَعَةٍ:

القسم الأول: في تعظيم العليِّ الأعلى لَقَدْرِ هَذَا النَّبِيِّ ﷺ قَوْلًا وَفِعْلًا، وَتَوَجَّهَ الْكَلَامُ فِيهِ فِي أَرْبَعَةِ أَبْوَابٍ:

الباب الأول: في ثنائه تعالى عليه، وإظهاره عظيم قدره لديه؛ وفيه عشرة فصول.

الباب الثاني: في تكميله تعالى له المحاسن، خَلْقًا وَخُلُقًا، وَقِرَانِهِ جَمِيعَ الْفَضَائِلِ الدِّينِيَّةِ وَالْدُّنْيَوِيَّةِ فِيهِ نَسَقًا؛ وفيه سبعة وعشرون فصلًا.

الباب الثالث: فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم قدره عند ربه وَمُنْزَلَتِهِ، وَمَا خَصَّهُ بِهِ فِي الدَّارَيْنِ مِنْ كَرَامَتِهِ؛ وفيه اثنا عشر فصلًا.

الباب الرابع: فيما أظهره الله تعالى على يديه من الآيات والمُعْجَزَاتِ، وَشَرَفَهُ بِهِ مِنَ الْخَصَائِصِ وَالْكَرَامَاتِ؛ وفيه ثلاثون فصلًا.

القسم الثاني: فيما يجب على الأنام من حقوقه عليه السلام، وَيَتَرْتَّبُ الْقَوْلُ فِيهِ فِي أَرْبَعَةِ أَبْوَابٍ:

الباب الأول: في فَرْضِ الْإِيمَانِ بِهِ وَوُجُوبِ طَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ؛ وفيه خمسة فصول.

الباب الثاني: في لزوم محبته ومُتَاصَحَتِهِ؛ وفيه ستة فصول.

الباب الثالث: في تعظيم أمره ولزوم توقيره وبره؛ وفيه سبعة فصول.

الباب الرابع: في حكم الصلاة عليه والتسليم، وفرض ذلك، وفضيلته؛ وفيه عشرة فصول.

القسم الثالث: فيما يستحيل في حقه، وما يجوز عليه شرعًا، وما يمتنع وَيَصِحُّ مِنَ الْأُمُورِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ.

وهذا القسم - أكرمك الله - هو سِرُّ الْكِتَابِ، وَلِبَابُ ثَمَرَةِ هَذِهِ الْأَبْوَابِ، وَمَا قَبْلَهُ لَهُ كَالْقَوَاعِدِ، وَالتَّمْهِيدَاتِ وَالْدَّلَائِلِ عَلَى مَا تُورِدُهُ فِيهِ مِنَ الثُّبُوتِ الْبَيِّنَاتِ، وَهُوَ

الحاكم على ما بعده، والمُنَجَزُ مِنْ غَرَضِ هَذَا التَّأْلِيفِ وَغَدَهُ، وَعِنْدَ التَّقْصِي
لموعده، والتَّقْصِي عَنْ عَهْدِهِ، يَشْرِقُ صَدْرُ الْعَدُوِّ اللَّعِينِ، وَيُشْرِقُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ
بِالْيَقِينِ، وَتَمَلُّأُ أَنْوَارُهُ جَوَانِحَ صَدْرِهِ، وَيَقْدُرُ الْعَاقِلُ النَّبِيُّ حَقَّ قَدْرِهِ. وَيَتَحَرَّرُ
الْكَلَامُ فِيهِ فِي بَابَيْنِ:

الباب الأول: فيما يختصُّ بالأمر الديني، ويتشَبَّثُ بِهِ الْقَوْلُ فِي الْعَصْمَةِ
وفيه ستَّةُ عَشَرَ فُصُولًا.

الباب الثاني: في أحواله الدنيويَّة، وما يجوز طُرُوءُهُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْرَاضِ
البشريَّة؛ وفيه تسعةُ فصول.

القسم الرابع: في تصرُّفِ وَجْهِهِ الْأَحْكَامَ عَلَى مَنْ تَنَقَّصَهُ أَوْ سَبَّهُ عَلَيْهِ
السلام، وينقسم الكلام فيه في بابين:

الباب الأول: في بيان ما هو في حَقِّهِ سَبٌّ وَتَقْصُصٌ؛ مِنْ تَعْرِيزِ، أَوْ نَصٍّ؛
وفيه عَشْرَةُ فصول.

الباب الثاني: في حكم شأنه ومُؤْذِيهِ وَمُنْتَقِصِيهِ، وَعَقُوبَتِهِ، وَذِكْرِ اسْتِثْنَاتِهِ،
وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَوَرَاثَتِهِ؛ وفيه عَشْرَةُ فصول.

وختمناه بِبَابِ ثَالِثٍ جَعَلْنَاهُ تَكْمِلَةً لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَوُضِلَتْ لِلْبَابَيْنِ اللَّذَيْنِ قَبْلَهُ
فِي حُكْمِ مَنْ سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى وَرُسُلَهُ وَمَلَائِكَتَهُ وَكُتُبَهُ؛ وَآلَ النَّبِيِّ ﷺ وَصَحْبِهِ.

وَأَخْتَصَرُ الْكَلَامَ فِيهِ فِي خَمْسَةِ فصول، وَبِتَمَامِهَا يَنْتَهِزُ الْكِتَابُ، وَتَتِمُّ الْأَقْسَامُ
وَالْأَبْوَابُ، وَيَلُوحُ فِي غُرَّةِ الْإِيمَانِ لُحْمَةٌ مَنِيرَةٌ، وَفِي تَاجِ التَّرَاجِمِ دُرَّةٌ خَطِيرَةٌ،
تُزِيحُ كُلَّ لَبْسٍ، وَتُوضِّحُ كُلَّ تَحْمِينٍ وَخَدْسٍ، وَيُشْفِي صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَيُضْدِعُ
بِالْحَقِّ، وَيَعْرِضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ؛ وَبِاللَّهِ تَعَالَى - لَا إِلَهَ سِوَاهُ - أَسْتَعِينُ.




القسم الأول

فِي تَعْظِيمِ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى لِقَدْرِ هَذَا النَّبِيِّ
الْمُصْطَفَى قَوْلًا وَفِعْلًا

قال الفقيه القاضي الإمام أبو الفضل رحمه الله:

لا خفاء على مَنْ مارس شيئاً من العلم، أو خُصَّ بأذنٍ لمحة من فهم، بتعظيم الله تعالى قَدْرَ نبينا عليه الصلاة والسلام، وخصوصه إياه بفضائل ومحاسن ومناقب لا تنضب لزمام، وتنويهه من عظيم قَدْرِهِ بما تَكَلُّ عنه الألسنة والأقلام.

فمنها: ما صَرَّح به تعالى في كتابه، وَبَّه به على جليل نصابه، وأثنى به عليه من أخلاقه وآدابه، وحضَّ العبادَ على التزامه، وَتَقَلَّدَ إيجابه؛ فكان - جلَّ جلاله - هو الذي تفضل وأولى، ثم طَهَّرَ وَزَكَّى، ثم مَدَحَ بِذَلِكَ وأثنى، ثم أَثَابَ عليه الجزاء الأوفى، فله الفضل بدءاً وعوداً، وله الحمد أولى وأخرى.

ومنها: ما أبرَّزه للعيان من خَلْقِهِ على أتمَّ وجوه الكمال والجلال، وَتَخْصِيصِهِ بالمحاسن الجميلة، والأخلاق الحميدة، والمذاهب الكريمة، والفضائل العديدة؛ وتأييده بالمعجزات الباهرة، والبراهين الواضحة، والكرامات البيِّنة التي شَاهَدَهَا مَنْ عاصَرَهُ، ورآها من أذركه، وَعَلِمَهَا عِلْمٌ يَقِين من جاء بعده، حتى انتهى عِلْمُ حقيقة ذلك إلينا، وفاضت أنواره علينا،  كثيراً.

٢ - حدثنا القاضي الشهيد أبو علي: الحسين بن محمد الحافظ - رحمه الله - قراءة مِنِّي عليه؛ قال: حدثنا أبو الحسين: المبارك بن عبد الجبار، وأبو الفضل: أحمد بن خيرون؛ قالوا: حَدَّثَنَا أَبُو يَغْلَى البغدادي؛ قال: حدثنا أبو علي السَّنجِي؛ قال: حدثنا محمد بن أحمد بن محبوب؛ قال: حدثنا أبو عيسى بن سَوْرَةَ

الحافظ؛ قال: حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا عبدالرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن قَتَادَةَ، عن أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى بِالْبُرَاقِ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ، مُلْجِماً مُسْرِجاً، فَاسْتَضَعَبَ عَلَيْهِ؛ فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ: أَبِمْحَمَّدٍ تَفْعَلُ هَذَا؟ فَمَا رَكِبَكَ أَحَدٌ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْهُ. قال: فَارْقَضُ عَرَقاً. [الترمذي (٣١٣١)، أحمد (١٦٤/٣)].



البَابُ الْأَوَّلُ

فِي ثَنَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ
وَإِظْهَارِهِ عَظِيمَ قُدْرِهِ لَدَيْهِ

اعلم أن في كتاب الله العزيز آيات كثيرة مفصحةً بجميل ذكر المصطفى،
وعُدَّ محاسنه، وتعظيم أمره، وتنويه قدره، اعتمدنا منها على ما ظهر معناه، وبأن
فخواه، وجمعنا ذلك في عشرة فصول.

الفصلُ الأولُ

فيما جاء من ذلك مَجْبِيءُ المَدْحِ والثناء وتعداد المحاسن؛ كقوله تعالى:
﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال السَّمَرْقَنْدِيُّ: وقرأ بعضهم: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ - بفتح الفاء. وقراءة
الجمهور بالضم.

قال القاضي الإمام أبو الفضل - رحمه الله -: أَعْلَمَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ، أو
العرب، أو أهل مكة، أو جميع الناس، على اختلاف المفسرين: مَن المواجهُ
بهذا الخطاب أنه بَعَثَ فيهم رسولاً من أنفسهم يعرفونه، ويتحققون مكانه،
ويعلمون صدقه وأمانته؛ فلا يتهمون به بالكذب، وترك النصيحة لهم، لكونه منهم،
وأنه لم يكن في العرب قبيلة إلا ولها على رسول الله ﷺ ولادة أو قرابة.

٣ - وهو عند ابن عباس وغيره معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى﴾
[الشورى: ٢٣] [البخاري (٤٨١٨)، الترمذي (٣٢٥١)] وكَوْنِهِ من أَشْرَفِهِمْ، وَأَزْوَاجِهِمْ،

وأفضلهم، على قراءة الفتح؛ وهذه نهاية المدح؛ ثم وصفه بعد بأوصاف حميدة، وأثنى عليه بمحامد كثيرة؛ من جزاه على هدايتهم، ورشدهم، وإسلامهم، وشدة ما يُعْتَنُّهُمْ، ويضُرُّ بهم في دنياهم وأخراهم، وعزَّته عليه ورأفته ورحمته بمؤمنيه. قال بعضهم: أعطاه اسمين من أسمائه: رؤوف، رحيم.

ومثله في الآية الأخرى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وفي الآية الأخرى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]. وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَزَكَّاكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

٤ - وزوي عن علي بن أبي طالب، عنه - صلوات الله عليه - في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَنْفَسِكُمْ﴾ قال: «نسباً وصهرأ وحسباً؛ ليس في آبائي من لدن آدم سِفَاح، كُلُّنَا نِكَاح».

قال ابن الكلبي: كَتَبْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ خَمْسَ مِثَّةٍ أَمْ، فَمَا وَجَدْتُ فِيهِمْ سِفَاحاً وَلَا شَيْئاً مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ الْجَاهِلِيَّةُ.

٥ - وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَتَقَبَّلَكَ فِي السَّجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩] قال: مِنْ نَبِيٍّ إِلَى نَبِيٍّ، حَتَّى أُخْرِجَكَ نَبِيًّا.

وقال جعفر بن محمد: عَلِمَ اللَّهُ عَجْزَ خَلْقِهِ عَنْ طَاعَتِهِ، فَعَرَفَهُمْ ذَلِكَ؛ لَكِي يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَا يَنَالُونَ الصَّفْوَةَ مِنْ خِدْمَتِهِ؛ فَأَقَامَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ مَخْلُوقاً مِنْ جَنْسِهِمْ فِي الصُّورَةِ، وَالْبِسَةِ مِنْ نَعْتِهِ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَأَخْرَجَهُ إِلَى الْخَلْقِ سَفِيرًا صَادِقًا، وَجَعَلَ طَاعَتَهُ طَاعَتَهُ، وَمُوَافَقَتَهُ مُوَافَقَتَهُ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قال أبو بكر بن طاهر: زَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا ﷺ بِزِينَةِ الرَّحْمَةِ؛ فَكَانَ كَوْنُهُ رَحْمَةً، وَجَمِيعُ شَمَائِلِهِ وَصِفَاتِهِ رَحْمَةً عَلَى الْخَلْقِ؛ فَمِنْ أَصَابِهِ شَيْءٌ مِنْ رَحْمَتِهِ فَهُوَ النَّاجِي فِي الدَّارَيْنِ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهِ، وَالْوَاصِلُ فِيهِمَا إِلَى كُلِّ مَحْبُوبٍ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؛ فَكَانَتْ حَيَاتُهُ رَحْمَةً، وَمَمَاتُهُ رَحْمَةً.

٦ - كما قال عليه السلام: «حياتي خير لكم وموتي خير لكم».

٧ - وكما قال عليه الصلاة والسلام: «إذا أراد الله رحمةً بأمةٍ قبض نبيها قبلها فجعله لها قرطاً وسلفاً» [مسلم (٢٢٨٨)]. وقال السمرقندي رحمه الله: ﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾: يعني للإنس والجن.

وقيل: لجميع الخلق؛ للمؤمن رحمة بالهداية، ورحمة للمنافق بالأمان من القتل، ورحمة للكافر بتأخير العذاب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو رحمة للمؤمنين وللكافرين؛ إذ عوفوا مما أصاب غيرهم من الأمم المكذبة.

٨ - وحكي أن النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام: «هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟» قال: «نعم؛ كنت أخشى العاقبة فأمنتُ لِإِثْنَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيَّ بقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٦١﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٦٢﴾﴾» [التكوير: ٢٠، ٢١].

وروي عن جعفر بن محمد الصادق في قوله تعالى: ﴿سَأَلْتُكَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْآيِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الواقعة: ٩١] أي بك؛ إنما وقعت سلامتهم من أجل كرامة محمد ﷺ.

وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَضَرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلُ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥].

قال كعب، وابن جبير: المراد بالنور الثاني - هنا - محمد عليه السلام. وقوله تعالى: ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾ أي: نور محمد ﷺ.

وقال سهل بن عبد الله: المعنى: الله هادي أهل السموات والأرض؛ ثم قال: مثل نور محمد إذ كان مستودعاً في الأصلاب كمشكاة صفتها كذا؛ وأراد بالمصباح: قلبه، وبالزجاجة صدره؛ أي كأنه كوكب دري لما فيه من الإيمان والحكمة ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ أي: من نور إبراهيم. وضرب المثل بالشجرة المباركة.

وقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ أي: تكاد نبوة محمد ﷺ تبين للناس قبل كلامه كهذا الزيت.

وقد قيل في هذه الآية غير هذا. والله أعلم.

وقد سماه تعالى في القرآن في غير هذا الموضع نوراً، وسراجاً منيراً؛ فقال

تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ④٥ ودَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ④٦﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ② الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ③ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ④ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑤ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑥ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ⑦ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ⑧﴾ [الشرح].

شَرَحَ: وَسَّعَ. والمراد بالصُّدْر هنا: القلب. قال ابنُ عباس: شرحه بالإسلام.

وقال سَهْلٌ: بنور الرسالة.

وقال الحسن: مَلَأَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا.

وقيل: معناه ألم نُظْهِرْ قلبك حتى لا يؤذيك الوسواس؟

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ① الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ②﴾ قيل: ما سلف من ذَنْبِكَ، يعني: قبل النبوة.

وقيل: أراد يُقَلِّ أيام الجاهلية.

وقيل: أراد ما أثقل ظَهْرَهُ من الرسالة حتى بلغها. حكاه الماوردي والسُّلَمِيُّ.

وقيل: عَصَمْنَاكَ، ولولا ذلك لأثقلت الذنوبُ ظَهْرَكَ؛ حكاه السَّمَرْقَنْدِيُّ.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ①﴾ قال يحيى بن آدم: بالنبوة وقيل: إذا ذُكِرَتْ ذُكِرَتْ معي، قَوْلٌ: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وقيل: في الأذان.

قال الفقيه القاضي أبو الفضل رحمه الله: هذا تقريرٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ اسْمُهُ لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى عَظِيمِ نِعْمِهِ لَدَيْهِ، وَشَرِيفِ مَنَزَلَتِهِ عِنْدَهُ، وَكَرَامَتِهِ عَلَيْهِ؛ بَأَن شَرَحَ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ وَالْهُدَايَةِ، وَوَسَّعَهُ لَوَغْيِ الْعِلْمِ، وَحَمَلَ الْحِكْمَةَ، وَرَفَعَ عَنْهُ ثِقَلِ أُمُورِ الْجَاهِلِيَةِ عَلَيْهِ، وَبَغَضَهُ لِسَيِّئِهَا، وَمَا كَانَتْ عَلَيْهِ بظهور دِينِهِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَحَطَّ عَنْهُ عَهْدَةُ أَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ وَالنَّبُوَّةِ لِتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَتَنَوِيهِهِ بِعَظِيمِ مَكَانِهِ، وَجَلِيلِ رُتَبَتِهِ، وَرَفَعَهُ ذِكْرَهُ، وَقَرَّانِهِ مَعَ اسْمِهِ اسْمَهُ.

قال قَتَادَةُ: رفع اللُّهُ ذِكْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلَيْسَ خَطِيبٌ وَلَا مَتَشَهِّدٌ وَلَا صَاحِبُ صَلَاةٍ إِلَّا يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.

٩ - وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَنَا نَبِيٌّ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ

السلام، فقال: إن ربي وربك يقول: تَذَرِي كَيْفَ رَفَعْتَ ذِكْرَكَ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَغْلَمَ. قال: إِذَا ذُكِرْتَ ذُكِرْتُ مَعِي.

قال ابن عطاء: جعلتُ تمام الإيمان بِذِكْرِي معك.

وقال أيضاً: جعلتُك ذكراً من ذكري، فَمَنْ ذَكَرَكَ ذَكَرَنِي.

وقال جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقُ: لا يذكرك أحد بالرسالة إلا ذكرني بالربوبية.

وأشار بعضهم في ذلك إلى الشفاعة.

وَمِنْ ذَكَرَهُ مَعَهُ تَعَالَى أَنْ قَرَنَ طَاعَتَهُ بِطَاعَتِهِ وَاسْمَهُ بِاسْمِهِ؛ فَقَالَ تَعَالَى:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]. و ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحديد: ٧]؛

فجمع بينهما بواو العطف المُشْرَكة.

ولا يجوز جَمْعُ هذا الكلام في غير حقّه عليه السلام.

١٠ - حدثنا الشيخ أبو علي: الحسين بن محمد الجبائي الحافظ فيما

أجازنيه، وقرأته على الثقة عنه؛ قال: حدثنا أبو عَمَرَ التَّمَرِيُّ؛ قال: حدثنا أبو

محمد بن عبدالمؤمن، حدثنا أبو بكر بن داسة، حدثنا أبو داود السُّجَزِيُّ، حدثنا

أبو الوليد الطيالسي، حدثنا شعبة، عن منصور، عن عبد الله بن يسار، عن

حَدِيقَةَ، عن النبي ﷺ: قال: «لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ ما شاءَ اللهُ وشاءَ فلان، ولكن ما

شاءَ اللهُ، ثم شاءَ فلان» [أبو داود (٤٩٨٠)، أحمد (٣٨٤/٥)].

قال الخطابي. أرشدهم ﷺ إلى الأدب في تقديم مشيئة الله تعالى على

مشيئة مَنْ سِوَاهُ، واختارها بـ «ثم» التي هي للئسق والتراخي، بخلاف «الواو» التي

هي للاشتراك.

١١ - ومثله الحديث الآخر: إن خطيباً خطب عند النبي ﷺ، فقال: مَنْ

يُطِيعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشِدَ، وَمَنْ يَعْصِيهِمَا. فقال له النبي ﷺ: «بُشِّنْ خُطِيبُ

القوم أنت! قُمْ» أو قال: «اذهب» [أبو داود (٤٩٨١)، النسائي (٩٠/٦)]. قال أبو

سليمان: كَرِهَ مِنْهُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأَسْمَيْنِ بِحَرْفِ الْكِنَايَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّسْوِيَةِ.

وذهب غَيْرُهُ إِلَى أَنَّهُ إِنَّمَا كَرِهَ لَهُ الْوُقُوفَ عَلَى «يَعْصِيهِمَا».

١٢ - وقول أبي سليمان أَصَحُّ؛ لِمَا رُوي فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ:

«وَمَنْ يَعْصِيهِمَا فَقَدْ غَوَى» [مسلم (٨٧٠)]، وَلَمْ يَذْكُرِ الْوُقُوفَ عَلَى «يَعْصِيهِمَا».

وقد اختلف المفسرون وأصحاب المعاني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ

يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]؛ هَلْ «يُصَلُّونَ» رَاجِعَةٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْمَلَائِكَةِ

أَمْ لَا؟

فأجازه بعضهم، ومنعه آخرون، لعلَّ التشريك، وخصُّوا الضمير بالملائكة؛
وقدروا الآية: إِنَّ اللَّهَ يَصْلِي، وملائكته يصلون.

١٣ - وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: مِنْ فَضِيلَتِكَ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ
جَعَلَ طَاعَتَكَ طَاعَتَهُ؛ فقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].
وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٣] قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾
[آل عمران: ٣١، ٣٢].

١٤ - وروى أنه لما نزلت هذه الآية قالوا: إِنَّ مُحَمَّدًا يَرِيدُ أَنْ تَتَّخِذَهُ خَنَانًا
كما اتخذت النصارى عيسى، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل
عمران: ٣٢] فقرن طاعته بطاعته رغماً لهم.

١٤ - وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى في أم الكتاب: ﴿أَهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ [الفاتحة: ٦، ٧] فقال أبو
العالية، والحسن البصري: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هو رسول الله ﷺ، وخيار أهل
بيته، وأصحابه؛ حكاها عنهما أبو الحسن الماوردي، وحكى مكي عنهما نحوه؛
وقال: هو رسول الله ﷺ وصاحبه: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وحكى أبو الليث السمرقندي مثله، عن أبي العالوية، في قوله تعالى:
﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ قال: فبلغ ذلك الحسن؛ فقال: صدق والله!
ونصح.

وحكى الماوردي ذلك في تفسير: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، عن
عبد الرحمن بن زيد.

وحكى أبو عبد الرحمن السلمي، عن بعضهم، في تفسير قوله تعالى:
﴿فَقَدْ اسْتَسَمَكَ بِالْمَعْرُوفِ الْأَوْفَى لَا انفصامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦] أنه محمد
عليه السلام.

وقيل: الإسلام.

وقيل: شهادة التوحيد.

وقال سهل في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]
قال: نعمته بمحمد عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ② لَهُمْ
مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ [الزمر: ٣٣، ٣٤].

أَكْثَرُ الْمَفْسِرِينَ عَلَى أَنَّ الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ .
وقال بعضهم: وهو الذي صدَّق به .

وقرىء: صدَّق، بالتخفيف .

وقال غيرهم: الذي صدَّق به المؤمنون .

وقيل: أبو بكر . وقيل: عليٌّ . وقيل غير هذا من الأقوال .

١٥ - وعن مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

[الرعد: ٢٨] قال: بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ .

الفصل الثاني

فِي وَضْفِهِ لَهُ تَعَالَى بِالشَّهَادَةِ

وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الثَّنَاءِ وَالكَرَامَةِ

قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وداعياً
إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] .

جمع الله تعالى في هذه الآية ضروباً من رُتَبِ الأثرية، وَجُمْلَةً أوصاف من
المُدْحَةِ؛ فجعله شاهداً على أُمَّتِهِ لِنَفْسِهِ بِإِبْلَاغِهِمُ الرِّسَالَةَ؛ وهي من خصائصه عليه
السلام ومُبَشِّراً لِأَهْلِ طَاعَتِهِ؛ وَنَذِيرًا لِأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ، وداعياً إِلَى تَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ؛
وَسِرَاجًا مُنِيرًا يُهْتَدَى بِهِ لِلْحَقِّ .

١٦ - حدثنا الشيخ أبو محمد بن عتَّاب رحمه الله قال: حدثنا أبو القاسم
حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن القاسمي، حدثنا أبو زيد المروزي، حدثنا أبو
عَبْدِ اللَّهِ: محمد بن يوسف، حدثنا البخاري، حدثنا محمد بن سنان، حدثنا
فُلَيْح، حدثنا هلال، عن عطاء بن يسار، قال: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ
العاص، قلتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قال: أَجَلٌ، وَاللَّهِ! إِنَّهُ
لَمَوْصُوفٌ فِي الثُّورَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا
وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) [الأحزاب: ٤٥]، وَحِزْزاً لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي،
سَمِيْتُكَ الْمَتَوَكَّلَ، لَيْسَ بَقَطٍّ، وَلَا غَلِيطٌ، وَلَا صَخَابٌ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ
بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يَقِيمَ بِهِ الْمِيزَةَ الْعَوْجَاءَ،
بَأَن يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُْمِيًّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا .
[البخاري (٢١٢٥)] .

١٧ - وَذَكَرَ مِثْلَهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ [البخاري (٢١٢٥)] .

١٨ - وَكَفِبِ الْأَحْبَارِ [أحمد (١٧٤/٢)].

١٩ - وَفِي بَعْضِ طُرُقِهِ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ: وَلَا صَخِبَ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا مُتَزِينَ بِالْفُحْشِ، وَلَا قَوَالَ لِلْحَنَاءِ؛ أَسَدُّهُ لِكُلِّ جَمِيلٍ، وَأَهْبُ لَهُ كُلُّ خَلْقٍ كَرِيمٍ، وَأَجْعَلُ السَّكِينَةَ لِبَاسِهِ، وَالْبِرَّ شِعَارَهُ، وَالتَّقْوَى ضَمِيرَهُ، وَالْحِكْمَةَ مَقْغُولَهُ، وَالصَّدْقَ وَالْوَفَاءَ طَبِيعَتَهُ، وَالْعَفْوَ وَالْمَعْرُوفَ خُلُقَهُ، وَالْعَدْلَ سِيرَتَهُ، وَالْحَقَّ شَرِيعَتَهُ، وَالْهَدْيَ إِمَامَتَهُ، وَالْإِسْلَامَ مِلَّتَهُ، وَأَخَمَدَ اسْمَهُ، أَهْدَى بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ، وَأَعْلَمَ بِهِ بَعْدَ الْجَهَالَةِ، وَأَرْفَعَ بِهِ بَعْدَ الْخَمَالَةِ، وَأَسَمَّى بِهِ بَعْدَ التُّكْرَةِ، وَأَكْثَرُ بِهِ بَعْدَ الْقِلَّةِ، وَأَغْنَى بِهِ بَعْدَ الْعَيْلَةِ، وَأَجْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْفُرْقَةِ، وَأَوَّلَفَ بِهِ بَيْنَ قُلُوبٍ مُخْتَلَفَةٍ، وَأَهْوَأَ مَشْتَبَةً، وَأَمَمٌ مُتَّفَقَةً، وَأَجْعَلُ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ.

٢٠ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: أَخْبَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ صِفَتِهِ فِي الثَّوْرَةِ: «عَبْدِي أَحْمَدُ الْمُخْتَارُ، مَوْلَدُهُ بِمَكَّةَ، وَمُهَاجِرُهُ بِالْمَدِينَةِ - أَوْ قَالَ: طَبِيعَةُ - أُمَّتُهُ الْحَمَادُونَ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَدْعُونَكَ مَكَتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَمَّا جَاءَكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧، ١٥٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِّنْ اللَّهِ فَلَئِنْ لَأُفْضِلَنَّ إِلَىٰ خَوْلَاءٍ فَأَعْفَ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قَالَ السَّمَرَقَنْدِيُّ: ذَكَرَهُمُ اللَّهُ مِنْتَهُ أَنَّهُ جَعَلَ رَسُولَهُ رَحِيمًا بِالْمُؤْمِنِينَ، رُؤُوفًا لِّبَنِ الْجَانِبِ، وَلَوْ كَانَ فَظًا خَشِينًا فِي الْقَوْلِ لَتَفَرَّقُوا مِنْ حَوْلِهِ، وَلَكِنْ جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى سَمْحًا، سَهْلًا طَلَقًا بَرًّا لَطِيفًا. هَكَذَا قَالَهُ الضَّحَّاكُ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْقَاسِمِيُّ: أَبَانَ اللَّهُ تَعَالَى فَضْلَ نَبِيِّنا ﷺ، وَفَضْلَ أُمَّتِهِ بِهِذِهِ

الآية، وفي قوله في الآية الأخرى: ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وقوله تعالى: وَسَطًا: أي عدلاً خياراً.

ومعنى هذه الآية: وكما هديتكم فكذلك خصصناكم وفضلناكم بأن جعلناكم أمة خياراً عدولاً؛ لتشهدوا للأنبياء عليهم السلام على أمتهم، ويشهد لكم الرسول بالصدق.

٢١ - وقيل: إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ إِذَا سَأَلَ الْأَنْبِيَاءَ: هَلْ بَلَّغْتُمْ؟ فيقولون: نَعَمْ. فتقول أمتهم: ما جاءنا من بشير ولا نذير؛ فتشهد أمة محمد ﷺ للأنبياء؛ ويُرَكِّبُهُمُ النَّبِيُّ ﷺ [البخاري (٣٣٣٩)].

وقيل: معنى الآية: إنكم حجة على كل من خالفكم، والرسول حجة عليكم. حكاه السمرقندي.

وقال الله تعالى: ﴿وَكَثِيرَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]. قال قتادة، والحسن، وزيد بن أسلم: ﴿قَدَمٌ صِدْقٍ﴾: هو محمد ﷺ، يشفع لهم.

وعن الحسن أيضاً قال: هي مصيبتهم بنيهم.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: هي شفاعَةُ نبيهم محمد ﷺ، هو شفيع صديق عند ربهم.

وقال سهل بن عبد الله التستري: هي سابقة رحمة أودعها الله في محمد ﷺ.

وقال محمد بن علي الترمذي: هو إمام الصادقين والصدّيقين، الشفيع المطاع، والسائل المجاب، محمد ﷺ، حكاه عنه السلمي.

الفصل الثالث

فِيمَا وَرَدَ فِي خُطَابِهِ إِيَّاهُ مَوْرِدَ الْمُلَاطَفَةِ وَالْمَبَرَّةِ

من ذلك قوله تعالى: ﴿عَمَّا أَثَبَّ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهْ﴾ [التوبة: ٤٣].

قال أبو محمد: مَكِّي: قيل: هذا افتتاح كلام بمنزلة: أصلحك الله، وأعزك الله. وقال عون بن عبد الله: أخبره بالعفو قبل أن يُخبره بالذنب.

وحكى السَّمَرْقَنْدِي عن بعضهم أَنَّ معناه: عافاك الله، يا سليم القلب! لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ؟

قال: ولو بدأ النبي ﷺ بقوله: ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ؟﴾ لَخِيفَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْشُقَّ قَلْبُهُ مِنْ هَيْبَةِ هَذَا الْكَلَامِ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ أَخْبَرَهُ بِالْعَفْوِ حَتَّى سَكَنَ قَلْبُهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ بِالتَّخَلُّفِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الصَّادِقُ فِي عُذْرِهِ مِنَ الْكَاذِبِ؟ وَفِي هَذَا مِنْ عَظِيمِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ مَا لَا يَخْفَى عَلَى ذِي لُبٍّ.

وَمِنْ إِكْرَامِهِ إِيَّاهُ وَبَرَّهُ بِهِ مَا يَنْقَطِعُ - دُونَ مَعْرِفَةِ غَايَتِهِ - نِيَاطُ الْقَلْبِ. قَالَ نَفْطَوْنَهُ: ذَهَبَ نَاسٌ إِلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُعَاتَبٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَحَاشَاكَ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ كَانَ مُخَيَّرًا فَلَمَّا أَذِنَ لَهُمْ أَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَأْذُنْ لَهُمْ لَقَعَدُوا لِنَفَاقِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِي الْإِذْنِ لَهُمْ.

قال القاضي أبو الفضل - رحمه الله -: يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ الْمَجَاهِدَ نَفْسَهُ، الرَّائِضَ بِزِمَامِ الشَّرِيعَةِ خُلُقَهُ، أَنْ يَتَأَدَّبَ بِأَدَبِ الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، وَمُعَاطَاتِهِ وَمُحَاورَاتِهِ، فَهُوَ غُنْصُرُ الْمَعَارِفِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَرَوْضَةُ الْأَدَابِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، وَلِيَتَأَمَّلَ هَذِهِ الْمَلَاطِفَةَ الْعَجِيبَةَ فِي السُّؤَالِ مِنْ رَبِّ الْأَرْيَابِ، الْمُنْعِمِ عَلَى الْكُلِّ، الْمُسْتَعْنِي عَنِ الْجَمِيعِ، وَيَسْتَشِيرُ مَا فِيهَا مِنَ الْفَوَائِدِ، وَكَيْفَ ابْتَدَأَ بِالْإِكْرَامِ قَبْلَ الْعَنْبِ، وَأَنَسَ بِالْعَفْوِ قَبْلَ ذِكْرِ الذَّنْبِ، إِنْ كَانَ ثُمَّ ذَنْبٌ.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤)

[الإسراء: ٧٤].

قال بعض المتكلمين: عَاتَبَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بَعْدَ الزَّلَّاتِ، وَعَاتَبَ نَبِيَّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ وَقْعِهِ، لِيَكُونَ بِذَلِكَ أَشَدَّ انْتِهَاءً وَمَحَافَظَةً لَشَرَائِطِ الْمَحَبَّةِ، وَهَذِهِ غَايَةُ الْعِنَايَةِ.

ثُمَّ انْظُرْ كَيْفَ بَدَأَ بِبَيِّنَاتِهِ وَسَلَامَتِهِ قَبْلَ ذِكْرِ مَا عَتَبَهُ عَلَيْهِ وَخِيفَ أَنْ يَزْكَنَ إِلَيْهِ، فَفِي أَثْنَاءِ عَتَبِهِ بَرَاءَتُهُ، وَفِي طَيِّ تَخْوِيفِهِ تَأْمِينُهُ وَكَرَامَتُهُ.

ومثله قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذُّونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

٢٢ - قال علي رضي الله عنه: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إِنَّا لَا نُكَذِّبُكَ وَلَكِنْ نُكَذِّبُ مَا جِئْتَ بِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذُّونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] [الترمذي (٣٠٦٤)].

٢٣ - وَرَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا كَذَّبَهُ قَوْمُهُ حَزَنَ، فَجَاءَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فقال: ما يُخزِنُكَ؟ قال: «كَذَّبَنِي قَوْمِي» فقال: إِنَّهُمْ يَظْلُمُونَ أَنْكَ صَادِقٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْآيَةَ.

ففي هذه الآية مَنْزَعٌ لطيفٌ المآخذ، مِنْ تَسْلِيَةِ تَعَالَى لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالطَّافَهُ بِهِ فِي الْقَوْلِ، بِأَنْ قَرَّرَ عِنْدَهُ أَنَّهُ صَادِقٌ عِنْدَهُمْ، وَأَنَّهُمْ غَيَّرُوا مَكَذِبِينَ لَهُ، مُتَعَرِّفُونَ بِصَدَقَةِ قَوْلِهِ وَاعْتِقَادِهِ، وَقَدْ كَانُوا يُسَمُّونَهُ - قَبْلَ النُّبُوَّةِ - الْأَمِينُ، فَدَفَعَ بِهَذَا التَّقْرِيرِ اِزْتِمَاضَ نَفْسِهِ بِسَمَةِ الْكَذِبِ، ثُمَّ جَعَلَ الذَّمَّ لَهُمْ بِتَسْمِيَتِهِمْ جَاهِلِينَ ظَالِمِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ الْأَعْلَاءِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

فحاشاه من الوَضْمِ، وَطَوَّقَهُمْ بِالْمَعَانِدَةِ بِتَكْذِيبِ الْآيَاتِ حَقِيقَةِ الظُّلْمِ، إِذِ الْجَحْدُ إِنَّمَا يَكُونُ مِمَّنْ عَلِمَ الشَّيْءَ ثُمَّ أَنْكَرَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَصَوْا بِهَا وَاسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَظُلُورًا﴾ [النمل: ١٤].

ثُمَّ عَزَاهُ وَأَتَسَّهُ بِمَا ذَكَرَهُ عَمَّنْ قَبْلَهُ، وَوَعَدَهُ النَّصْرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيِّ الْأَرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

فَمَنْ قَرَأَ ﴿لَا يُكْذِبُوكَ﴾ بِالتَّخْفِيفِ، فَمَعْنَاهُ: لَا يَجِدُونَكَ كَاذِبًا. وَقَالَ الْفَرَّاءُ، وَالْكَسَائِيُّ: لَا يَقُولُونَ إِنَّكَ كَاذِبٌ.

وَقِيلَ: لَا يَخْتَجُونَ عَلَى كَذِبِكَ، وَلَا يُثْبِتُونَهُ.

وَمَنْ قَرَأَ بِالتَّشْدِيدِ فَمَعْنَاهُ: لَا يُثْبِتُونَكَ إِلَى الْكَذِبِ. وَقِيلَ: لَا يَعْتَقِدُونَ كَذِبَكَ.

وَمِمَّا ذَكَرَ مِنْ خُصَائِصِهِ، وَبَرَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَاطَبَ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ بِأَسْمَائِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: يَا آدَمُ! يَا نُوحُ! يَا إِبْرَاهِيمَ! يَا مُوسَى! يَا دَاوُدَ! يَا عِيسَى! يَا زَكَرِيَّا! يَا يَحْيَى! وَلَمْ يَخَاطَبْهُ هُوَ إِلَّا: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ! يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ! يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُ! يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ!

الفصل الرابع

فِي قِسْمِهِ تَعَالَى بِعَظِيمِ قُدْرِهِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَعَنَّاكَ إِنَّمَا لَفَى سَكَرَتِهِمْ يَمَّهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

اتَّفَقَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فِي هَذَا أَنَّهُ قَسَمٌ مِنَ اللَّهِ - جَلَّ جَلَالُهُ - بِمُدَّةِ حَيَاةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَصْلُهُ ضَمُّ الْعَيْنِ، مِنَ الْعُمُرِ، وَلَكِنَّهَا فُتِحَتْ لِكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ. وَمَعْنَاهُ: وَبِقَاتِكَ! يَا مُحَمَّدًا! وَقِيلَ: وَغَيْثِكَ! وَقِيلَ: وَحَيَاتِكَ!

وَهَذِهِ نِهَايَةُ التَّعْظِيمِ، وَغَايَةُ الْبِرِّ وَالتَّشْرِيفِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ

عنهما: ما خلق الله تعالى، وما ذَرَأَ، وما بَرَأَ نفساً - أكرمَ عليه مِن محمد ﷺ،
وما سمعتُ الله تعالى أقسم بحياة أحدٍ غيره.

وقال أبو الجوزاء: ما أقسم الله تعالى بحياة أحدٍ غير محمد ﷺ، لأنه أكرمُ
البرية عنده.

وقال تعالى: ﴿يَسَّ ۝ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ۝﴾... ﴿الآيات [يس: ١، ٢].

اختلف المُفسِّرون في معنى ﴿يَسَّ ۝﴾ على أقوال:

٢٤ - فحكى أبو محمد، مكي: أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لي عند
رَبِّي عَشْرَةُ أَسْمَاءٍ ذكرَ أَنَّ منها: ﴿طه﴾ و ﴿يس﴾، اسمانِ له.
وحكى أبو عبدالرحمن السلمي، عن جعفر الصادق - رحمه الله تعالى - أنه
أراد: يا سيِّد! مخاطبةً لنبية ﷺ.

وعن ابن عباس ﴿يَسَّ ۝﴾ يا إنسان! أرادَ محمداً ﷺ.

وقال: هو قَسَمٌ، وهو من أسماء الله تعالى.

وقال الزجاج: قيل: معناه يا محمد! وقيل: يا رَجُل! وقيل: يا إنسان!

وعن ابن الحنفية: ﴿يَسَّ ۝﴾: يا محمد!

وعن كعب: ﴿يَسَّ ۝﴾ قَسَمٌ أقسم الله تعالى به قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاءَ
وَالْأَرْضَ بِالْقَسَمِ عام: يا محمداً! إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين. ثم قال: ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ
۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [يس: ٢، ٣].

فإن قُدِّرَ أنه من أسمائه ﷺ، وَصَحَّ فيه أنه قَسَمٌ، كان فيه من التعظيم ما
تَقَدَّمَ، ويؤكدُ فيه القَسَمُ عطفُ القَسَمِ الآخرِ عليه، وإن كان بمعنى النداء فقد جاء
قَسَمٌ آخر بعده لتحقيقِ رسالته، والشهادة بهديته. أقسم الله تعالى باسمه وكتابه إنه
لَمِنَ المرسلين بوحيه إلى عباده، وعلى صراطٍ مستقيم من إيمانه، أي طريق لا
اغْوِجَاجَ فيه، ولا غُدُولَ عن الحق.

قال الثَّقَافُ: لم يُقسَمِ الله تعالى لأحدٍ من أنبيائه بالرسالة في كتاب إلا له،
وفيه مِن - تَعْظِيمِهِ وَتَمْجِيدِهِ - على تأويل مَنْ قال: أنه يا سيِّد! ما فيه.

٢٥ - وقد قال عليه السلام: «أنا سيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فخر» [مسلم (٢٢٧٨)].

وقال تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝﴾ [البلد: ١، ٢].

قيل: لا أَقْسِمُ به إذا لم تكن فيه بعد خُروجِكَ منه، حكاة مكي.

وقيل: (لا) زائدة؛ أي أقسم به وأنتَ به يا محمداً حَلَالٌ. أو حِلٌّ لَكَ ما

فَعَلْتَ فيه على التفسيرين.

والمراد بالبلد عند هؤلاء: مكة.

وقال الواسطي: أي تخلف لك بهذا البلد الذي شرفته بمكانك فيه حياً، وبركتك مَيِّتاً، يَغْنِي: المدينة.

والأول أصح؛ لأنَّ السورة مكية، وما بعده يُصَحِّحُه قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البعد: ٢].

ونحوه قول ابن عطاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣] قال: آمنها الله تعالى بمقامه فيها وكونه بها، فإنَّ كونه أماناً حيث كان.

ثم قال تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البعد: ٣] ومن قال: أراد آدم فهو عام؛ ومن قال: هو إبراهيم وما ولد فهي - إن شاء الله - إشارة إلى محمد ﷺ، فتضمن السورة القسم به - عليه السلام - في موضعين.

قال تعالى: ﴿الْم﴾ [١] ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ [البقرة: ١، ٢].

قال ابن عباس: هذه الحروف أقسام، أقسم الله تعالى بها. وعنه وعن غيره فيها غير ذلك.

وقال سهل بن عبد الله التستري: الألف: هو الله تعالى. واللام: جبريل. والميم: محمد عليهما السلام.

وحكى هذا القول السمرقندي، ولم ينسبه إلى سهل، وجعل معناه: الله أنزل جبريل على محمد بهذا القرآن لا ريب فيه، وعلى الوجه الأول يحتمل القسم أنَّ هذا الكتاب حق لا ريب فيه، ثم فيه من فضيلته قرآن اسمه باسمه نحو ما تقدّم.

وقال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنَ الْيَجِيدَ﴾ [ق: ١]: أقسم بقوة قلب حبيبه محمد ﷺ حيث حمل الخطاب والمشاهدة ولم يؤثر ذلك فيه لغو حاله.

وقيل: هو اسم للقرآن. وقيل: هو اسم لله تعالى. وقيل: جبل محيط بالأرض. وقيل غير هذا.

وقال جعفر بن محمد في تفسير: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]: إنه محمد ﷺ، وقال: ﴿وَالنَّجْمِ﴾: قلب محمد ﷺ، ﴿هَوَىٰ﴾: انشرح من الأنوار. وقال: انقطع عن غير الله.

وقال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ [١] وَلَيْلٍ عَشْرِ [الفجر: ١، ٢] الفجر: محمد ﷺ لأنَّ منه تفجر الإيمان.

الفصل الخامس

في قسمه - تعالى جدّه - له، ليحقّق مكانته عنده

قال جلّ اسْمُهُ: ﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا
فَكَوَّمِي ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ⑧ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ⑨
وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪﴾ [الضحى: ١ - ١١] اختلف في
سبب نزول هذه السورة.

٢٦ - فقيل: كان ترك النبي ﷺ قيام الليل لغدر نزل به، فتكلّمت امرأة في
ذلك بكلام [البخاري (١١٢٥)، مسلم (١٧٩٧/١١٥)].

٢٧ - وقيل: بل تكلم به المشركون عند فترة الوحي، فنزلت هذه السورة
[الترمذي (٣٣٤٥)، البخاري (٢٨٠٢)].

قال القاضي الإمام أبو الفضل رحمه الله: تضمّنت هذه السورة من كرامة الله
تعالى له، وتثويبه به، وتعظيمه إياه ستّة وجوه:

الأول: القسّم له عما أخبره به من حاله بقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلُ
إِذَا سَجَىٰ ②﴾. أي وربّ الضحى، وهذا من أعظم درجات المبرّة.

الثاني: بيان مكانته عنده وحظوته لديه بقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا
قَلَىٰ ③﴾؛ أي: ما تركك وما أبغضك. وقيل: ما أهملك بعد أن اضطفأك.

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④﴾؛ قال ابن إسحاق:
أي مآلك في مرجعك عند الله أعظم ممّا أعطاك من كرامة الدنيا.

وقال سهل: أي ما أدخرت لك من الشفاعة والمقام المحمود خير لك ممّا
أعطيتك في الدنيا.

الرابع: قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤﴾.

وهذه آية جامعة لوجوه الكرامة، وأنواع السعادة، وشتات الإنعام في
الدارين، والزيادة.

قال ابن إسحاق: يُرضيه بالفلج في الدنيا، والثواب في الآخرة.

وقيل: يُعطيه الخوض والشفاعة.

٢٨ - ورؤي عن بعض آل النبي ﷺ أنه قال: ليس آية في القرآن أزجى
منها، ولا يرضى رسول الله ﷺ أن يَدْخُلَ أحدٌ من أمته النار.

الخامس: ما عدّه تعالى عليه من يعميه، وقرّره من آلائه قبله في بقية السورة؛ من هدايته إلى ما هداه له، أو هداية الناس به على اختلاف التفسير، ولا مال له؛ فأغناه الله بما آتاه، أو بما جعله في قلبه من القناعة والغنى، ويطمأنّ قلوبهم عليه عمه، وآواه إليه.

وقيل: آواه إلى الله. وقيل: يتيماً: لا مثال لك فأواك إليه. وقيل: المعنى: ألم يجدك فهدى بك ضالاً، وأغنى بك عائلاً، وآوى بك يتيماً، ذكره بهذه المثنى، وأنه - على المعلوم من التفسير - لم يهمله في حال صغره، وعيّلته، ويثمه، وقبل معرفته به، ولا ودّعه، ولا قلاه، فكيف بعد اختصاصه واصطفائه!

السادس: أمره بإظهار نعمته عليه، وشكره ما شرّفه به، بشكره، وإشادة ذكره بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]؛ فإن من شكر النعمة الحديث بها؛ وهذا خاص له، عام لأمة.

وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ١ ﴿مَا سَلَ صَلِّحُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ ٢ ﴿وَمَا يَطُّقُ عَنِ الْمَوَٰئِ ٣﴾ ٤ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ٥ ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ٦ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ ٧ ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ ٨ ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ ٩ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ ١٠ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ عَبْدِيهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ١١ ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ١٢ ﴿فَتَتَّبِعُونَهُ إِلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ ١٣ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ ١٤ ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ١٥ ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ ١٦ ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ ١٧ ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ ١٨ ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١ - ١٨].

اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ بأقوالٍ معروفة، منها النجم على ظاهره، ومنها القرآن.

وعن جعفر بن محمد؛ أنه محمد عليه السلام؛ وقال: هو قلب محمد. وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ وَالطَّارِقِ﴾ ١ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ٢ ﴿النَّجْمُ الطَّارِقُ﴾ ٣ [الطارق: ١ - ٣] إن النجم هنا أيضاً محمد ﷺ؛ حكاه السلمي. تضمّنت هذه الآيات من فضله وشرفه العبد ما يقف دونه العبد، وأقسم جلّ اسمه على هداية المصطفى، وتنزيهه عن الهوى، وصدقته فيما تلا، وأنه وحي يوحى أوصله إليه - عن الله - جبريل عليه السلام وهو الشديد القوى. ثم أخبر تعالى عن فضيلته بقصة الإسراء، وانتهائه إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وتصديق بصره فيما رأى، وأنه رأى من آيات ربّه الكبرى. وقد تبّه على مثل هذا تعالى في أول سورة الإسراء.

ولما كان ما كاشفهُ - عليه السلام - من ذلك الجبروت، وشاهدَهُ من عجائب المَلَكُوت لا تُحِيطُ به العبارات، ولا تستَقِلُّ بِحَمْلِ سَمَاعِ أَدْنَاهُ الْعُقُولُ، رَمَزَ عَنْهُ تَعَالَى بِالْإِيْمَاءِ وَالْكِنَايَةِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّعْظِيمِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأُوحِيَ إِلَيَّ عَنْهُ مَا أُوْحِي﴾ (١٧).

وهذا النوعُ من الكلام يُسَمِّيهِ أَهْلُ النِّقْدِ وَالْبَلَاغَةِ بِالْوَحْيِ وَالْإِشَارَةِ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَتْلُغُ أَبْوَابِ الْإِيْجَازِ.

وقال تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (١٨) انْحَسَرَتْ الْأَفْهَامُ عَنْ تَفْصِيلِ مَا أُوْحِيَ، وَتَاهَتْ الْأَحْلَامُ فِي تَعْيِينِ تِلْكَ الْآيَاتِ الْكُبْرَى.

قال القاضي الإمام أبو الفضل رحمه الله: اشتملت هذه الآياتُ على إعلَامِ اللَّهِ تَعَالَى بِتَزْكِيَةِ جُمْلَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعِضْمَتِهَا مِنَ الْآفَاتِ فِي هَذَا الْمَسْرُوعِ، فَزَكَّى فَوَادَهُ وَلِسَانَهُ وَجَوَارِحَهُ:

فَرَكَّى قَلْبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (١٩). وَلِسَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَطْقُ عَنْ أَلْفَوْى﴾ (٢٠). وَيَصْرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (٢١).

وقال تَعَالَى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْخَنَسِ﴾ (٢٢) الْجَوَارِ الْكُنَسِ (٢٣) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (٢٤) وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ (٢٥) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٢٦) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٧) مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ (٢٨) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٩) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْيُسْنِ (٣٠) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٣١) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ (٣٢) [التكوير: ١٥ - ٢٥].

﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾: أَي أَقْسَمُ. ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾: أَي كَرِيمٍ عِنْدَ مَرْسَلِهِ. ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾: عَلَى تَبْلِيغِ مَا حَمَلَهُ مِنَ الْوَحْيِ، ﴿مَكِينٍ﴾: أَي مَتَمَكِّنُ الْمُنْزَلَةِ مِنْ رَبِّهِ، رَفِيعُ الْمَحَلِّ عِنْدَهُ، ﴿مُطَاعٌ ثَمَّ﴾: أَي فِي السَّمَاءِ. ﴿أَمِينٍ﴾: عَلَى الْوَحْيِ.

قال علي بن عيسى وغيره: الرَسُولُ الْكَرِيمُ - هُنَا - مُحَمَّدٌ ﷺ. فَجَمِيعُ الْأَوْصَافِ بَعْدَ عَلَى هَذَا لَهُ.

وقال غيره: هُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَتَرْجِعُ الْأَوْصَافُ إِلَيْهِ. ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾: يَعْنِي مُحَمَّدًا. قِيلَ: رَأَى رَبَّهُ. وَقِيلَ: رَأَى جَبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾، أَي: بِمُتَّهَمٍ. وَمَنْ قَرَأَهُ بِالضَّادِ فَمَعْنَاهُ: مَا هُوَ بِيَخِيلٍ بِالْإِدْعَاءِ بِهِ، وَالتَّذْكِيرِ بِحُكْمِهِ وَبِعِلْمِهِ، وَهَذِهِ لِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِاتِّفَاقٍ.

وقال تَعَالَى: ﴿تَوَّالْفَاقِرِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (٣٣) مَا أَنْتَ بِمُعْتَدٍ لِّكَ بِمَجْنُونٍ (٣٤) وَإِنَّ لَكَ

لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَبِّحْهُ وَبَسِّمِ لَهُ ۖ بِأَيِّتِكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٦﴾ فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٧﴾ وَدُّوا أَنْ تُدَّخِنَ فَيُدْهِنُونَ ﴿٨﴾ وَلَا تَطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مِّمَّهِينَ ﴿٩﴾ هَكَازِ مَشَّامٍ بِنِسْمِ ﴿١٠﴾ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٍ ﴿١١﴾ عَثَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٢﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٣﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾ سَنَسِفُهُ عَلَى الزُّطُورِ ﴿١٥﴾ [القلم: ١ - ١٦].

أقسم الله تعالى بما أقسم به من عظيم قسمه على تنزيه المصطفى بما غمضته الكفرة به، وتكذيبهم له، وآتسه، وبسط أمله بقوله - محسناً خطاباً به -: ﴿مَا أَنْتَ بِعَمَلِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢].

وهذه نهاية المبرة في المخاطبة، وأعلى درجات الآداب في المحاوراة؛ ثم أعلمه بما له عنده من نعيم دائم، وثواب غير منقطع، لا يأخذه عدو، ولا يمتن به عليه؛ فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ٣].

ثم أثنى عليه بما منحه من هباته، وهذه إلية، وأكد ذلك تسميماً للتمجيد، بحزفي التأكيد؛ فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. قيل: القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: الطبع الكريم. وقيل: ليس لك همة إلا الله.

قال الواسطي: أثنى عليه بحسن قبوله لما أسداه إليه من نعمه، وفصله بذلك على غيره؛ لأنه جبله على ذلك الخلق فسبحان اللطيف الكريم، المحسن الجواد الحميد، الذي يسر للخير وهدي إليه، ثم أثنى على فاعله؛ وجازاه عليه؛ سبحانه، ما أغمر نواله! وأوسع إفضاله! ثم سلاه عن قولهم بعد هذا بما وعده به من عقابهم، وتوعدهم بقوله ﴿فَسَبِّحْهُ وَبَسِّمِ لَهُ ۖ بِأَيِّتِكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥]. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٦﴾ [القلم: ٥ - ٧].

ثم عطف بعد مدحه على ذم عدوه، وذكر سوء خلقه، وعد معاييه، متولياً ذلك بفضل، ومُنتصراً لنبيه؛ فذكر بضع عشرة خضلة من خصال الذم فيه بقوله: ﴿فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨]. وَدُّوا أَنْ تُدَّخِنَ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تَطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مِّمَّهِينَ ﴿١٠﴾ هَكَازِ مَشَّامٍ بِنِسْمِ ﴿١١﴾ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٍ ﴿١٢﴾ عَثَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ [القلم: ٨ - ١٥].

ثم ختم ذلك بالوعيد الصادق لتمام شقائه، وخاتمة بواره بقوله: ﴿سَنَسِفُهُ عَلَى الزُّطُورِ﴾ [القلم: ١٦]. فكانت نضرة الله له أتم من نصرته لنفسه، وردّه تعالى على عدوه أبلغ من ردّه، وأثبت في ديوان مجده.

الفصل السادس

في ما وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي جِهَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْرِدَ الشَّفَقَةِ وَالْإِكْرَامِ

قال تعالى: ﴿طه﴾ ① مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ② [طه: ١، ٢].

قيل: ﴿طه﴾: اسم من أسمائه عليه السلام، وقيل: هو اسم الله، وقيل: معناه يا رجل! وقيل: يا إنسان! وقيل: هي حروف مُقَطَّعة لِمَعَانٍ.

وقال الواسطي: أراد: يا طاهر! يا هادي! وقيل: هو أمر من الوطء. والهاء كناية عن الأرض. أي: اعتمد على الأرض بقدميك، ولا تَتَّعِبْ نَفْسَكَ بِالاعْتِمَادِ عَلَى قَدَمٍ وَاحِدَةٍ، وهو قوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ ②.

نزلت الآية فيما كان النبي ﷺ يتكلفه من السَّهَرِ والتعب وقيام الليل.

٢٩ - أخبرنا القاضي أبو عبد الله: محمد بن عبد الرحمن، وَغَيْرُ وَاحِدٍ، عن القاضي أبي الوليد الباجي إجازة، ومن أضله نقلت؛ قال: حدثنا أبو ذَرٍّ الحافظ، قال: حدثنا أبو محمد الحَمَوِيُّ، حدثنا إبراهيم بن خُزَيْمٍ الشَّاشِي قال: حدثنا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، حدثنا هاشم بن القاسم، عن أبي جعفر، عن الربيع بن أنس؛ قال: كان النبي ﷺ إِذَا صَلَّى قَامَ عَلَى رِجْلِ وَاحِدَةٍ وَرَفَعَ الْآخَرَى؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿طه﴾ يعني: طَا الْأَرْضَ، يا محمدا! ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ ② إِلَّا نَذْكُرَكَ لِمَنْ يَخْشَى ③ تَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْأُولَى ④ [طه: ٢ - ٤].

ولا خفاء بما في هذا كله من الإكرام وحسن المعاملة.

وإن جعلنا ﴿طه﴾ من أسمائه عليه السلام كما قيل، أو جعلت قَسَمًا لِحَقِّ الْفَضْلِ بما قبله.

ومثل هذا من نَمَطِ الشَّفَقَةِ وَالْمَبَرَّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا كَ بَخِغْ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ⑤ [الكهف: ٦] أي: قاتل نفسك لذلك غَضَبًا، أو غِيظًا، أو جَزَعًا.

ومثله قَوْلُهُ تَعَالَى أَيْضًا: ﴿لَمَّا كَ بَخِغْ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ⑥ [الشعراء: ٣].

ثم قال: ﴿إِنْ لَمْ تُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خُصِعِينَ﴾ ⑦ [الشعراء: ٤].

ومِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ⑧ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ⑨ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ⑩ وَلَقَدْ نَمَرُ أَنَّكَ يَنْفِيكَ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ⑪ [الحجر: ٩٤ - ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُوا بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

قال مكي: سلاه الله تعالى بما ذكر، وهون عليه ما يلقي من المشركين، وأعلمه أن من تهادى على ذلك يحل به ما حل بمن قبله. ومثل هذه التسلية قوله تعالى: ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك﴾ [فاطر: ٤].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاهِرٌ أَوْ جُنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

عزاه الله تعالى بما أخبره به عن الأمم السالفة ومقاليها لأنبيائهم قبله، ومخنتهم بهم؛ وسلاه بذلك عن محنته بمثله من كفار مكة، وأنه ليس أول من لقي ذلك، ثم طيب نفسه، وأبان عذره بقوله تعالى ﴿فَنَوَّلَهُمْ﴾ [الذاريات: ٥٤] أي: أغرض عنهم؛ ﴿فَمَا أَنت بِمَلُومٌ﴾ [الذاريات: ٥٤] أي: في أداء ما بليغت وإبلاغ ما حملت.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] أي: اصبر على أذاهم، فإنك بحيث نراك ونحفظك. سلاه الله تعالى بهذا في أي كثيرة من هذا المعنى.

الفصل السابع

في ما أخبر الله تعالى به في كتابه العزيز من عظيم قدره
وشريف منزلته على الأنبياء وحظوة رتبته

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال أبو الحسن القاسبي: استخص الله تعالى محمدا ﷺ بفضل لم يؤته غيره، أبانه به، وهو ما ذكره في هذه الآية؛ قال المفسرون: أخذ الله الميثاق بالوحي، فلم يبعث نبياً إلا ذكر له محمداً ونعته وأخذ عليه ميثاقه إن أدركه ليؤمن به.

وقيل: أن يؤمنه لقومه، وبأخذ ميثاقهم أن يؤمنوه لمن بعدهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾: الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين لمحمد ﷺ.

٣٠ - قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لم يبعث الله نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ﷺ، لئِنْ بُعِثَ - وهو حي - ليؤمننَّ به ولينصُرَنَّهُ، ويأخذ العهد بذلك على قومه.

ونحوه عن السُّدي وقَتادة، في آي تضمنت فضله من غير وجه واحد. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا﴾ [١١٣] وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا [١١٤] رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا [١١٥] لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ يُعَلِّمُوكَ وَيَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا [١١٦] [النساء: ١٦٣ - ١٦٦].

٣١ - وزوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في كلام بكى به النبي ﷺ، فقال: بأبي أنت وأمي، يا رسول الله! لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء، وذكرك في أولهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودُّون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون: ﴿يَلَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

٣٢ - قال قَتادة: إن النبي ﷺ قال: «كُنْتُ أَوَّلَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْخَلْقِ، وَآخِرُهُمْ فِي الْبَغْيِ»، فلذلك وقع ذكره مقدماً هنا قبل نوح وغيره.

قال السَّمَرْقَنْدي: في هذا تفضيل نبينا - عليه السلام - لتخصيصه في الذكر قبلهم، وهو آخرهم.

المعنى: أخذ الله تعالى عليه الميثاق، إذ أخرجهم من ظهر آدم كالذَّر. وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ قَضَلْنَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا

أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا ﴿البقرة: ٢٥٣﴾.

قال أهل التفسير: أراد بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] محمداً ﷺ؛ لأنه بُعِثَ إلى الأحمر والأسود، وأُحِلَّتْ له الغنائم، وظهرت على يديه المعجزات، وليس أحد من الأنبياء أعطي فضيلة أو كرامة إلا وقد أُعْطِيَ محمدٌ ﷺ مثلاً.

قال بعضهم: ومن فضله أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خاطب الأنبياء بأسمائهم، وخاطبه بالنبوة والرسالة في كتابه، فقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ و ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾.

وحكى السَّمَرْقَنْدِيُّ عن الكلبي - في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ٨٣] - أن الهاء عائدة على محمد؛ أي إِنَّ مِنْ شِيعَةِ مُحَمَّدٍ لإبراهيم؛ أي على دينه ومنهاجه. وأجازه الفراء، وحكاه عنه مكِّي. وقيل: المراد منه نوح عليه السلام.

الفضل الثامن

فِي إِغْلَامِ اللَّهِ تَعَالَى خَلْقَهُ بِصَلَاتِهِ عَلَيْهِ

وَوَلَايَتِهِ لَهُ وَرَفْعِهِ الْعَذَابِ بِسَبَبِهِ

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]؛ أي: ما كنت بمكة. فلما خرج النبي ﷺ من مكة، وبقي فيها مَنْ بقي من المؤمنين نزل: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]. وهذا مثل قوله: ﴿لَوْ تَرَكْنَا لَعَذَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَرَّ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفتح: ٢٥] فلما هاجر المؤمنون نزلت: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٤]. وهذا من أبين ما يظهر مكانته ﷺ.

وَدَرَأَ به العذاب عن أهل مكة بسبب كونه، ثم كَوَّنَ أصحابه بعده بين أظهرهم، فلما خَلَّتْ مكة منهم عَذَّبَهُمُ اللَّهُ بتسليط المؤمنين عليهم، وغلبتهم إياهم، وحَكَمَ فيهم سيوفهم، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم. وفي الآية أيضاً تأويل آخر.

٣٣ - حدثنا القاضي الشهيد أبو علي - رحمه الله - بقراءتي عليه، قال:

حدثنا أبو الفضل بن خَيْرُون، وأبو الحُسَيْن الصَّيْرَفِي، قَالَا: حدثنا أَبُو يَعْلَى ابن زُوج الحُرَّة، حدثنا أَبُو عَلِي السَّنْجِي، حدثنا مُحَمَّد بن محبوب المَرْزُوزِي، حدثنا أَبُو عَيْسَى الحَافِظ، حدثنا سَفِيَان بن وَكِيع، حدثنا ابْن ثَمِير، عن إِسْمَاعِيل بن إِبْرَاهِيم بن مُهَاجِر، عن عُبَاد بن يَوْسُف، عن أَبِي بُرْدَةَ بن أَبِي مُوسَى، عن أَبِيهِ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ أَمَانِينَ لَأُمْتِي: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] فإِذَا مضيت نَرَكْتُ فِيهِمُ الْاسْتِغْفَارَ» [الترمذي (٣٠٨٢)].

ونحوُ منه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].
٣٤ - وقال عليه السلام: «أَنَا أَمَانٌ لِأَصْحَابِي» [مسلم (٢٥٣١)]. قيل: من الْبِدْع.

وقيل: من الاختلاف والفتن.

قال بعضهم: الرسول ﷺ هو الأمان الأعظم ما عاش، وما دامت سُنَّتُهُ باقية فهو باقي، فإذا أُمِيتَت سُنَّتُهُ فانظروا البلاء والفتن.
 وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] أَبَانَ اللهُ تعالى فَضْلَ نَبِيِّهِ ﷺ بِصَلَاتِهِ عَلَيْهِ، ثُمَّ بِصَلَاةِ مَلَائِكَتِهِ، وَأَمَرَ عِبَادَهُ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ عَلَيْهِ.

٣٥ - وقد حكى أَبُو بَكْر بن فُورَك أَن بَعْضَ الْعُلَمَاءِ تَأَوَّلَ قَوْلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» [النسائي (٦١/٧)، أحمد (١٢٨/٣)] عَلَى هَذَا؛ أَي فِي صَلَاةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيَّ وَمَلَائِكَتِهِ وَأَمْرِهِ الْأُمةَ بِذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالصَّلَاةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمَنَّا لَهُ دُعَاءٌ، وَمِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ رَحْمَةٌ.
 وقيل: يُصَلُّونَ: يُبَارَكُونَ.

وقد فَرَّقَ النَّبِيُّ ﷺ - حِينَ عَلَّمَ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ - بَيْنَ لَفْظِ الصَّلَاةِ وَالْبَرَكَةِ. وسنذكر حكم الصلاة عليه.

وذكر بعض المتكلمين في تفسير حروف ﴿كَهَيَّصَ﴾ ① [مريم: ١] أَنَّ الْكَافَ مِنْ (كَافٍ)، أَي كَفَايَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]. وَالْهَاءُ: هِدَايَتُهُ لَهُ، قَالَ: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢] وَالْيَاءُ: تَأْيِيدُهُ لَهُ، قَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصَبْرٍ﴾ [الأنفال: ٦٢]. وَالْعَيْنُ: عِزَّتُهُ لَهُ قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يَقْصِمُكَ مِنَ الْنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. وَالصَّادُ: صَلَاتُهُ عَلَيْهِ؛ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكَةِ بِعَدِّ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: ٤] ﴿مَوْلَاهُ﴾ أي: وليه. ﴿وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: الأنبياء. وقيل: الملائكة. وقيل: أبو بكر، وعمر. وقيل: علي. وقيل: المؤمنون على ظاهره.

الفضل التاسع

في ما تضمنته سورة الفتح من كراماته

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ① لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ② وَيُضْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③ هُوَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ④ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ⑤ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَلَمَ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ⑥ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ⑦ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ⑧ اتَّقُوا بِاللَّهِ وَرَسُولَهُ وَتُؤْمِرُوا وَتُوقِرُوا وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑨ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ بِاللَّهِ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١-١٠].

تضمنت هذه الآيات من فضله والثناء عليه، وكريم منزلته عند الله تعالى، ونعمته لديه، ما يقصر الوصف عن الانتهاء إليه؛ فابتدأ - جلَّ جلاله - بإعلامه بما قضاه له من القضاء البين بظهوره، وغلبته على عدوه وعلو كلمته وشريعته، وأنه مغفور له، غير مؤاخذ بما كان وما يكون.

قال بعضهم: أراد غفران ما وقع وما لم يقع، أي: إنك مغفور لك. وقال مكِّي: جعل الله المنة سبباً للمغفرة، وكل من عنده، لا إله غيره، مئة بعد مئة، وفضلاً بعد فضل.

ثم قال: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ [الفتح: ٢] قيل: بخضوع من تكبر عليك. وقيل: بفتح مكة والطائف.

وقيل: يرفع ذكرك في الدنيا وينصرك ويغفر لك؛ فأعلمه بتمام نعمته عليه بخضوع متكبري عدوه له، وفتح أهم البلاد عليه وأحبها له، ورفع ذكره، وهدايته الصراط المستقيم المبلغ الجنة والسعادة، ونصره النصر العزيز، ومثته على أمته المؤمنين بالسكينة والطمأنينة التي جعلها في قلوبهم، وبشارتهم بما لهم بعد،

وَفَوَّزَهُمُ الْعَظِيمَ، وَالْعَفْوِ عَنْهُمْ، وَالسِّرِّ لَذُنُوبِهِمْ، وَهَلَاكِ عَدُوِّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَغْنِهِمْ وَيُعْذِبُهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَسَوْءِ مُقْلَبِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٨﴾ اٰتَمِنُوْا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ وَتَعَزَّوْهُ وَتَقَرَّوْهُ وَتُسَبِّحُوْهُ بُكْرَةً وَّاٰصِيْلًا ﴿٩﴾ [الفتح: ٨، ٩] فَعَدَّ مُحَاسِنَهُ وَخَصَائِصَهُ مِنْ شَهَادَتِهِ عَلَى أُمَّتِهِ لِنَفْسِهِ، بِتَبْلِيغِهِ الرِّسَالَةَ لَهُمْ. وَقِيلَ: شَهِيدًا لَهُمْ بِالتَّوْحِيدِ، وَمُبَشِّرًا لِأُمَّتِهِ بِالثَّوَابِ. وَقِيلَ: بِالمَغْفِرَةِ. وَمُنْذِرًا عَدُوَّهُ بِالْعَذَابِ.

وَقِيلَ: مُحَدَّرًا مِنَ الضَّلَالَاتِ لِيُؤْمِنَ بِاللَّهِ، ثُمَّ بِهِ ﷺ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى. وَيُعَزِّزُوهُ؛ أَيِ يُجِلُّوْنَهُ. وَقِيلَ: يَنْصُرُونَهُ. وَقِيلَ: يِيَالِغُونَ فِي تَعْظِيمِهِ. وَيُقَرِّوْهُ؛ أَيِ يَعْظُمُوهُ.

وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَتَعَزَّوْهُ﴾ بِزَايَيْنِ: مِنَ الْعِزِّ، وَالْأَكْثَرُ وَالْأَظْهَرُ أَنَّ هَذَا فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ ﷺ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَتُسَبِّحُوْهُ﴾؛ فَهَذَا رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: جُمِعَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي هَذِهِ السُّورَةِ نِعَمٌ مُخْتَلِفَةٌ؛ مِنَ الْفَتْحِ الْمُبِينِ، وَهُوَ مِنْ أَعْلَامِ الْإِجَابَةِ، وَالْمَغْفِرَةِ، وَهِيَ مِنْ أَعْلَامِ الْمَحَبَّةِ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ، وَهِيَ مِنْ أَعْلَامِ الْإِخْتِصَاصِ، وَالْهَدَايَةِ، وَهِيَ مِنْ أَعْلَامِ الْوِلَايَةِ، فَالْمَغْفِرَةُ: تَبَرُّتُهُ مِنَ الْعَيُوبِ، وَتَمَامُ النِّعْمَةِ: إِبْلَاقُ الدَّرَجَةِ الْكَامِلَةِ، وَالْهَدَايَةُ: وَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى الْمَشَاهِدَةِ.

وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: مِنْ تَمَامِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ أَنْ جَعَلَهُ حَبِيبَهُ، وَأَقْسَمَ بِحَيَاتِهِ، وَنَسَخَ بِهِ شَرَائِعَ غَيْرِهِ، وَعَرَّجَ بِهِ إِلَى الْمَحَلِّ الْأَعْلَى، وَحَفِظَهُ فِي الْمِعْرَاجِ حَتَّى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى، وَبَعَثَهُ إِلَى الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ، وَأَحْلَلَ لَهُ وَلَأَمَّتْهُ الْغَنَائِمُ، وَجَعَلَهُ شَفِيعًا مُشَفَّعًا، وَسَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ، وَقَرَنَ ذِكْرَهُ بِذِكْرِهِ، وَرِضَاهُ بِرِضَاهُ، وَجَعَلَهُ أَحَدَ رُكْنِي التَّوْحِيدِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يَبَايِعُوْنَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُوْنَكَ اللّٰهُ بِدُ اَللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيْهِمْ﴾ يَعْنِي: بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ؛ أَيِ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ بِنَيْعَتِهِمْ إِيَّاكَ.

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يَرِيدُ: عِنْدَ الْبَيْعَةِ. قِيلَ: قُوَّةُ اللَّهِ، وَقِيلَ: ثَوَابُهُ. وَقِيلَ: مِثْنَتُهُ. وَقِيلَ: عَقْدُهُ، وَهَذِهِ اسْتِعَارَةٌ، وَتَجْنِيسٌ فِي الْكَلَامِ، وَتَأْكِيدٌ لِعَقْدِ بَيْعَتِهِمْ إِيَّاهُ. وَعِظَمُ شَأْنِ الْمُبَايَعِ ﷺ.

وَقَدْ يَكُونُ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوْهُمْ وَلَكِنَّ اللّٰهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ

إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَ بِكَ اللَّهُ رَحْمَةً [الأنفال: ١٧]؛ وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ فِي بَابِ الْمَجَازِ، وَهَذَا فِي بَابِ الْحَقِيقَةِ، لِأَنَّ الْقَاتِلَ وَالرَّامِيَ بِالْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ، وَهُوَ خَالِقُ فِعْلِهِ وَرَمِيهِ، وَقُدْرَتُهُ عَلَيْهِ وَمُسَبِّبُهُ، وَلَأنَّهُ لَيْسَ فِي قُدْرَةِ الْبَشَرِ تَوْصِيلُ تِلْكَ الرَّمِيَةِ حَيْثُ وَصَلَتْ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ تَمَلَأْ عَيْنِيهِ، وَكَذَلِكَ قَتَلَ الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ حَقِيقَةً. وَقَدْ قِيلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْأُخْرَى: إِنَّهَا عَلَى الْمَجَازِ الْعَرَبِيِّ، وَمُقَابِلَةِ اللَّفْظِ وَمُنَاسِبَتِهِ؛ أَيْ: مَا قَتَلْتُمُوهُمْ، وَمَا رَمَيْتَهُمْ أَنْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَجُوهَهُمْ بِالْحَصْبَاءِ وَالتَّرَابِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى قُلُوبَهُمْ بِالْجَزَعِ، أَيْ إِنَّ مُنْفَعَةَ الرَّمْيِ كَانَتْ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ؛ فَهُوَ الْقَاتِلُ وَالرَّامِيَ بِالْمَعْنَى وَأَنْتَ بِالْأَسْمِ.

الفصل العاشر

فِي مَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ مِنْ كَرَامَتِهِ عَلَيْهِ
وَمَكَانَتِهِ عِنْدَهُ وَمَا خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ ذَلِكَ
سِوَى مَا أَنْتَظَمَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ قَبْلَ

من ذلك ما نَصَّه تعالى من قصة الإسراء في سورة: ﴿سَبْحَانَ﴾ و ﴿النَّجْمِ﴾ وما انطوت عليه القصة من عظيم منزلته وقُزْبِهِ ومُشَاهَدَتِهِ مَا شَاهَدَ مِنَ الْعَجَائِبِ. وَمِنْ ذَلِكَ عِظَمَتُهُ مِنَ النَّاسِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا نَضْرِبُكَ فَنَجِّنُكَ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَلَاثَ أُثْنَيْنِ إِذْ هُمْ فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُجْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]. وَمَا دَفَعَ اللَّهُ بِهِ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ أَذَاهُمْ بَعْدَ تَحْزِينِهِمْ لَهُ لِهَاجِهِمْ وَخُلُوصِهِمْ نَجِيًّا فِي أَمْرِهِ، وَالْأَخِذِ عَلَى أَبْصَارِهِمْ عِنْدَ خُرُوجِهِ عَلَيْهِمْ، وَذَهُولِهِمْ عَنْ طَلَبِهِ فِي الْغَارِ، وَمَا ظَهَرَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، وَنَزُولِ السَّكِينَةِ عَلَيْهِ.

٣٦ - وَقِصَّةُ سُرَاقَةِ بْنِ مَالِكٍ [البخاري (٣٩٠٦، ٣٩٠٨، ٣٩١١)، مسلم (٩١/٢٠٠٩)]، حَسَبَ مَا ذَكَرَهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَالسِّيَرِ.

٣٧ - فِي قِصَّةِ الْغَارِ [البخاري (٣٩٢٢)، مسلم (٢٣٨١)].

٣٨ - وحديث الهجرة [البخاري: (٣٩٠٥، ٣٩١١) مسلم (٢٠٠٩)].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾ [الكوثر: ١-٣].

أعلمه الله عز وجل بما أعطاه. و ﴿الْكَوْثَرَ﴾: حَوْضُهُ. وقيل: نهر في الجنة. وقيل: الخير الكثير. وقيل: الشفاعة. وقيل: المعجزات الكثيرة. وقيل: النبوة. وقيل: المعرفة.

ثم أجاب عنه عدوه، وردّ عليه قوله، فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾؛ أي عدوك ومُبْغِضُكَ. و ﴿الْأَبْتَرُ﴾: الحقيقير الدليل، أو المفرد الوحيد، أو الذي لا خير فيه.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ۝﴾ [الجبر: ٨٧].
قيل: السبع المثنائي: السور الطوال الأول. ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾: أم القرآن.
وقيل: السبع المثنائي: أم القرآن. والقرآن العظيم: سائره. وقيل: السبع المثنائي: ما في القرآن، من أمر، ونهي، ويُسرى، وإنذار، وضرب مثل، وإعداد نعم، وآياتك نبأ القرآن العظيم.

وقيل: سميت أم القرآن مثنائي لأنها تُثَنَّى في كل ركعة. وقيل: بل الله تعالى استثناها لمحمد ﷺ، وادخرها له دون سائر الأنبياء.

وسُمي القرآن مثنائي: لأن القِصَصَ تُثَنَّى فيه.
وقيل: السبع المثنائي: أكرمناك بسبع كرامات: الهدى، والنبوة، والرحمة، والشفاعة، والولاية، والتعظيم، والسكينة.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨].
وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُعِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] قال
الفقيه القاضي - رحمه الله -: فهذه من خصائصه.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] فخصهم بقومهم، وبعث محمداً ﷺ إلى الخلق كافة.

٣٩ - كما قال عليه السلام: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَخْمَرِ وَالْأَسْوَدِ» [مسلم (٥٢١)].

البخاري (٣٣٥).

وقال تعالى: «الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ» [الأحزاب: ٦].

قال أهل التفسير: «أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» أي: ما أنفذه فيهم من أمر

فهو ماضٍ عليهم كما ينفضي حكم السيد على عبده.

وقيل: اتباع أمره أُولَىٰ من اتباع رأي النفس.

«وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ» أي: هنَّ في الحرمة كالأمهات؛ حرِّمَ نكاحهنَّ عليهم

بغده؛ تكريمًا له وخصوصية، ولأنهنَّ له أزواج في الآخرة.

٤٠ - وقد قرئ: وهو أبٌ لهم. ولا يُقرأ به الآن لمخالفته المصحف.

وقال الله تعالى: «وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ

تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا» [النساء: ١١٣].

قيل: فضله العظيم بالنبوة. وقيل: بما سبق له في الأزل. وأشار الواسطي

إلى أنها إشارة إلى احتمال الرؤية التي لم يحتملها موسى، صلى الله عليهما.



الباب الثاني

فِي تَكْمِيلِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ الْمَحَاسِنَ خَلْقًا وَخُلُقًا،
وَقِرَانِهِ جَمِيعِ الْفَضَائِلِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ فِيهِ نَسَقًا

اعلم أيها المحبُّ! لهذا النبي الكريم ﷺ، الباحث عن تفاصيل جَمَلِ قَدْرِهِ العظيم
أَنْ خِصَالَ الْجَلَالِ وَالْكَمَالِ فِي الْبَشَرِ نَوْعَانِ: ضَرْوَرِي دُنْيَوِي اقْتَضَتْهُ الْجِبِلَّةُ وَضَرْوَرَةُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ وَمُكْتَسَبٌ دِينِي؛ وَهُوَ مَا يُخَمِّدُ فَاعِلَهُ، وَيَقْرُبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى زُلْفَى.
ثُمَّ هِيَ عَلَى فَنَيْنِ أَيْضًا: مِنْهَا يَتَخَلَّصُ لِأَحَدِ الْوَصْفَيْنِ. وَمِنْهَا مَا يَتِمَّازُجُ
وَيَتَدَاخَلُ.

فَأَمَّا الضَّرُورِي الْمَخْصُصُ: فَمَا لَيْسَ لِلْمَرْءِ فِيهِ اخْتِيَارٌ وَلَا اكْتِسَابٌ، مِثْلُ مَا
كَانَ فِي جِبِلَّتِهِ: مِنْ كِمَالِ خِلْقَتِهِ، وَجَمَالِ صَوْرَتِهِ، وَقُوَّةِ عَقْلِهِ، وَصِحَّةِ فَهْمِهِ،
وَفَصَاحَةِ لِسَانِهِ، وَقُوَّةِ حَوَاسِّهِ وَأَعْضَائِهِ، وَاعْتِدَالِ حَرَكَاتِهِ، وَشَرَفِ نَسَبِهِ، وَعِزَّةِ
قَوْمِهِ، وَكَرَمِ أَرْضِهِ؛ وَيَلْحَقُ بِهِ مَا تَدْعُوهُ ضَرْوَرَةُ حَيَاتِهِ إِلَيْهِ، مِنْ غِذَائِهِ وَنَوْمِهِ،
وَمَلْبَسِهِ وَمَسْكَنَتِهِ، وَمَنْكَجِهِ، وَمَالِهِ وَجَاهِهِ.

وَقَدْ تَلَحَّقَ هَذِهِ الْخِصَالُ الْآخِرَةُ بِالْآخِرَةِ إِذَا قَصِدَ بِهَا التَّقْوَى وَمَعُونَةُ الْبَدَنِ
عَلَى سُلُوكِ طَرِيقِهَا، وَكَانَتْ عَلَى حُدُودِ الضَّرُورَةِ، وَقَوَانِينِ الشَّرِيعَةِ.

وَأَمَّا الْمُكْتَسَبَةُ الْآخِرُورِيَّةُ: فَسَائِرُ الْأَخْلَاقِ الْعَلِيَّةِ، وَالْآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ: مِنْ
الدِّينِ، وَالْعِلْمِ، وَالْحِلْمِ، وَالصَّبْرِ، وَالشُّكْرِ، وَالْعَدْلِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّوَاضُعِ،
وَالْعَفْوِ، وَالْعِفَّةِ، وَالْجُودِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَالْحَيَاءِ، وَالْمَرْوَةِ، وَالصُّمْتِ، وَالتَّؤَدَةِ،
وَالْوَقَارِ، وَالرَّحْمَةِ، وَحُسْنِ الْأَدَبِ، وَالْمَعَاشِرَةِ، وَأَخْوَانَتِهَا، وَهِيَ الَّتِي جَمَعَهَا
حُسْنُ الْخُلُقِ.

وقد يكون من هذه الأخلاق ما هو في الغريزة، وأصل الجيلة لبعض الناس. وبعضهم لا تكون فيه، فيكتسبها، ولكنه لا بد أن يكون فيه من أصولها في أصل الجيلة شعبة كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

وتكون هذه الأخلاق دنيوية إذا لم يرد بها وجه الله تعالى، والدار الآخرة؛ ولكنها كلها محاسن وفضائل باتفاق أصحاب العقول السليمة، وإن اختلفوا في موجب حُسْنِها وتفضيلها.

فصل

فِي اجْتِمَاعِ خِصَالِ الْجَلَالِ وَالْكَمَالِ فِي نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ

إذا كانت خصال الكمال والجلال ما ذكرناه، ووجدنا الواحد منا يشرف بواحدة منها أو اثنتين - إن اتفقت له في كل عصر - إما من نسب، أو جمال، أو قوة، أو علم، أو حلم، أو شجاعة، أو سماحة، حتى يعظم قدره، ويضرب باسمه الأمثال، ويتقرر له بالوصف بذلك في القلوب أثره وعظمته، وهو منذ عصور خوال، رمم بوال، فما ظنك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كل هذه الخصال إلى ما لا يأخذه عدو، ولا يعبر عنه مقال، ولا ينال بكسب ولا حيلة إلا بتخصيص الكبير المتعال، من فضيلة النبوة والرسالة، والخلة والمحبة، والاصطفاء والإسراء والرؤية، والقرب، والدنو، والوحي، والشفاعة، والوسيلة، والفضيلة، والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود، والبراق، والمعراج، والبعث إلى الأحمر والأسود، والصلاة بالأنبياء، والشهادة بين الأنبياء والأمم، وسيادة وليد آدم، ولواء الحمد، والبشارة، والنذارة، والمكانة عند ذي العرش، والطاعة ثم، والأمانة والهداية، ورحمة للعالمين، وإعطاء الرضا والسؤل، والكوثر، وسماع القول، وإتمام النعمة، والعفو عما تقدم وتأخر، وشرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر، وعزة النصر، ونزول السكينة، والتأييد بالملائكة، وإيتاء الحكمة، والكتاب، والسبغ المثنائي، والقرآن العظيم، وتركية الأمة، والدعاء إلى الله، وصلاة الله تعالى والملائكة، والحكم بين الناس بما أراه الله، ووضع الإضر والأغلال عنهم، والقسم باسمه، وإجابة دعوته، وتكليم الجمادات، والعجم، وإحياء الموتى، وإسماع الصم، وتبوع الماء من بين أصابعه، وتكثير القليل، وانشقاق القمر، ورد الشمس، وقلب الأعيان، والنصر بالرعب، والاطلاع على

الغيب، وظلّ الغمام، وتسبيح الحصى، وإبراء الآلام، والعِصمة من الناس، إلى ما لا يَحْوِيهِ مُخْتَلٍ، ولا يحيط بعلمه إلا مانحه ذلك ومفضله به، لا إله غيره، إلى ما أعدّ له في الدار الآخرة من منازل الكرامة، ودرجات القدس، ومراتب السعادة، والخسنى، والزيادة التي تَقِفُ دونها العقول ويحار دون أدانيها الوهم.

فصل

في صفاته الخلقية

إِنْ قُلْتَ - أكرمكَ الله -: لا خفاء على القطع بالجملة أنه ﷺ أعلى الناس قَدْرًا، وأعظمهم مَحَلًّا، وأكرمهم وأكملهم محاسنً وفضلًا، وقد ذهب في تفاصيل خصال الكمال مذهبًا جميلًا، شوقني إلى أن أقف عليها من أوصافه ﷺ تفصيلًا.

فاعلم - نور الله قلبي وقلبك، وضاعف في هذا النبي الكريم حُبِّي وحبِّكَ - أنَّكَ إذا نظرت إلى خصال الكمال، التي هي غير مكتسبة، وفي جبلّة الخلقة وجذته حائزًا لجميعها، مُحِيطًا بَشَات محاسنها دون خلافٍ بين ثِقَلَةِ الأخبار لذلك؛ بل قد بلغ بعضها مَبْلَغ القطع.

أما الصورة وجمالها، وتناسب أعضائه في حُسْنِها، فقد جاءت الآثار الصحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك.

- ٤١ - من حديث علي [الترمذي (٣٦٣٧، ٣٦٣٨)، أحمد (٨٩/١، ١٠١)].
- ٤٢ - وأنس بن مالك [البخاري (٣٥٤٧)، مسلم (٢٣٤٧)].
- ٤٣ - وأبي هريرة [الترمذي (٣٦٤٨)، أحمد (٣٥٠/٢)].
- ٤٤ - والبراء بن عازب [البخاري (٣٥٤٩، ٣٥٥١)، مسلم (٢٣٣٧)].
- ٤٥ - وعائشة أم المؤمنين [أبو داود (٤١٨٧)، الترمذي (١٧٥٥)، ابن ماجه (٣٦٣٥)].

٤٦ - وابن أبي هالة [الترمذي (٣٢٩، ٣٤٤)].

٤٧ - وأبي جُحَيْفَةَ [البخاري (٣٥٤٤)، مسلم (٢٣٤٣)].

٤٨ - وجابر بن سَمُرَةَ [مسلم (٢٣٣٩)، الترمذي (٣٦٤٧)].

٤٩ - وأمّ مَعْبَد.

٥٠ - وابن عباس [الترمذي (١٤)].

٥١ - ومُعَرِّض بن مُعَيَّقِب.

٥٢ - وأبي الطُّفَيْل [مسلم (٢٣٤٠)].

٥٣ - والعَدَاءُ بن خَالِدٍ.

٥٤ - وَخَزِيم بن فَاتِكٍ.

٥٥ - وَحَكِيم بن حِزَامٍ وَغَيْرِهِمْ، مِنْ أَنَّهُ ﷺ كَانَ أَزْهَرَ اللَّوْنِ، أَدْعَجَ، أَنْجَلَ، أَشْكَلَ أَهْدَبَ الْأَشْفَارَ، أَبْلَجَ، أَرْجَ، أَقْنَى، أَفْلَجَ، مُدَوَّرَ الْوَجْهِ، وَاسِعَ الْجَبِينِ، كَثَّ اللَّحْيَةَ، تَمَلَّأَ صَدْرَهُ، سَوَّاءَ الْبَطْنِ وَالصَّدْرِ، وَاسِعَ الصَّدْرَ، عَظِيمَ الْمَنَكِبَيْنِ، ضَخَمَ الْعِظَامَ، عَبَلَ الْعَضْدَيْنِ وَالذَّرَاعَيْنِ، وَالْأَسَافِلَ، رَحَبَ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ، سَائِلَ الْأَطْرَافِ، أَنْوَرَ الْمُتَجَرَّدِ، دَقِيقَ الْمَسْرُوبَةِ، رُبْعَةَ الْقَدِّ، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ، وَلَا بِالْقَصِيرِ الْمَتَرَدِّدِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَكُنْ يَمَاشِيهِ أَحَدٌ يُنْسَبُ إِلَى الطَّوْلِ إِلَّا طَالَهُ ﷺ، رَجَلَ الشَّعْرَ، إِذَا افْتَرَّ ضَاحِكًا افْتَرَّ عَنْ مِثْلِ سَنَّا الْبِرْقِ، وَعَنْ مِثْلِ حَبِّ الْعَمَامِ، إِذَا تَكَلَّمَ رُئِيَ كَالنُّورِ يَخْرُجُ مِنْ ثَنَائِيهِ، أَحْسَنَ النَّاسِ عُقًّا، لَيْسَ بِمُطَهَّمٍ وَلَا مُكَلَّمٍ مَتَمَاسِكَ الْبَدَنِ، ضَرْبَ اللَّحْمِ.

٥٦ - قَالَ الْبَرَاءُ بن عَازِبٍ: مَا رَأَيْتُ مِنْ ذِي لِمَّةٍ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءَ أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [البخاري (٥٩٠١)، مسلم (٢٣٣٧)].

٥٧ - وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ، وَإِذَا ضَحَكَ يَتَلَأَلُ فِي الْجُدْرِ [الترمذي (٣٦٤٨) أحمد (٣٥٠/٢)].

٥٨ - وَقَالَ جَابِر بن سَمُرَةَ - وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ -: كَانَ وَجْهُهُ ﷺ مِثْلَ السَّيْفِ؟ فَقَالَ: لَا، بَلْ مِثْلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ. وَكَانَ مُسْتَدِيرًا [مسلم (١٠٩/٢٣٤٤)].

٥٩ - وَقَالَتْ أُمُّ مَعْبُدٍ - فِي بَعْضِ مَا وَصَفَتْهُ بِهِ -: أَجْمَلُ النَّاسِ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَخْلَاهُ وَأَحْسَنَهُ مِنْ قَرِيبٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كُلَّمَا ذَكَرَهُ الذَّاكِرُونَ وَغُفِلَ عَنْ ذِكْرِهِ الْغَافِلُونَ.

٦٠ - وَفِي حَدِيثِ ابْنِ أَبِي هَالَةَ: يَتَلَأَلُ وَجْهُهُ تَلَأَلُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ.

٦١ - وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي آخِرِ وَضْفِهِ لَهُ: مَنْ رَأَاهُ بِدِيهَةٍ هَابَةٍ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ، يَقُولُ نَاعَتُهُ: لَمْ أَرْ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ ﷺ.

وَالْأَحَادِيثُ فِي بَسْطِ صِفَتِهِ مَشْهُورَةٌ كَثِيرَةٌ، فَلَا تُطَوَّلُ بِسَرْدِهَا.

وَقَدْ اخْتَصَرْنَا فِي وَضْفِهِ نُكَّتَ مَا جَاءَ فِيهَا، وَجُمِلَتْ مِمَّا فِيهِ الْكِفَايَةُ فِي الْقَصْدِ إِلَى الْمَطْلُوبِ، وَخَتَمْنَا هَذِهِ الْفُصُولَ بِحَدِيثٍ جَامِعٍ لِلَّذَلِكَ تَقِفُ عَلَيْهِ هُنَاكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

فصل

فِي نَظَافَتِهِ ﷺ وَطِيبِ رِيحِهِ وَعَرْقِهِ وَدَمِهِ

وأما نظافة جسمه، وطيب رِيحه وَعَرْقِهِ، ونزاهته عن الأقدار وَعَوَزَاتِ الجسد فكان قد خَصَّهُ اللَّهُ في ذلك بخصائص لم توجد في غيره، ثم تَمَمَّها بنظافة الشَّرع، وَخِصَالِ الْفِطْرَةِ الْعَشْرِ [مسلم (٢٦١)].

٦٢ - وقال: «بَنِي الدِّينِ عَلَى النِّظَافَةِ».

٦٣ - حدثنا سُفْيَانُ بْنُ الْعَاصِي، وَغَيْرُ وَاحِدٍ، قَالُوا: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُمَرَ. حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الرَّازِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ الْجُلُودِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ سَفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ سَلِيمَانَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: مَا شَمَمْتُ عَنِّيراً قَطُّ، وَلَا مِسْكَاً، وَلَا شَيْئاً أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [مسلم (٢٣٣٠)، البخاري (١٩٧٣)].

٦٤ - وعن جابر بن سَمُرَةَ: أَنَّهُ ﷺ مَسَحَ خَدَّهُ؛ قَالَ: فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْداً وَرِيحاً، كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُودَةِ عَطَّارٍ [مسلم (٢٣٢٩)].

قال غيره: مَسَّهَا بِطِيبٍ أَوْ لَمْ يَمَسَّهَا، يُصَافِحُ الْمُصَافِحَ فَيُظِلُّ يَوْمَهُ يَجِدُ رِيحَهَا؛ وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ الصَّبِيِّ فَيُغْرِفُ مِنْ بَيْنِ الصَّبِيَّانِ بِرِيحِهَا.

٦٥ - ونام رسولُ الله ﷺ في دار أنسٍ على نِطْعٍ فَعَرِقَ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ بِقَارُورَةٍ تَجْمَعُ فِيهَا عَرْقُهُ، فَسَأَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَتْ: نَجَعْلُهُ فِي طَبِينَا، وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطِّيبِ [مسلم (٢٣٣١)، البخاري (٦٢٨١)].

٦٦ - وذكر البخاري في تاريخه الكبير، عن جابر: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يَمُرُّ فِي طَرِيقٍ فَيَتَّبِعُهُ أَحَدٌ إِلَّا عَرَفَ أَنَّهُ سَلَكَ مِنْ طَبِيبِهِ.

وذكر إسحاق بن زَاهَوِيٍّ أَنَّ تِلْكَ كَانَتْ رَائِحَتُهُ بِلا طِيبٍ، ﷺ.

٦٧ - وروى الْمُزْنِيُّ، عن جابر: أَرْدَفَنِي النَّبِيُّ ﷺ خَلْفَهُ، فَالْتَقَمْتُ خَاتَمَ النَّبُوَّةِ بِفَمِي، فَكَانَ يَشُجُّ عَلَيَّ مِسْكَاً.

٦٧م - وقد حَكَى بَعْضُ الْمُغْتَنِّينَ بِأَخْبَارِهِ وَشَمَائِلِهِ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَغَوَّطَ انْشَقَّتِ الْأَرْضُ فَاِبْتَلَعَتْ غَائِطَهُ وَبَوَّلَهُ، وَفَاحَتْ لِذَلِكَ رَائِحَةُ طَبِيبَةٍ ﷺ.

٦٨ - وأسند محمد بن سعد - كَاتِبُ الْوَاقِدِيِّ - فِي هَذَا خَبِيراً عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّكَ تَأْتِي الْخَلَاءَ فَلَا يُرَى مِنْكَ شَيْءٌ مِنْ

الأذى! فقال: «يا عائشة! أو ما علمت أن الأرض تبتلع ما يخرج من الأنبياء، فلا يرى منه شيء؟».

وهذا الخبر، وإن لم يكن مشهوراً، فقد قال قومٌ من أهل العلم بطهارة الحديثين منه ﷺ. وهو قول بعض أصحاب الشافعي حكاه الإمام أبو نصر بن الصَّبَّاح في «شامله».

وقد حكى القولين عن العلماء في ذلك أبو بكر بن سابق المالكي في كتابه: «البدیع في فروع المالكية، وتخریج ما لم يقع لهم منها على مذهبهم من تفاريع الشافعية».

وشاهدٌ هذا أنه ﷺ لم يكن منه شيء يُكره، ولا غَيْرُ طيب.

٦٩ - ومنه حديث علي رضي الله عنه: غسلتُ النبي ﷺ، فذهبتُ أنظرُ ما يكونُ من الميت فلم أجِدْ شيئاً؛ فقلت: طُبْتُ حياً وميتاً [ابن ماجه (١٤٦٧)] قال: وسطعت منه ريحٌ طيبةٌ لم تجِدْ مثلاً قط.

٧٠ - ومثله قال أبو بكر رضي الله عنه حينَ قَبِلَ النبي ﷺ بعد موته [البخاري (٤٤٥٢، ٤٤٥٣)].

٧١ - ومنه شُرْبُ مالك بن سنان دمه يوم أُحُد، ومَصُّه إياه، وتسويغُه ﷺ ذلك له، وقوله: «لن تُصِيبَه النار».

٧٢ - ومثله شُرْبُ عَبْدِ اللَّهِ بن الزُبَيْر دَمَ حِجَامَتِهِ؛ فقال له عليه السلام: «وَيْلٌ لك من الناس! وويلٌ لهم منك!» ولم ينكره عليه.

٧٣ - وقد رُوي نحوٌ من هذا عنه في امرأةٍ شربَتْ بَوْلَه، فقال لها: «لن تشكِي وَجْعَ بَطْنِكَ أبداً» [أبو داود (٢٤)، النسائي (٣١/١)]. ولم يأمر واحداً منهم بِغَسْلِ قَمٍّ، ولا نهاه عن عَوْدَةٍ.

وحديث هذه المرأة التي شربَتْ بَوْلَه صحيح ألزم الدارقطني مسلماً والبخاري إخرجه في الصحيح، واسم هذي المرأة بَرَكَة. واختلف في نسبها.

وقيل: هي أُمُ أيمن: وكانت تَخْدُمُ النبي ﷺ؛ قالت: وكان لرسول الله ﷺ قَدَحٌ من عَيْدَانٍ يوضع تحت سريره يَبُولُ فيه من الليل، فبال فيه ليلة، ثم اقتدعه، فلم يجد فيه شيئاً. فسأل بَرَكَة عنه؛ فقالت: قمتُ وأنا عطشانة فشربته وأنا لا أعلم.

روى حديثها ابنُ جُرَيْج وغيره.

٧٤ - وكان ﷺ قد وَلِدَ مَخْتُوناً مقطوع السرة.

٧٥ - ودوي عن أمه آمنة، أنها قالت: قد ولدته نظيفاً ما به قدر.

٧٦ - وعن عائشة رضي الله عنها: ما رأيتُ فَرْجَ رسولِ اللَّهِ ﷺ قطُ

[الترمذي (٣٥٢)، ابن ماجه (١٩٢٢)، أحمد (٦٣/١)].

٧٧ - وعن علي رضي الله عنه: أوصاني النبي ﷺ لا يغسله غيري؛ فإنه

«لا يرى أحدٌ عَوزتي إلا طُمِسَتْ عِيناه».

٧٨ - وفي حديث عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه ﷺ نَامَ حتَّى

سَمِعَ لَهُ غَطِيطٌ، فقام فصلَّيْ ولم يتوضأ [أحمد (٢٤٤/١)، البخاري (١١٧)، مسلم

(١٨٤/٦٣)]، قال عِكْرَمَةُ: لأنه كان - ﷺ - محفوظاً.

فصل

فِي وَفُورِ عَقْلِهِ، وَذَكَاءِ لُبِّهِ، وَقُوَّةِ حَوَاسِهِ،

وَفَصَاحَةِ لِسَانِهِ، وَاعْتِدَالِ حَرَكَاتِهِ ﷺ

وأما وَفُورُ عَقْلِهِ، وَذَكَاءُ لُبِّهِ، وَقُوَّةُ حَوَاسِهِ، وَفَصَاحَةُ لِسَانِهِ، وَاعْتِدَالُ

حَرَكَاتِهِ، وَحُسْنُ شَمَائِلِهِ فَلَا مِزْيَةَ أَنَّهُ كَانَ أَعْقَلَ النَّاسِ وَأَذْكَاهُمْ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ تَدْبِيرَهُ أَمَرَ بِوَاطِنِ الْخَلْقِ وَظَوَاهِرِهِمْ، وَسِيَاسَةَ الْعَامَةِ وَالْخَاصَةِ،

مَعَ عَجِيبِ شَمَائِلِهِ، وَبَدِيعِ سِيرِهِ، فَضْلاً عَمَّا أَفَاضَهُ مِنَ الْعِلْمِ، وَقَرَّرَهُ مِنَ الشَّرْعِ

دُونَ تَعَلُّمِ سَبْقٍ، وَلَا مُمَارَسَةِ تَقَدُّمٍ، وَلَا مُطَالَعَةِ لِكُتُبٍ مِنْهُ، لَمْ يَمْتَرِ فِي

رُجْحَانِ عَقْلِهِ، وَثَقُوبِ فَهْمِهِ لِأَوَّلِ بَدِيهِهِ؛ وَهَذَا مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَقْرِيرِهِ لِتَحْقِيقِهِ.

وَقَدْ قَالَ وَهْبُ بْنُ مُثَنَّى: قَرَأْتُ فِي أَحَدٍ وَسَبْعِينَ كِتَاباً، فَوَجَدْتُ فِي جَمِيعِهَا

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرْجَحُ النَّاسِ عَقْلاً، وَأَفْضَلُهُمْ رَأياً.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: فَوَجَدْتُ فِي جَمِيعِهَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُغَيِّطْ جَمِيعَ النَّاسِ

مِنْ بَدْءِ الدُّنْيَا إِلَى انْقِضَائِهَا مِنَ الْعَقْلِ فِي جَنْبِ عَقْلِهِ ﷺ إِلَّا كَحَبَّةٍ رَمَلَ بَيْنَ رَمَالِ

الدُّنْيَا.

٧٩ - وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا قَامَ فِي الصَّلَاةِ يَرَى مَنْ خَلْفَهُ كَمَا يَرَى

مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ. وَبِهِ فُسِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩].

٨١ - وَفِي الْمَوْطَأِ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي لِأَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي» [البخاري

(٤١٨)، مسلم (٤٢٤)].

٨٢ - وَنَحْوَهُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ [البخاري (٧٤٢)، مسلم

(٤٢٥)].

٨٣ - وعن عائشة مثله؛ قالت: زيادة زاده الله إياها في حُجَّتِه.

٨٤ - وفي بعض الروايات: «إني لأنظرُ مَنْ ورائي كما أنظرُ إلى مَنْ بَيْنَ يَدَيَّ».

٨٥ - وفي أخرى: «إني لأبصرُ مَنْ قَفَايَ كما أبصرُ مَنْ بَيْنَ يَدَيَّ» [مسلم (٤٢٣)].

٨٦ - وحكى بَقِيُّ بْنُ مَخْلَدٍ، عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يرى في الظُلَمَةِ كما يرى في الضوء.

٨٧ - والأخبارُ كثيرةٌ صحيحة في رؤيته ﷺ للملائكة والشياطين [البخاري (٤٦١)، مسلم (٥٤١، ٥٤٢)].

٨٨ - ورفِعَ النجاشيُّ له حتى صَلَّى عليه [البخاري (١٣١٧)، مسلم (٩٥٢، ٩٥٣)].

٨٩ - وبيتُ المقدس حين وصفه لقريش.

٩٠ - والكعبة حين بنى مسجده.

٩١ - وقد حُكي عنه ﷺ أنه كان يرى في الثُّرَيَّا أحدَ عشر نَجْمًا.

وهذه كلها محمولةٌ على رؤية العين، وهو قولُ أحمد بن حنبل وغيره.

وذهب بعضهم إلى ردِّها إلى العلم، والظواهرُ تُخالفُه، ولا إحالة في ذلك، وهي من خواصِّ الأنبياء وخِصَالِهِمْ.

٩٢ - كما أخبرنا أبو محمد: عَبْدُ اللَّهِ بن أحمد العَدْلُ من كتابه؛ حدثنا أبو الحسن المقرئ الفرغاني حدثنا أُمُّ الْقَاسِمِ بنتُ أَبِي بَكْرٍ، عن أبيها، حدثنا الشريف أبو الحسن: علي بن محمد الحسني، حدثنا محمد بن محمد بن سعيد، حدثنا محمد بن أحمد بن سليمان، حدثنا محمد بن محمد مرزوق، حدثنا همام قال: حدثنا الحسن، عن قَتَادَةَ، عن يحيى بن وَثَّابٍ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ، عن النبي ﷺ؛ قال: «لَمَّا تَجَلَّى اللَّهُ لِمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ يُبْصِرُ النَّمْلَةَ عَلَى الصَّفَا، فِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءِ، مَسِيرَةَ عَشْرَةِ فَرَاسَخَ». ولا يبعدُ على هذا أن يختصَّ نبينا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والحُظُوة بما رأى من آيات ربِّه الكبرى.

٩٣ - وقد جاءت الأخبار بأنه صرع رُكَّانَهُ [أبو داود (٤٠٧٨)، الترمذي (١٧٨٤)]، أشدَّ أهل وقته، وكان دعاه إلى الإسلام.

٩٤ - وصارعَ أبا رُكَّانَةَ في الجاهلية، وكان شديدًا، وعاوده ثلاث مرات، كلُّ ذلك يصرعُه رسولُ الله ﷺ.

٩٤ - وقال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أسرع من رسول الله ﷺ في مشيه، كأنما الأرض تَطْوِي له، إنا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا وهو غيرُ مُكْتَرِبٍ.

٩٥ - وفي صفته: أَنْ ضَحِكَهُ كَانَ تَبَسُّمًا، إِذَا التَفَتَ التَفَتَ مَعًا، وَإِذَا مَشَى مَشَى تَقْلَعًا، كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ.

فصل

فِي فَصَاحَةِ لِسَانِهِ، وَبَلَغَةِ قَوْلِهِ ﷺ

وأما فصاحة اللسان، وبلاغة القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحلِّ الأفضل والموضع الذي لا يُجْهَل، سلاسةً طَبْعٍ، وَبَرَاعَةً مَنَزَعٍ، وَإِيجَازَ مَقْطَعٍ، وَنَصَاعَةً لَفْظٍ، وَجَزَالَةً قَوْلٍ، وَصَحَّةَ مَعَانٍ، وَقَلَّةَ تَكْلُفٍ، أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَخُصَّ بِبِدَائِعِ الْحِكَمِ، وَعَلِمَ أَلْسِنَةَ الْعَرَبِ، يَخَاطِبُ كُلَّ أُمَّةٍ مِنْهَا بِلِسَانِهَا، وَيُخَاوِرُهَا بِلُغَتِهَا، وَيَبَارِيهَا فِي مَنَزَعِ بَلَغَتِهَا، حَتَّى كَانَ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَسْأَلُونَهُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ، عَنْ شَرْحِ كَلَامِهِ، وَتَفْسِيرِ قَوْلِهِ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ حَدِيثَهُ وَسِيرَهُ عَلِمَ ذَلِكَ وَتَحَقَّقَهُ؛ وَلَيْسَ كَلَامُهُ مَعَ قَرِيشٍ وَالْأَنْصَارِ، وَأَهْلِ الْحِجَازِ، وَنَجْدٍ، كَكَلَامِهِ مَعَ ذِي الْمِشْعَارِ الْهَمْدَانِيِّ، وَطَهْفَةَ الثُّهْدِيِّ، وَقَطْنَ بْنِ حَارِثَةَ الْعُلَيْمِيِّ، وَالْأَشْعَثَ بْنَ قَيْسٍ، وَوَائِلَ بْنَ حُجْرٍ الْكِنْدِيِّ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَقْيَالِ حَضَرَمَوْتٍ، وَمُلُوكِ الْيَمَنِ.

٩٦ - وَاَنْظُرْ كِتَابَهُ إِلَى هَمْدَانَ: «إِنْ لَكُمْ فِرَاعَهَا، وَوَهَاطُهَا، وَعَرَازَهَا، تَأْكُلُونَ عِلَاقَهَا وَتَرْعَوْنَ عَفَاءَهَا، لَنَا مِنْ دِفْئِهِمْ وَصِرَامِهِمْ مَا سَلَمُوا بِالْمِشَاقِ وَالْأَمَانَةِ، وَلَهُمْ مِنَ الصَّدَقَةِ: الثُّلُبُ، وَالنَّابُ، وَالْقَصِيلُ، وَالْفَارِضُ وَالْدَّاجِنُ، وَالْكَبْشُ الْحَوْرِيُّ، وَعَلَيْهِمْ فِيهَا الصَّالِغُ، وَالْقَارِحُ».

٩٧ - وَقَوْلُهُ ﷺ لِتَهْدِي: «اللَّهُمَّ! بَارِكْ لَهُمْ فِي مَخْضِهَا وَمَخْضِهَا، وَمَذْقِهَا، وَابْعَثْ رَاعِيَهَا فِي الدُّثْرِ، وَافْجُرْ لَهُ الثَّمَدَ، وَبَارِكْ لَهُ فِي الْمَالِ وَالْوَلَدِ، مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ كَانَ مُسْلِمًا، وَمَنْ آتَى الزَّكَاةَ كَانَ مُخْسَنًا، وَمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَانَ مُخْلِصًا، لَكُمْ يَا بَنِي نَهْدٍ وَدَائِعُ الشَّرْكِ، وَوَضَائِعُ الْمَلِكِ، لَا تُلْطِطُ فِي الزَّكَاةِ، وَلَا تُلْجِدُ فِي الْحَيَاةِ، وَلَا تَتَاقَلَّ عَنْ الصَّلَوَاتِ».

وَكُتِبَ لَهُمْ: «فِي الْوُظَيْفَةِ الْفَرِيضَةِ، وَلَكُمْ الْعَارِضُ، وَالْفَرِيشُ، وَذُو الْعِثَانِ الرَّكُوبُ، وَالْفَلُّو الضَّبَّيْسُ، لَا يُمْنَعُ سَرْحُكُمْ، وَلَا يُغْضَدُ طَلْحُكُمْ، وَلَا يُخْبَسُ

دُرُكُم، ما لم تُضْمِرُوا الرِّمَاقَ، وتَأْكُلُوا الرِّبَاقَ، مَنْ أَقَرَّ فَلَهُ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ وَالذِّمَّةُ، وَمَنْ أَبَى فَعَلَيْهِ الرِّبْوَةُ.

٩٨ - ومن كتابه لوائل بن حُجْر:

«إلى الأقبال العبايلة، والأزواج المشاييب».

وفيه: «في التَّيِّعَةِ شَاةٌ، لَا مَقْوَرَةَ الْأَلْيَاطِ، وَلَا ضَنَّاكَ، وَأَنْطُوا الشَّبَجَةَ، وَفِي السُّيُوبِ الْخُمْسُ. وَمَنْ زَنَى مِنْ بَكْرٍ فَاضْقَعُوهُ مِثَّةً، وَاسْتَوْفِضُوهُ عَاماً، وَمَنْ زَنَى مِنْ ثَيْبٍ فَضَرْجُوهُ بِالْأَضَامِيمِ، وَلَا تَوْصِيمَ فِي الدِّينِ، وَلَا غَمَّةَ فِي فَرَاثِضِ اللَّهِ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ». ووائل بن حُجْرٍ يَتَرَقَّلُ عَلَى الْأَقْيَالِ.

٩٩ - أين هذا من كتابه لأنس، في الصدقة المشهور؟ [البخاري (١٤٥٤)]
لَمَّا كَانَ كَلَامُ هَؤُلَاءِ عَلَى هَذَا الْحَدِّ، وَبَلَغَتْهُمْ عَلَى هَذَا السَّمْطِ، وَكَثُرَ اسْتِعْمَالُهُمْ هَذِهِ الْأَفْظَاظَ اسْتَعْمَلَهَا مَعَهُمْ، لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَلِيَحْدِثَ النَّاسُ بِمَا يَعْلَمُونَ.

١٠٠ - وكقوله في حديث عَطِيَّةِ السَّعْدِيِّ: «إِنَّ الْبَيْدَ الْعَلِيَا هِيَ الْمُنْطِيطَةُ، وَالْبَيْدُ السُّفْلَى هِيَ الْمُنْظَاةُ». قَالَ: فَكَلَّمْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَلُغْتَنَا.

١٠١ - وقوله في حديث العامري حين سأله، فقال له النبي ﷺ: «سَلْ عَنْكَ».

أي: سَلْ عَمَّا شِئْتَ، وَهِيَ لُغَةُ بَنِي عَامِرٍ.
وَأَمَّا كَلَامُهُ الْمَعْتَادُ، وَفَصَاحَتُهُ الْمَعْلُومَةُ، وَجَوَامِغُ كَلِمِهِ، وَحِكْمَةُ الْمَأْثُورَةِ فَقَدْ أَلَّفَ النَّاسَ فِيهَا الدَّوَاوِينَ وَجُمِعَتْ فِي أَلْفَاظِهَا وَمَعَانِيهَا الْكُتُبُ، وَمِنْهَا مَا لَا يُوَازِي فَصَاحَةً، وَلَا يُبَارِي بِلَاغَةً.

١٠٢ - كقوله: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، وَيَسْعَى بِدِمَتِهِمْ أَذْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ» [أبو داود (٤٥٣٠، ٤٥٣١)، النسائي (١٩/٨، ٢٠)].

١٠٣ - وقوله: «النَّاسُ كَأَسْنَانِ الْمَشْطِ».

١٠٤ - و «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» [البخاري (٦١٦٨، ٦١٧٠)، مسلم (٢٦٤٠، ٢٦٤١)].

١٠٥ - و «لَا خَيْرَ فِي ضُحْبَةٍ مَن لَّا يَرَى لَكَ مَا تَرَى لَهُ».

١٠٦ - و «النَّاسُ مَعَادِينُ» [البخاري (٣٤٩٦)، مسلم (١٦٠/٢٦٣٨)].

١٠٧ - و «مَا هَلْكَ امْرُؤٌ عَرَفَ قَدْرَهُ».

١٠٨ - و «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ، وَهُوَ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَكَلَّمْ».

١٠٩ - و «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ خَيْرًا فَعَنِمَ، أَوْ سَكَتَ، فَسَلِمَ».

١١٠ - وقوله: «أَسْلِمَ تَسْلَمَ، وَأَسْلِمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ» [البخاري (٢٩٤١)، مسلم (١٧٧٣)].

١١١ - و «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجَالِسُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، الْمُوْطَّوُونَ أَكْثَافًا، الَّذِينَ يَأْلِفُونَ وَيُؤْلَفُونَ» [الترمذي (٢٠١٨)].

١١٢ - وقوله: «لَعَلَّه كَلَنْ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَغْنِيهِ، وَبِيَخُلُ بِمَا لَا يُغْنِيهِ» [الترمذي (٢٣١٦)].

١١٣ - وقوله: «ذُو الْوَجْهَيْنِ لَا يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا» [أبو داود (٤٨٧٣)، البخاري (٧١٧٩)، مسلم (٢٥٢٦)].

١١٤ - وَنَهَيْهِ عَنْ «قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ، وَمَنْعِ وَهَاتِ، وَعَقُوقِ الْأَمْهَاتِ، وَوَادِ الْبَنَاتِ» [البخاري (٥٩٧٥)، مسلم (١٢/٥٩٣)].

١١٥ - وقوله: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّبِيلَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» [الترمذي (١٩٨٧)].

١١٦ - وقوله: «خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا».

١١٧ - وقوله: «أَخْبِيبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ يَفِيضُكَ يَوْمًا مَا» [الترمذي (١٩٩٧)].

١١٨ - وقوله: «الظُّلُمُ ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [البخاري (٢٤٤٧)، مسلم (٢٥٧٩)].

١١٩ - وقوله في بعض دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ! إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وَتُلْمُ بِهَا شَعْثِي، وَتُضْلِحُ بِهَا غَائِبِي، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي، وَتَزَكِّي بِهَا عَمَلِي، وَتُلْهِمَنِي بِهَا رُشْدِي، وَتَرُدُّ بِهَا أَلْفَتِي، وَتَغْصِمَنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سَوْءٍ. اللَّهُمَّ! إِنِّي أَسْأَلُكَ الْفَوْزَ فِي الْقَضَاءِ، وَنَزْلَ الشَّهَادَةِ، وَعَيْشَ السُّعْدَاءِ، وَالنَّصْرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ» [الترمذي (٣٤١٩)].

إِلَى مَا رَوَّاهُ الْكَافَّةُ عَنْ الْكَافَةِ مِنْ مَقَامَاتِهِ، وَمُحَاضِرَاتِهِ، وَخُطْبِهِ، وَأَذْعِيَّتِهِ، وَمَخَاطَبَاتِهِ، وَعَهْوِيَّةِ، مِمَّا لَا خِلَافَ أَنَّهُ نَزَلَ مِنْ ذَلِكَ مَرْقَبَةٌ لَا يُقَاسُ بِهَا غَيْرُهُ، وَحَازَ فِيهَا سَبَقًا لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ.

وَقَدْ جَمَعْتُ مِنْ كَلِمَاتِهِ الَّتِي لَمْ يُسَبِّقْ إِلَيْهَا، وَلَا قَدَرُ أَحَدٌ أَنْ يُفْرَغَ فِي قَالِبِهِ عَلَيْهَا.

١٢٠ - كَقَوْلِهِ: «حَمِيٍّ الْوُطَيْسُ» [مسلم (١٧٧٥)].

١٢١ - وَ «مَاتَ حَتَفَ أَفْنِهِ».

١٢٢ - وَ «لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُخْرٍ مَرَّتَيْنِ» [البخاري (٦١٣٣)، مسلم

(٢٩٩٨)].

١٢٣ - و «السعيد مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ» [مسلم (٢٦٤٥)، ابن ماجه (٤٦)]. في أخواتها ما يُذَكِّرُ الناظرَ العَجَبُ في مُضْمِنِهَا، ويذهبُ به الفِكْرُ في أداني حِكْمِهَا.

١٢٤ - وقد قال له أصحابه: ما رأينا الذي هو أَفْصَحُ منك! فقال: «وما يَمْتَعْنِي؟ وإنما أنزلَ القرآنُ بلساني، لسانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ».

١٢٥ - وقال مرة أخرى: «أنا أَفْصَحُ العربِ بَيْدَ أَنِي من قريش، ونشأتُ في بقي سَعْدٍ».

فَجُمِعَ له بذلك ﷺ قُوَّةُ عَارِضَةِ البادية وَجَزَالَتِهَا، وَنَصَاعَةُ أَلْفَاظِ الحاضرة، وَرَوْنَتْ كَلَامِهَا، إلى التأييدِ الإلهي الذي مَدَّه الْوَحْيُ الذي لا يُحِيطُ بعلمه بِشَرِي.

١٢٦ - وقالت أُمُّ مَعْبِدٍ في وَصْفِهَا له: حُلُوُ المنطق، فَضْلٌ، لا تَزُرُّ ولا مَلْزَرٌ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَزَزَاتٌ تُظْمِنُ.

وكان جَهِيرَ الصوت، حَسَنَ الثَّغْمَةِ ﷺ.

فصل

فِي شَرَفِ نَسَبِهِ ﷺ وَكَرَمِ بَلَدِهِ وَمَنْشَأِهِ

وأما شَرَفُ نَسَبِهِ ﷺ وَكَرَمُ بَلَدِهِ وَمَنْشَأُهُ فَمِمَّا لا يَحْتَاجُ إلى إقامة دليل عليه، ولا بَيَانٍ مُشْكِلٍ، ولا خَفِيٍّ منه؛ فإنه نُخْبَةٌ بني هاشم، وَسُلَالَةٌ قريش وَصَمِيمُهَا، وَأَشْرَفُ العرب، وَأَعَزُّهُمْ نَفَرًا من قِبَلِ أبيه وأمه، ومن أهل مكة، مِنْ أَكْرَمِ بِلَادِ اللَّهِ، عَلَى اللَّهِ، وَعَلَى عِبَادِهِ.

١٢٧ - حدثنا قَاضِي القُضَاة: حُسَيْنُ بن مُحَمَّدٍ الصَّدْفِي رحمه الله، قال: حدثنا القاضي أَبُو الوليد: سَلِيمَانُ بن خَلْفٍ، حدثنا أَبُو ذَرٍّ: عَبْدُ بن أَحْمَدَ، حدثنا أَبُو مُحَمَّدٍ السَّرْخَسِي، وَأَبُو إِسْحَاقَ وَأَبُو الهَيْثَمِ قالوا: حدثنا مُحَمَّدُ بن يوسُفَ قال: حدثنا مُحَمَّدُ بن إِسْمَاعِيلَ، قال: حدثنا قُتَيْبَةُ بن سَعِيدٍ قال: حدثنا يَعْقُوبُ بن عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ سَعِيدِ المَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «بُعِثْتُ من خَيْرِ قُرُونِ بني آدمَ قُرْنًا فَقَرْنًا، حَتَّى كُنْتُ من الْقَرْنِ الذي كُنْتُ مِنْهُ» [البخاري (٣٥٥٧)].

١٢٨ - وعن العباس، قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ، مِنْ خَيْرِ قُرُونِهِمْ، ثُمَّ تَخَيَّرَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ قَبِيلَةٍ ثُمَّ تَخَيَّرَ الْبُيُوتَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ بُيُوتِهِمْ، فَأَنَا خَيْرُهُمْ نَفْسًا، وَخَيْرُهُمْ بَيْتًا» [الترمذي (٣٦٠٧)].

١٢٩ - وعن وإثله بن الأسقع، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» [مسلم (٢٢٧٦)، الترمذي (٣٦٠٥)].

قال الترمذي: وهذا حديث حسن صحيح.

١٣٠ - وفي حديث عن ابن عمر، رواه الطبري أنه ﷺ قال: «إن الله اختار خلقه، فاختار منهم بني آدم، ثم اختار بني آدم، فاختار منهم العرب، ثم اختار العرب، فاختار منهم قريشاً، ثم اختار قريشاً، فاختار منهم بني هاشم، ثم اختار بني هاشم فاختارني منهم فلم أزل خياراً من خيار، ألا من أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فيبغضني أبغضهم».

١٣١ - وعن ابن عباس: أن النبي ﷺ كانت رُوحه نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم بالفي عام، يسبح ذلك النور، وتسبح الملائكة بتسبيحه، فلما خلق الله آدم ألقى ذلك النور في صلبه، فقال رسول الله ﷺ: «فأبطنني الله إلى الأرض في صلب آدم، وجعلني في صلب نوح، وقذف بي في صلب إبراهيم، ثم لم يرزل الله تعالى ينقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة، حتى أخرجني بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قط».

١٣١م - ويشهد لصحة هذا الخبر شغل العباس في مدح النبي ﷺ

المشهور.

فصل

فِيمَا كَانَ التَّمَدُّحُ وَالْكَمَالُ بِقَلْبِهِ

وأما ما تدعو ضرورة الحياة إليه مما فصلناه فعلى ثلاثة ضروب: ضرب الفضل في قلبه، وضرب الفضل في كثرته، وضرب تختلف الأحوال فيه.

فأما ما التمدح والكمال بقلبه اتفاقاً، وعلى كل حال، عادةً وشريعةً، كالغذاء والنوم، ولم تزل العرب والحكماء تتماذج بقلبيهما، وتذم بكثرتهما؛ لأن كثرة الأكل والشرب دليل على الثهم والحزص، والشرة، وغلبة الشهوة، مسبب لمضار الدنيا والآخرة، جالب لأدواء الجسد، وخسارة النفس، وامتلاء الدماغ.

وقلته دليل على القناعة، وملك النفس؛ وقمع الشهوة، مسبب للصحة، وصفاء خاطر، وحدة ذهن، كما أن كثرة النوم دليل على الفسولة والضعف؛

وعدم الذكاء، والفطنة، مسبب للكسل، وعادة العجز، وتضييع العمر في غير نفع، وقساوة القلب، وعفلة، وموته.

والشاهد على هذا ما يُعلم ضرورة، ويوجد مشاهدة، ويُقَل متواتراً من كلام الأمم المتقدمة، والحكماء السالفين، وأشعار العرب وأخبارها، وصحيح الحديث، وآثار من سلف وخلف، مما لا يُحتاج إلى الاستشهاد عليه وإنما تركنا ذكره هنا اختصاراً واقتصاراً على اشتها العلم به.

وكان النبي ﷺ قد أخذ من هذين الفئتين بالأقل.

هذا ما لا يُدفع من سيرته، وهو الذي أمر به، وحض عليه، لا سيما بارتباط أحدهما بالآخر.

١٣٢ - حدثنا أبو علي الصّدفي الحافظ بقراءتي عليه، حدثنا أبو الفضل الأصبهاني، حدثنا أبو نعيم الحافظ، حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا بكر بن سهل، حدثنا عَبْدُ اللَّهِ بن صالح، حدثني معاوية بن صالح أَنَّ يَحْيَى بن جابر حَدَّثَهُ عن المِقْدَام بن مَعْدِي كَرَب أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «ما ملأ ابنُ آدم وعاءَ شراً من بطنه، حَسْبُ ابنِ آدم أَكَلات يُقَمِّنُ ضُلْبَهُ، فَإِنْ كان لا محالة، فَثَلْثَ لَطْعَامِهِ، وَثَلْثَ لَشْرَابِهِ، وَثَلْثَ لِنَفْسِهِ» [الترمذي (٢٣٨٠)، ابن ماجه (٢٣٤٩)].

ولأن كثرة النوم من كثرة الشرب والأكل.

قال سفيان الثوري: بِقَلَّةِ الطعام يُمَلِّكُ سَهْرُ الليل.

وقال بعض السلف: لا تأكلوا كثيراً، فتشربوا كثيراً، فَتَرْقُدُوا كثيراً، فَتُخَسِرُوا كثيراً.

١٣٣ - وقد روي عنه ﷺ أنه كان أحبَّ الطعام إليه ما كان على صَفَفٍ [الترمذي (١٣٨)]؛ أي كثرة الأيدي.

١٣٤ - وعن عائشة رضي الله عنها: لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شَبَعاً قط، وأنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يَتَشَهَّاه، إِنْ أطعموه أكل، وما أطعموه قَبِل، وما سَقَّوه شَرِب.

١٣٥ - ولا يُعْتَرَضُ على هذا بحديث بَرِيزَة، وقوله: «أَلَمْ أَرِ الْبُرْزَةَ فِيهَا لَحْمٌ؟» [البخاري (٥٠٩٧)، مسلم (١٤/١٥٠٤)] إذ لعلَّ سبب سؤاله ظَنَّهُ ﷺ اعتقادهم أنه لا يَجِلُّ لَهُ؛ فأراد بيان سُنَّتِهِ، إذ رآهم لم يُقَدِّمُوهُ إليه، مع علمه أنهم لا يستأثرون عليه به، فصَدَّقَ عليهم ظَنَّهُ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ ما جَهِلُوهُ من أمرِهِ بقوله: «هو لها صدقة ولنا هديّة».

وفي حِكْمَةِ لُقْمَانَ: يَا بُنَيَّ! إِذَا امْتَلَأَتِ الْمَعِدَةُ نَامَتِ الْفِكْرَةُ، وَخَرِسَتِ الْحِكْمَةُ، وَقَعَدَتِ الْأَعْضَاءُ عَنِ الْعِبَادَةِ.

وَقَالَ سُخُونٌ: لَا يَصْلُحُ الْعِلْمُ لِمَنْ يَأْكُلُ حَتَّى يَشْبَعَ.

١٣٦ - وفي صحيح الحديث قوله ﷺ: «أَنَا فَلَ أَكَلُ مُتَكِنًا» [البخاري (٥٣٩٨)، الترمذي (١٨٣٠)].

وَالِاتِّكَاءُ: هُوَ التَّمَكُّنُ لِلْأَكْلِ، وَالتَّقَعُّدُ فِي الْجُلُوسِ لَهُ كَالْمَتَرِّعِ، وَشِبْهِهِ مِنْ تَمَكُّنِ الْجُلُوسَاتِ الَّتِي يَعْتَمِدُ فِيهَا الْجَالِسُ عَلَى مَا تَحْتَهُ، وَالْجَالِسُ عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ يَسْتَدْعِي الْأَكْلَ وَيَسْتَكْبِرُ مِنْهُ.

١٣٧ - وَالنَّبِيُّ ﷺ إِنَّمَا كَانَ جُلُوسُهُ لِلْأَكْلِ جُلُوسُ الْمُسْتَوْفِزِ مُفْعِيًا [مُسْلِم (٢٠٤٤)].

١٣٨ - وَيَقُولُ: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، أَكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ».

وَلَيْسَ مَعْنَى الْحَدِيثِ فِي الْإِتِّكَاءِ الْمِيلُ عَلَى شَيْءٍ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ.

وَكَذَلِكَ نَوْمُهُ ﷺ كَانَ قَلِيلًا، شَهِدَتْ بِذَلِكَ الْأَنَارُ الصَّحِيحَةُ.

١٣٩ - وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ قَالَ ﷺ: «إِنَّ عَيْنِي تَنَامَانُ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي» [البخاري (١١٤٧)، مُسْلِم (٧٣٨)].

١٤٠ - وَكَانَ نَوْمُهُ عَلَى جَانِبِهِ الْأَيْمَنِ [التَّرمِذِي (٣٣٩٩)، النَّسَائِي (٧٨٥)] اسْتَظْهَارًا عَلَى قَلَّةِ النَّوْمِ؛ لِأَنَّهُ عَلَى الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ أَهْنًا، لِهَدْوِ الْقَلْبِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الْأَعْضَاءِ الْبَاطِنَةِ حِينَئِذٍ، لِمِيلِهَا إِلَى الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ؛ فَيَسْتَدْعِي ذَلِكَ الْاسْتِثْقَالَ فِيهِ وَالطُّوْلَ.

وَإِذَا نَامَ النَّائِمُ عَلَى الْأَيْمَنِ تَعَلَّقَ الْقَلْبُ وَقَلَبَ، فَاسْرِعِ الْإِفَاقَةَ وَلَمْ يَغْمَرْهُ الْاسْتِغْرَاقُ.

فصل

فِي مَا التَّمَدُّحُ بِكَثْرَتِهِ

وَالضَّرْبُ الثَّانِي: هُوَ مَا يَتَفَقُّ التَّمَدُّحُ بِكَثْرَتِهِ، وَالْفَخْرُ بِوُفُورِهِ، كَالنِّكَاحِ وَالْجَاهِ. فَأَمَّا النِّكَاحُ: فَمَتَّفَقٌ فِيهِ شَرْعًا وَعَادَةً؛ فَإِنَّهُ دَلِيلُ الْكَمَالِ، وَصَحَّةِ الذِّكْرِ، وَلَمْ يَزَلْ التَّفَاخُرُ بِكَثْرَتِهِ عَادَةً مَعْرُوفَةً، وَالتَّمَادُّحُ بِهِ سِيرَةٌ مَاضِيَةٌ.

١٤١ - وَأَمَّا فِي الشَّرْعِ فَسُتَّةٌ مَأْثُورَةٌ؛ وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَفْضَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً [البخاري (٥٠٦٩)]. مُشِيرًا إِلَيْهِ ﷺ.

١٤٢ - وقد قال عليه السلام: «تَنَاجَوْا تَنَامَلَوْا، فَإِنِّي مُبَاهٍ بِكُمْ الْأَمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

١٤٣ - ونَهَى عن التَّبَتُّلِ [البخاري (٥٠٧٣)، مسلم (١٤٠٢)] مع ما فيه من قَنَعِ الشَّهْوَةِ، وَغَضِّ البَصَرِ اللَّذَيْنِ نَبَّهَ عَلَيْهِمَا ﷺ بقوله:

١٤٤ - «مَنْ كَانَ ذَا طَوَلٍ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ، وَأَخْصَنُ لِلْفَرْجِ» [البخاري (٥٠٦٦)، مسلم (١٤٠٠)] حتى لم يره العلماء مما يَقْدَحُ في الزهد. قال سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: قَدْ حُبِّبَنِي إِلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، فَكَيْفَ يُزْهَدُ فِيهِنَّ؟ وَنَحْوُهُ لَابْنِ عُيَيْنَةَ.

وقد كان زُهَادُ الصَّحَابَةِ كَثِيرِي الزَّوْجَاتِ وَالسَّرَارِي، كَثِيرِي النِّكَاحِ. وَحُكِيَ فِي ذَلِكَ عَنْ عَلِيٍّ، وَالْحَسَنِ، وَابْنِ عُمَرَ، وَغَيْرِهِمْ غَيْرُ شَيْءٍ. وَقَدْ كَرِهَ غَيْرُ وَاحِدٍ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ عَزَبًا.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَكُونُ النِّكَاحُ وَكَثْرَتُهُ مِنَ الْفَضَائِلِ، وَهَذَا يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَثْنَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ حَضُورًا؛ فَكَيْفَ يُثْنِي اللَّهُ بِالْعَجْزِ عَمَّا تَعُدُّهُ فَضِيلَةً؟

وهذا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - تَبَتَّلَ مِنَ النِّسَاءِ، وَلَوْ كَانَ كَمَا قُرِئَتْ لَنَتَّحَ؟

فاعلم أَنَّ ثَنَاءَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى يَحْيَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِأَنَّهُ حَضُورٌ لَيْسَ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ:

إِنَّهُ كَانَ هَيُوبًا، أَوْ لَا ذَكَرَ لَهُ؛ بَلْ قَدْ أَنْكَرَ هَذَا حَدِّاقُ الْمَفْسَرِينَ وَنَقَّادُ الْعُلَمَاءِ، وَقَالُوا: هَذِهِ نَقِیْصَةٌ وَعَيْبٌ، وَلَا تَلِيقُ بِالْأَنْبِيَاءِ.

وإنما معناه أَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنَ الذَّنُوبِ: أَي لَا يَأْتِيهَا، كَأَنَّهُ حُصِرَ عَنْهَا. وَقِيلَ: مَانِعًا نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ.

وقيل: لَيْسَتْ لَهُ شَهْوَةٌ فِي النِّسَاءِ.

فقد بان لك من هذا أَنَّ عَدَمَ الْقُدْرَةِ عَلَى النِّكَاحِ نَقْصٌ، وَإِنَّمَا الْفَضْلُ فِي كَوْنِهَا مَوْجُودَةً، ثُمَّ قَمَعُهَا؛ إِمَّا بِمُجَاهَدَةٍ، كَعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَوْ بِكَفَايَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، كِيَحْيَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَضِيلَةٌ زَائِدَةٌ لَكَوْنِهَا شَاغِلَةً فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، حَاطَةً إِلَى الدُّنْيَا.

ثُمَّ هِيَ فِي حَقِّ مَنْ أَقْدِرَ عَلَيْهَا وَمُلْكَهَا وَقَامَ بِالْوَاجِبِ فِيهَا، وَلَمْ تَشْغَلْهُ عَنْ رَبِّهِ دَرَجَةً عُلى، وَهِيَ دَرَجَةُ نَبِيْنَا مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي لَمْ تَشْغَلْهُ كَثْرَتُهُنَّ عَنْ عِبَادَةِ

رَبِّهِ؛ بَلْ زَادَهُ ذَلِكَ عِبَادَةً، لِتَخْصِيصِنَهُنَّ، وَقِيَامِهِ بِحَقُوقِهِنَّ، وَاكْتِسَابِهِ لَهُنَّ، وَهَدَايَتِهِ إِيَّاهُنَّ؛ بَلْ صَرَّحَ أَنَّهُمَا لَيْسَتْ مِنْ حُظُوظِ دُنْيَاهُ هُوَ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ حُظُوظِ دُنْيَا غَيْرِهِ.

١٤٥ - فقال: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ». فدلَّ على أَنَّ حُبَّهُ لِمَا ذَكَرَ مِنَ النِّسَاءِ وَالطُّيْبِ اللَّذَيْنِ هُمَا مِنْ أَمْرِ دُنْيَا غَيْرِهِ، وَاسْتِعْمَالِهِ لِذَلِكَ لَيْسَ لِدُنْيَاهُ، بَلْ لِآخِرَتِهِ؛ لِلْفَوَائِدِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي التَّزْوِيجِ، وَلِلْقَاءِ الْمَلَائِكَةِ فِي الطُّيْبِ؛ وَلِأَنَّهُ أَيْضاً مِمَّا يَخْضُصُ عَلَى الْجَمَاعِ، وَيُعِينُ عَلَيْهِ، وَيَحْرُكُ أَسْبَابَهُ.

وَكَانَ حُبُّهُ لِهَاتَيْنِ الْخَصْلَتَيْنِ لِأَجْلِ غَيْرِهِ، وَقَمَعَ شَهْوَتَهُ؛ وَكَانَ حُبُّهُ الْحَقِيقِيُّ الْمَخْتَصُّ بِذَاتِهِ فِي مَشَاهِدَةِ جَبَرُوتِ مَوْلَاهُ وَمَنَاجَاتِهِ؛ وَلِذَلِكَ مَيَّزَ بَيْنَ الْحُبِّينِ، وَفَصَّلَ بَيْنَ الْحَالَيْنِ.

١٤٦ - فقال: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»؛ فَقَدْ سَاوَى يَحْيَى وَعِيسَى فِي كِفَايَةِ فَتْنَتِهِنَّ، وَزَادَ فَضِيلَةَ بِالْقِيَامِ بِهِنَّ.

وَكَانَ ﷺ مِمَّنْ أُقْدِرَ عَلَى الْقُوَّةِ فِي هَذَا، وَأُعْطِيَ الْكَثِيرَ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا أُبَيِّحُ لَهُ مِنْ عَدَدِ الْحَرَائِرِ مَا لَمْ يُبَيِّحْ لغيرِهِ.

١٤٧ - وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ أَنَسٍ: أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَدُورُ عَلَى نِسَائِهِ فِي السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهَنَّ إِحْدَى عَشْرَةَ. قَالَ أَنَسٌ: وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ أُعْطِيَ قُوَّةَ ثَلَاثِينَ رَجُلًا [البخاري (٢٦٨، ٢٨٤)، مسلم (٣٠٩)، النسائي (٥٣/٦)، (٥٤)].

١٤٨ - وَرَوَى نَحْوَهُ عَنْ أَبِي رَافِعٍ [أَبُو دَاوُدَ (٢١٩)، ابْنُ مَاجَهَ (٥٩٠)].

وَعَنْ طَاوُوسٍ: أُعْطِيَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُوَّةَ أَرْبَعِينَ رَجُلًا فِي الْجَمَاعِ. وَمِثْلُهُ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ.

١٤٩ - وَقَالَتْ سَلْمَى مَوْلَاثُهُ: طَافَ النَّبِيُّ ﷺ لَيْلَةً عَلَى نِسَائِهِ التَّسْعِ، وَتَطَهَّرَ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْآخَرَى؛ وَقَالَ: «هَذَا أَطِيبُ وَأَطْهَرُ».

١٥٠ - وَقَدْ قَالَ سُلَيْمَانُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: لَا طُوفَنَ اللَّيْلَةَ عَلَى مِثَّةِ امْرَأَةٍ أَوْ تِسْعِ وَتِسْعِينَ [البخاري (٢٨١٩)، مسلم (١٦٥٤)]. وَأَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ.

١٥١ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ فِي ظَهْرِ سُلَيْمَانَ مَاءٌ مِثَّةِ رَجُلٍ أَوْ تِسْعِ وَتِسْعِينَ، وَكَانَتْ لَهُ ثَلَاثُ مِثَّةِ امْرَأَةٍ، وَثَلَاثُ مِثَّةِ سُرْيَةٍ.

١٥١م - وَحَكَى النَّقَّاشُ وَغَيْرُهُ: سَبْعَ مِثَّةِ امْرَأَةٍ، وَثَلَاثَ مِثَّةِ سُرْيَةٍ.

١٥١م - وَقَدْ كَانَ لِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى زُفْهِدِهِ، وَأَكْلِهِ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ - تِسْعَ وَتِسْعُونَ امْرَأَةً، وَتَمَّتْ بِزَوْجِ أَوْرِيَا مِثَّةٌ.

وقد نبّه على ذلك في الكتاب العزيز بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً﴾ [ص: ٢٣].

١٥٢ - وفي حديث أنس عنه، عليه السلام: «فُضِّلْتُ عَلَى النَّاسِ بِأَرْبَعٍ: بِالسَّخَاءِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَكَثْرَةِ الْجَمَاعِ، وَقُوَّةِ الْبَطْشِ».

وأما الجاهُ فمحمودٌ عند العقلاء عادةً، ويقدَّرُ جَاهُهُ عِظَمُهُ فِي الْقُلُوبِ. وقد قال الله تعالى في صفة عيسى عليه السلام: ﴿وَجِئْنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥] لكن آفَاتُهُ كَثِيرَةٌ؛ فَهُوَ مُضِرٌّ بَعْضُ النَّاسِ لِعُقُوبِ الْآخِرَةِ، فَلِذَلِكَ ذَمُّهُ مَنْ ذَمَّهُ، وَمَدَحُ ضِدُّهُ.

ووردَ فِي الشَّرْعِ مَدْحُ الْخُمُولِ، وَذَمُّ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ. وَكَانَ ﷺ قَدْ زُرِقَ مِنَ الْجَشَمَةِ، وَالْمَكَانَةِ فِي الْقُلُوبِ، وَالْعِظَمَةِ قَبْلَ النُّبُوَةِ عِنْدَ الْجَاهِلِيَّةِ وَبَعْدَهَا، وَهُمْ يَكْذِبُونَهُ وَيُؤْذُونَ أَصْحَابَهُ، وَيَقْصِدُونَ أَذَاهُ فِي نَفْسِهِ خُفْيَةً حَتَّى إِذَا وَاجَهُهُمْ أَعْظَمُوا أَمْرَهُ، وَقَضَوْا حَاجَتَهُ. وَأَخْبَارُهُ فِي ذَلِكَ مَعْرُوفَةٌ سَيَأْتِي بَعْضُهَا.

وقد كَانَ يَنْهَتْ وَيَفَرِّقُ مِنْ رُؤْيَتِهِ مَنْ لَمْ يَرِهِ. ١٥٣ - كَمَا رُوِيَ عَنْ قُبَيْلَةَ أَنَّهَا لَمَّا رَأَتْهُ أَزْعَدَتْ مِنَ الْفَرَقِ؛ فَقَالَ: «يَا مَسْكِينَةُ! عَلَيْكَ السَّكِينَةُ» [البخاري (١١٨٣)، أبو داود (٤٨٤٧)، الترمذي (١١٩)].

١٥٤ - وَفِي حَدِيثِ أَبِي مَسْعُودٍ أَنَّ رَجُلًا قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَزْعَدَ؛ فَقَالَ لَهُ ﷺ: «هُوَ عَلَىكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ...». الْحَدِيثُ [ابن ماجه (٣٣١٢)].

فَأَمَّا عَظِيمُ قَدْرِهِ بِالنُّبُوَةِ، وَشَرِيفُ مَنْزِلَتِهِ بِالرَّسَالَةِ، وَإِنَاقَةُ رُتْبَتِهِ بِالْإِصْطِفَاءِ وَالْكَرَامَةِ فِي الدُّنْيَا، فَأَمْرٌ هُوَ مَبْلُغُ النِّهَايَةِ، ثُمَّ هُوَ فِي الْآخِرَةِ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ. وَعَلَى مَعْنَى هَذَا الْفَصْلِ نَظَمْنَا هَذَا الْقِسْمَ بِأَسْرِهِ.

فصل

فِيمَا تَخْتَلِفُ الْحَالَاتُ

فِي التَّمَدُّحِ بِهِ وَالتَّفَاخُرِ بِسَبَبِهِ

وَأَمَّا الضَّرْبُ الثَّلَاثُ: فَهُوَ مَا تَخْتَلِفُ الْحَالَاتُ فِي التَّمَدُّحِ بِهِ وَالتَّفَاخُرِ بِسَبَبِهِ، وَالتَّفْضِيلِ لِأَجَلِهِ، كَكَثْرَةِ الْمَالِ. فَصَاحِبُهُ عَلَى الْجُمْلَةِ مُعَظَّمٌ عِنْدَ الْعَامَةِ، لِاعْتِقَادِهَا تَوْصُلَهُ بِهِ إِلَى حَاجَاتِهِ، وَتَمَكُّنِ أَغْرَاضِهِ بِسَبَبِهِ، وَإِلَّا فَلَيْسَ فَضِيلَةً فِي نَفْسِهِ، فَمَتَى كَانَ الْمَالُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ، وَصَاحِبُهُ مُنْفِقًا لَهُ فِي مِهْمَاتِهِ وَمِهْمَاتٍ مِنْ

اعتراه، وأَمَلَهُ؛ وتصريفه في مواضعه، مُشْتَرِياً به المَعَالِي والثَّناء الحسن، والمنزلة من القلوب، كان فضيلةً في صاحبه عند أهل الدنيا.

وإذا صرفه في وجوه البر، وأنفقه في سبيل الخير، وقصد بذلك الله والدار الآخرة، كان فضيلةً عند الكل بكل حال، ومتى كان صاحبه مُمَسِكاً له غير موجّه وجوهه، حريصاً على جَمْعِهِ، عاد كُثْرُهُ كَالْعَدَمِ، وكان مُنْقَصَةً في صاحبه، ولم يَقِفْ به على جَدَدِ السلامة؛ بل أوقعه في هَوَاةِ رذيلةِ البُخْلِ، ومَذْمَةِ التَّدَالَةِ؛ فإذا التَمَدَّحُ بالمال وفضيلته عند مُفَضِّلِيهِ ليست لنفسه، وإنما هو للتوصّل به إلى غيره، وتصريفه في مُتَصَرِّفَاتِهِ، فجامعُهُ إذا لم يَضَعْ مواضعه، ولا وَجْهَهُ وجوهه غَيْرُ مَلِيٍّ بالحقيقة، ولا غَنِيٍّ بالمعنى، ولا مُتَمَدِّحٌ عند أَحَدٍ من العقلاء؛ بل هو فقير أبدأ، غَيْرُ واصل إلى غَرَضٍ من أغراضه؛ إذ ما يَبْدُو من المال الموصّل لها لم يُسَلِّطْ عليه، فأشبهه خازن مال غيره، ولا مال له؛ فكأنه ليس في يده منه شيء.

والمُنْفِقُ مَلِيٍّ وغَنِيٌّ بتحصيله فوائد المال، وإن لم يَبْقَ في يده من المال شيء.

فانظُرْ سيرةَ نبيِّنا ﷺ وخُلُقَهُ في المالِ تجذّه قد أوتي خزائن الأرض، ومفاتيح البلاد، وأحلّت له الغنائم، ولم تحلّ لنبِيِّ قبله، وفتح عليه في حياته ﷺ بلادَ الحجاز واليمن، وجميعَ جزيرة العرب، وما ذائق ذلك من الشام والعراق، وجلبت إليه من أخماسها وجزيتها وصدقاتها ما لا يُجِبِّي للملوك إلا بعضه، وهادته جماعة من ملوك الأقاليم فما استأثر بشيء منه، ولا أمسك منه درهماً؛ بل صرفه مصارفه، وأغنى به غَيْرَهُ، وقوى به المسلمين.

١٥٥ - وقال: «ما يسرني أن لي أخداً ذهباً يبيت عندي منه دينار، إلا ديناراً أُرْصِدُهُ لِدِينِي» [البخاري (٦٤٤٤، ٦٤٤٥)، مسلم (٣٢/٩٤)، (٩٩١)].

١٥٦ - وأتته دنانير مرةً فقسمها، وبقيت منها سِتَّةٌ؛ فدفعها لبعض نسائه، فلم يأخذهُ نوم حتى قام وقسمها، وقال: «الآن استرحُ».

١٥٧ - ومات ودرعهُ مرهونةً في نَفَقَةِ عِيَالِهِ [البخاري (٤٤٦٧)، مسلم (١٦٠٣)]. واقتصر من نَفَقَتِهِ وَمَلْبَسِهِ ومسكنه على ما تدعوهُ ضرورته إليه.

وزَهْدٌ فيما سِوَاهُ، فكان يَلْبَسُ ما وجده؛ فيَلْبَسُ في الغالب السُّمْلَةَ، والكساءَ الخَشِينَ، والبُرْدَ الغليظ، ويُقَسِّمُ على مَنْ حضره أَقْبِيَّةَ الديباج المَحْصُوة بالذهب، ويرفَعُ لِمَنْ لم يحضره؛ إذ المُبَاهَاةُ في الملابس والتزيّن بها ليست من

خصال الشرف والجلالة، وهي من سمات النساء.
والمحمود منها نقاوة الثوب، والتوسط في جنسه، وكونه لبس مثله، غير
مُسْقِطٍ لمروءة جنسه، مما لا يؤدي إلى الشهرة في الطرقتين.
وقد دَمَّ الشرع ذلك؛ وغاية الفخر فيه في العادة عند الناس إنما يعود إلى
الفخر بكثرة الموجود، ووفور الحال.
وكذلك التباهي بجودة المسكن، وسعة المنزل، وتكثير آلاته وخدمته
ومركوباته.

وَمَنْ مَلَكَ الْأَرْضَ، وَجَبَّيَ إِلَيْهِ مَا فِيهَا، فَتَرَكَ ذَلِكَ زُهْدًا وَتَنْزُهًا، فَهُوَ
حَائِزٌ لِفَضِيلَةِ الْمَالِيَّةِ، وَمَالِكٌ لِلْفَخْرِ بِهَذِهِ الْخَصْلَةِ - إِنْ كَانَتْ فَضِيلَةً - زَائِدٌ عَلَيْهَا
فِي الْفَخْرِ، وَمُعْرِقٌ فِي الْمَدْحِ بِإِضْرَابِهَا عَنْهَا، وَزُهْدِيهِ فِي فَانِيهَا، وَبَذْلِهَا فِي
مَظَانِّهَا.

فصل في حسن خلقه

وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة التي اتفق
جميع العقلاء على تفضيل صاحبها، وتعظيم المتصيف بالخلق الواحد منها، فضلاً
عما فوقه، وأثنى الشرع على جميعها، وأمر بها، ووعد السعادة الدائمة للمتخلق
بها، ووصف بغضها بأنه من أجزاء النبوة، وهي المسماة بحسن الخلق؛ وهو
الاعتدال في قوى النفس وأوصافها، والتوسط فيها دون الميل إلى منحرف
أطرافها؛ فجميعها قد كانت خلق نبينا محمد ﷺ على الانتهاء في كمالها،
والاعتدال إلى غايتها، حتى أثنى الله تعالى عليه بذلك فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى
خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

١٥٨ - قالت عائشة - رضي الله عنها -: كان خلقه - ﷺ - القرآن، يرضى
برضاه، ويسخط بسخطه.

١٥٩ - وقال ﷺ: «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» [أحمد (٣٨١/٢)].

١٦٠ - قال أنس: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً [البخاري (٦٢٠٣)].

مسلم (٢١٥٠).

١٦١ - وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مثله.

وكان فيما ذكره المحققون مجبولاً عليها في أضل خلقته وأول فطرته، لم

تَحْصُلُ لَهُ بِاِكْتِسَابٍ وَلَا رِيَاضَةٍ إِلَّا بِجُودِ إِلَهِي، وَخُصُوصِيَّةِ رَبَّانِيَّةٍ.

وهكذا لسائر الأنبياء والمرسلين، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حَقَّقَ ذلك، كما عُرِفَ من حال عيسى، وموسى، ويحيى، وسليمان، وغيرهم، عليهم السلام.

بل غُرِثَ فيهم هذه الأخلاق في الجبلَّة، وأودِعُوا العِلْمَ والحِكْمَةَ في الفِطْرَةِ، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ الِحْكَمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

قال المفسِّرون: أُعْطِيَ يحيى العِلْمَ بكتاب الله تعالى في حال صباه.

١٦٢ - وقال مَعْمَرٌ: كان يحيى ابنَ ستين أو ثلاث، فقال له الصُّبيان: لِمَ لَا تَلْعَبُ؟ فقال: أَلَلْعَبِ خُلِقْتُ؟

وقيلَ في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّكَلِمَةِ رَبِّكَ﴾ [آل عمران: ٣٩]: صَدَّقَ يحيى بعيسى؛ وهو ابنُ ثلاث سنين، فشَهِدَ له أَنَّهُ كَلِمَةُ اللَّهِ وَرُوحُهُ.

وقيل: صَدَّقَهُ وهو في بطنِ أمه؛ فكانت أُمُّ يحيى تقولُ لمريم: إِنِّي أَجِدُ مَا فِي بَطْنِي يَسْجُدُ لِمَا فِي بَطْنِكِ؛ نَجِيَّةً لَهُ.

وقد نَصَّ اللَّهُ تعالى على كلام عيسى لأُمِّه عند ولادتها إياه بقوله لها: ﴿أَلَّا تَحْزَنَ﴾ [مريم: ٢٤] على قراءة من قرأ: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ [مريم: ٢٤] وعلى قول مَنْ قال: إن المَنَادِي عيسى عليه السلام.

ونَصَّ على كلامه في مَهْدِهِ، فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

وقال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ١٧٩].

١٦٣ - وقد ذُكِرَ من حِكْمِ سليمان وهو صبي يَلْعَبُ في قصة المَرْجُومَةِ.

١٦٤ - وفي قصة الصَّبِيِّ [البخاري (٦٧٦٩)، مسلم (١٧٢٠)] ما اقتدَى به داودُ أبوه.

وحكى الطبري أَنَّ عُمُرَهُ كان جِينَ أَوْتِي المُلْكِ اثني عشر عاماً.

وكذلك قصة موسى مع فرعون وأَخَذَهُ بِلُحْيَتِهِ وهو طِفْلٌ.

وقال المفسِّرون في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾

[الأنبياء: ٥١]؛ أَي هَدَيْنَاهُ صَغِيرًا؛ قاله مُجَاهِدٌ وغيره.

وقال ابنُ عطاء: اصطفاه قبل إِبْدَاءِ خَلْقِهِ.

وقال بعضهم: لَمَّا وُلِدَ إِبْرَاهِيمَ - عليه السلام - بعثَ اللَّهُ تعالى إليه مَلَكًا

يأمره عن الله أَن يَعْرِفَهُ بِقَلْبِهِ، وَيَذْكُرَهُ بِلِسَانِهِ؛ فقال: قد فَعَلْتُ، ولم يَقُلْ: أَفْعَلُ؛ فَذَلِكَ رُشْدُهُ.

وقيل: إن إلقاء إبراهيم - عليه السلام - في النار ومخنته كانت وهو ابنُ ستِّ عشرة سنة، وإن ابتلاء إسحاق بالذبح كان وهو ابنُ سبع سنين؛ وإن استدلال إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابنُ خمسة عشر شهراً.

وقيل: أوحى إلى يوسف وهو صبي عندما همَّ إخوته بإلقائه في الجُبِّ، يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].

إلى غير ذلك مما ذكر من أخبارهم.

١٦٤م - وقد حكى أهل السير أن أمنة بنت وهب أخبرت أن نبينا محمداً ﷺ ولد حين وُلد باسطاً يديه إلى الأرض، رافعاً رأسه إلى السماء.

١٦٥ - وقال في حديثه ﷺ: «لَمَّا نَشَأْتُ بُغِضْتُ إِلَى الْأَوْثَانِ. وَبُغِضَ إِلَيَّ الشُّعْرُ».

١٦٦ - و «لم أهُمَّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، فعصمني الله منهما، ثم لم أعُد».

ثم يَتِمُّكُنْ الأمرُ لهنَّ، وتترادف نفحات الله عليهنَّ، وتشرق أنوار المعارف في قلوبهنَّ، حتى يصلوا الغاية، ويبلغوا - باصطفاء الله تعالى لهنَّ بالنبوة في تحصيل هذه الخصال الشريفة - النهاية دون ممارسة ولا رياضة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُمْ وَأَسْوَفَ آيَاتُنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤].

وقد نجد غيرهم يطبع على بعض هذه الأخلاق دون جميعها، ويولد عليها، فيسهل عليه اكتساب تمامها عناية من الله تعالى، كما نشاهد من خلقه بعض الصبيان على حسن السمت، أو الشهامة، أو صدق اللسان، أو السَّماحة؛ وكما نجد بعضهم على ضيها؛ فبالاكتساب يكمل ناقصها، وبالرياضة والمجاهدة يستجلب معدومها، ويعتدل منحرفها، وباختلاف هذين الحالين يتفاوت الناس فيها.

١٦٦م - و «كُلُّ مُيسَّر لما خُلِقَ له» [البخاري (٤٩٤٥)، مسلم (٧/٢٦٤٦)]. ولهذا ما قد اختلف السلف فيها: هل هذا الخلق جيلة أو مكتسبة؟

فحكى الطبري عن بعض السلف أن الخلق الحسن جيلة وغيرة في العبد، وحكاه عن عبد الله بن مسعود، والحسن، وبه قال هو. والصواب ما أصْلَنَاهُ.

١٦٧ - وقد رَوَى سَعْدٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «كُلُّ الْخِلَالِ يُطْبَعُ عَلَيْهَا الْمُؤْمِنُ إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ».

١٦٨ - وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِهِ: وَالْجُبْنَ غَرَائِزُ يَضَعُهَا اللَّهُ حَيْثُ يَشَاءُ.
وهذه الأخلاق المحموده والخصال الجميلة كثيرة، ولكننا نذكر أصولها، ونشير إلى جميعها، ونحقق وصفه ﷺ بها إن شاء الله تعالى.

فصل

في نباهة عقله ﷺ

أما أصلُ فروعها، وعُنْصُرُ بناييعها، ونُقْطَةُ دائرتها فالعقل الذي منه ينبعث العلمُ والمعرفة، ويتفرع عن هذا ثقبُ الرأي، وجودةُ الفطنة، والإصابة، وصِدْقُ الظنِّ، والنظرُ للعواقب ومصالح النفس، ومجاهدةُ الشهوة، وحسنُ السياسة والتدبير، واقتناء الفضائل، وتجنب الرذائل.

وقد أشرنا إلى مكانه منه ﷺ، وبلوغه منه، ومن العلمِ الغاية التي لم يبلغها بشرٌ سواه.

وإذ جلالته محله من ذلك، ومما تفرع منه متحقق عند من تتبع مجاري أحواله، وأطراد سيره، وطالع جوامع كلامه، وحسن شمائله، وبدائع سيره، وحكم حديثه، وعلمه بما في التوراة والإنجيل والكتب المنزلة، وحكم الحكماء، وسير الأمم الخالية، وأيامها، وضرب الأمثال، وسياسات الأنام، وتقرير الشرائع وتأصيل الآداب النفيسة، والشيم الحميدة، إلى فنون العلوم التي اتخذ أهلها كلامه - عليه السلام - فيها قدوة، وإشاراته حجة؛ كالعبارة، والطب، والحساب، والفرائض، والنسب، وغير ذلك مما سببته في معجزاته - إن شاء الله تعالى - دون تعليم، ولا مُدَارسة، ولا مطالعة كتب من تقدم، ولا الجلوس إلى علمائهم؛ بل نبيُّ أميٍّ لم يُعرف بشيء من ذلك، حتى شرح الله صدره، وأبان أمره، وعلمه، وأقرأه، يُعلم ذلك بالمطالعة والبحث: من حاله ضرورة، وبالبرهان القاطع على نبوته نظراً؛ فلا نُطَوِّلُ بسردِ الأفاصيص، وآحاد القضايا؛ إذ مجموعها ما لا يأخذه حصر، ولا يُحيط به حفظ جامع، وبحسب عقله كانت معارفه ﷺ إلى سائر ما علمه الله تعالى وأطلع عليه من علم ما يكون وما كان، وعجائب قدرته، وعظيم ملكوته، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

حارت العقول في تقدير فضله عليه، وخَرِسَتِ الألسن دون وصف يحيط بذلك أو ينتهي إليه.

فصل

في حلمه واختماله وعفوه وصبره

وأما الحلم والاحتمال، والعفو مع القدرة، والصبر على ما يُكره؛ ويَبَيِّن هذه الألقاب فرق، فإنَّ الحلم: حالة توقُّر وثبات عند الأسباب المحرِّكات. والاحتمال: حبس النفس عند الآلام والمؤذيات. ومثلها الصبر، ومعانيها متقاربة. وأما العفو: فهو ترك المؤاخذه.

وهذا كله مما أذب الله تعالى به نبيه ﷺ، فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

١٦٩ - رَوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية سأل جبريل - عليه السلام - عن تأويلها، فقال له: حتى أسأل العالم.

ثم ذهب فاتاه، فقال: «يا محمد! إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ».

وقال له: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عِنْدِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقال: ﴿وَلَكِنْ صَبِرْ وَغْفِرْ إِنَّ ذَٰلِكَ لِمِنْ عَزْرِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

ولا خفاء بما يؤثر من حلمه واختماله، وأنَّ كلَّ حلِيم قد عُرِفَتْ منه زَلَّةٌ، وَخُفِظَتْ عنه هَفْوَةٌ، وهو ﷺ لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صَبْرًا، وعلى إسراف الجاهل إلا حِلْمًا.

١٧٠ - حدثنا القاضي أبو عبد الله: محمد بن علي الثَّغَلْبِي وغيره، قالوا: حدثنا محمد بن عتاب، حدثنا أبو بكر بن وafd القاضي وغيره، حدثنا أبو عيسى، حدثنا عُبَيْدُ اللَّهِ قَالَ: حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا مالك، عن ابن شهاب، عن عُرْوَةَ، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ما خَيْرَ رَسُولٍ لِلَّهِ ﷺ في أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ تعالى، فينتقم لله بها [البخاري (٣٥٦٠)، مسلم (٢٣٢٧)].

١٧١ - وَرَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا كُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ وَشَجَّ وَجْهُهُ يَوْمَ أُحُدٍ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِهِ شَقًّا شَدِيدًا، وَقَالُوا: لَوْ دَعَوْتَ عَلَيْهِمْ! فَقَالَ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَنًا، وَلَكِنِّي بُعِثْتُ دَاعِيًا وَرَحْمَةً. اللَّهُمَّ! اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» [البخاري (٢٩٠٣)، مسلم (١٧٩٠)].

١٧٢ - وَرَوَى عَنْ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ فِي بَعْضِ كَلَامِهِ: يَا أَبَتِ أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَقَدْ دَعَا نُوْحٌ عَلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَبَّارًا» [نوح: ٢٦]. وَلَوْ دَعَوْتَ عَلَيْنَا مِثْلَهَا لَهْلَكْنَا مِنْ عِنْدَ آخِرِنَا، فَلَقَدْ وَطِئَ ظَهْرُكَ، وَأَذِمِّي وَجْهَكَ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُكَ، فَأَبَيْتَ أَنْ تَقُولَ إِلَّا خَيْرًا، فَقُلْتَ: «اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِقَوْمِي، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه: انظر ما في هذا القول من جماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم، إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم حتى عفا عنهم، ثم أشفق عليهم، ورحمهم، ودعا وشفع لهم، فقال: «اللَّهُمَّ! اغْفِرْ» أو «اهد» ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله: «لِقَوْمِي» ثم اعتذر عنهم بجهلهم، فقال: «فإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

١٧٣ - وَلَمَّا قَالَ لَهُ الرَّجُلُ: اغْدِلْ، فَإِنَّ هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، لَمْ يَزِدْهُ فِي جَوَابِهِ أَنْ بَيَّنَّ لَهُ مَا جَهِلَهُ.

ووعظ نفسه، وذكرها بما قال له، فقال: «وَيْحَكَ! فَمَنْ يَغْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟! خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ!» [البخاري (٣١٣٨)، مسلم (١٠٦٣)] ونهى من أراد من أصحابه قتله.

١٧٤ - وَلَمَّا تَصَدَّيْ لَهُ عُورَثُ بْنُ الْحَارِثِ لَيْفَتِكَ بِهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتْبِعٌ تَحْتَ شَجَرَةٍ وَخَدَهُ قَائِلًا، وَالنَّاسُ قَائِلُونَ، فِي غَزَاةٍ، فَلَمْ يَنْتَبِهْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ، وَالسَّيْفُ صُلَّتَا فِي يَدِهِ، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقَالَ: «اللَّهُ» فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَالَ: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟» قَالَ: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ، فَتَرَكَهُ وَعَفَا عَنْهُ. فَجَاءَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ [البخاري (٢٩١٠)، مسلم (٨٤٣)].

١٧٥ - وَمِنْ عَظِيمِ خَبَرِهِ فِي الْعَفْوِ عَفْوُهُ عَنِ الْيَهُودِيَّةِ الَّتِي سَمَّيْنَاهُ فِي الشَّأَةِ بَعْدَ اعْتِرَافِهَا [البخاري (٢٦١٧)، مسلم (٢١٩٠)]، عَلَى الصَّحِيحِ مِنَ الرِّوَايَةِ.

١٧٦ - وَأَنَّهُ لَمْ يُوَاجِذْ لَبِيدَ بْنَ الْأَعْصَمِ إِذْ سَحَرَهُ، وَقَدْ أَعْلَمَ بِهِ وَأَوْحَى إِلَيْهِ بِشَرْحِ أَمْرِهِ، وَلَا عَتَبَ عَلَيْهِ فَضْلًا عَنْ مَعَابِقَتِهِ [البخاري (٣٢٦٨)، مسلم (٢١٨٩)].

١٧٧ - وكذلك لم يؤاخذ عبد الله بن أبي، وأشباهه من المنافقين، بعظيم ما نُقل عنهم في جهته قولاً وفعلًا؛ بل قال لمن أشار بقتل بعضهم: «لا يتحدث أن محمداً يقتل أصحابه» [البخاري (٤٩٠٥)، مسلم (٦٣/٢٥٨٤)].

١٧٨ - وعن أنس رضي الله عنه: كنتُ مع النبي ﷺ، وعليه بُردٌ غليظ الحاشية، فجبَّده الأعرابي بردائه جبدةً شديدة حتى أثرت حاشيةُ البُرْد في صفحة عاتقه، ثم قال: يا محمداً! احمِلْ لي على بعيري هذين من مالِ الله الذي عندك، فإنك لا تحمِلُ لي من مالك ولا من مالِ أبيك.

فسكت النبي ﷺ، ثم قال: «المالُ مالُ الله، وأنا عبده».

ثم قال: «ويَقَادُ منك، يا أعرابي! ما فعلتَ بي».

قال: لا.

قال: «لم؟» قال: لأنك لا تكافِيءُ بالسَّيِّئَةِ السيِّئَةَ [البخاري (٣١٤٩)، مسلم

(١٠٥٧)].

فضحك النبي ﷺ؛ ثم أمر أن يُحمَلْ له على بعير شعير، وعلى الآخر تمر.

١٧٩ - قالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قط، ما لم تكن حُرمةً من محارمِ الله. وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيلِ الله. وما ضرب خادماً قط ولا امرأةً [البخاري (٣٥٦٠)، مسلم (٣٢٢٧، ٣٢٢٨)] الترمذي (٣٤٢).

١٨٠ - وجيء إليه برجل، فقيل: هذا أراد أن يقتلك. فقال له النبي ﷺ:

«لن تُرَاعَ، لن تُرَاعَ، ولو أردتَ ذلك لم تُسَلِّطْ عليّ» [أحمد (٤٧١/٣)].

١٨١ - وجاءه زيد بن سَعْنَةَ قبل إسلامه يَتَقَاضَاهُ ديناً عليه، فجبَّده ثوبه عن

مَنْكِبِهِ، وأخذ بمجامع ثيابه، وأغلظ له، ثم قال: إنكم، يا بني عبدالمطلب! مُظَلُّ، فانتهره عُمر، وشَدَّدَ له في القول، والنبي ﷺ يَتَبَسَّمُ.

فقال رسولُ الله ﷺ: «أنا، وهو، كُنَّا إلى غير هذا منك أخوج، يا عمراً

تأمرني بحسنِ القضاء، وتأمره بحسنِ التقاضي».

ثم قال: «لقد بقي من أجَلِهِ ثلاثٌ» وأمر عُمر يَقْضِيَهُ ماله ويزيده عشرين

صاعاً لِمَا رَوَّعَهُ؛ فكان سببَ إسلامه.

وذلك أنه كان يقول: ما بَقِيَ من علامات النبوة شيء إلا وقد عرَفْتُهَا في

محمد إلا اثنتين لم أخْبِرْهُمَا: يسبقُ جِلْمُهُ جَهْلُهُ، ولا يزيده شدةُ الجهل إلا

جِلْماً. فاختره بهذا، فوجده كما وُصِفَ.

والحديث عن حلمه عليه السلام وصبره وعفوه عند المقدرة أكثر من أن تأتي عليه، وحسبك ما ذكرناه مما في الصحيح والمصنفات الثابتة، إلى ما بلغ متواتراً مبلّغ اليقين: من صبره على مَقاساة قريش، وأذى الجاهلية، ومُصَابَرته الشدائد الصعبة معهم إلى أن أظفره الله عليهم، وحكمه فيهم، وهم لا يشكون في استئصال شأفتهم، وإبادة خضرائهم؛ فما زاد على أن عفا وصفح.

١٨٢ - وقال: «ما تقولون أنني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، فقال: «أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَأَن لَّكَ أَهْلٌ يَّعْلَمُونَ﴾» [يوسف: ٩٢] «اذهبوا فأنتم الطلقاء» [النسائي (١٣٤/١٠)].

١٨٣ - وقال أنس: هبط ثمانون رجلاً من التَّعْنِيم صلاة الصبح ليقتلوا رسول الله ﷺ، فأخذوا، فأعتقهم رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤] [مسلم (١٨٠٨)].

١٨٤ - وقال لأبي سفيان - وقد سبق إليه بعد أن جلب إليه الأحزاب، وقتل عمه وأصحابه ومثّل بهم، فعفا عنه، ولاطفه في القول -: «وَنَحْكَ! يا أبا سفيان! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ لَهَ إِلَّا اللَّهَ؟» فقال: بِأَيِّ أَنْتَ وَأُمِّي، ما أَخْلَمَكَ وَأَوْصَلَكَ وأكرمَكَ!.

وكان رسول الله ﷺ أبعد الناس غضباً، وأسرعهم رِضاً، ﷺ.

فصل

فِي جُودِهِ وَكَرَمِهِ وَسَخَائِهِ وَسَمَاحَتِهِ ﷺ

وأما الجود والكرم، والسخاء والسَّماحة، ومعانيها متقاربة؛ وقد فرَّق بعضهم بينها بفروق؛ فجعلوا الكرم: الإنفاق بطيب النفس فيما يعظم خطره ونفعه، وسمّوه أيضاً حرّية، وهو ضدُّ النَّدالة.

والسماحة: التَّجَافِي عما يستحقُّه المرء عند غيره بطيب نفس، وهو ضدُّ الشَّكَاة.

والسخاء: سهولة الإنفاق، وتَجَنُّب اكتساب ما لا يُحْمَد، وهو الجود، وهو ضدُّ التَّقْتِير.

وكان ﷺ لا يُوَارِزُ في هذه الأخلاقِ الكريمة، ولا يُيَارَى، بهذا وصفه كلُّ مَنْ عَرَفَهُ.

١٨٥ - حدثنا القاضي الشهيد أبو علي الصِّدْفِي رحمه الله، حدثنا القاضي أبو الوليد الباجي، حدثنا أبو ذر الهَرَوِي، حدثنا أبو الهيثم الكُشْمِينَهِي، وأبو محمد السَّرْحَسِي، وأبو إسحاق البَلْخِي؛ قالوا: حدثنا أبو عبد الله الفَرَبَرِي؛ حدثنا البخاري، قال حدثنا محمد بن كَثِير، حدثنا سفيان، عن ابن المُكْدِر، سمعتُ جابر بن عبد الله يقول: ما سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عن شيء فقال: لا. [البخاري (٦٠٣٤)، مسلم (٢٣١١)].

١٨٦، ١٨٧ - وعن أنس وسَهْل بن سعد مثله [مسلم (٢٣١٢)].

١٨٨ - وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس بالخير، وأجود ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لَقِيَهِ جبريلُ عليه السلام أجودَ بالخير من الريح المُرْسَلَة [البخاري (٦)، مسلم (٢٣٠٨)].

١٨٩ - وعن أنس أنَّ رجلاً سأله فأعطاه غَنَمًا بين جبَلَيْن، فرجع إلى بلده، وقال: أَسْلِمُوا؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عطاءً مَنْ لا يَخْشَى فاقةً [مسلم (٢٣١٢)]. وأعطى غَيْرَ واحد مئةً من الإبل.

١٩٠ - وأعطى صفوان مئةً، ثم مئةً، ثم مئةً [مسلم (٢٣١٣)]. وهذه كانت حاله ﷺ قبل أن يبعث.

١٩١ - وقد قال له وَرَقَةُ بن نوفل: إنك تحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدومَ [البخاري (٣)، مسلم (١٦٠)].

١٩٢ - وردَّ على هَوَازِنَ سَبَايَها، وكانوا ستَّةَ آلاف [البخاري (٢٣٠٧)، (٢٣٠٨)].

١٩٣ - وأعطى العباس من الذهب ما لم يُطَقْ حَمْلُه [البخاري (٤٢١)].

١٩٤ - وحُمِلَ إليه تسعون ألفَ درهم، فوَضَعَتْ على حصير، ثم قام إليها يَقسِمُها، فما رَدَّ سائلاً حتى فرغَ منها.

١٩٥ - وجاءه رجل، فسأله، فقال: «ما عندي شيء، ولكن ابتع عليّ، فإذا جاءنا شيء قضيناه...».

فقال له عُمر: ما كَلَّفَكَ اللَّهُ ما لا تُقدِر عليه.

فكرة النبي ﷺ ذلك. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله! أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً.

فتبسم ﷺ وعُرف البِشْرُ في وجهه، وقال: «بهذا أُمِرْتُ» [الترمذي (٣٤٨)]. ذكره الترمذي.

١٩٦ - وَذَكَرَ عن مُعَوِّذ بن عَفْرَاء قال: أتيتُ النَّبِيَّ ﷺ بِقِنَاعٍ من رُطْب

- يريد: طَبَقًا - وأَجْرٍ رُغْبٍ - يريد: قِثَاءً - فأعطاني مِلءَ كَفِّهِ حُلِيًّا وذَهَبًا [أحمد (٣٥٩/٦)، الترمذي (٢٠٣، ٢٠٤، ٣٤٩)].

١٩٧ - وقال أنس: كان النبي ﷺ لا يَدْخِرُ شيئاً لَعْدٍ [الترمذي (٢٣٦٢)].

وَالْخَبَرُ بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ - ﷺ - كَثِيرٌ.

١٩٨ - وعن أبي هريرة: أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلُهُ، فَاسْتَسْلَفَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِصْفَ وَسْقٍ، فَجَاءَ الرَّجُلُ يَتَقَاضَاهُ، فَأَعْطَاهُ وَسْقًا وَقَالَ: «نِصْفُهُ قِضَاءٌ، وَنِصْفُهُ نَائِلٌ».

فصل

فِي شَجَاعَتِهِ وَنَجْدَتِهِ ﷺ

وأما الشجاعة والنجدة، فالشجاعة: فضيلة قوة الغضب وانقيادها للعقل، والنجدة: ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت حيث يُخَمَدُ فعلُها دون خوف.

فكان النبي ﷺ منهما بالمكان الذي لا يُجْهَل؛ قد حضر المواقف الصعبة، وفَرَّ الكَمَاءَ والأبطالَ عنه غَيْرَ مَرَّةٍ، وهو ثابتٌ لا يَنْزَحُ، ومُقْبِلٌ لا يُذْهِرُ ولا يترشح. وما شجاعٌ إلا وقد أُخْصِيَتْ لَهُ قُرَّةٌ، وَحُفِظَتْ عَنْهُ جَوْلَةٌ، سِوَاهُ.

١٩٩ - حدثنا أبو علي الجبائي في ما كتب لي؛ قال: حدثنا القاضي سراج، حدثنا أبو محمد الأصيلي، قال: حدثنا أبو زَيْدٍ الفقيه، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا ابن بشار، حدثنا غُنْدَرٌ، حدثنا شُعْبَةُ، عن أبي إسحاق: سَمِعَ الْبَرَاءَ - وسأله رجلٌ: أفرزتم يوم حُتَيْنَ عن رسولِ الله ﷺ؟ - قال: لكن رسولَ الله ﷺ لم يَفِرَّ.

ثم قال: لقد رأيته على بَغْلَتِهِ البيضاء وأبو سفيان آخِذٌ بِلِجَامِهَا، والنبي ﷺ يقول: «أنا النبي لا كَذِبٌ» وزاد غيره: «أنا ابنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» [البخاري (٤٣١٧)، مسلم (٨٠/١٧٧٦)].

قيل: فما رُئيَ يومئذٍ أَحَدٌ كان أشدَّ منه.

وقال غَيْرُهُ [البخاري (٤٣١٧)]: نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ بَغْلَتِهِ.

٢٠٠ - وذكر مُسْلِمٌ، عن العباس، قال: فلما التَقَى المسلمون والكفارَ وَلَّى المسلمون مُذْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرْكَضُ بَغْلَتَهُ نحو الكفار، وأنا آخِذٌ بِلِجَامِهَا أَكْفُهَا إِرَادَةً أَلَّا تُسْرِعَ، وأبو سفيان آخِذٌ بِرُكَابِهِ، ثم نادى: يَا لِّلْمُسْلِمِينَ... الحديث [مسلم (١٧٧٥)].

٢٠١ - وقيل: وكان رسول الله ﷺ إذا غضب - ولا يغضب إلا الله - لم يقم لغضبه شيء.

٢٠٢ - وقال ابن عمر: ما رأيت أشجع، ولا أنجد، ولا أجود، ولا أزمى ولا أفضل من رسول الله ﷺ.

٢٠٣ - وقال علي رضي الله عنه: إنا كنا إذا حمي البأس - ويروى: اشتد البأس - واحمرت الحدة اتقينا برسول الله ﷺ؛ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ولقد رأيتني يوم بذر ونحن نلوذ بالنبى ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً [أحمد (٨٦/١)، مسلم (١٧٧٦)].

٢٠٤ - وقيل: كان الشجاع هو الذي يقرب منه ﷺ إذا دنا العدو، لقربه منه.

٢٠٥ - وعن أنس: كان النبى ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس؛ لقد فرغ أهل المدينة ليلة، فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً، قد سبقهم إلى الصوت، واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عزي، والسيف في عنقه، وهو يقول: «لن ترأهوا» [البخاري (٢٩٠٨)، مسلم (٢٣٠٧)].

٢٠٦ - وقال عمران بن حصين: ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب.

٢٠٧ - ولما رآه أبي بن خلف يوم أحد وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوث إن نجا!

وقد كان يقول للنبى ﷺ - حين افتدى يوم بذر -: عندي فرس أعلفها كل يوم فرقا من ذرة أقتلك عليها.

فقال له النبى ﷺ: «أنا أقتلك إن شاء الله».

فلما رآه يوم أحد شد أبي على فرسه على رسول الله ﷺ، فاعترضه رجال من المسلمين، فقال النبى ﷺ: «هكذا» أي: خلوا طريقه، وتناول الحزبة من الحارث بن الصمة، فانتفض بها انتفاضة، تطايروا عنه تطاير الشغراء عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله النبى ﷺ، فطعنه في عنقه طعنة تداد منها عن فرسه مزاراً.

وقيل: بل كسر ضلعاً من أضلاعه، فرجع إلى قريش يقول: قتلني محمدا وهم يقولون: لا بأس بك. فقال: لو كان ما بي بجميع الناس لقتلهم، أليس قد قال: «أنا أقتلك»؟ والله! لو بصق علي زلقتني. فمات بسرف في قفولهم إلى مكة.

فصل

فِي حَيَاتِهِ وَإِغْضَائِهِ

وأما الحياء والإغضاء: فالحياء رقةٌ تَعْتَرِي وجهَ الإنسان عند فعل ما يُتَوَقَّعُ كراهته، أو ما يكونُ تَرْكُهُ خيراً من فعله.
والإغضاء: التغافلُ عما يكره الإنسان بطبيعته.

وكان النبي ﷺ أشدَّ الناس حياءً، وأكثرهم عن العَوَازِثِ إغضاءً؛ قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَمُ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَعِجْ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجْ مِنْ آلِ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

٢٠٨ - وحدثنا أبو محمد بن عتاب - رحمه الله - بقراءة علي؛ حدثنا أبو القاسم: حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن القاسبي، حدثنا أبو زيد المَرْزُوزِيُّ، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عَبْدَان، أخبرنا عَبْدُ اللَّهِ، أخبرنا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ: مَوْلَى أَنَسٍ، يَحْدُثُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَدْرَاءِ فِي خِذْرِهَا. وَكَانَ إِذَا كَرِهَ شَيْئاً عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ [البخاري (٦١٠٢)].

وكان ﷺ لطيفَ البَشَرَةِ، رقيقَ الظاهر، لا يشافهُ أحداً بما يكرهه حياءً وكرمِ نفس.

٢٠٩ - وعن عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ إذا بلغه عن أحدٍ ما يكرهه لم يَقُلْ: ما بال فلان يقول كذا؟ ولكن يقول: «ما بال أقوام يصنعون، أو يقولون كذا؟» [أبو داود (٤٧٨٨)] يَنْهَى عَنْهُ، وَلَا يُسَمِّي فاعِلَهُ.

٢١٠ - وَرَوَى أَنَسٌ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ بِهِ أَثَرُ ضُفْرَةٍ، فَلَمْ يَقُلْ لَهُ شَيْئاً - وَكَانَ لَا يُوَاجِهُ أَحَداً بِمَا يَكْرَهُ - فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ: «لَوْ قُلْتُمْ لَهُ: يَغْسِلُ هَذَا؟» وَيُرَوَّى: «يَنْزِعُهَا» [أبو داود (٤١٨٢)، (٤٧٨٩)، الترمذي (٣٣٩)].

٢١١ - قَالَتْ عَائِشَةُ فِي الصَّحِيحِ: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ فَاحِشاً وَلَا مُتَفَحِّشاً وَلَا سَخَاباً بِالسَّوَابِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ [الترمذي (٢٠١٦)، أحمد (١٧٤/٦)].

٢١٢، ٢١٣ - وَقَدْ حُكِيَ مِثْلُ هَذَا الْكَلَامِ عَنِ التَّوْرَةِ، مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ.

٢١٤ - وَرَوَى عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مِنْ حَيَاتِهِ لَا يَثْبُتُ بَصَرُهُ فِي وَجْهِ أَحَدٍ.

٢١٤م - وأنه كان يُكْنِي عما اضطره الكلام إليه مما يُكْرَهُ.
٢١٥ - وعن عائشة رضي الله عنها: ما رأيت فَرْجَ رسولِ الله ﷺ قط.

فصل

في حُسنِ عِشْرَتِهِ وَأَدَبِهِ وَبَسْطِ خُلُقِهِ ﷺ مَعَ أَصْنَافِ الْخَلْقِ

وأما حُسنُ عِشْرَتِهِ، وأَدَبِهِ، وَبَسْطُ خُلُقِهِ - ﷺ - مع أَصْنَافِ الْخَلْقِ فَبَحِثُ
انتشرت به الأخبارُ الصحيحةُ.

٢١٦ - قال عليّ رضي الله عنه في وَصْفِهِ ﷺ: كان أَوْسَعَ النَّاسِ صَدْرًا،
وَأَصْدَقَ النَّاسِ لَهْجَةً، وَأَلْيَنَهُمْ عَرِيكَةً، وَأَكْرَمَهُمْ عِشْرَةً.

٢١٧ - حدثنا أبو الحسن: علي بن مُشَرَّفِ الأنماطي فيما أَجَازَنِيهِ، وقرأته
على غيره، قال: حدثنا أبو إسحاق الحَبَّال، حدثنا أبو محمد بن النحاس، حدثنا
ابن الأعرابي، حدثنا أبو داود، حدثنا هشام: أبو مَرْوَانَ، ومحمد بن المثنى قالَا:
حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، سمعت يحيى بن أبي كثير يقول:
حدثني محمد بن عبد الرحمن بن أسعد بن زُرَّازَةَ، عن قَيْسِ بن سعد، قال: رَأَوْنَا
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - وذكر قصَّةً في آخرها: فلما أراد الانصرافَ قَرَّبَ له سعدُ
حمارًا، وَوُطِّأَ عليه بِقَطِيفَةٍ، فركب رسولُ الله ﷺ، ثم قال سَعْدُ: يا قيس! ا
اصْحَبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

قال قيس: فقال رسولُ الله ﷺ: «ارْكَبْ» فَأَبَيْتُ. فقال: «إِنَّمَا أَنَا تَرْكَبُ
وَأِنَّمَا أَنَا تَنْصَرِفُ»، فانصرفْتُ [أبو داود (٥١٨٥)، أحمد (٤٢١/٣)، النسائي (٣٢٤)، (٣٢٥)،
ابن ماجه (٤٦٦)].

وفي رواية أخرى: «ارْكَبْ أُمَامِي، فَصَاحِبُ الدَّابَّةِ أَوْلَى بِمُقَدَّمِهَا».

٢١٨ - وكان رسول الله ﷺ يُولِّفُهُمْ، وَلَا يُنْفَرُهُمْ، وَيُكْرِمُ كَرِيمَ كُلِّ قَوْمٍ
وَيُوَلِّيهُ عَلَيْهِمْ، وَيَحْذَرُ النَّاسَ، وَيَحْتَرِسُ مِنْهُمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْوِيَ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ
بِشْرَهُ، وَلَا خُلُقَهُ؛ يَتَّقِدُّ أَصْحَابَهُ، وَيُعْطِي كُلَّ جَلِيسَتِهِ نَصِيحَتَهُ، لَا يَخْسَبُ جَلِيسَتَهُ
أَنْ أَحَدًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْهُ. مَنْ جَالَسَهُ أَوْ قَارَبَهُ لِحَاجَةٍ صَابَرَهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ
الْمَنْصَرَفُ عَنْهُ، وَمَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَزِدْهُ إِلَّا بِهَا، أَوْ بِمَيْسُورٍ مِنَ الْقَوْلِ؛ قَدْ وَسَّعَ
النَّاسَ بَسْطُهُ وَخُلُقُهُ، فَصَارَ لَهُمْ أَبًا، وَصَارُوا عِنْدَهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً. بهذا وصفه
ابن أبي هالة، قال: وكان دائمُ البِشْرِ، سَهْلُ الْخُلُقِ، لَيِّنُ الْجَانِبِ، لَيْسَ بِفُظٍّ وَلَا

غَلِيظٌ، وَلَا سَخَابٌ، وَلَا فَحَّاشٌ وَلَا عَيَّابٌ، وَلَا مَدَّاحٌ، يَتَغَافَلُ عَمَّا لَا يَشْتَهِي وَلَا يُؤَيِّسُ مِنْهُ.

وقال الله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمْتُمْ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ تَكُنْ فَعَلًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَقْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

٢١٩ - وكان يُجِيبُ مَنْ دَعَاهُ.

٢٢٠ - ويقبل الهدية ولو كانت كُرَاعاً ويكافئ عليها [البخاري (٢٥٨٥، ٢٥٦٨)].

٢٢١ - قال أنس: خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي أَوْ قَطُّ، وَمَا قَالَ لشيء صَنَعْتُهُ: لَمْ صَنَعْتُهُ؟ وَلَا لشيء تَرَكْتُهُ: لَمْ تَرَكْتُهُ؟ [البخاري (٢٧٦٨)، مسلم (٢٣٠٩)].

٢٢٢ - وعن عائشة رضي الله عنها: مَا كَانَ أَحَدٌ أَحْسَنَ خُلُقًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَا دَعَاهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَلَا أَهْلَ بَيْتِهِ إِلَّا قَالَ: «لَبَّيْكَ».

٢٢٣ - وقال جرير بن عبد الله: مَا حَجَبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ أَسْلَمْتُ، وَلَا رَأَيْتِي إِلَّا تَبَسَّمَ [البخاري (٣٠٣٥)، مسلم (٢٤٧٥)].

وكان يُمَارِضُ أَصْحَابَهُ، وَيُخَالِطُهُمْ وَيُحَادِثُهُمْ، وَيُدَاعِبُ صَبِيَّانَهُمْ، وَيُجْلِسُهُمْ فِي حِجْرِهِ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْحَرِّ وَالْعَبْدِ، وَالْأَمَةِ وَالْمَسْكِينِ، وَيَعُوذُ الْمَرْضَى فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ، وَيَقْبَلُ عُذْرَ الْمُعْتَذِرِ.

٢٢٤ - قال أنس: مَا أَلْتَمَمَ أَحَدٌ أَذُنَ النَّبِيِّ ﷺ فَيَنْتَحِي رَأْسَهُ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يُنْتَحِي رَأْسَهُ، وَمَا أَخَذَ أَحَدٌ بِيَدِهِ فَيُرْسِلُ يَدَهُ حَتَّى يُرْسِلَهَا الْآخَرُ؛ وَلَمْ يُرْ مَقْدَمًا رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيْ جَلِيسٍ لَهُ [أبو داود (٤٧٩٤)، الترمذي (٢٤٩٠)، ابن ماجه (٣٧١٦)].

وكان يبدأ مَنْ لَقِيَهُ بِالسَّلَامِ، وَيَبْدَأُ أَصْحَابَهُ بِالْمُصَافَحَةِ، وَلَمْ يُرْ قَطُّ مَاذَا رَجَلِهِ بَيْنَ أَصْحَابِهِ حَتَّى يُضَيِّقَ بِهِمَا عَلَى أَحَدٍ. يَكْرُمُ مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ، وَرَبِمَا بَسَطَ لَهُ ثَوْبَهُ، وَيُؤَثِّرُهُ بِالْوَسَادَةِ الَّتِي تَحْتَهُ، وَيَغْرِزُهُ عَلَيْهِ فِي الْجُلُوسِ عَلَيْهَا إِنْ أَبَى، وَيُكْنِي أَصْحَابَهُ، وَيَدْعُوهُمْ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِمْ تَكْرِمَةً لَهُمْ، وَلَا يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ حَتَّى يَتَجَوَّزَ فَيَقْطَعَهُ بِنَهْيٍ أَوْ قِيَامٍ. وَيُرْوَى: بِانْتِهَاءٍ أَوْ قِيَامٍ.

٢٢٥ - وروي أنه كان لَا يَجْلِسُ إِلَيْهِ أَحَدٌ وَهُوَ يُصَلِّي إِلَّا خَفَفَ صَلَاتَهُ، وَسَأَلَهُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَإِذَا فَرَغَ عَادَ إِلَى صَلَاتِهِ.

وكان أَكْثَرُ النَّاسِ تَبَشُّمًا، وَأَطْيَبُهُمْ نَفْسًا، ما لم ينزل عليه قرآنٌ، أو يعْظُ، أو يخطب.

٢٢٦ - قال عَبْدُ اللَّهِ بن الحارث: ما رأيتُ أحداً أَكْثَرَ تَبَشُّمًا من رسول الله ﷺ [الترمذي (٣٦٤١)، أحمد (١٩٠/٤)].

٢٢٧ - وعن أنس: كان خَدَمُ المَدِينَةِ يأتون النَّبِيَّ ﷺ إذا صَلَّى الغَدَاةَ بآتِيَهُمْ فيها الماء، فما يُؤْتَى بِأَنِيَةٍ إِلَّا غَمَسَ يَدَهُ فيها، وربما كان ذلك في الغَدَاةِ الباردة [مسلم (٢٣٢٤)] يريدون به التَّبَرُّك.

فصل

فِي شَفَقَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ

وأما الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق فقد قال الله تعالى فيه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال بعضهم: من فضله عليه السلام أَنَّ الله تعالى أعطاه اسمين من أسمائه، فقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وحكى نحوه الإمام أبو بكر بن قُورْكَ.

٢٢٨ - حدثنا الفقيه أبو محمد: عبد الله بن محمد الحُشْنِي بقراءتي عليه، حدثنا إمام الحَرَمَيْنِ: أبو علي الطَّبْرِي، حدثنا عَبْدُ الْغَاثِ الْفَارِسِي، حدثنا أبو أحمد الجُلُودِي، حدثنا إبراهيم بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو الطاهر، أخبرنا ابن وَهْب، أخبرنا يونس، عن ابن شهاب، قال: غَزَا رسولُ الله ﷺ غَزْوَةً، وذكر حُتَيْنًا، قال: فأعطى رسولُ الله ﷺ صَفْوَانَ بن أُمِيَّة مِثَّةً من النَّعَم؛ ثم مِثَّةً، ثم مِثَّةً.

قال ابنُ شهاب: حدثنا سعيد بن المُسَيَّب أَنَّ صَفْوَانَ قال: والله! لقد أعطاني ما أعطاني وإنه لَا بَغْضَ الْخَلْقِ إِلَيَّ، فما زال يُعْطِينِي حتى إنه لَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ [مسلم (٥٩/٢٣١٣)].

٢٢٩ - وَرَوَى أَنَّ أَعْرَابِيًّا جاءَهُ يطلبُ منه شيئاً، فأعطاه؛ ثم قال: «أَحْسَنْتَ إِلَيْكَ؟». قال الأعْرَابِي: لا، ولا أَجَمَلْتُ.

فغَضِبَ المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم: أَنْ كُفُّوا، ثم قام ودخل منزله،

وأرسل إليه، وزاده شيئاً، ثم قال: «أحسنْتُ إليك؟» قال: نعم، فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً.

فقال له النبي ﷺ: «إِنَّكَ قُلْتَ مَا قُلْتَ، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أَخْبَيْتَ فقلْ بين أيديهم ما قُلْتَ بين يديّ حتى يذهب ما في صدورهم عليك».

قال: نعم. فلما كان الغد - أو العشيّ - جاء، فقال ﷺ: «إِنَّ هذا الأعرابيّ قال ما قال، فزِدْنَاهُ فزعم أنه رَضِيَ، أَكْذَلُكَ؟» قال: نعم، فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً.

فقال ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ هذا، مَثَلُ رجلٍ، له ناقةٌ سَرَدَتْ عليه، فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ فلم يَزِدُوهَا إِلَّا نُفُوراً، فناداهم صاحبها: خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي، فَإِنِّي أَزْفُقُ بِهَا مِنْكُمْ وَأَعْلَمُ، فَتَوَجَّهَ لَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا، فَأَخَذَ لَهَا مِنْ قُمَامِ الْأَرْضِ، فَرَدَّهَا حَتَّى جَاءَتْ وَاسْتَنَاحَتْ، وَشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا، وَاسْتَوَى عَلَيْهَا، وَإِنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ فَقَتَلْتُمُوهُ دَخَلَ النَّارَ».

٢٣٠ - وَرَوَى عَنْهُ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «لَا يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي شَيْئاً، فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ» [أبو داود (٤٨٦٠)، الترمذي (٣٨٩٦، ٣٩٩٧)].

٢٣١ - وَمَنْ شَفَقْتَهُ عَلَى أُمَّتِهِ ﷺ تَخَفِيفُهُ وَتَسْهِيلُهُ عَلَيْهِمْ، وَكَرَاهَتُهُ أَشْيَاءَ مَخَافَةٍ أَنْ تُفَرَّضَ عَلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ: «لَوْلَا أَنْ أَشَقُّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ مَعَ كُلِّ وُضُوءٍ» [أحمد (٢٥٠/٢)].

٢٣٢ - وَخَيْرُ صَلَاةِ اللَّيْلِ [البخاري (١١٢٩)، مسلم (٧٦١)].

٢٣٣ - وَنَهْيُهُمْ عَنِ الْوَصَالِ.

٢٣٤ - وَكَرَاهَتُهُ دُخُولَ الْكَعْبَةِ لَثَلًا يُعْنَتُ أُمَّتَهُ [أبو داود (٢٠٢٩)، الترمذي (٨٧٣)، ابن ماجه (٣٠٦٤)].

٢٣٥ - وَرَغْبَتُهُ لِرَبِّهِ أَنْ يَجْعَلَ سَبَّهُ وَلَعْنَهُ لَهُمْ رَحْمَةً بِهِمْ.

٢٣٦ - وَأَنَّهُ كَانَ يَسْمَعُ بَكَاءَ الصَّبِيِّ فَيَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِهِ [البخاري (٧٠٧، ٧٠٩)، مسلم (٤٧٠)].

٢٣٧ - وَمَنْ شَفَقْتَهُ ﷺ أَنْ دَعَا رَبَّهُ وَعَاهَدَهُ، فَقَالَ: «أَيُّمَا رَجُلٍ سَبَّيْتُهُ - أَوْ لَعَنْتُهُ - فَاجْعَلْ ذَلِكَ لَهُ زَكَاةً وَرَحْمَةً، وَصَلَاةً وَطَهُوراً، وَقُرْبَةً تَقْرُبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [البخاري (٦٣٦١)، مسلم (٢٦٠١)].

٢٣٨ - ولما كَذَّبَهُ قَوْمُهُ أَتَاهُ جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَالَ لَهُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ أَمَرَ مَلَكُ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَاهُ مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ، وَقَالَ: مُزِنِي بِمَا شِئْتَ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ أَطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ، أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَضْلَابِهِمْ، مَنْ يَغْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» [البخاري (٣٢٣١)، مسلم (١٧٩٥)].

٢٣٩ - وَرَوَى ابْنُ الْمُثَنَّدِ أَنَّ جَبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ أَنْ تُطِيعَكَ. فَقَالَ: «أَوْخَرُ عَنْ أُمَّتِي لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ».

٢٤٠ - قَالَتْ عَائِشَةُ: مَا خَيْرَ رَسُولٍ لِلَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا. ٢٤١ - وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ مَخَافَةَ السَّامَةِ عَلَيْنَا [البخاري (٦٨)، مسلم (٢٨٢١)].

٢٤٢ - وَعَنْ عَائِشَةَ: أَنَّهَا رَكِبَتْ بَعِيرًا وَفِيهِ صُعُوبَةٌ، فَجَعَلَتْ تَرُدُّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَيْكَ بِالزَّفَرِيِّ» [مسلم (٧٩/٢٥٩٤)].

فصل

فِي خُلُقِهِ ﷺ فِي الْوَفَاءِ وَحُسْنِ الْعَهْدِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ

٢٤٣ - وَأَمَّا خُلُقُهُ ﷺ فِي الْوَفَاءِ، وَحُسْنِ الْعَهْدِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ - فَحَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو عَامِرٍ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْحَبَالُ، حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ النَّحَّاسِ، حَدَّثَنَا ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِنَانٍ قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ طَهْمَانَ، عَنْ بُدَيْلٍ، عَنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْحَمَّاسِ، قَالَ: بَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ بَيْنَيْهِ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ، وَبَقِيَتْ لَهُ بَقِيَّةٌ، فَوَعَدْتُهُ أَنْ آتِيَهُ بِهَا فِي مَكَانِهِ، فَتَسَيْتُ، ثُمَّ ذَكَرْتُ بَعْدَ ثَلَاثٍ، فَجِئْتُ فَإِذَا هُوَ فِي مَكَانِهِ، فَقَالَ: «يَا فَتَى! لَقَدْ شَقَقْتُ عَلَيَّ، أَنَا هَا هُنَا مِنْذُ ثَلَاثٍ أَنْتَظِرُكَ» [أبو داود (٤٩٩٦)].

٢٤٤ - وَعَنْ أَنَسٍ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أُتِيَ بِهَدِيَّةٍ قَالَ: «اذْهَبُوا بِهَا إِلَى بَنَاتِ فُلَانَةٍ؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ صَدِيقَةً لَخَدِيجَةَ، إِنَّهَا كَانَتْ تَحِبُّ خَدِيجَةَ».

٢٤٥ - وعن عائشة قالت: ما غرّث على امرأة ما غرّث على خديجة، لِمَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا، وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ فَيَهْدِيهَا إِلَى خَلَائِلِهَا [البخاري (٦٠٠٤)، مسلم (٧٥/٢٤٣٥)].

٢٤٦ - واستأذنت عليه أختها فارتاح إليها [البخاري (٣٨٢١)، مسلم (٢٤٣٧)].

٢٤٧ - ودخلت عليه امرأة، فهشّ لها، وأحسن السؤال عنها، فلما خرجت قال: «إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإنّ حُسن العهد من الإيمان». ووصفه بعضهم، فقال: كان يصلّ ذوّي رحمه من غير أن يؤثّرهم على مَنْ هو أفضل منهم.

٢٤٨ - وقال ﷺ: «إنّ آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء غير أنّ لهم رجماً سألها بيلالها» [البخاري (٥٩٩٠)، مسلم (٢١٥)].

٢٤٩ - وقد صلّى - عليه السلام - بأمامة ابنة ابنته زينب - رضي الله عنها - يَحْمِلُهَا عَلَى عَاتِقِهِ، فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا، وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا [البخاري (٥١٦)، مسلم (٥٤٣)].

٢٥٠ - وعن أبي قتادة قال: وَقَدْ وَفَدَ لِلنَّجَاشِيِّ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْدُمُهُمْ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: نَكْفِيكَ. فَقَالَ: «إِنَّهُمْ كَانُوا لِأَصْحَابِنَا مُكْرِمِينَ، وَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَكْفِيَهُمْ».

٢٥١ - ولما جيء بِأُخْتِهِ مِنَ الرِّضَاعَةِ: الشَّيْمَاءُ، فِي سَبَايَا هَوَازَنَ، وَتَعَرَّفَتْ لَهُ، بَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ، وَقَالَ لَهَا: «إِنْ أَحْبَبْتَ أَقْمَتِ عِنْدِي مُكْرَمَةً مُحَبَّةً، أَوْ مَتَّعْتُكَ وَرَجَعْتَ إِلَى قَوْمِكَ؟» فَاخْتَارَتْ قَوْمَهَا فَمَتَّعَهَا.

٢٥٢ - وقال أبو الطُّفَيْل: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ - وَأَنَا غَلامٌ - إِذْ أَقْبَلَتْ امْرَأَةً حَتَّى دَنَتْ مِنْهُ، فَبَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ، فَجَلَسَتْ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: أُمُّهُ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ [أبو داود (٥١٤٤)].

٢٥٣ - وعن عُمر بن السائب، أنّ رسول الله ﷺ كان جالساً يوماً، فأقبل أبوه مِنَ الرِّضَاعَةِ، فَوَضَعَ لَهُ بَعْضُ ثَوْبِهِ، فَقَعَدَ عَلَيْهِ؛ ثُمَّ أَقْبَلَتْ أُمُّهُ فَوَضَعَ لَهَا شِقَّ ثَوْبِهِ مِنْ جَانِبِهِ الْآخِرِ فَجَلَسَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ أَخُوهُ مِنَ الرِّضَاعَةِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ [أبو داود (٥١٤٥)].

٢٥٤ - وكان يبعث إلى ثُوَيْبَةَ - مَوْلَاةَ أَبِي لَهَبٍ - مُرْضِعَتَهُ بِصَلَّةٍ وَكِسْوَةٍ، فَلَمَّا مَاتَتْ سَأَلَ: «مَنْ بَقِيَ مِنْ قَرَابَتِهَا؟» فَقِيلَ: لَا أَحَدٌ.

٢٥٥ - وفي حديث خديجة رضي الله عنها أنها قالت له ﷺ: أَبْشِرْ، فَوَاللَّهِ

لا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّجْمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ [البخاري (٣)، مسلم (١٦٠)].

فصل

فِي تَوَاضُعِهِ ﷺ

وأما تواضعه ﷺ، على علو منصبه ورفعة رُتَبِهِ فكان أشدَّ الناس تواضعاً، وأقلَّهم كِبَراً.

٢٥٦ - وَحَسْبُكَ أَنَّهُ خَيْرٌ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكاً أَوْ نَبِيًّا عَبْدًا فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا عَبْدًا [أحمد (٢٣١/٢)]، فَقَالَ لَهُ إِسْرَافِيلُ عِنْدَ ذَلِكَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَاكَ بِمَا تَوَاضَعْتَ لَهُ أَنْتَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ.

٢٥٧ - حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ الْعَوَّادِ الْفَقِيه - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ فِي مَنْزِلِهِ بِقَرْطَبَةِ سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسٍ مِائَةٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الْحَافِظُ، حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ، حَدَّثَنَا ابْنُ دَاسَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نُمَيْرٍ، عَنْ مِسْعَرٍ، عَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ، عَنْ أَبِي الْعَدْبَسِ، عَنْ أَبِي مَرْزُوقٍ، عَنْ أَبِي غَالِبٍ، عَنْ أَبِي أَمَامَةَ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَتَوَكِّئًا عَلَى عَصَا؛ فَقَمْنَا لَهُ. فَقَالَ: «لَا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الْأَعَاجِمُ، يُعْظَمُ بَعْضُهَا بَعْضًا» [مسلم (٤١٣)، أبو داود (٥٢٣٠)، ابن ماجه (٣٨٣٦)].

٢٥٨ - وَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ أَكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ». وَكَانَ يَرْكَبُ الْحِمَارَ، وَيُزِدُّ خَلْفَهُ، وَيَعُوذُ الْمَسَاكِينَ، وَيُجَالِسُ الْفُقَرَاءَ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْعَبْدِ، وَيَجْلِسُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ مُخْتَلِطًا بِهِمْ. حَيْثَمَا انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ جَلَسَ.

٢٥٩ - وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ عَنْهُ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» [البخاري (٣٤٤٥)].

٢٦٠ - وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ جَاءَتْهُ، فَقَالَتْ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قَالَ: «اجْلِسِي، يَا أُمَّ فُلَانٍ! فِي أَيِّ طَرَقِ الْمَدِينَةِ شِئْتَ أَجْلِسَ إِلَيْكَ حَتَّى أَقْضِيَ حَاجَتَكَ».

قَالَ: فَجَلَسْتُ، فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهَا حَتَّى فَرَعَتْ مِنْ حَاجَتِهَا [مسلم (٢٣٢٦)].

٢٦١ - قال أنس: كان رسول الله يركب الحمار، ويُجيب دعوة العبد، وكان يوم بني قُرَيْظَةَ على حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِحَبْلِ مِنْ لَيْفٍ، عليه إِكَافٌ [الترمذي (١٠١٧)، ابن ماجه (٤١٧٨)].

٢٦٢ - قال: وكان يُدْعَى إِلَى خُبْزِ الشَّعِيرِ، وَالْإِهَالَةِ السَّنَخَةِ فَيُجِيبُ [البخاري (٢٠٦٩)].

٢٦٣ - قال: وَحَجَّ ﷺ عَلَى رَحْلِ رَثٍّ، وَعَلَيْهِ قَطِيفَةٌ مَا تُسَاوِي أَرْبَعَةَ دَرَاهِمٍ؛ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ! اجْعَلْهُ حَجًّا لَا رِيَاءَ فِيهِ وَلَا سُمْعَةً» [ابن ماجه (٢٨٩٠)].

٢٦٤ - هذا، وَقَدْ فُتِحَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ، وَأَهْدَى فِي حَجِّهِ ذَلِكَ مِئَةً بَدَنَةً [مسلم (١٢١٨)].

٢٦٥ - وَلَمَّا فُتِحَتْ عَلَيْهِ مَكَّةُ، وَدَخَلَهَا بِجِيُوشِ الْمُسْلِمِينَ، طَأْطَأَ عَلَى رَحْلِهِ رَأْسَهُ حَتَّى كَادَ يَمْسُ قَادِمَتَهُ تَوَاضَعًا لِلَّهِ تَعَالَى.

٢٦٦ - وَمِنْ تَوَاضَعِهِ ﷺ قَوْلُهُ: «لَا تُفْضَلُونِي عَلَى يُوْنُسَ بْنِ مَتَّى».

٢٦٧ - وَ «لَا تُفْضَلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ» [البخاري (٣٤١٤)، مسلم (١٥٩/٢٣٧٣)].

٢٦٨ - وَ «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى» [البخاري (٢٤١١)، مسلم (١٦٠/٢٣٧٣)].

٢٦٩ - وَ «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، وَلَوْ لَبِثْتُ مَا لَبِثَ يُوسُفُ فِي السَّجَنِ لِأَجْبِثُ الدَّاعِي» [البخاري (٣٣٧٢)، مسلم (١٥١)].

٢٧٠ - وَقَالَ - لِلَّذِي قَالَ لَهُ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ -: «ذَلِكَ إِبْرَاهِيمَ» [مسلم (٢٣٦٩)].

وسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْأَحَادِيثِ بَعْدَ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣ - وَعَنْ عَائِشَةَ، وَالْحَسَنِ، وَأَبِي سَعِيدٍ، وَغَيْرِهِمْ فِي صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَبَعْضُهُمْ يَزِيدُ عَلَى بَعْضٍ: كَانَ فِي بَيْتِهِ فِي مِهْنَةٍ أَهْلِهِ: يَغْلِي ثَوْبَهُ، وَيَخْلُبُ شَاتَهُ، وَيَزَقُّ ثَوْبَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ، وَيَعْلِفُ نَاصِحَهُ، وَيَقُمُّ الْبَيْتَ، وَيَغْقِلُ الْبَعِيرَ، وَيَأْكُلُ مَعَ الْخَادِمِ، وَيَعْجِنُ مَعَهَا، وَيَحْمِلُ بِضَاعَتَهُ مِنَ السُّوقِ [البخاري (٦٧٦)].

٢٧٤ - وَعَنْ أَنَسٍ: إِنْ كَانَتِ الْأُمَّةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذَ بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ فَتَنْتَلِقَ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهَا [البخاري (٦٠٧٢)، أحمد (٩٨/٣)].

٢٧٥ - وَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَأَصَابَتْهُ مِنْ هَيْبَتِهِ رَغْدَةٌ، فَقَالَ لَهُ: «هَوْنٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قَرِيشٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ».

٢٧٦ - وعن أبي هريرة: دخلت السوق مع النبي ﷺ، فاشتري سراويل وقال للورزان: «زِنْ وَأَزْجِحْ» وذكر القصة، قال: فوثب إلى يد النبي ﷺ يُقْبِلُهَا، فجذب يده، وقال: «هذا تفعله الأعاجم بملوكها؛ ولست بمليك، إنما أنا رجل منكم». ثم أخذ السراويل، فذهبت لأخيمه، فقال: «صاحب الشيء أحق بشئيه أن يحمله».

فصل

فِي عَذْلِهِ ﷺ وَأَمَانَتِهِ وَعِفَّتِهِ وَصِدْقِ لَهْجَتِهِ

وأما عذله ﷺ وأمانته وعفته، وصدق لهجته - فكان ﷺ آمن الناس، وأعدل الناس، وأعف الناس، وأصدقهم لهجة منذ كان، اعترف له بذلك مُحَادُّوهُ وَعِدَّاهُ.

وكان يُسمَّى قبل نبوته الأمين.

قال ابن إسحاق: كان يُسمَّى الأمين بما جمَعَ الله فيه من الأخلاق الصالحة. وقال تعالى: ﴿مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوير: ٢١] أكثر المفسرين على أنه محمد ﷺ.

٢٧٧ - ولما اختلفت قريش وتحازبت عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر حكّموا أول داخل عليهم، فإذا بالنبي ﷺ داخل، وذلك قبل نبوته؛ فقالوا: هذا محمد، هذا الأمين قد رَضِينَا بِهِ [أحمد (٤٢٥/٣)].

٢٧٨ - وعن الربيع بن خثيم: كان يتحاكم إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام.

٢٧٩ - وقال ﷺ: «والله! إني لأمين في السماء أمين في الأرض».

٢٨٠ - حدثنا أبو علي الصّدفي الحافظ بقراءتي عليه، حدثنا أبو الفضل بن خَيْرُون، حدثنا أبو يَعْلَى بن رُوح الحرّة، حدثنا أبو علي السنجي، حدثنا محمد بن محبوب المروزي، حدثنا أبو عيسى الحافظ، حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سيفيان، عن أبي إسحاق، عن ناجية بن كعب، عن علي، أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَبَايِعَتُ اللَّهَ يَكْذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وَرَوَى غَيْرُهُ: لَا نَكْذِبُكَ وَمَا أَنْتَ فِينَا بِمُكْذَبٍ.

٢٨١ - وقيل: إِنَّ الْأَخْنَسَ بْنَ شَرِيْقٍ لَقِيَ أَبَا جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا

الحَكَم! ليس هنا غيري وَغَيْرُكَ يَسْمَعُ كلامنا، تخبرني عن محمد؛ صادق هو أم كاذب؟ فقال أبو جهل: والله! إِنَّ محمداً لصادق، وما كَذَبَ محمدٌ قطُّ.

٢٨٢ - وسأل هِرْقُلُ عنه أبا سفيان، فقال: هل كنتم تَتَّهِمُونَهُ بالكذب قبل أن يقولَ ما قال؟ قال: لا [البخاري (٧)، مسلم (١٧٧٣)].

٢٨٣ - وقال التَّضَرُّ بْنُ الْحَارِثِ لَقُرَيْشٍ: قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أَرْضَاكُمْ فيكم، وَأَصْدَقَكُمْ حديثاً، وَأَعْظَمَكُمْ أمانةً حتى إذا رأيتم في صُدْغَيْهِ الشَّيْبَ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساجر. لا، والله! ما هو بساجر.

٢٨٤ - وفي الحديث عنه: ما لَمَسَتْ يَدُهُ يَدَ امرأةٍ قطُّ لا يملك رِقَّها [البخاري (٧٢١٤)، مسلم (١٨٦٦)].

٢٨٥ - وفي حديث عليّ، في وصفه ﷺ: أَصْدَقُ النَّاسِ لَهْجَةً.

٢٨٦ - وقال في الصحيح: «وَنَحَكَ! فَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ!».

٢٨٧ - قالت عائشة: ما خَيْرَ رَسُولٍ اللهُ ﷺ في أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فَإِنْ كَانَ أَثِمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ.

قال أبو العباس المبرد: قَسَمَ كِسْرَى أَيْامَهُ؛ فقال: يَصْلَحُ يَوْمُ الرِّيحِ لِلنُّومِ، وَيَوْمُ الْغَيْمِ لِلصِّيدِ، وَيَوْمُ الْمَطَرِ لِلشُّرْبِ وَاللَّهُوِ، وَيَوْمُ الشَّمْسِ لِلْحَوَاجِجِ.

قال ابنُ خَالَوَيْهِ: ما كان أعرفهم بسياسة دُنْيَاهُمْ! ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمِنْهُم مَّنَ الْآخِرَةِ مَرَّ عَقِلُونَ﴾ [٧: الروم].

٢٨٨ - ولكن نبينا ﷺ جزأ نهاره ثلاثة أجزاء، جزءاً لله، وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصة على العامة، ويقول: «أَبْلِغُوا حَاجَةً مِنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلَاغِي؛ فَإِنَّهُ مَنْ أَبْلَغَ حَاجَةً مِنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلَاغَهَا آمَنَهُ اللهُ يَوْمَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ».

٢٨٩ - وعن الحسن: كان رسولُ اللهِ ﷺ لا يأخذ أحداً بِقَرْفٍ أحد، ولا يَصْدُقُ أحداً على أحد.

٢٩٠ - وذكر أبو جعفر الطَّبري عن عليّ، عنه ﷺ: «ما هَمَمْتُ بشيءٍ مما كان أهلُ الجاهلية يعملون به غيرَ مَرَّتَيْنِ، كُلُّ ذَلِكَ يَحُولُ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَ ما أُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ، ثم ما هَمَمْتُ بسوءٍ حتى أكرمني اللهُ برسالته؛ قلت ليلةً لِفُلامٍ كان يَزْعُمُ معي: لو أبصرت لي غَنَمِي حتى أدخل مكة فأنسَمَ بها كما يَنسَمُ الشَّبَابُ.

فخرجتُ كذلك حتى جئتُ أوَّلَ دارٍ من مكة سمعتُ عَزْفاً بِالْدُقُوفِ وَالْمَزَامِيرِ

لَعَرَسَ بَعْضَهُمْ. فَجَلَسْتُ أَنْظُرُ، فَضَرَبَ عَلَيَّ أُذُنِي فَنِمْتُ، فَمَا أَيْقَظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، فَارْجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئاً. ثُمَّ عَرَانِي مَرَّةً أُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ لَمْ أَهَمَّ بَعْدَ ذَلِكَ بِسُوءٍ.

فصل

فِي وَقَارِهِ ﷺ وَصَفَتِهِ وَتَوَدُّتِهِ وَمُرُوعَتِهِ وَحَسَنِ هَذِيهِ

٢٩١ - وَأَمَّا وَقَارُهُ ﷺ وَصَفَتُهُ وَتَوَدُّتُهُ وَمُرُوعَتُهُ وَحَسَنُ هَذِيهِ فَحَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الْجَيَّانِيُّ الْحَافِظُ إِجَازَةً، وَعَارِضْتُ بِكِتَابِهِ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الدَّلَائِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو ذَرٍّ الْهَرَوِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْوَرَّاقُ، حَدَّثَنَا اللَّوْلُؤِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَلَامٍ، حَدَّثَنَا حُجَّاجُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ وَهَيْبٍ، سَمِعْتُ خَارِجَةَ بْنَ زَيْدٍ يَقُولُ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْقَرَ النَّاسِ فِي مَجْلِسِهِ، لَا يَكَادُ يُخْرَجُ شَيْئاً مِنْ أَطْرَافِهِ.

٢٩٢ - وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَلَسَ فِي الْمَجْلِسِ اخْتَبَى بِيَدَيْهِ، وَكَذَلِكَ كَانَ أَكْثَرُ جُلُوسِهِ ﷺ مُحْتَبِياً [أَبُو دَاوُدَ (٤٨٤٦)].

٢٩٣ - وَعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ أَنَّهُ تَرَبَّعَ [أَبُو دَاوُدَ (٤٨٥٠)].

٢٩٤ - وَرَبَّمَا جَلَسَ الْقُرُفُضَاءُ، وَهُوَ فِي حَدِيثٍ قِيلَ.

٢٩٥ - وَكَانَ كَثِيرَ السَّكُوتِ لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، يُغْرِضُ عَنْ تَكَلُّمٍ بِغَيْرِ جَمِيلٍ، وَكَانَ ضَحِكُهُ تَبَسُّماً، وَكَلَامُهُ فَضْلاً، لَا فَضُولَ وَلَا تَقْصِيرَ، وَكَانَ ضَحْكُ أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ التَّبَسُّمُ؛ تَوْقِيراً لَهُ، وَاقْتِدَاءً بِهِ. مَجْلِسُهُ مَجْلِسُ جِلْمٍ وَحَيَاءٍ، وَخَيْرٍ وَأَمَانَةٍ، لَا تُرْفَعُ فِيهِ الْأَصْوَاتُ، وَلَا تُؤْبَنُ فِيهِ الْحُرْمُ، إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جِلْسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ.

٢٩٦ - وَفِي صَفَتِهِ: يَخْطُو تَكْفُؤاً، وَيَمْشِي هَوْنًا، كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ.

٢٩٧ - وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: إِذَا مَشَى مَشَى مَجْتَمِعاً، يُعْرِفُ فِي مَشْيِهِ أَنَّهُ غَيْرُ غَرَضٍ وَلَا وَكَلٍ. أَي: غَيْرُ ضَجِيرٍ وَلَا كَسْلَانٍ.

٢٩٨ - وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ أَحْسَنَ الْهَذْيِ هَذْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ [الْبَخَارِيُّ

.(٦٠٩٨)].

٢٩٩ - وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: كان في كلام رسول الله ﷺ تَزْيِيلٌ أو تَزْيِيلٌ [أبو داود (٤٨٣٨)].

٣٠٠ - قال ابن أبي هالة: كان سكوته على أربع: على الجِلْمِ، والحَدْرِ، والتقدير، والتفكير.

٣٠١ - قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لو عدّه العادُّ أحصاهُ [البخاري (٣٥٦٧)، مسلم (٧١/٢٤٩٣)].

وكان ﷺ يُحِبُّ الطَّيْبَ والرائحةَ الحسنة، ويستعملهما كثيراً، ويحضُّ عليهما.

٣٠٢ - ويقول: «حُبِّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ: النِّسَاءُ والطَّيْبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

٣٠٣ - ومن مروياته - ﷺ -: نَهَيْهُ عَنِ التَّفَخُّ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ [أبو داود (٣٧٢٨)، الترمذي (١٨٨٨)، ابن ماجه (٣٤٢٨)].

٣٠٤ - وَالْأَمْرُ بِالْأَكْلِ مِمَّا يَلِي [البخاري (٥٣٧٦)، مسلم (٢٠٢٢)].

٣٠٥ - وَالْأَمْرُ بِالسَّوَاكِ.

٣٠٦ - وَإِنْقَاءُ الْبَرَاجِمِ وَالرَّوَاكِيبِ، واستعمال خِصَالِ الْفِطْرَةِ [مسلم (٢٦١)].

فصل

فِي زُهْدِهِ ﷺ فِي الدُّنْيَا

٣٠٧ - وَأَمَّا زُهْدُهُ فِي الدُّنْيَا فَقَدْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَخْبَارِ أَثْنَاءَ هَذِهِ السَّيْرَةِ مَا يَكْفِي. وَحَسْبُكَ مِنْ تَقْلِيلِهِ مِنْهَا، وَإِعْرَاضِهِ عَنْ زَهْرَتِهَا؛ وَقَدْ سَيِّقَتْ إِلَيْهِ بِحَدَائِيرِهَا، وَتَرَادَفَتْ عَلَيْهِ فَتَوَحَّحَا إِلَى أَنْ تُوفِّيَ ﷺ وَدَزَعَهُ مَرْهُونَةً عِنْدَ يَهُودِيٍّ فِي نَفَقَةِ عِيَالِهِ [البخاري (٢٩١٦)، مسلم (١٦٠٣)].

٣٠٨ - وَهُوَ يَدْعُو وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ! اجْعَلْ رِزْقِي أَلِيَّ مُحَمَّدٍ قُوْتًا» [البخاري (٦٤٦٠)، مسلم (١٠٥٥)].

٣٠٩ - حَدَّثَنَا سَفْيَانُ بْنُ الْعَاصِي، وَالْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْحَافِظُ، وَالْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِي، قَالُوا: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الرَّازِي، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ الْجُلُودِي، حَدَّثَنَا ابْنُ سَفْيَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ: مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ الْأَسْوَدِ، عَنْ عَائِشَةَ؛ قَالَتْ: مَا شَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تَبَاعَا مِنْ خُبْزٍ بُرِّ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ [مسلم (٢١/٢٩٧٠)].

٣١٠ - وفي رواية أخرى: من خُبِرَ شعير يومين مُتَوَالِيَيْنِ، ولو شاء لأعطاه الله ما لا يَخْطُرُ بِئَالٍ [مسلم (٢٢/٢٩٧٠)].

٣١١ - وفي رواية أخرى: ما شَبَعَ آلُ رسولِ الله ﷺ من خُبِرِ بُرٍّ حتى لَقِيَ الله تعالى [البخاري (٦٤٥٤)، مسلم (٢٠/٢٩٧٠)].

٣١٢ - وقالت عائشة: ما ترك رسولُ الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا شاةً، ولا بعيراً [مسلم (١٦٣٥)].

٣١٣ - وفي حديث عمرو بن الحارث: ما ترك إلا سلاحه، وبَغْلَتَه، وأرضاً جعلها صدقةً [البخاري (٣٠٩٨)].

٣١٤ - قالت عائشة: ولقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كَبِدٍ إلا شَطِرَ شعيرٍ في رَفٍّ لي [البخاري (٣٠٩٧)، مسلم (٢٩٧٣)].

٣١٥ - وقال لي: «إني عَرِضٌ علي أن تُجْعَلَ لي بطحاء مكة ذهباً. فقلت: لا، يا رب! أجوع يوماً وأشبع يوماً، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك» [الترمذي (٢٣٤٧)، أحمد (٢٥٤/٥)].

٣١٦ - وفي حديث آخر: إن جبريل - عليه السلام - نزل عليه، فقال له: إن الله تعالى يُفَرِّقُكَ السَّلامَ، ويقول لك: أَتُحِبُّ أن أُجْعَلَ هذه الجبال ذهباً، وتكون معك حيثما كنت؟ فأطرق ساعة، ثم قال: «يا جبريل! إن الدنيا دارٌ من لا دارَ له، ومالٌ من لا مالَ له، قد يَجْمَعُهَا مَنْ لا عَقْلَ له» فقال له جبريل: ثَبَّتَكَ الله يا محمد! بالقول الثابت.

٣١٧ - وعن عائشة قالت: إن كنا آل محمد لَنَمْكُثُ شهراً ما نستوقد ناراً؛ إن هو إلا التَّمَرُ والماء [البخاري (٦٤٥٨)، مسلم (٢٩٧٢)].

٣١٨ - وعن عبدالرحمن بن عوف: هلك رسولُ الله ﷺ، ولم يشبَعِ هو وأهل بيته من خُبِرِ الشَّعِيرِ.

٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١ - وعن عائشة، وأبي أمامة، وابن عباس نحوه [الترمذي (٢٣٥٩)، أحمد (٢٥٣/٥)].

٣٢٢ - قال ابن عباس: كان ﷺ يَبِينُثُ هو وأهلُه الليالي المتتابعة طاوياً لا يجدون عشاءً.

٣٢٣ - وعن أنس: ما أكل رسولُ الله ﷺ على خِوَانٍ ولا في سُكْرَجَةٍ، ولا خُبِرَ له مُرَقَّقٌ، ولا رَأَى شاةً سَمِيطاً قَطُّ.

٣٢٤ - وعن عائشة بنت أبي بكر: إنما كان فِرَاشُ رسول الله - ﷺ - الذي ينام عليه أَدَمًا حَشَوُهُ لَيْفٌ [البخاري (٦٤٥٦)، مسلم (٢٠٨٢)].

٣٢٥ - وعن حَفْصَةَ قالت: كان فِرَاشُ رسول الله ﷺ في بيتي مَسْحًا ثَنِيْنِيْنِ، فينام عليه، فَتَنِيْنَاهُ لَيْلَةً بِأَرْبَعِ، فلما أَصْبَحَ قال: «مَا فَرَشْتُمُوْلِي اللَّيْلَةَ؟» فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ، فقال: «رُدُّوْهُ بِحَالِهِ، فَإِنْ وَطَّأَتْهُ مَتَعْنِي اللَّيْلَةُ صَلَاتِي».

٣٢٦ - وكان ﷺ ينام أحياناً على سَرِيْرٍ مَرْمُولٍ بِشَرِيْطٍ حَتَّى يُؤَثَّرَ فِي جَنْبِهِ [البخاري (٥١٩١)].

٣٢٧ - وعن عائشة قالت: لم يَمْتَلِءْ جَوْفُ النَّبِيِّ ﷺ شِبَعًا قَطُّ، وَلَمْ يَنْتِ شَكْوَى إِلَى أَحَدٍ، وَكَانَتْ الْفَاقَةُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْغَنَى، وَإِنْ كَانَ لِيُظْلُ جَائِعًا يَلْتَوِي طَوْلَ لَيْلَتِهِ مِنَ الْجُوعِ فَلَا يَمْنَعُهُ صِيَامُ يَوْمِهِ، وَلَوْ شَاءَ سَأَلَ رَبَّهُ جَمِيعَ كُنُوزِ الْأَرْضِ وَثَمَارِهَا وَرَغَدَ عَيْشِهَا، وَلَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي رَحْمَةً لَهُ مِمَّا أَرَى بِهِ، وَأَمْسَحُ بِيَدِي عَلَى بَطْنِهِ مِمَّا بِهِ مِنَ الْجُوعِ، وَأَقُولُ: نَفْسِي لَكَ الْفِدَاءُ؛ لَوْ تَبَلَّغْتَ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا يَقُوْتُكَ؟ فيقول: «يَا عَائِشَةُ! مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، إِخْوَانِي مِنْ أَوْلِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ صَبَرُوا عَلَى مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ هَذَا، فَمَضَوْا عَلَى حَالِهِمْ، فَقَدِمُوا عَلَى رَبِّهِمْ، فَأَكْرَمَ مَا بَهُمْ، وَأَجَزَلَ ثَوَابَهُمْ، فَأَجِدْنِي أَسْتَحْيِي إِنْ تَرَفَّهْتُ فِي مَعِيشَتِي أَنْ يَقْصَرَ بِي غَدَا دُونَهُمْ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ اللَّحُوقِ بِإِخْوَانِي وَأَخِلَائِي».

قالت: فما أقام بغد إلا شهراً حتى تُوَفِّيَ ﷺ.

فصل

فِي خَوْفِهِ ﷺ مِنْ رَبِّهِ، وَطَاعَتِهِ لَهُ، وَشِدَّةِ عِبَادَتِهِ

٣٢٨ - وأما خَوْفُهُ رَبَّهُ، وَطَاعَتُهُ لَهُ؛ وَشِدَّةُ عِبَادَتِهِ، فعلى قَدْرِ عِلْمِهِ بِرَبِّهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ فِيمَا حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ بَنِي قُرَّةٍ عَنْ أَبِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْقَاسِمِ الطَّرَابُلْسِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ الْقَاسِمِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو زَيْدٍ الْمَرْوَزِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْفَرَزُبِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، عَنْ اللَّيْثِ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً» [البخاري (٦٤٨٥)].

٣٢٩ - زاد في روايته، عن - أَبِي عِيْسَى التِّرْمِذِيِّ - رَفَعَهُ إِلَى أَبِي ذَرٍّ: «إِنِّي

أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنَظُّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِداً لِلَّهِ، وَاللَّهُ! لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعْدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ، لَوِذِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُغْضَدُ [الترمذي (٢٣١٢)، ابن ماجه (٤١٩٠)، أحمد (١٧٣/٥)].

رَوَى هَذَا الْكَلَامُ: «وِذِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُغْضَدُ» مِنْ قَوْلِ أَبِي ذَرٍّ نَفْسِهِ وَهُوَ أَصْحَبُ.

٣٣٠ - وَفِي حَدِيثِ الْمَغِيرَةِ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ [مسلم (٢٨١٩)].

٣٣١ - وَفِي رَوَايَةٍ: كَانَ يُصَلِّي حَتَّى تَرِمَ قَدَمَاهُ؛ فَقِيلَ لَهُ: أَتَكْلِفُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقْدِمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُرُ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟» [البخاري (٤٨٣٧)، (٦٣٧١)، مسلم (٢٨١٩)، (٢٨٢٠/٨٠)].

٣٣٢، ٣٣٣ - وَنَحْوَهُ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ [الترمذي (٢٦٠)، ابن ماجه (١٤٢٠)].

٣٣٤ - وَقَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ عَمَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذِمَّةً، وَأَيْكُمْ يُطِيقُ مَا كَانَ يُطِيقُ؟ [البخاري (١٩٨٧)، مسلم (٧٨٣)].

٣٣٥ - وَقَالَتْ: كَانَ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ: لَا يُفْطِر. وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ: لَا يَصُومُ [مسلم (١٧٥/١١٥٦)].

٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨ - وَنَحْوُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأُمِّ سَلَمَةَ، وَأَنْسٍ [البخاري (١٩٧١)، مسلم (١٧٩/١١٥٧)، الترمذي (٧٣٦)، أَبُو دَاوُدَ (٢٣٣٦)، النَّسَائِيُّ (٢٠٠/٤)].

٣٣٩ - وَقَالَ: كُنْتُ لَا تَشَاءُ أَنْ تَرَاهُ مِنَ اللَّيْلِ مُصَلِّياً إِلَّا رَأَيْتَهُ مُصَلِّياً، وَلَا نَائِماً إِلَّا رَأَيْتَهُ نَائِماً [البخاري (١٩٧٢)].

٣٤٠ - وَقَالَ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً فَاسْتَاكَ ثُمَّ تَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَقُمْتُ مَعَهُ، فَبَدَأَ فَاسْتَفْتَحَ الْبَقْرَةَ، فَلَا يَمُرُّ بِأَيَّةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ فَسَالَ، وَلَا يَمُرُّ بِأَيَّةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّدَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَمَكَثَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ، يَقُولُ: «سَبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْعِظَمَةِ» ثُمَّ سَجَدَ وَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ؛ ثُمَّ قَرَأَ آلَ عِمْرَانَ، ثُمَّ سُورَةَ سُورَةٍ، يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ [أَبُو دَاوُدَ (٨٧٣)، النَّسَائِيُّ (١٩١/٢)].

٣٤١ - وَعَنْ حُذَيْفَةَ مِثْلَهُ، وَقَالَ: سَجَدَ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، وَجَلَسَ بَيْنَ

السَّجْدَتَيْنِ نَحْوَ مِنْهُ، وَقَالَ: حَتَّى قَرَأَ الْبَقْرَةَ، وَآلَ عِمْرَانَ، وَالنِّسَاءَ، وَالْمَائِدَةَ [أَبُو دَاوُدَ (٨٧٤)].

٣٤٣ - وَعَنْ عَائِشَةَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَيَّةٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَيْلَةً [التِّرْمِذِيُّ (٤٤٨)].

٣٤٣ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَصَلِّي، وَلَجَوْفُهُ أَزْيَرُ كَأَزْيَرِ الْمَرْجَلِ [أَبُو دَاوُدَ (٩٠٤)، النَّسَائِيُّ (١٣/٣)].

٣٤٤ - وَقَالَ ابْنُ أَبِي هَالَةَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَوَاصِلَ الْأَحْزَانِ، دَائِمَ الْفِكْرَةِ، لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ.

٣٤٥ - وَقَالَ ﷺ: «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِثْلَ مَرَّةٍ» [مُسْلِمَ (٢٧٠٢)].

٣٤٦ - وَرَوَى: «سَبْعِينَ مَرَّةً».

٣٤٧ - وَعَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ سُنَّتِهِ، فَقَالَ: «الْمَعْرِفَةُ رَأْسُ مَالِي، وَالْعَقْلُ أَصْلُ دِينِي، وَالْحُبُّ أَسَاسِي، وَالشُّوقُ مَرْكَبِي، وَذِكْرُ اللَّهِ أُنَيْسِي، وَالثِّقَةُ كَنْزِي، وَالْحُزْنُ رَفِيقِي، وَالْعِلْمُ سِلَاحِي، وَالصَّبْرُ رِدَائِي، وَالرِّضَا غَنِيمَتِي، وَالْفَقْرُ فَخْرِي، وَالزُّهْدُ جِرْفَتِي، وَالْيَقِينُ قُوَّتِي، وَالصَّدْقُ شَفِيعِي، وَالطَّاعَةُ حَسْبِي، وَالْجِهَادُ خُلُقِي، وَفَرَّةٌ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

٣٤٨ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «وَثَمَرَةُ فَوَادِي فِي ذِكْرِهِ، وَغَمِّي لِأَجْلِ أَمْنِي، وَشَوْقِي إِلَى رَبِّي».

فصل

فِي صِفَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ كَمَالِ الْخَلْقِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ وَشَرَفِ النَّسَبِ

قال المؤلف رحمه الله:

اعلم، وَفَقْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكَ! أَنَّ صِفَاتِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - مِنْ كَمَالِ الْخَلْقِ، وَحُسْنِ الصُّورَةِ، وَشَرَفِ النَّسَبِ، وَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَجَمِيعِ الْمَحَاسِنِ، هِيَ هَذِهِ الصِّفَةُ؛ لِأَنَّهَا صِفَاتُ الْكَمَالِ، وَالْكَمَالُ وَالتَّمَامُ الْبَشَرِيُّ وَالْفَضْلُ الْجَمِيعُ لَهُمْ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ؛ إِذْ رُتِبَتْهُمْ أَشْرَفُ الرُّتَبِ، وَدَرَجَاتُهُمْ أَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ، وَلَكِنْ فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

٣٤٩ - وقد قال ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَذْرِ». قَالَ آخِرُ الْحَدِيثِ: «عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ ﷺ، طَوْلُهُ سِتُونَ ذِرَاعاً فِي السَّمَاءِ» [البخاري (٣٣٢٧)، مسلم (١٥/٢٨٣٤)].

٣٥٠ - وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ: «رَأَيْتُ مُوسَى فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ ضَرْبٌ، رَجُلٌ، أَقْنَى، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ. وَرَأَيْتُ عِيسَى فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ رُبْعَةٌ، كَثِيرُ خَيْلَانِ الْوَجْهِ، أَحْمَرٌ، كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيْمَاسٍ» [البخاري (٣٣٩٤)، مسلم (١٦٨)].

٣٥١ - وفي حديث آخر: «مَبْطُنٌ مِثْلُ السِّيفِ» [أحمد (٣٧٤/١)].

٣٥٢ - قال: «وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ بِهِ».

٣٥٣ - وقال في حديث آخر في صِفَةِ مُوسَى: «كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَأَيْتَ مِنْ آدَمِ الرِّجَالِ» [البخاري (٥٩٠٢)، مسلم (١٦٩)].

٣٥٤ - وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْهُ ﷺ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَعْدِ لُوطٍ نَبِيًّا إِلَّا فِي ذُرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ» [الترمذي (٣١١٦)، أحمد (٥٣٣/٢)].

٣٥٥ - ويروى: «فِي ذُرْوَةٍ» [الترمذي (٣١١٦)، أحمد (٣٣٢/٢)] أي: كَثْرَةُ وَمَنْعَةٍ.

٣٥٦، ٣٥٧ - وحكى الترمذي، عَنْ قَتَادَةَ. وَرَوَاهُ الدَّارِقُطْنِيُّ مِنْ حَدِيثِ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ: مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا حَسَنَ الْوَجْهِ، حَسَنَ الصَّوْتِ، وَكَانَ نَبِيَّكُمْ ﷺ أَحْسَنَهُمْ وَجْهًا، وَأَحْسَنَهُمْ صَوْتًا.

٣٥٨ - وفي حديث هِرْقُلَ: وَسَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرِّسْلُ تَبَعَتْ فِي أَنْسَابِ قَوْمِهَا.

وقال تعالى - فِي آيَتِهِ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَقِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿يَبْعَثُ خِذِّ الْكِتَابِ يَقُوُّ وَعَاتِنُهُ لُكْمُ صَبِيحًا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَوْ يَكُنْ جَبَارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١٢-١٥].

وقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِخَيْرٍ مُّصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعِمَّاكَ عِزَّةً عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤].

وقال - فِي نُوحٍ: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عِبَادًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ الْإِنْسَانَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦].

وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ مَانِنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٥﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا ذُمْتُ حَيًّا ﴿٣٦﴾﴾ [مريم: ٣٥، ٣٦].

وقال: ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَأَ اللَّهُ مِنْهُمَا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا ﴿٦٦﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦].

٣٥٩ - وقال النبي ﷺ: «كَانَ مُوسَى رَجُلًا حَيِيًّا، سَتِيرًا، مَا يَرَى مِنْ جَسَدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاءُ» الحديث. [البخاري (٣٤٠٤)، مسلم (١٥٦/٣٣٩)].

وقال تعالى - عنه: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١].

وقال في وَضْعِ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ١٠٧].

وقال: ﴿إِنِّي خَيْرٌ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْفَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وقال: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُوا الْعَزِيمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ

عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْفِكْرَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُو بِهَا بِكَفِيرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْدَهُ ﴿٩٠﴾ [الأنعام: ٨٤ - ٩٠].

فوصفهم بأوصافٍ جَمَّةٍ مِنَ الصَّلَاحِ وَالْهُدَى وَالْاجْتِبَاءِ وَالْحُكْمِ وَالنُّبُوَّةِ.

وقال: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعِلْمٍ﴾ [الصفات: ١٠١] عليم، وحليم.

وقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلِكْ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٨﴾﴾ [الدخان: ١٧، ١٨].

وقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الصفات: ١٠٢].

وقال - في إسماعيل: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

وقال - في موسى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ [مريم: ٥١].

وفي سليمان: ﴿يَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وقال: ﴿وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۖ إِنَّا أَخْلَقْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۖ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ۖ﴾ [ص: ٤٥ - ٤٧].
وفي داود: ﴿إِنَّهُ أَوَّلُ﴾ [ص: ١٧].

ثم قال: ﴿وَسَدَدْنَا مَلَكُتَهُ وَأَيَّنَّهٗ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْفُطُوبَ ۖ﴾ [ص: ٢٠].
وقال - عن يوسف: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].
وفي موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٦٩].
وقال تعالى - عن شُعَيْب عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧].

وقال: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخْلِفَكُمْ إِلَى مَا أَنهَكُم عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

وقال: ﴿وَلَوْطًا مَا أَيَّنَّهٗ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤].
وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].
قال سفيان: هو الحزن الدائم.

في أي كثيرة، ذكر فيها من خصالهم ومحاسن أخلاقهم الدالة على كمالاتهم.
٣٦٠ - وجاء من ذلك في الأحاديث كثير، كقوله: «إنما الكريم ابن الكريم ابن نبي ابن نبي ابن نبي» [البخاري (٣٣٩٠)، الترمذي (٣١١٦)].
٣٦١ - وفي حديث أنس: «وكذلك الأنبياء تنام أغنيهم ولا تنام قلوبهم» [البخاري (٣٥٧٠)، مسلم (٢٦٢/١٦٢)].

٣٦٢ - وروى أن سليمان كان - مع ما أُعْطِيَ من الملك - لا يرفع بصره إلى السماء تخشعاً وتواضعاً لله تعالى.

٣٦٢ م - وكان يُطْعِمُ النَّاسَ لِدَائِدِ الْأَطْعِمَةِ وَيَأْكُلُ خُبْزَ الشَّعِيرِ.
وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا رَأْسَ الْعَابِدِينَ! وَأَبْنَ مَحَبَّةِ الزَّاهِدِينَ.
وكانت العجوز تغترضه - وهو على الرِّيح في جنوده - فيأمر الرِّيح فتقف فينظر في حاجتها ويمضي.

وقيل ليوسف: ما لك تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ قال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع.

٣٦٣ - وروى أبو هريرة عنه ﷺ: «خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ الْقِرَاءُ، فَكَانَ يَأْمُرُ

بدوابه، فتنسج، فيقرأ القرآن قبل أن تنسج، ولا يأكل إلا من عمل يده» [البخاري (٣٤١٧)].

قال الله تعالى: ﴿وَالنَّاسُ لَهُ الْعَدِيدُ﴾ (١٠) أَنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ وَقَدِّرَ فِي السَّرِّ ﴿سبأ: ١٠، ١١﴾.

وكان سأل ربه أَنْ يَرْزُقَهُ عَمَلًا يَبْدُو عَنْ يَدَيْهِ الْمَالِ.

٣٦٤ - وقال ﷺ: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ: كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيَفْطُرُ يَوْمًا» [البخاري (١١٣١)، مسلم (١١٥٩/١١٨٩)].

٣٦٥ - وكان يلبس الصوف، ويفترش الشعر، ويأكل خُبْزَ الشعير بالملح والرمد، وَيَمْزُجُ شَرَابَهُ بِالدَّمْعِ، وَلَمْ يُرْ ضَاحِكًا بَعْدَ الْخَطِيئَةِ.

٣٦٥ م - وَلَا شَاخِصًا بِيَصْرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، حَيَاءً مِنْ رَبِّهِ، وَلَمْ يَزَلْ بَاكِيًا حَيَاتِهِ كُلِّهَا.

٣٦٦ - وَقِيلَ: بَكَى حَتَّى نَبَتَ الْعُشْبُ مِنْ دَمْعِهِ، وَحَتَّى اتَّخَذَتِ الدَّمْعُ فِي خَدِّهِ أَخْدُودًا.

وَقِيلَ: كَانَ يَخْرُجُ مُتَنَكِّرًا يَتَعَرَّفُ سِيرَتَهُ، فَيَسْتَمِعُ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ، فَيَزِدُّادُ تَوَاضُعًا.

٣٦٧ - وَقِيلَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَوْ اتَّخَذْتَ جِمَارًا؟ قَالَ: أَنَا أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يَشْغَلَنِي بِجِمَارٍ.

٣٦٨ - وَكَانَ يَلْبَسُ الشَّعْرَ، وَيَأْكُلُ الشَّجَرَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَيْتٌ، أَيْنَمَا أَدْرَكَهُ النَّوْمُ نَامَ.

٣٦٩ - وَكَانَ أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: مُسْكِينٌ.

٣٧٠ - وَقِيلَ: إِنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَذِينٍ كَانَتْ تُرَى خُضْرَةُ الْبَقْلِ فِي بَطْنِهِ مِنَ الْهَزَالِ.

٣٧١ - وَقَالَ ﷺ: «لَقَدْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلِي يُبْتَلَى أَحَدُهُمْ بِالْفَقْرِ وَالْقَمَلِ، وَكَانَ ذَلِكَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَطَاءِ إِلَيْهِمْ».

وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِخُزَيْرٍ لَقِيَهُ: أَذْهَبَ بِسَلَامٍ. فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: أَكْرَهُ أَنْ أَعُوذَ لِسَانِي الْمُنْطَقَ بِسَوْءٍ.

٣٧٢ - وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ طَعَامُ يَحْيَى الْعُشْبِ.

وكَانَ يَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى اتَّخَذَ الدَّمْعُ مَجْرَى فِي خَدِّهِ.

٣٧٣ - وَكَانَ يَأْكُلُ مَعَ الْوَحْشِ لَثْلًا يُخَالِطُ النَّاسَ.

وحكى الطبري، عن وهب، أنَّ موسى كان يستظلُّ بعَرِيش، ويأكل في نُقْرَةٍ من حَجَر، ويَكْرَعُ فيها إذا أراد أن يشرب كما تَكْرَع الدابة، تواضعاً لله بما أكرمه الله به من كلامه.

وأخبارهم في هذا كله مسطورة، وصفاتهم في الكمال وجميل الأخلاق، وحسن الصور والشمال معروف مشهورة؛ فلا نُطوِّلُ بها، ولا نَلْتَفِتُ إلى ما نجدُه في كتب بعض جهلة المؤرخين والمُفسِّرين مما يخالف هذا.

فصل

في حديث هناد بن أبي هالة وعلي بن أبي طالب

في شمائله

قال المؤلف - رحمه الله - :

قد أتيناك - أكرمك الله - من ذكر الأخلاق الحميدة، والفضائل المجيدة، وخصال الكمال العديدة، وأتيناك صحتها له ﷺ، وجلبنا من الآثار ما فيه مَقْنَع، والأمر أوسع؛ فمجال هذا الباب في حقه ﷺ مُمتد، تَنَقُّطُ دون نُقَادِهِ الأدلاء، ويخر علم خصائصه زاجر لا تُكَدِّرُهُ الدلاء، ولكننا أتينا فيه بالمعروف، مما أكثره في الصحيح والمشهور من المصنَّفات؛ واقتصرنا في ذلك بِقَلٍّ من كُلِّ، وعَيَضَ من فَيَضٍ، ورأينا أنَّ نَحْتِمَ هذه الفصول بحديث الحسن، عن ابن أبي هالة، لَجْمَعِهِ من شمائله وأوصافه كثيراً، وإدماجه جُمْلَةً كافيةً من سيره وفضائله، ونَصِلُهُ بتبنيه لطيف على غريبه ومُشْكَلُهُ.

٣٧٤ - حدثنا القاضي أبو علي: الحسين بن محمد الحافظ - رحمه الله -

بقراءتي عليه سنة ثمان وخمسين مئة، قال: حدثنا الإمام أبو القاسم: عبدالله بن طاهر التميمي، قرأت عليه: أخبركم الفقيه الأديب أبو بكر: محمد بن عبدالله بن الحسن النيسابوري، والشيخ الفقيه أبو عبدالله: محمد بن أحمد بن الحسن المُمَحَّدِي، والقاضي أبو علي: الحسن بن علي بن جعفر الوُحْشِي؛ قالوا: حدثنا أبو القاسم: علي بن أحمد بن محمد بن الحسن الخَزَاعِي، قال: أخبرنا أبو سعيد: الهيثم بن كليب الشاشي، قال: أخبرنا أبو عيسى: محمد بن سَوْرَةَ الحافظ؛ قال: حدثنا سُفْيَان بن وَكِيع، حدثنا جُمَيْع بن عُثْمَيْر بن عبدالرحمن العجلي إملاءً من كتابه؛ قال: حدثني رجل من بني تميم من وَلَدِ أَبِي هَالَةَ: زَوْج خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، يكنى أبا عبدالله، عن ابن أبي هَالَةَ، عن

الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، قال: سألت خالي هند بن أبي هالة.

١/٣٧٤ - قال القاضي أبو علي - رحمه الله -: وقرأت على الشيخ أبي الطاهر: أحمد بن الحسن بن أحمد بن خُذَّاداذ الكَرَجِيّ الباقِلَانِي؛ قال: وأجاز لنا الشيخ الأجلّ أبو الفضل: أحمد بن الحسين بن خَيْرُون؛ قالوا: أخبرنا أبو علي: الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن محمد بن شاذان بن حَرْب بن مِهْرَان الفارسي قراءة عليه، فأقرّ به، قال: أخبرنا أبو محمد: الحسن بن محمد بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيدالله بن الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بابن أخي طاهر العلوي، قال: حدثنا إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قال: حدثني علي بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، عن أخيه موسى بن جعفر، عن جعفر بن محمد، عن أبيه: محمد بن علي، عن علي بن الحسين، قال: قال الحسن بن علي - واللفظ لهذا السند - سألت خالي هند بن أبي هالة عن حليّة رسول الله ﷺ - وكان وصافاً - وأنا أزجو أن يصف لي منها شيئاً أتعلّق به، قال: كان رسول الله ﷺ فَحْمًا مُفَحَّمًا، يتلأأ وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر، أطول من المَرْبُوع، وأقصر من المشدّب، عظيم الهامة، رجل الشعر؛ إن انفردت عقيقته فرق، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه، إذا هو وفّره، أزهر اللون، واسع الجبين، أزجّ الحواجب، سوابغ، من غير قرّن، بينهما عرق يدره الغضب، أفتى العزّنين، له نور يغلوه، ويحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية، أدعج، سهل الخدين، ضليع الفم، أشنب، مفلج الأسنان، دقيق المسربة، كأن عنقه جيد دمية، في صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادناً، متماسكاً، سواء البطن والصدر، مشيخ الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، أنور المتجرّد، موصول ما بين اللبّة والسرة بشعر يجري كالخط، غاري الشدين ما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعلي الصدر، طويل الزندين، رخب الراحة، شت الكفين والقدمين، سائل الأطراف، سبط القصب، خمصان الأخمصين، مسيح القدمين، يتبو عنهما الماء، إذا زال زال ثقلعاً، ويخطو تكفؤاً، ويمشي هوناً، ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط من صيب، وإذا التفت التفت جميعاً، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جلّ نظره الملاحظة، يسوق أصحابه، ويبدأ من لقيه بالسلام.

قلت: صف لي منطقتي.

قال: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم، فضلاً، لا فضول فيه ولا تفصيل، دميماً، ليس بالجافي ولا المهيمن، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم شيئاً، ولم يكن يذم ذواقاً، ولا يمدحه، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها وإذا تحدث اتصل بها، فضرب بينهما اليمين راحته اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غص طرفة، جل ضحكته التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام.

قال الحسن: فكتمتها الحسين بن علي زماناً، ثم حدثته فوجدته قد سبقني إليه، فسأل أباه عن مدخل رسول الله ﷺ ومخرجه ومجلسه وشكله، فلم يدع منه شيئاً.

قال الحسين: سألت أبي عن دخول رسول الله ﷺ؟ فقال:

كان دخوله لنفسه، مأدوناً له في ذلك، فكان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءاً لله تعالى، وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس، فيرد ذلك على العامة بالخاصة، ولا يدخر عنهم شيئاً، فكان من سيرته في جزء الأمة إثارة أهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين؛ منهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشغل بهم، ويشغلهم فيما أصلحهم والأمة، من مسألته عنهم، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم؛ ويقول: «يبلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة». لا يذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره.

وقال - في حديث سفيان بن وكيع -: يدخلون رؤاداً، ولا يتفرقون إلا عن ذواق، ويخرجون أدلة، يعني: فقهاء.

قلت: فأخبرني عن مخرجه، كيف كان يصنع فيه؟

قال: كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا فيما يغنيهم، ويؤلفهم ولا يفرقهم؛ يكرم كريم كل قوم، ويؤليه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن أحد بشره وخلقه، ويتفق أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويصوبه، ويقبح القبيح ويوهنه، معتدلاً الأمر غير

مختلف، لا يَغْفُل مخافة أَنْ يغفلوا أو يَمْلُوا، لكل حالٍ عنده عَتَاد، لا يَقْصُرُ عن الحق، ولا يجاوزُهُ إلى غيره، الذين يَلُونَهُ من الناس جِثَاؤُهُمْ، وأفضلُهُمْ عنده أَعْمُهُمْ نصيحةً؛ وأَعظَمُهُمْ عنده منزلةٌ أحْسَنُهُمْ مواساةً وموازرةً.

فسألته عن مَجْلِسِهِ: عَمَّا كَانَ يَصْنَعُ فِيهِ؟

فقال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَجْلِسُ وَلَا يَقُومُ إِلَّا عَلَى ذِكْرٍ، وَلَا يُوطِنُ الْأَمَاكِنَ، وَيَنْتَهِي عَنْ إِيْطَانِهَا، وَإِذَا انْتَهَى إِلَى قَوْمٍ جَلَسَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ الْمَجْلِسُ، وَيَأْمُرُ بِذَلِكَ، وَيُعْطِي كُلَّ جُلُوسَانِهِ نَصِيْبَهُ حَتَّى لَا يَخْسَبَ جَلِيْسُهُ أَنَّ أَحَدًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْهُ، مَنْ جَالَسَهُ، أَوْ قَاوَمَهُ لِحَاجَةٍ، صَابِرَهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ عَنْهُ.

مَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّهَا إِلَّا بِهَا، أَوْ بِمَنْسُورٍ مِنَ الْقَوْلِ. قَدْ وَسَّعَ النَّاسُ بَسْطُهُ وَخُلُقُهُ؛ فَصَارَ لَهُمْ أَبًا، وَصَارُوا عَنْده فِي الْحَقِّ سَوَاءً مُتَقَارِبِينَ مُتَفَاضِلِينَ فِيهِ بِالْتَقْوَى.

وَفِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى: صَارُوا عَنْده فِي الْحَقِّ سَوَاءً، مَجْلِسُهُ مَجْلِسُ جِلْمٍ وَحِيَاءٍ، وَصَبْرٍ وَأَمَانَةٍ؛ لَا تُرْفَعُ فِيهِ الْأَصْوَاتُ، وَلَا تُؤْبَنُ فِيهِ الْحَرَمُ، وَلَا تُنْشَى فَلَنَاتُهُ، وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ، مِنْ غَيْرِ الرِّوَايَتَيْنِ.

يَتَعَاطَفُونَ فِيهِ بِالْتَقْوَى، مُتَوَاضِعِينَ، يُوقِرُونَ فِيهِ الْكَبِيرَ، وَيَرْحَمُونَ الصَّغِيرَ، وَيَرْفُدُونَ ذَا الْحَاجَةِ، وَيَرْحَمُونَ الْغَرِيبَ.

فسألته عن سِيرَتِهِ ﷺ فِي جُلُوسَاتِهِ؟

فقال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَائِمَ الْبِشْرِ، سَهْلَ الْخُلُقِ، لَيِّنَ الْجَانِبِ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ، وَلَا فَحَّاشٍ، وَلَا عِيَّابٍ وَلَا مَدَّاحٍ، يَتَغَافَلُ عَمَّا لَا يَشْتَهِي، وَلَا يُؤَيِّسُ مِنْهُ، قَدْ تَرَكَ نَفْسَهُ مِنْ ثَلَاثٍ: الرِّيَاءَ، وَالْإِكْثَارَ، وَمَا لَا يَغْنِيهِ؛ وَتَرَكَ النَّاسَ مِنْ ثَلَاثٍ: كَانَ لَا يَذُمُّ أَحَدًا، وَلَا يُعَيِّرُهُ، وَلَا يَطْلُبُ عَوْرَتَهُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِيمَا يَرْجُو ثَوَابَهُ، إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرُقَ جُلُوسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ، وَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا، وَلَا يَتَنَازَعُونَ عَنْده الْحَدِيثَ. مَنْ تَكَلَّمَ عَنْده أَنْصَتُوا لَهُ حَتَّى يَفْرُغَ، حَدِيثُهُمْ حَدِيثٌ أَوَّلُهُمْ، يَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْهُ، وَيَعْجَبُ مِمَّا يَتَعْجَبُونَ مِنْهُ، وَيَصْبِرُ لِلْغَرِيبِ عَلَى الْجَفْوَةِ فِي الْمَنْطِقِ، وَيَقُولُ: «إِذَا رَأَيْتُمْ صَاحِبَ الْحَاجَةِ يَطْلُبُهَا فَارْزُقُوهُ» وَلَا يَطْلُبُ الثَّنَاءَ إِلَّا مِنْ مُكَافِيٍّ، وَلَا يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ حَتَّى يَتَجَوَّزَهُ فَيَقْطَعَهُ بَانْتِهَاءٍ أَوْ قِيَامٍ.

هنا انتهى حديثُ سفيان بن وكيع.

وزاد الآخر: قلت: كيف كان سكوته ﷺ؟

قال: كان سكوته على أربع: على الجلم، والحذر، والتقدير، والتفكر، فأما تقديره ففي تسوية النظر والاستماع من الناس، وأما تفكره ففيما يبقى ويقتى. وجمع له الجلم في الصبر، فكان لا يغضبه شيء يستفزه، وجمع له في الحذر أربع: أخذه بالحسن ليفتدى به، وتركه القبيح لينتهى عنه، واجتهاد الرأي بما أصلح أمته، والقيام لهم بما جمع لهم من أمر الدنيا والآخرة. انتهى الوصف بحمد الله وعونه تعالى.

فصل

في تفسير غريب هذا الحديث ومشكله

قوله: المُشَدَّب: أي البائن الطول في نحافة. ٣٧٥ - وهو مثل قوله في الحديث الآخر: «ليس بالطويل الممَّط». والشعر الرجل: الذي كأنه مشط فتكسر قليلاً؛ ليس بسنط ولا جعد. والعقيقة: شعر الرأس، أراد: إن انفردت من ذات نفسها فرقتها، وإلا تركها معقوصة. ويروى: «عقيصته». وأزهر اللون: ثيبه. وقيل: أزهر: حسن. ومنه زهرة الحياة الدنيا، أي زيتها.

٣٧٦ - وهذا كما قال في الحديث الآخر: ليس بالأبيض الأمهق، ولا بالآدم [البخاري (٣٥٤٧)، مسلم (٢٣٤٧)].

والأمهق: هو الناصع البياض. والآدم: الأسمر اللون.

٣٧٧ - ومثله في الحديث الآخر: أبيض مُشْرَب. أي فيه حُمْرَة.

والحاجب الأريج: المقوس الطويل الوافر الشعر.

والأنفى: السائل الأنف، المرتفع وسطه.

والأشم: الطويل قصبة الأنف.

والقرن: اتصال شعر الحاجبين. وضده البلج.

٣٧٨ - ووقع في حديث أم مغيرة وصفه بالقرن.

والأذخج: الشديد سواد الحدة.

٣٧٩ - وفي الحديث الآخر: «أشكل العين» [مسلم (٢٣٣٩)] و«أسجر العين»،

وهو الذي في بياضها حُمْرَة.

والضليع: الواسع.

وَالشَّنْبُ: رَوْنَقُ الْأَسْنَانِ، وَمَاؤُهَا.
 وَقِيلَ: رِقَّتْهَا وَتَحْزِيزُ فِيهَا كَمَا يُوجَدُ فِي أَسْنَانِ الشَّبَابِ.
 وَالْفَلَجُ: فَرْقٌ بَيْنَ الشَّيَا.
 وَدَقِيقُ الْمَسْرُوبَةِ: خِيطُ الشَّعْرِ الَّذِي بَيْنَ الصَّدْرِ وَالسُّرَّةِ.
 بَادِنٌ: ذُو لَحْمٍ.
 وَمُتَمَاسِكٌ: مُعْتَدِلُ الْخَلْقِ، يَمْسِكُ بَعْضُهُ بَعْضًا.
 ٣٨٠ - مِثْلُ قَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «لَمْ يَكُنْ بِالْمُطَهَّمِ، وَلَا بِالْمُكَلَّثِمِ» أَيِ
 لَيْسَ بِمُسْتَرْخِي اللَّحْمِ.
 وَالْمُكَلَّثِمُ: الْقَصِيرُ الذَّقْنِ.
 وَسَوَاءُ الْبَطْنِ وَالصَّدْرِ: أَيِ مُسْتَوِيهِمَا.
 وَمُشِيحُ الصَّدْرِ: إِنَّ صَحْتَ هَذِهِ اللَّفْظَةِ فَتَكُونُ مِنَ الْإِقْبَالِ، وَهُوَ أَحَدُ مَعَانِي
 «أَشَاح»؛ أَيِ أَنَّهُ كَانَ بَادِي الصَّدْرِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي صَدْرِهِ قَعَسٌ، وَهُوَ تَطَاوُنٌ فِيهِ،
 وَبِهِ يَتَّضِحُ قَوْلُهُ قَبْلَ: «سَوَاءُ الْبَطْنِ وَالصَّدْرِ» أَيِ لَيْسَ بِمُتَقَاعَسِ الصَّدْرِ، وَلَا
 مُفَاضِ الْبَطْنِ.
 وَلَعَلَّ اللَّفْظَةَ: مَسِيحٌ - بِالسَّيْنِ - وَفَتْحُ الْمِيمِ، بِمَعْنَى غَرِيضٍ، كَمَا وَقَعَ فِي
 الرَّوَايَةِ الْآخَرَى. وَحَكَاهُ ابْنُ دُرَيْدٍ.
 وَالكَرَادِيسُ: رُؤُوسُ الْعِظَامِ.
 ٣٨١ - وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: جَلِيلُ الْمُشَاشِ وَالْكَتْدِ.
 وَالْمُشَاشُ: رُؤُوسُ الْمَنَاقِبِ. وَالْكَتْدُ: مُجْتَمَعُ الْكَتْفَيْنِ.
 وَشَنُّ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ: لَحِيْمُهُمَا.
 وَالزَّنْدَانُ: عَظْمَا الذَّرَاعَيْنِ.
 وَسَائِلُ الْأَطْرَافِ: أَيِ طَوِيلُ الْأَصَابِعِ.
 وَذَكَرَ ابْنُ الْأَثَرِيِّ أَنَّهُ رُويَ: سَائِلُ الْأَطْرَافِ؛ وَقَالَ: سَايِنٌ - بِالنُّونِ؛ قَالَ:
 وَهُمَا بِمَعْنَى، تُبْدَلُ اللَّامُ مِنَ النَّونِ، إِنَّ صَحْتَ الرَّوَايَةَ لَهَا.
 وَأَمَّا الرَّوَايَةُ الْآخَرَى: «وَسَائِرُ الْأَطْرَافِ» فإِشَارَةٌ إِلَى فَخَامَةِ جَوَارِحِهِ، كَمَا
 وَقَعَتْ مُفْصَلَةً فِي الْحَدِيثِ.
 وَرَخِبَ الرَّاحَةُ: أَيِ وَاسِعَهَا. وَقِيلَ: كَثَى بِهِ عَنْ سَعَةِ الْعَطَاءِ وَالْجُودِ.
 وَخُمَصَانُ الْأَخْمَصَيْنِ: أَيِ مُتَجَافِي أَخْمَصِ الْقَدَمِ؛ وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي لَا
 تَنَالُهُ الْأَرْضُ مِنْ وَسْطِ الْقَدَمِ.

مَسِيحُ الْقَدَمِينَ: أي أَمْلَسَهُمَا، ولهذا قال: يَتَّبِعُونَهُمَا الْمَاءَ.

٣٨٢ - وفي حديث أبي هريرة خلاف هذا؛ قال فيه: إذا وطئ بقدمه وطئ بكلها، ليس له أخمص.

وهذا يوافق معنى قوله: مَسِيحُ الْقَدَمِينَ، وبه قالوا: سُمِّيَ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، أي إنه لم يكن له أخمص.

وقيل: مَسِيحٌ: لا لحم عليهما.

وهذا أيضاً يخالف قوله: شَتْنُ الْقَدَمِينَ.

والتَّقْلَعُ: هو رَفْعُ الرَّجْلَيْنِ بِقُوَّةٍ.

والتَّكْفُؤُ: الميل إلى سَتْرِ الْمَشْيِ، وقضده.

وَالْهَوْنُ: الرَّفْقُ وَالْوَقَارُ.

وَالذَّرِيعُ: الواسع الخطو؛ أي: إِنَّ مَشْيَهُ كَانَ يَرْفَعُ فِيهِ رَجْلِيهِ بِسُرْعَةٍ، ويمدّ

خطوه، خلاف مَشْيَةِ الْمُخْتَالِ، ويقصد سَمْتَهُ؛ وكل ذلك يرفق وتثبت دون عجلة،

كما قال: «كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ».

وقوله: يَفْتَحُ الْكَلَامَ ويختمه بأشداقه: أي لسعة فيه. والعرب تتماذج بهذا

وتدئم بصغر الفم.

وأشاح: مال وانقبض.

وَحَبُّ الْعَمَامِ: الْبَرْدُ.

وقوله: فيرد ذلك بالخاصة على العامة؛ أي جعل من جزء نفسه ما يوصل

الخاصة إليه فتوصل عنه للعامة.

وقيل: يجعل منه للخاصة، ثم يبدلها في جزء آخر بالعامة.

ويدخلون رواداً: أي محتاجين إليه، وطالبين لما عنده.

ولا يتفرون إلا عن ذواق: قيل: عن علم يتعلمونه؛ ويُسَبِّهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى

ظاهره، أي في الغالب والأكثر.

وَالْعَتَادُ: الْعُدَّةُ، وَالشَّيْءُ الْحَاضِرُ الْمُعَدَّ.

وَالْمُؤَاوِزَةُ: الْمَعَاوَنَةُ.

وقوله: لَا يُؤْوِطُنِ الْأَمَاكِنِ: أي لَا يَتَّخِذُ لِمُصَلَّاهُ مَوْضِعاً مَعْلوماً.

٣٨٣ - وقد ورد نهي عن هذا مفسراً في غير هذا الحديث [أبو داود (٨٦٢)،

النسائي (٢١٤/٢)، ابن ماجه (١٤٢٩)، أحمد (٤٤٧/٥)].

وصابره: أي حبس نفسه على ما يريد صاحبه.

ولا تُؤَيِّن فِيهِ الْحَرَمَ: أَي لَا يُذَكَّرَنَّ فِيهِ بِسُوءٍ.
وَلَا تُنْثَى فَلَتَاتِهِ: أَي لَا يُتَحَدَّثُ بِهَا؛ أَي لَمْ تَكُن فِيهِ فَلَتَةً، وَإِنْ كَانَ مِنْ
أَحَدٍ سُبِّرَتْ.

وَيُزَفِّدُونَ: يُعِينُونَ.

وَالسَّخَابُ: الْكَثِيرُ الصِّيَاحِ.

وَقَوْلُهُ: وَلَا يَقْبَلُ الثَّنَاءَ إِلَّا مِنْ مُكَافِيٍّ. قِيلَ: مُقْتَصِدٌ فِي ثَنَائِهِ وَمَذْجِهِ.

وَقِيلَ: إِلَّا مِنْ مُسْلِمٍ.

وَقِيلَ: إِلَّا مِنْ مُكَافِيٍّ عَلَى يَدِ سَبَقَتِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ.

وَيَسْتَفِرُّهُ: يَسْتَخْفُهُ.

٣٨٤ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ فِي وَضْفِهِ: «مَنْهُوسَ الْعَقِبِ» [مُسْلِمٌ (٢٣٣٩)]؛ أَي

قَلِيلٌ لَحْمُهَا.

٣٨٤م - وَأَهْدَبَ الْأَشْفَارَ: أَي طَوَّلَ شَعْرَهَا. انْتَهَى وَاللَّهُ حَسْبُنَا.



الباب الثالث

فِيمَا وَرَدَ مِنْ صَحِيحِ الْأَخْبَارِ وَمَشْهُورِهَا
بِعَظِيمِ قَدْرِهِ عِنْدَ رَبِّهِ وَمَنْزِلَتِهِ، وَمَا خَصَّهُ بِهِ
فِي الدَّارَيْنِ مِنْ كَرَامَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

لا خلاف أنه أكرمَ البشر، وسيّد وَلَدِ آدَمَ، وأفضلُ الخلق عند الله وأعلامهم
دَرَجَةً، وأقربهم رُفْقَى.
واعلم أنَّ الأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جداً، وقد اقتصرنا منها على
صحيحها ومُتَشَبِّهها، وخَصَرْنَا معاني ما ورد منها في اثني عشر فصلاً.

الفصل الأول

فِيمَا وَرَدَ بِذِكْرِ مَكَانَتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ، وَالْأَصْطِفَاءِ، وَرَفْعَةِ الذِّكْرِ
وَالْتَفْضِيلِ وَسَيَادَةِ وَلَدِ آدَمَ، وَمَا خَصَّهُ بِهِ فِي الدُّنْيَا
مِنْ مَرَايَا الرُّتَبِ وَبَرَكَاتِهِ اسْمِهِ الطَّيِّبِ

٣٨٥ - أخبرنا الشيخ أبو محمد: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ الْعَدْلُ إِذْنًا بلفظه؛ قال:
حدثنا أَبُو الْحَسَنِ الْفَرُغَانِي، حدثنا أُمُّ الْقَاسِمِ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ بْنِ يَعْقُوبَ، عَنْ أَبِيهَا
قال: حدثنا حاتم، وهو: ابن عَقِيل، عن يحيى، هو: ابن إِسْمَاعِيل، عن يحيى
الْحِمَّانِي، حدثنا قيس، عن الأعمش، عن عُبَايَةَ بْنِ رَبِيعٍ، عن ابن عباس؛ قال:
قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ الْخَلْقَ قِسْمَيْنِ، فجعلني مِنْ خَيْرِهِمْ قِسْماً؛
فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَحَبُّ إِلَيْنِ﴾ [الواقعة: ٢٧] ﴿وَأَحَبُّ إِلَيْنِ﴾ [الواقعة: ٤١].
فأنا من أصحابِ اليمين؛ وأنا خيرُ أصحابِ اليمين».

ثم جعل القسمين أثلاثاً؛ فجعلني في خيرها ثلثاً، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَبُ
الْيَمِينَةِ مَا أَصْحَبُ الْيَمِينَةِ ۝ أَصْحَبُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَبُ الْمَشْأَمَةِ ۝ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ۝﴾
[الواقعة: ٨ - ١٠]. فانا من السابقين، وأنا خير السابقين، ثم جعل الأثلاث قبائل؛
فجعلني من خيرها قبيلة، وذلك قوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فانا أتقى ولد آدم، وأكرمهم على الله، ولا فخر.

ثم جعل القبائل بيوتاً، فجعلني في خيرها بيتاً؛ فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا
يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

٣٨٦ - وعن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قالوا: يا رسول الله! متى
وجبت لك النبوة؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد» [الترمذي (٣٦٠٩)].

٣٨٧ - وعن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى
مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ. وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ
بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشِ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».

٣٨٨ - ومن حديث أنس: «أَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي، وَلَا فَخْرَ».

٣٨٩ - وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه: «أَنَا أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ،
وَلَا فَخْرَ» [الترمذي (٣٦١٦)].

٣٩٠ - وعن عائشة، عنه عليه السلام: «أتاني جبريل، فقال: قُلْتُ مُشَارِقَ
الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَلَمْ أَرِ رَجُلًا أَفْضَلَ مِنْ مُحَمَّدٍ، وَلَمْ أَرِ بَنِي أَبِ أَفْضَلَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».

٣٩١ - وعن أنس: أن النبي ﷺ أَتَى بِالْبُرَاقِ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ، فَاسْتَضَعَبَ
عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: بِمُحَمَّدٍ تَفْعَلُ هَذَا؟ فَمَا رَكِبَكَ أَحَدٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ،
فَارْضُ عِرْقًا.

٣٩٢ - وعن ابن عباس، عنه ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ أَهْبَطَنِي فِي صُلْبِهِ إِلَى
الْأَرْضِ، وَجَعَلَنِي فِي صُلْبِ نُوْحٍ فِي السَّفِينَةِ، وَقَذَفَ بِي فِي النَّارِ فِي صُلْبِ
إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَنْقُلْنِي فِي الْأَصْلَابِ الْكَرِيمَةِ إِلَى الْأَرْحَامِ الطَّاهِرَةِ حَتَّى
أَخْرَجَنِي بَيْنَ أَبَوَيْ لَمْ يَلْتَقِيَا عَلَى سِفَاحٍ قَطُّ».

٣٩٣ - وإلى هذا أشار العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه بقوله:

مِنْ قَبْلِهَا طُبْتُ فِي الظَّلَالِ وَفِي مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخَصِّفُ الْوَرَقُ
ثُمَّ هَبَطْتُ الْبِلَادَ لَا بَشَرَ أَنْ تَ لَا مُضْغَةً وَلَا عَلَقُ

بَلْ نُظْفَةُ تَرَكِبُ السَّفِينِ، وَقَدْ أَلَّ
جَمَ نَسْرًا وَأَهْلَهُ الْعَرَقُ
ثُنْقُلٌ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَجِمٍ
إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ
حَتَّى احْتَوَى بَيْتُكَ الْمُهَيَّمُ مِنْ
خِنْدِفٍ عَلَيَاءَ تَحْتَهَا النُّطُقُ
وَأَنْتَ لَمَّا وَلَدْتَ أَشْرَقْتَ الـ
أَرْضُ وَضَاءَتْ بِئُورِكَ الْأَفُقُ
فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِيَاءِ وَفِي التَّوْرِ وَسُبُلِ الرَّشَادِ نَخْتَرُ
فِي آيَاتِ أُخَرَ.

٣٩٤ - وَرَوَى عَنْهُ ﷺ أَبُو ذَرٍّ [أحمد (١٤٨/٥)، أبو داود (٤٨٩)].

٣٩٥ - وابن عمر.

٣٩٦ - وابن عباس [أحمد (٣٠١/١)].

٣٩٧ - وأبو هريرة [مسلم (٥٢٣)].

٣٩٨ - وجابر بن عبد الله - أنه قال: «أُعْطِيَتْ خَمْسًا - وفي بعضها: ستًا - لَمْ يَغْطَهُنَّ نَبِيَّ قِبَلِي: نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَإِنَّمَا رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ، وَأَجَلْتُ لِي الْغَنَائِمَ، وَلَمْ تَحُلْ لِنَبِيِّ قِبَلِي، وَيُعِثُّ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ» [البخاري (٣٣٥)، مسلم (٥٢١)].

٣٩٩ - وفي رواية بدل هذه الكلمة: «وقيل لي: سَلْ تُغْطَةَ».

٤٠٠ - وفي رواية أخرى: «وَعَرَضَ عَلَيَّ أُمَّتِي فَلَمْ يَخَفْ عَلَيَّ التَّابِعُ مِنَ الْمَتْبُوعِ».

٤٠١ - وفي رواية: «يُعِثُّ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ».

وقيل: السود: العرب؛ لأنَّ الغالب على ألوانهم الأذمة؛ فهم من السود. والخمر: العجم. وقيل: البيض: السود من الأمم. وقيل: الخمر: الإنس. والسود: الجن.

٤٠٢ - وفي الحديث الآخر، عن أبي هريرة: «نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ، وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ جِيءَ بِمِفْتَاحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوَضِعَتْ فِي يَدَيَّ» [البخاري (٢٩٧٧)، مسلم (٧/٥٢٣)].

٤٠٣ - وفي رواية عنه: «وُخِّتَ بِي النَّبِيُّونَ» [مسلم (٥/٥٢٣)].

٤٠٤ - وعن عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ ﷺ: «إِنِّي قَرِطٌ لَكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ. وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مِفْتَاحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ. وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا» [البخاري (١٣٤٤)، مسلم (٢٢٩٦)].

٤٠٥ - وعن عَبْدِ اللَّهِ بن عمرو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «أنا محمد، النبي الأمي، لا نبي بعدي، أُوتيت جوامع الكلم وخواتمه، وعلمت خَزَنَةَ النار وَحَمَلَةَ العَرْشِ» [أحمد (١٧٢/٢)].

٤٠٦ - وعن ابن عمر: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ» [أحمد (٥٠/٢)].

٤٠٧ - ومن رواية ابن وَهْب - أَنَّهُ ﷺ - قال: «قال الله تعالى: سَلِّ، يا محمد! فَقُلْتُ: ما أَسْأَلُ؟ يا رَبِّ! اتَّخَذْتُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَكَلَّمْتُ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَاصْطَفَيْتُ نُوحًا، وَأَعْطَيْتُ سُلَيْمَانَ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَا أَعْطَيْتُكَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؛ أَعْطَيْتُكَ الْكَوْثَرَ، وَجَعَلْتُ اسْمَكَ مَعَ اسْمِي، يُنَادَى بِهِ فِي جَوْفِ السَّمَاءِ، وَجَعَلْتُ الْأَرْضَ طَهورًا لَكَ وَلَأَمْتِكَ، وَغَفَرْتُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؛ فَأَنْتَ تَمْشِي فِي النَّاسِ مَغْفُورًا لَكَ، وَلَمْ أَضْغَعْ ذَلِكَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ، وَجَعَلْتُ قُلُوبَ أَمَتِكَ مَصَاحِفَهَا، وَخَبَأْتُ لَكَ شَفَاعَتَكَ، وَلَمْ أَخْبَأْهَا لِنَبِيٍّ غَيْرِكَ».

٤٠٨ - وفي حديث آخر، رواه حذيفة: «بَشَّرَنِي - يَعْنِي: رَبَّهُ - أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَعِيَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا لَيْسَ عَلَيْهِمْ حِسَابٌ؛ وَأَعْطَانِي إِلَّا تَجُوعَ أُمَّتِي وَلَا تُغْلَبَ، وَأَعْطَانِي النَّصْرَ، وَالْعِزَّةَ، وَالرُّغْبَ يَسْمَعُ بَيْنَ يَدَيِ أُمَّتِي شَهْرًا، وَطِيبَ لِي وَلَأُمَّتِي الْمَغَانِمَ، وَأَحْلَلَ لَنَا كَثِيرًا مِمَّا شَدَّدَ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا، وَلَمْ يَجْعَلْ عَلَيْنَا فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» [أحمد (٣٩٣/٥)].

٤٠٩ - وعن أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْهُ ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أَمَّنْ عَلَيْهِ الْبَشَرُ؛ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَخِيًّا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ، فَارْجُوا أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [البخاري (٤٩٨١)، مسلم (١٥٢)].

معنى هذا عند المحققين: بقاء معجزاته ما بقيت الدنيا، وسائر معجزات الأنبياء ذهبت لِلْحَيْنِ، وَلَمْ يَشَاهِدْهَا إِلَّا الْحَاضِرُ لَهَا، وَمَعْجَزَةُ الْقُرْآنِ يَقِفُ عَلَيْهَا قَرْنٌ بَعْدَ قَرْنٍ عَيْنَانَا لَا خَبْرًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وفيه كلام يطول، هذا نُخَبِّئُهُ. وقد بسطنا القول فيه، وفيما ذُكِرَ فِيهِ سِوَى هَذَا آخِرَ بَابِ الْمَعْجَزَاتِ.

٤١٠ - وعن عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُلُّ نَبِيٍّ أُعْطِيَ سَبْعَةَ نُجَبَاءَ مِنْ أُمَّتِهِ، وَأَعْطِيَ نَبِيَّكُمْ ﷺ أَرْبَعَةَ عَشَرَ نُجَبِيًّا، مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَعُمَارُ [أحمد (٨٨/١)، ١٤٢، ١٤٩، الترمذي (٣٧٨٥)].

٤١١ - وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ

والمؤمنين؛ وأنها لم تحل لأحدٍ بغدي، وإنما أجلت لي ساعة من نهار» [البخاري (١١٢)، مسلم (١٣٥٥)].

٤١٢ - وعن العيزباض بن سارية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني عبدالله وخاتم النبيين؛ وإن آدم لمنجدل في طيئته، وعدة أبي: إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم» [أحمد (١٢٧/٤)].

٤١٣ - وعن ابن عباس: قال: إن الله فضل محمداً ﷺ على أهل السماء، وعلى الأنبياء صلوات الله عليهم؛ قالوا: فما فضله على أهل السماء؟ قال: إن الله تعالى قال لأهل السماء: «وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْ إِلَهَ مَنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ» ﴿١٩﴾ [الأنبياء: ٢٩].

وقال لمحمد ﷺ: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» [الفتح: ١، ٢].

قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: إن الله تعالى قال: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يَلْسَنُ قَوْلِهِ لِيُؤَيِّدَ لَكُمْ...» ﴿...﴾ الآية [إبراهيم: ٤].
وقال لمحمد: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ...» ﴿...﴾ [سبا: ٢٨].

٤١٤ وحتى ٤١٧ - وعن خالد بن معدان: أن تقرأ من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله! أخبرنا عن نفسك؟ - وقد روي نحوه عن أبي ذر وشداد بن أوس، وأنس بن مالك -.
فقال: «نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم - يعني قوله: «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ» [البقرة: ١٢٩] - ويُسْرَى عيسى. ورأت أُمِّي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء له قصور بصرى من أرض الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينما أنا مع أخ لي، خلف بيوتنا، نزعني بهما لنا، إذ جاءني رجلان عليهما ثياب بيض».

٤١٨ - وفي حديث آخر: «ثلاثة رجال» [البخاري (٧٥١٧)، مسلم (٢٦٢/١٦٢)] - «بطشت من ذهب مملوءة ثلجاً، فأخذاني فشقا بطني».

٤١٩ - قال في غير هذا الحديث: «من تخري إلى مرقا بطني» [البخاري (٣٢٠٧)، مسلم (٢٦٥/١٦٣)] - ثم استخرجنا منه قلبي، فشقا، فاستخرجنا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسل قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه».

٤٢٠ - قال في حديث آخر: «ثم تناول أحدهما شيئاً فإذا بخاتم في يده من

نور يحار الناظر دونه، فختم به قلبي، فامتلاً إيماناً وحكمةً، ثم أعاده مكانه، وأمر الآخر يده على مفارق صدري فالتأم.

٤٢١ - وفي رواية: «إن جبريل قال: قلب وكيع - أي شديد - فيه عينان تبصران، وأذنان تسمعان» ثم قال أحدهما لصاحبه: «زنه بعشرة من أمته، فوزني فرجحتهم، ثم قال: زنه بمئة من أمته، فوزني بهم فوزنتهم؛ ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزني بهم فوزنتهم؛ ثم قال: دعه عنك، فلو وزنته بأمته لوزنها ﷺ».

٤٢٢ - قال في الحديث الآخر: «ثم ضموني إلى صدورهم، وقبلوا رأسي، وما بين عيني، ثم قالوا: يا حبيب! لم تُرغ، إنك لو تدري ما يُزاد بك من الخير لقرت عيناك».

٤٢٣ - وفي بقية هذا الحديث من قولهم: «ما أكرمك على الله! إن الله معك وملائكته».

٤٢٤ - قال في حديث أبي ذر: «فما هو إلا أن وليا عني، فكأنما أرى الأمر مُعَايَنَةً».

٤٢٥ - وحكى أبو محمد: مكّي، وأبو الليث السمرقندي وغيرهما - أن آدم عند مغصيته قال: اللهم! بحق محمد اغفر لي خطيئتي.

ويروى: تقبل توبتي. فقال له الله: من أين عرفت محمد؟ قال: رأيت في كل موضع من الجنة مكتوباً: لا إله إلا الله، محمد رسول الله - ويروى: محمد عبدي ورسولي - فعلمت أنه أكرم خلقك عليك، فتاب الله عليه، وغفر له. وهذا عند قائله تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَقَّيْنَاهُ عَادَمَ مِن رَّبِّهِ كَمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧].

وفي رواية الأجرى قال: فقال آدم: لما خلقتني، رفعت رأسي إلى عرشك فإذا مكتوب فيه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله؛ فعلمت أنه ليس أحد أعظم قدراً عندك ممن جعلت اسمه مع اسمك، فأوحى الله إليه: وعزتي وجلالي! إنه لآخر النبيين من ذريتك ولولاه ما خلقتك.

٤٢٦ - قال: وكان آدم يُكنى بأبي محمد.

وقيل: بأبي البشر.

وروي عن سريج بن يونس أنه قال: إن لله ملائكة سياحين عبادتها كل دار فيها أحمد، أو محمد، إكراماً منهم لمحمد ﷺ.

٤٢٧ - وروى ابن قانع القاضي، عن أبي الحمراء قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَمَّا أُسْرِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ إِذَا عَلَى الْعَرْشِ مَكْتُوبٌ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، أَيْدَتْهُ بَعْلِي».

٤٢٨ - وفي التفسير، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَثْرٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

قال: لَوْحٌ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ مَكْتُوبٌ: عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْقَدَرِ، كَيْفَ يَنْصَبُ؟ عَجَباً لِمَنْ أَيْقَنَ بِالنَّارِ كَيْفَ يَضْحَكُ؟ عَجَباً لِمَنْ يَرَى الدُّنْيَا وَتَقَلُّبُهَا بِأَهْلِهَا كَيْفَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا؟ أَنَا اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، مُحَمَّدٌ عَبْدِي وَرَسُولِي.

وعن ابن عباس: عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ مَكْتُوبٌ: إِنِّي أَنَا اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، لَا أَعَذُّبُ مَنْ قَالَهَا.

وَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ عَلَى الْحِجَارَةِ الْقَدِيمَةِ مَكْتُوبٌ: مُحَمَّدٌ تَقِيٌّ مُصْلِحٌ، وَسَيِّدٌ أَمِينٌ.

وَذَكَرَ السُّمَيْطَارِيُّ أَنَّهُ شَاهَدَ فِي بَعْضِ بِلَادِ خُرَاسَانَ مَوْلُوداً وُلِدَ عَلَى أَحَدِ جَنَّتَيْهِ مَكْتُوبٌ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَعَلَى الْآخَرِ مَكْتُوبٌ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ.

وَذَكَرَ الْإِخْبَارِيُّونَ: أَنَّ بِلَادَ الْهِنْدِ وَزُدَّ أَحْمَرُ مَكْتُوباً عَلَيْهِ بِالْأَبْيَضِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ.

وَرُوي عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مَنْادٍ: أَلَا لِيَقُمَ مِنْ اسْمِهِ مُحَمَّدٌ، فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ لِكِرَامَةِ اسْمِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَرَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ فِي سَمَاعِهِ، وَابْنُ وَهْبٍ فِي «جَامِعِهِ» عَنْ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَهْلَ مَكَّةَ يَقُولُونَ: مَا مِنْ بَيْتٍ فِيهِ اسْمُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا تَمَّ وَرَزَقُوا.

٤٢٩ - وعنه عليه السلام: «مَا ضَرَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَكُونَ فِي بَيْتِهِ مُحَمَّدٌ وَمُحَمَّدَانِ وَثَلَاثَةٌ».

٤٣٠ - وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاخْتَارَ مِنْهَا قَلْبَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ [أحمد (١/٣٧٩)].

٤٣١ - وَحَكَى النِّقَاشُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ - لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُذْذَبُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُوجَاتِهِ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣] - قَامَ خَطِيئاً، فَقَالَ: «يَا مَغْشَرُ أَهْلِ الْإِيمَانِ! إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَضَّلَنِي عَلَيْكُمْ تَفْضِيلًا، وَفَضَّلَ نَسَائِي عَلَى نَسَائِكُمْ تَفْضِيلًا...» الْحَدِيثُ.

فصل

فِي تَفْصِيلِهِ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ كَرَامَةُ الْإِسْرَاءِ مِنَ الْمُنَاجَاةِ وَالرُّؤْيَا
وَأِمَامَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْعُرُوجِ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى
وَمَا رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى

ومن خصائصه ﷺ قصة الإسراء وما انطوت عليه من درجات الرُفعة مما
نَبَّهَ عليه الكتاب العزيز، وشرحته صحاح الأخبار؛ قال الله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي
أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا لِرَبِّهِ مِنْ
أَمِينًا إِنَّهُمْ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾ [الإسراء: ١].

وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَبْطِقُ عَنِ
الْمَوْءِ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ
بِالْأُنْجِيِّ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا
أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتَسْتَرْوُونَ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ
۝١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝١٤ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ
الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨﴾ [النجم: ١ - ١٨].

فلا خلاف بين المسلمين في صحة الإسراء به ﷺ، إذ هو نص القرآن،
وجاءت بتفصيله، وشرح عجائبه، وخواص نبينا محمد ﷺ، فيه أحاديث كثيرة
متشعبة، رأينا أن نقدم أكملها، ونشير إلى زيادة من غيره يجب ذكرها.

٤٣٢ - حدثنا القاضي الشهيد: أبو علي، والفقير أبو بخر بسماعي عليهما،
والقاضي أبو عبد الله التميمي، وغير واحد من شيوخنا؛ قالوا: حدثنا أبو العباس
العُدري، حدثنا أبو العباس الرازي، حدثنا أبو أحمد الجلودي، حدثنا ابن
سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا حماد بن
سلمة، حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله
قال: «أُتِيَ بالبُرَاق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار، ودون البغل، يضع
حافره عند منتهى طرفه - قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة
التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت،
فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل:
اخترت الفطرة.

ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: مَنْ أَنْتَ؟ قال: جبريل.

قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففتَح لنا، فإذا أنا بآدم ﷺ، فرحَبَ بي، ودعا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الثانية، فاستَفْتَحَ جبريلُ، فقيل: مَنْ أَنْتَ؟ قال: جبريل. قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه. ففتَحَ لنا، فإذا أنا بِأَبْنِي الخالة: عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا صلى الله عليهما؛ فرحَبَا بي، ودعَوَا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الثالثة، فذكر مثل الأول، ففتَحَ لنا، فإذا أنا بيوسف ﷺ، وإذا هو قد أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ، فرحَبَ بي، ودعا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الرابعة، وذكر مثله، فإذا أنا بِإِدْرِيسَ، فرحَبَ بي، ودعا لي بخير، قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ ﴿٥٧﴾ [مريم: ٥٧].

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الخامسة: فذكر مثله، فإذا أنا بهارون، فرحَبَ بي، ودعا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء السادسة، فذكر مثله، فإذا أنا بموسى، فرحَبَ بي، ودعا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء السابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم مُسْنِدًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، فإذا وَرْقُهَا كَأَذَانِ الْفِيلَةِ، وإذا ثَمَرُهَا كَالْقِلَاقِ، قال: فلما غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فما أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْتَعِهَا مِنْ حُسْنِهَا؛ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، ففَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فنزلتُ إلى موسى، فقال: ما فَرَضَ رَبُّكَ عَلَيَّ أَمْتِكَ؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى رَبِّكَ فاسأله التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أَمْتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ.

قال: فرجعتُ إلى رَبِّي، فقلتُ: يا رَبِّ! خَفِّفْ عَن أَمْتِي. فَحَطَّ عَنِي خَمْسًا، فرجعتُ إلى موسى، فقلت: حَطَّ عَنِي خَمْسًا، قال: إِنَّ أَمْتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فارجع إلى رَبِّكَ فاسأله التَّخْفِيفَ. قال: فلم أَرْجُعْ بَيْنَ رَبِّي تَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فتلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً؛ وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ.

قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف».

قال رسول الله ﷺ: «فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استخيت منه». قال المؤلف: جَوَّدَ ثَابِتٌ - رحمه الله - هذا الحديث عن أنس ما شاء، ولم يأت أحدٌ عنه بأصوب من هذا.

٤٣٣ - وقد خلطَ فيه غيره عن أنس تخلیطاً كثيراً، لا سيَّما من رواية شريك بن أبي نَمرٍ [البخاري (٧٥١٧)، مسلم (٢٦٢/١٦٢)]؛ فقد ذكر في أوله مجيء الملك له، -وَشَقَّ بَطْنَهُ، وَغَسَلَهُ بِمَاءٍ زَمْزَمٍ؛ وهذا إنما كان وهو صبيّ، وقَبْلَ الوحي.

وقد قال شريك في حديثه: وذلك «قبل أن يُوحَى إليه» وذكر قصة الإسراء. ولا خلاف أنها كانت بعد الوحي.

وقد قال غَيْرُ واحد: إنها كانت قبل الهجرة بسنة، وقيل: قَبْلَ هذا. ٤٣٤ - وقد رَوَى ثابت عن أنس - من رواية حماد بن سلمة [مسلم (٢٦١/١٦٢)] - أيضاً مجيء جبريل إلى النبي ﷺ وهو يلعب مع الغلمان عند ظَهره، وَشَقَّ قَلْبَهُ تِلْكَ الْقِصَّةَ مَفْرَدَةً من حديث الإسراء كما رواه الناس، فَجَوَّدَ في القصةين، وفي أَنَّ الإسراء إلى بيت المقدس وإلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى كان قصةً واحدة، وأنه وصل إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك، فَأَزَاحَ كُلَّ إِشْكَالٍ أَوْهَمَهُ غَيْرُهُ.

٤٣٥ - وقد رَوَى يونس، عن ابن شهاب، عن أنس، قال: كان أبو ذَرٍّ يحدثُ أَنَّ رسولَ الله ﷺ، قال: «فَرَجَّ سَقْفُ بَيْتِي، وَأَنَا بِمَكَّةَ فَنَزَلَ جَبْرِيلُ، فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمٍ، ثُمَّ جَاءَ بِطِئْسَةٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْتَلَىءٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ...» [البخاري (٣٤٩)، مسلم (١٦٣)] فذكر القصة.

٤٣٦ - وروى قَتَادَةُ الحديث، بمثله، عن أنس، عن مالك بن صَغْصَعَةَ [البخاري (٣٢٠٧)، مسلم (١٦٤)]، وفيها تقديم وتأخير وزيادة ونقص، وخلافٌ في ترتيب الأنبياء في السموات.

وحديثُ ثابت، عن أنس، أتقن وأجود.

وقد وقعت في حديث الإسراء، زياداتٌ نذكر منها نُكتاً مفيدة في غرضنا:

٤٣٧ - منها في حديث ابن شهاب، وفيه: قولُ كل نبيٍّ له: «مرحباً بالنبي

الصالح، والأخ الصالح» إلا آدم وإبراهيم فإنهما قالوا له: «والابن الصالح».

٤٣٨ - وفيه، من طريق ابن عباس: «ثم عَرَجَ بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام» [البخاري (٣٤٩)، مسلم (١٦٣)].

٤٣٩ - وعن أنس: «ثم انطلق بي حتى أتيت سِدْرَةَ الْمُنتَهَى، فغَشِيَهَا الْوَلَدُ لا أدري ما هي؟ قال: ثم أَدْخَلْتُ الْجَنَّةَ» [البخاري (٣٤٩)، مسلم (٢٦٣/١٦٣)].

٤٤٠ - وفي حديث مالك بن صَغَصَعَةَ: «فلما جاوزته - يعني: موسى - بكى، فتودى: ما يُبْكِيكَ؟ قال: رب! هذا غلامٌ بعثته بَعْدِي يَدْخُلُ من أمتي الجنة أكثر مما يدخل من أمتي».

٤٤١ - وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فحانت الصلاة، فأمنتهم، فقال قائل: يا مُحَمَّدُ! هذا مالك خازن النار، فسلم فالتفت فبداني بالسلام» [مسلم (١٧٢)].

٤٤١ - وفي حديث أبي هريرة: ثم سار حتى أتى إلى بيت المقدس، فنزل فربط فرسه إلى صخرة، فصلى مع الملائكة، فلما قُضِيَت الصلاة قالوا: يا جبريل! مَنْ هذا معك؟ قال: هذا محمد رسول الله، خاتم النبيين. قالوا: وقد أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم. قالوا: حيَّاهُ اللَّهُ مِنْ أَخٍ وَخَلِيفَةٍ، فَنِعْمَ الْأَخُ وَنِعْمَ الْخَلِيفَةُ! ثم لَقُوا أرواحَ الأنبياء فأتَوْا على رَبِّهِمْ، وذكر كلام كل واحد منهم، وهم: إبراهيم، وموسى، وعيسى، وداود، وسليمان.

ثم ذكر كلام النبي ﷺ، فقال: «وإنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أتني على ربِّه عز وجل فقال: «كلِّمكم أَتْنِي على ربِّه، وأنا أَتْنِي على ربِّي: الحمد لله الذي أرسلني رحمةً للعالمين، وكافةً للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليَّ الفرقان فيه تبيان كل شيء». وجعل أمتي خَيْرَ أمة، وجعل أمتي أمةً وَسَطاً، وجعل أمتي هم الأولون، وهم الآخرون، وشرح لي صدري، ووضع عني وِزْرِي، ورفع لي ذِكْرِي، وجعلني فاتحاً وخاتماً».

فقال إبراهيم: بهذا فضلكم محمد.

ثم ذكر أنه عَرَجَ به إلى السماء الدنيا، ومن سماءٍ إلى سماءٍ، نحو ما تقدم.

٤٤٢ - وفي حديث ابن مسعود: «وانتهى بي إلى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يُفْرَجُ به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يَهْبِطُ من فوقها فيقبض منها؛ قال: ﴿إِذْ يَشْأَى السِّدْرَةُ مَا يَشْأَى﴾ [النجم: ١٦]. قال: «فَرَأَسُ من ذَهَبٍ» [مسلم (١٧٣)].

٤٤٣ - وفي رواية أبي هريرة، من طريق الربيع بن أنس. «ف قيل لي: هذه السُدْرَةُ الْمُنتَهَى يَنْتَهِي إِلَيْهَا كُلُّ أَحَدٍ مِنْ أُمَّتِكَ خَلَا عَلَى سَبِيلِكَ، وَهِيَ السُدْرَةُ الْمُنتَهَى، يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمَرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى، وَهِيَ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاکِبُ فِي ظِلِّهَا سَبْعِينَ عَامًا، وَإِنَّ وَرَقَةً مِنْهَا مِثْلُةُ الْخَلْقِ، فَغَشِيَهَا نُورٌ، وَغَشِيَتْهَا الْمَلَائِكَةُ. قَالَ: فَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِذْ يَشْأَى السُّدْرَةُ مَا يَشْأَى﴾ [النجم: ١٦].

فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: سَلْ. فَقَالَ: إِنَّكَ اتَّخَذْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكًا عَظِيمًا. وَكَلَّمْتَ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَأَعْطَيْتَ دَاوُدَ مُلْكًا عَظِيمًا، وَأَلَّنْتَ لَهُ الْحَدِيدَ، وَسَخَّرْتَ لَهُ الْجِبَالَ، وَأَعْطَيْتَ سُلَيْمَانَ مُلْكًا عَظِيمًا، وَسَخَّرْتَ لَهُ الْجَنِّ وَالْإِنْسَ وَالشَّيَاطِينَ وَالرِّيَّاحَ، وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، وَعَلَّمْتَ عِيسَى التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَجَعَلْتَهُ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ، وَأَعَدَّتَهُ وَأَمَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِمَا سَبِيلٌ.

فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ تَعَالَى: قَدْ اتَّخَذْتُكَ خَلِيلًا. فَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ: مُحَمَّدٌ حَبِيبُ الرَّحْمَنِ، وَأَرْسَلْتُكَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَجَعَلْتُ أُمَّتَكَ هُمْ الْأَوَّلُونَ، وَهُمْ الْآخِرُونَ، وَجَعَلْتُ أُمَّتَكَ لَا تَجُوزُ لَهُمْ خُطْبَةٌ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّكَ عَبْدِي وَرَسُولِي، وَجَعَلْتُكَ أَوَّلَ النَّبِيِّينَ خَلْقًا، وَآخِرَهُمْ بَعَثًا، وَأَعْطَيْتُكَ سَبْعًا مِنَ الْمَآثِنِ، وَلَمْ أُعْطِهَا نَبِيًّا قَبْلَكَ، وَأَعْطَيْتُكَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَثَرِ تَحْتَ عَرْشِي لَمْ أُعْطِهَا نَبِيًّا قَبْلَكَ، وَجَعَلْتُكَ فَاتِحًا وَخَاتِمًا».

٤٤٤ - وفي الرواية الأخرى قال: فَأَعْطَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَاةَ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ - لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مِنْ أُمَّتِهِ - الْمُفْجِمَاتُ [مسلم (١٧٣)].

٤٤٥ - وَقَالَ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١] أَقْتَمُونَهُ عَلَى مَا يَرَى [النجم: ١١]، رَأَى جَبْرِيلُ فِي صُورَتِهِ لَهُ سِتُّ مِائَةٍ جَنَاحٍ [البخاري (٣٢٣٢)، مسلم (١٧٤)].

٤٤٦ - وفي حديث شريك: أَنَّهُ رَأَى مُوسَى فِي السَّابِعَةِ، قَالَ: بِتَفْضِيلِ كَلَامِ اللَّهِ.

قَالَ: ثُمَّ عَلَا بِهِ فَوْقَ ذَلِكَ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ؛ فَقَالَ مُوسَى: لَمْ أَظُنْ أَنَّ يُرْفَعُ عَلَيَّ أَحَدٌ.

٤٤٧ - وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ ﷺ صَلَّى بِالْأَنْبِيَاءِ بَيْتَ الْمَقْدِسِ [البخاري (٢٠٨/٧)، مسلم (١٧٢)].

٤٤٨ - وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا قاعد ذات يوم إذ دخل جبريل عليه السلام، فَوَكَزَ بَيْنَ كَتِفَيَّ، فَقَمَتُ إِلَى شَجَرَةٍ فِيهَا مِثْلُ وَكْرِي الطائر، فقمعد في واحدة وقعدت في الأخرى، فَنَمْتُ حَتَّى سَدَّتِ الْخَافِقَيْنِ. وَلَوْ شِئْتُ لَمَسَسْتُ السَّمَاءَ، وَأَنَا أَقْلُبُ طَرْفِي، وَنَظَرْتُ جَبْرِيلَ كَأَنَّهُ جَلَسَ لَأَطَىءَ، فَعَرَفْتُ فَضْلَ عِلْمِهِ بِاللَّهِ عَلَيَّ، وَفُتِّحَ لِي بَابُ السَّمَاءِ، وَرَأَيْتُ النُّورَ الْأَعْظَمَ، وَإِذَا دُونِي الْحِجَابُ، وَفَرَجَهُ الدُّرُّ وَالْبَاقُوتُ، ثُمَّ أَوْحَى إِلَيَّ مَا شَاءَ أَنْ يُؤْخِي».

٤٤٩ - وذكر البزار عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لما أراد الله تعالى أَنْ يُعَلِّمَ رَسُولَهُ الْأَذَانَ جَاءَ جَبْرِيلُ بِدَابَّةٍ يُقَالُ لَهَا الْبُرَاقُ، فَذَهَبَ يَرْكُبُهَا، فَاسْتَصْعِبَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهَا جَبْرِيلُ: اسْكُنِي، فَوَاللَّهِ! مَا رَكِبْتُ عَبْدٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَرَكِبَهَا حَتَّى أَتَى بِهَا إِلَى الْحِجَابِ الَّذِي يَلِي الرَّحْمَنَ تَعَالَى، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ خَرَجَ مَلَكٌ مِنَ الْحِجَابِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا جَبْرِيلُ! مَنْ هَذَا؟».

قال: والذي بعثك بالحق! إني لأقرب الخلق مكاناً، وإن هذا المَلَكَ ما رأيته منذ خُلِقْتُ قَبْلَ سَاعَتِي هَذِهِ. فَقَالَ الْمَلَكُ: اللَّهُ أَكْبَرُ. اللَّهُ أَكْبَرُ فَقِيلَ لَهُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ: صَدَقَ عَبْدِي، أَنَا أَكْبَرُ. أَنَا أَكْبَرُ.

ثم قال المَلَكُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَقِيلَ لَهُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ: صَدَقَ عَبْدِي، أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا.

وذكر مثل هذا في بقية الأَذَانِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ جَوَاباً عَنْ قَوْلِهِ: حَتَّى عَلَى الصَّلَاةِ، حَتَّى عَلَى الْفَلَاحِ.

وقال: ثم أخذ المَلَكُ بيدَ مُحَمَّدٍ، فَقَدَّمَهُ، فَأَمَّ أَهْلَ السَّمَاءِ، فِيهِمْ آدَمُ وَنُوحٌ.

قال أبو جعفر: مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، رَاوِيهِ: أَكْمَلَ اللَّهُ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ الشَّرَفَ عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

قال المؤلف رحمه الله: ما في هذا الحديث من ذِكْرِ الْحِجَابِ فَهُوَ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِ لَا فِي حَقِّ الْخَالِقِ، فَهَمَّ الْمَحْجُوبُونَ، وَالْبَارِي جَلَّ اسْمُهُ مِنْزَعَهُ عَمَّا يَخْجُبُهُ، إِذِ الْحُجُبُ إِنَّمَا تُحِيطُ بِمَقْدَرِ مُحْسُوسٍ، وَلَكِنْ حُجُبُهُ عَلَى أَبْصَارِ خَلْقِهِ وَبِصَائِرِهِمْ وَإِدْرَاكَاتِهِمْ بِمَا شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ، وَمَتَى شَاءَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ﴾ [المطففين: ١٥].

فقله في هذا الحديث: «الحجاب»، و «إذ خرج مَلَكٌ من الحجاب» يجب أن يقال: إنه حجابٌ حَجَبَ به مَنْ وراءه من ملائكته عن الاطلاع على ما دونه من سُلْطانه وعظمته، وعجائب ملكوته وجَبْروته.

ويدلُّ عليه من الحديث - قولُ جبريل - عن المَلَك الذي خرج من وراءه: «إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا رَأَيْتُهُ مِنْذُ خُلِقْتُ قَبْلَ سَاعَتِي هَذِهِ».

فدلَّ على أنَّ هذا الحجاب لم يختص بالذات.

ويدلُّ عليه قولُ كعب في تفسير: «سِدْرَةُ الْمُتَنَهَّى» قال: إليها ينتهي عِلْمُ الملائكة، وعندها يجدون أَمْرَ اللَّهِ، لا يجاوزها عِلْمُهُم.

وأما قوله: «الذي يلي الرحمن» فيَحْمَلُ على حَذْفِ المضاف، أي يلي عَرْشَ الرحمن، أو أَمْرًا ما، من عظيم آياته، أو مبادئ حقائق معارفه، مما هو أعلم به، كما قال تعالى: ﴿وَسَلِّ أَلْقَرِيَةَ آلِي كُتْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] أي: أهلها.

وقوله: فقيل من وراء الحجاب «صدق عبيدي، أنا أكبر» فظاهره أنه سمع في هذا الموطن كلامَ الله، ولكن مِنْ وراء حجاب، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَشْرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]؛ أي: وهو لا يراه، حَجَبَ بصره عن رُؤيته.

فإن صَحَّ القولُ بأنَّ محمداً ﷺ رأى رَبَّهُ عزَّ وجلَّ فيَحْتَمَلُ أنه في غير هذا المَوْطِنِ. بعدَ هذا أو قبله، رُفِعَ الحجابُ عن بصره حتى رآه. والله أعلم.

فصل

فِي حَقِيقَةِ الْإِسْرَاءِ، هَلْ كَانَ بِالرُّوحِ أَمْ بِالرُّوحِ وَالْجَسَدِ

ثم اختلف السلف والعلماء: هل كان أسري بروحه أو جسده؟ على ثلاث مقالات: فذهب طائفة إلى أنه إسرائ بالروح، وأنه رؤيا منام، مع اتفاقهم أنَّ رؤيا الأنبياء حقٌّ ووحي، وإلى هذا ذهب معاوية.

وحكي عن الحسن، والمشهور عنه خلافة، وإليه أشار محمد بن إسحاق، وحجَّتهم قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

٤٥٠ - وما حَكَّوْا عن عائشة أنها قالت: ما فقدتُ جسدَ رسولِ الله ﷺ.

٤٥١ - وقوله: «بيننا أنا نائم».

٤٥٢ - وقول أنس: وهو نائم في المسجد الحرام.. وذكر القصة، ثم قال

في آخرها: «فاستيقظتُ وأنا بالمسجد الحرام» [البخاري (٧٥١٧)، مسلم (٢٦٢/١٦٢)].

وذهب مُعْظَمُ السَّلَفِ والمسلمين إلى أنه إسرائ بالجسد وفي اليقظة، وهذا هو الحقُّ، وهذا قولُ ابن عباس، وجابر، وأنس، وحذيفة، وعُمر، وأبي هريرة، ومالك بن صَفْصَعَةَ، وأبي حَبَّةَ البَذْرِي، وابن مسعود، والضَّحَّاك، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن المسيَّب، وابن شهاب، وابن زَيْد، والحسن، وإبراهيم، ومسروق، ومجاهد، وعكرمة، وابن جُرَيْج، وهو دليلُ قول عائشة، وهو قولُ الطبري، وابن خنبل، وجماعةٍ عظيمة من المسلمين، وهو قولُ أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين.

وقالت طائفة: كان الإسرائ بالجسد يَقْظَةً إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، فجعل ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ غاية الإسرائ الذي وقع التعجُّب فيه بعظيم القُدرة، والتمدُّح بتشريف النبي محمد ﷺ به، وإظهار الكرامة له بالإسرائ إليه.

قال هؤلاء: ولو كان الإسرائ بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره؛ فيكون أبلغ في المدح.

ثم اختلفت هذه الفرقتان: هل صُلِّيَ ببيت المقدس، أم لا؟

٤٥٣ - ففي حديث أنس وغيره ما تقدم من صلاته فيه.

٤٥٤ - وأنكر ذلك حذيفة بن اليمان، وقال: واللَّهِ ما زالا عن ظَهْرِ البُرَاقِ

حتى رجعا [الترمذي (٣١٤٧)، أحمد (٢٨٧/٥)].

قال المؤلف: والحق من هذا والصحيح - إن شاء الله - أنه إسرائ بالجسد والروح في القصة كُلِّها، وعليه تدلُّ الآية، وصحيح الأخبار، والاعتبار، ولا يُغْدَلُ عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، وليس في الإسرائ بجسده وحالٍ يقظته استحالة؛ إذ لو كان مناماً لقال: برُوحِ عَبْدِهِ، ولم يَقُلْ: ﴿بِعَبْدِهِ﴾. وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]، ولو كان مناماً لَمَا كانت فيه آيَةٌ ولا معجزة، ولما استبعده الكفار، ولا كَذَّبُوهُ فيه، ولا ارتدَّ به ضُعفاء مَنْ أسلم، وافْتَتَنُوا به؛ إذ مثلُ هذا من المنامات لا يُنْكَرُ؛ بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أنَّ خبره إنما كان عن جسمه وحالٍ يقظته، إلى ما ذُكِرَ في الحديث من ذِكرِ صلاته بالأنبياء ببيت المقدس في رواية أنس - أو في السماء على ما رَوَى غَيْرُهُ - وذِكرِ مجيء جبريل له بالبُرَاق، وخَبَرِ المعراج، واستفتاح السماء؛ فيقال: مَنْ معك؟ فيقول: محمد، ولقائه الأنبياء

فيها، وخَبَرَهُمْ معه، وتَرْجِيهِمْ به، وشَأْنُهُ في فَرَضِ الصلاة ومراجعتِهِ مع موسى في ذلك.

٤٥٥ - وفي بعض هذه الأخبار: «فأخذ - يعني جبريل - بيدي فَعَرَجَ بي إلى السماء...».

٤٥٥م - إلى قوله: «ثم عَرَجَ بي حتى ظهرتُ بمُسْتَوَى أَسْمَعُ فيه صَرِيْفَ الْأَقْلَامِ» وأنه وصل إلى سِدْرَةِ الْمُتَهَيِّ، وأنه دخل الجنة، ورَأَى فيها ما ذَكَرَهُ.

٤٥٦ - قال ابن عباس: هي رُؤْيَا عَيْنٍ رَأَاهَا النَّبِيُّ ﷺ لا رُؤْيَا مَنَامٍ [البخاري: (٣٨٨٨)].

٤٥٧ - وعن الحسن فيه: «بينما أنا نائم في الحِجْرِ إذ جاءني جبريل فهمزني بعَقِيهِ، فقمْتُ فجلستُ فلم أَرِ شيئاً، فَعُدْتُ لِمَضْجَعِي» - فذكر ذلك ثلاثاً - فقال في الثالثة: «فأخذ بَعْضِي فَجَرَّنِي إلى باب المسجد فإذا بِدَابَّةٍ». وذكر خبر البراق.

٤٥٨ - وعن أُمِّ هَانِيءَ: ما أُسْرِيَ برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي، تلك الليلة صلى العشاء الآخرة، ونام بيننا، فلما كان قُبَيْلَ الْفَجْرِ أَهَبْنَا رسولَ الله ﷺ، فلما صلى الصبح وصلَّينا قال: «يا أُمُّ هَانِيءُ! لقد صليتُ معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جثتُ بَيْنَ الْمَقْدَسِ فصليتُ فيه، ثم صليتُ الْغَدَاةَ معكم الآن كما تَرَوْنَ». وهذا يَبَيِّنُ في أنه بجسمه.

٤٥٩ - وعن أبي بكر - من رواية شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ عنه - أنه قال للنبي ﷺ ليلة أُسْرِيَ به: طلبْتُكَ يا رسولَ الله! البارحة في مكانك فلم أَجِدْكَ. فأجابه: إن جبريلَ - عليه السلام - حمله إلى المسجد الأقصى.

٤٦٠ - وعن عُمر رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «صليتُ ليلة أُسْرِيَ بي في مقدَّمِ المسجد، ثم دخلتُ الصخرة فإذا بِمَلَكٍ قائمٍ معي أَنِيَّةً ثلاث...» وذكر الحديث.

وهذه التصريحات ظاهرةٌ غَيْرُ مُسْتَحِيلَةٍ، فَتَحَمَّلْ على ظاهرها.

٤٦١ - وعن أبي ذَرٍّ، عنه ﷺ: «فُرجَ سَفْهُ بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريلُ، فشرح صَدْرِي، ثم غسله بماء زَمْزَم...» إلى آخر القصة «ثم أخذ بيدي، فَعَرَجَ بي».

٤٦٢ - وعن أنس: «أُتِيَ فَانْطَلَقُوا بِي إِلَى زَمَزَمَ، فَشَرَحَ عَنْ صَدْرِي» [مسلم (١٦٢/٢٦٠)].

٤٦٣ - وعن أبي هريرة: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحَجَرِ، وَقَرِشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلْتَنِي عَنْ أَشْيَاءَ لَمْ أَثْبِتْهَا، فَكُرِّتُ كَرْباً مَا كُرِّتُ مِثْلَهُ قَطُّ، فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ» [مسلم (١٧٢)].

٤٦٤ - ونحوه عن جابر [البخاري (٣٨٨٦)، مسلم (١٧٠)].

٤٦٥ - وقد رَوَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى خَدِيجَةَ وَمَا تَحَوَّلْتُ عَنْ جَانِبِهَا».

فصل

فِي إِنْطَالِ خَجَجٍ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا نَوْمٌ

اِحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَا جَعَلْنَا الزَّيَّاكَ الْآلِيَّ أَرْيَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ» [الإسراء: ٦٠]، فَسَمَّاهَا رُؤْيَا.

قلنا: قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ» [الإسراء: ١] يَرُدُّهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ فِي النَّوْمِ: أَسْرَى.

وقوله: «فِتْنَةً لِلنَّاسِ». يُؤَيِّدُ أَنَّهَا رُؤْيَا عَيْنٍ، وَإِسْرَاءُ شَخْصٍ؛ إِذْ لَيْسَ فِي الْحُلُمِ فِتْنَةٌ. وَلَا يَكْذِبُ بِهِ أَحَدٌ؛ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَرَى مِثْلَ ذَلِكَ فِي مَنَامِهِ مِنَ الْكَوْنِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ فِي أَقْطَارٍ مُتَبَايِنَةٍ.

عَلَى أَنَّ الْمَفْسَّرِينَ قَدْ اخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَضِيَّةِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَمَا وَقَعَ فِي نَفُوسِ النَّاسِ مِنْ ذَلِكَ. وَقِيلَ غَيْرُ هَذَا. وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: إِنَّهُ قَدْ سَمَّاهَا فِي الْحَدِيثِ مَنَاماً.

٤٦٦ - وقوله فِي حَدِيثٍ آخَرَ: «بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ» [البخاري (٣٢٠٧)، مسلم (١٦٤)].

٤٦٧ - وقوله أَيْضاً: وَهُوَ نَائِمٌ. وقوله: «ثُمَّ اسْتَيْقَظْتُ» فَلَا حِجَّةَ فِيهِ؛ إِذْ قَدْ يَحْتَمَلُ أَنَّ أَوَّلَ وَصُولِ الْمَلِكِ إِلَيْهِ كَانَ وَهُوَ نَائِمٌ، أَوْ أَنَّ أَوَّلَ حَمْلِهِ وَالْإِسْرَاءَ بِهِ وَهُوَ نَائِمٌ، وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ كَانَ نَائِمًا فِي الْقَضِيَّةِ كُلِّهَا إِلَّا مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «ثُمَّ اسْتَيْقَظْتُ وَأَنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» فَلَعَلَّ قَوْلَهُ: «اسْتَيْقَظْتُ» بِمَعْنَى أَصْبَحْتُ، أَوْ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمٍ آخَرَ بَعْدَ وَصُولِهِ بَيْتِهِ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ مَسْرَاهُ لَمْ يَكُنْ طَوْلَ لَيْلِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ فِي بَعْضِهِ.

وقد يكون قوله: «استيقظت وأنا في المسجد الحرام» لما كان غَمَرَه من عجائب ما طالع من ملكوت السموات والأرض، وخامر باطنه من مُشاهدة الملائ الأعلى، وما رأى من آيات رَبِّه الكبرى، فلم يستيقظ ويرجع إلى حال البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام.

وَوَجْهٌ ثالث: أن يكون نومه واستيقاظه حقيقةً على مقتضى لَفْظِهِ، ولكنه أُسْرِيَ بجسده وقلبه حاضر، ورؤيا الأنبياء حق، تنام أغينهم ولا تنام قلوبهم.

وقد مال بعض أصحاب الإشارات إلى نحوٍ من هذا. قال: تَغْمِضُ عينيه لئلاً يَشْعَلَ شيء من المحسوسات عن الله تعالى. ولا يصحُّ هذا أن يكون في وقت صلاته بالأنبياء، ولعله كانت له في هذا الإسراء حالات.

وَوَجْهٌ رابع: وهو أن يعبرَ بالنوم ها هنا عن هيئة النائم من الاضطجاع. ٤٦٨ - وَيُقَوِّيه قوله في رواية عَبْدُ بن حُمَيْدٍ، عن هَمَّامٍ: «بينما أنا نائم» وربما قال: «مُضْطَجِعٌ».

٤٦٩ - وفي رواية هُدْبَةَ، عنه: «بينما أنا نائم في الحَظِيمِ» وربما قال: «في الحِجْرِ مضطجع» [البخاري (٣٨٨٧)].

٤٧٠ - وقوله في الرواية الأخرى: «بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ». فيكون سَمِيَ هيئته بالنوم لما كانت هيئة النائم غالباً. وذهب بعضهم إلى أنَّ هذه الزيادات: من النوم، وذَكَرَ شَقَّ البطن، ودَنُو الرب عز وجل الواقعة في هذا الحديث، إنما هي من رواية شريك، عن أنس، فهي مُنْكَرَةٌ من روايته؛ إذ شَقَّ البَطْنِ في الأحاديث الصحيحة إنما كان في صَغَرِهِ ﷺ وقبل النبوة؛ ولأنه قال في الحديث: «قَبْلَ أَنْ يُنْعَثَ»، والإسراء بإجماع كان بعد المَبْعَث؛ فهذا كُلُّهُ يُوهِّن ما وقع في رواية أنس، مع أن أنساً قد بَيَّن من غير طريق أنه إنما رواه عن غيره، وأنه لم يسمعه من النبي ﷺ، فقال مرَّةً: عن مالك بن صَغَصَةَ، وفي كتاب مسلم: لعلَّه عن مالك بن صَغَصَةَ، على الشك. وقال مرَّةً: كان أبو ذَرٍّ يحدث.

٤٧١ - وأما قول عائشة: ما فَقِدَ جَسَدُهُ؛ فعائشة لم تحدِّث به عن مشاهدة؛ لأنها لم تكن حينئذٍ زَوْجَهُ، ولا في سِنٍّ من يَضْبِط، ولعلها لم تكن وُلِدَت بعدُ، على الخلاف في الإسراء متى كان؟ فإنَّ الإسراء كان في أول الإسلام على قول

الرُّهْرِي وَمَنْ وافقه بعد المبعث بعام ونصف، وكانت عائشة في الهجرة بنت نحو ثمانية أعوام.

وقد قيل: كان الإسراء لخمس قبل الهجرة. وقيل: قبل الهجرة بعام. والأشبه إنه لخمس.

والحجة لذلك تطول، وليست من غرضنا، فإذا لم تشاهد ذلك عائشة، دل على أنها حدثت بذلك عن غيرها، فلم يرجع خبرها على خبر غيرها؛ وغيرها يقول خلافه مما وقع نصاً في حديث أم هانئ وغيره.

وأيضاً فليس حديث عائشة رضي الله عنها بالثابت، والأحاديث الأخر أثبت، ولستنا نغني حديث أم هانئ، وما ذكرته فيه خديجة.

وأيضاً فقد روي في حديث عائشة: «ما فقدت». ولم يدخل بها النبي ﷺ إلا بالمدينة.

وكل هذا يوهنه؛ بل الذي يدل عليه صحيح قولها. أنه بجسده، لإنكارها أن تكون رؤياه لربه رؤياً عين. ولو كان عندها متاماً لم تنكره.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١] فقد جعل ما رآه للقلب، وهنا يدل على أنه رؤياً نوم ووَخِي، لا مشاهدة عين وجس. قلنا: يقابله قوله تعالى: ﴿مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا كَلَّمَ﴾ [النجم: ١٧] فقد أضاف الأمر للبصر.

وقد قال أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١] أي لم يؤهم القلب العين غير الحقيقة، بل صدق رؤيتها. وقيل: ما أنكر قلبه ما رآه عينه.

فصل

فِي رُؤْيِيهِ ﷺ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاخْتِلَافِ السَّلَفِ فِيهَا

وأما رؤيته ﷺ - لربه جلَّ وعزَّ - فاختلف السلف فيها؛ فأنكرته عائشة.

٤٧٢ - أخبرنا أبو الحسين: سراج بن عبد الملك الحافظ بقراءتي عليه؛ قال: حدثني أبي، وأبو عبد الله بن عتاب الفقيه؛ قالوا: حدثنا القاضي يونس بن مغيث، قال: حدثنا أبو الفضل الصقلي، حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت، عن أبيه وجده؛ قالوا: حدثنا عبد الله بن علي قال: حدثنا محمود بن آدم، حدثنا وكيع، عن ابن أبي خالد، عن عامر، عن مسروق، أنه قال لعائشة رضي الله عنها: يا أم

المؤمنين! هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قَفَّ شِعْرِي مما قُلْتَ. ثلاث مَنْ حَدَّثَكَ بِهِمْ فَقَدْ كَذَبَ: من حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وذكر الحديث [البخاري (٧٣٨٠)، مسلم (٢٨٩/١٧٧)].

فقال جماعة بقول عائشة رضي الله عنها.

٤٧٣، ٤٧٤ - وهو المشهور عن ابن مسعود، ومثله عن أبي هريرة، أنه قال: إنما رأى جبريل [البخاري (٤٨٥٧)، مسلم (١٧٤)]. واختلف عنه. وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين، والفقهاء والمتكلمين.

٤٧٥ - وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه رآه بعينه [أحمد (٣٧٠/١)].

٤٧٦ - وروى عطاء عنه: أنه رآه بقلبه [مسلم (٢٨٤/١٧٦)].

٤٧٧ - وعن أبي العالية، عنه: رآه بفؤاده مرتين [مسلم (٢٨٥/١٧٦)].

٤٧٨ - وذكر ابن إسحاق أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهما يسأله: هل رأى محمد ربه؟ فقال: نعم.

٤٧٩ - والأشهر عنه أنه رأى ربه بعينه، روي ذلك عنه من طرق، وقال:

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اخْتَصَّ مُوسَى بِالْكَلَامِ، وَإِبْرَاهِيمَ بِالْخُلَّةِ، وَمُحَمَّدًا بِالرُّؤْيَةِ.

وحجته قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١-١٣].

قال المازدي: قيل: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَسَمَ كَلَامَهُ وَرُؤْيَتَهُ بَيْنَ مُوسَى، وَمُحَمَّدٍ ﷺ فَرَأَاهُ مُحَمَّدٌ مَرَّتَيْنِ، وَكَلَّمَهُ مُوسَى مَرَّتَيْنِ.

وحكى أبو الفتح الرازي، وأبو الليث السمرقندي الحكاية عن كعب.

٤٨٠ - وروى عبد الله بن الحارث، قال: اجتمع ابن عباس وكعب؛ فقال ابن عباس: أما نحن بنو هاشم فنقول: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ رَأَى رَبَّهُ مَرَّتَيْنِ؛ فَكَبِّرَ كَعْبُ حَتَّى جَاوَبَتْهُ الْجِبَالُ، وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ رُؤْيَتَهُ وَكَلَامَهُ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَمُوسَى؛ فَكَلَّمَهُ مُوسَى، وَرَأَاهُ مُحَمَّدٌ بَقَلْبِهِ [الترمذي (٣٢٧٨)].

٤٨١ - وروى شريك، عن أبي ذر رضي الله عنه في تفسير الآية؛ قال: رَأَى النَّبِيُّ ﷺ رَبَّهُ.

٤٨٢ - وحكى السمرقندي، عن محمد بن كعب القرظي، وزبيح بن أنس، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سئل: هل رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قال: «رَأَيْتُهُ بِفُؤَادِي، وَلَمْ أَرَهُ بِعَيْنِي».

٤٨٣ - وروى مالك بن يخامر، عن معاذ، عن النبي ﷺ؛ قال: «رَأَيْتُ

رَبِّي... وذكر كَلِمَةً، فقال: يا محمد! فيم يَخْتَصِم المَلَأُ الأعلى؟ [أحمد (٢٤٣/٥)، الترمذي (٣٢٣٥)] الحديث.

وحكى عبدالرزاق أَنَّ الحسن كان يحلفُ بالله لقد رأى محمدَ رَبِّه.
وحكاه أبو عَمَرُ الطَّلَمَنَكِيُّ عن عِكْرَمَةَ.
وحكى بعضُ المتكلمين هذا المذهبَ عن ابن مسعود.
وحكى ابنُ إسحاق: أَنَّ مروانَ سأل أبا هُرَيْرَةَ. هل رأى محمدَ رَبِّه؟ فقال:
نعم.

وحكى النقاش، عن أحمد بن حنبل، أنه قال: أنا أقولُ بحديث ابن عباس
بعينه رآه - حتى انقطع نَفْسُهُ، يعني: نَفَسَ أحمد.
وقال أبو عَمَرُ: قال أحمد بن حنبل: رآه بقلبه، وجَبُنَ عن القول برؤيته في
الدنيا بالأبصار.

وقال سَعِيد بن جُبَيْر: لا أقول: رآه، ولا لم يَرَهُ.
وقد اختلف في تأويل الآية عن ابن عباس، وعِكْرَمَةَ، والحسن، وابن
مسعود؛ فَحَكِي عن ابن عباس وعِكْرَمَةَ: رآه بقلبه. وعن الحسن وابن مسعود:
رأى جبريل.

وَحَكَى عَبْدُ اللَّهِ بن أحمد بن حنبل، عن أبيه، أنه قال: رآه.
وعن ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الانشراف: ١]
قال: شرح صَدْرَهُ للرؤية، وشرح صَدْرَ موسى للكلام.
وقال أبو الحسن، علي بن إسماعيل الأشعري رضي الله عنه وجماعة من
أصحابه: إنه رأى الله تعالى ببصره وعيني رَأَيْهِ، وقال: كُلُّ آيَةٍ أُوتِيَهَا نَبِيٌّ مِنْ
الأنبياء عليهم السلام فقد أُوتِي مِثْلَهَا نَبِيًّا، وَخَصَّ مِنْ بَيْنِهِمْ بِتَفْضِيلِ الرُّؤْيَةِ.
ووقف بعضُ مشايخنا في هذا، وقال: ليس عليه دليل واضح؛ ولكنه جائز
أن يكون.

قال المؤلف: والحق الذي لا امْتِرَاءَ فيه، أَنَّ رؤيته تعالى في الدنيا جائزة
عقلاً، وليس في العقل ما يُجِيلُهَا.

والدليل على جَوَازِهَا في الدنيا سؤالُ موسى - عليه السلام - لها. ومحالُ أَنْ
يجهَلَ نَبِيٌّ ما يجوز على الله وما لا يجوز عليه؛ بل لم يسأل إلا جائزاً غَيْرَ
مستحيل، ولكن وقوعه ومشاهدته من الغَيْب الذي لا يَغْلُمُهُ إِلَّا مَنْ عَلَّمَهُ اللهُ،
فقال له الله تعالى: ﴿لَنْ تَرِيَنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ أي: لن تُطِيقَ، ولا تحتَمَلُ

رُؤْيِي؛ ثم ضرب له مثلاً مِمَّا هو أقوى مِنْ بِنْيَةِ موسى وأثبت، وهو الجبل.
وكل هذا ليس فيه ما يُحِيل رُؤْيَتَهُ فِي الدُّنْيَا؛ بل فِيهِ جَوَازُهَا عَلَى الْجُمْلَةِ؛
وَلَيْسَ فِي الشَّرْعِ دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى اسْتِحَالَتِهَا وَلَا امْتِنَاعُهَا؛ إِذْ كُلُّ مَوْجُودٍ فَرُؤْيَتُهُ
جَائِزَةٌ غَيْرٌ مُسْتَحِيلَةٌ.

وَلَا حُجَّةٌ لِمَنْ اسْتَدَلَّ عَلَى مَنَعِهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾
[الأنعام: ١٠٣]؛ لِاخْتِلَافِ التَّأْوِيلَاتِ فِي الْآيَةِ، وَإِذْ لَيْسَ يَقْتَضِي قَوْلُ مَنْ قَالَ فِي
الدُّنْيَا اسْتِحَالَةً.

وَقَدْ اسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ نَفْسِهَا عَلَى جَوَازِ الرُّؤْيَةِ وَعَدَمِ اسْتِحَالَتِهَا عَلَى
الْجُمْلَةِ.

وَقَدْ قِيلَ: لَا تُدْرِكُهُ أَبْصَارُ الْكَفَّارِ. وَقِيلَ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ لَا تُحِيطُ
بِهِ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَدْ قِيلَ: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ، وَإِنَّمَا يَذَرِكُهُ الْمُبْصِرُونَ.
وَكُلُّ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ لَا تَقْتَضِي مَنَعَ الرُّؤْيَةِ وَلَا اسْتِحَالَتِهَا.
وَكَذَلِكَ لَا حُجَّةَ لَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وَقَوْلُهُ:
﴿تَبَّتْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. لِمَا قَدَمْنَاهُ؛ وَلَأَنَّهُمَا لَيْسَتْ عَلَى الْعُمُومِ؛ وَلَأَنَّ مَنْ
قَالَ: مَعْنَاهَا: لَنْ تَرَانِي فِي الدُّنْيَا، إِنَّمَا هُوَ تَأْوِيلٌ.

وَأَيْضاً لَيْسَ فِيهِ نَصٌّ لِامْتِنَاعٍ، وَإِنَّمَا جَاءَتْ فِي حَقِّ مُوسَى؛ وَحَيْثُ تَتَطَرَّقُ
التَّأْوِيلَاتُ وَتَتَسَلَّطُ الْإِحْتِمَالَاتُ، فَلَيْسَ لِلْقَطْعِ إِلَيْهِ سَبِيلٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَّتْ إِلَيْكَ﴾. أَي: مِنْ سَوْأَلِي مَا لَمْ تُقَدِّرْهُ لِي.
وَقَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْهَذَلِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾: أَي لَيْسَ لِبَشَرٍ أَنْ يُطِيقَ أَنْ
يَنْظُرَ إِلَيَّ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ مَنْ نَظَرَ إِلَيَّ مَاتَ.

وَقَدْ رَأَيْتُ لِبَعْضِ السَّلَفِ وَالْمُتَأَخِّرِينَ مَا مَعْنَاهُ: إِنْ رُؤْيَتَهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا
مُمْتَنِعَةٌ، لَضَعْفِ تَرْكِيبِ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَقُوَاهُمْ، وَكَوْنِهَا مُتَغَيِّرَةٌ غَرَضاً لِلْأَفَاتِ
وَالْفَنَاءِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ قُوَّةٌ عَلَى الرُّؤْيَةِ؛ فَإِذَا كَانَ فِي الْآخِرَةِ وَرُكِبُوا تَرْكِيباً
آخَرَ، وَرَزَقُوا قُوَّةً ثَابِتَةً بَاقِيَةً، وَأَتَمَّ أَنْوَارِ أَبْصَارِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ قُوَّةً بِهَا عَلَى
الرُّؤْيَةِ.

وَقَدْ رَأَيْتُ نَحْوَ هَذَا لِمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ قَالَ: لَمْ يُرَ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهُ
بَاقٍ، وَلَا يُرَى الْبَاقِي بِالْفَانِي؛ فَإِذَا كَانَ فِي الْآخِرَةِ وَرَزَقُوا أَبْصَاراً بَاقِيَةً رُئِيَ الْبَاقِي
بِالْبَاقِي.

وَهَذَا كَلَامٌ حَسَنٌ مَلِيحٌ، وَلَيْسَ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحَالَةِ إِلَّا مِنْ حَيْثُ ضَعُفُ

القدرة؛ فإذا قَوَّى اللَّهُ تعالى مَنْ شاءَ مِنْ عباده، وأَقْدَرَهُ على حَمْلِ أعباءِ الرؤية لم تَمْنَعِ في حقِّه.

وقد تقدَّم ما ذُكر في قوة بَصَرِ موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ونفوذ إدراكهما بقوة إلهية مُنَحَّاهَا لإدراك ما أذركاه، ورؤية ما رآياه. والله أعلم.

وقد ذكر القاضي أبو بكر - في أثناء أجوبته عن الآيتين - ما معناه: إن موسى - عليه السلام - رأى الله؛ فَلِذَلِكَ خَرَّ صَبِقًا، وإن الجبل رأى ربه فصار ذكًا يادراك خَلْقَهُ الله له. واستنبط ذلك - والله أعلم - من قوله: ﴿وَلَكِنْ أَنْظَرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَاهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ثم قال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَبِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وتَجَلَّى للجبل هو ظهوره له حتى رآه، على هذا القول. وقال جعفر بن محمد: شَغَلَهُ بِالْجَبَلِ حَتَّى تَجَلَّى، ولولا ذلك لَمَاتَ صَبِقًا بلا إفاقة.

وقوله هذا يدلُّ على أَنَّ موسى رآه. وقد وقع لبعض المفسِّرين في «الجبل» أنه رآه، وبرؤية الجبل له استدلَّ مَنْ قال برؤية محمدٍ نبيِّنا له؛ إذ جعله دليلًا على الجواز. ولا مزية في الجواز؛ إذ ليس في الآيات نصٌّ بالمنع.

وأما وجوبه لنبيِّنا ﷺ، والقول بأنه رآه بعينه، فليس فيه قاطع أيضاً ولا نصٌّ؛ إذ الْمُعَوَّلُ فيه على آيتي «النجم» والتنازعُ فيهما ماثور، والاحتمالُ لهما مُمكن، ولا أثر قاطع مُتَوَاتِر عن النبي ﷺ بذلك.

٤٨٤ - وحديث ابن عباس خَبَّرَ عن اعتقاده لم يُسْنِدْهُ إِلَى النبي ﷺ؛ فيجِبُ العملُ باعتقاده مُضْمَنِيهِ.

٤٨٥ - ومثله حديثُ أبي ذَرٍّ في تفسير الآية.

٤٨٦ - وحديث معاذ محتَمِلٌ للتأويل، وهو مضطرب الإسناد والمَنَنِ.

٤٨٧ - وحديث أبي ذَرٍّ الآخر مختلفٌ محتَمِلٌ مُشْكِلٌ. فروي: «نور أتى

أواه؟» [مسلم (٢٩١/١٧٨)].

وحكى بعضُ شيوخنا أنه زُوي: «ثورانيَّ أراه».

٤٨٨ - وفي حديثه الآخر: سأَلْتُهُ، فقال: «رَأَيْتُ نُورًا» [مسلم (٢٩٢/١٧٨)].

وليس يمكن الاحتجاجُ بواحدٍ منها على صحة الرؤية؛ فإن كان الصحيح: «رَأَيْتُ

نوراً فهو قد أخبر أنه لم يرَ الله؛ وإنما رأى نوراً منه وحجبه عن رؤية الله .
والى هذا يرجع قوله: «ثَوَّرَ أَتَى أَرَاهُ؟» أي: كيف أراه مع حجابِ النور
المُعْشَى للبصر؟

٤٨٩ - وهذا مثل ما في الحديث الآخر: «حجابه النور» [مسلم (١٧٩)].

٤٩٠ - وفي الحديث الآخر: «لم أَرَهُ بعيني، وإنما رأيته بقلبي مرتين»
وتلا: ﴿ثُمَّ دَنَا فَدَلَّكَ﴾ [النجم: ٨]، واللَّهُ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ الإدراك الذي في
البَصَرِ في القلب، أو كيف شاء، لا إلهَ غيره.

فإن وَرَدَ حديثٌ نصٌّ بَيِّنٌ في الباب اعتقِدَ ووجب المَصِيرُ إليه؛ إذ لا
استِحَالَةَ فيه، ولا مانع قطعي يردُّه، والله الموفق تعالى.

فصل

فِي مَا وَرَدَ فِي قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ مِنْ مُنَاجَاتِهِ ﷺ لِلَّهِ تَعَالَى وَكَلَامِهِ مَعَهُ

وأما ما وَرَدَ في هذه القصة مِنْ مُنَاجَاتِهِ تَعَالَى وَكَلَامِهِ مَعَهُ بقوله: ﴿فَأَوْحَى
إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ١٠] إلى ما تَضَمَّنَتْهُ الأحاديثُ، فأَكْثَرُ المفسرين على
أَنَّ المَوْحِيَّ اللّهُ عز وجلَّ إلى جبريل، وجبريلُ إلى محمد ﷺ، إلا شذوذاً منهم؛
فذكر عن جعفر بن محمد الصادق، قال: أَوْحَى إِلَيْهِ بلا واسطة، ونحوه عن
الواسطي؛ وإلى هذا ذهب بعض المتكلمين، أَنَّ محمداً ﷺ كَلَّمَ رَبَّهُ فِي
الْإِسْرَاءِ.

وحُكي عن الأشعري، وحكَّوه عن ابن مسعود وابن عباس؛ وأنكره آخرون.

٤٩١ - وذكر النقَّاش، عن ابن عباس، في قصة الإسراء، عنه ﷺ في
قوله: ﴿دَنَا فَدَلَّكَ﴾ [النجم: ٨]. قال: «فَارَقَنِي جِبْرِيلُ، وانقطعت الأصوات عني،
فسمعتُ كلامَ ربي وهو يقول: لِيَهْدَأْ رَوْعَكَ يَا مُحَمَّدًا! اذْنُ، اذْنُ».

٤٩٢ - وفي حديث أنس في الإسراء نحو منه.

وقد احتجوا في هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا
وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١]؛
فقالوا: هي ثلاثة أقسام: من وراء حجابٍ كتكليم موسى؛ وإرسال الملائكة
كحال جميع الأنبياء وأكثر أحوال نبينا ﷺ. الثالث: قوله: ﴿وَحْيًا﴾ ولم يَبَيِّنْ من
تقسيم صور الكلام إلا المشافهة مع المشاهدة.

وقد قيل: الْوَحْيُ - هنا - هو ما يُلقِيهِ في قَلْبِ النبي دُونَ واسطة.

٤٩٣ - وقد ذكر أبو بكر الْبَزْأُ، عن عليّ في حديث الإسراء، ما هو أَوْضَحُ في سَمَاعِ النبي ﷺ لكلام اللَّهِ من الآية: فذكر فيه: «فقال الْمَلِكُ: الله أكبر، الله أكبر، فقل لي مِنْ وراءِ الْحِجَابِ: صَدَقَ عَبْدِي، أنا أكبر، أنا أكبر». وقال في سائر كلمات الْأَذَانِ مِثْلَ ذلك.

ويجيءُ الكلامُ في مُشْكَلِ هَؤُلَاءِ الْحَدِيثَيْنِ في الْفَضْلِ بعدَ هذا مع ما يُشَبِّهه، وفي أَوَّلِ فَصْلِ من الْبَابِ منه.

وكلامُ اللَّهِ تعالى لمحمد ﷺ، وَمَنْ اخْتَصَّه من أَنْبيائه، جَائِزٌ غَيْرُ مَمْنُوعٍ عَقْلًا، ولا ورد في الشَّرْعِ قَاطِعٌ يَمْنَعُهُ، فَإِنْ صَحَّ في ذلك خبر اِحْتِمَالٍ عليه، وكلامُهُ تعالى لموسى كائنٌ حَقٌّ مَقْطُوعٌ به، نَصٌّ ذلك في الْكِتَابِ، وأَكْذَهُ بالمصدر دَلَالَةٌ على الْحَقِيقَةِ.

٤٩٤ - وَرَفَعَ مكانه على ما ورد في الْحَدِيثِ: في السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بسببِ كلامه. وَرَفَعَ محمداً فوقَ هذا كُلِّهِ حتَّى بلغَ مُسْتَوًى، وَسَمِعَ صَرِيْفَ الْأَقْلَامِ؛ فكيف يستحيل في حَقِّ هذا أو يَتَعَدَّ سَمَاعُ الْكَلَامِ؟ فسبحانَ مَنْ خَصَّ مَنْ شاءَ بما شاءَ، وجعل بعضهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ!.

فصل

فِي مَا وَرَدَ مِنَ الدُّنُوِّ وَالْقُرْبِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ

وأما ما ورد في حديث الإسراء وظاهر الآية: مِنَ الدُّنُوِّ وَالْقُرْبِ من قوله تعالى: ﴿دَنَا فَذَلَكُ﴾ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ [النجم: ٨، ٩]. فَأَكْثَرُ الْمُفْسِّرِينَ أَنَّ الدُّنُوَّ وَالتَّدَلَّى مُتَقَسِّمٌ ما بين محمد وجبريل عليهما السلام، أو مختصٌّ بأحدهما من الآخر، أو من سِدْرَةِ الْمُتَنَهَى.

قال الرازي: وقال ابن عباس: هو محمد، دنا فتدلَّى مِنْ رَبِّهِ.

وقيل: معنى دنا: قُرْبَ. وتدلَّى: زاد في القرب. وقيل: هما بمعنى واحد. أي: قرب وحكى مكِّي والماوردي، عن ابن عباس: هو الرَّبُّ دَنَا مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، فتدلَّى إليه؛ أي: أَمَرَهُ وَحُكِمَهُ.

وحكى النِّقَاشُ عن الْحَسَنِ، قال: ﴿دَنَا﴾ من عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، ﴿فَذَلَكُ﴾ فَقُرْبٌ مِنْهُ، فَأَرَاهُ ما شاءَ أَنْ يُرِيَهُ مِنْ قُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ.

٤٩٥ - قال: وقال ابن عباس: هو مقدم ومؤخر: تدلَّى الرَّفَرُفُ لمحمد ﷺ

ليلة المِغْزاج، فجلس عليه، ثم رُفِعَ فدنا من ربه.

قال: «فَارَقَنِي جبريلُ، وانقطعت عني الأصواتُ، وسمعتُ كلامَ ربي عزَّ

وجل».

٤٩٦ - وعن أنس في الصحيح: «عَرَجَ بي جبريلُ إلى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ودَنَا

الجبَّارُ رَبُّ الْعِزَّةِ، فتدلَّى حتى كان منه قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى، فأوحى إليه بما شاء، وأوحى إليه خمسين صلاة...» وذكر حديث الإسراء.

وعن محمد بن كَعْب: هو محمدٌ، دَنَا من ربه، فكان قَابَ قَوْسَيْنِ.

قال: وقال جعفر بن محمد: أَدْنَاهُ ربهُ منه حتى كان منه كَقَابِ قَوْسَيْنِ.

وقال جعفر بن محمد: والدنوُّ من الله لا حدَّ له، ومن العباد بالحدود.

وقال أيضاً: انقطعت الكَيْفِيَّةُ عن الدنو، أَلَا ترى كيف حَجَبَ جبريل عن

دَنُوهِ، ودَنَا محمد ﷺ إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان، فتدلَّى بسكون قلبه إلى ما أَدْنَاهُ، وزال عن قلبه الشكُّ والارتياب.

قال المؤلف رحمه الله: اعلم أنَّ ما وقع من إضافة الدنو والقُرب - هنا -

من الله، أو إلى الله، فليس بدنو مكان، ولا قُرب مدى؛ بل كما ذكرناه عن

جعفر الصادق: ليس بدنو حدٍّ، وإنما دَنُو النَّبِيِّ ﷺ من ربه وقُربه منه إِبَانَةُ عَظِيمِ

مَنْزِلَتِهِ، وتشريفُ رُتْبَتِهِ، وإشراقُ أنوار معرفته، ومشاهدةُ أسرار غَيْبِهِ وقدرته،

ومن اللّهِ تعالى له مَبَرَّةٌ وتأنيس، وبَسْطٌ، وإكرام.

٤٩٧ - وَيَتَأَوَّلُ فيه ما يُتَأَوَّلُ في قوله: «ينزلُ ربُّنا إلى سماء الدنيا» [البخاري

(١١٤٥)، مسلم (٧٥٨)] على أحد الوجوه: نزول إِفْضَالٍ وإِجْمَالٍ، وقبول وإحسان.

قال الواسطي: مَنْ تَوَهَّم أَنَّهُ بِنَفْسِهِ دَنَا، جعل ثَمَّ مسافة، بَلَّ كلما دنا بنفسه

من الحق تدلَّى بَعْدًا، يَغْنِي: عن دَرْك حقيقته؛ إذ لا دَنُوٌ للحق ولا بَعْدٌ.

وقوله: «قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» فَمَنْ جعل الضمير عائداً إلى الله تعالى، لا

إلى جبريل على هذا كان عبارةً عن نهاية القُرب، ولُطْفِ المحلِّ، واتّضاح

المعرفة، والإشراف على الحقيقة من محمد ﷺ، وعبارةً عن إجابة الرغبة،

وقضاء المطالب، وإظهار التَّحَقُّقِ، وإِنَافَةِ المنزل والمرتبة من الله له.

٤٩٨ - وَيَتَأَوَّلُ فيه ما يُتَأَوَّلُ في قوله: «مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَيْراً تقربت منه

ذِراعاً، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» [البخاري (٧٤٠٥)، مسلم (٢٦٧٥)، (٢٦٨٧)]

قُربٌ بالإجابة والقَبُول، وإِتْيَانٌ بالإحسان وتَعْجِيل المأمول.

فصل

فِي ذِكْرِ تَفْضِيلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِخُصُوصِ الْكَرَامَةِ

٤٩٩ - قال القاضي أبو علي: حدثنا أبو الفضل، وأبو الحسين؛ قالوا: حدثنا أبو يعلَى، حدثنا السُّنْجِي، حدثنا ابن محبوب، حدثنا الترمذي، حدثنا الحسين بن يزيد الكوفي، حدثنا عبدالسلام بن حرب، عن لَيْث، عن الربيع بن أنس، عن أنس رضي الله عنه: قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجاً إِذَا بُعِثُوا، وَأَنَا خَطِيئُهُمْ إِذَا وَقِدُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أُيْسُوا؛ لَوَاءِ الْحَمْدِ بِيَدِي، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلَا فَخْرَ» [الترمذي (٣٦١٠)].

٥٠٠ - وفي رواية ابن زُحْر، عن الربيع بن أنس، في لَفْظِ هَذَا الْحَدِيثِ: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجاً إِذَا بُعِثُوا، وَأَنَا قَائِدُهُمْ إِذَا وَقِدُوا، وَأَنَا خَطِيئُهُمْ إِذَا أَنْصَتُوا، وَأَنَا شَفِيعُهُمْ إِذَا حُبِسُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أُبْلِسُوا؛ لَوَاءِ الْكَرَمِ بِيَدِي، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلَا فَخْرَ؛ وَيَطُوفُ عَلَيَّ أَلْفُ خَادِمٍ كَانَهُمْ لَوْلَوْ مَكُونٌ».

٥٠١ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «وَأَكْسَى حُلَّةً مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ أَقُومُ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ يَقُومُ ذَلِكَ الْمَقَامَ غَيْرِي» [الترمذي (٣٦١١)].

٥٠٢ - وعن أبي سعيد؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَبِيَدِي لَوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا نَبِيٌّ يَوْمئِذٍ، آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ، إِلَّا تَحْتَ لَوَائِي؛ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ» [الترمذي (٣١٤٨، ٣٦١٥)، ابن ماجه (٤٣٠٨)].

٥٠٣ - وعن أبي هريرة، عنه ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ» [مسلم (٢٢٧٨)].

٥٠٤ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَا حَامِلُ لَوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ، وَلَا فَخْرَ؛ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَحْرُكُ حَلَقَةَ الْجَنَّةِ، فَيُفْتَحَ لِي فَيَدْخُلُهَا مَعِيَ فَقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا فَخْرَ؛ وَأَنَا أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَلَا فَخْرَ».

٥٠٥ - وعن أنس: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنَا أَكْثَرُ النَّاسِ تَبَعاً» [مسلم (١٩٦)].

٥٠٦ - وعن أنس رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ

القيامة؛ وتَدْرُونَ بِمَ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ [البخاري (٤٤٧٦، ٤٧١٢)، مسلم (١٩٣، ١٩٤)] وَذَكَرَ حَدِيثَ الشَّفَاعَةِ.

٥٠٧ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «أَطْمَعُ أَنْ أَكُونَ أَعْظَمَ الْأَنْبِيَاءِ آخِرَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

٥٠٨ - وفي حديث آخر: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ وَعِيسَى فِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» ثُمَّ قَالَ: «إِنَّهُمَا فِي أُمْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ أَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَيَقُولُ: أَنْتَ دَعَوْتِي وَذَرَّيْتِي، فَاجْعَلْنِي مِنْ أُمَّتِكَ. وَأَمَّا عِيسَى فَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةُ بَنُو عَلَاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى؛ وَإِنَّ عِيسَى أَخِي لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ» [البخاري (٣٤٤٣)، مسلم (٢٣٦٥)، أبو داود (٤٦٧٥)].

قوله: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»: هُوَ سَيِّدُهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَلَكِنْ أَشَارَ ﷺ لِانْفِرَادِهِ فِيهِ بِالسُّؤْدَدِ وَالشَّفَاعَةِ دُونَ غَيْرِهِ؛ إِذْ لَجَأَ إِلَيْهِ النَّاسُ فِي ذَلِكَ، فَلَمْ يَجِدُوا سِوَاهُ.

وَالسَّيِّدُ: هُوَ الَّذِي يَلْجَأُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِي حَوَائِجِهِمْ؛ فَكَانَ حِينَئِذٍ سَيِّدًا مُتَفَرِّدًا بَيْنَ الْبَشَرِ، لَمْ يُزَاجِمْهُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ، وَلَا أَدْعَاهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وَالْمُلْكُ لَهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لَكِنْ فِي الْآخِرَةِ انْقَطَعَتْ دَعْوَى الْمَدْعَى لِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا.

وكَذَلِكَ لَجَأَ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ جَمِيعُ النَّاسِ فِي الشَّفَاعَةِ؛ فَكَانَ سَيِّدَهُمْ فِي الْآخِرَةِ دُونَ دَعْوَى.

٥٠٩ - وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «آتَى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَاسْتَفْتَحَ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بِكَ أَمْرٌ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ» [مسلم (١٩٧)].

٥١٠ - وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَوْضِي مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءً، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الْوَرَقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكِيْرَانُهُ كَنَجْمِ السَّمَاءِ؛ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا» [البخاري (٦٥٧٩)، مسلم (٢٢٩٢)].

٥١١ - وعن أَبِي ذَرٍّ نَحْوُهُ؛ وَقَالَ: «طَوْلُهُ مَا بَيْنَ عَمَانَ إِلَى أَيْلَةَ، يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ» [مسلم (٢٣٠٠)].

٥١٢ - وعن ثَوْبَانَ مِثْلُهُ؛ وَقَالَ: «أَحَدُهُمَا مِنْ ذَهَبٍ، وَالْآخَرُ مِنْ وَرَقٍ» [مسلم (٢٣٠١)].

٥١٣ - وفي رواية حارثة بن وهب: «كما بين المدينة وصنعاء» [البخاري (٦٥٩١)، مسلم (٥١٣)].

٥١٤ - وعن أنس: «أَيْلَة وصنعاء» [البخاري (٦٥٨٠)، مسلم (٢٣٠٣)].

٥١٥ - وعن ابن عمر: «كما بين الكوفة والحجر الأسود» [البخاري (٦٥٧٧)، مسلم (٢٢٩٩)].

٥١٦ وحتى ٥٤٢ - وَرَوَى حَدِيثُ الْحَوْضِ أَيْضاً: أَنَسٌ، وَجَابِرٌ، وَسَمُرَةٌ، وَابْنُ عُمَرَ، وَعُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَحَارِثَةُ بْنُ وَهْبٍ الْخُزَاعِيُّ، وَالْمُسْتَوْرِدُّ، وَأَبُو بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيُّ، وَخُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، وَأَبُو أَهَامَةَ، وَزَيْدُ بْنُ أَزْقَمَ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ، وَسَهْلُ بْنُ سَعْدٍ، وَسُوَيْدُ بْنُ جَبَلَةَ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَابْنُ بُرَيْدَةَ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ الصَّنَائِجِيُّ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَالْبَرَاءُ، وَجُنْدُبٌ، وَعَائِشَةُ وَأَسْمَاءُ ابْنَتَا أَبِي بَكْرٍ، وَأَبُو بَكْرَةَ، وَخَوْلَةُ بِنْتُ قَيْسٍ، [مسلم (٢٣٠٥)، الترمذي (٢٤٤٣) البخاري (٦٥٩٠)] وغيرهم.

فصل

فِي تَفْضِيلِهِ بِالْمَحَبَّةِ وَالْخَلَّةِ

جاءت بذلك الأخبار الصحيحة، واختص - ﷺ - على ألسنة المسلمين بحبيب الله.

٥٤٣ - أخبرنا أبو القاسم بن إبراهيم الخطيب وغيره، عن كريمة بنت محمد، حدثنا أبو الهيثم (ج) وحدثنا حسين بن محمد الحافظ سمعاً عليه، حدثنا القاضي أبو الوليد، حدثنا عبد بن أحمد، حدثنا أبو الهيثم، حدثنا أبو عبد الله: محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا أبو عامر، حدثنا قُتَيْبٌ، حدثنا أبو النَّضْرِ، عن بُشَيْرِ بْنِ سَعِيدٍ، عن أَبِي سَعِيدٍ، عن النبي ﷺ، أنه قال: «لَوْ كُنْتُ مَتَّخِذاً خَلِيلاً - غَيْرَ رَبِّي - لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ» [البخاري (٣٦٥٤)، مسلم (٢٣٨٢)].

٥٤٤ - وفي حديث آخر: «وإن صاحبكم خليل الله» [مسلم (٧/٢٣٨٣)، الترمذي (٣٦٥٩)].

٥٤٥ - ومن طريق عبد الله بن مسعود: «وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً» [مسلم (٣/٢٣٨٣)].

٥٤٦ - وعن ابن عباس، قال: جلس ناس من أصحاب النبي ﷺ

ينتظرونه؛ قال: فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذكرون؛ فسمع حديثهم، فقال بعضهم: عجباً! إن الله اتخذ إبراهيم من خلقه خليلاً.

وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى كلمة الله تكليماً.

وقال آخر: فييسى كلمة الله وروحه.

وقال آخر: وآدم اصطفاؤه الله.

فخرج عليهم فسلم، وقال: «قَدْ سَمِعْتُ كَلَامَكُمْ وَعَجَبْتُكُمْ؛ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ وَمُوسَى نَجَّيَ اللَّهَ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ وَعِيسَى رُوحَ اللَّهِ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ وَآدَمُ اصْطَفَاهُ اللَّهُ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ وَأَنَا حَبِيبُ اللَّهِ وَلَا فَخْر؛ وَأَنَا حَامِلُ لَوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْر؛ وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشْفَعٍ وَلَا فَخْر، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَحْرُكُ حَلْقَ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُ اللَّهُ لِي فَيَدْخُلْنِيهَا وَمَعِيَ فَقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا فَخْر؛ وَأَنَا أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَلَا فَخْر».

٥٤٧ - وفي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - من قول الله تعالى

لنبيه ﷺ: «إِنِّي اتَّخَذْتُكَ خَلِيلًا، فَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ: أُنْسِبُ حَبِيبُ الرَّحْمَنِ».

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه: اختلف في تفسير الخلّة، وأصل اشتقاقها؛ فقيل: الخليل: المنقطع إلى الله الذي ليس في انقطاعه إليه ومحبته له اختلال.

وقيل: الخليل: المختص، واختار هذا القول غير واحد.

وقال بعضهم: أصل الخلّة الاستصفاة؛ وسُمِّيَ إبراهيم خليل الله؛ لأنه يُوالي فيه ويُعادي فيه؛ وخلّة الله له: نصرته، وجعله إماماً لمن بعده.

وقيل: الخليل: أصله الفقير المحتاج المنقطع، مأخوذ من الخلّة وهي الحاجة؛ فسُمِّيَ بها إبراهيم، لأنه قصر حاجته على ربه، وانقطع إليه بهمه، ولم يجعله قبل غيره.

٥٤٨ - إذ جاءه جبريل عليه السلام وهو في المنجنيق، ليُزِمِي به في النار،

قال: ألك حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا.

وقال أبو بكر بن قُورْكَ: الخلّة: صفاء المودة التي توجب الاختصاص بتخلل الأسرار.

وقال بعضهم: أصل الخلّة: المحبة؛ ومعناها: الإسعاف والإلطف،

والترفع، والتشفيع؛ وقد بين ذلك تعالى في كتابه بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى

نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن

يَسْأَلُهُ وَيَعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

[المائدة: ١٨].

فأوجب للمحبيب ألا يؤاخذ بذنوبه.

قال: هذا، والخُلة أقوى من البُتوة؛ لأن البُتوة قد يكون فيها العداوة، كما قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيَنَّكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَالْحِدَافَةُ وَإِنْ تَعَفَوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

ولا يصح أن تكون عداوة مع خُلة؛ فإذا تسمية إبراهيم ومحمد عليهما السلام بالخُلة إما بانقطاعهما إلى الله ووقف حوائجهما عليه، والانقطاع عمن دونه، والإضراب عن الوسائط والأسباب؛ أو لزيادة الاختصاص منه تعالى لهما، وخفي أطفافه عندهما، وما خال بواطنهما من أسرار إلهيته، ومكنون غيوبه ومعرفته، أو لاستيفائهما لهما، واستيفاء قلوبهما عمن سواه، حتى لم يُخال لهما حبٌ لغيره؛ ولهذا قال بعضهم: الخليل من لا يتسع قلبه لسواه.

٥٤٩ - وهو عندهم معنى قوله ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أباً بكر خليلاً؛ لكن أخوة الإسلام».

واختلف العلماء وأرباب القلوب: أيهما أرفع درجة: الخُلة، أو درجة المنحبة؟ فجعلهما بعضهم سواء؛ فلا يكون الحبيب إلا خليلاً، ولا الخليل إلا حبيباً، لكنه خص إبراهيم بالخُلة، ومحمداً بالمحبة.

٥٥٠ - وبعضهم قال: درجة الخُلة أرفع؛ واحتج بقوله ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي عز وجل» فلم يتخذ.

وقد أطلق المحبة ﷺ لفاطمة، وابنتها، وأسامة، وغيرهم.

وأكثرهم جعل المحبة أرفع من الخُلة؛ لأن درجة الحبيب نبينا أرفع من درجة الخليل إبراهيم.

وأصل المحبة الميل إلى ما يوافق المحب؛ ولكن هذا في حق من يصح الميل منه والانتفاع بالوفق؛ وهي درجة المخلوق؛ فأما الخالق - جل جلاله - فمتزعة عن الأغراض؛ فمحبة لعبده تمكيته من سعاده، وعظمته وتوفيقه وتهيته أسباب القرب، وإفاضة رحمته عليه؛ وقصاها كشف الحجب عن قلبه حتى يراه بقلبه، وينظر إليه ببصيرته.

٥٥١ - فيكون كما قال في الحديث: «إذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به» [البخاري (٦٥٠٢)].

ولا ينبغي أن يفهم من هذا سوى التجرّد لله، والانقطاع إلى الله، والإعراض عن غير الله، وصفاء القلب لله، وإخلاص الحركات لله.

٥٥٢ - كما قالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن؛ برضاه يرضى، وبسخطه يسخط؛ ومن هذا عبر بعضهم عن الخلّة بقوله:

قد تخلّلت مسلك الروح مني وبذا سُمّي الخليل خليلاً
فإذا ما نطقت كنت حديثي وإذا ما سكّ كنت الغليلاً

فإذا مزّة الخلّة وخصوصيّة المحبة حاصلّة لنبينا ﷺ بما دلّت عليه الآثار الصحيحة المنتشرة، المتلقّاة بالقبول من الأمة، وكفى بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

حكى أهل التفسير أنّ هذه الآية لما نزلت قال الكفار: إنما يريد محمد أن يتخذ حناناً كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم فأنزل الله، غيظاً لهم، ورعماً على مقالتهم، هذه الآية: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، فزاده شرفاً بأمرهم بطاعته، وقرنها بطاعته، ثم توعدّهم على التّولي عنه بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقد نقل الإمام أبو بكر بن فورك عن بعض المتكلمين كلاماً في الفرق بين المحبة والخلّة يطول، جملة إشاراته إلى تفضيل مقام المحبة على الخلّة؛ ونحن نذكر منه طرّفاً يهدي إلى ما بعده.

فمن ذلك قولهم: الخليل يصل بالواسطة، من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ رَأَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

والحبيب يصل إليه، من قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩]. وقيل: الخليل: الذي تكون مغفّره في حدّ الطمع، من قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

والحبيب الذي مغفّره في حدّ اليقين، من قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَبِئْسَ يَقْمَتُهُ عَلَيْكَ وَبِهِدْيِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢].

وال خليل قال: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧]. والحبيب قيل له: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾ [التحریم: ٨]؛ فابتدئ بالبشارة قبل السؤال.

وال خليل قال في المنة: حسبي الله.

والحبيب قيل له: ﴿يَأْتِيَا إِلَيْنِي حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤].

والخليل قال: ﴿وَلَجَلْ لِي لِسَانٌ صَدَقَ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

والحبيب قيل له: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الأنشراح: ٤] أُعْطِيَ بلا سؤال.

والخليل قال: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

والحبيب قيل له: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾

[الأحزاب: ٣٣].

وفيما ذكرناه تنبيه على مقصد أصحاب هذا المقال من تفضيل المقامات والأحوال؛ و﴿كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤].

فصل

فِي تَفْضِيلِهِ بِالشَّفَاعَةِ وَالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ

قال الله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

٥٥٣ - أخبرنا الشيخ أبو علي العسائي الجبائي فيما كتب به إليّ بخطه، حدثنا سراج بن عبدالله القاضي، حدثنا أبو محمد الأصيلي، حدثنا أبو زيد، وأبو أحمد؛ قالوا: حدثنا محمد بن يوسف؛ قال: حدثنا محمد بن إسماعيل؛ قال: حدثنا إسماعيل بن أبان، حدثنا أبو الأحوص، عن آدم بن علي؛ قال: سمعت ابن عمر يقول: إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جُثًّا، كُلُّ أُمَّةٍ تَتَّبِعُ نَبِيَّهَا، يَقُولُونَ: يَا فُلَانُ! اشْفَعْ لَنَا، يَا فُلَانُ! اشْفَعْ لَنَا، حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ [البخاري (٤٧١٨)].

٥٥٤ - وعن أبي هريرة: سئل عنها رسول الله ﷺ، يعني قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، فقال: «هي الشَّفَاعَةُ» [الترمذي (٣١٣٧)، أحمد (٤٤٤/٢)].

٥٥٥ - وروى كعب بن مالك، عنه عليه السلام: «يُخَشِّرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَنَا وَأُمْتِي عَلَى تَلٍّ، وَيَكْسُونِي رَبِّي حُلَّةَ خَضِرَاءَ، ثُمَّ يُؤْذَنُ لِي فَأَقُولُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَقُولَ؛ فَذَلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ» [أحمد (٤٥٦/٣)].

٥٥٦ - وعن ابن عمر رضي الله عنه - وذكر حديث الشَّفَاعَةِ - قال: فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحُلَّةِ الْجَنَّةِ، فَيَوْمُئِذٍ يَبْعَثُهُ اللَّهُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ الَّذِي وَعَدَهُ.

٥٥٧ - وعن ابن مسعود، عنه عليه السلام: إِنَّهُ قِيَامُهُ عَنِ الْيَمِينِ الْعَرْشِ مَقَامًا لَا يَقُومُهُ غَيْرُهُ، يَغِطُهُ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ.

وَنَحْوَهُ عَنْ كَعْبٍ، وَالْحَسَنِ.

٥٥٨ - وفي رواية: «هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي أَشْفَعُ لَأُمَّتِي فِيهِ» [أحمد (٤٤١/٢)، ٥٢٨].

٥٥٩ - وعن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَقَائِمُ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ» قيل: وما هو؟ قال: «ذَلِكَ يَوْمَ يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى كُرْسِيِّهِ...» الحديث.

٥٦٠ - وعن أبي موسى - رضي الله عنه - عنه ﷺ: «خُيِّرْتُ بَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ وَبَيْنَ الشَّفَاعَةِ فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ؛ لِأَنَّهَا أَعَمُّ؛ أَتَرُونَهَا لِلْمُتَّقِينَ؟ لَا، وَلَكِنَهَا لِلْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ» [ابن ماجه (٤٣١١)].

٥٦١ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! ماذا وَرَدَ عَلَيْكَ فِي الشَّفَاعَةِ؟ فقال: «شَفَاعَتِي لِمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا، يَصْدُقُ لِسَانَهُ قَلْبُهُ» [أحمد (٣٠٧/٢)].

٥٦٢ - وعن أم حبيبة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «أَرَيْتُ مَا تَلْقَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي، وَسَفَكَ بَعْضُهُمْ دِمَاءَ بَعْضٍ، وَسَبَقَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا سَبَقَ لِلْأُمَمِ قَبْلَهُمْ؛ فَسَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُؤْتِنِي شَفَاعَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيهِمْ، فَفَعَلَ» [أحمد (٤٢٧/٦) - ٤٢٨].

٥٦٣ - وقال حذيفة: يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ، فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، حَيْثُ يُسْمِعُهُم الدَّاعِيَ، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصْرَ، حُفَاءَ غُرَاةٍ كَمَا خَلَقُوا، سَكُوتًا لَا تَكَلُّمَ نَفْسٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَيُنَادِي: مُحَمَّدًا! فيقول: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، وَالْمُهْتَدِي مَنْ هَدَيْتَ، وَعَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَلَكَ وَإِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، سُبْحَانَكَ رَبِّ الْبَيْتِ، قال: فذلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (١٩٤)].

٥٦٤ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إِذَا دَخَلَ أَهْلُ النَّارِ النَّارَ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَتَبَقَى آخِرُ زُمْرَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ وَآخِرُ زُمْرَةٍ مِنَ النَّارِ؛ فَتَقُولُ زُمْرَةُ النَّارِ لَزُمْرَةِ الْجَنَّةِ: مَا نَفَعَكُمْ إِيْمَانُكُمْ، فَيَدْعُونَ رَبَّهُمْ وَيَضْجُونَ، فَيَسْمَعُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، فَيَسْأَلُونَ آدَمَ وَغَيْرَهُ بَعْدَهُ فِي الشَّفَاعَةِ لَهُمْ؛ فَكُلُّ يَعْتَذِرُ حَتَّى يَأْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَشْفَعُ لَهُمْ، فَذلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ.

٥٦٥ - ونحوه عن ابن مسعود أيضاً، ومجاهد.

٥٦٦ - وذكره علي بن الحسين عن النبي ﷺ.

٥٦٧ - وقال جابر بن عبد الله لِيَزِيدَ الْفَقِيرِ: سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ؟ يعني الذي يبعثه الله فيه.

قال: نعم. قال: فإنه مقام محمد المحمود الذي يُخرج الله به مَنْ يُخرج - يعني من النار - وذكر حديث الشفاعة في إخراج الجَهَنَّمِيِّينَ [مسلم (٣٢٠/١٩١)].

٥٦٨ - وعن أنس نحوه [البخاري (٤٤)]، مسلم (١٩٣)، وقال: فهذا المقام المحمود الذي وُعِدَ [أحمد (٣/ ٢٤٤ - ٢٤٥)].

٥٦٩ - وعن سلمان: المقام المحمود هو الشفاعة في أمته يوم القيامة.

٥٧٠ - ومثله عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال قتادة: كان أهل العلم يرون المقام المحمود هو شفاعته يوم القيامة. وعلى أن المقام المحمود مقامه - عليه الصلاة والسلام - للشفاعة مذاهب السلف من الصحابة والتابعين وعامة أئمة المسلمين. وبذلك جاءت الشفاعة مفسرة في صحيح الأخبار عنه عليه الصلاة والسلام. وجاءت مقالة في تفسيرها شاذة عن بعض السلف، يجب ألا تثبت، إذا لم يعضدها صحيح أثر، ولا سند نظر.

ولو صححت لكان لها تأويل غير مستنكر؛ لكن ما فسرته النبي ﷺ في صحيح الآثار يرده؛ فلا يجب أن يلتفت إليه، مع أنه لم يأت في كتاب ولا سنة، ولا اتفق على المقال أمة؛ وفي إطلاق ظاهره مُنكّر من القول وشنعة.

٥٧١ - وفي رواية أنس وأبي هريرة وغيرهما - دخل حديث بعضهم على بعض - قال ﷺ: «يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة فيهتمون - أو قال: فيلهمون - فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا» [البخاري (٤٤)] مسلم (٣٢٢/١٩٣).

٥٧٢ - ومن طريق آخر عنه: «ماج الناس بعضهم في بعض» [البخاري (٧٥١٠)] مسلم (٣٢٦/١٩٣).

٥٧٣ - وعن أبي هريرة: «وتذنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم ما لا يطيقون ولا يحتملون؛ فيقولون: ألا تنظرون من يشفع لكم؟ فيأتون آدم فيقولون - زاد بعضهم -: أنت آدم أبو البشر، خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء. اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا؛ ألا ترى ما نحن فيه؟

فيقول: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، نهاني عن الشجرة فعصيت؛ نفسي، نفسي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً فيقولون: أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً

شُكُوراً، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا بَلَّغْنَا؟ أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ فيقول: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي، نَفْسِي» [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (١٩٤)].

٥٧٤ - قال - في رواية أنس: «ويذكر خطيئته التي أصاب: سؤاله ربه بغير علم» [البخاري (٧٤٤٠)، مسلم (١٩٣)].

٥٧٥ - وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه: «وقد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، اذهبوا إلى غيري. اذهبوا إلى إبراهيم؛ فإنه خليل الله. فيأتون إبراهيم، فيقولون: أنت نبي الله وخليئه من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟

فيقول: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً - وذكر مثله - ويذكر ثلاث كلمات كَذَبَهُنَّ، نَفْسِي، نَفْسِي، لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى؛ فإنه كَلِيمُ اللَّهِ» [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (١٩٤)].

٥٧٦ - وفي رواية: «فإنه عبد آتاه الله التوراة، وكلمه وقربه نحيباً» [البخاري (٧٤٤٠)، أحمد (٢٤٤/٣)].

٥٧٧ - قال: «فيأتون موسى؛ فيقول: لست لها، ويذكر خطيئته التي أصاب، وقَتَلَهُ النَّفْسَ، نَفْسِي، نَفْسِي، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى؛ فإنه رُوحُ اللَّهِ وكلمته.

فيأتون عيسى؛ فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فأوتى، فأقول: أنا لها.

فأنطلق، فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا رأيته وقفتُ ساجداً» [البخاري (٧٥١٠)، مسلم (٣٢٦/١٩٣)].

٥٧٨ - وفي رواية: «فأتي تحت العرش، فأخِرُ ساجداً» [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (٣٢٧/١٩٤)].

٥٧٩ - وفي رواية: «فأقوم بين يديه، فأحمده بمحامد لا أقدر عليها إلا أن يُلْهِمَنيها الله» [البخاري (٧٥١٠)، مسلم (٣٢٦/١٩٣)].

٥٨٠ - وفي رواية: «فيفتح الله علي من محامده، وحسن الشاء عليه شيئاً لم يفتح على أحد قبلي».

قال - في رواية أبي هريرة -: «فيقال: يا محمد! ارفع رأسك، سل ثغطة،

وَأَشْفَعُ تَشْفَعُ؛ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: يَا رَبُّ! أُمْتِي؛ يَا رَبُّ! أُمْتِي. فيقول: أَدْخِلْ
مَنْ أَمْتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْيَمِينِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ؛ وَهُمْ شُرَكَاءُ
النَّاسِ فِي مَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (٣٢٧/١٩٤)].

٥٨١ - وَلَمْ يَذْكُرْ فِي رِوَايَةِ أَنَسٍ هَذَا الْفَضْلَ، وَقَالَ مَكَانَهُ: «ثُمَّ أُخِرُّ
سَاجِدًا؛ فَيَقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ! ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَأَشْفَعُ تَشْفَعُ، وَسَلِّ
تُعْطَى. فَأَقُولُ: يَا رَبُّ! أُمْتِي، أُمْتِي. فيقال: انْطَلِقْ، فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ
مِنْ بُرَّةٍ أَوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأُخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ.

ثُمَّ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّي، فَأُحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ...» وَذَكَرَ مِثْلَ الْأَوَّلِ؛ وَقَالَ
فِيهِ: «مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَزْدَلٍ. قَالَ: فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَرْجِعْ...» وَذَكَرَ مِثْلَ مَا تَقَدَّمَ، وَقَالَ
فِيهِ: «مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَزْدَلٍ؛ فَأَفْعَلُ».
وَذَكَرَ فِي الْمَرَّةِ الرَّابِعَةِ: «فَيَقَالُ لِي: ازْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ، وَأَشْفَعُ
تَشْفَعُ، وَسَلِّ تَعْطَى».

فيقول: «يَا رَبُّ! ائْذَنْ لِي فَيَمْنُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ
إِلَيْكَ.

وَلَكِنْ وَعِزَّتِي! وَكِبْرِيَايَ! وَعِظْمَتِي! وَجَبْرِيَايَ! لِأُخْرِجَنَّ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ:
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» [البخاري (٧٥١٠)، مسلم (٣٢٦/١٩٣)].

٥٨٢ - وَفِي رِوَايَةِ قَتَادَةَ عَنْهُ؛ قَالَ: فَلَا أَدْرِي فِي الثَّلَاثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ: «فَأَقُولُ:
يَا رَبُّ! مَا يَبْقَى فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ» [البخاري (٤٤٧٦)، مسلم (٣٢٢/١٩٣)]
أَيَّ وَجِبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ.

٥٨٣ وَحَتَّى ٥٨٦ - وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ، وَعُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَأَبِي سَعِيدٍ [التِّرْمِذِيُّ
(٣١٤٨)]، وَخُذَيْفَةُ مِثْلَهُ [مُسْلِمٌ (١٩٥)]؛ قَالَ: «فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتَأْتِي الْأَمَانَةُ
وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنَّتِي الصِّرَاطُ».

وَذَكَرَ فِي رِوَايَةِ أَبِي مَالِكٍ عَنْ حَذِيفَةَ: «فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَشْفَعُ؛ فَيُضْرَبُ
الصِّرَاطُ، فَيَمْرُونَ: أَوْلَهُمْ كَالْبَرْقِ، ثُمَّ كَالزَّيْحِ، وَالطَّيْرِ، وَشَدَّ الرِّجَالِ، وَنَبِيَّكُمْ ﷺ
عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ! سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى يَخْتَارَ النَّاسُ. وَذَكَرَ آخِرَهُمْ
جَوَازًا...» الْحَدِيثُ.

٥٨٧ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ» [البخاري (٨٠٦)، مسلم
(١٨٢)].

٥٨٨ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْهُ ﷺ: «يُوضَعُ لِلْأَنْبِيَاءِ مَنَابِرُ يَجْلِسُونَ عَلَيْهَا،

وَيَبْقَى مُنْبِرِي لَا أَجْلِس عَلَيْهِ، قَائِمًا بَيْنَ يَدَي رَبِّي مُنْتَصِبًا، فيقول الله تبارك وتعالى: مَا تُرِيدُ أَنْ أَصْنَعَ بِأَمْتِكَ؟ فأقول: يَا رَبِّ! عَجِّلْ حَسَابَهُمْ، فَيُذْعَى بِهِمْ، فَيَحَاسِبُونَ.

فمنهم مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ، ومنهم مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِي، وَلَا أَرَأَى أَشْفَعَ حَتَّى أُعْطِيَ صِكَكَاءَ بَرَجَالٍ قَدْ أَمَرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، حَتَّى إِنَّ خَازِنَ النَّارِ لَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدًا مَا تَرَكْتَ لِقَضْبِ رَبِّكَ فِي أَمْتِكَ مِنْ نِقْمَةٍ.

٥٨٩ - ومن طريق زِيَادِ الثُّمَيْرِي، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْفَلِقُ الْأَرْضَ عَنْ جُنْجَمَتِهِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَمَعِيَ لَوَاءُ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَفْتَحُ لَهُ الْجَنَّةَ وَلَا فَخْرَ، فَآتِي فَأَخْذُ بِحُلْقَةِ الْجَنَّةِ، فيقالُ: مَنْ هَذَا؟ فأقول: مُحَمَّدٌ؛ فَيَفْتَحُ لِي، فَيَسْتَقْبِلُنِي الْجَبَّارُ تَعَالَى، فَأَخِزُّ لَهُ سَاجِدًا...» [أحمد (١٤٤/٣)] وذكر نحو ما تقدّم.

٥٩٠ - ومن رواية أَنَسٍ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَأَشْفَعَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَكْثَرِ مِمَّا فِي الْأَرْضِ مِنْ حَجَرٍ وَشَجَرٍ» [أحمد (٣٤٧/٥)].

فقد اجتمع من اختلافِ أَلْفَاظِ هَذِهِ الْأَثَارِ أَنَّ شَفَاعَتَهُ - ﷺ - وَمَقَامَهُ الْمَحْمُودَ مِنْ أَوَّلِ الشَّفَاعَاتِ إِلَى آخِرِهَا، مِنْ حِينَ يَجْتَمِعُ النَّاسُ لِلْحُشْرِ، وَتَضِيقُ بِهِمُ الْحَنَاجِرُ، وَيَبْلُغُ مِنْهُمْ الْعَرَقُ وَالشَّمْسُ وَالْوُقُوفُ مَبْلَغَهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ الْحِسَابِ، فَيَشْفَعُ حَيْثُ لَا رَاحَةَ لِلنَّاسِ مِنَ الْمَوْقِفِ، ثُمَّ يُوضَعُ الصُّرَاطُ، وَيَحَاسِبُ النَّاسُ - كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَخُذِيفَةَ - وَهَذَا الْحَدِيثُ أَثَقَنَ. فَيَشْفَعُ فِي تَعْجِيلِ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ أَمَتِهِ إِلَى الْجَنَّةِ - كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ - ثُمَّ يَشْفَعُ فِيمَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ الْعَذَابُ، وَدَخَلَ النَّارَ مِنْهُمْ حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ، ثُمَّ فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَلَيْسَ هَذَا لِسِوَاهُ ﷺ.

٥٩١ - وَفِي الْحَدِيثِ الْمُنْتَشَرِ الصَّحِيحِ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ يَدْعُو بِهَا، وَاخْتِبَاتٌ دَعَوَتِي شَفَاعَةً لِأَمْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: مَعْنَاهُ دَعْوَةٌ أَعْلِمَ أَنَّهَا تُسْتَجَابُ لَهُمْ، وَيَبْلُغُ فِيهَا مَرْغُوبُهُمْ، وَإِلَّا فَكَمْ لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْهُمْ مِنْ دَعْوَةٍ مُسْتَجَابَةٍ، وَلِنَبِيِّنَا ﷺ مِنْهَا مَا لَا يُعَدُّ؛ لَكِنْ حَالُهُمْ عِنْدَ الدَّعَاءِ بِهَا بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، وَضُمِنَتْ لَهُمْ إِجَابَةُ دَعْوَةٍ فِيمَنْ شَاوَوْهُ، يَدْعُونَ بِهَا عَلَى يَقِينٍ مِنَ الْإِجَابَةِ.

٥٩٢ - وَقَدْ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ زِيَادٍ، وَأَبُو صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ دَعَا بِهَا فِي أَمْتِهِ، فَاسْتَجِيبَ لَهُ؛ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ

أَوْخَر، دَعَوْتِي شَفَاعَةً لَأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [مسلم (٣٤٠/١٩٩)، البخاري (٦٣٠٤، ٧٤٧٤)].
٥٩٣ - وفي رواية أَبِي صَالِحٍ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ» [مسلم (٣٣٨/١٩٩)].

٥٩٤ - ونحوه في رواية أَبِي زُرْعَةَ عن أَبِي هُرَيْرَةَ [مسلم (٣٣٩/١٩٩)].

٥٩٥ - وعن أَنَسٍ [البخاري (٦٣٠٥)، مسلم (٢٠٠)] مِثْلُ رِوَايَةِ ابْنِ زِيَادٍ، عَنْ

أَبِي هُرَيْرَةَ.

فَتَكُونُ هَذِهِ الدَّعْوَةُ الْمَذْكُورَةُ مَخْصُوصَةً بِالْأُمَّةِ؛ مَضْمُونَةُ الْإِجَابَةِ؛ وَإِلَّا فَقَدْ أَخْبَرَ ﷺ أَنَّهُ سَأَلَ لَأُمَّتِهِ أَشْيَاءَ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا أُعْطِيَ بَعْضُهَا، وَمُنِعَ بَعْضُهَا، وَآخِرُ لَهَا هَذِهِ الدَّعْوَةُ لِيَوْمِ الْفَاقَةِ، وَخَاتَمَةُ الْمِحْنِ، وَعَظِيمُ السُّؤَالِ وَالرَّغْبَةِ.

جَزَاءُ اللَّهِ أَحْسَنَ مَا جَزَى نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيرًا.

فصل

فِي تَفْضِيلِهِ فِي الْجَنَّةِ بِالْوَسِيلَةِ وَالدرَجَةِ الرَّفِيعَةِ وَالْكَوْثَرِ وَالْفَضِيلَةِ

٥٩٦ - حَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: مُحَمَّدُ بْنُ عِيْسَى التَّمِيمِيُّ، وَالْفَقِيه أَبُو الْوَلِيدِ: هِشَامُ بْنُ أَحْمَدَ، بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ؛ قَالَا: حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الْغَسَّانِيُّ، حَدَّثَنَا الثَّمَرِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ التَّمَارُ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ ابْنِ لَهْيَعَةَ، وَحَيْوَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ أَبِي أَيُّوبَ، عَنْ كَعْبِ بْنِ عُلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ - ﷺ - يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا؛ ثُمَّ سَلُّوا اللَّهَ تَعَالَى لِي الْوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ؛ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ» [مسلم (٣٨٤)، أَبُو دَاوُدَ (٥٢٣)].

٥٩٧ - وفي حديث آخر، عن أَبِي هُرَيْرَةَ: «الْوَسِيلَةُ أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ»

[الترمذي (٣٦١٢)].

٥٩٨ - وعن أَنَسٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ إِذْ عَرَضَ

لِي نَهْرٌ حَافَتَاهُ قِيَابُ اللَّوْلُؤِ.

قُلْتُ لَجِبْرِيلَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَهُ اللَّهُ. قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ

بيده إلى طينهِ، فاستخرج مِنْكَ» [البخاري (٦٥٨١)، مسلم (٤٠٠)، الترمذي (٣٣٦٠)].

٥٩٩، ٦٠٠ - وعن عائشة [البخاري (٤٩٦٥)] وعبدالله بن عمر مثله. قال:

«ومَجْرَاهُ عَلَى الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ» [الترمذي

(٣٣٦١)، ابن ماجه (٤٣٣٤)، أحمد (١١٢/٢)].

٦٠١ - وفي رواية، عنه: «فَإِذَا هُوَ يَجْرِي، وَلَمْ يَشُقْ شَقًّا، عَلَيْهِ حَوْضٌ تَرُدُّ

عَلَيْهِ أُمْتِي...» [أحمد (٢٤٧/٣)]، وذكر حديثَ الْحَوْضِ.

٦٠٢ - ونحوه عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

٦٠٣ - وعن ابن عباس أيضاً، قال: الْكَوْثَرُ: الْخَيْرُ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ

[البخاري (٦٥٧٨)].

٦٠٤ - وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: وَالنَّهْرُ الَّذِي فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي

أَعْطَاهُ اللَّهُ [البخاري (٦٥٧٨)].

٦٠٥ - وَعَنْ حُدَيْفَةَ، فِيمَا ذَكَرَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَنْ رَبِّهِ: «وَأَعْطَانِي الْكَوْثَرَ،

وَهُوَ نَهْرٌ مِنَ الْجَنَّةِ، يَسِيلُ فِي حَوْضِي».

٦٠٦ - وعن ابن عباس: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَىٰ ۖ﴾ ﴿٥﴾

[الضحى: ٥]؛ قَالَ: أَلَفْتُ قَصْرَ مَنْ لَوْلُو، تُرَابُهُنَّ الْمِسْكُ، وَفِيهِ مَا يُضْلِحُهُنَّ. وَفِي

رَوَايَةٍ أُخْرَى: وَفِيهِ مَا يَنْبَغِي لَهُ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْخَدَمِ.

فصل

فِي مَعْنَى الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ بِنَهْيِهِ ﷺ

عَنْ تَفْضِيلِهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ

٦٠٧ - فَإِنْ قُلْتُ: إِذَا تَقَرَّرَ مِنْ دَلِيلِ الْقُرْآنِ، وَصَحِيحِ الْأَثَرِ، وَاجْتِمَاعِ الْأُمَّةِ

- كَوْنُهُ أَكْرَمَ الْبَشَرِ، وَأَفْضَلَ الْأَنْبِيَاءِ - فَمَا مَعْنَى الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ بِنَهْيِهِ عَنْ

التَفْضِيلِ؟ كَقَوْلِهِ - فِيمَا حَدَّثَنَا الْأَسَدِيُّ - قَالَ: حَدَّثَنَا السَّمَرَقَنْدِيُّ، حَدَّثَنَا الْفَارَسِيُّ،

حَدَّثَنَا الْجُلُودِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ سَفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنَا ابْنُ مُثَنَّى، حَدَّثَنَا

مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ: سَمِعْتُ أَبَا الْعَالِيَةِ يَقُولُ: حَدَّثَنِي ابْنُ

عَمِّ نَبِيِّكُمْ ﷺ - يَعْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَ: «مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ

يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُوْنُسَ بْنِ مَتَّى» [مسلم (٢٣٧٧)، البخاري (٣٤١٣)].

٦٠٨ - وَفِي غَيْرِ هَذَا الطَّرِيقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ

- يَعْنِي اللَّهُ -: «مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ...» الْحَدِيثُ [مسلم (٢٣٧٦)، البخاري (٣٤١٦)].

٦٠٩ - وفي حديث أبي هريرة، في اليهودي الذي قال: والذي اصطفى موسى على البشر! فلطمه رجل من الأنصار، وقال: تقول ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟

فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «لا تفضلوا بين الأنبياء».

٦١٠ - وفي رواية: «لا تخيروني على موسى» فذكر الحديث.

٦١١ - وفيه: «ولا أقول: إن أحداً أفضل من يونس بن متى» [البخاري

(٣٤١٥)، مسلم (١٥٩/٢٤٧٣)].

٦١٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «من قال: أنا خير من يونس بن

متى فقد كذب» [البخاري (٤٦٠٤، ٤٨٠٥)].

٦١٣ - وعن ابن مسعود: «لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن متى»

[البخاري (٣٤١٢)].

٦١٤ - وفي حديثه الآخر: فجاءه ﷺ رجل، فقال له: يا خير البرية!

فقال: «ذاك إبراهيم» [مسلم (٢٣٦٩)].

فاعلم أن للعلماء في هذه الأحاديث تأويلات:

أحدها: أن نهيه عن التفضيل كان قبل أن يعلم أنه سيّد ولد آدم؛ فنهى عن

التفضيل؛ إذ يحتاج إلى توقيف؛ وأن من فضل بلا علم فقد كذب.

٦١٥ - وكذلك قوله: «لا أقول إن أحداً أفضل منه» لا يقتضي تفضيله هو؛

وإنما هو في الظاهر كف عن التفضيل.

الوجه الثاني: أنه قاله ﷺ على طريق التواضع، ونفي التكبر والعجب.

وهذا لا يسلم من الاعتراض.

الوجه الثالث: ألا يفضل بينهم تفضيلاً يؤدي إلى تنقص بعضهم، أو الغرض

منه، لا سيما في جهة يونس عليه السلام؛ إذ أخبر الله عنه بما أخبر لئلا يقع في

نفس من لا يعلم منه بذلك غصاصة وانحطاط من رتبته الرفيعة؛ إذ قال تعالى

عنه: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿٧٦﴾ [الصافات: ١٤٠]، ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ

أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فربما يخيل لمن لا علم عنده خطيئته، بذلك.

الوجه الرابع: منع التفضيل في حق النبوة والرسالة؛ فإن الأنبياء فيها على

حد واحد؛ إذ هي شيء واحد لا يتفاضل؛ وإنما التفاضل في زيادة الأحوال

والخصوص، والكرامات، والرتب، والألطف؛ وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل؛

وإنما التفاضل بأمور آخر زائدة عليها؛ ولذلك منهم رسل، ومنهم أولو عزم من

الرسول؛ ومنهم مَنْ رُفِعَ مكاناً عليّاً؛ ومنهم مَنْ أُوتِيَ الْحُكْمَ صَبِيّاً؛ وأُوتِيَ بعضهم الرُّبْرُ، وبعضهم البَيِّنَاتِ، ومنهم مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ؛ ورفع بعضهم فوق بعض درجاتٍ، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

وقال: ﴿تِلْكَ أَلْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾ الآية [البقرة: ٢٥٣].

قال بعضُ أهل العلم: والتفضيل المرادُ لهم هنا في الدنيا؛ وذلك بثلاثة أحوال: أن تكونَ آيَّاته ومعجزاته أبهرَ، وأشهرَ؛ أو تكونَ أمته أزكى وأكثرَ؛ أو يكون في ذاته أفضل وأطهر، وفضله في ذاته راجعٌ إلى ما خصه الله به من كرامته، واختصاصه من كلام، أو خُلة، أو رؤية، أو ما شاء الله من الطافه، وتُحَفِّب ولايته، واختصاصه.

٦١٦ - وقد رُوي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ لِلنَّبِوَةِ أَثْقَالَ؛ وَإِنَّ يُونُسَ تَفَسَّخَ مِنْهَا تَفَسَّخَ الرَّيْعِ» فحفظَ رسولُ الله ﷺ مَوْضِعَ الْفِتْنَةِ، مِنْ أَوْهَامٍ مَنْ يَسْبِقُ إِلَيْهِ بِسَبَبِهَا جَزَخَ فِي نُبُوَّتِهِ، أَوْ قَذَخَ فِي اضْطِغَائِهِ، وَحَطَّ مِنْ رُتْبَتِهِ، وَوَهَنَ فِي عَصَمَتِهِ، شَفَقَةً مِنْهُ - ﷺ - عَلَى أَمَتِهِ.

وقد يتوجَّه - على هذا الترتيب - وَجْهٌ خامس؛ وهو أن يكون «أنا» راجعاً إلى القائل نفسه؛ أي لا يظنُّ أحدٌ - وإن بلغ من الذكاء والعُصْمَةِ والطهارة، ما بلغ - أنه خَيْرٌ من يونس، لأجل ما حَكَى اللَّهُ عنه، فَإِنَّ دَرَجَةَ النَّبِوَةِ أَفْضَلُ وَأَعْلَى، وَإِنَّ تِلْكَ الْأَقْدَارَ لَمْ تَحْطَ، عَنْهَا حَبَّةٌ خَزْدَلٍ وَلَا أَدْنَى.

وستزيد في القسم الثالث من هذا بياناً. إن شاء الله تعالى.

فقد بان لك الغَرَضُ، وسقط بما حرزناه شُبُهَةُ الْمُغْتَرِضِ وبالله التوفيق، وهو المستعان، لا إله إلا هو.

فصل

فِي أَسْمَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ تَفْضِيلِهِ

٦١٧ - حدثنا أبو عمران: موسى بن أبي تليد الفقيه؛ قال: حدثنا أبو عَمَرَ الحافظ، حدثنا سَعِيد بن نصر، حدثنا قاسم بن أَصْبَغ، حدثنا محمد بن وَضَّاح، حدثنا يحيى، حدثنا مالك، عن ابن شهاب، عن محمد بن جُبَيْر بن مُطْعِم، عن أبيه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ، وأنا الحاشِرُ الذي يُخَشِّرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي، وأنا العاقِبُ» [البخاري (٣٥٣٢)، مسلم (١٢٥/٢٣٥٤)].

وقد سماه الله تعالى في كتابه محمداً، وأحمد.
فمن خصائصه تعالى له أن ضمَّنَ أسماءه ثناءه؛ وطوى أثناء ذكره عظيم
شكره.

فأما اسمه أحمد: فأفعل، مبالغة من صفة الحمد.
ومحمد: مفعَّل، مبالغة من كثرة الحمد؛ فهو - ﷺ - أجل من حمد
وأفضل من حمد، وأكثر الناس حمداً؛ فهو أحمَدُ المحمودين، وأحمدُ الحامدين،
ومعه لواء الحمد يوم القيامة ليتَّم له كمالُ الحمد، ويتشَّهر في تلك العرصات
بصفة الحمد، ويبعثه ربُّه هناك مقاماً محموداً كما وعده؛ يحمده فيه الأولون
والآخرون بشفاعته لهم.

٦١٨ - ويُفتح عليه فيه من المحامد - كما قال ﷺ - ما لم يُعط غيره.
٦١٨م - وسمَّى أمته في كتب أنبيائه بالحمادين؛ فحقيق أن يسمَّى محمداً
وأحمد.

ثم في هذه الاسمين من عجائب خصائصه، وبدائع آياته - فنَّ آخر؛ وهو
أنَّ الله جلَّ اسمه حمى أن يسمَّى بهما أحدٌ قبل زمانه.
وأما أحمدُ الذي أتى في الكتب وبشَّرت به الأنبياء فمنع الله تعالى بحكمته
أن يسمَّى به أحدٌ غيره، ولا يُدعى به مدعو قَبْلَه حتى لا يدخل لبسٌ على ضَعِيفِ
القلب أو شك.

وكذلك محمد أيضاً لم يُسمَّ به أحدٌ من العرب، ولا غيرهم، إلى أن شاع
قُبيل وجوده - ﷺ - وميلاده أن نَبِيّاً يُنعتُ اسمه محمد؛ فسمَّى قومٌ قليلٌ من
العرب أبناءهم بذلك؛ رجاء أن يكون أحدُهم هو. والله أعلمُ حيث يجعلُ
رسالاته؛ وهم: محمد بنُ أُخَيْدَةَ بن الجُلاح الأوسي، ومحمد بنُ مَسْلَمَةَ
الأنصاري، ومحمد بنُ بَرَاءِ البكري، ومحمد بنُ سُفْيَانَ بن مُجَاشِع، ومحمد بن
حُمران الجُعفي، ومحمد بن خزاعي السُّلَمي، لا سابعَ لهم.

ويقال: أول مَنْ تسمَّى بمحمدٍ مُحَمَّدُ بنُ سُفْيَانَ. واليمنُ تقول: بل
محمد بن اليَحْمَد، من الأزد.

ثم حمى الله كلَّ مَنْ تسمَّى به أن يدَّعي النبوة أو يدَّعيها أحدٌ له، أو
يظهر عليه سببُ يشكُّ أحداً في أمره حتى تحققت السُّمَتان له ﷺ، ولم يَنازِعْ
فيهما.

وأما قوله ﷺ: «وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الكُفْرَ» ففسِّر في الحديث.

ويكون مَخَوُ الكُفْرِ إِمَّا مِنْ مَكَّةَ وَبِلَادِ الْعَرَبِ؛ وَمَا زُويَ لَهُ مِنَ الْأَرْضِ، وَوُعِدَ أَنَّهُ يَبْلُغُهُ مُلْكُ أُمَّتِهِ؛ أَوْ يَكُونُ الْمَخَوُ عَامًّا، بِمَعْنَى الظُّهُورِ وَالْعَلْبَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣].

٦١٩ - وَقَدْ وَرَدَ تَفْسِيرُهُ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّهُ الَّذِي مُجِيتُ بِهِ سَيِّئَاتُ مَنْ أَتْبَعَهُ. وَقَوْلُهُ: «وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُخَشِّرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي» أَيِ عَلَى زَمَانِي وَعَهْدِي؛ أَيِ لَيْسَ بَعْدِي نَبِيٌّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وَسُمِّيَ عَاقِبًا؛ لِأَنَّهُ عَقَبَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ.

٦٢٠ - وَفِي الصَّحِيحِ: «أَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدِي نَبِيٌّ» [مُسْلِم].

وَقِيلَ: مَعْنَى «عَلَى قَدَمِي» أَيِ: يُخَشِّرُ النَّاسَ بِمُشَاهَدَتِي؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وَقِيلَ: «عَلَى قَدَمِي» عَلَى سَابِقَتِي؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَن لَّهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

وَقِيلَ: «عَلَى قَدَمِي» أَيِ قُدَامِي، وَخَوَلِي؛ أَيِ يَجْتَمِعُونَ إِلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقِيلَ: «عَلَى قَدَمِي» عَلَى سُنَّتِي. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءَ» قِيلَ: إِنَّهَا مُوجُودَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمَتَّقِمَةِ، وَعِنْدَ أُولَى الْعِلْمِ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

٦٢١ - وَقَدْ زُويَ عَنْهُ ﷺ: «لِي عَشْرَةُ أَسْمَاءَ» وَذَكَرَ مِنْهَا: ﴿طه﴾ و ﴿يس﴾؛ خُكَاةٌ مَكِّيَّةٌ.

وَقَدْ قِيلَ فِي بَعْضِ تَفَاسِيرِ ﴿طه﴾: «إِنَّهُ يَا طَاهِرُ! يَا هَادِي! وَفِي ﴿يس﴾ يَا سَيِّدُ! حُكَاةٌ السُّلَمِيِّ عَنِ الْوَاسِطِيِّ، وَجَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ. وَذَكَرَ غَيْرُهُ: «لِي عَشْرَةُ أَسْمَاءَ» فَذَكَرَ الْخَمْسَةَ الَّتِي فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ؛ قَالَ: «وَأَنَا رَسُولُ الرَّحْمَةِ، وَرَسُولُ الرَّاحَةِ، وَرَسُولُ الْمَلَاجِمِ». ٦٢٢ م - «وَأَنَا الْمُقَفِّي، قَفَّيْتُ النَّبِيِّينَ».

٦٢٣ - «وَأَنَا قَيِّمٌ» وَالْقَيِّمُ: الْجَامِعُ الْكَامِلُ؛ كَذَا وَجَدْتُهُ، وَلَمْ أَزَوْهِ. وَأَرَى أَنَّ صَوَابَهُ قُتِمَ - بِالشَّاءِ - كَمَا ذَكَرْنَاهُ بَعْدَ عَنِ الْحَرَبِيِّ؛ وَهُوَ أَشْبَهُ بِالْتَفْسِيرِ.

وَقَدْ وَقَعَ أَيْضًا فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ: قَالَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اللَّهُمَّ! ابْعَثْ لَنَا مُحَمَّدًا مُقَيِّمَ السَّنَةِ بَعْدَ الْفَتْرَةِ؛ فَقَدْ يَكُونُ الْقَيِّمُ بِمَعْنَاهُ.

٦٢٤ - وَرَوَى النَّقَّاشُ عَنْهُ ﷺ: «لِي فِي الْقُرْآنِ سَبْعَةُ أَسْمَاءَ: مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَيَسٌ، وَطَهٌ، وَالْمَدَثَرُ، وَالْمَزْمَلُ، وَعَبْدُ اللَّهِ».

٦٢٥ - وَفِي حَدِيثٍ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَهِيَ سِتٌّ: مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَخَاتَمٌ، وَعَاقِبٌ، وَحَاشِرٌ، وَمَاحٌ».

٦٢٦ - وَفِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، أَنَّهُ كَانَ ﷺ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً، فَيَقُولُ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ» [مسلم (٢٣٥٥)].

وَيُرَوَّى: «الْمَرْحَمَةُ» وَ «الرَّاحَةُ».

وَكُلُّ صَحِيحٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَمَعْنَى «الْمُقَفِّي» مَعْنَى «الْعَاقِب».

وَأَمَّا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَالتَّوْبَةِ، وَالْمَرْحَمَةِ، وَالرَّاحَةِ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وَكَمَا وَصَفَهُ بِأَنَّهُ يَزْكِيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالحِكْمَةَ. وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَ «بِالْمُؤْمِنِينَ رِءُوفٌ رَّحِيمٌ» [التوبة: ١٢٨].

٦٢٧ - وَقَدْ قَالَ فِي صِفَةِ أُمَّتِهِ إِنَّهَا: «أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ» [أبو داود (٤٢٧٨)].

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَتَوَّاصَوْا بِالْقَبْرِ وَتَوَّاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]؛ أَيْ يَرْحَمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ فَبِعَثَةِ ﷺ - رَبُّهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِأُمَّتِهِ، وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَرَحِيمًا بِهِمْ، وَمُتَرَحِّمًا وَمُسْتَعْفِرًا لَهُمْ، وَجَعَلَ أُمَّتَهُ مَرْحُومَةً، وَوَصَفَهَا بِالرَّحْمَةِ.

٦٢٨ - وَأَمَرَهَا ﷺ بِالْتَّرَاحُمِ، وَأَتْنَى عَلَيْهِ؛ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَجِبُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءُ» [البخاري (٧٤٤٨)، مسلم (٩٢٣)].

٦٢٩ - وَقَالَ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ. ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ» [أبو داود (٤٩٤١)، الترمذي (١٩٢٤)، أحمد (١٦٠/٢)].

وَأَمَّا رَوَايَةُ «نَبِيِّ الْمَلْحَمَةِ» فإِشَارَةٌ إِلَى مَا بُعِثَ بِهِ مِنَ الْقِتَالِ وَالسِّيفِ ﷺ؛ وَهِيَ صَحِيحَةٌ.

٦٣٠ - وَعَنْ حُدَيْفَةَ مِثْلُ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى، وَفِيهِ: «وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الْمَلْحَمِ».

٦٣١ - وَرَوَى الْحَزْبِيُّ فِي حَدِيثِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «أَتَانِي مَلَكٌ، فَقَالَ لِي: أَنْتَ قُتِّمٌ أَيْ مُجْتَمِعٌ. قَالَ: وَالْقُتْمُ: الْجَامِعُ لِلْخَيْرِ؛ وَهَذَا اسْمٌ هُوَ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعْلُومٌ.

وقد جاءت من ألقابه - ﷺ - وسماته في القرآن عدّة كثيرة سوى ما ذكرناه؛
 كالنور، والسراج المنير، والمُنذِر، والتّذير، والمبشّر، والبشير، والشاهد،
 والشهيد، والحقّ المُبين، وخاتم النبيّين، والرؤوف الرّحيم، والأمين، وقَدَم
 الصدق، ورّحمة العالمين، ونعمة الله، والعروة الوثقى، والصّراط المستقيم،
 والتّنجيم الثّاقب، والكريم، والنبيّ الأميّ، وداعي الله، في أوصاف كثيرة، وسمات
 جليّة.

وجرى منها في كُتب الله المتقدّمة، وكُتب أنبيائه، وأحاديث رسوله،
 وإطلاق الأمة جملة شافية؛ كتسميته بالمُضطّفى، والمُجتبى، وأبي القاسم،
 والحبيب، ورسول ربّ العالمين، والشفيع المُشفّع، والمُتقي، والمُصلح،
 والطاهر، والمُهَيّمين، والصادق، والمصدّق، والهادي، وسيد ولد آدم، وسيد
 المرسلين، وإمام المتّقين، وقائد الغرّ المُحجّلين، وحبيب الله وخليل الرحمن
 وصاحب الحوض المورود، والشفاعة، والمقام المحمود، وصاحب الوسيلة،
 والفضيلة، والدّرجة الرفيعة، وصاحب التاج، والمِغراج، واللواء، والقضيب،
 وراكب البَراق؛ والناقة، والتّجيب، وصاحب الحُجّة والسلطان، والخاتم،
 والعلامة، والبُرّهان، وصاحب الهراوة والتّغليّن.

ومن أسمائه في الكُتب: المتوكّل، والمختار، ومقيم السنّة، والمُقدّس،
 وروح القدس وروح الحق؛ وهو معنى البارقُليط في الإنجيل.

وقال ثعلب: البارقُليط: الذي يفرّق بين الحقّ والباطل.

ومن أسمائه في الكتب السالفة؛ ماذ ماذ؛ ومعناه طيّب، طيّب، وخمّطايا،
 والخاتم، والحاتم؛ حكاه كعب الأخبار.

قال ثعلب: فالخاتم الذي ختم الله به الأنبياء. والحاتم: أحسن الأنبياء خلقاً
 وخلقاً.

ويسمى بالسريانية: مُشَقَّح، والمُنَحِمَتًا؛ واسمه أيضاً في التوراة أُحِيد. روي
 ذلك عن ابن سيرين.

ومعنى صاحب القضيب؛ أي السيف؛ وقع ذلك مفسّراً في الإنجيل؛ قال:
 معه قَضيْب مِنْ حَدِيد يقاتِلُ به، وأُمَّتُهُ كذلك.

وقد يحمل على أنه القضيب الممشوق الذي كان يُمسِكُهُ ﷺ؛ وهو الآن
 عند الخلفاء.

٦٣٢ - وأما الهِرَاوَة التي وُصِفَ بها فهي - في اللغة - العصا؛ وأراها - والله أعلم - العصا المذكورة في حديث الحَوْضِ: «أذودُ الناسَ عنه بعَصَاي، لأهل اليمن» [مسلم (٢٣٠١)].

وأما التاجُ فالمرادُ به العِمَامَةُ، ولم تكن حينئذٍ إلَّا للعرب، والعمائمُ تيجانُ العرب.

وأوصافه، وألقابه، وسمَّاته في الكتب كثيرة؛ وفيما ذكرناه منها مَقْنَعٌ إن شاء الله. وكانت كُنْيَتُهُ المشهورةُ أبا القاسم.

٦٣٣ - وزُوي عن أنس: أنه لَمَّا وُلِدَ له إبراهيم جاءه جبريلُ فقال له: «السلام عليك يا أبا إبراهيم».

فصل

فِي تَشْرِيفِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِمَا سَمَّاهُ بِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَوَصَفَهُ بِهِ مِنْ صِفَاتِهِ الْغَلَا

قال المؤلفُ: ما أحرى هذا الفصلَ بفصولِ البابِ الأول! لانخراطه في سِلْكِ مضمونها، وامتزاجه بعَذْبِ مَعِينِهَا؛ لكن لم يشرح اللهُ الصَّدْرَ للهداية إلى استنباطه، ولا أثارَ الفِكرَ لاستخراجِ جَوْهره والتقاطه إلا عند الخَوْضِ في الفصل الذي قبله؛ فرأينا أن نُضِيفَهُ إليه، ونَجْمَعُ به شَمْلَهُ.

فاعلم أن الله تعالى خَصَّ كثيراً من أنبيائه بكرامةٍ خَلَعَهَا عليهم مِنْ أَسْمَائِهِ؛ كَتَسْمِيَةِ إِسْحَاقَ، وإسماعيلَ بـ «عليم» و «حليم»، وإبراهيمَ بـ «حليم» ونوحَ بـ «شكور» وعيسى ويحيى بـ «بَرٍّ» وموسى بـ «كريم» و «قوي» ويوسفَ بـ «حفيظ» وإلياسَ بـ «صابر» وإسماعيلَ بـ «صَادِقُ الوَعْدِ» كما نطق بذلك الكتابُ العزيزُ في مَوَاضِعَ ذَكَرَهُمْ. صلى الله وسلم على جميعهم.

وَفَضَلَ مُحَمَّدًا نَبِيَّنَا ﷺ: بِأَن حَلَاةَ مِنْهَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَعَلَى أَلْسِنَةِ أَنْبِيَائِهِ بَعْدَهُ كَثِيرَةٌ. اجتمعَ لَنَا مِنْهَا جَمَلَةٌ بَعْدَ إِعْمَالِ الْفِكْرِ، وَإِحْضَارِ الذِّكْرِ، إِذْ لَمْ نَجِدْ مَنْ جَمَعَ مِنْهَا فَوْقَ اسْمَيْنِ، وَلَا مَنْ تَفَرَّغَ فِيهَا لِتَأْلِيفِ قُضَلَيْنِ.

وَحَزَنَّا مِنْهَا فِي هَذَا الْفَصْلِ نَحْوَ ثَلَاثِينَ اسْمًا؛ وَلَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى - كَمَا أَلْهَمَ إِلَى مَا عَلَّمَ مِنْهَا وَحَقَّقَهُ - يُثِمُّ النِّعَمَ بِإِبَانَةٍ مَا لَمْ يُظْهِرْهُ لَنَا الْآنَ، وَيَفْتَحَ غَلَقَهُ.

فَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْحَمِيدُ» ومعناه المَحْمُودُ؛ لِأَنَّهُ حَمِدَ نَفْسَهُ، وَحَمَدَهُ

عباده، ويكون أيضاً بمعنى الحامد لنفسه ولأعمال الطاعات.

وسمى الله تعالى النبي ﷺ محمداً، وأحمد؛ ف «محمّد» بمعنى محمود، وكذا وقع اسمه في زبور داود.

و «أحمد» بمعنى أكبر من حمد؛ وأجل من حمد، وأشار إلى نحو هذا حسان بقوله:

وَسَقَى لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ

ومن أسمائه تعالى: «الرؤوف الرحيم» وهما بمعنى متقارب.

وقد سمّاه في كتابه بذلك؛ فقال: ﴿يَا مُؤْمِنِينَ رُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومن أسمائه تعالى: «الحق المبين» ومعنى الحق: الموجود، والمتحقق أمره، وكذلك المبين؛ أي البين أمره والهيئته.

«بان» و «أبان» بمعنى واحد ويكون بمعنى المبين لعباده أمر دينهم ومعادهم.

وسمى النبي ﷺ - بذلك في كتابه؛ فقال تعالى: ﴿حَقٌّ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [يونس: ١٠٨].

وقال تعالى ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [الأنعام: ٥]؛ قيل: محمداً. وقيل القرآن. ومعناه ههنا ضد الباطل، والمتحقق صِدْقُهُ وأمره، وهو بمعنى الأول.

و «المبين»: البين أمره ورسالته، أو المبين عن الله ما بعثه به؛ كما قال تعالى: ﴿لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

ومن أسمائه تعالى: «التور» ومعناه ذو التور، أي خالقه، أو مُنَوِّرِ السموات والأرض بالأنوار، ومُنَوِّرِ قلوب المؤمنين بالهداية.

وسمّاه نوراً؛ فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]؛ قيل: محمداً. وقيل: القرآن.

وقال فيه: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، سُمِّيَ بذلك لوضوح أمره، وبيان نبوته، وتَوَيِّرِ قلوب المؤمنين والعارفين بما جاء به.

ومن أسمائه تعالى: «الشهيد» ومعناه: العالم. وقيل: الشاهد على عباده يوم القيامة.

وَسَمَّاهُ شَهِيداً وَشَاهِداً؛ فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً﴾ [الأحزاب: ٤٥].
وقال تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ وهو بمعنى الأول.

ومن أسمائه تعالى: «الكريم» ومعناه: الكثير الخير.
وقيل: المُفْضِل. وقيل: العَفْو. وقيل: العَلِيّ.
٦٣٤ - وفي الحديث المَرْوِي في أسمائه تعالى: «الأكرم».
وسماه تعالى كريماً بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]؛ قيل: محمد. وقيل: جبريل.

٦٣٥ - وقال عليه السلام: «أَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ».
ومعاني الاسم صحيحة في حقه ﷺ.
ومن أسمائه تعالى: «العظيم» ومعناه: الجليل الشأن، الذي كل شيء دونه.
وقال في النبي ﷺ: ﴿وَلَا تَكُ لَعَلَّ خُلِقَ عَظِيمٌ﴾ [القلم: ٤].
ووقع في أول سفر من التوراة، عن إسماعيل: وستلد عظيماً، لأمة عظيمة؛
فهو عظيم، وعلى خلق عظيم.
ومن أسمائه تعالى: «الجبار» ومعناه: المُضْلِح، وقيل: القاهر. وقيل: العَلِيّ
العظيم الشأن. وقيل: المتكبر.

وسمى النبي ﷺ في كتاب داود بجبار؛ فقال: ثَقَلْتُ أَيُّهَا الْجَبَّارُ! سَيِّفُكَ؛
فَإِنْ نَامُوسُكَ وَشَرَائِعُكَ مَقْرُونَةٌ بِهَيْبَةِ يَمِينِكَ.
ومعناه في حق النبي ﷺ: إما لإصلاحه الأمة بالهداية والتعليم، أو لِقَهْرِهِ
أعداءه، أو لَعُلَّوْا مَثَرِلَهُ عَلَى الْبَشَرِ، وعظيم خطره.
ونفى تعالى عنه - في القرآن - جبرية التكبر التي لا تليق به؛ فقال: ﴿وَمَا
أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥].
ومن أسمائه تعالى: «الخبير» ومعناه: المُطْلِعُ بِكُنْهِ الشَّيْءِ، العالم بحقيقته.
وقيل: معناه المُخْبِر.

وقال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ فَتَكَلَّمْ بِهِ خَبِيراً﴾ [الفرقان: ٥٩].
قال القاضي بَكْرُ بْنُ الْعَلَاءِ: المأمور بالسؤال غير النبي عليه السلام
والمسؤول الخبير هو المصطفى ﷺ.
وقال غيره: بل السائل النبي ﷺ. والمسؤول هو الله تعالى؛ فالنبي خبير
بالوجهين المذكورين؛ قيل: لأنه عالم على غاية من العلم بما أعلمه الله من

مَكُونِ عِلْمِهِ، وَعَظِيمِ مَعْرِفَتِهِ، مُخْبِرٍ لَأَمْتِهِ بِمَا أُذِنَ لَهُ فِي إِعْلَامِهِمْ بِهِ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْفَاتِحُ» وَمَعْنَاهُ: الْحَاكِمُ بَيْنَ عِبَادِهِ، أَوْ فَاتِحُ أَبْوَابِ الرِّزْقِ وَالرَّحْمَةِ، وَالْمُتَغَلِّقُ مِنْ أُمُورِهِمْ عَلَيْهِمْ؛ أَوْ يَفْتَحُ قُلُوبَهُمْ وَبَصَائِرَهُمْ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ؛ وَيَكُونُ أَيْضاً بِمَعْنَى النَّاصِرِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَسْتَفِئِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]؛ أَي: إِنْ تَسْتَنْصِرُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ النَّصْرُ؛ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ مُبْتَدِئُ الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ.

٦٣٦ - وَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهَ مُحَمَّدًا ﷺ بـ «الْفَاتِحِ» فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ الطَّوِيلِ مِنْ رِوَايَةِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَغَيْرِهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وَفِيهِ: مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: «وَجَعَلْنَاكَ فَاتِحاً وَخَاتِماً».

وَفِيهِ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي ثَنَائِهِ عَلَى رَبِّهِ، وَتَغْدِيدِ مَرَاتِبِهِ: «وَرَفَعَ لِي ذِكْرِي، وَجَعَلَنِي فَاتِحاً وَخَاتِماً»؛ فَيَكُونُ الْفَاتِحُ - هُنَا - بِمَعْنَى الْحَاكِمِ، أَوْ الْفَاتِحِ لِأَبْوَابِ الرَّحْمَةِ عَلَى أُمَّتِهِ، أَوْ الْفَاتِحِ لِبَصَائِرِهِمْ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ؛ أَوْ النَّاصِرِ لِلْحَقِّ، أَوْ الْمُبْتَدِئِ بِهَدَايَةِ الْأُمَّةِ، أَوْ الْمُبْدَأُ الْمُقَدَّمُ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْخَاتِمُ لَهُمْ.

٦٣٧ - كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كُنْتُ أَوَّلَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْخَلْقِ، وَآخِرَهُمْ فِي الْبَقَاءِ».

٦٣٧ م - وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ: «الشَّكُورُ» وَمَعْنَاهُ: الْمُثِيبُ عَلَى الْعَمَلِ الْقَلِيلِ. وَقِيلَ: الْمُثْنِي عَلَى الْمُطِيعِينَ؛ وَوَصَفَ بِذَلِكَ نَبِيَّهَ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

٦٣٨ - وَقَدْ وَصَفَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ نَفْسَهُ فَقَالَ: «أَقْلًا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟» أَيِ مُعْتَرِفًا بِنِعَمِ رَبِّي، عَارِفًا بِقَدْرِ ذَلِكَ، مُثْنِياً عَلَيْهِ، مُجْهَدًا نَفْسِي فِي الزِّيَادَةِ مِنْ ذَلِكَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: الْعَلِيمُ، وَالْعَلَامُ. وَعَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ. وَوَصَفَهُ نَبِيَّهَ ﷺ بِالْعِلْمِ؛ وَخَصَّهُ بِمَرِيَّةٍ مِنْهُ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وَقَالَ: ﴿وَيَعْلَمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْعِلْمَ الَّذِي أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]. وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْأَوَّلُ، وَالْآخِرُ» وَمَعْنَاهُمَا: السَّابِقُ لِلْأَشْيَاءِ قَبْلَ وَجُودِهَا، وَالْبَاقِي بَعْدَ فَنَائِهَا.

وَتَحْقِيقُهُ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَوَّلٌ وَلَا آخِرٌ.

٦٣٩ - وقال ﷺ: «كُنْتُ أَوَّلَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْخَلْقِ؛ وَأَخِرَهُمْ فِي الْبَعْثِ». وُفِّرَ بِهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧]؛ فَقَدَّمَ مُحَمَّدًا ﷺ.

وقد أشار إلى نُحْوٍ مِنْهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦٤٠ - ومنه قوله: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ» [البخاري (٨٧٦)، مسلم (٨٥٥)].

٦٤١ - وقوله: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ،

وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ» [مسلم (٢٢٧٨)] وهو خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَأَخِرُ الرُّسُلِ ﷺ.

ومن أسمائه تعالى: «الْقَوِيُّ»، و «ذُو الْقُوَّةِ الْعَتِينِ» ومعناه: القادر.

وقد وصفه اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ؛ فَقَالَ: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ ﴿٢٠﴾

[التكوير: ٢٠]؛ قِيلَ: مُحَمَّدٌ. وَقِيلَ: جَبْرِيلُ.

٦٤١ م - ومن أسمائه تعالى: «الصَادِقُ» في الحديث المأثور.

٦٤٢ - وَوَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَيْضاً اسْمُهُ ﷺ بـ «الصادق المصدوق» [البخاري

(٣٢٠٨)، مسلم (٢٦٤٣)].

ومن أسمائه تعالى: «الْوَلِيُّ» و «الْمَوْلَى» ومعناهما: الناصِرُ؛ وقد قال الله

تعالى: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة: ٥٥].

٦٤٣ - وقال عليه السلام: «أَنَا وَلِيُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ» [أحمد (٣٧١/٣)، البخاري

(٢٢٩٨)، مسلم (١٦١٩)].

وقال الله تعالى: ﴿الَّذِي أَوَّلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

٦٤٤ - وقال عليه السلام: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ».

ومن أسمائه تعالى: «الْعَفْوُ» ومعناه: الصَّفْوَ.

وقد وصف اللَّهُ تَعَالَى بِهَذَا نَبِيَّهُ فِي الْقُرْآنِ، وَفِي التَّوْرَةِ، وَأَمْرُهُ بِالْعَفْوِ؛

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال: ﴿فَاعْفُ عَنَّهُمْ وَأَصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣].

٦٤٥ - وقال له جبريل - وقد سأله عن قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾؛ قال: «أَنْ تَعْفُو

عَمَّنْ ظَلَمَكَ».

٦٤٦ - وقال في التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ فِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ، فِي صِفَتِهِ: «لَيْسَ

بِفَظٍّ، وَلَا غَلِيظٍ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيُصَفِّحُ».

ومن أسمائه تعالى: «الْهَادِي» وهو بمعنى توفيق اللَّهِ لِمَنْ أَرَادَ مِنْ عِبَادِهِ،

وَبِمَعْنَى الدَّلَالَةِ وَالِدُعَاءِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ [يونس: ٢٥] وأصل الجميع مِنَ الْمِيلِ. وقيل: من التقديم.

وقيل في تفسير ﴿طه ١﴾ إنه: يا طاهرا! يا هادي! يعني النبي ﷺ.

وقال الله تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال فيه: ﴿وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب: ٤٦].

فَاللَّهُ تَعَالَى مُخْتَصٌ بِالْمَعْنَى الْأُولَى؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفصل: ٥٦].

وبمعنى الدلالة يَنْطَلِقُ عَلَى غَيْرِهِ تَعَالَى.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْمُؤْمِنُ، الْمُهَيِّمُ» قِيلَ: هُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ؛ فَمَعْنَى الْمُؤْمِنِ فِي حَقِّهِ تَعَالَى: الْمُصَدِّقُ وَغَدَهُ عِبَادَهُ، وَالْمُصَدِّقُ قَوْلُهُ الْحَقُّ، وَالْمُصَدِّقُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَرُسُلِهِ. وَقِيلَ: الْمُوَحَّدُ نَفْسَهُ. وَقِيلَ: الْمُؤْمِنُ عِبَادَهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ ظُلْمِهِ، وَالْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابِهِ.

وقيل: الْمُهَيِّمُ بِمَعْنَى الْأَمِينِ، مُصَغَّرٌ مِنْهُ، فَقُلِّبَتِ الْهَمْزَةُ هَاءً.

وقد قيل: إِنَّ قَوْلَهُمْ فِي الدُّعَاءِ: آمِينَ، إِنَّهُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَعْنَاهُ مَعْنَى الْمُؤْمِنِ.

وقيل: الْمُهَيِّمُ بِمَعْنَى الشَّاهِدِ وَالْحَافِظِ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ آمِينَ، وَمُهَيِّمٌ، وَمُؤْمِنٌ، وَقَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى أَمِينًا؛ فَقَالَ: ﴿مُطَاعٌ ثُمَّ آمِينَ﴾ [التكوير: ٢١].

٦٤٧ - وَكَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يُغَرِّفُ بِالْأَمِينِ، وَشَهَرَ بِهِ قَبْلَ النَّبَوَّةِ وَبَعْدَهَا.

٦٤٨ - وَسَمَّاهُ الْعَبَّاسُ، فِي شِعْرِهِ مُهَيِّمًا فِي قَوْلِهِ:

ثُمَّ احْتَوَى بَيْنُكَ الْمُهَيِّمِينَ مِنْ خَنْدِيفٍ عَلِيَاءَ تَحْتَهَا الثُّطُقُ

قِيلَ: الْمَرَادُ: يَا أَيُّهَا الْمُهَيِّمُ! قَالَ الْقُتَيْبِيُّ، وَالْإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]؛ أَيُّ: يَصَدِّقُ.

٦٤٩ - وَقَالَ ﷺ: «أَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي»، فَهَذَا بِمَعْنَى الْمُؤْمِنِ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْقُدُّوسُ» وَمَعْنَاهُ: الْمُتَنَزِّعُ عَنِ النَّقَائِصِ الْمُطَهَّرُ مِنْ سِمَاتِ الْحَدَثِ؛ وَسُمِّيَ «بَيْتَ الْمُقَدَّسِ» لِأَنَّهُ يُطَهَّرُ فِيهِ مِنَ الذُّنُوبِ؛ وَمِنْهُ: الْوَادِي الْمُقَدَّسُ، وَرُوحُ الْقُدُّوسِ.

وَوَقَعَ فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ فِي أَسْمَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ «الْمُقَدَّسُ» أَيُّ: الْمُطَهَّرُ مِنَ الذُّنُوبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

أو الذي يُظَهِّر به من الذنوب، ويُنَزِّهه بِاتِّبَاعِهِ عنها، كما قال ﴿وَرَزَّيْقَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة: ١٦].
أو يكون مقدساً بمعنى مطهراً، من الأخلاق الذميمة. والأوصاف الدينية.
ومن أسمائه تعالى: «العزیز» ومعناه: المُمْتَنِع، الغالب، أو الذي لا نُظِير
له، أو المُعِزَّ لِغيره؛ وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: ٨] أي:
الامتِناعُ وَجَلَالَةُ الْقَدَرِ.

وقد وصف الله تعالى نفسه بالبشارة والنذارة، فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَبِرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١].
وقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ مَصَدَقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] و ﴿يَكَلِّمُهُ
مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وسماه الله تعالى مُبَشِّراً، ونَذِيراً وبَشِيراً: أي مُبَشِّراً لأهل طاعته، ونَذِيراً
لأهل مَعْصِيَتِهِ.

ومن أسمائه تعالى فيما ذكره بعض المفسرين: ﴿طه﴾ و ﴿يس﴾ و ﴿١﴾
وقد ذكر بعضهم أيضاً أنهما من أسماء محمد ﷺ وشرف وكرم.

فصل

فِي أَنَّ ذَاتَ اللَّهِ تَعَالَى لَا تُشَبِّهُ ذَوَاتَ الْمَخْلُوقِينَ، وَصِفَاتِهِ تَعَالَى لَا تُشَبِّهُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه: وها أنا أذكر نُكْتَةً أُذِيلُ بها هذا
الفضل، وأختمُ بها هذا القسم، وأزيعُ الإشكَالَ بها فيما تقدم عن كلِّ ضعيف
الوهم، سقيم الفهم، تخلَّصه من مَهاوِي التشبيه، وتزحزحه عن شُبُه التَمويه؛ وهو
أن يعتقد أنَّ الله تعالى جَلَّ اسْمُهُ في عظمته وكبريائه ومَلَكُوتِهِ، وحُسْنَى أَسْمَائِهِ،
وعِلِّيَّ صِفَاتِهِ، لا يُشَبِّهُ شيئاً من مخلوقاته، ولا يشبُّه به؛ وأنَّ ما جاء مما أطلقه
الشَّرْعُ على الخالقِ وعلى المخلوق؛ فلا تشابهَ بينهما في المعنى الحقيقي؛ إذ
صفات القديم بخلاف صفات المخلوق؛ فكما أنَّ ذاته تعالى لا تُشَبِّهُ الذوات،
كذلك صفاته لا تُشَبِّهُ صفات المخلوقين؛ إذ صفاتهم لا تُنْفَكُ عن الأغراض
والأغراض؛ وهو تعالى - مُنَزَّهٌ عن ذلك؛ بل لم يَزَلْ بِصِفَاتِهِ وأَسْمَائِهِ، وكفى في
هذا قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وَلِلَّهِ دَرُّ مَنْ قَالَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَارِفِينَ الْمُحَقِّقِينَ: التَّوْحِيدُ إِثْبَاتُ ذَاتٍ غَيْرِ مُشَبَّهَةٍ لِلذَّوَاتِ، وَلَا مُعْطَلَةٍ مِنَ الصِّفَاتِ.

وزاد هذه النكته الواسطي - رحمه الله - بيانا؛ وهي مقصودنا؛ فقال: ليس كذاته ذات، ولا كاسمِه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة، إلا من جهة موافقة اللفظ اللفظ؛ وجلت الذات القديمة أن يكون لها صفة حديثة، كما استحال أن يكون للذات المُحدثة صفة قديمة.

وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة، رضي الله عنهم. وقد فسّر الإمام أبو القاسم القشيري - رحمه الله - قوله هذا، ليزيده بيانا؛ فقال: هذه الحكاية تشتمل على جوامع مسائل التوحيد، وكيف تُشبه ذاته ذات المُحدثات؛ وهي بوجودها مستغنية؟! وكيف يُشبه فعله فعل الخلق، وهو لغير جلب أنس، أو دفع نقص، حصل، ولا لخواطر وأغراض، وجد، ولا بمباشرة ومعالجة، ظهر؟! وفعل الخلق لا يخرج عن هذه الوجوه. وقال آخر، من مشايخنا: ما توهّمتموه بأوهامكم، أو أدركتموه بعقولكم فهو مُحدث مثلكم.

وقال الإمام أبو المعالي الجويني: من اطمأن إلى موجود انتهى إليه فكره؛ فهو مُشَبَّه، ومن اطمأن إلى النقي المخض فهو مُعْطَل، وإن قطع بموجود اعترف بالعجز عن ذلك حقيقته فهو مُوحَّد.

وما أحسن قول ذي الثون المصري: حقيقة التوحيد أن تغلم أن قدرة الله تعالى في الأشياء بلا علاج، وصنعه لها بلا مزاج، وعلة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه، وما تُصوّر في وهمك فالله بخلافه.

وهذا كلام عجيب نفيس محقق، والفضل الآخر، تفسير لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

والثاني: تفسير لقوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

والثالث: تفسير لقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

[النحل: ٤٠].

ثبتنا الله وإياك على التوحيد والإثبات، والتنزيه، وجئنا طرفي الضلالة والغواية من التعطيل والتشبيه بمنه ورحمته.



الباب الرابع

فِيمَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ
وَشَرَفَهُ بِهِ مِنَ الْخَصَائِصِ وَالْكَرَامَاتِ

قال المؤلف رحمه الله: حَسْبُ المتأملِ أَنْ يُحَقِّقَ أَنَّ كِتَابَنَا هَذَا لَمْ نَجْمَعْهُ
لَمُنْكَرِ نبوة نبيِّنا ﷺ ولا لطاعين في معجزاته ففتحنا إلى نَصْبِ البراهين عليها،
وتخصيص حوزتها، حتى لا يَتَوَضَّلَ المطاعين إليها، ونذكر شروط المعجز والتحدي
وحده، وفساد قول مَنْ أبطل نَسَخَ الشرائع، وردّه؛ بل أَلْفَنَاهُ لِأَهْلِ مِلَّتِهِ، الْمُبَيِّنِ
لدَعْوَتِهِ، المصدقين لنبوته؛ ليكون تأكيداً في محبتهم له، ومُثَمِّناً لأعمالهم؛
وليزدادوا إيماناً مع إيمانهم.

ونبيّن أن ثبت في هذا الباب أمهات معجزاته، ومُشَاهِيرَ آياته؛ لتدلَّ على
عِظَمِ قُدْرِهِ عند ربه. وأتينا منها بالمحقق والصحيح الإسناد؛ وأكثره مما بلغ
الْقَطْعُ، أو كاد؛ وأضفنا إليها بعض ما وقع في مشاهير كُتُبِ الأئمة.

وإذا تأمَّلَ المتأملُ المُنْصِفُ ما قدمناه مِنْ جَمِيلِ أثره، وحميد سيره، وبراعة
عِلْمِهِ، وَرَجَاحَةِ عَقْلِهِ وَجِلْمِهِ، وَجُمْلَةِ كَمَالِهِ، وَجَمِيعِ خِصَالِهِ، وشاهد حاله،
وصواب مقالهِ، لم يَمْتَرِ في صحة ثبوته، وصدق دَعْوَتِهِ.
وقد كفى هذا غير واحدٍ في إسلامه، والإيمان به.

٦٥٠ - قَرَوَيْنَا عَنْ التِّرْمِذِيِّ، وَابْنِ قَانِعٍ وَغَيْرِهِمَا بِأَسَانِيدِهِمْ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ
سَلَامٍ؛ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ جِئْتُهُ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ؛ فَلَمَّا اسْتَبْنُثُ وَجْهَهُ
عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ.

حدثنا به القاضي الشهيد أبو علي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ

الصَّنِيفِي، وأبو الفضل بن خَيْرُون، عن أَبِي يَغْلَى البَغْدَادِي، عن أَبِي عَلِي السَّنْجِي، عن ابن محبوب، عن التِّرْمِذِي؛ حدثنا محمد بن بِشَّار، حدثنا عَبْدُ الوَهَّابِ الثَّقَفِي، ومحمد بن جعفر، وابن أَبِي عَدِي، ويحيى بن سَعِيد، عن عَوْف بن أَبِي جَمِيلَةَ الأَعْرَابِي، عن زُرَّارَةَ بن أَوْفَى، عن عبد الله بن سَلَام... الحديث [الترمذي (٢٤٨٥)، ابن ماجه (١٣٣٤)، أحمد (٤٥١/٥)].

٦٥١ - وعن أَبِي رَمَثَةَ الثَّيْمِي: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، ومعي ابْنُ لِي، فَأَرَيْتُهُ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُهُ قُلْتُ: هَذَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ.

٦٥٢ - وَرَوَى مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ أَنَّ ضِمَادًا لَمَّا وَقَدَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ؛ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»، قَالَ لَهُ: أَعِذْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَلَقَدْ بَلَغَنَ قَامُوسَ الْبَحْرِ، هَاتِ يَدُكَ أَبَايُكَ [مسلم (٨٦٨)].

٦٥٣ - وَقَالَ جَامِعُ بن شَدَّادٍ: كَانَ رَجُلٌ مَنَا يُقَالُ لَهُ طَارِقٌ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، فَقَالَ: «هَلْ مَعَكُمْ شَيْءٌ تَبِيعُونَهُ؟» قُلْنَا: هَذَا الْبَعِيرُ. قَالَ: «يَكُمُ؟» قُلْنَا: بَكْدَا وَكَذَا وَسَقَا مِنْ تَمْرٍ؛ فَأَخَذَ بِخَطَامِهِ، وَسَارَ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ فَقُلْنَا: بَعْنَا مِنْ رَجُلٍ لَا نَذْرِي مَنْ هُوَ؛ وَمَعَنَا ظَعِينَةٌ، فَقَالَتْ: أَنَا ضَامِنَةٌ لِثَمَنِ الْبَعِيرِ؛ رَأَيْتُ وَجْهَ رَجُلٍ مِثْلَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَذْرِ لَا يَخِيسُ بِكُمْ.

فَأَصْبَحْنَا، فَجَاءَ رَجُلٌ بِتَمْرٍ، فَقَالَ: أَنَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْكُمْ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ هَذَا التَّمْرِ، وَتَكْتَالُوا حَتَّى تَسْتَوْفُوا. فَفَعَلْنَا.

٦٥٤ - وَفِي خَبَرِ الْجُلَنْدِيِّ، مَلِكِ عُثْمَانَ، لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ - قَالَ الْجُلَنْدِيُّ: وَاللَّهِ! لَقَدْ دَلَّنِي عَلَى هَذَا النَّبِيِّ الْأُمِّي أَنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِخَيْرٍ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ آخِذٍ بِهِ، وَلَا يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ تَارِكٍ لَهُ، وَأَنَّهُ يَغْلِبُ فَلَا يَبْطُرُ، وَيَغْلِبُ فَلَا يَضْجَرُ، وَيَقِي بِالْعَهْدِ، وَيُنْجِزُ الْمَوْعُودَ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّهُ نَبِيٌّ.

وَقَالَ نَفْطَوْنَهُ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَكَادُ زَيْتُنَا يُضِئُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥] هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ يَقُولُ: يَكَادُ مَنَظَرُهُ يَدُلُّ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَإِنْ لَمْ يَثُلُ قُرْآنًا كَمَا قَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ لَكَانَ مَنَظَرُهُ يُنَبِّئُكَ بِالْخَبَرِ
وَقَدْ آتَى أَنْ نَأْخُذَ فِي ذِكْرِ النُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ، وَبَعْدَهُ فِي مَعْجَزَةِ الْقُرْآنِ،
وَمَا فِيهِ مِنْ بُرْهَانٍ وَدَلَالَةٍ.

فصل

فِي النَّبُوءَةِ وَالرَّسَالَةِ وَالْوَحْيِ

اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ اسْمُهُ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ الْمَعْرِفَةِ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَالْعِلْمِ بِذَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَجَمِيعِ تَكْلِيفَاتِهِ ابْتِدَاءً، دُونَ وَاسِطَةٍ، لَوْ شَاءَ؛ كَمَا حُكِّيَ عَنْ سُنَّتِهِ فِي بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ، وَذَكَرَهُ بَعْضُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١].

وَجَائِزٌ أَنْ يُوَصَلَ إِلَيْهِمْ جَمِيعُ ذَلِكَ بِوَاسِطَةِ تَبْلُغِهِمْ كَلَامَهُ، وَتَكُونُ تِلْكَ الْوَاسِطَةُ؛ إِمَّا مِنْ غَيْرِ الْبَشَرِ، كَالْمَلَائِكَةِ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ؛ أَوْ مِنْ جِنْسِهِمْ، كَالْأَنْبِيَاءِ مَعَ الْأُمَمِ، وَلَا مَانِعَ لِهَذَا مِنْ دَلِيلِ الْعَقْلِ.

وَإِذَا جازَ هَذَا وَلَمْ يَسْتَحِجْ، وَجَاءَتِ الرُّسُلُ بِمَا دَلَّ عَلَى صِدْقِهِمْ مِنْ مُعْجَزَاتِهِمْ وَجِبَ تَصْدِيقُهُمْ فِي جَمِيعِ مَا أَتَوْا بِهِ؛ لِأَنَّ الْمَعْجِزَ مَعَ التَّحْدِي مِنْ النَّبِيِّ ﷺ قَائِمٌ مَقَامَ قَوْلِ اللَّهِ: صَدَقَ عَبْدِي فَأَطِيعُوهُ وَاتَّبِعُوهُ، وَشَاهَدَ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا يَقُولُهُ؛ وَهَذَا كَافٍ. وَالتَّطْوِيلُ فِيهِ خَارِجٌ عَنِ الْغَرَضِ فَمَنْ أَرَادَ تَتَبُّعَهُ وَجَدَهُ مُسْتَوْفَى فِي مَصْنُفَاتِ أَثْمَتِنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

فَالنَّبُوءَةُ فِي لُغَةٍ مَنْ هَمَزَ - مَأْخُودَةٌ مِنَ النَّبَأِ، وَهُوَ الْخَبَرُ، وَقَدْ لَا تُهْمَزُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ تَسْهِيلاً.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَطْلَعَهُ عَلَى غَيْبِهِ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؛ فَيَكُونُ نَبِيٌّ مُنْبَأً، فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ؛ أَوْ يَكُونُ مُخْبِراً عَمَّا بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَمُنْبَأً بِمَا أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ؛ وَيَكُونُ عِنْدَ مَنْ لَمْ يَهْمِزْهُ مِنَ النَّبُوءَةِ؛ وَهُوَ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ؛ وَمَعْنَاهُ أَنَّ لَهُ رُتْبَةً شَرِيفَةً، وَمَكَانَةً نَبِيَّهُةً عِنْدَ مَوْلَاهُ مُنِيفَةً؛ فَالْوَصْفَانِ فِي حَقِّهِ مُؤْتَلِفَانِ.

وَأَمَّا الرُّسُولُ فَهُوَ الْمُرْسَلُ، وَلَمْ يَأْتِ فَعُولٌ بِمَعْنَى مُفْعَلٍ فِي اللُّغَةِ إِلَّا نَادِراً. وَإِرْسَالُهُ: أَمْرُ اللَّهِ - تَعَالَى - لَهُ بِالْإِبْلَاحِ إِلَى مَنْ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ؛ وَاسْتِقَافُهُ مِنَ التَّابِعِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: جَاءَ النَّاسُ أَرْسَالاً، إِذَا تَبَعَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً؛ فَكَأَنَّهُ أُلْزِمَ تَكْرِيرَ التَّبْلِغِ، أَوْ أُلْزِمَتِ الْأُمَّةُ اتِّبَاعَهُ.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ: هَلِ النَّبِيُّ وَالرُّسُولُ بِمَعْنَى، أَوْ بِمَعْنِيَيْنِ؟ فَقِيلَ: هُمَا سَوَاءٌ، وَأَضْلَهُ مِنَ الْإِنْبَاءِ وَهُوَ الْإِعْلَامُ؛ وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ

قَبْلَكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ [الحج: ٥٢]؛ فقد أثبتَ لهما معاً الإرسال، قال: ولا يكون النبيُّ إلا رسولاً؛ ولا الرسولُ إلا نبياً.

وقيل: هما مُفْتَرَقَانِ مِنْ وَجْهٍ؛ إذ قد اجتمعَا في النبوة التي هي الاطِّلاعُ على الغَيْبِ، والإعلامُ بخواصِّ النبوة أو الرفعة لمعرفة ذلك، وَخَوَزَ دَرَجَتَهَا؛ وافترقا في زيادة الرُّسالة للرسول، وهو الأمرُ بالإِنذار والإعلام كما قلنا.

وَحَجَّتُهُمْ مِنَ الْآيَةِ نَفْسُهَا التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْأَسْمَيْنِ، وَلَوْ كَانَا شَيْئاً وَاحِداً لَمَا حَسُنَ تَكَرُّرُهُمَا فِي الْكَلَامِ الْبَلِيغِ، قَالُوا: وَالْمَعْنَى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَى أُمَّةٍ، أَوْ نَبِيٍّ لَيْسَ بِمُرْسَلٍ إِلَى أَحَدٍ.

وقد ذهب بعضهم إلى أَنَّ الرَّسُولَ مَنْ جَاءَ بِشَرْعٍ مُبْتَدَأٍ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ نَبِيٌّ غَيْرُ رَسُولٍ، وَإِنْ أَمِرَ بِالْإِبْلَاحِ وَالْإِنذار.

وَالصَّحِيحُ، وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجَمَاءُ الْغَفِيرُ، أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ نَبِيٍّ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولاً. وَأَوَّلُ الرَّسْلِ آدَمُ، وَأَخْرَجَهُمُ مُحَمَّدٌ ﷺ.

٦٥٥ - وفي حديث أبي ذَرٍّ رضي الله عنه: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مِثْلُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٍ وَعِشْرُونَ أَلْفَ نَبِيٍّ، وَذَكَرَ أَنَّ الرَّسْلَ، مِنْهُمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ؛ أَوَّلُهُمْ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فَقَدْ بَانَ لَكَ مَعْنَى النَّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ، وَلَيْسَتْ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ ذَاتاً لِلنَّبِيِّ، وَلَا وَضْفَ ذَاتٍ، خِلَافاً لِلْكَرَامِيَّةِ، فِي تَطْوِيلِ لَهُمْ، وَتَهْوِيلِ، لَيْسَ عَلَيْهِ تَغْوِيلٌ.

وَأَمَّا الْوَحْيُ: فَأَصْلُهُ الْإِسْرَاعُ، فَلَمَّا كَانَ النَّبِيُّ يَتَلَقَّى مَا يَأْتِيهِ مِنْ رَبِّهِ بِعَجَلٍ سُمِّيَ وَحْيًا، وَسُمِّيتْ أَنْوَاعُ الْإِلْهَامَاتِ وَحْيًا، تَشْبَهُاً بِالْوَحْيِ إِلَى النَّبِيِّ، وَسُمِّيَ الْخَطُّ وَحْيًا، لِسُرْعَةِ حَرَكَةِ يَدِ كَاتِبِهِ؛ وَوَحْيِ الْحَاجِبِ وَاللُّخْطِ: سُرْعَةُ إِشَارَتِهِمَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] أَي: أَوْماً وَرَمَزَ. وَقِيلَ: كَتَبَ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: الْوَحَا، الْوَحَا؛ أَي السَّرْعَةُ.

وقيل: أَصْلُ الْوَحْيِ السِّرُّ وَالْإِخْفَاءُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْإِلْهَامُ وَحْيًا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَيْكَ أَوَّلِيَّاتِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، أَيْ يُؤَسَّسُونَ فِي صُدُورِهِمْ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٧] أَي أَلْقَيْنَا فِي قَلْبِهَا.

وقد قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] أَي مَا يُلْقِيهِ فِي قَلْبِهِ دُونَ وَاسِطَةٍ.

فصل

فِي مُعْجَزَاتِهِ ﷺ وَمَعْنَى الْمُعْجَزَةِ

اعلم أن معنى تسميتنا ما جاءت به الأنبياء معجزة، هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها؛ وهي على ضربين: ضرب هو من نوع قُدرة البشر؛ فعجزوا عنه، فتعجزهم عنه ففعل الله دَل على صِدْق نبيّه، كصرفهم عن تمني الموت. وتعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن على رأي بعضهم، ونحوه.

وضرب هو خارج عن قدرتهم؛ فلم يقدروا على الإتيان بمثله؛ كإحياء الموتى، وقلب العصا حية، وإخراج ناقة من صخرة، وكلام شجرة، ونبع الماء من الأصابع، وانشقاق القمر، مما لا يمكن أن يفعله أحد، إلا الله؛ فكون ذلك على يد النبي ﷺ، من فعل الله تعالى، وتحديه من يكذبه أن يأتي بمثله تعجيز له.

واعلم أن المعجزات التي ظهرت على يد نبيتنا ﷺ ودلائل نبوته وبراهين صِدْقِهِ من هذين النوعين معاً. وهو أكثرُ الرسل معجزة، وأبهرهم آية، وأظهرهم بُرْهاناً؛ كما سَنَبِّهه؛ وهي - في كثرتها - لا يحيط بها ضبط؛ فإن واحداً منها - وهو القرآن - لا يحصى عدّد معجزاته بألف ولا ألفين، ولا أكثر، لأن النبي ﷺ قد تحدّى بسورة منه فعجز عنها.

قال أهل العلم: وأقصر السور: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١] فكل آية أو آيات منه بعدوها وقُدْرُها مُعْجَزَةٌ؛ ثم فيها نفسها مُعْجَزَاتٌ على ما سنفضله فيما انطوى عليه من المعجزات.

ثم معجزاته ﷺ على قسمين: قسم منها عِلْمٌ قَطْعاً، ونُقِلَ إلينا متواتراً كالقرآن؛ فلا مِزْيَةَ، ولا خِلافَ؛ بِمَجِيءِ النبيّ به، وظهوره من قبله؛ واستدلّاله بِحُجَّتِهِ؛ وإن أنكر هذا مُعَانِدٌ جَاحِدٌ، فهو كإنكاره وجودَ محمدٍ ﷺ في الدنيا. وإنما جاء اعتراض الجاحدين في الحُجَّةِ به؛ فهو في نفسه وجميع ما تضمّنه من مُعْجَزٍ معلوم ضرورة.

ووجه إعجازه معلوم ضرورة ونظراً، كما سنشرّحه.

قال بعضُ أئمّتنا: ويخري هذا المَجْرَى على الجملة أنه قد جَرَى على يَدَيْهِ - عليه السلام - آياتٌ وخَوَارِقُ عَادَاتٍ، إن لم يَتَلَفَّ واحدٌ منها معيّنًا القَطْعَ، فيبلغه جميعها؛ فلا مِزْيَةَ في جريان معانيها على يَدَيْهِ؛ ولا يختلف مؤمنٌ ولا كافر، أنه جرت على يديه عجائب؛ وإنما خلاف المُعَانِدِ في كونها من قِبَلِ الله.

وقد قَدَّمْنَا كَوْنَهَا مِنْ قِيلِ اللَّهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ بِمَثَابَةِ قَوْلِهِ: صَدَقَتْ.

فقد عَلِمَ وَقُوعُ مِثْلِ هَذَا أَيْضاً مِنْ نَبِيَّتِنَا ضَرُورَةً لِاتِّفَاقِ مَعَانِيهَا، كَمَا يُعْلَمُ ضَرُورَةً جُودَ حَاتِمٍ، وَشَجَاعَةً عَنَتَرَةً، وَجِلْمٌ أَحْتَفَ، لِاتِّفَاقِ الْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى كَرَمِ هَذَا، وَشَجَاعَةِ هَذَا، وَجِلْمِ هَذَا، وَإِنْ كَانَ كُلُّ خَبِيرٍ بِنَفْسِهِ لَا يُوجِبُ الْعِلْمَ، وَلَا يَقْطَعُ بِصَحَّتِهِ.

وَالْقِسْمُ الثَّانِي: مَا لَمْ يَتْلَغْ مَبْلَغُ الضَّرُورَةِ وَالْقَطْعِ؛ وَهُوَ عَلَى نَوْعَيْنِ: نَوْعٌ مُشْتَهَرٌ مُتَشَتِّرٌ، رَوَاهُ الْعَدَدُ، وَشَاعَ الْخَبَرُ بِهِ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ وَالرُّوَاةِ وَنَقَلَهُ السَّيْرُ وَالْأَخْبَارُ؛ كَتَبِيعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ الْأَصَابِعِ، وَتَكَثِيرِ الطَّعَامِ.

وَنَوْعٌ مِنْهُ اخْتَصَّ بِهِ الْوَاحِدُ أَوْ الْإِثْنَانِ؛ وَرَوَاهُ الْعَدَدُ الْيَسِيرُ، وَلَمْ يَشْتَهَرْ اِشْتِهَارَ غَيْرِهِ، لَكِنَّهُ إِذَا جُمِعَ إِلَى مِثْلِهِ اتَّفَقَا فِي الْمَعْنَى، وَاجْتَمَعَا عَلَى الْإِتْيَانِ بِالْمُعْجِزِ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ.

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَأَنَا أَقُولُ - صَدْعاً بِالْحَقِّ -: إِنَّ كَثِيراً مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمَأْثُورَةِ عَنْهُ ﷺ مَعْلُومَةٌ بِالْقَطْعِ.

أَمَّا انْشِقَاقُ الْقَمَرِ فَالْقُرْآنُ نَصٌّ بِوَقُوعِهِ، وَأَخْبَرَ عَنْ وَجُودِهِ، وَلَا يُعَدَّلُ عَنْ ظَاهِرِهِ إِلَّا بِدَلِيلٍ، وَجَاءَ بَرَفَعِ احْتِمَالِهِ صَحِيحُ الْأَخْبَارِ مِنْ طَرُقٍ كَثِيرَةٍ، وَلَا يُوهِنُ عَزْمَنَا خِلَافَ أُخَرَاقٍ مُنَحَلٍّ عَزَى الدِّينَ، وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى سَخَافَةٍ مُبْتَدَعٍ، يُلْقَى الشَّكُّ عَلَى قُلُوبِ ضَعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ؛ بَلْ نُرْغِمُ بِهِذَا أَتْفَهَ، وَنَتَّبِدُ بِالْعَرَاءِ سُخْفَهُ.

وَكَذَلِكَ قِصَّةُ تَبْعِ الْمَاءِ، وَتَكَثِيرِ الطَّعَامِ، رَوَاهَا الثَّقَاتُ وَالْعَدَدُ الْكَثِيرُ، عَنْ الْجَمَّاءِ الْغَفِيرِ، عَنْ الْعَدَدِ الْكَثِيرِ مِنَ الصَّحَابَةِ.

وَمِنْهَا مَا رَوَاهُ الْكَافَّةُ عَنِ الْكَافَّةِ مُتَّصِلاً عَمَّنْ حَدَّثَ بِهَا مِنْ جُمْلَةِ الصَّحَابَةِ وَإِخْبَارِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي مَوْطِنِ اجْتِمَاعِ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ فِي يَوْمِ الْخَنْدَقِ، وَفِي غَزْوَةِ بُوَاطٍ، وَغُمْرَةِ الْخُدَيْبِيَّةِ، وَغَزْوَةِ تَبُوكَ، وَأَمْثَالِهَا مِنْ مَحَافِلِ الْمُسْلِمِينَ وَمَجْمَعِ الْعَسَاكِرِ، وَلَمْ يُؤَثَّرْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مُخَالَفَةً لِلرَّوَايَةِ فِيمَا حَكَاهُ، وَلَا إِنْكَارَ لِمَا ذَكَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ رَأَوْهُ كَمَا رَأَاهُ، فَسَكَوْتُ السَّاكِتِ مِنْهُمْ كَنْطَقِ النَّاطِقِ؛ إِذْ هُمْ الْمَنْزَهُونَ عَنِ السَّكُوتِ عَلَى بَاطِلٍ، وَالْمَدَاهِنَةِ فِي كَذِبٍ، وَلَيْسَ هُنَاكَ رَغْبَةٌ وَلَا رَهْبَةٌ تَمْنَعُهُمْ، وَلَوْ كَانَ مَا سَمِعُوهُ مُتَكَرراً عَنْهُمْ وَغَيْرَ مَعْرُوفٍ لَدَيْهِمْ لَا تُكْرَهُهُ، كَمَا أَنْكَرَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ أَشْيَاءَ رَوَاهَا مِنَ السُّنَنِ وَالسَّيْرِ وَحُرُوفِ الْقُرْآنِ. وَخَطَأً بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَوَهَمَهُ فِي ذَلِكَ، مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ؛ فَهَذَا النُّوعُ كُلُّهُ يَلْحَقُ بِالْقَطْعِيِّ مِنْ مَعْجَزَاتِهِ لَمَّا بَيَّنَّاهُ.

وأيضاً فإنَّ أمثالَ الأخبار التي لا أصلَ لها، وبُنيت على باطل، لا بُدَّ مَعَ مرورِ الأزمان، وتداولِ الناسِ، وأهلِ البَحْثِ من انكشافِ ضعفها، وخمولِ ذِكْرِها، كما يشاهد في كثير من الأخبار الكاذبة، والأراجيف الطارئة. وأعلامُ نبيِّنا هذه الواردة من طريق الآحاد لا تزادُ مع مرورِ الزمان إلا ظهوراً، ومع تداولِ الفرقِ، وكثرةِ طعنِ العدو، وحِرْصِه على توهينها، وتَضْعِيفِ أصلها، واجتهادِ المُلْحِدِ على إطفاء نورها إلا قوةً وقَبُولاً، وللطاعن عليها إلا حسرةً وغَيْلاً.

وكذلك إخباره عن الغيوب، وإنباؤه بما يكونُ وكانَ، معلومٌ من آياته على الجملة بالضرورة.

وهذا حقٌّ لا غطاءَ عليه؛ وقد قال به من أئمتنا: القاضي، والأستاذ أبو بكر وغيرهما، رَحِمَهُمُ اللَّهُ؛ وما عِنْدِي أَوْجَبُ قَوْلِ الْقَائِلِ: إِنَّ هذه القصصَ المشهورةَ من بابِ خَبَرِ الواحدِ، إلَّا قَلَّةٌ مطالعته للأخبار وروايتها، وشُغْلُه بغير ذلك من المعارف؛ وإلا فمن اعتنى بطرق الثقل، وطالعَ الأحاديث، والسِّيَر، لم يَزْتَبْ في صحة هذه القصص المشهورة على الوجه الذي ذكرناه.

ولا يَتَعَدُّ أَنْ يحصلَ العِلْمُ بالتواتر عند واحدٍ ولا يحصلُ عند آخر؛ فإنَّ أكثر الناس يعلمون - بالخبر - كَوْنَ بغداد موجودة؛ وأنها مدينةٌ عظيمةٌ، ودارُ الإمارة والخلافة، وآحادُ من الناس لا يعلمون اسمَها؛ فَضْلاً عن وصفِها؛ وهكذا يعلم الفقهاء من أصحاب مالِك بالضرورة وتواتر الثقل عنه، أَنَّ مَذْهَبَهُ إيجابُ قراءةِ أُمِّ القرآن في الصلاة للمنفرد والإمام، وإجزاء النية في أول ليلةٍ من رمضان عمّا سِوَاهُ؛ وَأَنَّ الشافعي يرى تجديداً للنية كُلِّ ليلة؛ والاعتصارُ في المَسْحِ على بَعْضِ الرأس، وَأَنَّ مَذْهَبَهُمَا القِصَاصُ في القَتْلِ بالمُحْدَدِ وغيره، وإيجابُ النية في الوضوء، واشتراطُ الولي في التَّكَاحِ؛ وَأَنَّ أبا حنيفة يخالِفُهُما في هذه المسائل؛ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ لَمْ يَشْتَغِلْ بمذاهبهم ولا رَوَى أقوالهم لا يعرفُ هذا مِنْ مَذَاهِبِهِمْ، فَضْلاً عن سِوَاهِ.

وعند ذِكْرِنَا آحادَ هذه المعجزات نزيد الكلامَ فيها بياناً إِنْ شاءَ اللهُ تعالى.

فصل

فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ

قال المؤلف: اعلم - وَفَقْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكَ - أَنَّ كتابَ اللهِ العزيزَ مُنْطَوٍ على وَجْهِهِ مِنَ الإِعْجَازِ كَثِيرَةٍ، وتحصيلُها من جهة ضَبْطِ أنواعِها في أربعةِ وجوه:

أولها: حُسْنُ تَأْلِيفِهِ، وَالتَّيَّامُ كَلِمُهُ، وَفَصَاحَتُهُ، وَوَجُوهُ إِيجَاذِهِ، وَبِلَاغَتُهُ
 الْخَارِقَةُ عَادَةُ الْعَرَبِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَرْبَابَ هَذَا الشَّأْنِ، وَفُزَّانَ الْكَلَامِ؛ قَدْ
 خُصُّوا مِنَ الْبَلَاغَةِ وَالْحِكْمِ بِمَا لَمْ يُخَصَّ بِهِ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ، وَأَوْتُوا مِنْ ذَرَابَةِ
 اللِّسَانِ مَا لَمْ يُؤْتِ إِنْسَانٌ، وَمِنْ فَضْلِ الْخُطَابِ مَا يَقِيْدُ الْأَلْبَابَ؛ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ
 ذَلِكَ طَبْعاً وَخِلْقَةً، وَفِيهِمْ غَرِيزَةٌ وَقُوَّةٌ، يَأْتُونَ مِنْهُ عَلَى الْبِدِيْهِةِ بِالْعَجَبِ، وَيُذَلِّلُونَ
 بِهِ إِلَى كُلِّ سَبَبٍ؛ فَيَخْطُبُونَ بَدِيْهاً فِي الْمَقَامَاتِ، وَشَدِيدَ الْخُطْبِ، وَيُرْتَجِزُونَ بِهِ
 بَيْنَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ، وَيَمْدَحُونَ وَيَقْدَحُونَ، وَيَتَوَسَّلُونَ وَيَتَوَصَّلُونَ، وَيَرْفَعُونَ
 وَيَضَعُونَ، فَيَأْتُونَ مِنْ ذَلِكَ بِالسَّخْرِ الْحَلَالِ، وَيَطْوِقُونَ مِنْ أَوْصَافِهِمْ أَجْمَلَ مِنْ
 سِمِطِ اللَّالِ، فَيَتَخَدَعُونَ الْأَلْبَابَ، وَيَذَلِّلُونَ الصَّعَابَ وَيُذْهِبُونَ الْإِحْنَ، وَيُهَيِّجُونَ
 الدَّمْنَ، وَيَجَرِّثُونَ الْجَبَانَ، وَيَسْطَوْنَ يَدَ الْجَعْدِ الْبَنَانِ، وَيُصَيِّرُونَ النَّاقِصَ كَامِلاً،
 وَيَتْرَكُونَ التَّيْبَةَ خَامِلاً.

مِنْهُمْ الْبَدَوِيُّ ذُو اللَّفْظِ الْجَزَلِ، وَالْقَوْلِ الْفُضْلِ، وَالْكَلَامِ الْفَخْمِ، وَالطَّنْبِ
 الْجَوْهَرِي، وَالْمَنْزَعِ الْقَوِي.

وَمِنْهُمْ الْحَضَرِيُّ ذُو الْبَلَاغَةِ الْبَارِعَةِ، وَالْأَلْفَاظِ النَّاصِعَةِ، وَالْكَلِمَاتِ الْجَامِعَةِ،
 وَالطَّنْبِ السَّهْلِ، وَالتَّصَرُّفِ فِي الْقَوْلِ الْقَلِيلِ الْكُلْفَةِ، الْكَثِيرِ الرَّوْنِقِ، الرَّقِيقِ
 الْحَاشِيَةِ.

وَكَلاَ الْبَابَيْنِ فَلَهُمَا فِي الْبَلَاغَةِ الْحِجَّةُ الْبَالِغَةُ، وَالْقُوَّةُ الدَّامِغَةُ، وَالْقِدْحُ
 الْفَالَجُ، وَالْمَهْنَعُ النَّاهِجُ، لَا يَشْكُونَ أَنَّ الْكَلَامَ طَوْعُ مُرَادِهِمْ، وَالْبَلَاغَةُ مِلْكُ
 قِيَادِهِمْ، قَدْ حَوَّوْا فَنَوْنَهَا، وَاسْتَنْبَطُوا عُيُونَهَا، وَدَخَلُوا مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهَا،
 وَعَلَوْا صَرَحاً لِبَلُوغِ أَسْبَابِهَا؛ فَقَالُوا فِي الْخَطِيرِ وَالْمَهِينِ، وَتَفَتَّشُوا فِي الْغَثِّ
 وَالسَّمِينِ وَتَقَاوَلُوا فِي الْقُلِّ وَالْكَثْرِ، وَتَسَاجَلُوا فِي النِّظْمِ وَالتَّنْثَرِ؛ فَمَا رَاعَهُمْ إِلَّا
 رَسُولُ كَرِيمٍ، بَكْتَابٍ عَزِيزٍ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ
 حَكِيمٍ حَمِيدٍ؛ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ، وَفُصِّلَتْ كَلِمَاتُهُ، وَبَهَّرَتْ بِلَاغَتُهُ الْعُقُولَ، وَظَهَرَتْ
 فَصَاحَتُهُ عَلَى كُلِّ مَقُولٍ، وَتَضَافَرُ إِيجَاذُهُ وَإِعْجَازُهُ، وَتُظَاهَرُ حَقِيقَتُهُ وَمِجَازُهُ،
 وَتُبَارَتْ فِي الْحُسْنِ مَطَالِعُهُ وَمَقَاطِعُهُ، وَحَوَتْ كُلَّ الْبَيَانِ جَوَامِعُهُ وَبِدَائِعُهُ، وَاعْتَدَلَ
 مَعَ إِيجَاذِهِ حُسْنُ نَظْمِهِ، وَانْطَبَقَ عَلَى كَثْرَةِ فَوَائِدِهِ مَخْتَارُ لَفْظِهِ، وَهُمْ أَفْسَحُ مَا كَانُوا
 فِي هَذَا الْبَابِ مَجَالاً، وَأَشْهَرُ فِي الْخُطَابَةِ رَجَالاً، وَأَكْثَرُ فِي السَّجْعِ وَالشَّعْرِ
 ارْتِجَالاً، وَأَوْسَعُ فِي الْغَرِيبِ وَاللُّغَةِ مَقَالاً؛ بَلَّغْتَهُمُ الَّتِي بِهَا يَتَحَاوَرُونَ، وَمَنَازِعَهُمُ
 الَّتِي عَنْهَا يَتَنَاضَلُونَ، صَارِخاً بِهِمْ فِي كُلِّ حِينٍ، وَمُقَرَّعاً لَهُمْ بِضِعْماً وَعِشْرِينَ عَاماً

على رؤوس الملائكة أجمعين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٣٣] فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا... ﴿[البقرة: ٢٣، ٢٤]. و ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنَّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

و ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ [هود: ١٣] وذلك أَنَّ الْمُفْتَرِي أَنَّهُل، وَوَضَعَ الْبَاطِلِ وَالْمُخْتَلَقِ عَلَى الْاِخْتِيَارِ أَقْرَبَ، وَاللَّفْظُ إِذَا تَبَعَ الْمَعْنَى الصَّحِيحَ كَانَ أَضْعَبُ؛ وَلِهَذَا قِيلَ: فَلَان يَكْتَبُ كَمَا يَقَالُ لَهُ، وَفَلَان يَكْتَبُ كَمَا يُرِيدُ.

وللأول على الثاني فَضْلٌ، وَبَيْنَهُمَا شَأْوٌ بَعِيدٌ.

فَلَمْ يَزَلْ يُقَرِّعُهُمْ - ﷻ - أَشَدَّ التَّقْرِيعِ، وَيُؤَيِّخُهُمْ غَايَةَ التَّوْيِيخِ، وَيُسَفِّهُ أَحْلَانَهُمْ، وَيَحْطُ أَعْلَامَهُمْ، وَيَشْتَتُ نِظَامَهُمْ، وَيَذُمُّ آلِهَتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ، وَيَسْتَبِيحُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَهُمْ فِي كُلِّ هَذَا نَاكِضُونَ عَنْ مَعَارِضَتِهِ، مُخْجِمُونَ عَنْ مِمَاتِلَتِهِ، يُخَادِعُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالتَّشْغِيبِ بِالتَّكْذِيبِ، وَالْاِغْتِرَاءِ بِالْاِفْتِرَاءِ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا بَيْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [المدثر: ٢٤] و ﴿يَسْحَرُ مُسْتَسِيرٌ﴾ [القمر: ٢] و ﴿إِنَّا أَفْتَرْنَاهُ﴾ [الفرقان: ٤]، و ﴿أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

والمباهطة والرضا بالذنية؛ كقولهم: ﴿قُلُونَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨]. و ﴿فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي عَادَاتِنَا وَقَرٍّ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]. و ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَمَلِكٌ تَقْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. والادعاء مع العجز بقولهم: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١].

وقد قال لهم الله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤] فما فعلوا ولا قدروا. وَمَنْ تَعَاطَى ذَلِكَ مِنْ سُخْفَانِهِمْ - كُمْسِلِمَةِ - كَشَفَ اللَّهُ عَوَارَةَ لَجْمِعِهِمْ، وَسَلَبَهُمُ اللَّهَ مَا أَلْفَوْهُ، مِنْ فَصِيحِ كَلَامِهِمْ، وَالْأَفْلَمُ يَخْفَ عَلَى أَهْلِ الْمِيزِ مِنْهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَمَطِ فَصَاحَتِهِمْ، وَلَا جِنْسِ بِلَاغَتِهِمْ؛ بَلْ وَلَوْ عَنْهُ مُذْبِرِينَ، وَأَتَوْا مُذْعِنِينَ مِنْ بَيْنِ مُهْتَدٍ وَبَيْنِ مَقْتُونٍ.

٦٥٦ - وَلِهَذَا لَمَّا سَمِعَ الْوَلِيدُ بَنَ الْمَغِيرَةِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] قَالَ: وَاللَّهِ! إِنَّ لَهُ لِحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ

لَطَاوَةٌ، وَإِنْ أَسْفَلَهُ لَمُعْدِقٌ، وَإِنْ أَعْلَاهُ لَمُنْمِرٌ، مَا يَقُولُ هَذَا بَشَرٌ.
وَذَكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تَوَمَّرُ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْمُتَشَرِّكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] فسجد، وقال: سجدت لفصاحته.

وسمع آخرُ رجلاً يَقْرَأُ: ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]
فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وحكي أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يوماً نائماً في المسجد فإذا هو
بقائم على رأسه يتشهد شهادة الحق؛ واستخبره، فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يُخسِنُ
كلام العرب وغيرها، وأنه سمع رجلاً من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتُها،
فإذا هي قد جُمِعَ فيها ما أنزل على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة؛ وهي قوله
تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ الَّذِي يَتَقَوَّى فَآلَؤُكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

وحكى الأصمعي أنه سمع كلاماً جارية، فقال لها: قاتلك الله! ما أفصحك!
فقالت: أو يعدُّ هذا فصاحةً بعد قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيْهِ
فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيْ إِنَّا رَآدُوْهُ وَإِلَيْكَ يَجْأِلُوْهُ مِنْ
الْمُرْسَلَاتِ﴾ [القصص: ٧] فجمع في آية واحدة بين أمرين، ونهيين، وخبرين،
وبشارتين. فهذا نوعٌ من إعجازه مُنفرد بذاته، غيّر مضاف إلى غيره على التحقيق
والصحيح من القولين.

وكون القرآن من قِبَلِ النبي ﷺ، وأنه أتى به، معلوم ضرورة، وكونه - عليه
السلام - مُتَحَدِّثاً به معلوم ضرورة، وعجزُ العرب عن الإتيان بمثله معلوم ضرورة،
وكونه في فصاحته خارقاً للعادة، معلوم ضرورة للعالمين بالفصاحة ووجوه
البلاغة؛ وسبيل مَنْ ليس من أهلها علِمَ ذلك بعجز المُتَكِرِّينَ من أهلها عن
مُعارضته، واعتراف المُقِرِّينَ بإعجاز بلاغته.

وأنت إذا تأملت قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبا: ٥١].

وقوله: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾
[فصلت: ٣٤].

وقوله: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءَ أَقْلِي وَغِيصَ أَمْنَاءِ وَفُصِّ الْأَمْرُ
وَأَسْرَتَ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤] وقوله: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا
بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا
بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وأشابهها من الآي، بل أكثر القرآن حَقَّقَتْ ما بَيَّنَّته من إيجاز ألفاظها، وكثرة معانيها، وديباجة عبارتها، وحسن تأليف حروفها، وتلاؤم كلمها، وأن تحت كل لفظة منها جملاً كثيرة؛ وفصولاً جمّة، وعلوماً زواجر، ملئت الدواوين من بغض ما استفيد منها، وكثرت المقالات في المستنبطات عنها.

ثم هو في سَرْدِ القصص الطوال، وأخبار القرون السوالف، التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام، ويذهب ماء البيان، آية لمتأمله؛ من ربط الكلام ببعضه ببعض، والتثام سرده، وتناصف وجوهه؛ كقصّة يوسف على طولها.

ثم إذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها حتى تكاد كل واحدة تُسَي في البيان صاحبها، وتناصف في الحُسن وَجْه مُقابِلتها، ولا نفور للنفس من ترديدها، ولا مُعاداة لمُعَادِها.

فصل

الوجه الثاني من إعجازه: صورة نُظْمِهِ العَجِيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نُظْمِها ونثرها الذي جاء عليه، ووقفت مقاطع آيه، وانتهت فواصل كلماته إليه؛ ولم يُوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحدُ مُماثلة شيء منه؛ بل حارث فيه عقولهم، وتذهلت دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر، أو نظم، أو سجع، أو رجز، أو شعر.

٦٥٧ - ولما سمع كلامه ﷺ الوليد بن المغيرة، وقرأ عليه القرآن - رَقَّ؛ فجاءه أبو جهل مُنْكَراً عليه - قال: والله! ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني، والله! ما يُشبه الذي يقول شيئاً من هذا.

٦٥٨ - وفي خبرة الآخر حين جمع قريشاً عند حضور الموسم، وقال: إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه رأياً، لا يكذب بعضكم بعضاً؛ فقالوا: نقول: كاهن. قال: والله! ما هو بكاهن. ما هو بزمرته ولا سجيعة.

قالوا: مجنون. قال: ما هو بمجنون، ولا بخفيق ولا وسوسة. قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر. قد عرفنا الشعر كله، رجزه، وهزجه، وقريضه، ومبسوطه، ومقبوضه، ما هو بشاعر.

قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هو بساحر، ولا نقيته ولا عقده. قالوا: فما نقول؟ قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً، إلا وأنا أعرف أنه

باطل، وإنَّ أقربَ القَوْلِ أنه ساحر؛ فإنه سِحْرٌ يَفْرُقُ به بين المرءِ وأبيه، والمرءِ وأخيه، والمرءِ وزَوْجِه، والمرءِ وعَشِيرَتِه.

فتفرَّقوا وجلسوا على السَّبِيلِ يحذِّرونَ الناسَ؛ فأنزل الله تعالى في الوليد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَمْ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَيْنَ شُهُودًا ۖ وَمَهْدَتْ لَمْ تَهْمِيدًا ۖ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَرِيدَ ۖ كَلَّا ۖ إِنَّكُمْ كَانُوا لَبَيْنًا عَيْنِدَا ۖ سَأَزْهَقُهُمْ صَعُودًا ۖ إِنَّهُمْ فَكَرُوا وَفَدَّرَ ۖ فَتَقِيلُ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ فَفَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۖ﴾ [المدثر: ١١-٢٤].

٦٥٩ - وقال عُثْبَةُ بن ربيعة حين سَمِعَ القرآن: يا قوم! قد علمتم أني لم أترك شيئاً إلا وقد علمته وقرأته وقلته؛ واللَّهِ! لقد سمعتُ قولاً، واللَّهِ! ما سمعتُ مثله قط؛ وما هو بالشَّعرِ، ولا بالسَّحْرِ، ولا بالكهانة.

٦٥٩ م - وقال النَّضْرُ بن الحارث نحوه.

٦٦٠ - وفي حديث إسلام أبي ذر - وَوَصَفَ أَخَاهُ أَنْبَسًا -، فقال: واللَّهِ! ما سمعتُ بأشعر من أخي أنبَسٍ، لقد ناقَضَ اثني عشر شاعراً في الجاهلية، أنا أحدهم، وإنه انطلق إلى مكة، وجاء إلى أبي ذر بخبرِ النبي ﷺ. قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر، لقد سمعتُ قولَ الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعته على أَقْرَاءِ الشَّعْرِ فلم يلتئم، وما يلتئم على لسان أحدٍ بعدي أنه شِعر؛ وإنه لصادقٌ، وإنهم لكاذِبُونَ [مسلم (٢٤٧٣)، البخاري (٣٨٦١)].

والأخبار في هذا صحيحة كثيرة.

والإعجازُ بكل واحدٍ من النوعين: الإيجاز والبلاغة بذاتها؛ أو الأسلوب الغريب بذاته، كلُّ واحدٍ منهما نوعٌ إعجازٍ على التحقيق، لم تُقَدِّرِ العربُ على الإتيانِ بواحدٍ منهما؛ إذ كلُّ واحدٍ خارجٌ عن قُدْرَتِها، مبينٌ لِفَصَاحَتِها وكلامِها؛ وإلى هذا ذهب غيرُ واحدٍ من أئمةِ المُحَقِّقِينَ.

وذهب بعضُ المحققين المُقْتَدِي بهم إلى أنَّ الإعجازَ في مجموع البلاغة والأسلوب، وأتى على ذلك بقَوْلٍ تمجُّه الأسماعُ، وتَنفِيضُ منه القلوبُ.

والصحيحُ ما قدمناه، والعلمُ بهذا كله ضرورةٌ وقطعاً.

ومَن تفتن في علوم البلاغة، وأرهف خاطره ولسانه أدبَ هذه الصناعة لم يخف عليه ما قلناه.

وقد اختلف أئمةُ أهل السُّنة في وَجْهِ عَجْزِهِم عنه؛ فأكثرهم يقول: إنه ما

جُمِعَ فِي قُوَّةِ جَزَالَتِهِ، وَنَصَاعَةِ أَلْفَاظِهِ، وَحُسْنِ نَظْمِهِ، وَإِعْجَازِهِ، وَبَدِيعِ تَأْلِيفِهِ وَأَسْلُوبِهِ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ فِي مَقْدُورِ الْبَشَرِ، وَأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْخَوَارِقِ الْمُمْتَنِعَةِ عَنْ إِقْدَارِ الْخَلْقِ عَلَيْهَا؛ كإِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَقَلْبِ الْعَصَا، وَتَسْبِيحِ الْحَصَى.

وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنه ممّا يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر، ويُقدِّره الله عليه؛ ولكنه لم يكن هذا ولا يكون؛ فمنعهم الله هذا، وعجزهم عنه.

وقال به جماعة من أصحابه.

وعلى الطريقتين فَعَجَزُ الْعَرَبِ عَنْهُ ثَابِتٌ، وَإِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِمَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ فِي مَقْدُورِ الْبَشَرِ، وَتَحْدِيثُهُمْ بِأَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، قَاطِعٌ؛ وَهُوَ أَبْلَغُ فِي التَّعْجِيزِ، وَأَحْزَى بِالتَّقْرِيعِ، وَالاحتجاجُ بِمَجِيءِ بَشَرٍ مِثْلَهُمْ بِشَيْءٍ لَيْسَ مِنْ قُدْرَةِ الْبَشَرِ لَازِمٌ؛ وَهُوَ أَبْهَرُ آيَةٍ، وَأَقْمَعُ دَلَالَةٍ.

وعلى كُلِّ حَالٍ، فَمَا أَتَوْا فِي ذَلِكَ بِمَقَالٍ؛ بَلْ صَبَرُوا عَلَى الْجَلَاءِ، وَالْقَتْلِ، وَتَجَرَّعُوا كَاسَاتِ الصَّغَارِ وَالذَّلِّ؛ وَكَانُوا مِنْ شُمُوحِ الْأَنْفِ، وَإِبَايَةِ الضُّمَنِ، بِحَيْثُ لَا يُؤْثِرُونَ ذَلِكَ اخْتِيَارًا، وَلَا يَرْضُونَهُ إِلَّا اضْطِرَارًا، وَإِلَّا فَالْمَعَارَضَةُ - لَوْ كَانَتْ مِنْ قُدْرَتِهِمْ - وَالشُّغْلُ بِهَا أَهْوًى عَلَيْهِمْ، وَأَسْرَعُ بِالْخُجِّ، وَقَطْعُ الْعُذْرِ، وَإِفْحَامُ الْخُضْمِ لَدَيْهِمْ، وَهُمْ مَنْ هُمْ، قُدْرَةٌ عَلَى الْكَلَامِ، وَقُدُورَةٌ فِي الْمَعْرِفَةِ بِهِ لَجَمِيعِ الْأَنَامِ؛ وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ جَهَّدَ جَهْدَهُ، وَاسْتَفْتَدَ مَا عِنْدَهُ فِي إِخْفَاءِ ظَهْوَرِهِ، وَإِطْفَاءِ نُورِهِ، فَمَا جَلَّوْا فِي ذَلِكَ خَبِيئَةً مِنْ بَنَاتِ شِفَاهِهِمْ، وَلَا أَتَوْا بِنُطْفَةٍ مِنْ مَعِينِ مِيَاهِهِمْ، مَعَ طُولِ الْأَمَدِ، وَكَثْرَةِ الْعَدَدِ، وَتَظَاهُرِ الْوَالِدِ وَمَا وَلَدَ؛ بَلْ أَبْلَسُوا فَمَا تَبَسَّوْا، وَمُنِعُوا فَانْقَطَعُوا؛ فَهَذَانِ نَوْعَانِ مِنْ إِعْجَازِهِ.

فصل

الوجه الثالث من الإعجاز: ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبيات، وما لم يكن ولم يَقَعْ؛ فَوُجِدَ؛ كَمَا وَرَدَ، وَعَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُكُمْ﴾ [الروم: ٣].

وقوله: ﴿يُظْهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ كُفِرُوا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ

خَوْفِهِمْ أَمَّا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ [النور: ٥٥].

وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١-٣] فكان جميع هذا، كما قال؛ فغلبت الروم فارس في بضع سنين، ودخل الناس في الإسلام أفواجا؛ فما مات عليه السلام وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام.

٦٦١ - واستخلف الله المؤمنين في الأرض، ومكن لهم فيها دينهم، وملّكهم إياها من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب؛ كما قال عليه السلام: «زُوِيَثَ لِي الْأَرْضُ، فَأَرِيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَبْلُغُ مَلِكُ أُمِّي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا» [مسلم (٢٨٨٩)].

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾﴾ [الحجر: ٩]؛ فكان كذلك، لا يكاد يُعَدُّ مَنْ سَعَى فِي تَغْيِيرِهِ وَتَبْدِيلِ مُخَكِّمِهِ مِنَ الْمُلْحِدَةِ وَالْمُعْطَلَةِ، لَا سِيَّمَا الْقَرَامِطَةُ؛ فَاجْمَعُوا كَيْدَهُمْ وَحَوْلَهُمْ وَقَوْتَهُمْ، الْيَوْمَ نَيْفًا عَلَى خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ، فَمَا قَدَرُوا عَلَى إِطْفَاءِ شَيْءٍ مِنْ نُورِهِ، وَلَا تَغْيِيرِ كَلِمَةٍ مِنْ كَلَامِهِ، وَلَا تَشْكِيكِ الْمُسْلِمِينَ فِي حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

ومنه قوله: ﴿سَيَرَهُمُ الْجَمْعُ وَإِلَهُهُمْ الذَّبَرُ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٤٥].

وقوله: ﴿فَقَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَصْرُكُمُ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة: ١٤].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣].

وقوله: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتَلُوا يَكُونُوا يُولُوكُمْ أَدْبَارًا ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران: ١١١] فكان كل ذلك.

وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود، ومقالهم وكذبهم في حليفهم، وتقريعهم بذلك؛ كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

وقوله: ﴿يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمْعَهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِحُجُجٍ الْكِبَرُ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَحُدُّوه وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَارْعَا لِيَّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ﴾ [النساء: ٤٦] وقد قال مُبْدِيَا، مَا فَدَرَهُ اللَّهُ وَاعْتَقَدَهُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ بَدْر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَوَدُّوكَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَهَ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

ولما نزلت، بَشَّرَ النَّبِيُّ ﷺ بذلك أصحابه بأنَّ الله كفاه إياهم؛ وكان المستهزئون نَفَرًا بِمَكَّةَ، يَفَرُّونَ النَّاسَ عَنْهُ، وَيُؤْذُونَهُ، فَهَلَكُوا. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فكان كذلك على كثرة مَنْ رَامَ ضُرَّهُ، وَقَصَدَ قَتْلَهُ؛ وَالْأَخْبَارُ بِذَلِكَ مَعْرُوفَةٌ صَحِيحَةٌ.

فصل

الوجه الرابع: ما أنبأ به مِنْ أَخْبَارِ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ، وَالْأُمَمِ الْبَائِدَةِ، وَالشَّرَائِعِ الدَّائِرَةِ، مِمَّا كَانَ لَا يَعْلَمُ مِنْهُ الْقِصَّةُ الْوَاحِدَةُ إِلَّا الْفَدُّ مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِي قَطَعَ عُمُرُهُ فِي تَعَلُّمِ ذَلِكَ؛ فَيُورِدُهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى وَجْهِهِ، وَيَأْتِي بِهِ عَلَى نَصِّهِ؛ فَيُعْتَرِفُ الْعَالِمُ مِنْهُمْ بِذَلِكَ بِصِحَّتِهِ وَصِدْقِهِ، وَأَنَّ مِثْلَهُ لَمْ يَتْلَهُ بِتَعْلِيمٍ. وقد علموا أنه ﷺ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ، وَلَا اشْتَغَلَ بِمُدَارَسَةٍ وَلَا مُثَاقَفَةٍ، وَلَمْ يَغِبْ عَنْهُمْ، وَلَا جَهْلُ حَالِهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ.

وقد كان أَهْلُ الْكِتَابِ كَثِيرًا مَا يَسْأَلُونَهُ - ﷺ - عَنْ هَذَا، فَيُنْزِلُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ مَا يَتْلُو عَلَيْهِمْ مِنْهُ ذِكْرًا؛ كَقِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ قَوْمِهِمْ، وَخَبَرِ مُوسَى وَالْخَضِرِ، وَيُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ، وَأَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَذِي الْقُرْنَيْنِ، وَلُقْمَانَ وَابْنِهِ، وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ مِنَ الْأَنْبَاءِ وَالْقِصَصِ وَبِذِي الْخَلْقِ، وَمَا فِي التَّوْرَةِ، وَالْإِنْجِيلِ، وَالزَّبُورِ، وَصُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى؛ مِمَّا صَدَّقَهُ فِيهِ الْعُلَمَاءُ بِهَا، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى تَكْذِيبِ مَا ذَكَرَ مِنْهَا؛ بَلْ أَدْعَتْهُ لِلذَلِكَ، فَمِنْ مُوَفَّقٍ آمَنَ بِمَا سَبَقَ لَهُ مِنْ خَيْرٍ، وَمِنْ شَقِيٍّ مُعَانِدٍ حَاسِدٍ؛ وَمَعَ هَذَا فَلَمْ يُخَكَّ عَنْ وَاحِدٍ مِنَ - النَّصَارَى وَالْيَهُودِ - عَلَى شِدَّةِ عِدَاوَتِهِمْ لَهُ، وَجِرْصِهِمْ عَلَى تَكْذِيبِهِ، وَطُولِ احْتِجَاجِهِ عَلَيْهِمْ بِمَا فِي

كُتِبَهِمْ، وَتَقْرِيعِهِمْ بِمَا انطَوَتْ عَلَيْهِ مَصَاحِفُهُمْ، وَكَثْرَةُ سَوَالِهِمْ لَهُ ﷺ، وَتَغْنِيَتِهِمْ إِيَّاهُ عَنْ أَخْبَارِ أَنْبِيَائِهِمْ، وَأَسْرَارِ عُلُومِهِمْ، وَمَسْتَوْدَعَاتِ سِيرِهِمْ، وَإِعْلَامِهِ لَهُمْ بِمَكْتُومِ شَرَائِعِهِمْ، وَمُضْمَنَاتِ كُتُبِهِمْ؛ مِثْلُ سَوَالِهِمْ عَنِ الرُّوحِ، وَذِي الْقَرْنَيْنِ، وَأَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَعِيسَى، وَحُكْمِ الرَّجْمِ وَمَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ؛ وَمَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَنْعَامِ، وَمِنْ طَيِّبَاتِ كَانَتْ أَحَلَّتْ لَهُمْ فَحُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ بِغِيهِمْ.

وقوله: ﴿ذَلِكَ مِثْلَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّرَ أَخْرَجَ شَطْرَهُمْ فَكَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

وغير ذلك من أمورهم التي نزل فيها القرآن؛ فأجابهم وعرفهم بما أوحى إليه من ذلك، أنه أنكر ذلك أو كذبه؛ بل أكثرهم صرَّحَ بصحة نبوته، وصنِّقَ مقالته، واعترف بعنايده وحسدهم إياه؛ كأهل نَجْرَانَ، وابن صُورِيَا [البخاري (٦٨٤١)، مسلم (١٦٩٩)]، وابْنِي أَخْطَبَ وغيرهم.

ومن باهت في ذلك بغض المباحته، وادَّعى أن فيما عندهم من ذلك لما حكاه مخالفة، دُعي إلى إقامة حُجَّتِهِ، وَكَشَفَ دَعْوَتَهُ؛ فَقِيلَ لَهُ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٣) ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٩٤) [آل عمران: ٩٣، ٩٤].

فقرَّعَ وَوَبَّخَ، وَدَعَا إِلَى إِحْضَارِ مُمَكِّنٍ غَيْرِ مُمْتَنِعٍ؛ فَمِنْ مُعْتَرِفٍ بِمَا جَحَدَهُ، وَمُتَوَاقِعٍ يُلْقِي عَلَى قَضِيحَتِهِ مِنْ كِتَابِهِ يَدَهُ [البخاري (٦٨٤١)، مسلم (١٦٩٩)].

وَلَمْ يُؤْثَرَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ أَظْهَرَ خِلَافَ قَوْلِهِ مِنْ كُتُبِهِ، وَلَا أَبْدَى صَحِيحًا وَلَا سَقِيمًا مِنْ صُحُفِهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ رَبِّ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُمْ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

فصل

فِي آيَاتٍ وَرَدَتْ بِتَعْجِيزِ قَوْمٍ فِي قَضَايَا وَإِعْلَامِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَهَا، فَمَا فَعَلُوا وَلَا قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ

هذه الوجوه الأربعة من إعجازه بيَّنة لا نزاع فيها ولا مِرْية.

ومن الوجوه البيَّنة في إعجازه من غير هذه الوجوه آيٌ وَرَدَتْ بِتَعْجِيزِ قَوْمٍ فِي قَضَايَا، وَإِعْلَامِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَهَا، فَمَا فَعَلُوا وَلَا قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ؛ كَقَوْلِهِ

لليهود: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ ﴿[البقرة: ٩٤، ٩٥].
قال أبو إسحاق الزجاج: في هذه الآية أعظم حجة وأظهر دلالة على صحة الرسالة؛
لأنه قال: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾؛ وأعلمهم أنهم لن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا، فلم يَتَمَنَّه واحد منهم.
٦٦٢ - وعن النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده! لا يقولها رجلٌ منهم إلا غصَّ بريقه» [أحمد (٢٤٨/١)] يعني: يموت مكانه.

فصرفهم الله عن تمنيه، وجزعهم؛ ليظهر صدق رسوله، وصحة ما أوجي إليه، إذ لم يتمنه أحدٌ منهم؛ وكانوا على تكذيبه أحرص لو قدرُوا؛ ولكن الله يفعل ما يريد؛ فظهرت بذلك معجزته، وبانت حُجته.
وقال أبو محمد الأصيلي: من أعجب أمرهم أنه لا يوجدُ منهم جماعة، ولا واحد، من يوم أمر الله بذلك نبيه، يُقدِّم عليه، ولا يُجيبُ إليه.
وهذا موجودٌ مشاهدٌ لمن أراد أن يمتحنه منهم.

٦٦٣ - وكذلك آية المِباهلة من هذا المعنى، حيث وفد عليه أساقفة نجران، وأبوا الإسلام؛ فأنزل الله [تعالى] عليه آية المِباهلة بقوله: ﴿فَمَنْ حَاكَمَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْحُكْمِ فَقُلْ تَمَّالُوا نَدْعُ آبَاءَنَا وَأَبَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] [البخاري (٤٣٨٠)، مسلم (٢٤٢٠)].

فامتنعوا منها، ورضوا بأداء الجزية؛ وذلك أن «العاقب» عظيمهم قال لهم: قد علمتم أنه نبي، وأنه ما لآعن قومًا نبي قط فبقي كبيرهم ولا صغيرهم.
ومثله قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا... ﴿[البقرة: ٢٣، ٢٤].
فأخبرهم أنهم لا يفعلون؛ كما كان.

وهذه الآية أدخل في باب الإخبار عن الغيب، ولكن فيها من التعجيز ما في التي قبلها.

فصل

فِي الرُّوْعَةِ الَّتِي تَلْحَقُ سَامِعِيهِ وَأَسْمَاعَهُمْ عِنْدَ سَمَاعِهِ، وَالْهَيْئَةِ الَّتِي تَغْتَرِيهِمْ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ

ومنها الرُّوْعَةُ التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهَيْئَةُ التي تغتريهم عند تلاوته لقوة حاله، وإنافة خطره؛ وهي على المكذبين به أعظم، حتى

كَانُوا يَسْتَفْتِلُونَ سَمَاعَهُ، وَيَزِيدُهُمْ نَفُورًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى؛ وَيَوْدُونَ انْقِطَاعَهُ لِكِرَاهَتِهِمْ لَهُ.

٦٦٤ - ولهذا قال عليه السلام: «إِنَّ الْقُرْآنَ صَغَبٌ مُسْتَضَعَبٌ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ؛ وَهُوَ الْحَكْمُ» وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَلَا تَزَالُ رَوْعَتُهُ بِهِ، وَهَيْبَتُهُ إِيَّاهُ، مَعَ تِلَاوَتِهِ، ثَوْلِيهِ انْجِدَابًا، وَتَكْسِيْبُهُ هَشَامَةً، لِمَيْلِ قَلْبِهِ إِلَيْهِ، وَتَصْدِيقِهِ بِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تَقْسَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال: «لَوْ أَنَّنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشُوعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» [الحشر: ٢١].
وبدل على أن هذا شيء خُصَّ به، أَنَّهُ يَغْتَرِي مَنْ لَا يَفْهَمُ مَعَانِيَهُ، وَلَا يَعْلَمُ تَفَاسِيرَهُ، كَمَا رُوِيَ عَنْ نَضْرَانِي، أَنَّهُ مَرَّ بِقَارِيءٍ، فَوَقَفَ يَبْكِي، فَقِيلَ لَهُ: مِمَّ بَكَيتَ؟ قَالَ: لِلشَّجَا وَالنَّظَمِ.

وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام وبعده؛ فمنهم من أسلم لها لأول وهلة، وآمن به، ومنهم من كفر.

٦٦٥ - فحكى في الصحيح، عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخُلُقُونَ﴾ ٣٥ أَمْ خَلِقُوا الْأَسْمَانُ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ٣٦ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمْ الْمُصْطَفُونَ ٣٧ [الطور: ٣٥-٣٧] كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ [البخاري (٤٨٥٤)]، مُسْلِمٌ (٤٦٣).

٦٦٦ - وفي رواية: وذلك أول ما وَقَرَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي [البخاري (٤٠٢٣)].

٦٦٧ - وعن عُثْبَةَ بْنِ رِبِيعَةَ أَنَّهُ كَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ خِلَافِ قَوْمِهِ، فَتَلَا عَلَيْهِمْ ﴿حَمْدٌ ١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي مَا دَأَيْنَا وَفَرَّ مِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا نَحْنُ غَمِلُونَ ٥ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلَّهِمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا ٦ وَأَنذَرْتُ الْكَافِرِينَ ٧ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٨ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٩ قُلْ أَتَيْتُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١٠ وَجَعَلَ فِيهَا رِجْسَيْنِ مِنْ قَوْفِهِمَا وَجَعَلَ فِيهَا وَقْدًا فِيهَا أَقْوَاتًا فِي أَرْبَعَةِ آيَاتٍ سَوَاءٌ لِلنَّاسِ لِمَا أَتَوْا بِهَا

وَالْأَرْضِ أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالُوا أَلَيْسَ طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَيْنَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِذَا أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُودٌ ﴿١٣﴾ [فصلت: ١- ١٣] فأمسك عُتْبَةَ يده على في النبي ﷺ، وناشدته الرَّحِمَ أن يكف.

٦٦٨ - وفي رواية: فجعل النبي ﷺ يقرأ عُتْبَةَ مُضْغٍ مُلْقٍ يديه خلف ظهره، مُغْتَمِدٌ عَلَيْهِمَا، حتى انتهى إلى السجدة؛ فسجد النبي ﷺ، وقام عُتْبَةُ لَا يَذِرِي بِمَا يُرَاجِعُهُ، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قومه حتى أْتَوْهُ؛ فاعتذر لهم، وقال: واللَّهِ! لَقَدْ كَلَمْتَنِي بِكَلَامٍ. واللَّهِ! مَا سَمِعْتُ أَذْنَائِي بِمِثْلِهِ قَطُّ، فما ذَرَنْتُ مَا أَقُولُ لَهُ.

وقد حُكِيَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِمَّنْ رَامَ مُعَارَضَتَهُ أَنَّهُ اعْتَرَتْهُ رَوْعَةٌ وَهَيْبَةٌ كَفَّ بِهَا عَنْ ذَلِكَ.

فَحُكِيَ أَنَّ ابْنَ الْمُقَفِّعِ طَلَبَ ذَلِكَ وَرَامَهُ، وَشَرَعَ فِيهِ؛ فَمَرَّ بِصَبِيٍّ يَقْرَأُ: ﴿وَقِيلَ يَتَاوُسُ أَتْلِيَ مَاءَكِ﴾ [مود: ٤٤] فَرَجَعَ وَمَحَا مَا عَمِلَ؛ وَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ هَذَا لَا يُعَارِضُ، وَمَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ؛ وَكَانَ مِنْ أَفْصَحِ أَهْلِ وَقْتِهِ. وَكَانَ يَحْيَى بْنُ حَكَمٍ الْغَزَالُ بَلِيغُ الْأَنْدَلُسِ فِي زَمَانِهِ؛ فَحُكِيَ أَنَّهُ رَامَ شَيْئًا مِنْ هَذَا، فَنَظَرَ فِي سُورَةِ الْإِخْلَاصِ لِيَحْذَوْ عَلَى مِثَالِهَا، وَيَنْسِجَ - بِزُغْمِهِ - عَلَى مِثْلِهَا - قَالَ: فَأَعْتَرَنِي خَشْيَةٌ وَرِيقَةٌ، حَمَلَتْهُ عَلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ.

فصل

فِي كَوْنِ الْقُرْآنِ آيَةً بَاقِيَةً لَا تُغْدَمُ مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا مَعَ تَكْفُلِ اللَّهِ بِحِفْظِهِ

وَمِنْ وَجُوهِ إِعْجَازِهِ الْمَعْدُودَةِ كَوْنُهُ آيَةً بَاقِيَةً لَا تُغْدَمُ مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا مَعَ تَكْفُلِ اللَّهِ بِحِفْظِهِ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وَقَالَ: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وسائرُ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ انْقَضَتْ بَانْقِضَاءِ أَوْقَاتِهَا، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا خَبَرُهَا؛ وَالْقُرْآنُ الْعَزِيزُ، الْبَاهِرَةُ آيَاتُهُ، الظَّاهِرَةُ مُعْجِزَاتُهُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ، مَدَّةَ خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ وَخَمْسِ وَثَلَاثِينَ سَنَةً لِأَوَّلِ نَزُولِهِ إِلَى وَقْتِنَا هَذَا، حِجَّتُهُ قَاهِرَةٌ، وَمُعَارَضَتُهُ مُمْتَنِعَةٌ، وَالْأَعْصَارُ كُلُّهَا طَافِحَةٌ بِأَهْلِ الْبَيَانِ، وَحَمَلَةٌ عِلْمِ اللِّسَانِ، وَأَائِمَّةُ الْبَلَاغَةِ،

وَفُزَّسَانِ الْكَلَامِ، وَجَهَابِذَةِ الْبَرَاعَةِ؛ وَالْمُلْحَدُ فِيهِمْ كَثِيرٌ، وَالْمُعَادِي لِلشَّرْعِ عَتِيدٌ؛ فَمَا مِنْهُمْ مَنْ أَتَى بِشَيْءٍ يُؤْثِرُ فِي مُعَارَضَتِهِ، وَلَا أَلْفَ كَلِمَتَيْنِ فِي مُنَاقَضَتِهِ، وَلَا قَدَّرَ فِيهِ عَلَى مَطْعَنِ صَحِيحٍ، وَلَا قَدَحَ الْمُتَكَلِّفُ مِنْ ذِفْنِهِ فِي ذَلِكَ إِلَّا بَزْنِدٍ شَحِيحٍ؛ بَلِ الْمَأْثُورُ عَنْ كُلِّ مَنْ رَامَ ذَلِكَ إِقَاوَهُ فِي الْعَجْزِ بِيَدَيْهِ، وَالنَّكُوصُ عَلَى عَقِبَيْهِ.

فصل

فِي وُجُوهِ أُخْرَى فِي إِعْجَازِهِ مِنْهَا: لَا يَمْلَهُ قَارِئُهُ

وقد عَدَّ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأُثْمَةِ وَمُقَلِّدِي الْأُمَّةِ فِي إِعْجَازِهِ وَجُوهًا كَثِيرَةً.

مِنْهَا: أَنْ قَارِئَهُ لَا يَمْلَهُ، وَسَامِعَهُ لَا يَمُحُّهُ؛ بَلِ الْإِكْبَابُ عَلَى تَلَاوَتِهِ يَزِيدُهُ حِلَاوَةً، وَتَرْذِيدُهُ يُوْجِبُ لَهُ مَحَبَّةً؛ لَا يَزَالُ غَضًّا طَرِيًّا، وَغَيْرُهُ مِنَ الْكَلَامِ - وَلَوْ بَلَغَ فِي الْحُسْنِ وَالبَلَاغَةِ مَبْلَغَهُ - يَمَلُّ مَعَ التَّرْدِيدِ، وَيُعَادَى إِذَا أُعِيدَ؛ وَكُنَّا نَسْتَلْذُّ بِهِ فِي الْخُلُوتِ، وَيُؤَنَسُ بِتَلَاوَتِهِ فِي الْأَزْمَاتِ؛ وَسِوَاهُ مِنَ الْكُتُبِ لَا يُوجَدُ فِيهَا ذَلِكَ؛ حَتَّى أَحْدَثَ أَصْحَابُهَا لَهَا لَحُونًا وَطُرُقًا يَسْتَجْلِبُونَ بِتِلْكَ اللَّحُونِ تَنْشِيطَهُمْ عَلَى قِرَاءَتِهَا.

٦٦٩ - وَلِهَذَا وَصَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ: «لَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَيْزَهُ، وَلَا تَفْنِي عَجَائِبَهُ؛ هُوَ الْفَضْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلُ، لَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ؛ هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجُنُّ حِينَ سَمِعَتْهُ أَنْ قَالُوا: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (١) يَهْدِي إِلَى الرَّشْدِ» [الجن: ١، ٢] [الترمذي (٢٩٠٦)].

وَمِنْهَا: جَمْعُهُ لِعُلُومٍ وَمَعَارِفٍ لَمْ تَعْهَدْ الْعَرَبُ عَاقَةً وَلَا مُحَمَّدٌ ﷺ قَبْلَ نُبُوَّتِهِ خَاصَّةً، بِمَعْرِفَتِهَا، وَلَا الْقِيَامَ بِهَا؛ وَلَا يُحِيطُ بِهَا أَحَدٌ مِنَ عُلَمَاءِ الْأُمَمِ، وَلَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا كِتَابٌ مِنْ كُتُبِهِمْ؛ فَجُمِعَ فِيهِ مِنْ بَيَانِ عِلْمِ الشَّرَائِعِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى طُرُقِ الْحُجَجِ الْعَقْلِيَّاتِ، وَالرَّدِّ عَلَى فِرَاقِ الْأُمَمِ؛ بِبِرَاهِينٍ قَوِيَّةٍ، وَأَدْلَةٍ بَيِّنَةٍ، سَهْلَةٍ الْأَلْفَافِ، مُوجِزَةٍ الْمَقَاصِدِ، رَامَ الْمُتَحَذِّقُونَ بَعْدَ أَنْ يَنْصُبُوا أَدْلَةً مِثْلَهَا، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١].

و ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩].

و ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

إلى ما حواه من علوم السَّير، وأنباء الأمم، والمواعظ، والحكم، وأخبار الدار الآخرة، ومحاسن الآداب والشيم.

قال الله - جَلَّ اسْمُهُ -: ﴿مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

و ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨].

و ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

٦٧٠ - وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ أَمْرًا وَزَجْرًا، وَسُنَّةً خَالِيَةً، وَمَثَلًا مَضْرُوبًا، فِيهِ نَبُوءُكُمْ، وَخَبَرٌ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَنَبَأٌ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ، لَا يُخْلِقُهُ طَوْلُ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ؛ هُوَ الْحَقُّ لَيْسَ بِالْهَزْلِ؛ مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ خَاصَمَ بِهِ فَلَجَ، وَمَنْ قَسَمَ بِهِ أَقْسَطَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أَجَرَ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ هُدًى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ؛ وَمَنْ طَلَبَ الْهُدَى مِنْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ؛ وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِهِ قَضَمَهُ اللَّهُ؛ هُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ، وَالصُّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَحَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ اتَّبَعَهُ، لَا يَفْجُؤُكَ فَيَقْوَمُ، وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَغْتَبُ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ».

٦٧١ - ونحوه عن ابن مسعود؛ وقال فيه: «وَلَا يَخْتَلِفُ، وَلَا يَتَشَاوَرُ، فِيهِ نَبَأُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ».

٦٧٢ - وفي الحديث: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ: إِنِّي مَتَرُوكَ عَلَيْكَ تَوْرَةَ حَدِيثَهُ، تَفَتَّحَ بِهَا أَعْيُنًا غُمَيًّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، فِيهَا يَنْبِيعُ الْعِلْمِ وَفَهْمُ الْحِكْمَةِ، وَرَبِيعُ الْقُلُوبِ».

وَعَنْ كَعْبٍ: عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ فَهْمُ الْعُقُولِ، وَنُورُ الْحِكْمَةِ.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

فَجُمِعَ فِيهِ - مَعَ وَجَازَةِ أَلْفَاظِهِ، وَجَوَامِعِ كَلِمِهِ - أَضْعَافٌ مَا فِي الْكِتَابِ قَبْلَهُ، الَّتِي أَلْفَاظُهَا عَلَى الضَّعْفِ مِنْهُ مَرَّاتٍ.

ومنها: جَمَعَهُ فِيهِ بَيْنَ الدَّلِيلِ وَمَذْلُولِهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ احْتَجَّ بِنَظْمِ الْقُرْآنِ، وَحُسْنِ رِضْفِهِ وَإِيجَازِهِ وَبِلَاغَتِهِ؛ وَأَتْنَاءَ هَذِهِ الْبَلَاغَةِ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ، وَوَعْدُهُ وَوَعِيدُهُ؛ فَالْتَّالِي لَهُ يَفْهَمُ مَوْضِعَ الْحُجَّةِ وَالتَّكْلِيفِ مَعًا مِنْ كَلَامٍ وَاحِدٍ، وَسُورَةٍ مُنْفَرَدَةٍ.

ومنها: أَنْ جَعَلَهُ فِي حَيْزِ المنظوم الذي لم يُعْهَد، ولم يكن في حَيْزِ
المنثور؛ لأنَّ المنظوم أسهلُّ على النفوس، وأَوْعَى للقلوب، وَأَسْمَحُ في الأذان،
وأخلى على الأفهام، فالتَّاسُّ إِلَيْهِ أَمِيلٌ، والأهواءُ إِلَيْهِ أَسْرَعُ.

ومنها: تيسيره تعالى حِفْظَهُ لِمُتَعَلِّمِيهِ، وتَقْرِيْبُهُ على مِتَحَفْظِيهِ؛ قال اللّهُ
تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧].

وسائرُ الأُمَمِ لا يَحْفَظُ كِتَابَهَا الواحدُ منهم، فكيف الجَمَاءُ على مُرورِ السنين
عليهم. والقرآنُ مُيسَّرٌ حِفْظُهُ لِلْعِلْمَانِ في أَقْرَبِ مَدَّةٍ.

ومنها: مُشَاكَلَةُ بَعْضِ أَجْزَائِهِ بَعْضًا، وَحُسْنُ اتِّتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، وَالتَّيَّامُ أَقْسَامِهَا؛
وَحُسْنُ التَّخْلُصِ مِنْ قِصَّةٍ إِلَى أُخْرَى، والخروجُ مِنْ بَابٍ إِلَى غَيْرِهِ على اختلافِ
مَعَانِيهِ، وانقسامُ السُّورَةِ الواحدةِ على أَمْرٍ وَنَهْيٍ، وَخَبَرٍ وَاسْتِخْبَارٍ، وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ،
وَإِثْبَاتِ ثُبُوتٍ، وَتَوْحِيدِ وَتَقْرِيرٍ، وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيْبٍ، إِلَى غيرِ ذَلِكَ مِنْ فَوَائِدِهِ، دُونَ
خَلِّ يَتَخَلَّلُ فَضُولَهُ.

والكلامُ الفصيحُ إذا اغْتَوْرَهُ مِثْلُ هَذَا ضَعُفَتْ قُوَّتُهُ، وَلَانَتْ جَزَالَتُهُ، وَقِلَّ
رُؤْنَتُهُ، وَتَقَلَّقَتْ أَلْفَاظُهُ.

فتأملُ أَوَّلَ ﴿ص﴾ وما جُمِعَ فِيهَا مِنْ أخبارِ الكُفَّارِ وَشِقَاقِهِمْ وَتَقْرِيعِهِمْ
بِإِهْلَاكِ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِهِمْ، وما ذُكِرَ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَتَعْجِيبِهِمْ مِمَّا أَتَى بِهِ
وَالْخَبَرُ عَنْ اجْتِمَاعِ مَلَتِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ، وما ظَهَرَ مِنَ الْحَسَدِ فِي كَلَامِهِمْ،
وَتَعْجِيزِهِمْ وَتَوَهِينِهِمْ، وَوَعِيدِهِمْ بِخُرْبِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَتَكْذِيبِ الْأَمَمِ قَبْلَهُمْ،
وَإِهْلَاكِ اللَّهِ لَهُمْ، وَوَعِيدِ هَؤُلَاءِ مِثْلَ مُصَابِهِمْ، وَتَضْيِيقِ النَّبِيِّ عَلَى أَذَاهُمْ، وَتَسْلِيَتِهِ
بِكُلِّ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ؛ ثُمَّ أَخَذَ فِي ذِكْرِ دَاوُدَ وَقِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ؛ كُلُّ هَذَا فِي أَوْجَزِ
كَلَامٍ وَأَحْسَنِ نِظَامٍ.

ومنه: الْجَمْلَةُ الْكَثِيرَةُ الَّتِي انطَوَتْ عَلَيْهَا الْكَلِمَاتُ الْقَلِيلَةُ؛ وَهَذَا كُلُّهُ وَكَثِيرُ
مِمَّا ذَكَّرْنَا أَنَّهُ ذُكِرَ فِي إعْجَازِ الْقُرْآنِ، إِلَى وَجْهِ كَثِيرٍ، ذَكَرَهَا الْأَمَّةُ لَمْ تَذْكُرْهَا؛
إِذَا أَكْثَرَهَا دَاخِلٌ فِي بَابِ بَلَاغَتِهِ؛ فَلَا يَجِبُ أَنْ يُعَدَّ فِتْنًا مُنْفَرِدًا فِي إعْجَازِهِ، إِلَّا فِي
بَابِ تَفْصِيلِ فَنُونِ الْبَلَاغَةِ، وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِمَّا قَدَمْنَا ذِكْرَهُ عَنْهُمْ، يُعَدُّ فِي خَوَاصِهِ
وَفَضَائِلِهِ، لَا إِعْجَازِهِ.

وَحَقِيقَةُ الْإِعْجَازِ الْوُجُوهُ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي ذَكَّرْنَا؛ فَلْيُعْتَمَدْ عَلَيْهَا، وَمَا بَعْدَهَا مِنْ
خَوَاصِّ الْقُرْآنِ وَعَجَائِبِهِ الَّتِي لَا تَنْقُضِي. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

فصل

في انشقاق القمر وحبس الشمس

قال الله تعالى: ﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۖ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيُقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ ﴾ [القمر: ١، ٢].

أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي، وإعراض الكفرة عن آياته؛ وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه.

٦٧٣ - أخبرنا الحسين بن محمد الحافظ من كتابه، حدثنا القاضي سراج بن عبد الله، حدثنا الأصيلي، حدثنا المروزي، حدثنا الفربري، حدثنا البخاري، حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، عن شعبة، وسفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي مَعْمَر، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه؛ فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا» [البخاري (٤٨٦٤)، مسلم (٢٨٠٠)].

٦٧٤ - وفي رواية مجاهد: ونحن مع النبي ﷺ.

٦٧٤ م - وفي بعض طرق الأعمش: ونحن بمنى [البخاري (٣٨٦٩)، مسلم (٤٤٢٨٠٠)].

٦٧٥ - ورواه أيضاً - عن ابن مسعود - الأسود، وقال: حتى رأيت الجبل بين فرجتي القمر [أحمد (٤١٣/١)].

٦٧٦ - ورواه عنه مسروق، أنه كان بمكة، وزاد: فقال كفار قريش: سحركم ابن أبي كبشة [البخاري (٣٨٦٩)].

فقال رجل منهم: إن محمداً إن كان سحر القمر فإنه لا يبلغ من سخره أن يسحر الأرض كلها، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر: هل رأوا هذا؟ فأتوا، فسألوهم فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك.

وحكى السمرقندي عن الضحاك، نحوه، وقال: فقال أبو جهل: هذا سحر، فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى تنظروا: أروا ذلك أم لا؟ فأخبر أهل الآفاق أنهم رأوه منشقاً؛ فقالوا - يعني الكفار -: هذا سحر مستمر.

٦٧٧ - ورواه أيضاً - عن ابن مسعود - علقمة؛ فهو لاء أربعة عن عبد الله.

٦٧٨ - ٦٨٣ - وقد رواه غير ابن مسعود، كما رواه ابن مسعود؛ منهم:

أنس [البخاري (٣٦٣٧)، مسلم (٢٨٠٢)]، وابن عباس [البخاري (٣٦٣٨)، مسلم (٢٨٠٣)]،

وابنُ عُمر [مسلم (٢٨٠١)]، وحُذِيفَةُ، وعلي، وجُبَيْر بن مُطْعِم [الترمذي (٣٢٨٩)]؛ فقال عَلِيٌّ - من رواية أبي حُذِيفَةَ الأَزْهَبِيِّ: لَنَشَقَّ الْقَمَرَ وَنُخَنِّ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ .

وعن أَنَسٍ: سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمْ انشِقَاقَ الْقَمَرِ فَرَقَتَيْنِ حَتَّى رَأَوْا جِرَاءَ بَيْنَهُمَا. رَوَاهُ عَنْ أَنَسٍ قَتَادَةُ.

وفي رواية مَعْمَرٍ وَغَيْرِهِ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْهُ: أَرَاهُمْ الْقَمَرَ مَرَّتَيْنِ انشِقَاقَهُ، فَتَزَلَّتْ: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

ورَوَاهُ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ابْنَهُ مُحَمَّدٍ، وَابْنِ ابْنِهِ جُبَيْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ.

ورَوَاهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عبيدُ اللَّهِ بن عبدِ اللَّهِ بن عُتْبَةَ.

ورَوَاهُ عَنْ ابْنِ عُمر مُجَاهِدٌ، وَرَوَاهُ عَنْ حُذِيفَةَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ وَمُسْلِمٌ بن أَبِي عَمْرَانَ الأَزْدِيُّ.

وَأَكْثَرُ طُرُقِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ صَحِيحَةٌ؛ وَالْآيَةُ مُصَرَّحَةٌ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى اعْتِرَاضِ مَحْذُولٍ، بَأَنَّهُ لَوْ كَانَ هَذَا لَمْ يَخَفْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ؛ إِذْ هُوَ شَيْءٌ ظَاهِرٌ لَجَمِيعِهِمْ؛ إِذْ لَمْ يُنْقَلْ لَنَا عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنَّهُمْ رَصَدُوهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فَلَمْ يَرَوْهُ انشَقَّ؛ وَلَوْ ثَقُلَ إِلَيْنَا عَمَّنْ لَا يَجُوزُ تَمَالُؤُهُمْ - لَكَثَرَتْهُمْ - عَلَى الْكَذِبِ، لَمَّا كَانَتْ عَلَيْنَا بِهِ حُجَّةٌ؛ إِذْ لَيْسَ الْقَمَرُ فِي حَدِّ وَاحِدٍ لَجَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ؛ فَقَدْ يَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ عَلَى آخَرِينَ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ قَوْمٍ بَصِيْدٌ مَا هُوَ مِنْ مُقَابِلِهِمْ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، أَوْ يَحُولُ بَيْنَ قَوْمٍ وَبَيْنَهُ سَحَابٌ أَوْ جِبَالٌ؛ وَلِهَذَا نَجِدُ الْكُسُوفَاتِ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ دُونَ بَعْضٍ، وَفِي بَعْضِهَا جُزْئِيَّةٌ، وَفِي بَعْضِهَا كُلِّيَّةٌ، وَفِي بَعْضِهَا لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا الْمُدْعُونَ لِعِلْمِهَا؛ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ.

وَأَيَّةُ الْقَمَرِ كَانَتْ لَيْلًا، وَالْعَادَةُ مِنَ النَّاسِ بِاللَّيْلِ الْهَدْوُ وَالسَّكُونُ وَإِيجَافُ الْأَبْوَابِ، وَقَطْعُ التَّصَرُّفِ، وَلَا يَكَادُ يَعْرِفُ مِنْ أُمُورِ السَّمَاءِ شَيْئًا، إِلَّا مَنْ رَصَدَ ذَلِكَ، وَاهْتَبَلَ بِهِ.

وَكَذَلِكَ مَا يَكُونُ الْكُسُوفُ الْقَمَرِي كَثِيرًا فِي الْبِلَادِ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُ بِهِ حَتَّى يُخْبَرَ، وَكَثِيرًا مَا يَحْدُثُ الثَّقَاتُ بِعَجَائِبِ يَشَاهِدُونَهَا مِنْ أَنْوَارٍ وَنُجُومٍ طَوَالِ عِظَامِ تَظْهَرُ فِي الْأَحْيَانِ بِاللَّيْلِ فِي السَّمَاءِ، وَلَا عِلْمُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهَا.

٦٨٤ - وَخَرَجَ الطَّحَاوِيُّ فِي مَشْكِלِ الْحَدِيثِ، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ، مِنْ طَرِيقَيْنِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُوْحَى إِلَيْهِ، وَرَأْسُهُ فِي جِجَرِ عَلِيٍّ، فَلَمْ يَصِلْ الْعَصْرَ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَصْلَيْتُ؟ يَا عَلِيُّ!» قَالَ: لَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ! إِنَّهُ كَانَ فِي طَاعَتِكَ، وَطَاعَةِ رَسُولِكَ، فَارْزُدْ عَلَيْهِ الشَّمْسَ».

قالت أسماء: فرأيتها غَرَبَتْ، ثم رأيتها طَلَعَتْ بعد ما غَرَبَتْ، ووقفت على الجبال والأرض، وذلك بالصَّهْبَاءِ فِي حَيْثَرٍ.

قال: وهذانِ الحديثانِ ثابتانِ ورؤاؤُهُما ثقات.

وحكى الطَّحَاوي أَنَّ أحمد بن صالح كان يقول: لا ينبغي لمن كان سبيلُهُ العلمَ التَّخَلُّفُ عن حفظ حديثِ أسماء؛ لأنه من أجلِّ علامات النبوة.

٦٨٥ - وزَوَى يونس بن بُكَيْرٍ في زيادة المغازي في روايته عن ابن إسحاق:

لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَخْبَرَ قَوْمَهُ بِالرُّفْقَةِ وَالْعَلَامَةِ الَّتِي فِي الْغَيْرِ قَالُوا: مَتَى تَجِيءُ؟ قَالَ: «يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ» فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَشْرَفْتُ فُرَيْشَ يَنْظُرُونَ وَقَدْ وَلَّى النَّهَارَ وَلَمْ تَجِءْ؛ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَزِيدَ لَهُ فِي النَّهَارِ سَاعَةً، وَحَبِسْتُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ.

فصل

فِي نَبْعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ وَتَكَثِيرِهِ بِتَرَكَّتِهِ

قال المؤلف رحمه الله: أما الأحاديث في هذا فكبيرة جداً.

زَوَى حَدِيثَ نَبْعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ ﷺ جَمَاعَةً مِنَ الصَّحَابَةِ؛ مِنْهُمْ أَنَسٌ، وَجَابِرٌ، وَابْنُ مَسْعُودٍ.

٦٨٦ - حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ: إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ الْفَقِيه بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، حَدَّثَنَا

الْقَاضِي عِيسَى بْنُ سَهْلٍ، حَدَّثَنَا أَبُو الْقَاسِمِ: حَاتِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ بْنُ الْفَخَّارِ، حَدَّثَنَا أَبُو عِيسَى، حَدَّثَنَا يَحْيَى، حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَحَاطَتْ صَلَاةَ الْعَصْرِ؛ فَالْتَمَسَ النَّاسُ الْوُضُوءَ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَأَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِوُضُوءٍ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ الْإِنَاءِ يَدَهُ، وَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَتَوَضَّؤُوا مِنْهُ.

قال: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند

آخِرِهِمْ [البخاري (١٦٩)، مسلم (٥/٢٢٧٩)].

٦٨٧ - ورواه أيضاً - عن أَنَسٍ - قَتَادَةُ، وَقَالَ: بَانَاءٍ فِيهِ مَاءٌ يَغْمُرُ أَصَابِعَهُ أَوْ

لَا يَكَادُ يَغْمُرُ. قَالَ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: كُنَّا زُهَاءً ثَلَاثَ مِائَةٍ [البخاري (٣٥٧٢)، مسلم (٧/٢٢٧٩)].

٦٨٨ - وفي روايةٍ عنه: وَهُمْ بِالزَّوْزَاءِ عِنْدَ السُّوقِ [البخاري (٣٥٧٢)، مسلم

(٦/٢٢٧٩)].

ورواه أيضاً حُمَيْدٌ، وثابتٌ، والحَسَنُ، عن أَنَسٍ.

٦٨٩ - وفي رواية حُمَيْدٍ: قلتُ: كم كانوا؟ قال: ثمانين [البخاري (٣٥٧٥)].

٦٩٠ - ونحوه عن ثابت عنه [البخاري (٢٠٠)، مسلم (٤/٢٢٧٩)].

٦٩١ - وعنه أيضاً: وهم نحو من سبعين رجلاً [البخاري (٣٥٧٤)].

٦٩٢ - وأما ابنُ مسعود ففي الصحيح عنه - من رواية عَلْقَمَةَ -: بينما نحن مع رسول الله ﷺ، وليس معنا ماءٌ، فقال لنا رسول الله ﷺ: «اطلبوا مِنّ معي فَضْلَ ماءٍ»، فَأَتَيْتُ بِماءٍ فَصَبَّهُ فِي إِنَاءٍ، ثُمَّ وَضَعَ كَفَّهُ فِيهِ، فَجَعَلَ الْمَاءُ يَنْبُغُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [البخاري (٣٥٧٩)].

٦٩٣ - وفي الصحيح، عن سالم بن أبي الجَعْدِ، عن جابر رضي الله عنه: عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْيَةِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةً، فَتَوَضَّأَ مِنْهَا، وَأَقْبَلَ النَّاسُ نَحْوَهُ؛ وَقَالُوا: لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ إِلَّا مَا فِي رَكْوَتِكَ؛ فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ فِي الرِّكْوَةِ فَجَعَلَ الْمَاءُ يَقُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْغُيُونِ.

وفيه: فَقُلْتُ: كم كنتم؟ قال: لو كنا مِئَةَ أَلْفٍ لَكُنَّا؛ كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِئَةً [البخاري (٤١٥٢)، مسلم (٧٢/١٨٥٦)].

٦٩٤ - وَرَوَى مِثْلَهُ عَنْ أَنَسٍ، عَنْ جَابِرٍ؛ وفيه أنه كان بِالْحُدَيْيَةِ.

٦٩٥ - وفي رواية عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنْهُ، فِي حَدِيثِ مُسْلِمِ الطَّوِيلِ فِي ذِكْرِ غَزْوَةِ بُوَاطٍ قَالَ:

قال لي رسول الله ﷺ: «يا جابر! نادِ، الوُضوءُ...». وذكر الحديث بطوله، وأنه لم يجد إلا قَطْرَةً فِي عِزْلَةٍ شَجَبَ؛ فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَعَمَزَهُ وَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ لَا أَدْرِي مَا هُوَ؟ وَقَالَ: «نَادِ بِجَفْنَةِ الرُّكْبِ»، فَأَتَيْتُ بِهَا، فَوَضَعْتُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَسَطَ يَدَهُ فِي الْجَفْنَةِ، وَفَرَّقَ أَصَابِعَهُ، وَصَبَّ جَابِرٌ عَلَيْهِ، وَقَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَهُ ﷺ قَالَ: فَرَأَيْتُ الْمَاءَ يَقُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، ثُمَّ فَارَتْ الْجَفْنَةُ وَاسْتَدَارَتْ حَتَّى امْتَلَأَتْ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِالِاسْتِقَاءِ، فَاسْتَقَوْا حَتَّى رَوَوْا.

فقلت: هل بَقِيَ أَحَدٌ لَهُ حَاجَةٌ؟ فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ مِنَ الْجَفْنَةِ وَهِيَ مَلَأَى [مسلم (٣٠١٣)].

٦٩٦ - وعن الشَّعْبِيِّ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ بِأَدَاوَةِ مَاءٍ، وَقِيلَ: مَا مَعْنَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَاءٌ غَيْرُهَا، فَسَكَبَهَا فِي رَكْوَةٍ، وَوَضَعَ إصْبَعَهُ وَسَطَهَا، وَغَمَسَهَا فِي الْمَاءِ، وَجَعَلَ النَّاسُ يَجِثُونَ وَيَتَوَضَّؤُونَ ثُمَّ يَقُومُونَ.

٦٩٧ - قال التِّرْمِذِيُّ: وفي الباب، عن عمران بن حصين.

ومثل هذا في هذه المواطن الحفلة، والجموع الكثيرة، لا تنطرق التهمة إلى المحدث به؛ لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه، لما جُنبت عليه النفوس من ذلك؛ ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل؛ فهؤلاء قد رَوَوْا هذا، وأشاعوه، ونسبوا حضور الجماء الغفير له، ولم يُتَكَبَّر أحد من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم أنهم فَعَلُوا وشاهدوا، فصار كتصديق جميعهم له.

فصل

فِي تَفْجِيرِ الْمَاءِ بِبَرَكَةِ ﷺ، وَانْبِعَاقِهِ بِمَسِّهِ وَدَعْوَتِهِ

٦٩٨ - ومما يُشَبَّه هذا مِنْ معجزاته تَفْجِيرُ الْمَاءِ بِبَرَكَةِ، وَانْبِعَاقُهُ بِمَسِّهِ وَدَعْوَتِهِ فِيمَا رَوَى مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ فِي قِصَّةِ غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَأَنَّهُمْ وَرَدُّوا الْعَيْنَ وَهِيَ تَبِضُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاءٍ مِثْلَ الشَّرَاكِ، فَعَرَفُوا مِنَ الْعَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ حَتَّى اجْتَمَعَ فِي شَيْءٍ، ثُمَّ غَسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ، وَأَعَادَهُ فِيهَا؛ فَجَرَتْ بِمَاءٍ كَثِيرٍ، فَاسْتَقَى النَّاسُ.

٦٩٩ - قَالَ فِي حَدِيثِ ابْنِ إِسْحَاقَ: فَانْخَرَقَ مِنَ الْمَاءِ مَا لَهُ حِسٌّ كَحِسِّ الصُّوَاعِقِ.

ثُمَّ قَالَ: «يُوشِكُ، يَا مُعَاذُ! إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَى مَا هَا هُنَا قَدْ مُلِئَ جَنَانًا» [مسلم (١٠/٧٠٦)].

٧٠٠، ٧٠١ - وَفِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ، وَسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ - وَحَدِيثُهُ أَتَمُّ - فِي قِصَّةِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَهُمْ أَرْبَعُ عَشْرَةَ مِثَّةً، وَبَثَرُهَا لَا تَزُويُ خَمْسِينَ شَاةً، فَفَزَخْنَاهَا فَلَمْ تَتْرَكْ فِيهَا قَطْرَةً، فَقَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَبَاهَا.

قَالَ الْبَرَاءُ: وَأَتَيْتُ بِذَلْوٍ مِنْهَا، فَبَصَقْتُ، فَلَمَّا دَعَا، وَإِنَّمَا بَصَقَ فِيهَا - فَجَاشَتْ؛ فَأَرَوُوا أَنْفُسَهُمْ وَرَكَابَهُمْ [البخاري (٣٥٧٧) مسلم (١٧٢٩)].

وَفِي غَيْرِ هَذِهِ الرِّوَايَتَيْنِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ شِهَابٍ فِي الْحُدَيْبِيَّةِ: فَأَخْرَجَ سَهْمًا مِنْ كِتَانَتِهِ، فَوَضَعَ فِي قَعْرِ قَلِيبٍ لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ، فَرَوَى النَّاسُ حَتَّى ضَرَبُوا بِعَطَنٍ.

٧٠٢ - وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ، وَذَكَرَ أَنَّ النَّاسَ شَكُّوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَطَشَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَلَمَّا بِالْمِيضَاءِ، فَجَعَلَهَا فِي ضَبْنِهِ، ثُمَّ أَلْتَقَمَ قَمَحًا، فَاللَّهُ أَعْلَمُ - نَفَثَ فِيهَا أَمْ لَا فَشَرِبَ النَّاسُ حَتَّى رَوُّوا، وَمَلَأُوا كُلَّ إِنَاءٍ مَعَهُمْ؛ فَخَبِلَ إِلَيَّ

أنها كما أخذها مني، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً [مسلم (٦٨١)].

٧٠٣ - وَرَوَى مِثْلَهُ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ.

وذكر الطبري حديث أبي قتادة على غير ما ذكره أهل الصحيح، وأن النبي ﷺ خرج بهم مُمِدًّا لأهل مؤتة عندما بلغه قتل الأمراء.

وذكر حديثاً طويلاً فيه مُعْجَزَات وآيَات للنبي ﷺ؛ وفيه إعلامهم أنهم يفقدون الماء في غَدٍ.

وذكر حديث المِيْضَاء؛ قال: والقومُ رُهاء ثلاث مئة.

٧٠٤ - وفي كتاب مسلم أنه قال لأبي قتادة: «احفظ علي مِيْضَاتِكَ، فإنه سيكون لها نَبَأٌ» وذكر نحوه [مسلم (٦٨١)].

٧٠٥ - ومن ذلك حديث عمران بن حصين حين أصاب النبي ﷺ وأصحابه عطش في بعض أسفارهم؛ فوجه رجلين من أصحابه، وأعلمهما أنهما يجدان امرأةً بمكانٍ كذا معها بَعِيرٌ عليه مَرَاتَتَان... الحديث؛ فوجداها وأتيا بها إلى النبي ﷺ؛ فجعل في إناءٍ من مَرَاتَتَيْهَا، وقال فيه ما شاء الله أن يقول؛ ثم أعاد الماء في المَرَاتَتَيْنِ، ثم فَتَحَتْ عَزَائِيَهُمَا؛ وأمر الناس فملؤوا أسقيتهم حتى لم يدعوا شيئاً إلا ملؤوه.

قال عمران: وَتَخَيَّلَ إِلَيَّ أَنَّهُمَا لَمْ تَرْدَادَا إِلَّا امتلاءً، ثم أمر فجميع للمرأة من الأرواد حتى ملأ ثوبها. وقال: «أذهبي؛ فإننا لم نأخذ من مائك شيئاً؛ ولكن الله سقانا...» الحديث بطوله [البخاري (٣٤٤)، مسلم (٦٨٢)].

٧٠٦ - وعن سلمة بن الأكوع: قال نبي الله ﷺ: «هل من وضوء؟» فجاء رجلٌ بِإِدَاوَةٍ فيها نُطْفَةٌ فَأَفْرَعَهَا فِي قَدَحٍ، فتوضأنا كُلُّنَا نُدْغِفُهَا دَغْفِقَةً، أربع عشرة مِئَةً [مسلم (١٧٢٩)]. ... الحديث بطوله.

٧٠٧ - وفي حديث عمر، في جيش العُسرة: وذكر ما أصابهم من العطش، حتى إنَّ الرجلَ لَيَنْحَرُ بَعِيرَهُ، فيغصر فَرْثَهُ فيشربه؛ فرغب أبو بكر إلى النبي ﷺ في الدعاء، فرفع يديه، فلم يَرْجِعْهُمَا حتى قالت السماء، فانسكبت؛ فملؤوا ما معهم من آتِيَةٍ، ولم تجاوز العسكر.

٧٠٨ - وعن عمرو بن شعيب، أنَّ أبا طالب قال للنبي ﷺ، وهو رَدِيفُهُ بذِي المَجَاز: عَطِشْتُ وليس عندي ماء؛ فنزل النبي ﷺ، وضرب بِقَدَمِهِ الأَرْضَ، فخرج الماء، فقال: «اشرب».

والحديث في هذا الباب كثير؛ ومنه الإجابة بدعاء الاستسقاء وما جانسهُ.

فصل

وَمِنْ مُفْجَزَاتِهِ تَكْثِيرُ الطَّعَامِ بِتَرْكْتِهِ وَدَعَائِهِ

٧٠٩ - أخبرنا القاضي الشهيد أبو علي رحمه الله، حدثنا العُدري، حدثنا الرازي، حدثنا الجلودي، حدثنا ابن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا الحسن بن أعين، حدثنا مَعْقِل، عن أبي الزبير، عن جابر، أَنَّ رجلاً أتى النبي ﷺ يَسْتَطْعِمُهُ، فأطعمه شَطْرَ وَسْقٍ شعير؛ فما زال يأكل منه وامرأته وضيْفُهُ حتى كآله، فأتى النبي ﷺ، فأخبره، فقال: «لو لم تَكَلِّه لأَكَلْتُمْ منه ولقام بكم» [مسلم (٢٢٨١)].

٧١٠ - ومن ذلك حديث أبي طَلْحَةَ المشهور، وإطعمه ﷺ ثمانين - أو سبعين - رجلاً من أقراص من شعير جاء بها أنس تحت يده - أي إيطه - فأمر بها ففُتَّتْ، وقال فيها ما شاء الله أَنْ يَقُولَ [البخاري (٣٥٧٨)، مسلم (٢٠٤٠)].

٧١١ - وحديث جابر في إطعامه ﷺ يوم الخَنْدَقِ أَلْفَ رَجُلٍ من صاع شعير، وَعَنَاقٍ.

وقال جابر: فَأَقْسِمُ بِاللَّهِ لَأَكْلُوا حتى تركوه وانحرفوا، وَإِنْ بُرْمَتْنَا لَنَغْطُ كما هي، وَإِنْ عَجِيتْنَا لَيُخْبِرُ.

وكان رسول الله ﷺ بَصَقَ في الْعَجِينِ والبُرْمَةِ، وبارك.

رواه عن جابر سَعِيدُ بن مِينَاء، وَأَيْمَنُ [البخاري (٤١٠٢)، مسلم (٢٠٣٩)].

٧١٢ - وعن ثابت، مثله، عن رجل من الأنصار وامرأته، ولم يسمهما؛ قال: وَجِيءَ بِمِثْلِ الكَفِّ، فجعل رسول الله ﷺ يَنْسُطُهَا في الإناء، ويقول ما شاء الله، فأكل منه مَنْ في البيت والحُجْرَةِ والدار؛ وكان ذلك قد امتلأ مِنْ قَدِيمٍ معه ﷺ لذلك؛ وبقي بعدما شَبِعُوا مِثْلَ ما كان في الإناء.

٧١٣ - وحديث أبي أيوب: أَنَّهُ صنع لرسول الله ﷺ ولأبي بكر من الطعام زُهاء ما يكفيهما؛ فقال له النبي ﷺ: «اذْعُ ثَلاثِينَ من أشرف الأنصار» فدعاهم، فأكلوا حتى تركوا؛ ثم قال: «اذْعُ سَتِينَ» فكان مِثْلُ ذلك؛ ثم قال: «اذْعُ سَبْعِينَ» فأكلوا حتى تركوا، وما خرج منهم أَحَدٌ حتى أسلم وبايع.

قال أبو أيوب: فَأَكَلَ مِنْ طَعَامِي مِثْلُ ثَمَانُونَ رجلاً.

٧١٤ - وعن سَمُرَةَ بن جُنْدُب: أَنِّي النبي ﷺ بِقَضْعَةٍ فيها لَحْمٌ، فتعاقبوا من غَدَوَةٍ حتى الليل؛ يقوم قومٌ وَيَقْعُدُ آخرون [الترمذي (٣٦٢٥)].

٧١٥ - ومن ذلك حديث عبدالرحمن بن أبي بكر: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثِينَ وَمِئَةً؛ وَذَكَرَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّهُ عَجِنَ صَاعًا مِنْ طَعَامٍ، وَصُنَعَتْ شَاةٌ، فَشَوِيَ سَوَادُ بَطْنِهَا ثُمَّ قَالَ: وَابْنُ اللَّهِ! مَا مِنْ الثَّلَاثِينَ وَمِئَةٍ إِلَّا وَقَدْ حَزَّ لَهُ حُرَّةٌ مِنْ سَوَادِ بَطْنِهَا، ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا قُضْعَتَيْنِ، فَأَكَلْنَا مِنْهُمَا أَجْمَعُونَ، وَفَضَّلَ فِي الْقُضْعَتَيْنِ، فَحَمَلْتُهُ عَلَى الْبَعِيرِ [البخاري (٢٦١٨)، مسلم (٢٠٩٦)].

٧١٦ وحتى ٧١٩ - وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ الْأَنْصَارِيِّ [أحمد (٤١٧/٣، ٤١٨)، مسلم (١٧٢٩)]، عَنْ أَبِيهِ، وَمِثْلُهُ لِسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ [البخاري (٢٤٨٤)، مسلم (١٧٢٩)]، وَأَبِي هُرَيْرَةَ [مسلم (٢٧)]، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَذَكَرُوا مَخْمَصَةً أَصَابَتْ النَّاسَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ، فَدَعَا بِبَقِيَّةِ الْأَزْوَادِ، فَجَاءَ الرَّجُلُ بِالْحَنِيَّةِ مِنَ الطَّعَامِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ؛ وَأَعْلَاهُمْ الَّذِي أَتَى بِالصَّاعِ مِنَ التَّمْرِ؛ فَجَمَعَهُ عَلَى نِطْعٍ - قَالَ سَلَمَةُ: فَحَزَزْتُهُ كَرَبِضَةِ الْعَنْزِ - ثُمَّ دَعَا النَّاسَ بِأَوْعِيَتِهِمْ، فَمَا بَقِيَ فِي الْجِيْشِ وَعَاءٌ إِلَّا مَلُؤُوهُ وَبَقِيَ مِنْهُ.

٧٢٠ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَمَرَنِي النَّبِيُّ ﷺ أَنْ أَدْعُوَ لَهُ أَهْلَ الصُّفَّةِ، فَتَبَّعْتُهُمْ حَتَّى جَمَعْتُهُمْ، فَوَضَعْتُ بَيْنَ أَيْدِينَا صَخْفَةً، فَأَكَلْنَا مَا شِئْنَا، وَفَرَعْنَا وَهِيَ مِثْلُهَا حِينَ وُضِعَتْ إِلَّا أَنَّ فِيهَا أَثَرَ الْأَصَابِعِ.

٧٢١ - وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ، وَكَانُوا أَرْبَعِينَ، مِنْهُمْ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ الْجَدْعَةَ، وَيَشْرَبُونَ الْفَرْقَ؛ فَصَنَعَ لَهُمْ مَدًّا مِنْ طَعَامٍ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، وَبَقِيَ كَمَا هُوَ؛ ثُمَّ دَعَا بَعْضُ، فَشَرِبُوا حَتَّى زَوُوا، وَبَقِيَ كَأَنَّهُ لَمْ يُشْرَبْ مِنْهُ [أحمد (١٥٩/١)].

٧٢٢ - وَعَنْ أَنَسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ ابْتَنَى بَرْنَبَ، أَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ قَوْمًا سَمَّاهُمْ، وَكُلَّ مِنْ لَقِيَتْ، حَتَّى امْتَلَأَ الْبَيْتَ وَالْحَجْرَةَ، وَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ تَوْرًا، فِيهِ قَذْرٌ مُدٌّ مِنْ تَمْرٍ، جُعِلَ حَنِسًا، فَوَضَعَهُ قُدَّامَهُ، وَغَمَسَ ثَلَاثَ أَصَابِعِهِ، وَجَعَلَ الْقَوْمُ يَتَغَدَّوْنَ وَيَخْرُجُونَ، وَبَقِيَ التَّوْرُ نَحْوًا مِمَّا كَانَ، وَكَانَ الْقَوْمُ أَحَدًا - أَوْ قَالَ - اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ [مسلم (٩٥/١٤٢٨)، البخاري (٥١٧٠)].

٧٢٣ - وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَوْ مِثْلِهَا إِنَّ الْقَوْمَ كَانُوا زُهَاءً ثَلَاثَ مِئَةٍ وَأَنَّهُمْ أَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا. وَقَالَ لِي: «ارْفَعْ»، فَلَا أَذْرِي حِينَ وَضَعْتُ كَانَ أَكْثَرُ أَمْ حِينَ رَفَعْتُ [مسلم (٩٤/١٤٢٨)].

٧٢٤ - وَفِي رَوَايَةٍ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ فَاطِمَةَ طَبَخَتْ قِدْرًا لَعْدَائِهَا وَوَجَّهَتْ عَلَيْهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيَتَغَدَّى مَعَهَا، فَأَمَرَهَا

فَعَرَفْتُ مِنْهَا لَجَمِيعِ نِسَائِهِ صَخْفَةً، صَخْفَةً ثُمَّ لَهُ ﷺ، وَلِعَلِّي، ثُمَّ لَهَا، ثُمَّ رَفَعْتُ الْقِدْرَ، وَإِنِهَا لَتَفِيضُ؛ قَالَتْ: فَأَكَلْنَا مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ.

٧٢٥، ٧٢٦ - وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَنْ يُزَوِّدَ أَرْبَعَ مِثَّةٍ رَاكِبٍ مِنْ أَخْمَسَ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا هِيَ إِلَّا أَضْوَعُ. قَالَ: «اذْهَبْ، فَذَهَبَ فَزَوَّدَهُمْ مِنْهُ، وَكَانَ قَدَرُ الْفَصِيلِ الرَّابِضِ، مِنَ التَّمْرِ، وَبَقِيَ بِحَالِهِ.

مِنْ رِوَايَةِ ذُكَيْنِ الْأَخْمَسِيِّ [أَحْمَد (١٧٤/٤)]، وَمِنْ رِوَايَةِ جَرِيرٍ. ٧٢٧ - وَمِثْلُهُ مِنْ رِوَايَةِ الثُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنِ الْخَبَرِ بَعِينَهُ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: أَرْبَعَ مِثَّةٍ رَاكِبٍ مِنْ مُرْبِئَةٍ [أَحْمَد (٤٤٥/٥)].

٧٢٨ - وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ جَابِرٍ فِي ذَيْنِ أَبِيهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَقَدْ كَانَ بِذَلِكَ لَعْرَاءُ أَبِيهِ أَضَلَّ مَالَهُ، فَلَمْ يَقْبَلُوهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ثَمَرِهَا سَنِينَ كَفَافَ ذَيْنِهِمْ، فَجَاءَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ أَنْ أَمَرَهُ بِجَدِّهَا، وَجَعَلَهَا يَبَادِرُ فِي أَصُولِهَا، فَمَشَى فِيهَا وَدَعَا، فَأَوْفَى مِنْهُ جَابِرٌ غَرْمَاءَ أَبِيهِ، وَفَضَلَ مِثْلَ مَا كَانُوا يَجِدُونَ كُلَّ سَنَةٍ [الْبُخَارِيُّ (٢١٢٧)].

١/٧٢٨ - وَفِي رِوَايَةٍ: مِثْلُ مَا أَعْطَاهُمْ [الْبُخَارِيُّ (٣٥٨٠)]؛ قَالَ: وَكَانَ الْغُرْمَاءُ يَهُودًا؛ فَمَجَّبُوا مِنْ ذَلِكَ.

٧٢٩ - وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَصَابَ النَّاسَ مَخْمَصَةٌ. فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ مِنْ شَيْءٍ؟» قُلْتُ: نَعَمْ؛ شَيْءٌ مِنَ التَّمْرِ فِي الْمَزُودِ. قَالَ: «فَأْتِنِي بِهِ» فَأَدْخَلَ يَدَهُ فَأَخْرَجَ قُبْضَةً، فَبَسَطَهَا وَدَعَا بِالْبَرَكَةِ؛ ثُمَّ قَالَ: «ادْعُ عَشْرَةَ» فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، ثُمَّ عَشْرَةَ كَذَلِكَ، حَتَّى أَطْعَمَ الْجَيْشَ كُلَّهُمْ وَشَبِعُوا. قَالَ: «خُذْ مَا جِئْتَ بِهِ، وَأَدْخُلْ بِذَلِكَ، وَاقْبِضْ مِنْهُ وَلَا تَكْبَهُ»، فَقَبِضْتُ عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا جِئْتُ بِهِ؛ فَأَكَلْتُ مِنْهُ، وَأَطْعَمْتُ حَيَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَغُمَرَ، إِلَى أَنْ قُتِلَ عُمَانُ، فَانْتَهَبَ مِنِّي، فَذَهَبَ.

٧٣٠ - وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَدْ حَمَلْتُ مِنْ ذَلِكَ التَّمْرِ كَذَا وَكَذَا مِنْ وَمِثِّي فِي سَبِيلِ اللَّهِ [التِّرْمِذِيُّ (٣٨٣٩)، أَحْمَد (٣٥٢/٢)].

٧٣١ - وَذُكِرَتْ مِثْلُ هَذِهِ الْحِكَايَةِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَأَنَّ الثَّمَرَ كَانَ بِضْعَ عَشْرَةَ تَمْرَةً [مُسْلِم (٤٥/٢٧)].

٧٣٢ - وَمِنْهُ أَيْضًا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ حِينَ أَصَابَهُ الْجَوْعُ، فَاسْتَبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَوَجَدَ لَبْنًا فِي قَدَحٍ قَدْ أَهْلِيَّ إِلَيْهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْعُو أَهْلَ الصُّفَّةِ. قَالَ: فَقُلْتُ: مَا هَذَا اللَّبْنُ فِيهِمْ؟ كُنْتُ أَحَقُّ أَنْ أَصِيبَ مِنْهُ شَرْبَةً أَنْقَوَى بِهَا. فَدَعَوْتُهُمْ.

وذكر أمر النبي ﷺ له أن يسقيهم، فجعلت أعطي الرجل فيشرب حتى يزوي، ثم يأخذه الآخر حتى زوي جميعهم.

قال: فأخذ النبي ﷺ القَدَحَ، وقال: «بقيت أنا وأنت، اقعد فاشرب» فشربت، ثم قال: «اشرب» وما زال يقولها وأشرب حتى قلت: لا، والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلَكاً؛ فأخذ القَدَحَ، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة [البخاري (٦٤٥٢)].

٧٣٣ - وفي حديث خالد بن عبد العزى أنه أجزر النبي ﷺ شاة وكان عيال خالد كثيراً، يذبح الشاة فلا تبذ عياله، عظماً عظماً؛ وإن النبي ﷺ أكل من هذه الشاة، وجعل فضلتها في دلو خالد، ودعا له بالبركة، فنثر ذلك لعياله، فأكلوا وأفضلوا، ذكر خبره الدولابي.

٧٣٤ - وفي حديث الأجرى في إنكاح النبي ﷺ لعلی فاطمة، أن النبي ﷺ أمر بِلَاآ بقضعة من أربعة أمداد أو خمسة، ويذبح جزوراً لوليمتها قال: فأتيته بذلك، فطعن في رأسها، ثم أدخل الناس رُقعة رُقعة، يأكلون منها حتى فرغوا، وبقيت منها فضلة؛ فبرك فيها، وأمر بحملها إلى أزواجه، وقال: «كلن وأطعنن من غشيكن».

٧٣٥ - وفي حديث أنس: تزوج رسول الله ﷺ، فصنعت أُمي: أُم سليم حنيساً، فجعلته في تور، فذهبت به إلى رسول الله ﷺ؛ فقال: «ضعه، واذع لي فلاناً وفلاناً، ومن لقيت».

فدعوتهم، ولم أذع أحداً لقيته إلا دعوته؛ وذكر أنهم كانوا زهاء ثلاث مئة حتى ملؤوا الصفة والحجرة، فقال لهم النبي ﷺ: «تحلقوا عشرة عشرة»، ووضع النبي ﷺ يده على الطعام، فدعا فيه، وقال ما شاء الله أن يقول؛ فأكلوا حتى شبعوا كلهم، فقال لي: «ارفع» فما أدري حين وضعت كانت أكثر أم حين رفعت [البخاري (٥١٦٣)، مسلم (٩٤/١٤٢٨)].

وأكثر أحاديث هذه الفصول الثلاثة في الصحيح. وقد اجتمع على معنى حديث هذا الفصل بضعة عشر من الصحابة، رواه عنهم أضعافهم من التابعين، ثم من لا يتعد بعدهم.

وأكثرها في قصص مشهورة، ومجامع مشهودة؛ ولا يمكن التحدث عنها إلا بالحق، ولا يسكت الحاضر لها على ما أنكّر منها.

فصل

فِي كَلَامِ الشَّجَرَةِ وَشَهَادَتِهَا لَهُ بِالنَّبُوءَةِ وَإِجَابَتِهَا دَعْوَتَهُ

٧٣٦ - أخبرنا أحمد بن محمد بن غلبون، الشيخ الصالح، فيما أجازني، عن أبي عُمَرَ الطَّلَمَنَكِيِّ، عن أبي بكر بن المُنْهَدَس، عن أبي القاسم البَغَوِيِّ، حدثنا أحمد بن عمران الأَخْنَسِي، حدثنا أبو حيان التَّيْمِي - وكان صدوقاً - عن مجاهد، عن ابن عُمَرَ، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فدنا منه أعرابي، فقال: «يا أعرابي! أين تريد؟» قال: إلى أهلي. قال: «هل لك إلى خير؟» قال: وما هو؟ قال: «تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» قال: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ عَلَى مَا تَقُولُ؟ قال: «هذه الشجرة: السَّمُرَةُ، وهي بشاطيء الوادي، وادعها فَإِنَّهَا تُجِيبُكَ».

فَأَقْبَلْتُ تَخَذُ الْأَرْضَ حَتَّى قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَاسْتَشْهَدَهَا ثَلَاثًا، فَشَهِدَتْ أَنَّهُ كَمَا قَالَ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى مَكَانِهَا.

٧٣٧ - وَعَنْ بُرَيْدَةَ: سَأَلَ أَعْرَابِي النَّبِيَّ ﷺ آيَةً، فَقَالَ لَهُ: «قُلْ لِّلشَّجَرَةِ: رَسُوْلُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُوْكَ».

قال: فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها، فتقطعت عروقها، ثم جاءت تخذ الأرض تجر عروقها مغبرة، حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ، فقالت: السلام عليك، يا رسول الله! قال الأعرابي: مُزِهَا فَلْتَرْجِعْ إِلَى مَنَبَّتِهَا، فَرَجَعْتُ، فَدَلَّتْ عُرُوقُهَا فِي ذَلِكَ فَاسْتَوَتْ.

فقال الأعرابي: ائذَّن لي أسجد لك.

قال: «لَوْ أَمَرْتُ أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لِأَمْرِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَسْجُدَ لَزَوْجِهَا».

قال: فَأَذَّنَ لِي أَنْ أَقْبَلَ يَدَيْكَ وَرِجْلَيْكَ، فَأَذَّنَ لَهُ.

٧٣٨ - وفي الصحيح - في حديث جابر بن عبد الله، الطويل: ذهب رسول الله ﷺ يَقْضِي حَاجَتَهُ، فَلَمْ يَرَ شَيْئًا يَسْتَتِرُ بِهِ، فَإِذَا بِشَجَرَتَيْنِ بِشَاطِئِ الْوَادِي، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى إِحْدَاهُمَا، فَأَخَذَ بِغُضَنِ مِنْ أَغْصَانِهَا، فَقَالَ: «انْقَادِي عَلَيَّ يَا بِلَادَنَ اللَّهِ» فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَالْبَعِيرِ الْمَخْشُوشِ الَّذِي يُصَانِعُ قَائِدَهُ.

وَذَكَرَ أَنَّهُ فَعَلَ بِالْأُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْمُنْصَفِ بَيْنَهُمَا قَالَ:

«التَّيْمَا عَلَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ» فَالتَّيْمَتَا - وفي رواية أخرى: فقال: «يا جابر! قُلْ لهذه الشجرة: يقول لك رسول الله ﷺ: الْحَقِّي بِصَاحِبَتِكَ حَتَّى أَجْلِسَ خَلْفَكُمَا» ففعلتُ، فزحفتُ حتى لَجِيتُ بِصَاحِبَتِهَا فَجَلَسَ خَلْفَهُمَا - فخرجتُ أَحْضِرُ، وجلسْتُ أَحْدُثُ نَفْسِي، فَالتَفْتُ فَإِذَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُقْبِلًا وَالشَّجَرَتَانِ قَدْ افْتَرَقَتَا، فَقَامَتِ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَى سَاقٍ، فَوَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَفَةً، فَقَالَ بِرَأْسِهِ هكَذَا يَمِينًا وَشِمَالًا [مسلم (٣٠١٢)].

٧٣٩ - وعن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ نَحْوَهُ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ: «هَلْ؟» يَعْنِي مَكَانًا لِحَاجَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنَّ الْوَادِيَّ مَا فِيهِ مَوْضِعٌ بِالنَّاسِ، فَقَالَ: «هَلْ تَرَى مِنْ نَخْلٍ أَوْ حِجَارَةٍ؟» قُلْتُ: أَرَى نَخْلَاتٍ مُتَقَارِبَاتٍ. قَالَ: «انْطَلِقْ وَقُلْ لَهُنَّ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَأْتِينَ لِمَخْرَجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقُلْ لِلْحِجَارَةِ مِثْلَ ذَلِكَ».

فَقُلْتُ ذَلِكَ لَهُنَّ، فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ! لَقَدْ رَأَيْتُ النَخْلَاتِ يَتَقَارِبْنَ حَتَّى اجْتَمَعْنَ، وَالْحِجَارَةُ يَتَعَاقَدْنَ حَتَّى صِرْنَ زُكَامًا، فَجَلَسَ خَلْفَهُنَّ. فَلَمَّا قَضَى حَاجَتَهُ قَالَ لِي: «قُلْ لَهُنَّ يَفْتَرِقْنَ» فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَرَأَيْتُهُنَّ وَالْحِجَارَةَ يَفْتَرِقْنَ حَتَّى عُذْنَ إِلَى مَوَاضِعِهِنَّ.

٧٤٠ - وَقَالَ يَغْلَى بْنُ سَيَابَةَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَسِيرٍ... وَذَكَرَ نَحْوًا مِنْ هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ، وَذَكَرَ: فَأَمَرَ وَدَيْتَيْنِ فَاَنْضَمَّتَا [أحمد (١٧٢/٤)].

٧٤١ - وفي رواية: أَشَاءَتَيْنِ.

٧٤٢ - وعن غَيْلَانَ بْنِ سَلَمَةَ الثَّقَفِيِّ مِثْلَهُ، فِي شَجَرَتَيْنِ.

٧٤٣ - وعن ابن مسعود، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، مِثْلَهُ، فِي غَزَاةِ حُتَيْنِ.

٧٤٤ - وعن يَغْلَى بْنِ مُرَّةٍ - وَهُوَ ابْنُ سَيَابَةَ - أَيْضًا، وَذَكَرَ أَشْيَاءَ رَأَاهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَ أَنَّ طَلْحَةَ - أَوْ سَمُرَةَ - جَاءَتْ فَطَافَتْ بِهِ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى مَنِيَّتِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّهَا اسْتَأْذَنَتْ أَنْ تَسْلَمَ عَلَيَّ» [أحمد (١٧٣/٤)].

٧٤٥ - وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أَدْنَتْ النَّبِيَّ ﷺ بِالْجَنِّ، لَيْلَةً اسْتَمَعُوا لَهُ، شَجَرَةٌ [البخاري (٣٨٥٩)، مسلم (٤٥٠)].

٧٤٦ - وعن مجاهد، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ الْجَنِّ قَالُوا: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ قَالَ: «هَذِهِ الشَّجَرَةُ، تَعَالَنِي يَا شَجَرَةُ!»، فَجَاءَتْ تَجْرُ غُرُوقَهَا لَهَا قَعَاقِعُ.

وَذَكَرَ مِثْلَ الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ أَوْ نَحْوَهُ.

قال القاضي أبو الفضل: فهذا ابنُ عُمَرَ، وبُرَيْدَةُ، وجَابِرٌ، وابن مسعود، ويَعْلَى بن مُرَّة، وأسامة بن زيد، وأنس بن مالك. وعلي بن أبي طالب، وابن عباس، وغيرهم قد اتفقوا على هذه القصة نَفْسِهَا أو معناها. وقد رواها عنهم من التابعين أضعافُهم، فصارت في انتشارها من القوة حيث هي.

وذكر ابن فُوزَك أنه ﷺ سارَ في غَزْوَةِ الطائف ليلاً، وهو وَسْنٌ، فاعترضته سِدْرَةٌ، فانفجرت له يَصْفَيْنِ حتى جاز بينهما، وبقيت على ساقين إلى وقتنا هذا، وهي هناك معروفة مُعْظَمَةٌ.

٧٤٧ - ومن ذلك حديث أنس رضي الله عنه: أن جبريلَ عليه السلام قال للنبي ﷺ - ورآه حَزِيناً -: أَتَحِبُّ أَنْ أُرِيكَ آيَةَ؟ قال: «نعم» فنظر رسول الله ﷺ إلى شجرةٍ مِنْ وراءِ الوادي، فقال: ادْعُ تلكَ الشجرةَ، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه.

قال: مُرَّها فلترجع، فعادت إلى مكانها [أحمد (١١٣/٣)، ابن ماجه (٤٠٢٨)].

٧٤٨ - وعن عليّ نَحْوُ هذا، ولم يذكر فيها جبريل، قال: «اللهم! أرني آيَةَ لا أُبالي مَنْ كَذَبَنِي بَعْدَهَا» فدعا شجرة... وذكر مثله. وَحُزْنُهُ ﷺ لتكذيب قومه، وَطَلَبُهُ الآيةَ لهم، لا لَهُ.

٧٤٩ - وذكر ابنُ إسحاقَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَى رُكَّائَهُ مِثْلَ هذه الآية في شجرةٍ دعاها فَأَثَّتْ حتى وَقَفَتْ بين يديه، ثم قال: «ارجعي» فَرَجَعَتْ.

٧٥٠ - وعن الحسن أنه - عليه السلام - شكا إلى رَبِّهِ من قَوْمِهِ وأنهم يخوفونه، وسأله آيَةَ يَعْلَمُ بها أَنَّ لا مَخَافَةَ عليه، فأَوْحَى اللهُ إليه: أَنْ اثْبُتْ وادي كذا، فيه شجرةٌ، فاذْغُ غُصْنًا منها يَأْتِك. ففعل، فجاء يَخْطُ الأرضَ خَطًّا حتى انتصب بين يَدَيْهِ، فحبسه ما شاء الله، ثم قال له: «ارجع كما جئت» فرجع، فقال: «يا رب! علمتُ أن لا مَخَافَةَ عليّ».

٧٥١ - ونحوُ منه عن عُمَرَ، وقال فيه: «أرني آيَةَ لا أُبالي مَنْ كَذَبَنِي بعدها...» وذكر نحوه.

٧٥٢ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال لأَعْرَابِيٍّ: «أرأيتَ إِنْ دَعَوْتُ هذا الْعَذْقَ مِنْ هذه النخلةِ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟» قال: نعم، فدعا فجعل يَنْقِزُ، حتى أتاه. فقال: «ارجع» فعادَ إلى مكانه [الترمذي (٣٦٢٨)].

وخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث صحيح.

فصل

فِي قِصَّةِ حَنِينِ الْجَذَعِ

٧٥٣ وحتى ٧٦٢ - وَيَغْضُدُ هَذِهِ الْأَخْبَارَ حَدِيثُ حَنِينِ الْجَذَعِ، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مَشْهُورٌ مُنْتَشَرٌ، وَالْخَبَرُ بِهِ مُتَوَاتِرٌ، قَدْ خَرَّجَهُ أَهْلُ الصَّحِيحِ [البخاري (٣٧٧)، مسلم (٥٤٤)]، وَرَوَاهُ مِنَ الصَّحَابَةِ بَضْعَةٌ عَشْرٌ، مِنْهُمْ: أَبِي بَنٍ كَعْبٌ، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَأَنْسُ بْنُ مَالِكٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَسَهْلُ بْنُ سَعْدٍ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، وَبُرَيْدَةُ، وَأُمُّ سَلَمَةَ، وَالْمُطَّلِبُ بْنُ أَبِي وَدَاعَةَ، كُلُّهُمْ يُحَدِّثُ بِمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ [ابن ماجه (١٤١٤)، أحمد (١٣٧/٥) البخاري (٩١٨)].

قال الترمذي: وحديث أنس صحيح.

٧٦٣ - قال جابر بن عبد الله: كان المسجدُ مسقوفاً على جذوع نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنع له المنبرُ سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار.

٧٦٤ - وفي رواية أنس: حتى ارتج المسجدُ بخواره.

٧٦٥ - وفي رواية سهل: وكثر بكاء الناس لما رأوا به.

٧٦٦ - وفي رواية المُطَّلِبِ، وأبي: حتى تصدع وانشق، حتى جاء النبي ﷺ، فوضع يده عليه فسكت.

٧٦٧ - زاد غيره: فقال النبي ﷺ: «إِنَّ هَذَا بَكَى لِمَا فَقَدَ مِنَ الذِّكْرِ» [أحمد (٣٠٠/٣)].

٧٦٨ - وَزَادَ غَيْرُهُ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ لَمْ أَلْتَزِمْهُ لَمْ يَزَلْ هَكَذَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَحْزِناً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدُفِنَ تَحْتَ الْمِنْبَرِ.

كذا في حديث المُطَّلِبِ، وسهل بن سعد، وإسحاق عن أنس.

٧٦٩ - وفي بعض الروايات عن سهل: فَدُفِنَتْ تَحْتَ مَنْبَرِهِ، أَوْ جُعِلَتْ فِي السَّقْفِ.

٧٧٠ - وفي حديث أبي: فكان إذا صَلَّى النبي ﷺ صَلَّى إِلَيْهِ، فَلَمَّا هَدِمَ الْمَسْجِدَ أَخَذَهُ أَبِي، فَكَانَ عِنْدَهُ إِلَى أَنْ أَكَلَتْهُ الْأَرْضُ، وَعَادَ رُفَاتاً.

وذكر الإسفراييني أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَاهُ إِلَى نَفْسِهِ، فَجَاءَ يَخْرِقُ الْأَرْضَ، فَالْتَزَمَهُ، ثُمَّ أَمَرَهُ فَعَادَ إِلَى مَكَانِهِ.

٧٧١ - وفي حديث بُرَيْدَةَ: فَقَالَ - يَعْنِي: النَّبِيُّ ﷺ -: «إِنْ شِئْتَ أَرَدْتُكَ إِلَى

الحائط الذي كنت فيه تنبت لك عروقتك، ويكمل خلقك، ويجدد لك خصوص
وثمره، وإن شئت أغرسك في الجنة، فيأكل أولياء الله من ثمرك». ثم أصغى له
النبي ﷺ يستمع ما يقول.

فقال: بل تغرسني في الجنة، فيأكل مني أولياء الله، وأكون في مكان لا
أبلى فيه.

فسمعه من يليه.

فقال النبي ﷺ: «قد فعلت» ثم قال: «اختار دار البقاء على دار الفناء».

٧٧٢ - فكان الحسن إذا حدث بهذا بكى، وقال: يا عباد الله! الخشب تجزئ
إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه لمكانه، فأنتم أحق أن تشاقوا إلى لقائه.

رواه عن جابر: حفص بن غبيد الله - ويقال: غبيد الله بن حفص - وأيمن،
وأبو نضرة، وابن المسيب، وسعيد بن أبي كرب، وكريب، وأبو صالح.
ورواه عن أنس بن مالك: الحسن، وثابت، وإسحاق بن أبي طلحة.
ورواه عن ابن عمر: نافع، وأبو حية.

ورواه أبو نضرة، وأبو الوداك، عن أبي سعيد.

وعمار بن أبي عمار، عن ابن عباس.

وأبو حازم، وعباس بن سهل بن سعد، عن سهل بن سعد.

وكثير بن زيد عن المطلب.

وعبد الله بن بريدة عن أبيه.

والطفيل بن أبي، عن أبيه.

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: فهذا حديث كما تراه خرجه أهل الصحة،

ورواه من الصحابة من ذكرناه، وغيرهم من التابعين ضعفهم، إلى من لم نذكره، وبمن
دون هذا العدد يقع العلم لمن اعتنى بهذا الباب. والله المثبت على الصواب.

فصل

في معجزات أخرى للنبي ﷺ في سائر الجمادات كتشبيح الطعام وتسليم الحجر

ومثل هذا في سائر الجمادات:

٧٧٣ - حدثنا القاضي أبو عبد الله: محمد بن عيسى التميمي، حدثنا القاضي

أبو عبد الله: محمد بن المرباط، حدثنا المهلب: أبو القاسم، حدثنا أبو الحسن

القائسي، حدثنا المَرْزُوبِيُّ، حدثنا الْقَزْرَبِيُّ، حدثنا الْبُخَارِيُّ، حدثنا محمد بن الْمُثَنَّى، حدثنا أبو أحمد الزُّبَيْرِيُّ، حدثنا إسرائيل، عن منصور، عن إبراهيم، عَنْ عَلْقَمَةَ، عن عبد الله بن مسعود قال: لقد كنا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وهو يُؤْكَلُ [البخاري (٣٥٧٩)].

٧٧٤ - وفي غير هذه الرواية، عن ابن مسعود: كُنَّا نَأْكُلُ مع رسول الله ﷺ الطَّعَامَ ونَحْنُ نَسْمَعُ تَسْبِيحَهُ [الترمذي (٣٦٣٣)].

٧٧٥ - وقال أنس: أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ كَفًّا مِنْ حَصَى، فَسَبَّخَنَ فِي يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى سَمِعْنَا التَّسْبِيحَ، ثُمَّ صَبَّهْنُ فِي يَدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَبَّخَنَ، ثُمَّ فِي أَيْدِينَا فَمَا سَبَّخَنَ.

٧٧٦ - وَرَوَى مِثْلَهُ أَبُو ذَرٍّ، وَذَكَرَ أَنَّهُنَّ سَبَّخَنَ فِي كَفِّ عُمر وَعُثْمَانَ.

٧٧٧ - وقال علي: كُنَّا بِمَكَّةَ مع رسول الله ﷺ، فَخَرَجَ إِلَى بَعْضِ نَوَاحِيهَا فَمَا اسْتَقْبَلَهُ شَجَرَةٌ وَلَا جَبَلٌ إِلَّا قَالَ لَهُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ! [الترمذي (٣٦٢٦)].

٧٧٨ - وعن جابر بن سَمُرَةَ، عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجْرًا بِمَكَّةَ كَانَ يَسْلُمُ عَلَيَّ» [مسلم (٢٢٧٧)]. قِيلَ: إِنَّهُ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ.

٧٧٩ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَمَّا اسْتَقْبَلَنِي جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالرَّسَالَةِ جَعَلْتُ لَا أَمْرٌ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ!».

٧٨٠ - وعن جابر بن عبد الله: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يَمُرُّ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا سَجَدَ لَهُ.

٧٨١ - وفي حديث العباس، إِذْ اشْتَمَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعَلَى بَنِيهِ، بِمُلَاءَةٍ، وَدَعَا لَهُمُ بِالسُّتْرِ مِنَ النَّارِ كَسَتْهُرِهِ لِيَاهِمُ بِمُلَاءَتِهِ، فَأَمَّتَتْ أَسْكَفَةَ الْبَابِ وَحَوَائِطَ الْبَيْتِ: آمِينَ، آمِينَ.

٧٨٢ - وعن جعفر بن محمد، عَنْ أَبِيهِ: مَرَضَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ بِطَبَقٍ فِيهِ رُمَّانٌ وَعِنَبٌ، فَأَكَلَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَسَبَّحَ.

٧٨٣ - وعن أنس: صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، أَحَدًا، فَجَرَفَ بِهِمْ فَقَالَ: «اثْبُتْ أَحَدُ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ، وَشَهِيدَانِ» [البخاري (٣٦٧٥)].

٧٨٤ - ومِثْلُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي حِرَاءٍ، وَزَادَ: مَعَهُ عَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَقَالَ: «إِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ، أَوْ صِدِّيقٌ، أَوْ شَهِيدٌ» [مسلم (٢٤١٧)].

٧٨٥ - والخَبَرُ فِي حِزَاءٍ أَيْضاً عَنْ عَثْمَانَ، قَالَ: وَمَعَهُ عَشْرَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ أَنَا فِيهِمْ.

وزاد: عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَسَعْدَاءُ، قَالَ: وَنَسِيتُ الْاِثْنَيْنِ [الترمذي (٣٦٩٩)، النسائي (٢٣٦/٦)].

٧٨٦ - وَفِي حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ أَيْضاً مِثْلُهُ، وَذَكَرَ عَشْرَةً، وَزَادَ نَفْسَهُ [ابو داود (٤٦٤٨، ٤٦٤٩، ٤٦٥٠)، الترمذي (٣٧٥٧)، ابن ماجه (١٣٤)].

٧٨٧ - وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ حِينَ طَلَبْتَهُ قُرَيْشٌ قَالَ لَهُ تُبَيِّرْ: اهْبِطْ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَقْتُلُوكَ عَلَى ظَهْرِي فَيُعَذِّبُنِي اللَّهُ. فَقَالَ لَهُ حِرَاءُ: إِلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ!

٧٨٨ - وَعَنْ ابْنِ عُمرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: قَرَأَ عَلَى الْمُنْبَرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، ثُمَّ قَالَ: «يُمَجِّدُ الْجَبَّارُ نَفْسَهُ، أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا التَّجَبَّارُ، أَنَا الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ»، فَجَفَّ الْمُنْبَرُ حَتَّى قُلْنَا: لَيَجْرُونَ عَنْهُ [أحمد (٧٢/٢)، البخاري (٧٤١٢)، مسلم (٢٥/٢٧٨٨)].

٧٨٩ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ حَوْلَ الْبَيْتِ سِتُونَ وَثَلَاثَ مِئَةِ صَنَمٍ مُثَبَّتَةٌ الْأَرْجُلُ بِالرِّصَاصِ فِي الْحِجَارَةِ، فَلَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ عَامَ الْفَتْحِ جَعَلَ يُشِيرُ بِقَضِيْبٍ فِي يَدِهِ إِلَيْهَا وَلَا يَمْسُهَا، وَيَقُولُ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الأنعام: ٨١]، فَمَا أَشَارَ إِلَى وَجْهِ صَنَمٍ إِلَّا وَقَعَ لِقْفَاهُ، وَلَا لِقْفَاهُ إِلَّا وَقَعَ لَوَجْهِهِ، حَتَّى مَا بَقِيَ مِنْهَا صَنَمٌ.

٧٩٠ - وَمِثْلُهُ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَقَالَ: فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا وَيَقُولُ: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يَبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبا: ٤٩] [البخاري (٤٢٨٧)، مسلم (١٧٨١)].

٧٩١ - وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُهُ مَعَ الرَّاهِبِ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ [الترمذي (٣٦٢٠)]، إِذْ خَرَجَ تَاجِراً مَعَ عَمِّهِ، وَكَانَ الرَّاهِبُ لَا يَخْرُجُ لِأَحَدٍ، فَخَرَجَ وَجَعَلَ يَتَخَلَّلُهُمْ، حَتَّى أَخَذَ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: هَذَا سَيِّدُ الْعَالَمِينَ، يَنْبَغُ لِلَّهِ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ.

فَقَالَ لَهُ أَشْيَاخٌ مِنْ قُرَيْشٍ: مَا عِلْمُكَ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ لَمْ يَتَّقْ شَجَرٌ وَلَا حَجَرٌ إِلَّا خَرَّ سَاجِداً لَهُ، وَلَا يَسْجُدُ إِلَّا لِنَبِيِّ... وَذَكَرَ الْقِصَّةَ، ثُمَّ قَالَ: وَأَقْبَلَ ﷺ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ تَظْلُهُ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْقَوْمِ وَجَدَهُمْ سَبَقُوهُ إِلَى فَيْءِ الشَّجَرَةِ، فَلَمَّا جَلَسَ، مَالَ الْفَيْءُ إِلَيْهِ.

فصل

فِي الْآيَاتِ فِي ضُرُوبِ الْحَيَوَانَاتِ

٧٩٢ - حدثنا سراج بن عبد الملك: أبو الحسين الحافظ، حدثنا أبي، حدثنا القاضي يونس، قال حدثنا أبو الفضل الصَّقَلِي، حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت، عن أبيه وجده، قال: حدثنا أبو العلاء: أحمد بن عمران، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا يونس بن عمرو، حدثنا مُجاهد، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عندنا دَاجِنٌ، فإذا كان عندنا رسولُ الله ﷺ قَرَّ وثبَّت مكانه، فلم يجيء ولم يذهب، وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب [أحمد (١١٢/٦)، ١٥٠، (٢٠٩)].

٧٩٣ - وَرَوَى عَنْ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ فِي مَخْفَلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِذَا جَاءَ أَعْرَابِيٌّ قَدْ صَادَ صَبَبًا، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: نَبِيُّ اللَّهِ. فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى! لَا آمَنْتُ بِكَ أَوْ يُؤْمِنُ بِكَ هَذَا الضُّبُّ، وَطَرَحَهُ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا ضُبُّ!»، فَأَجَابَهُ بِلِسَانٍ مُبِينٍ يَسْمَعُهُ الْقَوْمُ جَمِيعًا: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا زَيْنَ مَنْ وَافَى الْقِيَامَةَ.

قال: «مَنْ تَعْبُدُ؟» قال: الذي في السماء عَرْشُهُ، وفي الأرضِ سُلْطَانُهُ، وفي البحرِ سَبِيلُهُ، وفي الجنةِ رَحْمَتُهُ، وفي النارِ عِقَابُهُ.

قال: «فَمَنْ أَنَا؟» قال: رسولُ ربِّ العالمين، وخَاتِمُ النَّبِيِّينَ، وقد أَفْلَحَ مَنْ صَدَّقَكَ، وخَابَ مَنْ كَذَّبَكَ، فَأَسْلَمَ الْأَعْرَابِيُّ.

٧٩٤ - ومن ذلك قصةُ كلامِ الذُّبِّ المشهورةُ عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ:

بَيْنَا رَاعٍ يَزْعُمُ غَنَمًا لَهُ، عَرَضَ الذُّبُّ لَشَاةٍ مِنْهَا، فَأَخَذَهَا الرَّاعِي مِنْهُ، فَأَقْعَى الذُّبُّ، وَقَالَ لِلرَّاعِي: أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ! حُلَّتْ بَيْنِي وَبَيْنَ رِزْقِي!

قال الرَّاعِي: الْعَجَبُ مِنْ ذَنْبٍ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْإِنْسِ! فَقَالَ الذُّبُّ: أَلَا أَخْبَرَكَ بِأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ؟ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْحَرَّتَيْنِ يَحْدُثُ النَّاسَ بِأَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ.

فَأَتَى الرَّاعِي النَّبِيَّ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قُمْ فَحَدِّثْهُمْ»، ثُمَّ قَالَ: «صَلِّ» [أحمد (٨٣/٣)، ٨٤].

والحديث فيه قصةٌ، وفي بعضه طُول.

٧٩٥ - وَرَوَى حَدِيثُ الذُّبِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

وفي بعض الطُّرُقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: فَقَالَ الذُّبُّ: أَنْتَ أَعْجَبُ وَاقِفًا عَلَى غَنَمِكَ، وَتَرَكْتَ نَبِيًّا لَمْ يَنْبُتْ اللَّهُ قُطْ نَبِيًّا أَعْظَمَ مِنْهُ عِنْدَهُ قَدْرًا، قَدْ

فَتَبَحَّتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَأَشْرَفَ أَهْلُهَا عَلَى أَصْحَابِهِ، يَنْظُرُونَ قِتَالَهُمْ، وَمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ إِلَّا هَذَا الشَّعْبُ، فَتَصِيرُ فِي جَنُودِ اللَّهِ!

قال الرَّاعِي: مَنْ لِي بِغَنَمِي؟ قال الذَّنْبُ: أنا أُرعاها حتى ترجع.

فأسلم الرجلُ إليه غَنَمَهُ ومضى.

وَذَكَرَ قِصَّتَهُ وإِسْلَامَهُ ووجُودَهُ النَّبِيِّ ﷺ يُقَاتِلُ، فقال له النَّبِيُّ ﷺ: «عُدْ إِلَى غَنَمِكَ تَجِدُهَا بِوَفَرِهَا».

فوجدَها كذلك، وذبحَ للذَّنْبِ شاةً منها [أحمد (٣٠٦/٢)].

٧٩٦ - وعن أَهْبَانَ بنِ أَوْسٍ: وَأَنَّهُ كَانَ صَاحِبَ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَالْمَحْدَثِ بِهَا، وَمَكْلَمِ الذَّنْبِ.

٧٩٧ - وعن سلمةَ بنِ عَمْرٍو بنِ الْأَكْوَعِ: أَنَّهُ كَانَ صَاحِبَ هَذِهِ الْقِصَّةِ أَيْضاً، وَسَبَبِ إِسْلَامِهِ بِمِثْلِ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ.

٧٩٨ - وقد رَوَى ابْنُ وَهْبٍ مِثْلَ هَذَا أَنَّهُ جَرَى لِأَبِي سُفْيَانَ بنِ حَرْبٍ، وَصَفْوَانَ بنِ أُمَيَّةَ، مَعَ ذَنْبٍ وَجَدَاهُ أَخَذَ ظَبْياً، فَدَخَلَ الظَّبْيُ الْحَرَمَ، فَانصَرَفَ الذَّنْبُ، فَعَجِبَا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ الذَّنْبُ: أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ مُحَمَّدٌ بنُ عَبْدِ اللَّهِ بِالْمَدِينَةِ، يَدْعُوكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَتَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ.

فقال أبو سُفْيَانَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى! لئن ذَكَرْتَ هَذَا بِمَكَّةَ لَشَرَكْتُهَا خُلُوفاً.

وقد رَوَى مِثْلَ هَذَا الْخَبَرِ، وَأَنَّهُ جَرَى لِأَبِي جَهْلٍ وَأَصْحَابِهِ.

٧٩٩ - وعن عباس بنِ مِرْدَاسٍ: لَمَّا تَعَجَّبَ مِنْ كَلَامِ ضِمَارٍ: صَنِمِهِ، وَإِنْشَادِهِ الشَّعْرَ الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَإِذَا طَائِرٌ سَقَطَ، فَقَالَ: يَا عَبَّاسُ! أَتَعْجَبُ مِنْ كَلَامِ ضِمَارٍ، وَلَا تَعْجَبُ مِنْ نَفْسِكَ؟ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَنْتَ جَالِسٌ؟ فَكَانَ سَبَبَ إِسْلَامِهِ.

٨٠٠ - وعن جابر بنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ رَجُلٍ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَآمَنَ بِهِ وَهُوَ عَلَى بَعْضِ حَصُونِ خَيْبَرَ، وَكَانَ فِي غَنَمٍ يَرعاها لَهُمْ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ بِالْغَنَمِ؟ قَالَ: «اخْصِبْ وَجُوهَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُؤَدِّي عَنْكَ أَمَانَتَكَ، وَيُرُدُّهَا إِلَى أَهْلِهَا».

فَفَعَلَ، فَسَارَتْ كُلُّ شاةٍ حَتَّى دَخَلَتْ إِلَى أَهْلِهَا.

٨٠١ - وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ حَائِطَ أَنْصَارِيٍّ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَفِي الْحَائِطِ غَنَمٌ فَسَجَدَتْ لَهُ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: نَحْنُ أَحَقُّ بِالسُّجُودِ لَكَ مِنْهَا... الْحَدِيثُ [أحمد (١٥٨/٣ - ١٥٩)].

٨٠٢ - وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: دخل النبي ﷺ حائطاً، فجاء بعيرٌ فسجد له، وذكر مثله.

٨٠٣ وحتى ٨٠٦ - ومثله في الجَمَلِ، عن ثعلبة بن مالك، وجابر بن عبد الله [أحمد (٣١٠/٣)]، ويَعْلَى بن مُرَّة [أحمد (١٧٠/٤) - ١٧٢]، وعبد الله بن جعفر [أحمد (٣١٠/٣)]، أبو داود (٢٥٤٩)، قال: وكان لا يدخل أحد الحائط إلا شدَّ عليه الجَمَلُ، فلما دخل عليه النبي ﷺ دَعَاهُ، فوضع مِشْفَرَهُ، على الأرض، وبَرَكَ بين يديه، فخطَّمه، وقال: «مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ إِلَّا يَغْلَمُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا عَاصِي الْجَنِّ وَالْإِنْسِ».

٨٠٧ - ومثله عن عبد الله بن أبي أوفى.

٨٠٧ م - وفي خبر آخر في حديث الجَمَلِ أَنَّ النبي ﷺ سألهم عن شأنه، فأخبروه أنهم أرادوا ذبحه.

وفي رواية: أَنَّ النبي ﷺ قال لهم: «إِنَّهُ شَكَا كَثْرَةَ الْعَمَلِ، وَقِلَّةَ الْعَلْفِ». وفي رواية: «أَنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكُمْ أَرَدْتُمْ ذَبْحَهُ بَعْدَ أَنْ اسْتَعْمَلْتُمُوهُ فِي شَأْنِ الْعَمَلِ مِنْ صَفَرِهِ» فقالوا: نعم.

٨٠٨ - وقد روي في قصة الْعُضْبَاءِ وكلامها النبي ﷺ، وتعريفها له بنفسها، ومبادرة الْعُسْبِ إليها في الرِّغْيِ، وتجنُّبِ الوحوش عنها، وندائهم لها: إِنَّكَ لِمُحَمَّدٍ، وأنها لم تأكل ولم تشرب بعد موته حتَّى ماتَتْ. ذكره الإسفراييني.

٨٠٩ - وروى ابْنُ وَهْبٍ، أَنَّ حَمَامَ مَكَّةَ أَظَلَّتْ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِهَا، فدعا لها بالبركة.

٨١٠ - وزوي عن أنس، وزيد بن أَرْقَمَ، والمغيرة بن شعبة، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: ليلة الغارِ أمر الله شجرةً، فنبتت ثُجَاءَ النَّبِيِّ ﷺ فسترته، وأمر حمامَتَيْنِ فَوَقَفَتَا بِقَمِ الغارِ.

٨١٠ م - وفي حديث آخر: وَأَنَّ الْعَنْكَبُوتَ نَسَجَتْ عَلَى بَابِهِ [أحمد (٣٤٨/١)]، فلما أتى الطالبون له، ورأوا ذلك، قالوا: لو كان فيه أحد لم تكن الحمامتانِ ببابه، والنبي ﷺ يَسْمَعُ كلامهم، فانصرفوا.

٨١١ - وعن عبد الله بن قُزَيطٍ: قُرَّبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَدَنَاتٌ خَمْسٌ أَوْ سِتٌّ أَوْ سَبْعٌ، لِيُنَحَّرَهَا يَوْمَ عِيدٍ، فَأَزْدَلَقْنَ إِلَيْهِ بِأَيْتِهِنَّ يَبْدَأُ [أبو داود (١٧٦٥)]، أحمد (٣٥٠/٤).

٨١٢ - وعن أُمِّ سَلَمَةَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي صَحْرَاءَ، فَنَادَتْهُ ظَنِيَّةٌ، يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «مَا حَاجَتُكَ؟» قَالَتْ: صَادَنِي هَذَا الْأَعْرَابِيُّ، وَلِي خِشْفَانٍ فِي ذَلِكَ الْجَبَلِ، فَأَطْلِفْنِي حَتَّى أَذْهَبَ فَأَرْضِعَهُمَا وَأَرْجِعَ.

قال: «وتفعلين؟» قالت: نعم. فأطلقها، فذهبت ورجعت، فأوثقها، فانتبه الأعرابي وقال: يا رسول الله! ألك حاجة؟ قال: «تطلق هذه الظبية» فأطلقها فخرجت تغدو في الصحراء، وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله.

٨١٣ - وفي هذا الباب ما روي من تسخير الأسد لسفينة: مولى رسول الله ﷺ، إذ وجهه إلى معاذ باليمن، فلقي الأسد فعرفه أنه مولى رسول الله ﷺ، ومعه كتابه، فهنهم وتنحى عن الطريق، وذكر في منصرفه مثل ذلك.

٨١٤ - وفي رواية أخرى عنه: أن سفينة تكسرت به، فخرج إلى جزيرة فإذا الأسد، فقلت له: أنا مولى رسول الله ﷺ، فجعل يغمزني بمنكبه حتى أقامني على الطريق.

٨١٥ - وأخذ - عليه السلام - بأذن شاة لقوم من عبد القيس بين إصبعية، ثم خلاها فصار لها ميسماً، وبقي ذلك الأثر فيها وفي نسلها بعد.

٨١٦ - وما روي عن إبراهيم بن حنّاد بسنده من كلام الجمار الذي أصابه بخيبر، وقال له: اسمي يزيد بن شهاب..

فسماه النبي ﷺ يغفوراً، وأنه كان يوجهه إلى دور أصحابه، فيضرب عليهم الباب برأسه، ويستدعيهم، وأن النبي ﷺ لما مات تردى في بئر، جزعاً وحزناً، فمات.

٨١٧ - وحديث الناقة التي شهدت عند النبي ﷺ لصاحبها أنه ما سرقها، وأنها ملكه.

٨١٨ - وفي حديث العنز التي أتت رسول الله ﷺ في عسكره، وقد أصابهم عطش، ونزلوا على غير ماء، وهم زهاء ثلاث مئة فحلبها رسول الله ﷺ، فأزوى الجند، ثم قال لرافع: «أملكها وما أراك» فربطها فوجدها قد انطلقت.

رواه ابن قانع وغيره، وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «إن الذي جاء بها هو الذي ذهب بها».

٨١٩ - وقال لفرسه، عليه السلام - وقد قام إلى الصلاة في بعض أسفاره -: «لا تبرخ، بارك الله فيك، حتى تفرغ من صلاتنا» وجعله قبيلته، فما حرك عضواً منه حتى صلى ﷺ.

٨٢٠ - ويلتحق بهذا ما رواه الواقدي: أن النبي ﷺ لما وجهه رسله إلى

الملوك، فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد، فأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم.

والحديث في هذا الباب كثير، وقد جئنا منه بالمشهور من ذلك وما وقع منه في كتب الأئمة.

فصل

فِي إِخْتِيَاءِ الْمَوْتَى وَكَلَامِهِمْ، وَكَلَامِ الصَّبِيَّانِ وَالْمَرَضِ وَشَهَادَتِهِمْ لَهُ بِالنَّبُوءَةِ ﷺ

٨٢١ - حدثنا أبو الوليد: هشام بن أحمد الفقيه بقراءتي عليه، والقاضي أبو الوليد: محمد بن رشد، والقاضي أبو عبدالله: محمد بن عيسى التميمي، وغير واحد سماعاً وإدناً، قالوا: حدثنا أبو علي الحافظ قال: حدثنا أبو عمر الحافظ، حدثنا أبو زيد: عبدالرحمن بن يحيى، حدثنا أحمد بن سعيد، حدثنا ابن الأعرابي، حدثنا أبو داود، حدثنا وهب بن بقية، عن خالد - هو الطحان - عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: أَنَّ يَهُودِيَّةً أَهَدَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِخَيْرِ شَأْنٍ مَضْلِيَّةً سَمَتَهَا، فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا، وَأَكَلَ الْقَوْمُ، فَقَالَ: «ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ فَإِنَّهَا أَخْبَرَتْنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ». فمات بشر بن البراء.

وقال لليهودية: «ما حملك على ما صنعت؟» وقالت: إِنْ كُنْتُ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ الَّذِي صَنَعْتُ، وَإِنْ كُنْتُ مَلِكًا أَرَحْتُ النَّاسَ مِنْكَ. قال: فأمر بها فقتلت [أبو داود (٤٥١٢)].

٨٢٢ - وقد رَوَى هذا الحديث أنس، وفيه: قالت: أردتُ قَتْلَكَ. فقال: «ما كان اللهَ لِيَسْلُطَكَ عَلَى ذَلِكَ». فقالوا: نقتلها؟

قال: «لا» [البخاري (٢٦١٧)، مسلم (٢١٩٠)].

٨٢٣ - وكذلك رَوَى عن أبي هريرة - من حديث غير وهب - قال: فما عَرَضَ لَهَا [البخاري (٤٢٤٩)، أبو داود (٤٥٠٩)].

٨٢٤ - ورواه أيضاً جابر بن عبدالله، وفيه: «أَخْبَرَتْنِي بِهِ هَذِهِ الذَّرَاعُ» قال: ولم يعاقبها [أبو داود (٤٥١٠)].

٨٢٥ - وفي رواية الحسن: «أَنْ فَخَذَهَا تَكَلَّمَنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ».

٨٢٦ - وفي رواية أبي سلمة بن عبدالرحمن قالت: «إِنِّي مَسْمُومَةٌ» [أبو داود (٤٥١٢)].

٨٢٧ - وكذلك ذكر الخَيْرَ ابنُ إِسْحَاقَ، وقال فيه: فتجاوز عنها.

٨٢٨ - وفي الحديث الآخر، عن أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ: فَمَا زِلْتُ أَعْرِفُهَا فِي لَهَوَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

٨٢٩ - وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي وَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «مَا زِلْتُ أَكُلُّهُ خَنْبِيرٌ تُعَادُنِي، فَلَا أَنْ أَوَانَ قَطَعْتَ أَبْهَرِي» [أَبُو دَاوُدَ (٤٥١٢)].

٨٣٠ - وَحَكَى ابْنُ إِسْحَاقَ: إِنَّ كَانَ الْمُسْلِمُونَ لَيُرَوْنَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَاتَ شَهِيداً مَعَ مَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ النَّبَوَّةِ.

وَقَالَ ابْنُ سَخْنُونٍ: أَجْمَعَ أَهْلُ الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَتَلَ الْيَهُودِيَّةَ الَّتِي سَمَّيْتُهَا.

وَقَدْ ذَكَرْنَا اخْتِلَافَ الرُّوَايَاتِ فِي ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَنَسٍ، وَجَابِرٍ.

٨٣١ - وَفِي رَوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ دَفَعَهَا لِأَوْلِيَاءِ بَشَرِ بْنِ الْبَرَاءِ فَقَتَلُوهَا.

وَكَذَلِكَ قَدْ اخْتَلَفَ فِي قَتْلِهِ لِلَّذِي سَحَرَهُ، قَالَ الْوَاقِدِيُّ: وَعَفُوهُ عَنْهُ أَثْبَتَ عِنْدَنَا وَرَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَتَلَهُ.

٨٣٢ - وَرَوَى الْحَدِيثَ الْبَزَّازُ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، فَذَكَرَ مَثْلَهُ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِي آخِرِهِ: فَبَسَطَ يَدَهُ وَقَالَ: «كُلُّوْا، بِاسْمِ اللَّهِ» فَأَكَلْنَا، وَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ، فَلَمْ تَضُرَّ مِنَّا أَحَدًا.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْفَضْلِ: وَقَدْ خَرَجَ حَدِيثُ الشَّاةِ الْمَسْمُومَةِ أَهْلُ الصَّحِيحِ، وَخَرَجَهُ الْأَثَمَةُ، وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ.

وَاخْتَلَفَ أَثَمَةُ أَهْلُ النَّظَرِ فِي هَذَا الْبَابِ، فَمِنْ قَائِلٍ يَقُولُ: هُوَ كَلَامٌ يَخْلُقُهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الشَّاةِ الْمَيِّتَةِ، أَوْ الْحَجَرِ أَوْ الشَّجَرِ، وَحُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ يَحْدُثُهَا اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا وَيُسْمِعُهَا مِنْهَا دَوْنَ تَغْيِيرِ أَشْكَالِهَا، وَنَقْلِهَا عَنْ هَيْئَتِهَا.

وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ، وَالْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ رَجَحَ الْكَلَامَ.

وآخَرُونَ ذَهَبُوا إِلَى إِيْجَادِ الْحَيَاةِ بِهَا أَوَّلًا، ثُمَّ الْكَلَامَ بَعْدَهُ.

وَحُكِّيَ هَذَا أَيْضًا عَنْ شَيْخِنَا أَبِي الْحَسَنِ، وَكُلُّ مُحْتَمَلٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إِذْ لَمْ نَجْعَلِ الْحَيَاةَ شَرْطًا لَوْجُودِ الْحُرُوفِ وَالْأَصْوَاتِ، إِذْ لَا يَسْتَحِيلُ وُجُودُهَا مَعَ عَدَمِ الْحَيَاةِ بِمَجْرَدِهَا.

فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ عِبَارَةً عَنِ الْكَلَامِ النَّفْسِيِّ فَلَا بَدَّ مِنْ شَرْطِ الْحَيَاةِ لَهَا، إِذْ لَا يَوْجَدُ كَلَامُ النَّفْسِ إِلَّا مِنْ حَيٍّ، خِلَافًا لِلْجَبَائِثِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ مُتَكَلِّمِي الْفِرَقِ فِي

إِحَالَتِهِ وجودَ الكلام اللفظي والحروف والأصوات إلا مِنْ حِيٍّ مَرْكَبٍ عَلَى تَرْكِيبِ مَنْ يَصِحُّ مِنْهُ النُّطْقُ بِالْحُرُوفِ وَالْأَصْوَاتِ.

والتزم ذلك في الحصن، والجذع، والذراع، وقال: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ فِيهَا حَيَاةً، وَخَرَقَ لَهَا فَمَاءً، وَلِسَانًا، وَاللَّهُ أَمَكْنَهَا بِهَا مِنَ الْكَلَامِ.

وهذا لو كان، لَكَانَ ثَقْلُهُ وَالتَّهْمُ بِهِ أَكْثَرُ مِنَ التَّهْمِ بِثَقْلِ تَسْبِيحِهِ أَوْ حَنِينِهِ، وَلَمْ يَنْقُلْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّيْرِ وَالرَّوَايَةِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَدَلَّ عَلَى سَقُوطِ دَعْوَاهُ، مَعَ أَنَّهُ لَا ضَرُورَةَ إِلَيْهِ فِي النَّظَرِ، وَالْمَوْفُوقِ اللَّهِ.

٨٣٣ - وَرَوَى وَكِيعٌ، رَفَعَهُ، عَنْ فَهْدِ بْنِ عَطِيَّةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى بِصَبِيٍّ قَدْ شَبَّ لَمْ يَتَكَلَّمْ قَطُّ، فَقَالَ: «مَنْ أَنَا؟» فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ.

٨٣٤ - وَرَوَى عَنْ مُعَرِّضِ بْنِ مُعَيْقِبٍ: رَأَيْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَجَبًا، جِيءَ بِصَبِيٍّ يَوْمَ وُلِدَ... فَذَكَرَ مِثْلَهُ.

وهو حديثُ مُبَارَكِ الْيَمَامَةِ، وَيُعْرَفُ بِحَدِيثِ شَاصُونَةَ: اسْمُ رَاوِيهِ، وَفِيهِ: فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقْتَ، بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ».

ثُمَّ إِنَّ الْغَلَامَ لَمْ يَتَكَلَّمْ بَعْدَهَا حَتَّى شَبَّ، فَكَانَ يُسَمَّى مُبَارَكِ الْيَمَامَةِ. وَكَانَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ بِمَكَّةَ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ.

٨٣٥ - وَعَنِ الْحَسَنِ: أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَ أَنَّهُ طَرَحَ بُنْيَةً لَهُ فِي وَادِي كَذَا، فَانْطَلَقَ مَعَهُ إِلَى الْوَادِي، وَنَادَاهَا بِاسْمِهَا: «يَا فُلَانَةُ! أَجِيبِي بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى» فَخَرَجَتْ وَهِيَ تَقُولُ: «لَيْتَكَ وَسَعْدَيْكَ! فَقَالَ لَهَا: «إِنَّ أَبَوَيْكَ قَدْ أَسْلَمَا، فَإِنْ أُخْبِيتَ أَنْ أَرَدَكَ عَلَيْهِمَا؟» قَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِمَا، وَجَذْتُ اللَّهَ خَيْرًا لِي مِنْهُمَا.

٨٣٦ - وَعَنْ أَنَسٍ: أَنَّ شَابَاً مِنَ الْأَنْصَارِ تُوفِّيَ وَلَهُ أُمٌّ عَجُوزٌ عَمِيَاءُ، فَسَجَّيْنَاهُ، وَعَزَّيْنَاهَا، فَقَالَتْ: مَاتَ ابْنِي؟ قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَتْ: اللَّهُمَّ! إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي هَاجَرْتُ إِلَيْكَ وَإِلَى نَبِيِّكَ رَجَاءً أَنْ تَعِينَنِي عَلَى كُلِّ شِدَّةٍ فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَيَّ هَذِهِ الْمَصِيْبَةَ.

فَمَا بِرَحْمَتِنَا أَنْ كَشَفَ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ، فَطَعَمَ وَطَعِمْنَا.

٨٣٧ - وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ: كُنْتُ فِيْمَنْ دَفَنَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَكَانَ قَتَلَ بِالْيَمَامَةِ، فَسَوَّغْنَاهُ حِينَ أَدْخَلْنَاهُ الْقَبْرَ يَقُولُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، عُمرُ الشَّهِيدِ، عُثْمَانُ الْبَرُّ الرَّحِيمُ، فَنَظَرْنَا فِإِذَا هُوَ مَيِّتٌ.

٨٣٨ - وَرَوَى عَنْ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ: أَنَّ زَيْدَ بْنَ خَارِجَةَ خَرَّ مَيِّتًا فِي بَعْضِ

أَرْقَةَ الْمَدِينَةِ، فَرَفَعَ وَسْجِي إِذْ سَمِعُوهُ بَيْنَ الْعَشَاءَيْنِ وَالنِّسَاءِ يَضْرُخْنَ حَوْلَهُ يَقُولُ: أَنْصِتُوا، أَنْصِتُوا، فَحَسَرَ عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ، وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ، صَدَقَ، وَذَكَرَ أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، ثُمَّ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، ثُمَّ عَادَ مِيتًا كَمَا كَانَ.

فصل

فِي إِنْزَاءِ الْمَرْضَى وَذَوِي الْعَاهَاتِ

٨٣٩ - أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ: عَلِيُّ بْنُ مُشَرَّفٍ، فِيمَا أَجَازَنِيهِ، وَقَرَأْتُهُ عَلَى غَيْرِهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْحَبَالُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ النَّحَّاسِ، حَدَّثَنَا ابْنُ الْوَرْدِ، عَنِ الْبَرْقِيِّ، عَنْ ابْنِ هِشَامٍ، عَنْ زِيَادِ الْبَكَّائِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا ابْنُ شَهَابٍ، وَعَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، وَجَمَاعَةٌ ذَكَرَهُمْ بِقَضِيَّةِ أُحُدٍ بِطُولِهَا، قَالَ: وَقَالُوا: قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ:

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيُنَازِلُنِي السَّهْمَ لَا تَضِلَّ لَهُ، فَيَقُولُ: «أَزِمْ بِهِ» [البخاري (٤٠٥٥)، مسلم (٢٤١٢)].

٨٤٠ - وَقَدْ رَمَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ عَنْ قَوْسِهِ حَتَّى انْدَقَتْ، وَأَصِيبُ يَوْمَئِذٍ عَيْنُ قَتَادَةَ - يَعْنِي ابْنَ النُّعْمَانِ - حَتَّى وَقَعَتْ عَلَى وَجْهِهِ، فَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَتْ أَحْسَنَ عَيْتِهِ.

وَرَوَى قِصَّةَ قَتَادَةَ عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، وَيَزِيدُ بْنُ عِيَّاضٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ.

٨٤١ - وَرَوَاهَا أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ عَنْ قَتَادَةَ.

٨٤٢ - وَبَصَقَ عَلَى أَثَرِ سَهْمٍ فِي وَجْهِ أَبِي قَتَادَةَ فِي يَوْمِ ذِي قَرْدٍ، قَالَ: فَمَا ضَرَبَ عَلَيَّ وَلَا قَاحَ.

٨٤٣ - وَرَوَى النَّسَائِيُّ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حُثَيْفٍ: أَنَّ أَعْمَى قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَكْشِفَ لِي عَنْ بَصَرِي.

قَالَ: «فَانْطَلِقْ، فَتَوَضَّأْ، ثُمَّ صَلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ! إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّ مُحَمَّدٍ، نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَيْكَ أَنْ يَكْشِفَ عَنِّي بَصَرِي، اللَّهُمَّ شَفِّعْنِي فِيَّ».

قَالَ: فَرَجَعَ وَقَدْ كَشَفَ اللَّهُ عَنْ بَصَرِهِ [الترمذي (٣٥٧٨)، ابن ماجه (١٣٨٥)،

أحمد (١٣٨/٤)].

٨٤٤ - وَرَوَى أَنَّ ابْنَ مُلَاعِبِ الْأَسِنَّةِ أَصَابَهُ اسْتِسْقَاءً، فَبَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ خُثُوءَ مِنَ الْأَرْضِ، فَتَفَلَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَعْطَاهَا رَسُولُهُ، فَأَخَذَهَا مَتَعَجِّبًا، يُرَى أَنَّ قَدَ هُزِيءَ بِهِ، فَأَتَاهَا بِهَا، وَهُوَ عَلَى شَفَا، فَشَرِبَهَا، فَشَفَاهُ اللَّهُ.

٨٤٥ - وَذَكَرَ الْعُقَيْلِيُّ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ قُدَيْكٍ - وَيُقَالُ: قُؤَيْكٌ - أَنَّ أَبَاهُ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ، فَكَانَ لَا يَنْصَبُ بِهِمَا شَيْئًا، فَنَفَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ، فَأَبْصَرَ، فَأَرَاتِهِ يَدْخُلُ الْخَيْطَ فِي الْإِزْرَةِ، وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِينَ.

٨٤٦ - وَرَمَى كُلْثُومُ بْنُ الْحُصَيْنِ يَوْمَ أُحُدٍ فِي نَحْرِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِ، فَبَرِيَءَ.

٨٤٧ - وَتَفَلَ عَلَى شَجَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُتَيْسٍ فَلَمْ تُمِدَّ.

٨٤٨ - وَتَفَلَ فِي عَيْنِي عَلِيٌّ يَوْمَ خَيْبَرَ، وَكَانَ رَمِدًا، فَأَصْبَحَ بَارئًا [البخاري (٣٧٠١)، مسلم (٢٤٠٦)].

٨٤٩ - وَنَفَثَ عَلَى ضَرْبَةٍ بِسَاقِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ يَوْمَ خَيْبَرَ فَبُرْتُ [البخاري (٤٢٠٦)].

٨٥٠ - وَفِي رَجُلٍ زَيْدُ بْنُ مُعَاذٍ حِينَ أَصَابَهَا السِّيفُ إِلَى الْكَعْبِ، حِينَ قَتَلَ ابْنَ الْأَشْرَفِ، فَبُرْتُ.

٨٥١ - وَعَلَى سَاقِ عَلِيٍّ بْنِ الْحَكَمِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ إِذْ انْكَسَرَتْ، فَبَرِيَءَ مَكَانَهُ، وَمَا نَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ.

٨٥٢ - وَاشْتَكَى عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَجَعَلَ يَدْعُو، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ! اشْفِهِ، أَوْ عَافِهِ» ثُمَّ ضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ، فَمَا اشْتَكَى ذَلِكَ الْوَجَعَ بَعْدَ [الترمذي (٣٥٦٤)].

٨٥٣ - وَقَطَعَ أَبُو جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ يَدَ مُعَوِّذِ بْنِ عَفْرَاءَ، فَجَاءَ يَحْمِلُ يَدَهُ، فَبَصَقَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَلْصَقَهَا فَلَصِقَتْ. رَوَاهُ ابْنُ وَهْبٍ.

٨٥٤ - وَمِنْ رَوَاتِهِ أَيْضًا: أَنَّ حُبَيْبَ بْنَ يَسَافٍ أُصِيبَ يَوْمَ بَدْرٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِضَرْبَةٍ عَلَى عَاتِقِهِ حَتَّى مَالَ شِقُّهُ، فَرَدَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَنَفَثَ عَلَيْهِ حَتَّى صَحَّ.

٨٥٥ - وَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمٍ، مَعَهَا صَبِيٌّ بِهِ بَلَاءٌ لَا يَتَكَلَّمُ، فَأَتَى بِمَاءٍ فَمَضَمَصَ فَاؤَهُ، وَغَسَلَ يَدَيْهِ، ثُمَّ أَعْطَاهَا إِيَّاهُ، وَأَمَرَهَا بِسَقْيِهِ وَمَسَّهُ بِهِ، فَبَرِيَءَ الْغُلَامُ، وَعَقَلَ عَقْلًا يَفْضُلُ عَقُولَ النَّاسِ.

٨٥٦ - وعن ابن عباس: جاءت امرأة بابتن لها به جنون، فمسح صدره، فثَغ ثَغَةً، فخرج من جوفه مثل الجوز الأسود، فشفي [أحمد (٢٥٤/١)].

٨٥٧ - وانكفات القدر على ذراع محمد بن حاطب وهو طفل، فمسح عليه ودعا له، وثقل فيه فبرىء لجينه [أحمد (٤١٨/٣)].

٨٥٨ - وكانت في كف شرخبيل الجعفي سلعة تمنعه القبض على السيف وعنان الدابة، فشكاها للنبي ﷺ، فما زال يطحنها بكفه حتى رفعها، ولم يبق لها أثر.

٨٥٩ - وسألت جارية طعاماً، وهو يأكل، فناولها من بين يديه، وكانت قليلة الحياء، فقالت: إنما أريد من الذي في فيك، فناولها ما في فيه، ولم يكن يسأل شيئاً فيمنعه.

فلما استقر في جوفها ألقى عليها من الحياء ما لم تكن امرأة بالمدينة أشد حياء منها.

فصل

في إجابة دعائه ﷺ

وهذا باب واسع جداً وإجابة دعوة النبي ﷺ لجماعة بما دعا لهم وعليهم متواتر على الجملة، معلوم ضرورة.

٨٦٠ - وقد جاء في حديث حذيفة: كان رسول الله ﷺ إذا دعا لرجل أذركت الدعوة ولده وولد ولده [أحمد (٣٨٥ - ٣٨٦)].

٨٦١ - حدثنا أبو محمد العتابي بقراءتي عليه، حدثنا أبو القاسم: حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن القاسمي، حدثنا أبو زيد المزوري، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عبد الله بن أبي الأسود، حدثنا حرمي، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه، قال: قالت أمي: يا رسول الله! خادمتك أنس، ادع الله له. قال: «اللهم! أكثر ماله وولده، وبارك له فيما آتيت» [البخاري (٦٣٤٤)، مسلم (١٤٢/٢٤٨١)].

٨٦٢ - ومن رواية عكرمة: قال أنس: فوالله! إن مالي لكثير؛ وإن ولدي وولد ولدي ليعادون اليوم على نحو المئة [مسلم (١٤٣/٢٤٨١)].

٨٦٣ - وفي رواية: وما أعلم أحداً أصاب من رخاء العيش ما أصبت، ولقد دفنت يدي هاتين مئة من ولدي، لا أقول سيطاً ولا ولد ولد.

٨٦٤ - ومنه دعاؤه لعبدالرحمن بن عَوْف بالبركة [البخاري (٥١٥٥)، مسلم (١٤٢٧)]، قال عبدالرحمن: فلو رفعتُ حجراً لرجوتُ أَنْ أُصِيبَ تحته ذهباً، وفتح الله عليه، ومات فحضرَ الذهبُ من تركته بالفؤوس حتى مَجَلَّتْ فيه الأيدي، وأخذت كلُّ زوجة ثمانين ألفاً، وكُنَّ أربعمائة، وقيل: مئة ألف.

وقيل: بل صولحت إحداهن، لأنه طلقها في مَرَضِهِ على نَيْفِ وثمانين ألفاً، وأوصى بخمسين ألفاً بعد صدقاته الفاشية في حياته، وعَوَّارِهِ العظيمة: أعتق يوماً ثلاثين عَبْدًا، وتصدَّقَ مرةً بَعِيرٍ فيها سَبْعُ مِئَةِ بَعِيرٍ، وردَّتْ عليه تَحْمِلُ من كل شيء، فتصدَّقَ بها وبما عليها، وبأَقْنَابِهَا وأَخْلَاسِهَا.

٨٦٥ - ودعا لمعاويةَ بالتمكين في البلاد، فقال الخلافة.

٨٦٦ - ولسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أَنْ يَجِيبَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ، فما دَعَا عَلَى أَحَدٍ إِلَّا اسْتَجِيبَ لَهُ [الترمذي (٣٧٥١)].

٨٦٧ - ودعا بِعِزِّ الإسلام بِعُمَرَ رضي الله عنه، أو بِأَبِي جَهْلٍ، فاستجيب له في عُمَرَ [الترمذي (٣٦٨١)، أحمد (٩٥/٢)].

٨٦٨ - قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: ما زلنا أَعَزَّةً منذ أسلم عُمرُ [البخاري (٣٦٨٤)].

٨٦٩ - وأصاب الناس في بعض مَغَازِيهِ عَطَشٌ، فسأله عُمَرُ الدُعاءَ، فدعا، فجاءت سحابةٌ، فسقَّتْهم حاجَتَهُمْ، ثم أَقْلَعَتْ.

٨٧٠ - ودعا في الاستسقاء، فسُقُوا، ثم شَكُّوا إِلَيْهِ المَطَرُ، فدعا، فصَحَّوا [البخاري (١٠١٦)، مسلم (٨٩٧)].

٨٧١ - وقال لأبي قَتَادَةَ: «أَفْلَحَ وَجْهَكَ، اللهم! بَارِكْ لَهُ فِي شَعْرِهِ وَبَشَرِهِ»، فمات وهو ابنُ سبعين سنةً، وكأنه ابنُ خمس عشرة سنةً.

٨٧٢ - وقال للتابغة: «لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَاكًا» فما سقطت له سنٌّ. وفي رواية: فكان أحسنَ الناس ثَغْرًا، إذا سقطت له سنٌّ تَبَثَّتْ له أخرى، وعاش عشرين ومئة سنة، وقيل: أكثر من هذا.

٨٧٣ - ودعا لابن عباس: «اللهم! فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ» [أحمد (٢٦٦/١)، ٣١٤، ٣٢٨، البخاري (١٤٣)، مسلم (٢٤٧٧)] فُسِّمِيَ بَعْدَ الْحَبَرِ، وترجمان القرآن.

٨٧٤ - ودعا لعبدالله بن جعفر بالبركة في صَفَقَةِ يَمِينِهِ، فما اشترى شيئاً إلا رُبِحَ فِيهِ.

- ٨٧٥ - ودعا لِلْمُقْدَادِ بِالْبِرْكَ، فكانت عنده غَرَائِرُ مِنَ الْمَالِ.
- ٨٧٦ - ودعا بمثله لَعُزَّةُ بْنُ أَبِي الْجَعْدِ [البخاري (٣٦٤٢)]، فقال فلقد كنتُ أقومُ بِالْكُنَاسَةِ، فما أَرْجَعُ حَتَّى أَرْبِحَ أَرْبَعِينَ أَلْفًا.
- وقال البخاري في حديثه: فكان لو اشترى الترابَ رِبْحَ فيه [البخاري (٣٦٤٢)].
- ٨٧٧ - وَرُويَ مِثْلُ هَذَا لِعَزْقَةَ أَيْضًا.
- ٨٧٨ - وَنَدَّتْ لَهُ ﷺ نَاقَةٌ، فَدَعَا فَجَاءَهُ بِهَا إِعْصَارُ رِيحٍ، حَتَّى رَدَّهَا عَلَيْهِ.
- ٨٧٩ - وَدَعَا لِأُمِّ أَبِي هُرَيْرَةَ فَأَسْلَمَتْ [مسلم (٢٤٩١)].
- ٨٨٠ - وَدَعَا لِعَلِيِّ أَنْ يُكَفِّيَ الْحَرَّ وَالْقَرَّ، فَكَانَ يَلْبَسُ فِي الشِّتَاءِ ثِيَابَ الصَّيْفِ، وَفِي الصَّيْفِ ثِيَابَ الشِّتَاءِ، وَلَا يَصْبِيهِ حَرٌّ وَلَا بَرْدٌ [ابن ماجه (١١٧)].
- ٨٨١ - وَدَعَا لِفَاطِمَةَ ابْنَتِهِ اللَّهِ أَلَّا يُجِيعَهَا، قَالَتْ: فَمَا جُعْتُ بَعْدَ.
- ٨٨٢ - وَسَأَلَهُ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو آيَةَ لِقَوْمِهِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ! نَوِّزْ لَهُ» فَسَطَعَ نَوْرٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَبِّ! أَخَافُ أَنْ يَقُولُوا: مُثَلَّةٌ، فَتَحَوَّلَ إِلَى طَرَفِ سَوْطِهِ، فَكَانَ يُضِيءُ فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلَمَةِ، فَسَمِيَ ذَا النُّورِ.
- ٨٨٣ - وَدَعَا عَلَى مُضَرٍّ فَأَقْبَحُوا، حَتَّى اسْتَعْطَفَتْهُ قُرَيْشٌ، فَدَعَا لَهُمْ فَسَقُوا [البخاري (٤٨٢١)، مسلم (٤٠/٢٧٩٨)].
- ٨٨٤ - وَدَعَا عَلَى كِسْرَى حِينَ مَرَّقَ كِتَابَهُ أَنْ يَمَرِّقَ اللَّهُ مُلْكَهُ [البخاري (٦٤)]، فَلَمْ تَبْقَ لَهُ بَاقِيَةٌ، وَلَا بَقِيَّتٌ لِفَارَسٍ رِيَّاسَةً فِي أَقْطَارِ الدُّنْيَا.
- ٨٨٥ - وَدَعَا عَلَى صَبِيٍّ، قَطَعَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ، أَنْ يَقْطَعَ اللَّهُ أَثَرَهُ، فَأُقْعِدَ [أبو داود (٧٠٧)].
- ٨٨٦ - وَقَالَ لِرَجُلٍ رَأَاهُ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ: «كُلْ بِيَمِينِكَ» فَقَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ. فَقَالَ: «لَا اسْتَطَعْتُ» فَلَمْ يَرْفَعْهَا إِلَى فِيهِ [مسلم (٢٠٢١)].
- ٨٨٧ - وَدَعَا عَلَى عُتْبَةَ بْنِ أَبِي لَهَبٍ: «اللَّهُمَّ! سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كِلَابِكَ»، فَأَكَلَهُ الْأَسَدُ.
- ٨٨٨ - وَقَالَ لَامْرَأَةٍ: «أَكْلِكِ الْأَسَدُ» فَأَكَلَهَا.
- ٨٨٩ - وَحَدِيثُهُ الْمَشْهُورُ، مِنْ رَاوِيَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي دَعَائِهِ عَلَى قُرَيْشٍ حِينَ وَضَعُوا السَّلَاةَ عَلَى رَقَبَتِهِ وَهُوَ سَاجِدٌ مَعَ الْقُرْثِ وَالْدَمِّ، وَسَمَاهُمْ، قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُهُمْ قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ [البخاري (٢٤٠)، مسلم (١٧٩٤)].
- ٨٩٠ - وَدَعَا عَلَى الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ، وَكَانَ يَخْتَلِجُ بِوَجْهِهِ، وَيَغْمِزُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، أَي: لَا، فَرَأَاهُ، فَقَالَ: «كَذَلِكَ كُنْ» فَلَمْ يَزَلْ يَخْتَلِجُ إِلَى أَنْ مَاتَ.

٨٩١ - ودعا على مُحَلِّم بن جَثَامَة فمات لِسَبْع، فلفظَتْهُ الأرض، ثم وُورِي، فلفظَتْهُ مَرَاتٍ، فَأَلْقَوْهُ بَيْن صُدَّيْن، وَرَضُمُوا عَلَيْهِ بِالْحِجَارَةِ. وَالصُّدَّ: جَانِبُ الْوَادِي.

٨٩٢ - وَجَحَدَهُ رَجُلٌ بَنَعَ فَرَس - وَهِيَ الَّتِي شَهِدَ فِيهَا حُزَيْمَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ - فَرَدَّ الْفَرَسَ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الرَّجُلِ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ! إِنْ كَانَ كَاذِبًا فَلَا تَبَارِكْ لَهُ فِيهَا» [أَبُو دَاوُدَ (٣٦٠٧)، النَّسَائِي (٣٠١/٧ - ٣٠٢)] فَأَصْبَحَتْ شَاصِيَةً بِرِجْلَيْهَا، أَيْ: رَافِعَةً.

وهذا الباب أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ.

فصل

فِي كَرَامَاتِهِ وَبَرَكَاتِهِ وَانْقِلَابِ الْأَغْيَانِ لَهُ فَإِنَّمَا لَمَسَهُ أَوْ بَاشَرَهُ

٨٩٣ - أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو ذَرٍّ الْهَرَوِيُّ، إِجَازَةً. وَحَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو عَلِيٍّ سَمَاعًا، وَالْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَغَيْرُهُمَا، قَالُوا: حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ الْقَاضِي، حَدَّثَنَا أَبُو ذَرٍّ، حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ، وَأَبُو إِسْحَاقَ، وَأَبُو الْهَيْثَمِ، قَالُوا: حَدَّثَنَا الْقُرْبَرِيُّ، حَدَّثَنَا الْبُخَارِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدِ الْأَعْلَى بْنُ حَمَادٍ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرَعُوا مَرَّةً، فَرَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَسًا لِأَبِي طَلْحَةَ كَانَ يَقْطُفُ - أَوْ بِهِ قِطَافٌ - وَقَالَ غَيْرُهُ: يُبْطَأُ، فَلَمَّا رَجَعَ قَالَ: «وَجَدْنَا فَرَسَكَ بَخْرًا» فَكَانَ بَعْدُ لَا يُجَارَى [الْبُخَارِيُّ (٢٨٦٧)، مُسْلِمَ (٣٣٠٧)].

٨٩٤ - وَنَحَسَ جَمَلُ جَابِرٍ، وَكَانَ قَدْ أَغْيَا، فَتَشَيْطَ حَتَّى كَانَ مَا يَمْلِكُ زِمَامَهُ [الْبُخَارِيُّ (٢٧١٨)].

٨٩٥ - وَصَنَعَ مِثْلَ ذَلِكَ بِفَرَسٍ لَجُعِيلِ الْأَشْجَعِيِّ، خَفَقَهَا بِمِخْفَقَةٍ مَعَهُ، وَبَرَكَ عَلَيْهَا، فَلَمْ يَمْلِكْ رَأْسَهَا تَشَاطُطًا، وَبَاعَ مِنْ بَطْنِهَا بَاشِي عَشْرَ أَلْفًا.

٨٩٦ - وَرَكِبَ حِمَارًا قَطُوفًا لِسَعْدِ بْنِ عَبَادَةَ فَرَدَّهُ هِمْلًا جَا لَا يُسَايِرُ.

٨٩٧ - وَكَانَتْ شَعْرَاتٌ مِنْ شَعْرِهِ فِي قَلَنْسُوَةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، فَلَمْ يَشْهَدْ بِهَا قِتَالًا إِلَّا زَرَقَ النَّصْرَ.

٨٩٨ - وَفِي الصَّحِيحِ، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا

أخرجت جُبَّة طَيَّالِسَةٍ، وقالت: كان رسول الله ﷺ يَلْبَسُهَا، فنحن نَعْمِلُهَا للمرضى نَسْتَشْفِي بِهَا [مسلم (٢٠٦٩)].

وحدثنا القاضي أبو علي، عن شَيْخِهِ أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ الْمَأْمُونِ، قال: كانت عندنا قُضْعَةٌ من قِصَاعِ النَّبِيِّ ﷺ، فَكُنَّا نَجْعَلُ فِيهَا الْمَاءَ للمرضى، فيسْتَشْفَوْنَ بِهَا.

٨٩٩ - وَأَخَذَ جَهْجَهَةَ الْغِفَّارِيِّ الْقَضِيبِ مِنْ يَدِ عِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِيُكْسِرَهُ عَلَى رُكْبَتِهِ، فَصَاحَ النَّاسُ بِهِ، فَأَخَذَتْهُ فِيهَا الْآكِلَةُ، فَقَطَعَهَا، وَمَاتَ قَبْلَ الْحَوْلِ.

٩٠٠ - وَسَكَبَ مِنْ فَضْلِ وَضُوئِهِ فِي بَثْرٍ قُبَاءٍ فَمَا تَزَفَّتْ بَعْدَ.

٩٠١ - وَبَزَقَ فِي بَثْرٍ كَانَتْ فِي دَارِ أَنْسٍ، فَلَمْ يَكُنْ بِالْمَدِينَةِ أَعَذِبَ مِنْهَا.

٩٠٢ - وَمَرَّ عَلَى مَاءٍ، فَسَأَلَ عَنْهُ، فَقِيلَ لَهُ: اسْمُهُ بَيْسَانَ، وَمَاؤُهُ مِلْحٌ، فَقَالَ: «بَلْ هُوَ نَعْمَانُ وَمَاؤُهُ طِيبٌ» فَطَابَ.

٩٠٣ - وَأَتَى بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ زَمَزَمَ، فَمَجَّ فِيهِ، فَصَارَ أَطِيبَ مِنَ الْمِسْكِ [ابن ماجه (٦٥٩)، أحمد (٣١٥/٤)].

٩٠٤ - وَأَعْطَى الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ لِسَانَهُ فَمَضَاهُ، وَكَانَا يَبْكِيَانِ عَطْشًا، فَسَكْتَا.

٩٠٥ - وَكَانَ لَأُمِّ مَالِكٍ عُكَّةٌ تُهْدِي فِيهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ سَمْنًا فَأَمَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ أَلَّا تَعَصِرَهَا، ثُمَّ دَفَعَهَا إِلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ مَمْلُوءَةٌ سَمْنًا، فَيَأْتِيهَا بِثَوْبٍ يَسْأَلُونَهَا الْأُذْمَ، وَلَيْسَ عَنْدهُمْ شَيْءٌ فَتَعْمِدُ إِلَيْهَا. فَتَجِدُ فِيهَا سَمْنًا، فَكَانَتْ تُقِيمُ أَذْمَهَا حَتَّى عَصَرَتْهَا [مسلم (٢٢٨٠)].

٩٠٦ - وَكَانَ يَتَّقُلُ فِي أَفْوَاهِ الصَّبِيَّانِ الْمَرَضِيعِ فَيَجْزِئُهُمْ رِيْقَهُ إِلَى اللَّيْلِ.

٩٠٧ - وَمِنْ ذَلِكَ: بَرَكَةُ يَدِهِ فِيمَا لَمَسَهُ وَغَرَسَهُ لِسْلَمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ كَاتَبَهُ مَوَالِيَهُ عَلَى ثَلَاثِ مِئَةٍ وَدِيَّةٍ يَغْرِسُهَا لَهُمْ، كُلُّهَا تَعَلَّقُ وَتُطْعِمُ، وَعَلَى أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً مِنْ ذَهَبٍ، فَقَامَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَغَرَسَهَا لَهُ بِيَدِهِ إِلَّا وَاحِدَةً غَرَسَهَا غَيْرُهُ، فَأَخَذَتْ كُلُّهَا إِلَّا تِلْكَ الْوَاحِدَةَ، فَقَلَعَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَرَدَّهَا، فَأَخَذَتْ.

وَفِي كِتَابِ الْبَزَارِ: فَأَطْعَمَ التَّخْلُ مِنْ عَامِهِ إِلَّا الْوَاحِدَةَ، فَقَلَعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَغَرَسَهَا فَأَطْعَمَتْ مِنْ عَامِهَا.

وَأَعْطَاهُ مِثْلَ بَيْضَةِ الدَّجَاجَةِ مِنْ ذَهَبٍ بَعْدَ أَنْ أَدَارَاهَا عَلَى لِسَانِهِ، فَوَزَنَ مِنْهَا لِمَوَالِيهِ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، وَبَقِيَ عَنْدهُ مِثْلُ مَا أَعْطَاهُمْ [أحمد (٤٤١/٥) - (٤٤٤)].

٩٠٨ - وَفِي حَدِيثِ حَنْشِ بْنِ عَقِيلٍ: سَقَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَرْبَةً مِنْ سَوِيقٍ

شَرِبَ أَوَّلَهَا وَشَرِبَتْ آخِرَهَا، فَمَا بَرَحْتُ أَجِدُ شَبَعَهَا إِذَا جُعْتُ، وَرِيَّهَا إِذَا عَطِشْتُ، وَبَزَدَهَا إِذَا ظَمِئْتُ.

٩٠٩ - وَأَعْطَى قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ - وَصَلَّى مَعَهُ الْعِشَاءَ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ مَطِيرَةٍ - عُرْجُونًا، وَقَالَ: «انْطَلِقْ بِهِ، فَإِنَّهُ سَيُضِيءُ لَكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ عَشْرًا وَمِنْ خَلْفِكَ عَشْرًا، فَإِذَا دَخَلْتَ بَيْتَكَ فَسَتَرَى سَوَادًا فَاضِرِهِ حَتَّى يَخْرُجَ، فَإِنَّهُ الشَّيْطَانُ». فَنَاطَلْتُ فَاضَاءَ لَهُ الْعُرْجُونُ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَهُ، وَوَجَدَ السَّوَادَ فَضْرِهِ حَتَّى خَرَجَ [أحمد (٦٥/٣)].

٩١٠ - وَمِنْهَا: دَفَعَهُ لَعُكَّاشَةٌ جَذَلَ حَطَبٍ، وَقَالَ: «اضْرِبْ بِهِ» حِينَ انْكَسَرَ سَيْفُهُ يَوْمَ بَدْرٍ، فَعَادَ فِي يَدِهِ سَيْفًا صَارِمًا، طَوِيلَ الْقَامَةِ، أَبْيَضَ، شَدِيدَ الْمَثَنِ، فَقَاتَلَ بِهِ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ عِنْدَهُ يَشْهَدُ بِهِ الْمَوَاقِفَ إِلَى أَنْ اسْتَشْهِدَ فِي قِتَالِ أَهْلِ الرَّدَةِ. وَكَانَ هَذَا السَّيْفُ يُسَمَّى الْعَوْنُ.

٩١١ - وَدَفَعَهُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَنْحَشٍ يَوْمَ أُحُدٍ - وَقَدْ ذَهَبَ سَيْفُهُ - عَسِيبَ نَخْلٍ، فَجَرَعَ فِي يَدِهِ سَيْفًا.

٩١٢ - وَمِنْهُ: بَرَكَّتْهُ فِي دُرُورِ الشَّيَاطِينِ الْحَوَائِلِ بِاللَّبَنِ الْكَثِيرِ، كَقِصَّةِ شَاةٍ أُمِّ مَعْبِدٍ.

٩١٣ - وَأَعْتَزَّ مَعَاوِيَةَ بْنُ ثَوْرٍ.

٩١٤ - وَشَاةٍ أُنْسٍ.

٩١٥ - وَغَنَمٍ حَلِيمَةٍ: مُرْضِعَتِي، وَشَارِفَهَا.

٩١٦ - وَشَاةٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ [أحمد (٣٧٩/١)]، وَكَانَتْ لَمْ يَثُرْ عَلَيْهَا فَخْلٌ.

٩١٧ - وَشَاةٍ الْبُقْدَادِ [مسلم (٢٠٥٥)].

٩١٨ - وَمِنْ ذَلِكَ تَزْوِيدُهُ أَصْحَابَهُ سِقَاءَ مَاءٍ بَعْدَ أَنْ أَوْكَاهُ، وَدَعَا فِيهِ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُمْ الصَّلَاةُ نَزَلُوا فَحَلَّوْهُ، فَإِذَا بِهِ لَبَنٌ طَيِّبٌ وَزُبْدَةٌ فِي فَمِهِ - مِنْ رَوَايَةِ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ.

٩١٩ - وَمَسَحَ عَلَى رَأْسِ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ وَبَرَكَ، فَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِينَ، فَمَا شَابَ.

٩٢٠، ٩٢١ - وَرُويَ مِثْلُ هَذِهِ الْقِصَصِ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ، مِنْهُمْ: السَّائِبُ بْنُ يَزِيدَ [البخاري (٣٥٤٠)، مسلم (٢٣٤٥)]، وَمَذْلُوكٌ.

٩٢٢ - وَكَانَ يَوْجَدُ لَعُشْبَةً بَنَ فَرْقَدٍ طَيِّبٌ يَغْلِبُ طَيِّبَ نِسَائِهِ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَسَحَ بِيَدِهِ عَلَى بَطْنِهِ وَظَهْرِهِ.

٩٢٣ - وَسَلَّتِ الدَّمُ عَنْ وَجْهِ عَائِدِ بْنِ عَمْرِو، وَكَانَ جُرْحُ يَوْمِ حُتَيْنَ، وَدَعَا لَهُ، فَكَانَتْ لَهُ غُرَّةٌ كَغُرَّةِ الْفَرَسِ.

٩٢٤ - وَمَسَحَ عَلَى رَأْسِ قَيْسِ بْنِ زَيْدِ الْجُدَامِيِّ، وَدَعَا لَهُ، فَهَلَكَ وَهُوَ ابْنُ مِثَّةَ سَنَةٍ، وَرَأْسُهُ أَبْيَضُ، وَمَوْضِعُ كَفِّ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا مَرَّتْ يَدُهُ عَلَيْهِ مِنْ شَعْرِهِ أَسْوَدُ، فَكَانَ يُدْعَى الْأَغْرَ.

٩٢٥ - وَرُوي مِثْلُ هَذِهِ الْحِكَايَةِ لِعَمْرِو بْنِ ثَعْلَبَةَ الْجُهَنِيِّ.

٩٢٦ - وَمَسَحَ وَجْهَ آخَرَ، فَمَا زَالَ عَلَى وَجْهِهِ نُورٌ.

٩٢٧ - وَمَسَحَ وَجْهَ قَتَادَةَ بْنِ مِلْحَانَ، فَكَانَ لَوَجْهِهِ بَرِيقٌ حَتَّى كَانَ يُنْظَرُ فِي وَجْهِهِ كَمَا يُنْظَرُ فِي الْمَرَاةِ [أحمد (٢٨/٥) - (٢٩)].

٩٢٨ - وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ حَنْظَلَةَ بْنِ حِذِيمٍ، وَبَرَكَ عَلَيْهِ، فَكَانَ حَنْظَلَةُ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ قَدْ وَرِمَ وَجْهُهُ، وَالشَّاةُ قَدْ وَرِمَ ضَرْعُهَا، فَيُوضَعُ عَلَى مَوْضِعِ كَفِّ النَّبِيِّ ﷺ فَيَذْهَبُ الْمَوْرَمُ [أحمد (٦٨/٥)].

٩٢٩ - وَنَضَحَ فِي وَجْهِ زَيْنَبِ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ نَضْحَةً مِنْ مَاءٍ، فَمَا يُعْرِفُ كَانَ فِي وَجْهِ امْرَأَةٍ مِنَ الْجَمَالِ مَا بِهَا.

٩٣٠ - وَمَسَحَ عَلَى رَأْسِ صَبِيٍّ بِهِ عَاهَةٌ، فَبَرَىءَ وَاسْتَوَى شَعْرُهُ. وَعَلَى غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الصَّبِيِّانِ وَالْمَرْضَى وَالْمَجَانِينِ، فَبَرَوْا.

٩٣١ - وَمِثْلُهُ رُوي فِي خَبَرِ الْمُهَلَّبِ بْنِ قَبَالَةَ.

٩٣٢ - وَأَتَاهُ رَجُلٌ أَذْرَةً، فَأَمَرَهُ أَنْ يَنْضَحَهَا بِمَاءٍ، مِنْ عَيْنِ مَجٍّ فِيهَا، فَفَعَلَ، فَبَرَىءَ.

٩٣٣ - وَعَنْ طَاوُوسٍ: لَمْ يُؤْتَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَحَدٍ بِهِ مَسٌّ، فَصَلَّاهُ فِي صَدْرِهِ إِلَّا ذَهَبَ.

وَالْمَسُّ: الْجَنُونُ.

٩٣٤ - وَمَجَّ فِي ذَلْوٍ مِنْ بَثَرٍ، ثُمَّ صَبَّ فِيهَا، فَقَاحَ مِنْهَا رِيحُ الْمِسْكِ.

٩٣٥ - وَأَخَذَ قَبْضَةً مِنْ ثَرَابِ يَوْمِ حُتَيْنَ، وَرَمَى بِهَا فِي وَجْهِهِ الْكَفَّارِ، وَقَالَ: «شَاهَتِ الْوَجْهُ» فَانصَرَفُوا يَمْسَحُونَ الْقَذَى عَنْ أَعْيُنِهِمْ [مسلم (١٧٧٧)].

٩٣٦ - وَشَكَا إِلَيْهِ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّسِيَّانَ، فَأَمَرَهُ بِبَسْطِ ثَوْبِهِ، وَعَرَفَ بِيَدِهِ فِيهِ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِضَمِّهِ، فَفَعَلَ، فَمَا نَسِيَ شَيْئاً بَعْدَ [البخاري (١١٩)]، مُسْلِمٌ [(٢٤٩٢)].

وَمَا يُرَوَى عَنْهُ فِي هَذَا كَثِيرٌ.

٩٣٧ - وضرب صَدْرَ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَدَعَا لَهُ، وَكَانَ ذِكْرُ لَهُ أَنَّهُ لَا يَثْبُتُ عَلَى الْخَيْلِ، فَصَارَ مِنْ أَفْرَسِ الْعَرَبِ وَأَثْبَتَهُمْ [البخاري (٣٠٣٦)، مسلم (١٣٥/٢٤٧٥)].

٩٣٨ - وَمَسَحَ عَلَى رَأْسِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ وَهُوَ صَغِيرٌ، وَكَانَ دَمِيمًا، وَدَعَا لَهُ بِالْبِرْكَ، فَفَرَّغَ الرِّجَالَ، طَوْلًا وَتَمَامًا.

فصل

فِي مَا أُطْلِعَ عَلَيْهِ مِنَ الْغُيُوبِ

وَمِنْ ذَلِكَ مَا أُطْلِعَ عَلَيْهِ مِنَ الْغُيُوبِ وَمَا يَكُونُ. وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ بَحْرٌ لَا يَذْرُكُ قَعْرُهُ، وَلَا يُتْرَفُ غَمْرُهُ.

وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع، الواصل إلينا خبرها على التواتر، لكثرة رواياتها، واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب.

٩٣٩ - حَدَّثَنَا الْإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ: مُحَمَّدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْفَهْرِيُّ إِجَازَةً، وَقَرَأْتُهُ عَلَى غَيْرِهِ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ التُّسْتَرِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ الْهَاشِمِيُّ، حَدَّثَنَا اللَّؤْلُؤِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَامًا، فَمَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَنَا، حَفِظَهُ مِنْ حَفِظِهِ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَؤُلَاءِ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ فَأَعْرِفُهُ فَأَذْكُرُهُ كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ، ثُمَّ إِذَا رَأَاهُ عَرَفَهُ [البخاري (٦٦٠٤)، مسلم (٢٣/٢٨٩١)، أَبُو دَاوُدَ (٤٢٤٠)].

٩٤٠ - ثُمَّ قَالَ حُذَيْفَةُ: مَا أَدْرِي، أُنْسِيَ أَصْحَابِي أَمْ تَنَاسَوْهُ؟ وَاللَّهِ! مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَائِدٍ فَتَنَةٍ إِلَى أَنْ تَنْقُضِيَ الدُّنْيَا يَبْلُغُ مَنْ مَعَهُ ثَلَاثَ مِئَةٍ فَصَاعِدًا إِلَّا قَدْ سَمَاهُ لَنَا بِاسْمِهِ، وَاسْمُ أَبِيهِ، وَقَبِيلَتُهُ [أَبُو دَاوُدَ (٤٢٤٣)].

٩٤١ - وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: لَقَدْ تَرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا يَحْرُكُ طَائِرٌ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ، إِلَّا ذَكَّرْنَا مِنْهُ عِلْمًا.

٩٤٢ - وَقَدْ خَرَجَ أَهْلُ الصَّحِيحِ وَالْأَثْمَةُ مَا أَعْلَمَ بِهِ أَصْحَابَهُ ﷺ مِمَّا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنَ الظُّهُورِ عَلَى أَعْدَائِهِ [البخاري (٣٨٥٢)].

٩٤٣ - وَفُتِحَ مَكَّةُ [البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢)].

٩٤٤ - وَبَيَّتَ الْمَقْدِسُ [البخاري (٣١٧٦)].

- ٩٤٥ - واليمن، والشام، والعراق [البخاري (١٨٧٥)، مسلم (١٣٨٨)].
- ٩٤٦ - وظهور الأمن، حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة، لا تخاف إلا الله [البخاري (٣٥٩٥)].
- ٩٤٧ - وأن المدينة ستغزى [البخاري (١٨٧٤)، مسلم (١٣٨٩)].
- ٩٤٨ - وتفتح خيبر على يدي علي في غد يومه [البخاري (٣٧٠١)، مسلم (٢٤٠٦)].
- ٩٤٩ - وما يفتح الله على أمته من الدنيا، ويؤتون من زهرتها [البخاري (١٤٦٥)، مسلم (١٠٥٢)].
- ٩٥٠ - وقسمتهم كنوز كسرى وقبصر [البخاري (٣١٢١)، مسلم (٢٩١٩)].
- ٩٥١ - وما يحدث بينهم من الفتون والاختلاف والأهواء.
- ٩٥٢ - وسلوك سبيل من قبلهم [البخاري (٣٤٥٦)، مسلم (٢٦٦٩)].
- ٩٥٣ - وافتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة [أحمد (٣٣٢/٢)، أبو داود (٤٥٩٦)، الترمذي (٢٦٤٠)، ابن ماجه (٣٩٩١)].
- ٩٥٤ - وأنها ستكون لهم أنماط [البخاري (٣٦٣١)، مسلم (٢٠٨٣)].
- ٩٥٥ - ويغدو أحدهم في حلة، ويروح في أخرى، وتوضع بين يديه صخفة وترقع أخرى، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة.
- ثم قال آخر الحديث: «وأنتم اليوم خير منكم يومئذ» [الترمذي (٢٤٧٦)].
- ٩٥٦ - وأنهم إذا مشوا المطيطاء وخدمتهم بنات فارس والروم رد الله بأسهم بينهم، وسلط شرازم على خيارهم [الترمذي (٢٢٦١)].
- ٩٥٧ - وقتالهم الترك [البخاري (٢٩٢٨)، مسلم (٦٥/٢٩١٢)].
- ٩٥٨ - والخزر [البخاري (٣٥٩٠)، والروم].
- ٩٥٩ - وذهاب كسرى وفارس حتى لا كسرى ولا فارس بعده، وذهاب قيصر حتى لا قيصر بعده [البخاري (٣١٢٠)، مسلم (٢٠١٨)].
- ٩٦٠ - وذكر أن الروم ذات قرون إلى آخر الدهر.
- ٩٦١ - وبذهاب الأمل فالأمثل من الناس [البخاري (٦٤٣٤)].
- ٩٦٢ - وتقارب الزمان، وقبض العلم، وظهور الفتن، والهزج [البخاري (١٠٣٦)، مسلم (١١/١٥٧)].
- ٩٦٣ - وقال: «ويل للعرب من شر قد اقترب» [البخاري (٣٣٤٦)، مسلم (٢٨٨٠)].

٩٦٤ - وأنه رُويَتْ له الأرض فأرِي مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وسيلُغُ مُلْكُ أُمَّتِهِ ما رُويَ له منها [مسلم (٢٨٨٩)].

فكذلك كان، امتدَّت في المشارق والمغارب ما بين أرض الهند أقصى المَشْرِق إلى بَحْر طَنْجَة حيث لا عِمارة ورَّاءه، وذلك ما لم تملكهُ أُمَّةٌ من الأمم، ولم تمتدَّ في الجنوب ولا في الشَّمال مثْل ذلك.

٩٦٥ - وقوله: «لا يزالُ أهلُ العَرَبِ ظاهرينَ على الحقِّ حتى تقومَ السَّاعةُ» [مسلم (١٩٢٥)] - ذهب ابن المَدِينِي إلى أَنهم العَرَبُ، لأنهم المختصُّون بالسُّفِي بالعَرَب - وهي الدُّلُو - وَغَيْرُهُ يذهبُ إلى أَنهم أهلُ المَغْرِب، وقد ورد المغرب كذا في الحديث بمعناه.

٩٦٦ - وفي حديث آخر، مِنْ رواية أَبِي أَمَامَةَ: «لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرينَ على الحقِّ، قاهرينَ لِعُلُوِّهِمْ، حتى يَأْتِيَهُمُ أَمْرُ اللَّهِ وهم كذلك».

قيل: يا رسول الله! وأين هم؟ قال: «بيت المقدس».

٩٦٧ - وأخْبَرَ بِمُلْكِ بني أُمِيَّة.

٩٦٨ - وولاية مُعَاوِيَة، ووَصَّاهُ [أحمد (١٠١/٤)].

٩٦٩ - واتخاذُ بني أُمِيَّة مَالِ اللَّهِ دُولًا.

٩٧٠ - وخروجُ وَلِدِ العباسِ بالراياتِ السُّودِ [ابن ماجه (٤٠٨٤)].

٩٧١ - ومُلْكُهُم أضعافُ ما ملكوا.

٩٧٢ - وخروجُ المهدي.

٩٧٣ - وما ينالُ أهلُ بيته وتَقْتِيلُهُمْ وتَشْرِيدُهُمْ.

٩٧٤ - وقَتْلُ عليٍّ، وَأَنَّ أَشْقَاهَا الَّذِي يَخْضِبُ هذه من هذه، أي لِحْيَتِهِ من

رَأْسِهِ.

٩٧٥ - وأنه قسيمُ النار، يَدْخُلُ أولياؤه الجنة، وأعداؤه النار، فكان فيمَن

عاداه الخوارج والناصبية، وطائفةٌ مِمَّنْ يُنْسَبُ إليه من الروافضِ كَفَرُوهُ.

٩٧٦ - وقال: «يَقْتُلُ عثمانُ وهو يَقْرَأُ في المَصْحَفِ» [الترمذي (٣٧٠٨)].

٩٧٧ - وأن الله عسى أَنْ يُلْبِسَهُ قَمِيصًا، وَأَنَّهُمْ يُريدونَ خَلْعَهُ [الترمذي

(٣٧٠٥)، ابن ماجه (١١٢)].

٩٧٨ - وأنه سَيَقْطُرُ دَمُهُ على قوله: «تَسَيِّئُكُمْ اللَّهُ» [البقرة: ١٣٧].

٩٧٩ - وَأَنَّ الفِتْنَ لا تَظْهَرُ ما دامَ عُمَرُ حَيًّا [البخاري (٧٠٩٦)، مسلم (٧٤٤)].

٩٨٠ - وبمحاربة الزُّبَيْرِ لعلِّي وهو ظالم له.

- ٩٨١ - وَيُبَاحُ كِلَابِ الْحَوَابِ عَلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ [أحمد (٥٢/٦)].
- ٩٨١م - وَأَنَّهُ يُقْتَلُ حَوْلُهَا قَتْلَى كَثِيرٌ، وَتَنْجُو بَعْدَ مَا كَادَتْ، فَنَبِحَتْ عَلَى عَائِشَةَ عِنْدَ خُرُوجِهَا إِلَى الْبَصْرَةِ.
- ٩٨٢ - وَأَنَّ عَمَّاراً قَتَلَهُ الْفَتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ [مسلم (٢٩١٥)]، فَقَتَلَهُ أَصْحَابُ مُعَاوِيَةَ.
- ٩٨٣ - وَقَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ: «وَيْلٌ لِلنَّاسِ مِنْكَ! وَوَيْلٌ لَكَ مِنَ النَّاسِ!».
- ٩٨٤ - وَقَالَ فِي قُزْمَانَ - وَقَدْ أَبْلَى مَعَ الْمُسْلِمِينَ -: «إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» [البخاري (٢٨٩٨)، مسلم (١١٢)] فَقَتَلَ نَفْسَهُ.
- ٩٨٥ - وَقَالَ فِي جَمَاعَةٍ فِيهِمْ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَسَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ، وَخُذَيْفَةُ: «أَخْرَكُم مَوْتاً فِي النَّارِ» فَكَانَ بَعْضُهُمْ يَسْأَلُ عَنْ بَعْضِ فَكَانَ سَمُرَةُ أَخْرَجَهُمْ مَوْتاً، هَرِمَ وَخَرِفَ، فَاصْطَلَى بِالنَّارِ فَاحْتَرَقَ فِيهَا.
- ٩٨٦ - وَقَالَ فِي حَنْظَلَةَ الْعَسِيلِ: «سَلُّوا زَوْجَتَهُ عَنْهُ فَيُنِي رَأَيْتُ الْمَلَائِكَةَ تَغْسِلُهُ» فَسَأَلُوهَا فَقَالَتْ: إِنَّهُ خَرَجَ جُنُباً، وَأَعَجَلَهُ الْحَالُ عَنِ الْغُسْلِ.
- قال أبو سعيد رضي الله عنه: وَجَدْنَا رَأْسَهُ يَقْطُرُ مَاءً.
- ٩٨٧ - وَقَالَ: «الْخِلَافَةُ فِي قُرَيْشٍ» [أحمد (١٨٥/٤)].
- ٩٨٨ - «وَلَنْ يَزَالَ هَذَا الْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا أَقَامُوا الدِّينَ» [البخاري (٣٥٠٠)].
- ٩٨٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَكُونُ فِي ثَقِيفٍ كَذَابٌ وَمُبِيرٌ» [مسلم (٢٥٤٥)] فَرَأَوْهُمَا: الْحَجَّاجُ، وَالْمُخْتَارُ.
- ٩٩٠ - وَأَنَّ مُسَيْلَمَةَ يَعْقُرُهُ اللَّهُ [البخاري (٣٦٢٠)، مسلم (٢٢٧٣)].
- ٩٩١ - وَأَنَّ فَاطِمَةَ أَوَّلَ أَهْلِهَا لِحَوْقاً بِهِ [البخاري (٣٦٢٦)، مسلم (٢٤٥٠)].
- ٩٩٢ - وَأَنْذَرَ بِالرُّدَّةِ [مسلم (١٩٢٠)].
- ٩٩٣ - وَبَيَّنَّ الْخِلَافَةَ بَعْدَهُ ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكاً [أبو داود (٤٦٤٦)، الترمذي (٢٢٢٦)]، فَكَانَتْ كَذَلِكَ بِمَدَّةِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ.
- ٩٩٤ - وَقَالَ: «إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ بَدَأَ ثُبُوءَ وَرَحْمَةً، ثُمَّ يَكُونُ رَحْمَةً وَخِلَافَةً، ثُمَّ يَكُونُ مُلْكاً عَضُوضاً، ثُمَّ يَكُونُ عُثُوءاً وَجَبْرُوتاً وَفُسَاداً فِي الْأُمَّةِ».
- ٩٩٥ - وَأَخْبَرَ بِشَانَ أُوَيْسِ الْقَرْنِيِّ [مسلم (٢٥٤٢)].
- ٩٩٦ - وَبِأَمْرَاءَ يَوْجُرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا [مسلم (٥٣٤)].
- ٩٩٧ - وَسَيَكُونُ فِي أُمَّتِهِ ثَلَاثُونَ كَذَاباً، فِيهِمْ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ [أحمد (٣٩٦/٥)].
- ٩٩٨ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «ثَلَاثُونَ دَجَالاً كَذَاباً أَحَدُهُم الدَّجَالُ الْكَذَابُ، كُلُّهُمْ يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ» [أبو داود (٤٣٣٤)، البخاري (٧١٢١)، مسلم (٨٤/١٥٧)].

٩٩٩ - وقال: «يوشك أن يكثُر فيكم العَجَمُ، يأكلون فَيْئَكُمْ، وَيَضْرِبُونَ رِقَابَكُمْ».

١٠٠٠ - ر «لا تقوُم الساعةُ حتى يسوقَ الناسُ بعضاهُ رجلٌ من قُحطَانٍ» [البخاري (٣٥١٧)، مسلم (٢٩١٠)].

١٠٠١ - وقال: «خَيْرُكُمْ قَزَنِي، ثم الذين يُلُونَهُمْ، ثم الذين يُلُونَهُمْ، ثم يأتي بَعْدَ ذلك قومٌ يشْهَدُونَ ولا يُسْتَشْهَدُونَ، ويخونون ولا يُؤْتَمَنُونَ، ويُثَدِّرون ولا يُؤْفُونَ ويظهر فيهم السُّمَنُ» [البخاري (٢٦٥١)، مسلم (٢٥٣٥)].

١٠٠٢ - وقال: «لا يأتي زمانٌ إلّا والذي بعده شرُّ منه» [البخاري (٧٠٦٨)].

١٠٠٣ - وقال: «هَلَاكُ أُمَّتِي على يَدَي أَغْنِيْلِمَةٍ من قُرَيْشٍ». قال أبو هريرة رَواه: لو شئتُ سَمَيْتُهُمْ لَكُمْ: بَنُو فُلانٍ، وَبَنُو فُلانٍ [البخاري (٣٦٠٥)، مسلم (٢٩١٧)].

١٠٠٤ - وأخبر بِظُهُورِ القَدْرِيةِ [أبو داود (٤٦١٣)، أحمد (٩٠/٢)].

١٠٠٥ - والرافِضةُ.

١٠٠٦ - وَسَبَّ آخِرُ هذه الأَمَةِ أَوَّلُهَا [الترمذي (٢٢١٠)، (٢٢١١)].

١٠٠٧ - وَقَلَّةُ الْأَنْصارِ حتى يكونوا كَالْمَلْحِ في الطَعَامِ [البخاري (٣٨٠٠)]، فلم يَزَلْ أَمْرُهُمْ يَتَبَدَّدُ حتى لم يَبْقَ لَهُمْ جَماعَةٌ.

١٠٠٨ - وَأَنَّهُمْ سَيَلْقَوْنَ بَعْدَهُ أَثَرَةَ [البخاري (٣١٤٧)، مسلم (١٠٥٩)].

١٠٠٩ - وَأَخْبَرَ بِشَأْنِ الخَوارجِ وَصِفَتِهِمْ، وَالْمُخَدِّجِ الَّذِي فِيهِمْ، وَأَنَّ سِيماهُمْ التَّحْلِيْقُ.

١٠١٠ - وَيُرَى رِعاءُ الغنمِ رُؤوسَ الناسِ، والعِراةُ الحُفَاءُ يَتَبَارَوْنَ في البُنيانِ. وَأَنَّ تِلْدَ الأَمَةِ رَيْبُهَا [البخاري (٥٠)، مسلم (٩، ١٠)].

١٠١١ - وَأَنَّ قُرَيْشاً والأَحْزابَ لا يَغْزَوْنَهُ أَبَداً، وَأَنَّهُ هُوَ يَغْزُوهُمْ [البخاري (٤١١٠)].

١٠١٢ - وَأَخْبَرَ بِالْمُوتانِ الَّذِي يَكُونُ بَعْدَ فَتْحِ بَيْتِ المَقْدَسِ [البخاري (٣١٧٦)].

١٠١٣ - وما وَعَدَ من سُكْنَى البَصْرةِ [أبو داود (٤٣٠٧)].

١٠١٤ - وَأَنَّهُمْ يَغْزَوْنَ في البَحْرِ كَالْمَلوكِ على الأَسِيرَةِ [البخاري (٢٨٠٠)، مسلم (١٩١٢)].

١٠١٥ - وَأَنَّ الدِّينَ لو كان مَثْوطاً بالثَرِيّا لَنالَهُ رِجالٌ من أبناءِ فارِسٍ [البخاري (٤٨٩٧)، مسلم (٢٥٤٦)].

١٠١٦ - وهاجت ريح في غزاته فقال: «هاجت لموت منافق» [مسلم (٢٧٨٢)]، فلما رجعوا إلى المدينة وجدوا ذلك.

١٠١٧ - وقال لقوم من جلسائه: «ضرس أحدكم في النار أعظم من أحد». قال أبو هريرة: فذهب القوم - يعني: ماتوا - وبيث أنا ورجل، فقتل مرتداً يوم اليمامة.

١٠١٨ - وأعلم بالذي غل خزاً من خز يهود، فوجدت في رخله [أبو داود (٢٧١٠)]، النسائي (٦٤/٤)، ابن ماجه (٢٨٤٨).

١٠١٩ - وبالذي غل السملة، وحيث هي [البخاري (٤٢٣٤)]، مسلم (١١٥).

١٠٢٠ - وناقته حين ضلت، وكيف تعلقت بالشجرة بخطامها.

١٠٢١ - وبشأن كتاب خاطب إلى أهل مكة [البخاري (٣٠٠٧)]، مسلم (٢٤٩٤).

١٠٢٢ - وبقيصة غمير مع صفوان حين ساره وشارطه على قتل النبي ﷺ. فلما جاء غمير للنبي ﷺ قاصداً لقتله، وأطلعته رسول الله ﷺ على الأمر والسر أسلم.

١٠٢٣ - وأخبر بالمال الذي تركه عمه العباس رضي الله عنه عند أم الفضل بعد أن كتبه، فقال: ما علمه غيري وغيرها، فأسلم [أحمد (٣٥٣/١)].

١٠٢٤ - وأعلم بأنه سيقتل أبي بن خلف.

١٠٢٥ - وفي غبة بن أبي لهب أنه يأكله كلب من كلاب الله.

١٠٢٦ - وعن مصارع أهل بذر، فكان كما قال [مسلم (١٧٧٩)].

١٠٢٧ - وقال في الحسن: «إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» [البخاري (٢٧٠٤)].

١٠٢٨ - ولسعد: «لعلك تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويستضر بك آخرون» [البخاري (٤٤٠٩)]، مسلم (١٦٢٨).

١٠٢٩ - وأخبر بقتل أهل مؤتة يوم قتلوا وبينهم مسيرة شهر أو أزيد [البخاري (١٢٤٦)].

١٠٣٠ - ويموت النجاشي يوم مات وهو بأرضه [البخاري (١٢٤٥)]، مسلم (٩٥١).

١٠٣١ - وأخبر فيروز إذ ورد عليه رسولا من كسرى بموت كسرى ذلك اليوم، فلما حقق فيروز القصة أسلم.

١٠٣٢ - وأخبر أبا ذر رضي الله عنه بتطريده كما كان، ووجده في المسجد

نائماً، فقال له: «كيف بك إذا أُخْرِجْتَ منه؟» قال: أسْكُن المسجد الحرام. قال: «فإذا أُخْرِجْتَ منه...» الحديث.

١٠٣٣ - وَيُعِيشُهُ وَخَدَهُ، وَمَوْتَهُ وَخَدَهُ.

١٠٣٤ - وَأَخْبِرَ أَنَّ أَسْرَعَ أَزْوَاجِهِ بِهِ لِحَوْقاً أَطْوَلُهُنَّ يَدَا [البخاري (١٤٢٠)، مسلم (٢٤٥٢)]، فكانت زينب لطول يدها بالصدقة.

١٠٣٥ - وَأَخْبِرَ بِقَتْلِ الْحُسَيْنِ بِالطُّفِّ، وَأَخْرَجَ بِيَدِهِ تَرْبَةً، وَقَالَ: «فِيهَا مَضْجَعُهُ».

١٠٣٦ - وَقَالَ فِي زَيْدِ بْنِ صُوحَانَ: «يَسْبِقُهُ عُضْوٌ مِنْهُ إِلَى الْجَنَّةِ» فَقَطَعَتْ يَدَهُ فِي الْجِهَادِ.

١٠٣٧ - وَقَالَ فِي الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ عَلَى حِرَاءَ: «اثْبُتْ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدٌ»، فَقُتِلَ عَلِيٌّ، وَعُمَرُ، وَعَثْمَانُ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَطُعْنُ سَعْدٍ.

١٠٣٨ - وَقَالَ لِسُرَاقَةَ: «كَيْفَ بِكَ إِذَا أَلْبَسْتَ سُوَارِي كِسْرَى؟» فَلَمَّا أَتَى بِهِمَا عُمَرُ أَلْبَسَهُمَا إِيَّاهُ، وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَلَبَهُمَا كِسْرَى وَأَلْبَسَهُمَا سُراقَةَ.

١٠٣٩ - وَقَالَ: «تَبْنَى مَدِينَةً بَيْنَ دِجْلَةَ وَدُجَيْلٍ وَقُطْرُبَلٍ وَالصَّرَاةِ تُجَبَّى إِلَيْهَا خَزَائِنُ الْأَرْضِ، يُخَسَفُ بِهَا»، يَعْنِي بَغْدَادَ.

١٠٤٠ - وَقَالَ: «سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ رَجُلٌ يَقَالُ لَهُ: الْوَلِيدُ، هُوَ شَرُّ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ فِرْعَوْنَ لِقَوْمِهِ» [أحمد (١٨/١)].

١٠٤١ - وَقَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتِلَ فِتْنَانِ دَعَاوَاهُمَا وَاحِدَةً» [البخاري (٣٦٠٨)، مسلم (١٧/١٥٧)].

١٠٤٢ - وَقَالَ لِعُمَرَ فِي سَهْمِيلِ بْنِ عَمْرِو: «عَسَى أَنْ يَقُومَ مَقَاماً يَسْرُكَ يَا عُمَرُ!» فَكَانَ كَذَلِكَ، قَامَ بِمَكَّةَ مَقَامَ أَبِي بَكْرٍ يَوْمَ بَلَّغَهُمْ مَوْتَ النَّبِيِّ ﷺ، وَخُطِبَ بِنَحْوِ خُطْبَتِهِ، وَثَبَّتَهُمْ وَقَوَّى بَصَائِرَهُمْ.

١٠٤٣ - وَقَالَ لَخَالِدٍ حِينَ وَجَّهَ لِأَكْبَدِرَ: «إِنَّكَ تَجِدُهُ يَصِيدُ الْبَقَرَ» فَوُجِدَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا فِي حَيَاتِهِ، وَبَعْدَ مَوْتِهِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إِلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ جُلَسَاءَهُ مِنْ أَسْرَارِهِمْ وَبَوَاطِنِهِمْ، وَاطَّلَعَ عَلَيْهِ مِنْ أَسْرَارِ الْمُنَافِقِينَ وَكُفْرِهِمْ، وَقَوْلِهِمْ فِيهِ وَفِي الْمُؤْمِنِينَ، حَتَّى إِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَيَقُولُ لِمُصَاحِبِهِ: اسْكُتْ، فَوَاللَّهِ! لَوْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَنْ يُخْبِرُهُ لَأَخْبَرْتُهُ حِجَارَةَ الْبَطْحَاءِ.

١٠٤٤ - وَإِعْلَامُهُ بِصِفَةِ السَّحَرِ الَّذِي سَحَرَهُ بِهِ لَيْيُدُ بْنُ الْأَغْصَمِ، وَكَوْنُهُ فِي

مَشِطٍ وَمُشَاقَّةٍ، فِي جُفِّ طَلْعِ نَخْلَةٍ ذَكَرٍ، وَأَنَّهُ أَلْقَى فِي بَشْرِ قَرْوَانَ، فَكَانَ كَمَا قَالَ، وَوُجِدَ عَلَى تِلْكَ الصِّفَّةِ.

١٠٤٥ - وإعلامه ثريشاً بأكل الأَرْضَةِ ما في صحيفتهم التي تظاهروا بها على بني هاشم، وقطعوا بها رِجْمَهُمْ، وَأَنهَا أَبْقَتْ فِيهَا كُلَّ اسْمٍ لِلَّهِ، فَوَجَدُوهَا كَمَا قَالَ.

١٠٤٦ - ووضفهُ لكفارِ قريشِ بيتِ المقدسِ حينَ كَذَّبُوهُ فِي خَبْرِ الإسراءِ، وَنَعْنُهُ إِيَّاهُ نَعَتْ مَنْ عَرَفَهُ.

١٠٤٧ - وإعلامُهم بِعِيبِهِمُ التي مَرَّ عَلَيْهَا فِي طَرِيقِهِ، وَإِنْدَارُهُمْ بِوَقْتِ وصولِها، فَكَانَ كُلُّهُ كَمَا قَالَ ﷺ.

إِلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الْحَوَادِثِ الَّتِي تَكُونُ وَلَمْ يَأْتِ بَعْدُ، مِنْهَا مَا ظَهَرَ تَمَقُّدَاتُهَا.

١٠٤٨ - كَقَوْلِهِ: «عُمَرَانُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَرَابٌ يَثْرُبُ، وَخَرَابٌ يَثْرُبُ خُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ، وَخُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ فَتَحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ» [ابو داود (٤٢٩٤)، أحمد (٢٣٢/٥)].

وَمِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَآيَاتِ حُلُولِهَا، وَذِكْرِ النَّشْرِ وَالْحَشْرِ، وَأَخْبَارِ الْأَبْرَارِ وَالْفَجَّارِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَعَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ.

وَبَحْسَبِ هَذَا الْفَصْلِ أَنْ يَكُونَ دِيْوَاناً مُفْرَداً يَشْتَمِلُ عَلَى أَجْزَاءِ وَخِذِّهِ، وَفِيهَا أَشْرَنَّا إِلَيْهِ مِنْ نُكْتِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا كَفَايَةً، وَأَكْثَرُهَا فِي الصَّحِيحِ، وَعِنْدَ الْأُمَّةِ.

فصل

فِي عِصْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ مِنَ النَّاسِ وَكِفَايَتِهِ مِنْ آذَاهُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وَقَالَ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

قِيلَ: بِكَافٍ مُحَمَّدًا ﷺ أَعْدَاءَهُ الْمَشْرِكِينَ. وَقِيلَ غَيْرُ هَذَا.

وَقَالَ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ﴾ ﴿٩٥﴾ [الحجر: ٩٥].

وَقَالَ: ﴿وَإِذَا يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ

وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرُورِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

١٠٤٩ - أخبرنا القاضي الشهيد أبو علي الصّديّ بقراءتي عليه، والفقير الحافظ

أبو بكر: محمد بن عبد الله المَعافري، قال: حدثنا أبو الحسين الصّيرفي، قال: حدثنا أبو يَغْلَى البَغْدادي، حدثنا أبو علي السّنجي، حدثنا أبو العباس المَرْوزي، حدثنا أبو عيسى الحافظ، حدثنا عبد بن حميد، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عبيد، عن سعيد الجريري، عن عبد الله بن شقيق، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُخَرَسُ حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَصْحَبُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. فأخرج رسول الله ﷺ رَأْسَهُ مِنَ الْقُبَّةِ، فقال لهم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! انصَرِفُوا، فقد عَصَمَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ» [الترمذي (٣٠٤٦)].

١٠٥٠ - وروى أن النبي ﷺ كان إذا نزل منزلاً اختار له أصحابه شجرةً يَقيِلُ تحتها، فأتاه أعرابيٌّ فاخترط سيفه ثم قال: مَنْ يَمْنَعُكَ مَنِي؟ فقال: «اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» فَأَرَعَدَتْ يَدُ الْأَعْرَابِيِّ، وسقط سيفه، وضرب برأسه الشجرة حتى سال دماغه، فنزلت الآية.

١٠٥١ - وقد رويت هذه القصة في الصحيح، وأن غُورثَ بن الحارث صاحب هذه القصة، وأن النبي ﷺ عفا عنه، فرجع إلى قومه، وقال: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ [البخاري (٤١٣٥)، (٤١٣٦)، مسلم (٨٤٣)].

١٠٥٢ - وقد حُكِيتَ مِثْلُ هذه الحكاية، وأنها جرت له يوم بَذَرٍ، وقد انفرد من أصحابه لقضاء حاجته، فبعه رجلٌ من المنافقين... وذكر مثله.

١٠٥٣ - وقد رُوِيَ أَنَّهُ وَقَعَ لَهُ مِثْلُهَا فِي غَزْوَةِ عَطْفَانَ بِذِي أَمْرٍ، مع رجل اسمه دُعْثُور بن الحارث، وأن الرجلَ أَسْلَمَ، فلما رجع إلى قومه الذين أَعْرَوْهُ - وكان سيّدَهُمْ وأشجَعَهُمْ - قالوا له: أين ما كُنْتَ تقول، وقد أمكنك؟ فقال: إني نظرتُ إلى رجل أبيض طویل دَفَعَ فِي صَدْرِي، فوَقَعْتُ لظَهْرِي، وسقط السيف من يدي، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ مَلَكٌ، وَأَسْلَمْتُ.

قيل: وفيه نزلت هذه الآية: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

١٠٥٤ - وفي رواية الخطّابي أَنَّ غُورثَ بن الحارث المَحَارِبِي أراد أن يَفْتِكَ بالنبي ﷺ، فلم يَشْعُرْ بِهِ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ مُتَنَضِّياً سَيْفَهُ، فقال: «اللَّهُمَّ! اكْفِنِيهِ بِمَا شِئْتَ»، فانكَبَ مِنْ وَجْهِهِ مِنْ رُلْخَةٍ رُلْخَهَا بَيْنَ كَتْفَيْهِ، وَنَدَرَ سَيْفُهُ مِنْ يَدِهِ. الرُّلْخَةُ: وجع الظّهر.

وقيل في قصته غير هذا، وذكر أن فيه نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المائدة: ١١).

١٠٥٥ - وقيل: كان رسول الله ﷺ يخاف قريشاً، فلما نزلت هذه الآية استلقى، ثم قال: «مَنْ شَاءَ فَلْيُخَذِّلْنِي».

١٠٥٦ - وذكر عَبْدُ بن حُمَيْدٍ، قال: كانت حَمَالَةُ الحُطْبُ تَضَعُ العِضَاءَ - وهي جَمْرٌ - على طريق رسول الله ﷺ فكانما يَطْوُهَا كَثِيبًا أَهْيَلٌ.

١٠٥٧ - وذكر ابن إسحاق عنها أنها لما بلغها نزول: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، وذكرها بما ذكرها الله مع زوجها من الدم، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد ومعه أبو بكر، وفي يدها فहर من حجارة.

فلما وَقَفَتْ عليهما لم تَرَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ، وَأَخَذَ اللَّهُ تَعَالَى بِصَرِّهَا عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ! أَيْنَ صَاحِبُكَ؟ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ يَهْجُونِي، وَاللَّهِ! لَوْ وَجَدْتُهُ لَضَرَبْتُ بِهَذَا الْفِهْرِ فَاءً.

١٠٥٨ - وعن الحَكَم بن أبي العاص: تَوَاعَدْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى إِذَا رَأَيْنَاهُ سَمِعْنَا صَوْتًا خَلَفْنَا مَا ظَنَنَّا أَنَّهُ بَقِيَ بِتَهَامَةٍ أَحَدٌ، فَوَقَعْنَا مَغْشِيًّا عَلَيْنَا، فَمَا أَفْقْنَا حَتَّى قَضَى صَلَاتَهُ وَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ.

ثم تواعدنا ليلةً أخرى، فجئنا حتى إذا رأيناه جاءت الصفا والمروة، فحالت بيننا وبينه.

١٠٥٩ - وعن عمر رضي الله عنه: تواعدت أنا وأبو جهم بن حذيفة ليلة قتل رسول الله ﷺ، فجبنا منزله، فقسَّمنا له فافتتح وقرأ الفاتحة، وقرأ ﴿الْحَاقَّةُ﴾ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَمْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأَمْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَلَيْهِمْ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَحْنِيَةً أَيَّامَ ضُمُومٍ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) [الحاقة: ١ - ٨].

فَضْرَبَ أَبُو جَهْمٍ عَلَى عَضُدِ عُمَرَ، وَقَالَ: ائْجُ، وَفَرَّ هَارِبِينَ، فَكَانَتْ مِنْ
مَقْدَمَاتِ إِسْلَامِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [أحمد (١٧/١)].

١٠٦٠ - ومنه العبرة المشهورة، والكفاية التامة عندما أخافته قُريش، وأجمعت على قتلِه وبَيْئُوهُ، فخرج عليهم من بيته، فقام على رؤوسهم، وقد

ضرب الله تعالى على أبصارهم، وَدَّرَ الترابَ على رؤوسهم، وخلص منهم.
١٠٦١ - وَحِمَايَتُهُ عَنْ رُؤْيَتِهِمْ فِي الْغَارِ بِمَا هَيَّا اللَّهُ لَهُ مِنَ الْآيَاتِ، وَمِنْ الْعَنْكَبُوتِ الَّذِي نَسَجَ عَلَيْهِ، حَتَّى قَالَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ - حِينَ قَالُوا: نَدْخُلُ الْغَارَ -: مَا أَرْبُكُم فِيهِ، وَعَلَيْهِ مِنْ نَسْجِ الْعَنْكَبُوتِ مَا أَرَى أَنَّهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُولَدَ مُحَمَّدٌ؟ وَوَقَفَتْ حَمَامَتَانِ عَلَى فَمِ الْغَارِ، فَقَالَتْ قَرِيشٌ: لَوْ كَانَ فِيهِ أَحَدٌ لَمَا كَانَتْ هُنَاكَ الْحَمَامُ.

١٠٦٢ - وَقَصَّتْهُ مَعَ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكٍ بْنِ جُعْشُمٍ حِينَ الْهَجْرَةِ، وَقَدْ جَعَلَتْ قُرَيْشٌ فِيهِ وَفِي أَبِي بَكْرٍ الْجَعَانِلَ، فَأَنْذِرَ بِهِ، فَرَكِبَ فَرَسَهُ وَاتَّبَعَهُ حَتَّى إِذَا قَرِبَ مِنْهُ دَعَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَسَاخَتْ قَوَائِمُ فَرَسِهِ، فَخَزَّ عَنْهَا، وَاسْتَقْسَمَ بِالْأَزْلَامِ، فَخَرَجَ لَهُ مَا يَكْرَهُ.

ثُمَّ رَكِبَ وَدَنَا حَتَّى سَمِعَ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ، وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَلْتَفِتُ فَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أُتَيْنَا. فَقَالَ: ﴿لَا تَحْزَنَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٠] فَسَاخَتْ ثَانِيَةً إِلَى رُكْبَتَيْهَا، وَخَزَّ عَنْهَا، فَزَجَرَهَا فَهَضَمَتْ وَلَقَوَائِمَهَا مِثْلُ الدُّخَانِ، فَنَادَاهُمْ بِالْأَمَانِ، فَكُتِبَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَمَانًا، كُتِبَ ابْنُ فُهَيْرَةَ، وَقِيلَ: أَبُو بَكْرٍ، وَأَخْبِرَهُمْ بِالْأَخْبَارِ، وَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَلَّا يَتْرَكَ أَحَدًا يَلْحَقَ بِهِمْ. فَانصَرَفَ يَقُولُ لِلنَّاسِ: كُفَيْتُمْ مَا هَا هُنَا.

وَقِيلَ: بَلْ قَالَ لَهُمَا: أَرَأَيْتُمَا دَعَوْتُمَا عَلِيَّ، فَادْعُوَا لِي [البخاري (٣٩٠٦)، مسلم (٢٩٠٨)، (٧٥/٢٠٠٩)].

فَنَجَا، وَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ ظُهُورُ النَّبِيِّ ﷺ.
١٠٦٢ - وَفِي خَيْرٍ آخَرَ: أَنَّ رَاعِيًا عَرَفَ خَبَرَ هُمَا، فَخَرَجَ يَشْتَدُّ، يُعَلِّمُ قَرِيشًا، فَلَمَّا وَرَدَ عَلَى مَكَّةَ ضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ، فَمَا يَذِرِي مَا يَضْنَعُ، وَأُنْسِي مَا خَرَجَ لَهُ، حَتَّى رَجَعَ إِلَى مَوْضِعِهِ.

١٠٦٣ - وَجَاءَهُ - فِيمَا ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ - أَبُو جَهْلٍ، بِصَخْرَةٍ وَهُوَ سَاجِدٌ، وَقَرِيشٌ يَنْظُرُونَ، لِيَطْرَحَهَا عَلَيْهِ، فَلَزِقَتْ بِيَدِهِ، وَبَسِطَ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، وَأَقْبَلَ يَرْجِعُ الْقَهْقَرَى إِلَى خَلْفِهِ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ، فَفَعَلَ، فَانْطَلَقَتْ يَدَاهُ، وَكَانَ قَدْ تَوَاعَدَ مَعَ قُرَيْشٍ بِذَلِكَ، وَحَلَفَ لِمَنْ رَأَاهُ لِيَذْمَعَنَّهُ، فَسَأَلُوهُ عَنْ شَأْنِهِ؟ فَذَكَرَ أَنَّهُ عَرَضَ لِي دُونَهُ فَحُلَّ، مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، هُمْ بِي أَنْ يَأْكُلَنِي.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ذَاكَ جَبْرِيلُ، لَوْ دَنَا لَأَخَذَهُ» [البخاري (٤٩٥٨)].
١٠٦٤ - وَذَكَرَ السَّمَرْقَنْدِيُّ أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي الْمُغِيرَةِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ لِيَقْتُلَهُ،

وذكر أن في هاتين القصتين، نزلت: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ غُمَّةً فَهِيَ إِلَى الْآفَاقِ فَهُمْ مَحْمُورُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس: ٨، ٩].

وقد قيل إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ اِذْ هُمْ قَوْمٌ اَن يَسْطُوْا اِلَيْكُمْ اَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ اَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاَتَّقُوا اَللّٰهَ وَعَلَى اَللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١]. في هذه القصة نزلت.

فجلس النبي ﷺ مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وتَوَامَرَ حَتَّى مَعَهُمْ عَلَى قَتْلِهِ، فَأَعْلَمَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّبِيَّ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَامَ كَأَنَّهُ يَرِيدُ حَاجَتَهُ حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ.

فلما صلى النبي ﷺ أَعْلَمُوهُ، فَأَقْبَلَ، فلما قَرُبَ مِنْهُ ولى هارباً ناكصاً على عَقْبَيْهِ، مُتَقِيّاً بَيْدَيْهِ، فسئل، فقال: لما دَنَوْتُ مِنْهُ أَشْرَفْتُ على خَنْدَقٍ مَمْلُوءٍ نَاراً كَذَتْ أَهْوِي فِيهِ، وَأَبْصَرْتُ هَوْلاً عَظِيماً، وَخَفَقَ أَجْنَحَتُهُ قَدْ مَلَأَتْ الْأَرْضَ. فقال ﷺ: «تلك الملائكة، لو دَنَا لاختطفته عُضُوءُ عُضُوءٍ».

219

١٠٦٨ - ويروى أَنَّ رجلاً يعرف بـ: شَيْبَةَ بن عثمان الْحَجَبِيِّ أدركه يوم حَتِّين، وكان حمزة قد قَتَلَ أَبَاهُ وَعَمَّهُ، فقال: اليوم أدركُ ثأري من مُحَمَّد. فلما اختلط الناس أتاه من خَلْفِهِ، ورفع سيفَهُ لِيَضْبَهُ عليه، قال: فلما دنوتُ منه ارتفع إليّ شَواظٌ من نارٍ أسْرَعُ من البرقِ، فولَّيتُ هارباً، وأَحْسَ بي النبي ﷺ فدَعَانِي، فوضع يَدَهُ على صَدْرِي، وهو أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ، فما رفعها إلَّا وهو أَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ، وقال لي: «إِذْ فَقَاتِلْ» فتقدَّمتُ أمامَهُ أَضْرَبُ بِسِيفِي وأُقيهِ بنفسِي، ولو لقيتُ أَبِي تلكَ السَّاعَةَ لأَوْقَعْتُ بِهِ دُونَهُ.

١٠٦٩ - وعن فَضَالَةَ بن عَمْرٍو: أَرَدْتُ قَتْلَ النَّبِيِّ ﷺ عامَ الْفَتْحِ، وهو يطوفُ بِالْبَيْتِ، فلما دنوتُ منه قال: «يَا فَضَالَةُ!» قُلْتُ: نعم. قال: «مَا كُنْتُ تَحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ؟» قُلْتُ: لَا شَيْءَ، فَضَحِكَ وَاسْتَغْفَرَ لِي، ووضع يَدَهُ على صَدْرِي، فسكن قلبي. فوالله! ما رفعها حتَّى ما خلقَ اللهُ شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ.

١٠٧٠ - ومن مشهور ذلك خَبَرُ عامر بن الطُّفَيْلِ، وأَزِيد بن قيس - حين وقَّدا على النبي ﷺ -، وكان عامرٌ قال له: أنا أَشْغَلُ عَنْكَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ فَاضْرِبْهُ أَنْتَ. فلم يَرَهُ فعلَ شَيْئاً، فلما كَلَّمَهُ فِي ذلكَ، قال له: وَاللَّهِ! مَا هَمَمْتُ أَنْ أَضْرِبَهُ إِلَّا وَجَدْتُكَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، أَفَأَضْرِبُكَ؟

ومن عصمته له تعالى أن كثيراً من اليهود والكهنة، أنذروا به، وعينوه لقریش، وأخبروهم بِسَطَوَتِهِ بِهِمْ، وحضُّوهم على قَتْلِهِ، فَعَصَمَهُ اللهُ تعالى حتَّى بلغ فيه أمره.

١٠٧١ - ومن ذلك نَصْرُهُ بِالرُّغْبِ أمامَهُ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، كما قال عليه السلام [البخاري (٣٣٥)، مسلم (٥٢١)].

فصل

فِي مُعْجَزَاتِهِ ﷺ

فِي مَا جَمَعَ اللهُ لَهُ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ

ومن معجزاته الباهرة ما جمعه اللهُ له من المعارف والعلوم، وخَصَّهُ بِهِ من الاطلاع على جميع مصالح الدنيا والدين، ومعرفة أُمُور شرائعه، وقوانين دينه، وسياسة عِبَادِهِ، ومصالح أمته، وما كان في الأُمَمِ قَبْلَهُ، وقِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ والجبابرة والقرون الماضية من لَدُنْ آدَمَ إِلَى زَمَنِهِ، وحِفْظِ شَرَائِعِهِمْ وَكُتُبِهِمْ، وَوَعْيِ سِيرِهِمْ، وَسَرِّدِ أَنْبَاءِهِمْ، وَأَيَّامِ اللهِ فِيهِمْ، وصفاتِ أَعْيَانِهِمْ، واختلافِ آرائِهِمْ،

والمعرفة بمُدِّهِم وأعمارهم، وحِكم حُكْمائِهِم، ومُحَاجَّة كلِّ أُمَّةٍ من الكُفْرَةِ، ومُعَارَضَة كلِّ فِرْقَة من الكِتَابِيِّين بما في كُتُبِهِم، وإِعْلَامُهُم بِأَسْرَارِهَا وَمُخْبَّاتِ عُلُومِهَا، وإِخْبَارُهُم بما كَتَمُوهُ من ذلك وغيرُوه.

إلى الاحتواء على لغات العرب، وغريب ألفاظ فِرْقِهَا، والإحاطة بضروب فصاحتها، والجِغْفُظ لِأَيَّامِهَا وَأَمْثَالِهَا، وَحِكْمِهَا وَمَعَانِي أَشْعَارِهَا، وَالتَّخْصِص بِجَوَامِعِ كَلِمِهَا إِلَى الْمَعْرِفَةِ بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ الصَّحِيحَةِ، وَالحِكمِ الْبَيِّنَةِ لِتَقْرِيبِ التَّفْهِيمِ لِلْغَامِضِ، وَالتَّيْيِينَ لِلْمُشْكَلِ، إِلَى تَمْهِيدِ قَوَاعِدِ الشَّرْعِ الَّذِي لَا تَنَاقُضَ فِيهِ وَلَا تَخَاذُلَ، مَعَ اشْتِمَالِ شَرِيعَتِهِ عَلَى مُحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ، وَمَحَامِدِ الْآدَابِ، وَكُلِّ شَيْءٍ مُسْتَحْسَنٍ مُفْضَلٍ، لَمْ يَنْتَكِرْ مِنْهُ مُلْحِدٌ ذُو عَقْلٍ سَلِيمٍ شَيْئاً إِلَّا مِنْ جِهَةِ الْخِذْلَانِ.

بَلْ كُلُّ جَا حِدٍ لَهُ، وَكَافِرٍ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ بِهِ إِذَا سَمِعَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ صَوْبَهُ، وَاسْتَحْسَنَهُ دُونَ طَلَبِ إِقَامَةِ بَرْهَانٍ عَلَيْهِ.

ثُمَّ مَا أَحَلَّ لَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْخَبَائِثِ، وَصَانَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَأَعْرَاضَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ مِنَ الْمُعَاقِبَاتِ وَالْحُدُودِ عَاجِلاً، وَالتَّخْوِيفِ بِالنَّارِ آجِلاً مِمَّا لَا يَعْلَمُ عِلْمَهُ، وَلَا يَقُومُ بِهِ، إِلَّا مَنْ مَارَسَ الدَّرْسَ، وَالْعُكُوفَ عَلَى الْكُتُبِ، وَمُتَأَفِّفَةً بَعْضُ هَذَا.

إِلَى الْإِحْتِوَاءِ عَلَى ضُرُوبِ الْعُلُومِ، وَفُنُونِ الْمَعَارِفِ، كَالطَّبِّ، وَالْعِبَارَةِ، وَالْفَرَائِضِ، وَالْحِسَابِ، وَالتَّنَسُّبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ مِمَّا اتَّخَذَ أَهْلُ هَذِهِ الْمَعَارِفِ كَلَامَهُ ﷺ فِيهَا قُدُوةً وَأَصُولاً فِي عِلْمِهِمْ.

١٠٧٢ - قَوْلُهُ: «الرُّؤْيَا لِأَوَّلِ عَابِرٍ» [ابن ماجه (٣٩١٥)].

١٠٧٣ - وَهِيَ «عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ» [أَبُو دَاوُدَ (٥٠٢٠)، التِّرْمِذِيُّ (٢٢٧٨)، ابْنُ مَاجَهَ (٣٩١٤)].

١٠٧٤ - وَقَوْلُهُ: «الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ: رُؤْيَا حَقٌّ، وَرُؤْيَا يَحْدُثُ بِهَا الرَّجُلُ نَفْسَهُ، وَرُؤْيَا تَخْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ» [مُسْلِمَ (٢٢٦٣)، الْبُخَارِيُّ (٧٠١٧)].

١٠٧٥ - وَقَوْلُهُ: «إِذَا تَقَارَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكُنْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تَكْذِيبٌ» [الْبُخَارِيُّ (٧٠١٧)، مُسْلِمَ (٢٢٦٣)].

١٠٧٦ - وَقَوْلُهُ: «أَضَلُّ كُلِّ دَاءٍ الْبَزْدَةُ».

١٠٧٧ - وَمَا رَوَى عَنْهُ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ قَوْلِهِ: «الْمَعِدَةُ حَوْضُ الْبَدَنِ، وَالْعُرْوُوقُ إِلَيْهَا وَارِدَةٌ»، وَإِنْ كَانَ هَذَا حَدِيثاً لَا نَصَحْهُ لَضَعْفِهِ وَكَوْنِهِ مَوْضُوعاً تَكَلَّمَ عَلَيْهِ الدَّارِقُطْنِيُّ.

١٠٧٨ - وقوله: «خَيْرُ مَا تَدَاوَيْتُمْ بِهِ السَّعُوطُ، وَاللَّدُودُ، وَالْحِجَامَةُ، وَالْمَشْيُ» [الترمذي (٢٠٤٧، ٢٠٤٨، ٢٠٥٣)].

١٠٧٩ - ر «خَيْرُ الْحِجَامَةِ يَوْمَ سَبْعِ عَشْرَةَ، وَتِسْعِ عَشْرَةَ، وَإِحْدَى وَعَشْرِينَ» [الترمذي (٢٠٥٣)].

١٠٨٠ - «وَفِي الْعُودِ الْهِنْدِيِّ سَبْعَةُ أَشْفِيَةٍ» [البخاري (٥٧١٣)، مسلم (٢٢١٤)].

١٠٨١ - وقوله: «مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَعَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ، فَتَلْتِ لِلطَّعَامِ، وَتَلْتِ لِلشَّرَابِ، وَتَلْتِ لِلنَّفْسِ».

١٠٨٢ - وقوله - وقد سُئِلَ عَنْ سَبَأٍ - أَرَجُلٌ هُوَ أَمُ امْرَأَةٍ، أَمْ أَرْضٌ؟ فَقَالَ: «رَجُلٌ، وَلَدَ عَشْرَةَ: ثِيَامَنَ مِنْهُمْ سِتَّةً، وَتَشَاءَمَ أَرْبَعَةً...» [الترمذي (٣٢٢٢)، أبو داود (٣٩٨٨)] الحديث بطوله.

١٠٨٣ - وكذلك جوابه فِي نَسَبِ قُضَاعَةَ [أحمد (١٥٦٧)]، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا اضْطَرَّتْ الْعَرَبُ عَلَى شُغْلِهَا بِالنَّسَبِ إِلَى سُؤَالِهِ عَمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ ذَلِكَ.

١٠٨٤ - وقوله: «حَمِيرُ رَأْسِ الْعَرَبِ وَنَابِئُهَا، وَمَذْجُ حَامَتِهَا وَغَلَصَمَتِهَا. وَالْأَزْدُ كَاهِلُهَا وَجُمُجُمَتِهَا، وَهَمْدَانُ غَارِبُهَا وَذُرُونُهَا».

١٠٨٥ - وقوله: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» [البخاري (٣١٩٧)، مسلم (١٦٧٩)].

١٠٨٦ - وقوله فِي الْحَوْضِ: «رَوَايَاهُ سَوَاءٌ».

١٠٨٧ - وقوله - فِي حَدِيثِ الذَّكَرِ -: «وَأَنَّ الْحَسَنَةَ بَعِشْرَ أَمْثَالِهَا فَتِلْكَ مِثَّةٌ وَخَمْسُونَ عَلَى اللِّسَانِ، وَالْفُ وَاخْمُسُ مِثَّةٌ فِي الْمِيزَانِ» [أبو داود (٥٠٦٥)، الترمذي (٣٤١٠)، النسائي (٧٤/٣)، ابن ماجه (٩٢٦)].

١٠٨٨ - وقوله وَهُوَ بِمَوْضِعٍ: «نِعْمَ مَوْضِعُ الْحَمَامِ هَذَا».

١٠٨٩ - وقوله: «مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ» [الترمذي (٣٤٤)، ابن ماجه (١٠١١)].

١٠٩٠ - وَقَوْلُهُ لُعَيْنَتَهُ، أَوْ الْأَقْرَعُ: «أَنَا أَفْرَسُ بِالْخَيْلِ مِنْكَ» [أحمد (٣٨٧/٤)].

١٠٩١ - وقوله لِكَاتِبِهِ: «ضَعِ الْقَلَمَ عَلَى أُذُنِكَ، فَإِنَّهُ أَذْكَرُ لِلْمُجِئِ» [الترمذي (٢٧١٤)].

هذا مع أَنَّهُ ﷺ كَانَ لَا يَكْتُبُ، وَلَكِنَّهُ أُوتِيَ عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى قَدْ وَرَدَتْ آثَارٌ بِمَعْرِفَتِهِ حُرُوفَ الْخَطِّ وَحُسْنَ تَصْوِيرِهَا.

١٠٩٢ - كَقَوْلِهِ: «لَا تَمْلُؤُوا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» رَوَاهُ ابْنُ شَعْبَانَ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

١٠٩٣ - وقوله في الحديث الآخر - الذي يُرَوَّى عن مُعاوية - أنه كان يكتب بين يديه عليه السلام فقال له: «أَلْقِ الدَّوَاةَ، وَخَرِّفِ الْقَلَمَ، وَأَقِمِ الْبَاءَ، وَفَرِّقِ السِّينَ، وَلَا تَعْمُورِ الْمِيمَ، وَحَسِّنِ اللَّهَ، وَمُدِّ الرَّحْمَنَ، وَجُودِ الرَّحِيمَ».

وهذا، وإن لم تصح الرواية أنه عليه السلام كتب فلا يبعد أن يُرْزَقَ عِلْمُ هذا وَيُتَمَنَّجَ الْكِتَابَةُ وَالْقِرَاءَةُ.

وَأَمَّا عِلْمُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِلُغَاتِ الْعَرَبِ، وَحِفْظُهُ مَعَانِي أَشْعَارِهَا، فَأَمْرٌ مَشْهُورٌ، قَدْ نَبَّهْنَا عَلَى بَعْضِهِ أَوَّلَ الْكِتَابِ.

وكَذَلِكَ حِفْظُهُ لكَثِيرٍ مِنْ لُغَاتِ الْأُمَمِ.

١٠٩٤ - كقوله في الحديث: «سَنَّةٌ، سَنَّةٌ» [البخاري (٣٨٧٤)] وهي حَسَنَةٌ بِالْحَبَشِيَّةِ.

١٠٩٥ - وقوله: «ويكثر الهزج» وهو القتل بها.

١٠٩٦ - وقوله - في حديث أبي هريرة -: «أَشْكَنْتُ دَرْدَمَ؟» [ابن ماجه (٣٤٥٨)]

أَي وَجَعُ الْبَطْنِ بِالْفَارْسِيَّةِ.

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَعْلَمُ بَعْضُ هَذَا وَلَا يَقُومُ بِهِ وَلَا يَبْعُضُهُ إِلَّا مَنْ مَارَسَ الدَّرْسَ وَالْعُكُوفَ عَلَى الْكُتُبِ وَمُتَاقَفَةَ أَهْلِهَا عُمُرَهُ.

وهو رجلٌ - كما قال الله تعالى - أَمِيٌّ، لَمْ يَكْتُبْ وَلَمْ يَقْرَأْ، وَلَا عُرِفَ بِضَخْبَةٍ مِنْ هَذِهِ صِفَتِهِ، وَلَا نَشَأَ بَيْنَ قَوْمٍ لَهُمْ عِلْمٌ وَلَا قِرَاءَةٌ لشيءٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، وَلَا عُرِفَ هُوَ قَبْلَ بَشْيٍ مِنْهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُرُ بِمِيسِنِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْقَاطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

إِنَّمَا كَانَتْ غَايَةُ مَعَارِفِ الْعَرَبِ النَّسَبَ وَأَخْبَارَ أَوَائِلِهَا، وَالشَّعْرَ، وَالْبَيَانَ، وَإِنَّمَا حَصَلَ ذَلِكَ لَهُمْ بَعْدَ التَّفَرُّغِ لِعِلْمِ ذَلِكَ، وَالِاسْتِغَالِ بِطَلْبِهِ، وَمُبَاحَثَةِ أَهْلِهِ عَنْهُ.

وهذا الْفَرْقُ نُقْطَةٌ مِنْ بَحْرِ عِلْمِهِ ﷺ.

وَلَا سَبِيلَ إِلَى جَعْدِ الْمُلْجِدِ لشيءٍ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ، وَلَا وَجَدَ الْكَفَرَةَ جِيلَةً فِي دَفْعِ مَا نَصَضْنَاهُ إِلَّا قَوْلَهُمْ: ﴿أَسْطَوِرَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] وَ ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

فَرَدَّ اللَّهُ قَوْلَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَفْجَىٰ وَهَذَا لِسَانٌ عَكِيفٌ مُمِيتٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

ثُمَّ مَا قَالُوهُ مَكَابِرَةَ الْعِيَانِ، فَإِنَّ الَّذِي نَسَبُوا تَعْلِيمَهُ إِلَيْهِ إِنَّمَا سَلَمَانُ الْفَارِسِيُّ،

أو العبد الرُّومِي، وسَلَمَانُ إِنَّمَا عَرَفَهُ بَعْدَ الْهَجْرَةِ، وَنَزُولِ الْكَثِيرِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَظُهُورِ مَا لَا يَتَعَدُّ مِنَ الْآيَاتِ.

وَأَمَّا الرُّومِيُّ فَكَانَ أَسْلَمَ وَكَانَ يَقْرَأُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَاخْتَلَفَ فِي اسْمِهِ. وَقِيلَ: بَلْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْلِسُ عِنْدَهُ عِنْدَ الْمَرْوَةِ، وَكِلَاهُمَا أَعْجَمِيّ اللِّسَانِ، وَهُمْ الْفَصَحَاءُ اللَّذَّةُ، وَالْخُطْبَاءُ اللَّسَنُ، قَدْ عَجَزُوا عَنْ مُعَارَضَةِ مَا أَتَى بِهِ، وَالْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ بَلْ عَنْ فَهْمِ رَضْفِهِ، وَصُورَةِ تَأْلِيفِهِ وَنُظْمِهِ، فَكَيْفَ بِأَعْجَمِيٍّ أَلَكْنَ!

نَعَمْ، وَقَدْ كَانَ سَلَمَانُ، أَوْ بُلْعَامُ الرُّومِيُّ، أَوْ يَعْيشُ، أَوْ جَبْرُ، أَوْ يَسَارُ - عَلَى اخْتِلَافِهِمْ فِي اسْمِهِ - بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ يَكْلُمُونَهُمْ مَدَى أَعْمَارِهِمْ، فَهَلْ حُكِيَ عَنْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ مِثْلِ مَا كَانَ يَجِيءُ بِهِ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ وَهَلْ عُرِفَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ بِمَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ؟ وَمَا مَنَعَ الْعَدُوَّ حَيْثُذَ - عَلَى كَثْرَةِ عَدِيدِهِ وَذُؤُوبِ طَلَبِهِ، وَقُوَّةِ حَسَدِهِ - أَنْ يَجْلِسَ إِلَى هَذَا فَيَأْخُذَ عَنْهُ أَيْضاً مَا يُعَارِضُ بِهِ، وَيَتَعَلَّمُ مِنْهُ مَا يَخْتَجُّ بِهِ عَلَى شِيعَتِهِ كِفَعْلِ النَّصْرِ بْنِ الْحَارِثِ بِمَا كَانَ يُمَخِّرُ بِهِ مِنْ أَخْبَارِ كُتُبِهِ؟

وَلَا غَابَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَوْمِهِ، وَلَا كَثُرَتْ اخْتِلَافَاتُهُ إِلَى بِلَادِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَيُقَالُ لَهُ: اسْتَمَدَّ مِنْهُمْ، بَلْ لَمْ يَزَلْ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ يَزْعَى فِي صِغَرِهِ وَشَبَابِهِ، عَلَى عَادَةِ أَبْنَائِهِمْ، ثُمَّ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ بِلَادِهِمْ إِلَّا فِي سَفَرَةٍ أَوْ سَفَرَتَيْنِ لَمْ يَطْلُ فِيهِمَا مُكْنَهُ مَدَّةً يُحْتَمَلُ فِيهَا تَعْلِيمُ الْقَلِيلِ، فَكَيْفَ الْكَثِيرُ!

بَلْ كَانَ فِي سَفَرِهِ فِي صُخْبَةِ قَوْمِهِ، وَرَفَاقَةِ عَشِيرَتِهِ، لَمْ يَغِبْ عَنْهُمْ، وَلَا خَالَفَ حَالَهُ مَدَّةً مُقَامِهِ بِمَكَّةَ مِنْ تَعْلِيمِ، وَاخْتِلَافِ إِلَى حَبْرٍ، أَوْ قَسٍّ، أَوْ مَنْجُمٍ، أَوْ كَاهِنٍ.

بَلْ لَوْ كَانَ هَذَا بَعْدَ كُلِّهِ لَكَانَ مَجِيءُ مَا أَتَى بِهِ فِي مُعْجَزِ الْقُرْآنِ قَاطِعاً لِكُلِّ غُذْرٍ، وَمُذْهِضاً لِكُلِّ حُجَّةٍ، وَمُجْلِياً لِكُلِّ أَمْرٍ.

فصل

فِي أَخْبَارِهِ ﷺ مَعَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَرُؤْيَا كَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ لَهُمْ

وَمِنْ خُصَائِصِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَكَرَامَاتِهِ، وَبَاهِرِ آيَاتِهِ أَنْبَاؤُهُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ، وَإِمْدَادُ اللَّهِ لَهُ بِالْمَلَائِكَةِ، وَطَاعَةُ الْجِنِّ لَهُ، وَرُؤْيَا كَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ لَهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: ٤].

وقال: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِ امْكُثِي مَعَكُمْ فَتَتَوَّى إِلَيْكِ آمَنَوُا﴾ [الأنفال: ١٢].

وقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِيفٍ مِّنَ الْمَلَكَةِ

مُرْسِلِينَ ﴿١﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِن عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٩، ١٠].

وقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا

فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّندِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩].

١٠٩٧ - حدثنا سُفيان بن العاصي الفقيه، بسماعي عليه، حدثنا أبو الليث

السَّمَرْقَنْدِي، قال: حدثنا عبدالغافر الفارسي، حدثنا أبو أحمد الجلودي، حدثنا

ابن سفيان، حدثنا مُسلم، حدثنا عُبَيْدُ اللَّهِ بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا شُعْبَةُ، عن

سليمان الشيباني، سمع زُرَّ بن حُبَيْشٍ، عن عبد الله، قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ

الْكَرِيمِ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٨]. قال: رأى جبريل عليه السلام في صورته، له ست مئة

جناح [البخاري (٣٢٣٢)، مسلم (٢٨٢/١٧٤)].

١٠٩٨ - والخَبَرُ في محادثته مع جبريل وإسرافيل وغيرهم من الملائكة، وما

شاهده من كثرتهم وعِظَمِ صُورِ بَعْضِهِمْ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ مشهورٌ.

١٠٩٩ - وقد رَأَاهُمْ بِحَضْرَتِهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فِي مَوَاطِنَ مُخْتَلِفَةٍ، فرأى

أَصْحَابُهُ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ يَسْأَلُهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ [البخاري

(٥٠)، مسلم (٩، ١٠)].

١١٠٠، ١١٠١ - ورأى ابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَسَامَةُ بن زيد، وغيرُهما عنده جبريل

في صورة دَخِيَّةٍ.

١١٠٢ - ورأى سعدٌ عن يمينه ويساره جبريل وميكائيل في صورة رجلين

عليهما ثيابٌ بيضٌ [البخاري (٤٠٥٤)، مسلم (٢٣٠٦)].

ومثله عن غير واحد.

١١٠٣ - وسمِعَ بَعْضُهُمْ رَجَزَ الْمَلَائِكَةِ خَيْلَهَا يَوْمَ بَدْرٍ [مسلم (١٧٦٣)].

١١٠٤ - وبَعْضُهُمْ رَأَى تَطَايُرَ الرُّؤُوسِ مِنَ الْكُفَّارِ، وَلَا يَرَوْنَ الضَّارِبَ [أحمد

(٤٥٠/٥)].

١١٠٥ - ورأى أبو سفيان بن الحارث يومئذٍ رجالاً بيضاً على خَيْلٍ بُلُقٍ بَيْنَ

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، مَا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ.

١١٠٦ - وقد كانت الْمَلَائِكَةُ تَصَافِحُ عِمْرَانَ بنَ الْحُصَيْنِ [مسلم (١٦٧/١٢٢٦)].

١١٠٧ - وأَرَى النَّبِيَّ ﷺ لَحْمَزَةَ جَبْرِيلَ فِي الْكَعْبَةِ، فخر مغشياً عليه.

١١٠٨ - ورأى عبدالله بن مسعود الجَنُّ ليلة الجَنِّ، وسمع كلامهم، وشبههم برجال الزُّط [سلم (٤٥٠)].

١١٠٩ - وذكر ابنُ سعدٍ أَنَّ مُضْعَبَ بنَ عُمَيْرٍ لما قُتِلَ يومَ أحدٍ أخذَ الرّايةَ مَلَكٌ على صورته، فكان النبيُّ ﷺ يقولُ له: «تَقَدَّمْ، يا مُضْعَبُ!» فقال له المَلَكُ: لستُ بِمُضْعَبٍ، فعَلِمَ أَنَّهُ مَلَكٌ.

١١١٠ - وقد ذكرَ غَيْرُ واحدٍ من المصنِّفين عن عُمر بن الخطّاب - رضي الله عنه - أَنَّهُ قال: بينا نحن جلوسٌ مع النبيِّ ﷺ إذ أَقْبَلَ شيخٌ بيده عصا، فسَلَّمَ على النبيِّ ﷺ، فردَّ عليه، وقال ﷺ: «نِعْمَةُ الجَنِّ! مَنْ أَنْتَ؟» قال أنا هامةُ بن الهَيْمِ بن لاقس بن إبليس، فذكر أَنَّهُ لَقِيَ نوحاً وَمَنْ بَعْدَهُ... في حديث طويل، وَأَنَّ النبيَّ ﷺ علَّمَهُ سُوراً من القرآن.

١١١١ - وذكر الواقدي رحمه الله قتل خالدٍ عند هَذِمَةِ العُرَى للسوداء التي خرَّجَتْ له ناشِرةً شَعْرَها عُرْيَانَةً، فجزَّلَها بسيفه، وأعلمَ النبيَّ ﷺ، فقال له: «تلك العُرَى».

١١١٢ - وقال عليه السلام: «إِنَّ شَيْطَاناً تَفَلَّتْ البَارِحَةُ ليقطَعَ عليَّ صلاتي، فَأَمَكَّنَتِي اللَّهُ مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ فَأَرَذْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى ساريةٍ من سَوَارِي المسجدِ حتى تنظروا إليه كلَّكم، فذكرتُ دعوةَ أخي سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنِّي بَدَلًا إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [ص: ٣٥] فردَّه الله خاسئاً» [البخاري (٤٦١)، مسلم (٥٤١)]. وهذا بابٌ واسعٌ.

فصل

فِي إِخْبَارِ الرُّهْبَانِ وَالْأَخْبَارِ وَعِلْمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَنْ صِفَتِهِ وَصِفَةِ أُمَّتِهِ

ومن دلائل نبوته وعلامات رسالته ما ترادفت به الأخبارُ عن الرهبان والأخبار وعلماء أهل الكتاب، من صِفَتِهِ وَصِفَةِ أُمَّتِهِ واسْمِهِ وعلاماته، وذكر الخاتم الذي بين كتفيه، وما وُجِدَ من ذلك في أشعار الموحدين المتقدمين، من شِعْرِ ثُبُعٍ، والأَوْسِ بن حارثة، وكعب بن لؤي، وسُفْيَانِ بن مُجَاشِعٍ، وقُسَ بن ساعدة، وما ذَكَرَ عن سَيْفِ بن ذِي يَزَنٍ وغيرهم.

وما عَرَفَ به من أمره رَيْدُ بن عَمْرٍو بن ثَقِيلٍ، ووَرقَةُ بن نوفل، وعُثْكلانُ الجَمْهَرِيُّ، وعلماء يَهُودٍ، وشامول عالمهم صاحب ثُبُعٍ، مِنْ صِفَتِهِ وَخَبَرِهِ. وما أَلْفِي مِنْ ذلك في التوراة والإنجيل مما قد جمعه العلماء وبيَّته، ونقله

عنهما يَثْقَاتُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ، مِثْلُ ابْنِ سَلَامٍ، وَبَنِي سَعْيَةٍ، وَابْنِ يَامِينَ، وَمُخَيْرِيقُ، وَكَعْبُ، وَأَشْبَاهُهُمْ مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنْ عُلَمَاءِ يَهُودَ.

وَبَجِيرَا [الترمذي (٣٦٢٠)]، وَنَسْطُورُ الْحَبْشَةِ، وَصَاحِبُ بُضْرَى، وَضَغَاطِرُ، وَأُسْقُفُ الشَّامِ، وَالْجَارُودُ، وَسَلْمَانُ وَتَمِيمُ، وَالنَّجَاشِيُّ، وَنَصَارَى مِنَ الْحَبْشَةِ، وَأَسَاقِفُ نَجْرَانَ، وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنْ عُلَمَاءِ النَّصَارَى.

وَقَدْ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ هِرَقْلُ، وَصَاحِبُ رُومَةِ عَالِمَا النَّصَارَى، وَرُئِيسَاهُمَا، وَمُقَوِّسُ: صَاحِبُ مِصْرَ، وَالشَّيْخُ صَاحِبُهُ، وَابْنُ صُورِيَا، وَابْنُ أَخْطَبَ، وَأَخُوهُ، وَكَعْبُ بْنُ أَسَدَ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ بَاطِيَا، وَغَيْرُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ، مِمَّنْ حَمَلَهُ الْحَسَدُ وَالتَّفَاسَةُ عَلَى الْبَقَاءِ عَلَى الشَّقَاوَةِ، وَالْأَخْبَارُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ لَا تَنْحَصِرُ.

وَقَدْ قَرَعَ أَسْمَاعُ يَهُودَ وَالنَّصَارَى بِمَا ذَكَرَ أَنَّهُ فِي كُتُبِهِمْ مِنْ صِفَتِهِ وَصِفَةِ أَصْحَابِهِ، وَاحْتِجَّ عَلَيْهِمْ بِمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ صَحْفُهُمْ، وَذَمُّهُمْ بِتَحْرِيفِ ذَلِكَ وَكُتْمَانِهِ، وَلَهُمْ أَلَيْسَتْهُمْ بَيَانُ أَمْرِهِ، وَدَعْوَتُهُمْ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ عَلَى الْكَاذِبِ، فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ نَفَرَ عَنْ مَعَارَضَتِهِ، وَإِبْدَاءِ مَا أَلْزَمَهُمْ مِنْ كُتُبِهِمْ إِظْهَارَهُ.

وَلَوْ وَجَدُوا خِلَافَ قَوْلِهِ لَكَانَ إِظْهَارُهُ أَهْوَى عَلَيْهِمْ مِنْ بَذْلِ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ وَتَخْرِيبِ الدِّيَارِ وَبِذِ الْقِتَالِ، وَقَدْ قَالَ لَهُمْ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

إِلَى مَا أَتَدَّرَّ بِهِ الْكُفَّانُ، مِثْلُ: شَافِعِ بْنِ كَلْبِ، وَشِقِّ، وَسَطِينِجَ، وَسَوَادِ بْنِ قَارِبَ، وَخُنَافِرَ، وَأَفْعَى نَجْرَانَ، وَجَذَلَ بْنِ جَذَلَ الْكَنْدِيِّ، وَابْنَ خَلَصَةَ الدَّوْسِيِّ، وَسُعْدَى بِنْتِ كَرْنِزَ، وَفَاطِمَةَ بِنْتِ النِّعْمَانِ، وَمَنْ لَا يَتَعَدَّ كَثْرَةً.

إِلَى مَا ظَهَرَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَصْنَامِ مِنْ نُبُوتِهِ، وَخُلُوعِ وَقْتِ رِسَالَتِهِ، وَشَمْعِ مِنْ هَوَاتِفِ الْجَانِ، وَمِنْ ذِبَائِحِ النَّصَبِ، وَأَجَوَافِ الصُّورِ، وَمَا وَجَدَ مِنْ اسْمِ النَّبِيِّ ﷺ وَالشَّهَادَةِ لَهُ بِالرِّسَالَةِ مَكْتُوباً فِي الْحِجَارَةِ وَالْقُبُورِ بِالْخَطِّ الْقَدِيمِ، مَا أَكْثَرُهُ مَشْهُورٌ، وَإِسْلَامُ مَنْ أَسْلَمَ بِسَبَبِ ذَلِكَ مَعْلُومٌ مَذْكُورٌ.

فصل

فِي الْآيَاتِ الَّتِي ظَهَرَتْ عِنْدَ مَوْلِدِهِ ﷺ

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ظَهَرَ مِنَ الْآيَاتِ عِنْدَ مَوْلِدِهِ، وَمَا حَكَّتْهُ أُمُّهُ وَمَنْ حَضَرَهُ مِنَ الْعَجَائِبِ.

١١١٣ - وَكَوْنُهُ رَافِعاً رَأْسَهُ عِنْدَمَا وَضَعَتْهُ، شَاخِصاً بَيْضَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ.

١١١٣ م - وما رَأَتْهُ من الثَّور الذي خرج معه عند ولادته.

١١١٤ - وما رَأَتْهُ إذ ذاك أُمُّ عِشْمَانَ بن أَبِي العاصِ مِنْ تَدَلِّي النجوم، وظهورِ الثَّور عند ولادته، حتى ما تَنْظُرُ إِلَّا الثَّور.

١١١٥ - وقولِ الشَّقَاءِ، أُمُّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن عَوْفٍ: لما سَقَطَ عليه السلامُ على يدي واستَهْلَ سَمِعتُ قائلاً يقول: رَحِمَكَ اللَّهُ، وَأَضَاءَ لي ما بين المَشْرِقِ والمغرب حتى نظرتُ إلى قُصور الرُّومِ.

١١١٦ - وما تعرَّفْتُ به حَلِيمَةُ وزَوْجُهَا - ظُفْرَاهُ - مِنْ بَرَكَتِهِ، وَذُرُورِ لَبْنِهَا له، وَلَبَنِ شَارِفِهَا وَخِضْبِ غَنَمِهَا، وَسُرْعَةِ شَبَابِهِ، وَحُسْنِ نَشَأَتِهِ.

١١١٧ - وما جرى من العجائب ليلة مولده، من ارتجاج إيوان كسرى، وسقوط شُرَفَاتِهِ، وَغَيْضِ بحيرة طبرية، وخمود نار فارس، وكان لها أَلْفُ عامٍ لم تَخْمُد.

١١١٨ - وأنه كان - عليه الصلاة والسلام - إذا أَكَلَ مع عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ وآلِهِ - وهو صغير - شَبَعُوا وَرَوَّوْا، فإذا غاب فأكلوا في غَيْبَتِهِ لم يَشْبَعُوا. وكان سائر وَلَدِ أَبِي طَالِبٍ يُصْبِحُونَ شُغْنًا وَيُضْبِحُ هُوَ ۖ صَقِيلًا ذَهِينًا كَجِيلًا.

١١١٩ - قالت أُمُّ أَيْمَنٍ حَاضِنَتُهُ: ما رَأَيْتُهُ ۖ شَكَا جُوعًا قَطُّ ولا عطشًا صغيراً ولا كبيراً.

ومن ذلك حراسة السماء بالشُّهْبِ، وَقَطْعُ رَصَدِ الشَّيَاطِينِ، وَمَنْعُهُمْ اسْتِراقَ السَّمْعِ.

١١٢٠ - وما نشأ عليه مِنْ بُغْضِ الأصنام.

١١٢٠ م - والعقَّة عن أمور الجاهلية.

١١٢٠ م - وما خَصَّه اللَّهُ به مِنْ ذلك وَحَمَاهُ حتى في سَثَرِهِ في الخبر المشهور عند بناء الكعبة إذ أخذ إزاره ليجعله على عَاتِقِهِ، ليحملَ عليه الحجارة وتَعَرَّى، فسقط إلى الأرض حتى رَدَّ إزاره عليه.

فقال له عَمِّهِ: ما بالكَ؟ قال: «إني قد نُهِيتُ عن التعرِّي» [البخاري (٣٦٤)].

مسلم (٣٤٠).

١١٢١ - ومن ذلك إِظْلَالُ اللَّهِ له بِالْعَمَامِ في سفره.

١١٢٢ - وفي رواية: أَنَّ خَدِيجَةَ ونساءها رَأَيْنَهُ لَمَّا قَدِمَ، وَمَلَكَانِ يُظْلَانَهُ، فذكرت ذلك لَمَيْسَرَةَ، فأخبرها أنه رأى ذلك منذ خرج معه في سفره.

١١٢٣ - وقد رُوي أَنَّ حَلِيمَةَ رَأَتْ غَمَامَةً تُظِلُّهُ، وهو عندها.

١١٢٣ - وَرَوَى ذَلِكَ عَنْ أَخِيهِ مِنَ الرُّضَاعَةِ.

١١٢٤ - وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ نَزَلَ فِي بَعْضِ أَصْفَارِهِ قَبْلَ مَبْعَثِهِ تَحْتَ شَجَرَةٍ يَابِسَةٍ، فَاغْتَوَشَبَ مَا حَوْلَهَا وَأَيَّعَتْ هِيَ فَأَشْرَقَتْ وَتَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَغْصَانُهَا بِمَخْضَرٍ مَنْ رَأَاهُ.

١١٢٥ - وَمِيلَ فِي الشَّجَرَةِ إِلَيْهِ فِي الْخَبَرِ الْآخِرِ حَتَّى أَظْلَمَتْهُ.

١١٢٦ - وَمَا ذُكِرَ مِنْ أَنَّهُ كَانَ لَا ظِلَّ لِشَخْصِهِ فِي شَمْسٍ وَلَا قَمَرٍ، لَأَنَّهُ كَانَ

نُورًا.

١١٢٧ - وَأَنَّ الدُّبَابَ كَانَ لَا يَقَعُ عَلَى جَسَدِهِ وَلَا ثِيَابِهِ.

١١٢٨ - وَمِنْ ذَلِكَ: تَخْيِيبُ الْخُلُوفِ إِلَيْهِ حَتَّى أُوجِيَ إِلَيْهِ [البخاري (٣)، مسلم

١٦٠].

١١٢٩ - ثُمَّ إِعْلَامُهُ بِمَوْتِهِ وَدُثْنُ أَجَلِهِ [البخاري (٦١٨٦)، مسلم (٢٤٥٠)].

١١٣٠ - وَأَنَّ قَبْرَهُ بِالْمَدِينَةِ.

١١٣١ - وَفِي بَيْتِهِ.

١١٣٢ - وَأَنَّ بَيْنَ بَيْتِهِ وَبَيْنَ مِثْبَرِهِ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ.

١١٣٣ - وَتَخْيِيرُ اللَّهِ لَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ [البخاري (٤٦٦، ٦٣٤٨)، مسلم (٢٤٤٤)].

١١٣٤ - وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ حَدِيثُ الْوَفَاءِ مِنْ كَرَامَاتِهِ، وَتَشْرِيفِهِ، وَصَلَاةِ

الْمَلَائِكَةِ عَلَى جَسَدِهِ عَلَى مَا رَوَيْنَاهُ فِي بَعْضِهَا.

وَاسْتِثْنَاءُ مَلِكِ الْمَوْتِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَسْتَأْذِنْ عَلَى غَيْرِهِ قَبْلَهُ.

١١٣٥ - وَنَدَائِهِمُ الَّذِي سَمِعُوهُ أَلَّا يَنْزِعُوا الْقَمِيصَ عَنْهُ عِنْدَ غُسْلِهِ [أَبُو دَاوُدَ

٣١٤٠].

١١٣٦ - وَمَا رَوَى مِنْ تَغْزِيَةِ الْخَضِرِ وَالْمَلَائِكَةِ أَهْلَ بَيْتِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ.

إِلَى مَا ظَهَرَ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنْ كَرَامَاتِهِ وَبِرْكِهِ فِي حَيَاتِهِ وَمَوْتِهِ.

١١٣٧ - كَاسْتِسْقَاءِ عُمَرُ بَعْمَهُ [البخاري (١٠١٠)], وَتَبَرُّكِ غَيْرِ وَاحِدٍ بِذُرِّيَّتِهِ.

فصل

فِي أَنَّ مُعْجَزَاتِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ أَظْهَرُ

مِنْ سَائِرِ مُعْجَزَاتِ الرُّسُلِ

قال القاضي أبو الفضل: قد أتينا في هذا الباب على نُكْتٍ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ وَاضِحَةٍ، وَجَمَلٍ مِنْ عِلَامَاتِ بُرُونِهِ مُفِيدَةٍ، فِي وَاحِدٍ مِنْهَا الْكَفَايَةُ وَالْغُنْيَةُ، وَتَرَكْنَا الْكَثِيرَ سِوَى مَا ذَكَرْنَا، وَاقْتَصَرْنَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الطُّوَالِ عَلَى عَيْنِ الْغَرَضِ، وَقَصَّصَ

المَقْصِد، ومن كثير الأحاديث وَغَرِيبها على ما صَحَّ واشتهر إلا يسيراً من غريبه مما ذكره مشاهير الأئمة، وحذفنا الإسناد في جُمهورها، طلباً للاختصار. ويَحْسب هذا الباب لو تُقْصِي أن يكون ديواناً جامعاً يشتمل على مُجلدات عدة.

ومعجزات نبينا ﷺ أظهر من سائر معجزات الرسل بوجهين: أحدهما: كثرتها، وأنه لم يؤت نبيٌ معجزة إلا وعند نبينا مثلها، أو ما هو أبلغ منها.

وقد نبّه الناس على ذلك، فإن أَرَدْتَه فتأمل فصول هذا الباب، ومعجزات من تقدّم من الأنبياء، تَقِف على ذلك إن شاء الله تعالى. وأما كونها كثيرة فهذا القرآن، وكله مُعْجَزٌ، وأقل ما يَقَعُ الإعجازُ فيه عند بعض أئمة المحققين سورة: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١]، أو آية في قدرها.

وذهب بعضهم إلى أن كل آية منه - كيف كانت - معجزة. وزاد آخرون إلى أن كل جملة مُنْتَظِمة منه معجزة، وإن كانت من كلمة أو كلمتين.

والحق ما ذكرناه أولاً، لقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا سُورَةَ مِنَ مَثَلِهِ ۝٢٣﴾ [البقرة: ٢٣]، فهو أقل ما تحدّاهم به، مع ما ينصّر هذا من نظر وتحقيق يطول بسطه. وإذا كان هذا ففي القرآن من الكلمات نحو من سبعة وسبعين ألف كلمة ويُقَف على عدد بعضهم، وعدد كلمات: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١] عشر كلمات، فتَجَزَّؤُ القرآن على نسبة عدد: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١] أزيد من سبعة آلاف جزء، كل واحد منها مُعْجَزٌ في نفسه.

ثم إعجازه - كما تقدّم - بوجهين: طريق بلاغته، وطريق نظمته، فصار في كل جزء من هذا العدد مُعْجَزَتان، فتضاعف العدد من هذا الوجه. ثم فيه وجوه إعجاز آخر من الإخبار بعلوم الغيب، فقد يكون في السورة الواحدة من هذه التجزئة الْخَبَرُ عن أشياء من الغيب، كل خَبَرٍ منها بنفسه معجز فيتضاعف العدد كَرَّةً أخرى.

ثم وجوه الإعجاز الأخر التي ذكرناها توجب التضعيف، هذا في حق القرآن، فلا يكاد يأخذ العدد معجزاته، ولا يخوي الحَضَرُ بِرَأْيَيْهِ. ثم الأحاديث الواردة، والأخبار الصادرة عنه - عليه السلام - في هذه

الأبواب وعما دلَّ على أمره مما أشرنا إلى جُمْلِهِ تَبْلُغُ نحواً من هذا.
الوَجْه الثاني: وضوح معجزاته ﷺ، فَإِنَّ معجزات الرُّسُلِ كَانَتْ بِقَدْرِ هِمَمِ
أَهْلِ زَمَانِهِمْ، وَبِحَسَبِ الْفَنِّ الَّذِي سَمَا فِيهِ قَرْنُهُ.

فلما كان زمن موسى غاية علم أهله السَّحَرِ، بُعِثَ إِلَيْهِمْ موسى بمعجزة
تُشَبِّهُ مَا يَدْعُونَ قُدْرَتَهُمْ عَلَيْهِ، فَجَاءَهُمْ مِنْهَا مَا خَرَقَ عَادَتَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ فِي
قُدْرَتِهِمْ، وَأَبْطَلَ سِحْرَهُمْ.

وكذلك زَمَنُ عِيسَى أَغْنَى مَا كَانَ الطَّبُّ، وَأَوْفَرَ مَا كَانَ أَهْلُهُ، فَجَاءَهُمْ أَمْرٌ
لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، وَأَتَاهُمْ مَا لَمْ يَحْتَسِبُوهُ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَيِّتِ، وَإِبْرَاءِ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ
دُونَ مَعَالِجَةٍ وَلَا طِبِّ.

وهكذا سائر معجزات الأنبياء.

ثم إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ، وَجُمْلَةُ مَعَارِفِ الْعَرَبِ وَعِلْمُهَا أَرْبَعَةٌ:
الْبَلَاغَةُ، وَالشَّعْرُ، وَالْخَبَرُ، وَالْكَهَانَةُ، فَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ الْخَارِقُ لِهَذِهِ الْأَرْبَعَةِ
فُصُولٍ مِنَ الْفَصَاحَةِ، وَالْإِيجَازِ، وَالْبَلَاغَةِ الْخَارِجَةِ عَنْ نَمَطِ كَلَامِهِمْ، وَمِنْ النِّظْمِ
الْغَرِيبِ، وَالْأَسْلُوبِ الْعَجِيبِ الَّذِي لَمْ يَهْتَدُوا فِي الْمَنْظُومِ إِلَى طَرِيقِهِ، وَلَا عِلْمُوا
فِي أَسَالِيبِ الْأَوْزَانِ مَنْهَجِهِ، وَمِنْ الْأَخْبَارِ عَنِ الْكَوَائِنِ وَالْحَوَادِثِ وَالْأَسْرَارِ
وَالْمُخْبَيَّاتِ وَالضَّمَائِرِ، فَتَوَجَّدَ عَلَى مَا كَانَتْ، وَيَعْتَرِفُ الْمُخْبِرُ عَنْهَا بِصِحَّةِ ذَلِكَ
وَصِدْقِهِ، وَإِنْ كَانَ أَغْدَى الْعَدُوُّ.

فَأَبْطَلَ الْكَهَانَةَ الَّتِي تَصْدُقُ مَرَّةً وَتَكْذِبُ عَشْرًا، ثُمَّ اجْتَنَّبَهَا مِنْ أَضْلَاهَا بِرَجْمِ
الشُّهُبِ، وَرَضَدِ النُّجُومِ.

وجاء من الأخبار عن القرون السالفة وأنبياء الأنبياء، والأُمَمِ الْبَائِدَةِ،
وَالْحَوَادِثِ الْمَاضِيَةِ، مَا يَعْجَزُ مَنْ تَفَرَّغَ لِهَذَا الْعِلْمِ عَنْ بَعْضِهِ، عَلَى الْوُجُوهِ الَّتِي
بَسَطْنَاهَا، وَبَيَّنَّا الْمُعْجِزَ فِيهَا.

ثم بَقِيَتْ هَذِهِ الْمَعْجِزَةُ الْجَامِعَةُ لِهَذِهِ الْوُجُوهِ إِلَى الْفُصُولِ الْآخِرِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا
فِي مَعْجِزَاتِ الْقُرْآنِ ثَابِتَةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، بَيِّنَةُ الْحُجَّةِ لِكُلِّ أُمَّةٍ تَأْتِي، لَا يَخْفَى
وُجُوهُ ذَلِكَ عَلَى مَنْ نَظَرَ فِيهِ، وَتَأَمَّلَ وَجُوهَ إِعْجَازِهِ.

إِلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الْغُيُوبِ عَلَى هَذِهِ السَّبِيلِ، فَلَا يَمُرُّ عَصْرٌ وَلَا زَمَنٌ إِلَّا
وَيُظْهِرُ فِيهِ صِدْقَهُ بِظُهُورِ مُخْبِرِهِ عَلَى مَا أَخْبَرَ، فَيَتَجَدَّدُ الْإِيمَانُ، وَيَتَظَاهَرُ الْبُزْهَانُ،
وَلَيْسَ الْخَبَرُ كَالْعَيَّانِ كَمَا قِيلَ، وَلِلْمَشَاهِدَةِ زِيَادَةٌ فِي الْيَقِينِ، وَالنَّفْسُ أَشَدُّ طَمَآنِينَةً

إلى عَيْنِ اليقين منها إلى علم اليقين وإن كان كلُّ عندها حقاً.

وسائر معجزات الرسل انقرضت بانقراضهم، وعُدِمَت بَعْدَ دَوَاتِهَا، ومعجزة نبينا ﷺ لا تَبِيد ولا تَنْقَطِع، وآيَاتُهُ تَتَجَدَّدُ ولا تَصْمَحُلُ.

١١٣٨ - ولهذا أشار - عليه السلام - بقوله فيما حدثنا القاضي الشهيد أبو علي، حدثنا القاضي أبو الوليد، حدثنا أبو ذر، حدثنا أبو محمد، وأبو إسحاق، وأبو الهيثم، قالوا: حدثنا القُرْبَرِيُّ، حدثنا البخاري، حدثنا عبدالعزيز بن عبد الله، حدثنا الليث، عن سَعِيد، عن أَبِيهِ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «ما مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ ما مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وإنما كان الذي أُوتِيَ وَخِيّاً أَوْحاهَ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [البخاري (٧٢٧٤)].

هذا معنى الحديث عند بعضهم، وهو الظاهر، والصحيح، إن شاء الله.

وزهد غير واحد من العلماء في تأويل هذا الحديث وظهور معجزة نبينا - عليه السلام - إلى معنى آخر من ظهورها بكونها وَخِيّاً وكلاماً لا يمكن التخيل فيه، ولا التحيل عليه، ولا التشبيه، فإن غيرها من معجزات الرسل قد رَامَ المعاندون لها بأشياء طَمَعُوا في التخيل بها على الضعفاء كالقاء السَّحَرَةِ حِبَالَهُمْ وعصيتهم وشبه هذا مما يَخِيلُهُ السَّاحِرُ، أو يَتَحِيلُ فيه.

والقرآنُ كلامٌ ليس للحيلة ولا للسحر في التخيل فيه عملٌ، فكان من هذا الوجه عندهم أظهر من غيره من المعجزات، كما لا يَتِمُّ لشاعرٍ ولا لخطيب أن يكون شاعراً أو خطيباً بضرب من الحِيلِ والتَمْوِيهِ.

والتأويل الأول أخلص وأرضى.

وفي هذا التأويل الثاني ما يُعَمَّضُ الْجَفْنُ عليه ويُغْضَى.

ووجه ثالث على مذهب مَنْ قال بِالصَّرْفَةِ، وَأَنَّ المَعَارِضَةَ كانت في مقدور الْبَشَرِ، فَصَرَفُوا عَنْهَا، أو على أَحَدِ مَذْهَبِي أَهْلِ السَّنَةِ من أَنَّ الْإِنْتِيَانَ بِمِثْلِهِ مِنْ جِنْسٍ مَقْدُورِهِمْ، ولكن لم يكن ذلك قَبْلُ، ولا يكون بَعْدُ، لأن الله تعالى لم يُقْلِدْهُمْ، ولا يُقَدِّرُهُمْ عليه.

وبين المذهبين فرقٌ بَيِّنٌ، وعليهما جميعاً، فَتَرَكُ الْعَرَبُ الْإِنْتِيَانَ بما في مقدورهم، أو ما هو من جِنْسٍ مَقْدُورِهِمْ، وَرَضَاهُمْ بِالْبَلَاءِ، وَالْجَلَاءِ، وَالسَّبَاءِ، وَالْإِذْلَالِ، وَتَغْيِيرِ الْحَالِ، وَسَلْبِ النَفُوسِ، وَالْأَمْوَالِ، وَالتَقْرِيعِ، وَالتَوْبِيخِ،

والتعجيز، والتهديد، والوعيد - آيين آية للعجز عن الإتيان بمثله، والنكول عن معارضته، وأنهم مُنعوا عن شيء هو من جنس مقدورهم.

وإلى هذا ذهب الإمام أبو المعالي: الجويني، وغيره، قال: وهذا عندنا أبلغ في خرق العادة بالأفعال البديعة في أنفسها، كقلب العصا حية ونحوها، فإنه قد يسبق إلى بال الناظر بداراً أن ذلك من اختصاص صاحب ذلك بمزية معرفة في ذلك الفن، وفضل علم إلى أن يرُد ذلك صحيح النظر.

وأما التحدي للخلائق في مئين من السنين بكلام من جنس كلامهم ليأتوا بمثله فلم يأتوا، فلم يبق بعد توفر الدواعي على المعارضة ثم عدمها إلا منع الله الخلق عنها بمثابة ما لو قال نبي: آيتي أن يمنع الله القيام عن الناس مع مقدرتهم عليه، وارتفاع الزمانة عنهم، فكان ذلك، وعجزهم الله تعالى عن القيام، لكان ذلك من أبهر آية، وأظهر دلالة. وبالله التوفيق.

وقد غاب عن بعض العلماء وجه ظهور آيته على سائر آيات الأنبياء، حتى احتاج للعذر عن ذلك بدقة أفهام العرب، وذكاء ألبابها، ووفور عقولها، وأنهم أدركوا المعجزة فيه بفطنتهم، وجاءهم من ذلك بحسب إدراكهم، وغيرهم من القبط وبني إسرائيل وغيرهم لم يكونوا بهذه السبيل، بل كانوا من العبادة، وقلة الفطنة، بحيث جوز عليهم فرعون أنه ربهم، وجوز عليهم السامري ذلك في العجل بعد إيمانهم، وعبدوا المسيح مع إجماعهم على صلبه: ﴿وَمَا قَلَّوْهُ وَمَا صَلَّبُوهُ وَلَكِنَّ شَيْئاً لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] فجاءتهم من الآيات الظاهرة البينة للأبصار بقدر غلط أفهامهم ما لا يشكون فيه، ومع هذا فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهَنَّمَ﴾ [البقرة: ٥٥] ولم يصبروا على المن والسلوى، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

والعرب - على جاهليتها - أكثرها يعترف بالصانع، وإنما كانت تتقرب بالأصنام إلى الله زلفى.

ومنهم من آمن بالله وخده من قبل الرسول ﷺ بدليل عقله، وصفاء لبه.

ولما جاءهم الرسول بكتاب الله فهموا حكمته، وتبينوا - بفضل إدراكهم لأول وهلة - معجزته، فآمنوا به، وازدادوا كل يوم إيماناً، ورَفَضُوا الدُّنْيَا كُلَّهَا فِي صَحْبَتِهِ، وَهَجَرُوا دِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَقَتَلُوا آبَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ فِي نُصْرَتِهِ، وَأَتَى فِي مَعْنَى هَذَا بِمَا يَلُوْحُ لَهُ زَوْثُوْهُ، وَيُعْجَبُ مِنْهُ زَبْرَجُ لَوْ اِحْتِيجَ إِلَيْهِ وَحَقُّ، لَكِنَّا قَدَمْنَا

مِنْ بَيَانِ مَعْجَزَةِ نَبِينَا ﷺ وَظُهُورِهَا مَا يُغْنِي عَنْ رُكُوبِ بُطُونِ هَذِهِ الْمَسَالِكِ
وَظُهُورِهَا.

وَبِاللّٰهِ أَسْتَعِينُ وَهُوَ حَسْبِي، وَنَعْمَ الْوَكِيلُ.

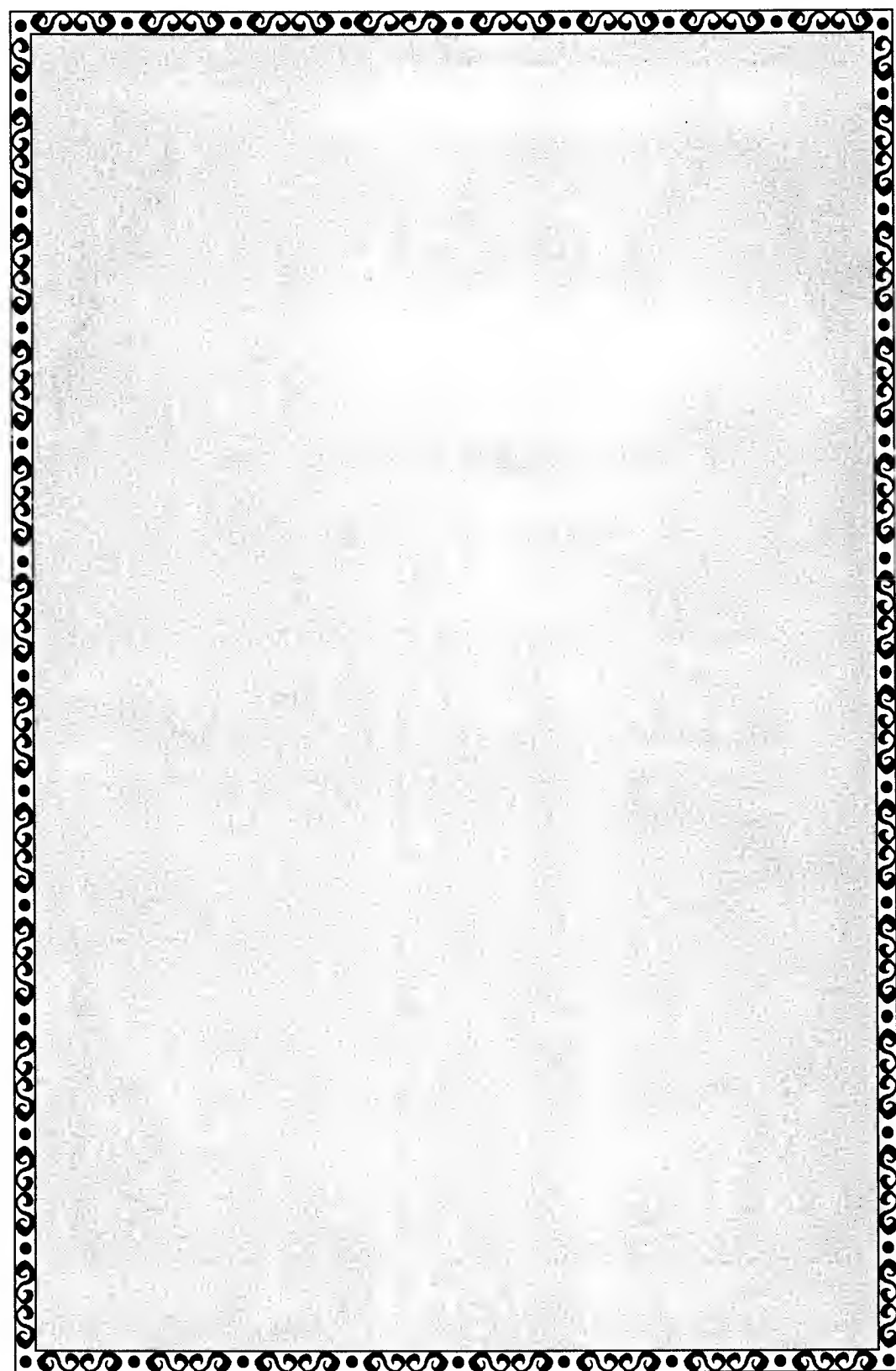


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القسم الثاني

فيما يجب على الأنام من حقوقه عليه السلام

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: وهذا قسمٌ لخصنا فيه الكلام في أربعة أبواب على ما ذكرناه في أول الكتاب، ومجموعها في وجوب تصديقه وأتباعه في سنته وطاعته، ومحبيته ومناصحته، وتوقيره، وبرّه، وحكم الصلاة عليه، والتسليم، وزيارة قبره ﷺ



الباب الأول

في فَرَضِ الْإِيمَانِ بِهِ وَوُجُوبِ طَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ

إذا تقرر بما قَدَّمناه ثبوت نبوته وصحة رسالته، وجب الإيمان به وتصديقه فيما أتى به؛ قال الله تعالى: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنَّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].
وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ [الفتح: ٨، ٩].

وقال: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].
فالإيمان بالنبي محمد - عليه السلام - واجب مُتَعَيِّن لا يتم الإيمان إلا به، ولا يصح إسلام إلا معه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١٣].

١١٣٩ - حدثنا أبو محمد الحُسَيْنِيُّ الفقيه بقراءتي عليه، حدثنا الإمام أبو علي الطبري، حدثنا عبدالغافر الفارسي، حدثنا ابن عَمْرٍو، حدثنا ابنُ سُفْيَانَ، حدثنا أبو الحُسَيْن، حدثنا أُمَيَّةُ بنُ بَسْطَام، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا رَوْح، عن العلاء بن عبدالرحمن بن يعقوب، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ؛ قال: «أَمِزْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ؛ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» [البخاري (١٣٩٩)].

قال القاضي أبو الفضل:

والإيمان به - عليه السلام - هو تصديقُ نبوته ورسالة الله له، وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان بأنه

رسول الله؛ فإذا اجتمع التصديق به بالقلب، والنطق بالشهادة بذلك باللسان.

١١٤٠ - ثم الإيمان به والتصديق له. كما وردَ في هذا الحديث نفسه من رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ» [البخاري (٢٥)، مسلم (٢٢)].

١١٤١ - وقد زاده وُضوحاً في حديث جبريل؛ إذ قال: أَخْبَرَنِي عَنْ الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ...» وذكر أركان الإسلام. ثم سأله عن الإيمان، فقال: «أَنْ تَوْمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ...» الحديث.

فقد قرَّرَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِهِ مَحْتَاجٌ إِلَى الْعَقْدِ بِالْجَنَانِ، وَالْإِسْلَامَ بِهِ مُضْطَرٌّ إِلَى النُّطْقِ بِاللِّسَانِ.

وهذه الحالُ المحمودَةُ التامةُ.

وأما الحالة المذمومةُ فالشهادةُ باللسانِ دونَ تصديقِ بالقلبِ، وهذا هو الشُّفَاقُ؛ قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتُنَفِّقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتُنَفِّقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]؛ أي كاذبون في قولهم ذلك عن اعتقادهم وتصديقهم، وهم لَا يَعتقدونه؛ فلمَّا لم تُصدَّقْ ذلك ضمايرُهم لم ينفَعهم أَنْ يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم؛ فخرجوا عن اسم الإيمان، ولم يكن لهم في الآخرة حُكمه؛ إذ لم يكن معهم إيمان، وَلَحِقُوا بالكافرين في الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، وبقي عليهم حكمُ الإسلامِ، بإظهار شهادة اللسان، في أحكام الدنيا المتعلقة بالأنمة وحكام المسلمين الَّذِينَ أَحْكَاهُمْ عَلَى الظواهر، بما أظهروه من علامة الإسلام؛ إذ لم يُجْعَلْ للبشر سبيلٌ إلى السرائر، ولا أُمِرُوا بِالْبَحْثِ عنها؛ بل نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ التَّحَكُّمِ عَلَيْهَا؛ وَذَمَّ ذَلِكَ.

١١٤٢ - وقال: «هَلَا شَقَّقْتُ عَنْ قَلْبِهِ» [مسلم (٩٦)، البخاري (٦٨٧٢)].

وللفرق بين القول والعقد ما جُعِلَ في حديث جبريل: الشَّهَادَةُ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَالتَّصَدِيقُ مِنَ الْإِيمَانِ.

وبقيت حالتان أُخْرَيَانِ بَيْنَ هَذَيْنِ:

١١٤٣ - إحداهما: أَنْ يُصَدِّقَ بِقَلْبِهِ ثُمَّ يُخْتَرَمَ قَبْلَ اتِّسَاعِ وَقْتِ الشَّهَادَةِ بِلِسَانِهِ؛ فَاخْتَلَفَ فِيهِ؛ فَشَرَطَ بَعْضُهُمْ مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ الْقَوْلَ وَالشَّهَادَةَ بِهِ؛ وَرَأَى بَعْضُهُمْ مُؤْمَناً مُسْتَوْجِباً لِلْجَنَّةِ؛ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ» [الترمذي (٢٥٩٨)]؛ فلم يذكر سِوَى مَا فِي الْقَلْبِ.

وهذا مؤمنٌ بقلبه، غَيْرُ عاصٍ ولا مُقَرِّطٍ بترك غيره.
وهذا هو الصحيح في هذا الوجه.

الثانية: أن يصدق بقلبه وَيُطَوَّلَ مَهْلُهُ، وَعَلِمَ ما يلزمه من الشهادة؛ فلم ينطق بها جملة ولا استشهد في عُمُرِهِ ولا مرة واحدة؛ فهذا اختلف فيه أيضاً؛ فقليل هو مؤمن؛ لأنه مصدق، والشهادة من جملة الأعمال؛ فهو عاصٍ بتركها غَيْرُ مُخَلِّدٍ في النار.

وقيل: ليس بمؤمن حتى يقرَّ عَقْدُهُ شهادة اللسان؛ إذ الشهادة إنشاء عَقْدٍ، والتزام إيمان؛ وهي مرتبطة مع العَقْد، ولا يتم التصديق مع المَهْلَة إلا بها. وهذا هو الصحيح.

وهذه بُدَّةٌ تُفْضِي إلى مُتَّسَعٍ من الكلام في الإسلام والإيمان وأبوابهما، وفي الزيادة فيهما والنقصان، وهذا التجزئي مُمْتَنِعٌ على مجرد التصديق لا يصح فيه جملة؛ وإنما يرجع إلى ما زَادَ عليه من عَمَلٍ، وقد يعرض فيه لاختلاف صفاته، وتباين حالاته؛ من قُوَّةٍ يقين، وتصميم اعتقاد، ووضوح مَعْرِفَةٍ، ودوام حالة، وحضور قلب.

وفي بَسْطِ هذا خروجٌ عن غرض التأليف؛ وفيما ذكرنا غُثْيَةً فيما قصدنا إن شاء الله.

فصل

فِي وُجُوبِ طَاعَتِهِ ﷺ

وأما وجوب طاعته، فإذا وجب الإيمان به وتصديقه فيما جاء به وجبت طاعته؛ لأنَّ ذلك مما أتى به؛ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقال: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

وقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال: ﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]؛
 فجعل تعالى طاعةَ رسوله طَاعَتَهُ، وَقَرَنَ طَاعَتَهُ بِطَاعَتِهِ، ووعد على ذلك بجزييلِ
 الثواب؛ وأوعد على مخالفته بسوءِ الْعِقَابِ، وَأَوْجَبَ امْتِثَالَ أمره، واجْتِنَابَ نَهْيِهِ.
 قال المفسِّرونَ والأئمَّةُ: طاعةُ الرسولِ في التَّزَامِ سُنَّتِهِ والتسليم لما جاء به.
 وقالوا: وما أَرْسَلَ اللَّهُ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا فَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى مَنْ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ.
 وقالوا: مَنْ يُطِيعِ الرسولَ في سُنَّتِهِ يُطِيعِ اللَّهَ في فَرَائِضِهِ.
 وسُئِلَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عن شرائع الإسلام؛ فقال: ﴿وَمَا أَلَانَكُمْ الرَّسُولُ
 فُحْذَوْهُ﴾ [الحشر: ٧].

وقال السَّمَرْقَنْدِيُّ: يقال: أَطِيعُوا اللَّهَ في فَرَائِضِهِ، والرسولَ في سُنَّتِهِ.
 وقيل: أَطِيعُوا اللَّهَ فيما حَرَّمَ عليكم، والرسولَ فيما بَلَّغَكُمْ.
 ويقال: أَطِيعُوا اللَّهَ بِالشَّهَادَةِ له بِالرُّبُوبِيَّةِ، والنَّبِيِّ بِالشَّهَادَةِ له بِالنَّبُوَّةِ.

١١٤٤ - حدثنا أبو محمد بن عتاب بقراءتي عليه، حدثنا حاتم بن محمد،
 حدثنا أبو الْحَسَنِ: عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ خَلْفٍ، حدثنا محمد بن أحمد، حدثنا
 محمد بن يوسف، حدثنا البخاري، حدثنا عَبْدَانُ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا يُونُسُ،
 عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: إِنَّ
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ،
 وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي» [البخاري (٧١٣٧)،
 مسلم (١٨٣٥)].

فطاعةُ الرسولِ من طاعةِ الله؛ إِذِ اللَّهُ أَمَرَ بِطَاعَتِهِ؛ فطاعته امتثال لما أَمَرَ اللَّهُ
 به، وطاعةُ له.

وقد حَكَّى اللَّهُ عَنِ الْكُفَّارِ فِي ذَرَكَاتِ جَهَنَّمَ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ
 يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [الأحزاب: ٦٦]؛ فتمنَّوْا طَاعَتَهُ حَيْثُ لَا
 يَنْفَعُهُمُ التَّمَنِّي.

١١٤٥ - وقال عليه السلام: «إِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ
 بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» [البخاري (٧٢٨٨)، مسلم (١٣٣٧)].

١١٤٦ - وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عنه عليه السلام: «كُلُّ
 أَمْنِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى».

قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَنْ يَأْبَى؟ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ
 عَصَانِي فَقَدْ أَبَى» [البخاري (٧٢٨٠)].

١١٤٧ - وفي الحديث الآخر الصحيح، عنه عليه السلام: «مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا، فَقَالَ: يَا قَوْمُ! إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعِيثِي، وَإِنِّي أَنَا التَّذِيرُ الْعُزْبَانِ، فَالْتَّجَاءُ؛ فَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَذْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَتَجَبَّوْا؛ وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَنَحَهُمْ؛ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي، وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنْ الْحَقِّ» [البخاري (٧٢٨٣)، مسلم (٢٢٨٣)].

١١٤٨ - وفي الحديث الآخر في مثله: «كَمَثَلِ مَنْ بَنَى دَارًا وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً، وَبَعَثَ دَاعِيًا؛ فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ، وَأَكَلَ مِنَ الْمَأْدُبَةِ؛ وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَأْدُبَةِ؛ فَالدَّارُ: الْجَنَّةُ، وَالدَّاعِي: مُحَمَّدٌ ﷺ. فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا فَقَدْ عَصَى اللَّهَ؛ وَمُحَمَّدٌ فَرَّقَ بَيْنَ النَّاسِ» [البخاري (٧٢٨١)].

فصل

فِي وَجُوبِ اتِّبَاعِهِ وَامْتِنَالِ سُنَّتِهِ وَالْاِقْتِدَاءِ بِهِدِيهِ

وأما وجوب اتِّباعه وامتنال سُنَّته والاقْتِدَاءُ بِهِدِيهِ؛ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].
وقال: ﴿فَقَاتِلُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيَّ الَّذِي آتَيْنِي الَّذِي يَوْمْتُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ. وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] أي ينقادون لحكمك؛ يقال: سَلِمَ، واستسلم، وأسلم؛ إذا انقاد.
وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال محمد بن علي الترمذي: الأُسْوَةُ فِي الرِّسُولِ الْاِقْتِدَاءُ بِهِ، وَالْاِتِّبَاعُ لِسُنَّتِهِ، وَتَرْكُ مَخَالَفَتِهِ فِي قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ.
وقال غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ بِمَعْنَاهُ.

وقيل: هُوَ عِتَابٌ لِلْمُتَخَلِّفِينَ عَنْهُ.
وقال سَهْلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].
قال: بِمُتَابَعَةِ السُّنَّةِ؛ فَأَمَرَهُمْ تَعَالَى بِذَلِكَ، وَوَعَدَهُمُ الْاِهْتِدَاءَ بِاتِّبَاعِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ

تعالى أرسله بالهدى ودين الحق لِيُرَكِّبَهُمْ وَيَعْلَمَهُم الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، ووعدهم محبته تعالى في الآية الأخرى وَمَغْفِرَتِهِ إِذَا أَتَبَعُوهُ، وآثروه على أهوائهم، وما تَجَنَّحَ إِلَيْهِ نَفْسُهُمْ؛ وَأَنَّ صِحَّةَ إِيْمَانِهِمْ بِانْقِيَادِهِمْ لَهُ، وَرِضَاهُمْ بِحُكْمِهِ، وَتَرْكُ الْإِعْتِرَاضِ عَلَيْهِ.

١١٤٩ - وَرَوَى عَنْ الْحَسَنِ أَنَّ أَقْوَاماً قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا نَحِبُ اللَّهَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وَرَوَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي كُفْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَغَيْرِهِ، وَأَنَّهُمْ قَالُوا: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ؛ وَنَحْنُ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ.

وقال الزَّجَّاجُ: معناه إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ - إِنْ تَقْصِدُوا طَاعَتَهُ - فافعلوا ما أَمَرَكُم بِهِ؛ إِذْ مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ: طَاعَتُهُ لِهَمَّا، وَرِضَاهُ بِمَا أَمَرَ؛ وَمَحَبَّةُ اللَّهِ لَهُمْ عَفْوُهُ عَنْهُمْ، وَإِنْعَامُهُ عَلَيْهِمْ بِرَحْمَتِهِ.

ويقال: الْحُبُّ مِنَ اللَّهِ عَصْمَةٌ وَتَوْفِيقٌ؛ وَمِنْ الْعِبَادِ طَاعَةٌ؛ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: تَغْصِي الْإِلَهِ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا لَعَمْرِي فِي الْقِيَاسِ بَدِيعٌ لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقاً لَأَطْعَمْتَهُ إِنْ الْمُحِبُّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ ويقال: مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِلَّهِ تَعْظِيمُهُ لَهُ وَهَيْئَتُهُ مِنْهُ؛ وَمَحَبَّةُ اللَّهِ لَهُ رَحْمَتُهُ لَهُ، وَإِرَادَتُهُ الْجَمِيلَ لَهُ؛ وَتَكُونُ بِمَعْنَى مَدْحِهِ وَثَنَائِهِ عَلَيْهِ.

قال الْقُشَيْرِيُّ: فَإِذَا كَانَ بِمَعْنَى الرَّحْمَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْمَدْحِ كَانَ مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ. وَسَيَأْتِي بَعْدَ فِي ذِكْرِ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ غَيْرُ هَذَا بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى.

١١٥٠ - حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ: إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرِ الْفَقِيه؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْأَضْبَحِ: عَيْسَى بْنُ سَهْلٍ، وَحَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ: يُونُسُ بْنُ مُغِيثِ الْفَقِيه بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ؛ قَالَا: حَدَّثَنَا حَاتِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو حَفْصِ الْجُهَنِي، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ الْأَجْرِيُّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى الْجَوْزِي، حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْنُ رُشَيْدٍ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ ثَوْرِ بْنِ يَزِيدٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو الْأَسْلَمِي، وَحُجْرِ الْكَلَاعِي، عَنْ الْعِزْبَائِضِ بْنِ سَارِيَةَ فِي حَدِيثِهِ فِي مَوْعِظَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ؛ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ؛ وَإِيَّاكُمْ وَمُخَدَّثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُخَدَّثَةٍ بِذَعَةٍ وَكُلُّ بِذَعَةٍ ضَلَالَةٌ» [أبو داود (٤٦٠٧)، الترمذي (٢٦٧٦)، ابن ماجه (٤٢، ٤٣)].

١١٥١ - زاد في حديث جابر بمعناه: «وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ» [مسلم (٨٦٧)].

النسائي (١٨٩/٣).

١١٥٢ - وفي حديث أبي رافع عنه عليه السلام: «لَا أَلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مَثَكُثًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي، مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ أَتَّبَعْنَاهُ» [أبو داود (٤٦٠٥)، الترمذي (٢٦٦٣)، ابن ماجه (١٣)، أحمد (٨/٦)].

١١٥٣ - وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا تَرَخَّصَ فِيهِ، فَتَنَزَّهُ عَنْهُ قَوْمٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَحَمَدَ اللَّهَ، ثُمَّ قَالَ: «مَا بَالُ قَوْمٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ؟ فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ، وَأَشَدَّهُمْ لَهُ خَشْيَةً» [البخاري (٦١٠١)، مسلم (٢٣٥٦)].

١١٥٤ - وزُوي عنه عليه السلام أنه قال: «الْقُرْآنُ صَغْبٌ مُسْتَضْعَبٌ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ، وَهُوَ الْحَكَمُ؛ فَمَنْ اسْتَمْسَكَ بِحَدِيثِي وَفَهِمَهُ وَحَفِظَهُ جَاءَ مَعَ الْقُرْآنِ؛ وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالْقُرْآنِ وَحَدِيثِي خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، أَمِرْتُ أُمَّتِي أَنْ يَأْخُذُوا بِقَوْلِي، وَيُطِيعُوا أَمْرِي، وَيَتَّبِعُوا سُنَّتِي؛ فَمَنْ رَضِيَ بِقَوْلِي فَقَدْ رَضِيَ بِالْقُرْآنِ» قال الله تعالى: «وَمَا يَأْتِيَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» [الحشر: ٧].

١١٥٥ - وقال عليه السلام: «مَنْ اقْتَدَى بِي فَهُوَ مِنِّي، وَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

١١٥٦ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُخَالَفَتُهَا» [مسلم (٨٦٧)، ابن ماجه (٤٥)].

١١٥٧ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ، فَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ: آيَةٌ مُخَكَّمَةٌ، أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ» [أبو داود (٢٨٨٥)، ابن ماجه (٥٤)].

١١٥٨ - وعن الحسن بن أبي الحسن رضي الله عنه: قال عليه السلام: «عَمَلٌ قَلِيلٌ فِي سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ عَمَلٍ كَثِيرٍ فِي بِدْعَةٍ».

١١٥٩ - وقال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدْخُلُ الْعَبْدَ الْجَنَّةَ بِالسُّنَّةِ تَمَسُّكُ بِهَا».

١١٦٠ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «الْمُتَمَسِّكُ بِسُنَّتِي عِنْدَ فُسَادِ أُمَّتِي لَهُ أَجْرُ مِثَّةٍ شَهِيدٍ».

١١٦١ - وقال عليه السلام: «إِنَّ بني إسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين مِلَّةً؛ وَإِنْ أُمِّي تَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً». قالوا: وَمَنْ هُمْ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قال: «الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي» [الترمذي (٢٦٤١)].

١١٦٢ - وعن أنس: قال عليه السلام: «مَنْ أَخْبَا سُنَّتِي فَقَدْ أَخْبَانِي، وَمَنْ أَخْبَانِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ».

١١٦٣ - وعن عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ الْمُزَنِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لبلال بن الحارث: «مَنْ أَخْبَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أَمِيتَتْ بَعْدِي، فَإِنَّ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْئاً؛ وَمَنْ ابْتَدَعَ بِدْعَةً ضَلَالَةٌ لَا تُرْضِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَوْزَارِ النَّاسِ شَيْئاً» [الترمذي (٢٦٧٧)، ابن ماجه (٢١٠)].

فصل

فِي مَا وَرَدَ عَنِ السَّلَفِ وَالْأَيِّمَةِ

مِنْ اتِّبَاعِ سُنَّتِهِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِهِدْيِهِ وَسِيرَتِهِ ﷺ

١١٦٤ - وأما ما ورد عن السَّلَفِ والأئمة من اتِّبَاعِ سُنَّتِهِ والاقْتِدَاءِ بِهِدْيِهِ وسيرته، فحدثنا الشيخُ أَبُو عِمْرَانَ: موسى بن عبد الرحمن بن أبي تليد الفقيه سماعاً عليه؛ قال: حدثنا أَبُو عُمَرَ الحافظُ، قال: حدثنا سَعِيدُ بْنُ نَصْرٍ، حدثنا قاسم بن أَصْبَغَ، وَوَهْبُ بْنُ مَسْرَةَ؛ قالوا: حدثنا محمد بن وَضَّاحٍ، حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا مالك، عن ابنِ شهابٍ، عن رجلٍ من آلِ خَالِدِ بْنِ أَسِيدٍ - أَنَّهُ سَأَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ! إِنَّا نَجِدُ صَلَاةَ الْخَوْفِ، وَصَلَاةَ الْحُضُرِ فِي الْقُرْآنِ، وَلَا نَجِدُ صَلَاةَ السَّفَرِ؟ فقال ابنُ عُمَرَ: يَا بَنِي أَخِي! إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ إِلَيْنَا مُحَمَّدًا ﷺ، وَلَا نَعْلَمُ شَيْئاً؛ فَإِنَّمَا نَفْعَلُ كَمَا رَأَيْنَاهُ يَفْعَلُ [ابن ماجه (١٠٦٦)، النسائي (١١٦-١١٧)].

١١٦٥ - وقال عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَوَلَاةُ الْأَمْرِ بَعْدَهُ سُنَّةً، الْأَخْذُ بِهَا تَصْدِيقٌ بَكِتَابِ اللَّهِ، وَاسْتِعْمَالٌ لَطَاعَةِ اللَّهِ، وَقُوَّةٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ، لَيْسَ لِأَحَدٍ تَغْيِيرُهَا وَلَا تَبْدِيلُهَا وَلَا النَّظَرُ فِي رَأْيٍ مَنْ خَالَفَهَا؛ مَنْ اقْتَدَى بِهَا فَهُوَ مُهْتَدٍ، وَمَنْ انْتَصَرَ بِهَا مَنْصُورٌ، وَمَنْ خَالَفَهَا وَاتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا هُلاَّهَ اللَّهُ مَا تَوَلَّى، وَأَضْلَاهُ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا.

١١٦٦ - وقال الحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: عَمَلٌ قَلِيلٌ فِي سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ عَمَلٍ كَثِيرٍ فِي بِدْعَةٍ.

١١٦٧ - وقال ابنُ شهاب: بلغنا عن رجالٍ من أهل العلم، قالوا: الاعتصامُ بالسنةِ نجاةٌ.

١١٦٨ - وكتب عُمرُ بن الخطاب إلى عُماله بتعلّم السنة والفرائض واللّحن. أي: اللغة.

١١٦٩ - وقال: إنّ ناساً يجادلونكم - يعني: بالقرآن - فخذوهم بالسّنن؛ فإنّ أصحاب السنن أعلم بكتاب الله.

١١٧٠ - وفي خبره حين صلّى بذي الحليفة ركعتين، فقال: أصنع كما رأيْتُ رسولَ الله ﷺ يصنع [مسلم (٦٩٢)].

١١٧١ - وعن عليٍّ - حين قرأ - فقال له عثمان: ترى أني أنهى الناس عنه وتفعّله؟ قال: لم أكن أدعُ سنةَ رسولِ الله ﷺ لقولِ أحدٍ من الناس [البخاري (١٥٦٣)، مسلم (١٢٢٣)].

١١٧٢ - وعنه: ألا إني لستُ بنبي ولا يوحي إليّ، ولكن أعملُ بكتاب الله وسنةِ نبيه محمد ﷺ ما استطعتُ.

١١٧٣ - وكان ابنُ مسعود يقول: القصدُ في السنة خير من الاجتهاد في البدعة.

١١٧٤ - وقال ابنُ عمر: صلاةُ السفر ركعتان؛ مَنْ خالف السنة كَفَرَ.

١١٧٥ - وقال أبيُّ بن كعب: عليكم بالسبيل والسنة؛ فإنه ما على الأرض من عبدٍ على السبيل والسنة ذكرَ الله في نفسه ففاضت عيناه من خشية ربّه، فيعذبه الله أبداً؛ وما على الأرض من عبدٍ على السبيل والسنة ذكرَ الله في نفسه فاقشعرَّ جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرةٍ قد يبس ورَقُها؛ فهي كذلك، إذ أصابتها ريحٌ شديدة، فتحات عنها ورَقُها إلا حطَّ الله عنه خطاياها كما تَحاثُّ عن الشجرة ورَقُها؛ فإن اقتصاداً في سبيل وسنة خيرٌ من اجتهدٍ في خلاف سبيل وسنة، وموافقةً بدعة، وانظروا أن يكونَ عملُكم - إن كان اجتهداً واقتصاداً - أن يكونَ على منهاج الأنبياء وسنتهم.

١١٧٦ - وكتب بعضُ عمالِ عمر بن عبدالعزيز إلى عمرَ بحال بلده، وكثيرةً لُصوصه؛ هل يأخذهم بالظنّة، أو يخملهم على البيّنة وما جرّث عليه السنة؟

فكتب إليه عمرُ: خذهم بالبيّنة وما جرّث عليه السنة؛ فإن لم يصلحهم الحقُّ فلا أضلّهم الله.

١١٧٧ - وعن عطاء، في قوله: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] أي إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

١١٧٨ - وقال الشافعي: ليس في سنة رسول الله ﷺ إلا اتباعها.

١١٧٩ - وقال عمر - ونظر إلى الحَجَرِ الأسود -: واللَّهِ! إنك حَجَرٌ لا تنفع ولا تضر؛ ولولا أَنِي رأيتُ رسولَ الله ﷺ يَقْبُلُكَ ما قَبَّلْتُكَ [البخاري (١٥٩٧)، مسلم (١٢٧٠)]؛ ثم قَبَلَهُ.

١١٨٠ - ورُئيَ عبدُ اللَّهِ بنُ عمرٍ يُديرُ ناقَتَهُ في مكانٍ، فسُئِلَ عنه، فقال: لا أدري؟ إلا أَنِي رأيتُ رسولَ الله ﷺ فَعَلَهُ، ففَعَلْتُهُ [أحمد (١٢٨)].

١١٨١ - وقال أبو عثمان الجيري: مَنْ أَمَرَ السُّنَّةَ على نفسه قولاً وفِعْلاً نطق بالحكمة، وَمَنْ أَمَرَ الْهَوَى على نفسه نطق بالبدعة.

١١٨٢ - وقال سَهْلُ التُّسْتَرِيُّ: أصولُ مَذْهَبِنَا ثلاثة: الاقتداء بالنبي ﷺ في الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاصُ النية في جميع الأعمال.

١١٨٣ - وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] - إنه الاقتداء برسول الله ﷺ.

١١٨٤ - وحكي عن أحمد بن حنبل؛ قال: كُنْتُ يوماً في جماعةٍ تجردوا ودخلوا الماء، فاستعملتُ الحديث: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَدْخُلُ الْحَمَّامَ إِلَّا بِمِثْرَةٍ» [الترمذي (٢٨٠٢)، النسائي (١٩٨/١)] ولم أتجرد؛ فرأيتُ تلكَ الليلةَ قائلاً لي: يا أحمدُ! أَبْشِرْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قد غفرَ لك باستعمالك السنة، وجعلك إماماً يُقْتَدَى بك.

قلت: مَنْ أَنْتَ؟ قال: جبريل.

فصل

فِي أَنْ مُخَالَفَةُ أَمْرِهِ ﷺ وَتَبْدِيلُ سُنَّتِهِ ضَلَالٌ وَبِدْعَةٌ

ومخالفة أمره وتبديل سُنَّتِهِ ضَلَالٌ وبِدْعَةٌ متوَعَّد من الله تعالى عليه بالخذلان والعذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَوْنِ مَا نَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

١١٨٥ - حدثنا أبو محمد: عبد الله بن أبي جعفر، وعبد الرحمن بن عتاب

بقراءتي عليهما؛ قالوا: حدثنا أبو القاسم: حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن القاسمي، حدثنا أبو الحسن بن مسرور الدبّاغ، حدثنا أحمد بن أبي سليمان، حدثنا سُخْتُون بن سَعِيد، حدثنا ابنُ القاسم، حدثنا مالك، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خرج إلى المقبرة... وذكر الحديث في صفة أُمته؛ وفيه: «فَلْيَذْأَنْ رَجُلًا عَنْ حَوْضِي كَمَا يَذْأُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، فَأُنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ! أَلَا هَلُمَّ!

فيقال: إنهم قد بدلوا بَعْدَكَ. فأقول: فَسُخِقًا، فَسُخِقًا، فَسُخِقًا [البخاري مسلم (١٣٦)، (٢٤٩)].

١١٨٦ - وَرَوَى أَنَسُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» [البخاري (٥٠٦٣)، مسلم (١٤٠١)].

١١٨٧ - وَقَالَ: «مَنْ أَذْخَلَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» [البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨)].

١١٨٨ - وَرَوَى ابْنُ أَبِي رَافِعٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَ: «لَا أَلْفَيْتُ أَحَدَكُمْ مَتَكِنًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي، مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَا أَذْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتِّغْنَاهُ».

١١٨٩ - زَادَ فِي حَدِيثِ الْمَقْدَامِ: «أَلَا وَإِنْ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِثْلَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ» [الترمذي (٢٦٦٤)، ابن ماجه (١٢)].

١١٩٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَجِيءَ بِكِتَابٍ فِي كَيْفٍ -: «كَفَى بِقَوْمٍ خُفْقًا - أَوْ قَالَ: ضَلَالًا - أَنْ يَرْغَبُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ إِلَى غَيْرِ نَبِيِّهِمْ، أَوْ كِتَابٍ غَيْرِ كِتَابِهِمْ؛ فَنَزَلَتْ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [العنكبوت: ٥١].

١١٩١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» [مسلم (٢٦٧٠)].

١١٩٢ - وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَغْمَلُ بِهِ إِلَّا عَمَلْتُ بِهِ؛ إِنِّي أَخْشَى أَنْ تَرَكْتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَزِيغَ [البخاري (٣٠٩٣)، مسلم (٥٤/١٧٥٩)].



الباب الثاني

في لزوم محبته عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَبْتُمُوهَا وَيَعَادِرٌ نَفْسَتُمْ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فكفى بهذا حرصاً وتنبيهاً ودلالةً وحجةً على إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعظم خطرهما، واستحقاقه لها عليه السلام. إذ قرع تعالى مَنْ كان ماله وأهله وولده أحبَّ إليه من الله ورسوله، وأرعدهم بقوله تعالى ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ...﴾ الآية [التوبة: ٢٤].

ثم فسَّقه بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضلَّ ولم يَهْدِهِ اللهُ.

١١٩٣ - أخبرنا أبو علي الغساني الحافظ فيما أجازنيه، وهو مما قرأته على غير واحد؛ قال: حدثنا سراج بن عبد الله القاضي، حدثنا أبو محمد الأصيلي، حدثنا المروزي، حدثنا أبو عبد الله: محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن عبدالعزيز بن ضُهَيْب، عن أنس رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» [البخاري (١٥)، مسلم (٤٤)].

١١٩٤ - وعن أبي هريرة نحوه [البخاري (١٤)].

١١٩٥ - وعن أنس، عنه عليه السلام: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حُلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ» [البخاري (١٦)، مسلم (٤٣)].

١١٩٦ - وعن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا نَفْسِي الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْ. فقال النبي ﷺ: «لَنْ يُؤْمِنَ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ». فقال عمر: والذي أنزل عليك الكتاب! لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْ.

فقال له النبي ﷺ: «الآن، يَا عُمَرُ!» [البخاري (٦٦٣٢)].

١١٩٧ - قَالَ سَهْلٌ: مَنْ لَمْ يَرَ وَلَايَةَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَيَرَى نَفْسَهُ فِي مَلِكِهِ - عَلَيْهِ السَّلَام - لَا يَذُوقُ حُلَاوَةَ سُنَّتِهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ...» الْحَدِيث.

فصل

فِي ثَوَابِ مَحَبَّتِهِ ﷺ

١١٩٨ - حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ غَثَّابٍ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، حَدَّثَنَا أَبُو الْقَاسِمِ: حَاتِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ: عَلِيُّ بْنُ خُلْفٍ، حَدَّثَنَا أَبُو زَيْدٍ الْمَرْزُوقِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْفَرِ، عَنْ أَنَسٍ: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «مَا أَغْدَذْتُ لَهَا؟» قَالَ: مَا أَغْدَذْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ صَلَاةٍ وَلَا صَوْمٍ وَلَا صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. قَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْيَيْتَ» [البخاري (٦١٧١)، مسلم (١٦٤/٢٦٣٩)].

١١٩٩ - وَعَنْ صَفْوَانَ بْنِ قُدَامَةَ: هَاجَرْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نَاوِلْنِي يَدَكَ أَبَايَعُكَ. فَنَاوَلَنِي يَدَهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أَحْبُّكَ. قَالَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ».

١٢٠٠ - وَرَوَى هَذَا اللَّفْظَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ [البخاري (٦١٦٨)، مسلم (٢٦٤٠)].

١٢٠١ - وَأَبُو مُوسَى [البخاري (٦١٧٠)، مسلم (٢٦٤١)].

١٢٠٢ - وَأَنَسٌ [أَبُو دَاوُدَ (٥١٢٧)، التِّرْمِذِيُّ (٢٣٨٥)].

١٢٠٣ - وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ بِمَعْنَاهُ [أَبُو دَاوُدَ (٥١٢٦)].

١٢٠٤ - وَعَنْ عَلِيٍّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ بِيَدِ حَسَنِ وَحُسَيْنٍ، فَقَالَ: «مَنْ

أَحْبَنِي وَأَحَبُّ هَٰذَيْنِ وَأَبَاهُمَا وَأُمُّهُمَا كَانَ مَعِي فِي ذَرَجَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [الترمذي (٣٧٣٣)، أحمد (١/٧٧)].

١٢٠٥ - وَرَوِي أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي؛ وَإِنِّي لَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى أَجِيءَ فَنَنْظُرَ إِلَيْكَ؛ وَإِنِّي ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتِكَ، فَعَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَإِنْ دَخَلْتُهَا لَا أَرَاكَ.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] فَدَعَا بِهِ فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ.

١٢٠٦ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: كَانَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ يَنْظُرُ إِلَيْهِ لَا يَطْرِفُ، فَقَالَ: «مَا بِأَلَاكَ؟» قَالَ: بِأَبِي وَأُمِّي! أَتَمَتَّعُ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْكَ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ رَفَعَكَ اللَّهُ بِتَفْضِيلِهِ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ.

١٢٠٧ - وَفِي حَدِيثٍ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَحْبَبَنِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ».

فصل

فِيمَا زَوَى عَنِ السَّلَفِ وَالْأَيْمَةِ مِنْ مَحَبَّتِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَشَوْقِهِمْ لَهُ

١٢٠٨ - حَدَّثَنَا الْقَاضِي الشَّهِيد، حَدَّثَنَا الْعُدْرِيُّ، حَدَّثَنَا الرَّازِيُّ، حَدَّثَنَا الْجُلُودِي، حَدَّثَنَا ابْنُ سُفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ سُهَيْلٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي؛ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَأَى بَاهِلَهُ وَمَالَهُ» [مسلم (٢٨٣٢)].

١٢٠٩ - وَمِثْلُهُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ [أحمد (١٥٦/٥)].

١٢١٠ - وَقَدْ تَقَدَّمَ حَدِيثُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَوْلُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَمَا تَقَدَّمَ عَنِ الصَّحَابَةِ فِي مِثْلِهِ.

١٢١١ - وَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [مسلم (١٢١)].

١٢١٢ - وَعَنْ عَبْدِ بَنَتِ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ؛ قَالَتْ: مَا كَانَ خَالِدٌ يَأْوِي إِلَيَّ

فراش إلا وهو يذكُر من شوقه إلى رسولِ الله ﷺ، وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار يُسميهم ويقول: هم أضلي وفُضلي، وإليهم يحنُّ قلبي، طال شوقي إليهم، فعبّج رب! قبضي إليك، حتى يغلبه النُوم.

١٢١٣ - وزُوي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: والذي بعثك بالحق! لإسلام أبي طالب كان أقرّ لعيني من إسلامه - يعني: أباه أبا فُحافة - وذلك أن إسلام أبي طالب كان أقرّ لعينك.

١٢١٤ - ونحوه عن عُمر بن الخطّاب؛ قاله للعباس: أن تُسلم أحبّ إليّ من أن يُسلم الخطّاب؛ لأنّ ذلك أحبّ إلى رسولِ الله ﷺ.

١٢١٥ - وعن ابن إسحاق: أن امرأة من الأنصار قُتِل أبوها وأخوها وزوجها يوم أُخِذ مع رسولِ الله ﷺ، فقالت: ما فعل رسولُ الله ﷺ؟ قالوا: خيراً، هو بحمدِ الله كما تُحِبِّين. قالت: أرونيهِ حتى أنظرَ إليه. فلما رآته قالت: كُلُّ مُصِيبَةٍ بَعْدَكَ جَلَلٌ.

١٢١٦ - وسُئِل عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه كيف كان حُبُّكم لرسولِ الله ﷺ؟ قال: كان والله! أحبّ إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأُمَّهاتنا، ومن الماءِ الباردِ على الظّما.

١٢١٧ - وعن زيد بن أسلم: خرج عُمر رضي الله عنه ليلةً يحرسُ الناسَ، فرأى مضباحاً في بيت، وإذا عجوزٌ تنفّسُ صُوفاً، وتقول:

على مُحَمَّدٍ صلاةُ الأبرارِ صلّى عليه الطيّبونُ الأخيارِ
قد كنتَ قَوَّاماً بُكاً بالأسحارِ يا ليتَ شِعْري والمَنائِبُ أطوارِ
هل تَجَمَّعُنِي وَحِبِّيبي الدّازِ

تغني: النبي ﷺ.

فجلس عُمر رضي الله عنه يبكي؛ وفي الحكاية طول.

١٢١٨ - وزُوي أنّ عَبدَ الله بن عُمر خَدِثَ رِجله، فقبل له: اذكُر أحبّ الناسِ إليك يَزُلُ عنك.

فصاح: يا مُحَمَّداه! فانتشرت [البخاري (٩٦٧)].

١٢١٩ - ولما احتَضِرَ بلالٌ رضي الله عنه نادى امرأته: واخْزَنَاه! فقال: واطْرَبَاه! غداً ألقَى الأَجْبَةَ، محمداً وحزبه.

١٢١٩م - ومثله عن حُذَيْفَةَ بن اليمان رضي الله عنهما.

١٢٢٠ - وَيُرَوَّى أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ لِعائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: اكْشِفِي لِي قَبْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَكَشَفَتْهُ لَهَا، فَبَكَتْ حَتَّى مَاتَتْ.

١٢٢١ - وَلَمَّا أَخْرَجَ أَهْلُ مَكَّةَ زَيْدَ بْنَ الدَّثَنَةَ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ، قَالَ لَهُ أَبُو سَفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ: أَتَشُدُّكَ بِاللَّهِ يَا زَيْدُ! أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا الْآنَ عِنْدَنَا مَكَانَكَ تُضْرَبُ عُنُقُهُ، وَأَنْتَ فِي أَهْلِكَ؟

فَقَالَ زَيْدٌ: وَاللَّهِ! مَا أَحَبُّ أَنْ مُحَمَّدًا الْآنَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ تُصِيبُهُ شَوْكَةٌ وَأَنَا جَالِسٌ فِي أَهْلِي.

فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ: مَا رَأَيْتُ مِنَ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا ﷺ.

١٢٢٢ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَتْ الْمَرْأَةُ إِذَا أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ حَلَفَهَا بِاللَّهِ: مَا خَرَجْتُ مِنْ بُغْضِ زَوْجٍ وَلَا رَغْبَةٍ بِأَرْضٍ عَنْ أَرْضٍ؛ وَمَا خَرَجْتُ إِلَّا حَبًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ.

١٢٢٣ - وَوَقَفَ ابْنُ عُمَرَ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بَعْدَ قَتْلِهِ، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ، وَقَالَ: كُنْتُ، وَاللَّهِ - مَا عَلِمْتُ - صَوَامًا قَوَامًا تُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ.

فصل

فِي عِلَامَةِ مَحَبَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

اعْلَمْ أَنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا آثَرَهُ، وَآثَرُ مُوَافَقَتِهِ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ صَادِقًا فِي حُبِّهِ، وَكَانَ مُدْعِيًا. فَالصَّادِقُ فِي حُبِّ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ تَظْهَرُ عَلَيْهِ عِلَامَاتُ ذَلِكَ عَلَيْهِ.

وَأَوَّلُهَا: الْإِقْتِدَاءُ بِهِ وَاسْتِعْمَالُ سُنَّتِهِ، وَاتِّبَاعُ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَامْتِثَالُ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابُ نَوَاهِيهِ، وَالتَّأَدُّبُ بِأَدَابِهِ فِي غُسْرِهِ وَبُسْرِهِ، وَمَنْشِطِهِ وَمَكْرَهِهِ، وَشَاهِدُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وإِثَارُ مَا شَرَعَهُ وَحَضُّ عَلَيْهِ عَلَى هَوَى نَفْسِهِ، وَمُوَافَقَةُ شَهْوَتِهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ بَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْآلِئِمْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. وَإِسْخَاطُ الْعِبَادِ فِي رِضَا اللَّهِ تَعَالَى.

١٢٢٤ - حَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو عَلِيٍّ الْحَافِظُ، حَدَّثَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ الصَّنِيرِيُّ، وَأَبُو الْفَضْلِ بْنُ خَيْرُونَ؛ قَالَا: حَدَّثَنَا أَبُو يَعْلَى الْبَغْدَادِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ السَّنْجِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَحْبُوبٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَيْسَى، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ حَاتِمٍ، حَدَّثَنَا

محمد بن عبد الله الأنصاري، عن أبيه، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب؛ قال: قال أنس بن مالك رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بُنَيَّ! إِنَّ قَدَرْتَ عَلَى أَنْ تُضَيِّحَ وَتُخَيِّبَ لَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لِأَحَدٍ فَأَفْعَلْ».

ثم قال لي: «يا بُنَيَّ! وَذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي، وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحْبَبَنِي، وَمَنْ أَحْبَبَنِي كَانَ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ» [الترمذي (٢٦٧٨)].

فَمِنْ أَتَصَفَّ بِهِذِهِ الصِّفَةِ فَهُوَ كَامِلُ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ خَالَفَهَا فِي بَعْضِ هَذِهِ الْأُمُورِ فَهُوَ نَاقِضُ الْمَحَبَّةِ، وَلَا يَخْرُجُ عَنْ اسْمِهَا.

١٢٢٥ - وَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلَّذِي حَدَّثَهُ فِي الْخَمْرِ فَلَعَنَهُ بَعْضُهُمْ، وَقَالَ: مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَلْعَنَهُ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [البخاري (٦٧٨٠)].

وَمِنْ عِلَامَاتِ مَحَبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ كَثْرَةُ ذِكْرِهِ لَهُ؛ فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئاً أَكْثَرَ ذَكَرَهُ.

وَمِنْهَا: كَثْرَةُ شَوْقِهِ إِلَى لِقَائِهِ؛ فَكُلُّ حَبِيبٍ يُحِبُّ لِقَاءَ حَبِيبِهِ.

١٢٢٦ - وَفِي حَدِيثِ الْأَشْعَرِيِّينَ عِنْدَ قُدُومِهِمُ الْمَدِينَةَ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَزْتَجِرُونَ: عَدَا نَلْقَى الْأَحَبَّةَ. مُحَمَّدًا وَصَحْبَهُ.

١٢٢٧ - وَتَقَدَّمَ قَوْلُ بِلَالٍ.

١٢٢٨ - وَمِثْلُهُ قَالَ عِمَارٌ قَبْلَ قَتْلِهِ.

١٢٢٩ - وَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ قِصَّةِ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ.

وَمِنْ عِلَامَاتِهِ - مَعَ كَثْرَةِ ذِكْرِهِ - تَعْظِيمُهُ لَهُ، وَتَوْقِيرُهُ عِنْدَ ذِكْرِهِ، وَإِظْهَارُ الْخُشُوعِ وَالْانْكَسَارِ مَعَ سَمَاعِ اسْمِهِ.

قَالَ إِسْحَاقُ التَّجِيبِي: كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَهُ لَا يَذْكُرُونَهُ إِلَّا خَشَعُوا وَاقْشَعَرَّتْ جُلُودُهُمْ وَبَكَوْا.

وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ التَّابِعِينَ. مِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مَحَبَّةً لَهُ وَشَوْقاً إِلَيْهِ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُهُ تَهَيِّباً وَتَوْقِيراً.

وَمِنْهَا مَحَبَّةُ لِمَنْ أَحَبَّ النَّبِيُّ ﷺ، وَمَنْ هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَصَحَابَتِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؛ وَعِدَاوَةُ مَنْ عَادَاهُمْ وَيُغْضُ مَنْ أَبْغَضَهُمْ وَسَبَّاهُمْ؛ فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئاً أَحَبَّ مَنْ يُحِبُّ.

١٢٣٠ - وَقَدْ قَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ: «اللَّهُمَّ! إِنِّي أَحْبَبُهُمَا فَأَحْبِبْهُمَا» [الترمذي (٣٧٨٢)].

١٢٣١ - وفي رواية، في الحسن: «اللَّهُمَّ! إِنِّي أَحْبَبُهُ فَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ»

[البخاري (٢١٢٢)، مسلم (٢٤٢١)].

١٢٣٢ - وقال: «مَنْ أَحَبَّهُمَا فَقَدْ أَحْبَبَنِي، وَمَنْ أَحْبَبَنِي فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ، وَمَنْ

أَبْغَضَهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَنِي وَمَنْ أَبْغَضَنِي فَقَدْ أَبْغَضَ اللَّهَ» [ابن ماجه (١٤٣)].

١٢٣٣ - وقال: «اللَّهُ اللَّهُ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَخَذُوهُمْ غَرَضاً بَعْدِي، فَمَنْ

أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِإِبْغَضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ

آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ، وَمَنْ آذَى اللَّهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ» [الترمذي (٣٨٦٢)، أحمد

(٨٧/٤)].

١٢٣٤ - وقال في فاطمة رضي الله عنها: «إِنهَا بِضَعَةٌ مِنِّي، يُغْضِبُنِي مَا

أَغْضَبَهَا» [البخاري (٣٧١٤)، مسلم (٢٤٤٩)].

١٢٣٥ - وقال لعائشة - في أسامة بن زيد -: «أَحِبِّهِ فَإِنِّي أَحْبَبُهُ» [الترمذي

(٣٨١٨)].

١٢٣٦ - وقال: «آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ؛ وَآيَةُ التَّفَاقُ بِغُضُّهُمْ» [البخاري

(١٧)، مسلم (٧٤)].

١٢٣٧ - وفي حديث ابن عمر: «مَنْ أَحَبَّ الْعَرَبَ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ

أَبْغَضَهُمْ فَبِإِبْغَضِي أَبْغَضَهُمْ».

فبالحقيقة، مَنْ أَحَبَّ شَيْئاً أَحَبَّ كُلَّ شَيْءٍ يُحِبُّهُ. وهذه سيرة السلف حتى

في الْمُبَاحَاتِ وَشَهَوَاتِ النَّفْسِ.

١٢٣٨ - وقد قال أنس - حين رأى النبي ﷺ يتتبع الدُّبَاءَ مِنْ حَوَالِي

الْقُصَّةِ: «فَمَا زِلْتُ أَحِبُّ الدُّبَاءَ مِنْ يَوْمَئِذٍ» [البخاري (٢٠٩٢)، مسلم (٢٠٤١)].

١٢٣٩ - وهذا الحسن بن علي، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن جعفر أتوا

سَلَمَى، وَسَلَّوْهَا أَنْ تَصْنَعَ لَهُمْ طَعَاماً مِمَّا كَانَ يُغَجِّبُ النَّبِيَّ ﷺ.

١٢٤٠ - وكان ابنُ عمر يلبسُ الثَّعَالَ السَّبْتِيَّةَ، وَيَضْبَعُ بِالضُّفْرَةِ؛ إِذْ رَأَى

النَّبِيَّ ﷺ يَفْعَلُ نَحْوَ ذَلِكَ [البخاري (٥٨٥١)، مسلم (١١٨٧)].

ومنها: بُغِضَ مَنْ أَبْغَضَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَمَعَادَاةُ مَنْ عَادَاهُ، وَمَجَانِبَةُ مَنْ خَالَفَ

سُنَّتَهُ وَابْتَدَعَ فِي دِينِهِ، وَاسْتِقَالُ كُلِّ أَمْرٍ يَخَالِفُ شَرِيعَتَهُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْماً

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ [المجادلة: ٢٢].

وهؤلاء أصحابه - عليه السلام - قد قتلوا أحبائهم في مرضاته، وقاتلوا

آبَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ.

١٢٤١ - وقال له عَبْدُ اللَّهِ بن عبد الله بن أَبِي: لو شئت لَأَتَيْتُكَ بِرَأْسِهِ،
يعني أَبَاهُ.

١٢٤٢ - ومنها أَنْ يُحِبَّ الْقُرْآنَ الَّذِي أَتَى بِهِ - عليه السلام - وَهَدَى بِهِ
واِهْتَدَى، وَتَخَلَّقَ بِهِ حَتَّى قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ» وَحُبُّهُ
لِلْقُرْآنِ: تَلَاوُثُهُ، وَالْعَمَلُ بِهِ وَتَفَهُمُهُ.
وَيُحِبُّ سُنتَهُ، وَيَقِفُ عِنْدَ حُدُودِهَا.

قال سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: علامةُ حُبِّ اللَّهِ حُبُّ الْقُرْآنِ؛ وعلامةُ حُبِّ اللَّهِ حُبُّ
الْقُرْآنِ حُبُّ النَّبِيِّ ﷺ، وعلامةُ حُبِّ النَّبِيِّ ﷺ حُبُّ السُّنَّةِ، وعلامةُ حُبِّ السُّنَّةِ
حُبُّ الْآخِرَةِ، وعلامةُ حُبِّ الْآخِرَةِ بُغْضُ الدُّنْيَا، وعلامةُ بُغْضِ الدُّنْيَا أَلَّا يَدْخُرَ
مِنْهَا إِلَّا زَادًا وَيُلْقَى إِلَى الْآخِرَةِ.

١٢٤٣ - وقال ابن مسعود: لا يسأل أحدٌ عن نفسه إلاَّ الْقُرْآنَ؛ فَإِنْ كَانَ
يُحِبُّ الْقُرْآنَ فَهُوَ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

وَمِنْ علامةِ حُبِّهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ: شَفَقَتُهُ عَلَى أُمَّتِهِ، وَنُضْحُهُ لَهُمْ، وَسَعْيُهُ فِي
مَصَالِحِهِمْ، وَرَفْعُ الْمَضَارِّ عَنْهُمْ؛ كَمَا كَانَ - عليه السلام - بِالْمُؤْمِنِينَ رَوْفًا
رَجِيمًا.

وَمِنْ علامةِ تَمَامِ مَحَبَّتِهِ: زُهْدُ مُدْعِيهَا فِي الدُّنْيَا، وَإِثَارُهُ الْفَقْرَ وَاتِّصَافُهُ بِهِ.
١٢٤٤ - وَقَدْ قَالَ - عليه السلام - لِأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: «إِنَّ الْفَقْرَ إِلَى مَنْ
يُحِبُّنِي مِنْكُمْ، أَسْرَعُ مِنَ السَّيْلِ مِنْ أَعْلَى الْوَادِي - أَوْ الْجَبَلِ - إِلَى أَسْفَلِهِ» [أحمد
(٤٢/٣)].

١٢٤٥ - وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بن مُغَفَّلٍ: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ!
إِنِّي أَحْبَبْتُ. فَقَالَ: «انْظُرْ مَا تَقُولُ». فَقَالَ: وَاللَّهِ! إِنِّي أَحْبَبْتُكَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. قَالَ:
«إِنْ كُنْتُ تُحِبُّنِي فَأَعِدْ لِلْفَقْرِ تَخَفُفًا» [الترمذي (٢٣٥٠)].
ثُمَّ ذَكَرَ تَخَوُّنَ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ بِمَعْنَاهُ.

فصل

فِي مَفْتَنِ الْمَحَبَّةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَحَقِيقَتِهَا

اختلف الناس في تفسير محبة الله ومحبة النبي ﷺ، وكثرت عباراتهم في
كل رواية وليست ترجع بالحقيقة إلى اختلاف مقال، ولكنها اختلاف أحوال.
فقال سفيان: المحبة اتباع الرسول عليه السلام. كأنه التفت إلى قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
[آل عمران: ٣١].

وقال بعضهم: محبة الرسول اعتقاد نضرته، والذب عن سنته، والانقياد لها، وهيبة مخالفته.

وقال بعضهم: المحبة: دوام الذكر للمحبيب.

وقال آخر: إثارة المحبوب.

وقال بعضهم: المحبة الشوق إلى المحبوب.

وقال بعضهم: المحبة مواطأة القلب لمراد الرب؛ يحب ما أحب، ويكره ما كره.

وقال آخر: المحبة ميل القلب إلى موافق له.

وأكثر العبارات المتقدمة إشارة إلى ثمرات المحبة دون حقيقتها.

وحقيقة المحبة الميل إلى ما يوافق الإنسان، وتكون موافقته له إما لاستلذاذه بإدراكه؛ كحب الصورة الجميلة، والأصوات الحسنة، والأطعمة والأشربة اللذيذة، وأشباهاها مما كل طبع سليم مائل إليها لموافقته له، أو لاستلذاذه بإدراكه بحاسة عقله وقلبه معاني باطنة شريفة؛ كحب الصالحين، والعلماء، وأهل المعروف، والمأثور عنهم السير الجميلة، والأفعال الحسنة؛ فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء حتى بلغ التعصب بقوم لقوم، والتشيع من أمة في آخرين ما يؤدي إلى الجلاء عن الأوطان، وهتك الحرم، واخترام النفوس. أو يكون حبه إياه لموافقته له من جهة إحسانه له وإنعامه عليه؛ فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها.

فإذا تقرر لك هذا، نظرت هذه الأسباب كلها في حقه عليه السلام فعلمت أنه عليه السلام جامع لهذه المعاني الثلاثة الموجبة للمحبة.

أما جمال الصورة والظاهر، وكمال الأخلاق والباطن، فقد قررنا منها قبل فيما مر من الكتاب ما لا يحتاج إلى زيادة.

وأما إحسانه وإنعامه على أمته فكذلك قد مر منه في أوصاف الله تعالى له من رافته بهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، وشققته عليهم، واستنقاذهم به من النار، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، ورحمة للعالمين، ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وتثلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويهديهم إلى صراط مستقيم.

فأي إحسانٍ أجلُّ قَدراً، وأعظمُ خَطراً من إحسانه إلى جميع المؤمنين؟ وأيُّ إفضالٍ أعمُّ منفعةً، وأكثرُ فائدةً من إنعامه على كافة المسلمين؟ إذ كان ذَرِيعَتَهُم إلى الهداية، ومُنْقِذَهُم من العماية، وداعِيَهُم إلى الفلاح والكرامة، ووسيلَتَهُم إلى رَبِّهِم، وشفيعَهُم، والمتكَلِّم عنهم، والشاهد لهم، والموجب لهم البقاء الدائم والنعيم السَّرمَد.

فقد استبان لك أنه عليه السلام مستوجبٌ للمحبة الحقيقية شرعاً بما قدَّمناه من صحيح الآثار، وعادةً وجبلَةً بما ذكرناه آنفاً، لإفاضته الإحسان، وعمومه الإجمال؛ فإذا كان الإنسانُ يحبُّ مَنْ مَنَحَهُ في دُنْيَاه - مرةً أو مرتين - معروفاً، أو استنقذه من هَلَكَةٍ أو مَضَرَّةٍ مدَّة، التأذي بها قليلٌ منقطع، فمَنْ منحه ما لا يبيدُ من النعيم، ووقاه ما لا يَفْنَى من عذابِ الجحيم أَوْلَى بالحب.

وإذا كان يُحِبُّ بالطَّبع مَلِكٌ لحسن سيرته، أو حاكمٌ لما يُؤثِّر من قَوامِ طريقته، أو قاضٍ بعيدُ الدار لما يُشاد مِنْ عِلْمِهِ، أو كرم شيمته، فمَنْ جمع هذه الخصالَ على غايةٍ مراتب الكمال أحقُّ بالحب، وأولى بالميل.

١٢٤٦ - وقد قال علي رضي الله عنه في صفته ﷺ: مَنْ رَأَاهُ بِدِيهَةٍ هَابَةٍ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ.

١٢٤٧ - وَذَكَرَ لَنَا عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ كَانَ لَا يَصْرِفُ بَصَرَهُ عَنْهُ مَحَبَّةً فِيهِ.

فصل

فِي وَجُوبِ مُنَاصَحَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قال الله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الدِّينِ لَا يَحْدُثُ مَا يُفْقُوتُ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١].
قال أهل التفسير: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: إِذَا كَانُوا مُخْلِصِينَ مُسْلِمِينَ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ.

١٢٤٨ - حدثنا القاضي الفقيه أبو الوليد بقراءتي عليه، حدثنا حسين بن محمد، حدثنا يوسف بن عبد الله، حدثنا ابن عبد المؤمن، حدثنا أبو بكر التمار، حدثنا أبو داود، قال: حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا سهيل بن أبي صالح، عن عطاء بن يزيد، عن تميم الداري؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ. إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ. إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ» ثلاث مرات. قالوا:

لَمَنْ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَتِهِمْ»
[أبو داود (٤٩٤٤)، مسلم (٥٥)].

قال الأئمة رحمهم الله: النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم واجبة.

قال الإمام أبو سليمان البُستي: النصيحة: كلمة يُعَبَّرُ بها عن جُمْلَةِ إرادة الخير للمنصوح له؛ وليس يمكن أن يعبرَ عنها بكلمة واحدة تحصرها. ومعناها في اللغة الإخلاص؛ من قولهم: نصحت العسل، إذا خلصته من شمعته.

وقال أبو بكر بن أبي إسحاق الخفاف: النَّصْحُ فِعْلُ الشَّيْءِ الَّذِي بِهِ الصَّلَاحُ والملاءمة، مأخوذ من النَّصَّاح؛ وهو الخيط الذي يُخَاطُ به الثوب.
وقال أبو إسحاق الزجاج نحوه.

فنصيحة الله تعالى: صِحَّةُ الاعتقاد له بالوحدانية، ووضفه بما هو أهله، وتنزيهه عما لا يجوز عليه، والرغبة في محابه، والبُغْذُ من مساخطه، والإخلاص في عبادته.

والنصيحة لكتابه: الإيمان به، والعمل بما فيه، وتحسين تلاوته، والتخشع عنده، والتعظيم له، وتفهمه والتفقه فيه، والذب عنه من تأويل الغالين، وطعن المُلْحِدِينَ.

والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته، وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه؛ قاله أبو سليمان.

وقال أبو بكر: وموازرتة ونُصْرَتُهُ وَحِمَايَتُهُ حَيًّا وَمَيِّتًا، وإحياء سُنته بالطلب، والذب عنها، ونشرها، والتخلق بأخلاقه الكريمة، وآدابه الجميلة.

وقال أبو إبراهيم: إسحاق الثَّجِيبِي: نصيحة رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: التصديق بما جاء به، والاعتصام بسنته، ونشرها، والحض عليها، والدعوة إلى الله، وكتابه ولرسوله، وإليها، وإلى العمل بها.

وقال أحمد بن محمد: من مفروضات القلوب اعتقاد النصيحة لرسولِ اللَّهِ ﷺ.
قال أبو بكر الأَجْرِي وغيره: النصح له يَقْتَضِي نُصْحَيْن؛ نُصْحاً فِي حَيَاتِهِ، وَنُصْحاً بَعْدَ مَمَاتِهِ؛ ففِي حَيَاتِهِ نُصْحُ أَصْحَابِهِ لَهُ بِالنَّصْرِ وَالْمُحَامَاةِ عَنْهُ وَمُعَادَاةِ مَنْ عَادَاهُ، وَالسَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لَهُ، وَبِذَلِ الْنَفُوسِ وَالْأَمْوَالِ دُونَهُ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبُهُمْ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقال: ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّالِحُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

وأما نصيحة المسلمين له بعد وفاته فالتزام التوفير والإجلال، وشدة المحبة له، والمثابرة على تعلم سنته، والتفقه في شريعته؛ ومحبة أهل بيته وأصحابه، ومجانبة من رغب عن سنته، وانحرف عنها، وبغضه والتحذير منه، والشفقة على أمته، والبحث عن تعرف أخلاقه وسيره وآدابه، والصبر على ذلك. فعلى ما ذكره تكون النصيحة إحدى ثمرات المحبة، وعلامة من علاماتها كما قدمنا.

١٢٤٩ - وحكى الإمام أبو القاسم القشيري أن عمرو بن الليث - أحد ملوك خراسان، ومشاهير الثوار، المعروف: بالصقار - مات، فرثي في النوم؛ فقبل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، فقبل: بماذا؟ قال: سعدت ذروة جبل يوماً فأشرفت على جنودي فأعجبني كثرتهم، فتمنيت أني حضرت رسول الله ﷺ فأعنته ونصرته؛ فشكر الله لي ذلك وغفر لي.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين: فطاعتهم في الحق، ومعاونتهم فيه، وأمرهم به، وتذكيرهم إياه على أحسن وجه وتبيينهم على ما غفلوا عنه، وكتم عنهم، من أمور المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتضريب الناس وإفساد قلوبهم عليهم. والنصح لعامة المسلمين: إرشادهم إلى مصالحهم، ومعاونتهم في أمر دينهم ودنياهم بالقول والفعل، وتبيين غافلهم، وتبصير جاهلهم، ورقد محتاجهم، وسرور غوراتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع إليهم.



الباب الثالث

في تعظيم أمره ووجوب توقيره وبره

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

﴿لَتَتَوَكَّلُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

و: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [١] إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ [٢] إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ [٣] [الحجرات: ٢ - ٤].

وقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

فأوجب الله تعالى تعزيره وتوقيره، وألزم إكرامه وتعظيمه.

قال ابن عباس: تُعَزَّرُوهُ: أي تُجْلُوهُ. وقال المبرد: تعزروه: تبالغوا في تعظيمه.

وقال الأخفش: تَنْصُرُونَهُ. وقال الطبري: تُعِينُونَهُ.

وَقَرِءَ: تُعَزَّرُوهُ - بزاين - من العز.

ونُهي عن التقدم بين يديه بالقول؛ وشؤء الأدب بسبقه بالكلام، على قول ابن عباس وغيره؛ وهو اختيار ثعلب.

قال سهل بن عبد الله: لَا تَقُولُوا قَبْلَ أَنْ يَقُولَ؛ وإذا قَالَ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا.

ونُهي عن التقدم والتعجل بقضاء أمرٍ قبل قضاؤه فيه؛ وَأَنْ يَفْتَاتُوا بِشَيْءٍ فِي

ذلك مِنْ قِتَالٍ أو غيره من أمر دينهم إلا بأمره، ولا يسبقوه به .
والى هذا يرجع قول الحسن، ومجاهد، والضحاك، والسدي، والثوري .
ثم وعظهم وحذّرههم مخالفة ذلك؛ فقال تعالى: ﴿وَأَقْرَأُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
[الحجرات: ١] قال الماوردي: اتقوا: يعني في التقدم .
وقال السلمي: ﴿وَأَقْرَأُوا اللَّهَ﴾ في إهمال حقه وتضييع حُرْمَتِهِ، إنه سميع
لقولكم، عليم بفعلكم .

ثم نهاهم عن رفع الصوت فوق صوته، والجهر له بالقول كما يجهز بعضهم
لبعض ويرفع صوته .

وقيل: كما يتأدي بعضهم بغضاً باسمه .

قال أبو محمد: مكّي: أي لا تسابقوه بالكلام، وتغلظوا له بالخطاب ولا
تنادوه باسمه نداء بغضكم لبعض ولكن عظموه ووقروه ونادوه بأشرف ما يحب أن
يتأدى به: يا رسول الله! يا نبي الله!

وهذا كقوله في الآية الأخرى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ
بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] على أحد التأويلين .
وقال غيره: لا تخاطبوه إلا مستفهمين .

ثم خوفهم الله تعالى بحبط أعمالهم إن هم فعلوا ذلك، وحذّره منه .

١٢٥٠ - وقيل: نزلت الآية في وفد من بني - تميم - وقيل: في غيرهم؛
أتوا النبي ﷺ فنادوه: يا محمداً يا محمداً اخرج إلينا . فذمهم الله تعالى
بالجهل، ووصفهم بأن أكثرهم لا يعقلون .

١٢٥١ - وقيل: نزلت الآية في محاورة كانت بين أبي بكر وعمر بين يدي
النبي ﷺ، واختلاف جرى بينهما، حتى ارتفعت أصواتهما [البخاري (٤٣٦٧)] .

١٢٥٢ - وقيل: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس خطيب النبي ﷺ في مفاخرة
بني تميم، وكان في أدنيه صمم؛ فكان يرفع صوته؛ فلما نزلت هذه الآية أقام في منزله،
وخشي أن يكون حبط عمله؛ ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله! لقد خشيت أن أكون
هلكاً؛ نهانا الله أن نجهر بالقول، وأنا امرؤ جهير الصوت .

فقال له النبي ﷺ: «يا ثابت! أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً،
وتدخل الجنة؟» [البخاري (٢٦١٣)، مسلم (١١٩)] فقتل يوم اليمامة .

١٢٥٣ - وزوي أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية قال: واللّه! يا رسول الله!
لا أكلمك بعدها إلا كأخي السرار .

١٢٥٤ - وَأَنَّ عُمَرَ كَانَ إِذَا حَدَّثَهُ حَدَّثَهُ كَأَخِي السَّرَارِ؛ مَا كَانَ يُسْمِعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَيْئاً بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ [البخاري (٧٣٠٢)].

١٢٥٥ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

وقيل: نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ...﴾ [الحجرات: ٤] في غير بني تميم؛ نادوه باسمه.

١٢٥٦ - وَرَوَى صَفْوَانُ بْنُ عَسَّالٍ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ فِي سَفَرٍ إِذْ نَادَاهُ أَعْرَابِيٌّ بِصَوْتٍ لَهُ جَهْوَري: أَيَا مُحَمَّدًا! أَيَا مُحَمَّدًا! فَقُلْنَا لَهُ: اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ؛ فَإِنَّكَ قَدْ نُهِيتَ عَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ [الترمذي (٢٣٨٧)].

وقال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا...﴾ [البقرة: ١٠٤]. قال بعض المفسرين: هي لغة كانت في الأنصار؛ نُهوا عن قولها تعظيماً للنبي ﷺ، وتبجيلاً له؛ لأن معناها: ازْعَنَّا نَزْعَكَ فُهِوا عَنْ قَوْلِهَا؛ إِذْ مُقْتَضَاهَا، كَانَهُمْ لَا يَرْعُونَهُ إِلَّا بِرَعَايَتِهِ لَهُمْ؛ بَلْ حَقُّهُ أَنْ يُرْعَى عَلَى كُلِّ حَالٍ. وقيل: كانت اليهود تُعَرِّضُ بِهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ بِالرُّعُونَةِ؛ فَتُهَى الْمُسْلِمُونَ عَنْ قَوْلِهَا؛ قَطْعاً لِلذَّرِيعَةِ، وَمَنْعاً لِلتَّشْبِيهِ بِهِمْ فِي قَوْلِهَا، لِمَشَارَكَةِ اللَّفْظِ. وقيل غير هذا.

فصل

فِي عَادَةِ الصَّحَابَةِ فِي تَعْظِيمِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وإِجْلَالِهِ وَتَوْقِيرِهِ

١٢٥٧ - حَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو عَلِيٍّ الصَّدْفِيُّ، وَأَبُو بَخْرٍ الْأَسَدِيُّ بِسْمَاعِي عَلَيْهِمَا فِي آخِرِينَ؛ قَالُوا: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَيْسَى، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سُفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، وَأَبُو مَعْنٍ الرَّقَاشِيُّ، وَإِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ؛ قَالُوا: حَدَّثَنَا الضَّحَّاكُ بْنُ مَخْلَدٍ، حَدَّثَنَا حَنْوَةُ بْنُ شَرِيحٍ، حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ ابْنِ شِمَاسَةَ الْمُهَرِّيِّ؛ قَالَ: حَضَرْنَا عُمَرَ بْنَ الْعَاصِ...

فذكر حديثاً طويلاً فيه عن عمرو، قال: وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا أَجَلٌ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أَطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنِي مِنْهُ إِجْلَالاً

له؛ ولو سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ [مسلم (١٢١)].

١٢٥٨ - وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَخْرُجُ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَهُمْ جُلُوسٌ، فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ؛ فَلَا يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَصَرَهُ إِلَيْهِ إِلَّا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؛ فَإِنَّهُمَا كَانَا يَنْظُرَانِ إِلَيْهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمَا، وَيَتَبَسَّمَانِ إِلَيْهِ، وَيَتَبَسَّمُ إِلَيْهِمَا [التِّرْمِذِيُّ (٣٦٦٨)، أَحْمَدُ (١٥٠٣)].

١٢٥٩ - وَرَوَى أَصَامَةُ بْنُ شَرِيكٍ؛ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ حَوْلَهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ [أَبُو دَاوُدَ (٣٨٥٥)].

١٢٦٠ - وَفِي حَدِيثٍ صِفَتِهِ: إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جِلْسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ.

١٢٦١ - وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ حِينَ وَجَّهَتْهُ قُرَيْشٌ عَامَ الْقَضِيَّةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَأَى مِنْ تَعْظِيمِ أَصْحَابِهِ لَهُ مَا رَأَى، وَأَنَّهُ لَا يَتَوَضَّأُ إِلَّا ابْتَدَرُوا وَضُوءَهُ، وَكَادُوا يَفْتَتِلُونَ عَلَيْهِ، وَلَا يَنْصُقُ بِصَاقَا، وَلَا يَتَنَحَّمُ نَحَامَةً إِلَّا تَلَقَّوْهَا بِأَكْفِهِمْ فَذَلَكُوا بِهَا وُجُوهَهُمْ وَأَجْسَادَهُمْ؛ وَلَا تَسْقُطُ مِنْهُ شَعْرَةٌ إِلَّا ابْتَدَرُوهَا؛ وَإِذَا أَمَرَهُمْ بِأَمْرٍ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ؛ وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحَدِّثُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيماً لَهُ.

فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! إِنِّي جِئْتُ كِسْرَى فِي مُلْكِهِ، وَقِصْرَ فِي مُلْكِهِ، وَالنَّجَاشِي فِي مُلْكِهِ؛ وَإِنِّي، وَاللَّهِ! مَا رَأَيْتُ مُلْكاً فِي قَوْمٍ قَطُّ مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ [الْبُخَارِيُّ (٢٧٣١)، ٢٧٣٢].

وَفِي رِوَايَةٍ: إِنَّ رَأَيْتُ مُلْكاً قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ مُحَمَّدًا أَصْحَابُهُ. وَقَدْ رَأَيْتُ قَوْماً لَا يُسَلِّمُونَهُ أَبَداً.

١٢٦٢ - وَعَنْ أَنَسٍ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالْحَلَاقُ يَحْلُقُهُ، وَقَدْ أَطَافَ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَمَا يُرِيدُونَ أَنْ تَقَعَ شَعْرَةٌ إِلَّا فِي يَدِ رَجُلٍ [مسلم (٢٣٢٥)].

١٢٦٣ - وَمِنْ هَذَا لَمَّا أُذِنَتْ قُرَيْشٌ لِعُثْمَانَ فِي الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ حِينَ وَجَّهَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ فِي الْقَضِيَّةِ أَبِي، وَقَالَ: مَا كُنْتُ لَأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

١٢٦٤ - وَفِي حَدِيثٍ طَلْحَةَ: إِنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا لِأَعْرَابِي جَاهِلٍ: سَلُهُ عَمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ - وَكَانُوا يَهَابُونَهُ وَيُوقِرُونَهُ - فَسَأَلَهُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، إِذْ طَلَعَ طَلْحَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا مِمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ» [التِّرْمِذِيُّ (٣٧٤٢)].

١٢٦٥ - وفي حديث قَيْلَةَ: فلما رأيتُ رسولَ الله ﷺ جالساً القُرْصَاءَ أُرْعِدْتُ مِنَ الْفَرْقِ. وذلك هَيْئَةً لَهُ وَتَعْظِيماً.

١٢٦٦ - وفي حديث المغيرة: كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يَفْرَعُونَ بَابَهُ بِالْأَظْفِيرِ.

١٢٦٧ - وقال البراء بن عازب: لقد كنتُ أريدُ أن أسألَ رسولَ الله ﷺ عن الأمر فأَوْخَرَهُ سِنِينَ مِنْ هَيْئَتِهِ.

فصل

فِي تَعْظِيمِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَعِنْدَ ذِكْرِهِ، وَتَعْظِيمِ أَهْلِ بَيْتِهِ وَصَحَابَتِهِ

واعلم أنَّ حُرْمَةَ النَّبِيِّ ﷺ بعد موته، وتوقيره وتَعْظِيمَهُ، لازمٌ كما كان في حال حياته؛ وذلك عند ذِكْرِهِ - عليه السلام - وذكر حديثه وسُنَّتِهِ، وسَمَاعِ اسْمِهِ وسيرته، ومُعَامَلَةِ آلِهِ وَعِثْرَتِهِ، وتَعْظِيمِ أَهْلِ بَيْتِهِ وَصَحَابَتِهِ.

وقال أبو إبراهيم: إسحاق التُّجَيْبِيُّ: واجبٌ على كلِّ مُؤْمِنٍ متى ذَكَرَهُ - أو ذَكَرَ عنده - أنْ يَخْضَعَ وَيَخْشَعَ، ويتَوَقَّرَ ويسْكُنَ مِنْ حركته، ويأْخُذُ فِي هَيْئَتِهِ وإِجْلَالِهِ بما كان يأْخُذُ بِهِ نَفْسُهُ لو كان بين يَدَيْهِ؛ ويتَأَدَّبُ بما أَدَّبَنَا اللَّهُ بِهِ.

قال القاضي أبو الفضل: وهذه كانت سيرة سَلَفِنَا الصَّالِحِ وَأَثَمْنَا الْمَاضِينَ رضي الله عنهم أجمعين.

١٢٦٨ - حدثنا القاضي أبو عبد الله: محمد بن عبد الرحمن الأشعري، وأبو القاسم: أحمد بن بَقِيٍّ الحاكم، وغيرُ واحد، فيما أجازُونِيهِ؛ قالوا: حدثنا أبو العباس: أحمد بن عمر بن دِلْهَاتٍ قال: حدثنا أبو الحسن: علي بن فهر، حدثنا أبو بكر: محمد بن أحمد بن الفَرَجِ، حدثنا أبو الحسن: عبد الله بن المُنْتَابِ، حدثنا يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا ابنُ حُمَيْدٍ؛ قال: ناظرَ أبو جَعْفَرٍ أميرَ المؤمنين مَالِكاً في مسجدِ رسولِ الله ﷺ، فقال له مَالِكٌ: يا أميرَ المؤمنين! لا ترفع صوتَكَ في هذا المسجد، فإنَّ الله عز وجل أَدَبَ قومًا فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُمْ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

ومدَحَ قومًا فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

وذمّ قوماً فقال: ﴿إِنَّ إِلَيْنِكَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكُفِّرُهُمْ لَا يَقُولُونَ﴾
[الحجرات: ٤] وَإِنَّ حُرْمَتَهُ مِثْلَ حُرْمَتِهِ حَيًّا.

فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله! أَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ وَأَدْعُو أُمَّ
أَسْتَقْبِلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَدْعُو؟ فقال: وَلِمَ تَصْرَفُ وَجْهَكَ عَنْهُ وَهُوَ وَسِيلَتُكَ
وَوَسِيلَةُ أَبِيكَ آدَمَ - عليه السلام - إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ بَلِ اسْتَقْبِلْهُ وَاسْتَغْفِرْ
بِهِ، فَيَشْفِعَهُ اللَّهُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا
اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

وقال مالك - وقد سُئِلَ عَنْ أَيُّوبَ السَّخْنِيَّانِي -: إِنِّي مَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ أَحَدٍ إِلَّا
وَأَيُّوبَ أَفْضَلَ مِنْهُ.

قال: وَحَجَّ حَجَّتَيْنِ، فَكُنْتُ أَرْمُقُهُ وَلَا أَسْمَعُ مِنْهُ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا ذُكِرَ
النَّبِيُّ ﷺ بَكَى حَتَّى أَرْحَمَهُ!

فلما رَأَيْتُ مِنْهُ مَا رَأَيْتُ، وَاجْلَالَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَتَبْتُ عَنْهُ.
وقال مُضْعَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: كَانَ مَالِكٌ إِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ وَيَنْحَنِي
حَتَّى يَضَعُ ذَلِكَ عَلَى جُلْسَاتِهِ؛ فَقِيلَ لَهُ يَوْمًا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ
لَمَا أَنْكَرْتُمْ عَلَيَّ مَا تَرَوْنَ؛ وَلَقَدْ كُنْتُ أَرَى مُحَمَّدَ بْنَ الْمُثَنِّدِ - وَكَانَ سَيِّدَ الْقُرَاءِ -
لَا يَكَاذُ يَسْأَلُهُ أَحَدٌ عَنْ حَدِيثٍ أَبَدًا إِلَّا يَبْكِي حَتَّى تَرْحَمَهُ.

ولقد كُنْتُ أَرَى جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ الصَّادِقَ، وَكَانَ كَثِيرَ الدُّعَابَةِ وَالتَّبَسُّمِ؛ فَإِذَا
ذُكِرَ عَنْدهُ النَّبِيُّ ﷺ أَضْفَرَّ. وَمَا رَأَيْتُهُ يَحْدُثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا عَلَى طَهَارَةٍ.
وَقَدْ اخْتَلَفْتُ إِلَيْهِ زَمَانًا فَمَا كُنْتُ أَرَاهُ إِلَّا عَلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِمَّا مُصَلِّيًا،
وَإِمَّا صَامِتًا؛ وَإِمَّا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ؛ وَلَا يَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَغْنِيهِ؛ وَكَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْعُبَادِ
الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.

ولقد كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْقَاسِمِ يَذْكُرُ النَّبِيَّ ﷺ فَيَنْظُرُ إِلَى لَوْنِهِ كَأَنَّهُ تُزْفَرُ
مِنْهُ الدَّمُ، وَلَقَدْ جَفَّ لِسَانُهُ فِي قِمِهِ هَنِيئَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

ولقد كُنْتُ آتِي عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ فَإِذَا ذُكِرَ عَنْدهُ النَّبِيُّ ﷺ بَكَى
حَتَّى لَا يَبْقَى فِي عَيْنَيْهِ دُمُوعٌ.

ولقد رَأَيْتُ الزُّهْرِيَّ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ النَّاسِ وَأَقْرَبِهِمْ، فَإِذَا ذُكِرَ عَنْدهُ النَّبِيُّ ﷺ
فَكَانَ مَا عَرَفَكَ وَلَا عَرَفْتَهُ.

ولقد كُنْتُ آتِي صَفْوَانَ بْنَ سُلَيْمٍ، وَكَانَ مِنَ الْمُتَعَبِّدِينَ الْمُجْتَهِدِينَ؛ فَإِذَا ذُكِرَ
عَنْدهُ النَّبِيُّ ﷺ بَكَى، فَلَا يَزَالُ يَبْكِي حَتَّى يَقُومَ النَّاسُ عَنْهُ وَيَتْرَكُوهُ.

وَرُوي عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الْحَدِيثَ أَخَذَهُ الْعَوِيلَ وَالزَّوِيلَ .
ولما كَثُرَ عَلَى مَالِكٍ النَّاسُ قِيلَ لَهُ : لَوْ جَعَلْتَ مُسْتَمْلِيًا يُسْمِعُهُمْ ؟ فَقَالَ :
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَكْفُرُ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَّا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ [الحجرات : ٢] .
وَحُرْمَتُهُ حَيًّا وَمَيِّتًا سِوَاءً .

وكان ابنُ سيرين ربما يَضْحَكُ ؛ فإذا ذُكِرَ عنده حديثُ النبي ﷺ خَشَعَ .
وكان عبد الرحمن بن مَهْدِيٍّ إذا قرأ حديثَ النبي ﷺ أمرهم بالسكوت ؛
وقال : ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ [الحجرات : ٢] وَيَتَأَوَّلُ أَنَّهُ يَجِبُ لَهُ مِنَ
الإنصات عند قراءة حديثه ما يَجِبُ لَهُ عِنْدَ سَمَاعِ قَوْلِهِ .

فصل

فِي سِيَرَةِ السَّلَفِ فِي تَعْظِيمِ رِوَايَةِ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسُنَّتِهِ

١٢٦٩ - حدثنا الحسين بن محمد الحافظ، حدثنا أبو الفضل بن خيزون،
حدثنا أبو بكر البرقاني، وَغَيْرُهُ، حدثنا أبو الحسن الدارقطني، حدثنا علي بن
مُبَشَّر، حدثنا أحمد بن سنان القطان، أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرنا
المسعودي، عن مُسْلِمِ البَطِينِ، عن عَمْرِو بن مَيْمُون؛ قال: اختلفتُ إلى ابنِ
مسعود سَنَةً؛ فما سمعته يقول: قال رسولُ الله ﷺ، إِلَّا أَنَّهُ حَدَّثَ يَوْمًا فَجَرِي
عَلَى لِسَانِهِ: قال رسولُ الله ﷺ، ثُمَّ عَلَاةٌ كَرُبَتْ، حَتَّى رَأَيْتُ الْعَرَقَ يَتَحَدَّرُ عَنْ
جَبْهَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، أَوْ فَوْقَ ذَا، أَوْ مَا دُونَ ذَا، أَوْ مَا هُوَ
قَرِيبٌ مِنْ ذَا.

وفي رواية: فترَبَّدَ وَجْههُ .

وفي رواية: وقد تَغَرَّغَتْ عَيْنَاهُ، وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ .

وقال إبراهيم بن عبد الله بن قُرَيْمِ الأنصاري، قاضي المدينة: مرَّ مَالِكُ بن
أَنَسٍ عَلَى أَبِي حَازِمٍ، وَهُوَ يَحْدُثُ، فَجَازَهُ، وَقَالَ: إِنِّي لَمْ أَجِدْ مَوْضِعًا أَجْلِسُ
فِيهِ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَخَذَ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا قَائِمٌ .

وقال مالك: جاء رجلٌ إلى ابنِ المُسَيَّبِ، فَسَأَلَهُ عَنْ حَدِيثٍ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ،
فَجَلَسَ وَحَدَّثَهُ؛ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: وَدِدْتُ أَنَّكَ لَمْ تَتَعَنَّ، فَقَالَ: إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ
أُحَدِّثَكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مُضْطَجِعٌ .

ورُوي عن محمد بن سيرين أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ يَضْحَكُ، فإذا ذُكِرَ عنده حديثُ
النبي ﷺ خَشَعَ .

وقال أبو مُضْعَب: كان مالك بن أنس لا يُحَدِّثُ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا وهو على وضوء، إجلالاً له.

وحكى مالك ذلك عن جعفر بن محمد الصادق.

وقال مُضْعَب بن عبد الله: كان مالك بن أنس إذا حَدَّثَ عن رسولِ الله ﷺ تَوْضُأً وَتَهَيَّأً، وَلَبَسَ ثِيَابَهُ، ثُمَّ يَحَدِّثُ.

قال مُضْعَب: فَسُئِلَ عن ذلك، فَقَالَ: إِنَّهُ حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قال مُطَرِّف: كان إذا أتى الناسُ مالِكاً خَرَجَتْ إِلَيْهِمُ الْجَارِيَةُ وتقول لهم: يقول لكم الشيخ: تُريدون الحديثَ أو المسائل؟ فإن قالوا: المسائل خرج إليهم، وإن قالوا: الحديث، دخل مُغْتَسِلَهُ، فاغتسل وتطيَّب، ولبس ثياباً جُوداً، ولبس ساجه وتعمَّم، ووضع على رأسه رداءه، وتلقى له مِنَصَّةً، فيخرج فيجلس عليها، وعليه الخشوع، ولا يزال يُبَخِّرُ بالعود حتى يَفْرُغَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قال غَيْرُهُ: ولم يكن يجلسُ على تلك المِنَصَّةِ إِلَّا إذا حَدَّثَ عن رسولِ الله ﷺ.

قال ابنُ أبي أُوَيْسٍ: فقيِلَ لمالك في ذلك، فقال: أَجِبْ أَنْ أُعْظِمَ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ولا أُحَدِّثُ به إِلَّا على طهارة مُتَمَكِّناً.

قال: وكان يكره أن يحدِّثَ في الطريق، أو وهو قائم، أو مُسْتَعْجِل.

وقال: أَجِبْ أَنْ أَقْهَمَ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قال ضِرَارُ بن مَرْة: كانوا يكرهون أن يحدِّثُوا بِحَدِيثِ عَلَى غير وضوء. ونحوه عن قَتَادَةَ.

وكان الأعمش إذا أَحَبَّ أن يحدِّثَ وهو على غير وضوء تَيَمَّم.

وكان قَتَادَةُ لا يحدِّثُ إِلَّا على طهارة، ولا يقرأ حديثَ النبي ﷺ إِلَّا على وضوء.

قال عبد الله بن المبارك: كنتُ عند مالك، وهو يحدِّثنا، فلدغته عَقْرَبٌ سِتْ عَشْرَةَ مَرَّةً، وهو يتغيَّرُ لونه وَيَضْفَرُ ولا يقطعُ حديثَ رسولِ الله ﷺ.

فلما فرغ من المجلس، وتفرَّقَ عنه الناسُ قلتُ له: يا أبا عبد الله! لقد رأيتُ منك اليومَ عَجَباً؟ قال: نَعَمْ لَدَغَتْني عَقْرَبٌ سِتْ عَشْرَةَ مَرَّةً، وأنا صابرٌ في جميع ذلك؛ وإنما صَبِرْتُ إجلالاً لحديثِ رسولِ الله ﷺ.

قال ابنُ مهدي: مشيتُ يوماً مع مالك إلى العقيق، فسألته عن حديثٍ،

فانتهرني وقال لي: كنت في عيني أجل من أن تسألني عن حديث رسول الله ﷺ ونحن نمشي.

وسأله جرير بن عبد الحميد القاضي عن حديث وهو قائم، فأمر بحبسه، فقيل له: إنه قاض! قال: القاضي أحق من أدب.

وذكر أن هشام بن الغازي سأل مالكا عن حديث وهو واقف فضربه عشرين سوطاً، ثم أشفق عليه فحدثه عشرين حديثاً؛ فقال هشام: ودئت لو زادني سيّطاً ويزيدني حديثاً.

قال عبد الله بن صالح: كان مالك والليث لا يكتبان الحديث إلا وهما طاهران.

وكان قتادة يستحب ألا يقرأ أحاديث النبي ﷺ إلا على وضوء، ولا يحدث به إلا على طهارة.

وكان الأعمش إذا أراد أن يحدث وهو على غير وضوء تيمم.

فصل

ومن توقيره ﷺ وبزه، بڑ آله وذريته

وأمهات المؤمنين: أزواجه، كما حض عليه ﷺ،

وسلكه السلف الصالح رضي الله عنهم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ أَتْمَمَ لَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

١٢٧٠ - أخبرنا الشيخ أبو محمد بن أحمد العذلي من كتابه، وكتبته من أصله، حدثنا أبو الحسن المقرئ الفرغاني، حدثني أم القاسم بنت الشيخ أبي بكر الخفاف، قالت: حدثني أبي، حدثنا حاتم - وهو ابن عقيل -، حدثنا يحيى: هو ابن إسماعيل، حدثنا يحيى: هو الحماني، حدثنا وكيع، عن أبيه، عن سعيد بن مسروق، عن يزيد بن حيان، عن زيد بن أرقم؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتَشُدُّكُمُ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي...» ثلاثاً.

قلنا لزيد: من أهل بيته؟ قال: آل علي بن أبي طالب، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس [مسلم (٢٤٠٨)].

١٢٧١ - وقال عليه السلام: «إني تارك فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتاب الله، وعترتي: أهل بيتي؛ فانظروا كيف تخلفوني فيهما» [الترمذي (٣٧٨٨)، مسلم (٢٤٠٨)].

١٢٧٢ - وقال عليه السلام: «معرفة آل محمد ﷺ براءة من النار، وحُب آل محمد - ﷺ - جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمان من العذاب». قال بعض العلماء: معرفتهم هي معرفة مكانهم من النبي ﷺ، وإذا عرفهم بذلك عرف وجوب حقهم وحرمتهم بسببه.

١٢٧٣ - وعن عمر بن أبي سلمة: لما نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] - وذلك في بيت أم سلمة - دعا فاطمة وحسناً وحسيناً، فجلبهم بكساء، وعليّ خلف ظهره فجلبه بكساء، ثم قال: «اللَّهُمَّ! هؤلاء أهل بيتي؛ فاذْهِبْ عنهم الرِّجْسَ، وطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا» [الترمذي (٣٧٨٧)].

١٢٧٤ - وعن سعد بن أبي وقاص: لما نزلت آية المباهلة دعا النبي ﷺ عليّاً وحسناً وحسيناً وفاطمة، وقال: «اللَّهُمَّ! هؤلاء أهلي» [مسلم (٣٢/٢٤٠٤)].

١٢٧٥ - وقال النبي ﷺ في عليّ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ؛ اللَّهُمَّ! وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ».

١٢٧٦ - وقال فيه: «لا يحبك إلا مؤمن، ولا ينفذك إلا متافق» [مسلم (٧٨)].

١٢٧٧ - وقال للعباس: «والذي نفسي بيده! لا يَدْخُلُ قَلْبَ رَجُلٍ الْإِيمَانُ حَتَّى يُحِبَّكَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ. وَمَنْ آذَى عَمِّي فَقَدْ آذَانِي؛ وَإِنَّمَا عَمُّ الرَّجُلِ صِنُّ أَبِيهِ» [الترمذي (٣٧٥٨)].

١٢٧٨ - وقال للعباس: «اغْدُ عَلَيَّ يَا عَمُّ! مَعَ وَلَدِكَ» فجمعهم وجلبهم بملاءتِهِ، ثم قال: «هَذَا عَمِّي وَصِنُّ أَبِي؛ وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي؛ فَاسْتَرْهُمْ اللَّهُمَّ! مِنَ النَّارِ كَسْتَرِي إِيَّاهُمْ» فَأَمَّنْتُ أَسْكَفَةَ الْبَابِ وَحَوَائِطَ الْبَيْتِ: آمِينَ. آمِينَ.

١٢٧٩ - وكان يأخذ أسامة بن زيد، والحسن؛ ويقول: «اللَّهُمَّ! إِنِّي أَحْبَبُهُمَا فَأَحْبِبْهُمَا» [البخاري (٣٧٣٥)].

١٢٨٠ - وقال أبو بكر: ازْكُبُوا مُحَمَّدًا فِي أَهْلِ بَيْتِهِ [البخاري (٣٧١٣)].

١٢٨١ - وقال أيضاً: والذي نفسي بيده! لقرابة رسول الله ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي [البخاري (٣٧١٢)، مسلم (١٧٥٩)].

١٢٨٢ - وقال ﷺ: «أَحَبُّ اللَّهِ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا» [الترمذي (٣٧٧٥)، ابن ماجه (١٤٤)].

١٢٨٣ - وقال: «من أحبني وأحبّ هذين - وأشار إلى حسن وحسين وأباهما وأُمّهما - كان معي في درجتي يوم القيامة».

١٢٨٤ - وقال عليه السلام: «مَنْ أَهَانَ قُرَيْشاً أَهَانَهُ اللَّهُ» [أحمد (٦٤/١)].

١٢٨٥ - وقال ﷺ: «قَدِّمُوا قُرَيْشاً وَلَا تَقْدِّمُوها».

١٢٨٦ - وقال عليه السلام لَأُمِّ سَلَمَةَ: «لَا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ» [البخاري

(٢٥٨١)، مسلم (٢٤٤٢)].

١٢٨٧ - وعن عُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ: رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَدْ جَعَلَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَى عُنُقِهِ وَهُوَ يَقُولُ: بِأَبِي شَيْبَةَ النَّبِيِّ، لَيْسَ شَيْبَهُاً بَعْلِي، وَعَلَيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَضْحَكُ [البخاري (٣٧٥٠)].

١٢٨٨ - وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ، قَالَ: أَتَيْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي حَاجَةٍ، فَقَالَ لِي: إِذَا كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ فَأَرْسِلْ إِلَيَّ أَوْ اكْتُبْ؛ فَإِنِّي أَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرَاكَ عَلَى بَابِي.

١٢٨٩ - وَعَنْ الشَّعْبِيِّ: صَلَّى زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ عَلَى جَنَازَةِ أُمِّهِ، ثُمَّ قُرِئَتْ لَهُ بَغْلَتُهُ لِيَرْكَبَهَا، فَجَاءَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَخَذَ بِرِكَابِهِ؛ فَقَالَ زَيْدٌ: خَلِّ عَنْهُ، يَابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ! فَقَالَ: هَكَذَا نَفَعَلُ بِالْعُلَمَاءِ. فَقَبَّلَ زَيْدُ بْنُ عَبَّاسٍ؛ وَقَالَ: هَكَذَا أَمَرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِأَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّنَا.

١٢٩٠ - وَرَأَى ابْنُ عُمَرَ مُحَمَّدَ بْنَ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ؛ فَقَالَ: لَيْتَ هَذَا عَبْدِي؛ فَقِيلَ لَهُ: هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ أَسَامَةَ. فَقَطَّاعاً ابْنُ عُمَرَ رَأْسَهُ، وَنَقَرَ بِيَدِهِ الْأَرْضَ، وَقَالَ: لَوْ رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَأَحَبَّهُ [البخاري (٣٧٣٤)].

١٢٩١ - وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: دَخَلْتُ بَنَتْ أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ - صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَمَعَهَا مَوْلَى لَهَا يُنْسِكُ بِيَدِهَا، فَقَامَ لَهَا عُمَرُ، وَمَشَى إِلَيْهَا حَتَّى جَعَلَ يَدَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَيَدَاهُ فِي ثِيَابِهِ، وَمَشَى بِهَا حَتَّى أَجْلَسَهَا عَلَى مَجْلِسِهِ، وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهَا، وَمَا تَرَكَ لَهَا مِنْ حَاجَةٍ إِلَّا قَضَاهَا.

١٢٩٢ - وَلَمَّا فَرَضَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ، وَلِأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ وَخَمْسِ مِئَةٍ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ لِأَبِيهِ: لِمَ فَضَّلْتَهُ؟ فَوَاللَّهِ! مَا سَبَقَنِي إِلَيْهِ مَشْهُدٌ. فَقَالَ لَهُ: لِأَنَّ زَيْدًا كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَبِييكَ، وَأَسَامَةُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْكَ؛ فَاتَّارَتْ حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى حُبِّي [الترمذي (٣٨١٣)].

١٢٩٣ - وَبَلَغَ مُعَاوِيَةَ: أَنَّ كَابِسَ بْنَ رَبِيعَةَ يُشَبِّهُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَلَمَّا دَخَلَ

عليه من باب الدار قام عن سريرته، وتلقاه، وقبّل بين عينيه، وأقطعه المِزْغَابَ لِشِبْهِهِ بِصُورَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

١٢٩٤ - وَرَوَى أَن مَالِكاً - رَحِمَهُ اللَّهُ - لَمَّا ضَرَبَهُ جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، وَنَالَ مِنْهُ مَا نَالَ، وَحُمِلَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَأَفَاقَ، فَقَالَ: أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ جَعَلْتُ ضَارِبِي فِي حِلٍّ.

فُسِّئِلَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ: حِفْتُ أَن أَمُوتَ، فَأَلْقَى النَّبِيَّ ﷺ، فَأَسْتَحْيِي مِنْهُ أَن يَدْخُلَ يَغْمُضَ إِلَيْهِ بِسَبِيٍّ النَّارِ.

١٢٩٥ - وَقِيلَ: إِنَّ الْمَنْصُورَ أَقَادَهُ مِنْ جَعْفَرٍ، فَقَالَ لَهُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ! وَاللَّهِ! مَا ارْتَفَعَ مِنْهَا سِوَى عَن جَسَمِي إِلَّا وَقَدْ جَعَلْتُهُ فِي حِلٍّ لِقَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

١٢٩٦ - وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عِيَّاشٍ: لَوْ أَنَّنِي عَلِيٌّ وَعُمَرُ وَأَبُو بَكْرٍ لَبَدَأْتُ بِحَاجَةِ عَلِيٍّ قَبْلَهُمَا؛ لِقَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ وَلَأنَّ أَجْرًا مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَن أُقَدِّمَهُ عَلَيْهِمَا.

١٢٩٧ - وَقِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: مَاتَتْ فُلَانَةٌ - لِبَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ - فَسَجَدَ؛ فَقِيلَ لَهُ: أَتَسْجُدُ هَذِهِ السَّاعَةَ؟ فَقَالَ: أَلَيْسَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمْ آيَةً فَاسْجُدُوا»، وَأَيُّ آيَةٍ أَعْظَمُ مِنْ ذَهَابِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ؟ [أَبُو دَاوُدَ (١١٩٧)، التِّرْمِذِيُّ (٣٨٩١)].

١٢٩٨ - وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ يَزُورَانِ أُمَّ أَيْمَنَ مَوْلَاةَ النَّبِيِّ ﷺ وَيَقُولَانِ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزُورُهَا [مُسْلِمَ (٢٤٥٤)].

١٢٩٩ - وَلَمَّا وَرَدَتْ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ وَقَضَى حَاجَتَهَا.

فَلَمَّا تَوَقَّيْ وَفَدْتَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَصَنَعَا بِهَا مِثْلَ ذَلِكَ.

فصل

وَمِنْ تَوْقِيرِهِ وَبَرِّهِ ﷺ تَوْقِيرُ أَصْحَابِهِ وَبَرُّهُمْ وَمَعْرِفَةُ حَقِّهِمْ، وَالِاقْتِدَاءُ بِهِمْ، وَحُسْنُ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمْ، وَالِإِمْسَاكُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَمُعَادَاةُ مَنْ عَادَاهُمْ، وَالِإِضْرَابُ عَنْ أَخْبَارِ الْمُؤَخِّينَ، وَجَهْلَةُ الرِّوَاةِ، وَضَلَالُ الشَّيْعَةِ وَالْمُبْتَدِعِينَ الْقَادِحَةِ فِي أَحَدٍ مِنْهُمْ؛ وَأَن يُلْتَمَسَ لَهُمْ - فِيمَا نُقِلَ عَنْهُمْ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ - فِيمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْفِتَنِ - أَحْسَنُ التَّأْوِيلَاتِ، وَيُخْرَجَ لَهُمْ أَضَوُّبُ الْمَخَارِجِ. إِذْ هُمْ أَهْلُ ذَلِكَ، وَلَا يُذَكَّرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِسُوءٍ، وَلَا يُغْمَضُ

عليه أمره، بل يُذكر حسناتهم وفضائلهم، وحميد سيرتهم، ويسكت عما وراء ذلك.

١٣٠٠ - كما قال عليه السلام: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا».

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّدَّ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجٍ أَخْرَجَ سَطْلَهُمْ فَفَارَقُوهُ فَاسْتَفَلَّتْ فَاسْتَوَى عَلَى سُرْقِهِمْ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ وَالَّذِينَ تَبِعُواهمْ يَلْحَقُونَ بِخَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

وقال: ﴿يَبَايَعُ صَدُوقًا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

١٣٠١ - حدثنا القاضي أبو علي، حدثنا أبو الحسين، وأبو الفضل؛ قالوا: حدثنا أبو يغلي، حدثنا أبو علي السنجي، حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا الترمذي، حدثنا الحسن بن الصباح، حدثنا سفيان بن عيينة، عن زائدة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربيعة بن جراش، عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «افْتَدُوا بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ» [الترمذي (٣٨٠٤)، ابن ماجه (٩٧)، أحمد (٣٨٥/٥)].

١٣٠٢ - وقال: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

١٣٠٣ - وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ أَصْحَابِي كَمَثَلِ الْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ؛ وَلَا يَصْلُحُ الطَّعَامُ إِلَّا بِهِ».

١٣٠٤ - وقال: «اللَّهُ اللَّهُ فِي أَصْحَابِي؛ لَا تَتَّخِذُوهمْ غَرَضًا بَعْدِي؛ فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحَبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِإِبْغَضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ، وَمَنْ آذَى اللَّهَ يَوْشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ».

١٣٠٥ - وقال: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَلَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» [البخاري (٣٦٧٣)، مسلم (٢٥٤)، (٢٥٤١)].

١٣٠٦ - وقال: «مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا».

١٣٠٧ - وقال: «إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا».

١٣٠٨ - وقال في حديث جابر: «إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ أَصْحَابِي عَلَى جَمِيعِ الْعَالَمِينَ سِوَى النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَاخْتَارَ لِي مِنْهُمْ أَرْبَعَةً: أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيًّا؛ فَجَعَلَهُمْ خَيْرَ أَصْحَابِي، وَفِي أَصْحَابِي كُلِّهِمْ خَيْرٌ».

١٣٠٩ - وقال: «مَنْ أَحَبَّ عُمَرَ فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَبْغَضَ عُمَرَ فَقَدْ أَبْغَضَنِي».

١٣١٠ - وقال مالك بن أنس، وَغَيْرُهُ: مَنْ أَبْغَضَ الصَّحَابَةَ وَسَبَّهُمْ فَلَيْسَ لَهُ فِي فَنَاءِ الْمُسْلِمِينَ حَقٌّ، وَنَزَعَ بَابَةَ الْحَشْرِ: «وَمَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ وَنَهْمُ فَمَاءٍ أَوْ حَفَّتُهُ عَلَيْهِ مِنْ حَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَآلِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ [الحشر: ٦ - ١٠].

١٣١١ - وقال: مَنْ غَاظَهُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ فَهُوَ كَافِرٌ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «لِيَغِيظَهُمُ الْكُفَّارُ» [الفتح: ٢٩].

١٣١٢ - وقال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: خَضَلْتَانِ مَنْ كَانَتْ فِيهِ نَجَا: الصَّدُوقُ، وَحُبُّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

١٣١٣ - وقال أَيُّوبُ السُّخْتِيَانِي: مَنْ أَحَبَّ أَبَا بَكْرٍ فَقَدْ أَقَامَ الدِّينَ، وَمَنْ أَحَبَّ عُمَرَ فَقَدْ أَوْضَحَ السَّبِيلَ، وَمَنْ أَحَبَّ عُثْمَانَ فَقَدْ اسْتَضَاءَ بَنُورَ اللَّهِ، وَمَنْ أَحَبَّ عَلِيًّا فَقَدْ أَخَذَ بِالْعَزْوَةِ الْوُثْقَى، وَمَنْ أَحْسَنَ الثَّنَاءِ عَلَى أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ - فَقَدْ بَرَى مِنَ النِّفَاقِ، وَمَنْ انْتَقَصَ مِنْهُمْ أَحَدًا فَهُوَ مُبْتَدِعٌ مُخَالِفٌ السُّنَّةَ وَالسَّلَفَ الصَّالِحَ؛ وَأَخَافُ أَلَّا يَضَعِدَ لَهُ عَمَلٌ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى يَحِبَّهُمْ جَمِيعًا، وَيَكُونَ قَلْبُهُ سَلِيمًا.

١٣١٤ - وَفِي حَدِيثِ خَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي رَاضٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ فَاعْرِفُوا لَهُ ذَلِكَ. أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي رَاضٍ عَنْ عُمَرَ، وَعَنْ

علي، وعن عثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبدالرحمن بن عوف؛ وأبي عبيدة؛ فاعرفوا لهم ذلك.

أيها الناس! إن الله غفر لأهل بذر والحدِيثِية. أيها الناس! احفظوني في أصحابي وأضهاري وأختاني، لا يطالبكم أحد منهم بمظلمة؛ فإنها مظلمة لا توهب في القيامة غداً.

١٣١٥ - وقال رجل للمعافى بن عمران: أين عمر بن عبدالعزيز من معاوية؟ فغضب وقال: لا يقاس بأصحاب النبي ﷺ أحد، معاوية صاحبه وصهره، وكاتبه وأمينه على وحي الله.

١٣١٦ - وأتني النبي ﷺ بِجَنَازَةِ رَجُلٍ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «كَانَ يَنْغُضُ عُثْمَانَ، فَأَبْغَضَهُ اللَّهُ» [الترمذي (٣٧٠٩)].

١٣١٧ - وقال عليه السلام في الأنصار: «اغفوا عن مُسيئتهم، واقبلوا من مُحسِنهم» [البخاري (٣٧٩٩)، مسلم (٣٨٠٠)، (٢٥١٠)].

١٣١٨ - وقال: «احفظوني في أصحابي وأضهاري؛ فإنه من حفظني فيهم حفظه الله في الدنيا والآخرة، ومن لم يحفظني فيهم تخلى الله عنه، ومن تخلى الله عنه يوشك أن يأخذه».

١٣١٩ - وقال عليه السلام: «من حفظني في أصحابي كنت له حافظاً يوم القيامة».

١٣٢٠ - وقال: «من حفظني في أصحابي ورد علي الحوض، ومن لم يخفظني في أصحابي لم يرد علي الحوض، ولم يرني إلا من بعيد».

١٣٢١ - وقال مالك - رحمه الله -: هذا النبي مؤدب الخلق الذي هدانا الله به، وجعله رحمة للعالمين، يخرج في جوف الليل إلى البقيع [مسلم (٩٧٤)] فيدعو لهم ويستغفر كالمودع لهم؛ وبذلك أمره الله، وأمر النبي بحبتهم، ومولاتهم، ومعاودة من عاداهم.

١٣٢٢ - وروي عن كعب: ليس أحد من أصحاب محمد ﷺ إلا وله شفاعة يوم القيامة.

١٣٢٣ - وطلب من المغيرة بن نوفل أن يشفع له يوم القيامة.

١٣٢٤ - قال سهل بن عبد الله التستري: لم يؤمن بالرسول من لم يؤمن بأصحابه، ولم يُعزَّز أوامره.

فصل

ومن إعظامه وإكباره إعظام جميع أنسابه،
وأكرام مشاهديه وأمكنته من مكة والمدينة،
ومعاهديه، وما لَصَتْهُ عليه السلام أو عُرف به.

١٣٢٥ - وَرَوَى عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ نَجْدَةَ؛ قَالَتْ: كَانَ لِأَبِي مَخْذُومَةَ قُصَّةٌ فِي مَقْدَمِ رَأْسِهِ، إِذَا قَعَدَ وَأَرْسَلَهَا أَصَابَتْ الْأَرْضَ. فَقِيلَ لَهُ: أَلَا تَحْلِقُهَا؟ فَقَالَ: لَمْ أَكُنْ بِالَّذِي أَحْلِقُهَا، وَقَدْ مَسَّهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ.

١٣٢٦ - وَكَانَتْ فِي قَلَنْسُوءَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ شَعْرَاتٌ مِنْ شَعْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَقَطَتْ قَلَنْسُوءُهُ فِي بَعْضِ حُرُوبِهِ، فَشَدَّ عَلَيْهَا شَدَّةً أَنْكَرَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ كَثْرَةَ مَنْ قُتِلَ فِيهَا؛ فَقَالَ: لَمْ أَفْعَلْهَا بِسَبَبِ الْقَلَنْسُوءِ؛ بَلْ لِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ شَعْرِهِ - عَلَيْهِ السَّلَام - لَثَلَا أُسْلِبَ بَرَكَتُهَا وَتَقَعَ فِي أَيْدِي الْمَشْرِكِينَ.

١٣٢٧ - وَرَأَى ابْنُ عُمَرَ وَاضِعاً يَدَهُ عَلَى مَقْعَدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمِثْبَرِ، ثُمَّ وَضَعَهَا عَلَى وَجْهِهِ.

١٣٢٨ - وَلِهَذَا كَانَ مَالِكٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ - لَا يَرْكُبُ بِالْمَدِينَةِ دَابَّةً؛ وَكَانَ يَقُولُ: أَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ أَنْ أَطَأَ تُرْبَةً فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَافِرِ دَابَّةٍ.

١٣٢٩ - وَرَوَى عَنْهُ أَنَّهُ وَهَبَ لِلشَّافِعِيِّ كُرَاعاً كَثِيراً كَانَ عِنْدَهُ؛ فَقَالَ لَهُ الشَّافِعِيُّ: أَمْسِكْ مِنْهَا دَابَّةً. فَأَجَابَهُ بِمِثْلِ هَذَا الْجَوَابِ.

١٣٣٠ - وَقَدْ حَكَى أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ فُضْلَوَيْهِ الزَّاهِدِ - وَكَانَ مِنَ الْغُرَاةِ الرُّمَاءِ - أَنَّهُ قَالَ: مَا مَسَسْتُ الْقَوْسَ بِيَدِي إِلَّا عَلَى طَهَارَةٍ مِنْذُ بُلَغَنِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ الْقَوْسَ بِيَدِهِ.

١٣٣١ - وَقَدْ أَتَى مَالِكٌ فِيمَنْ قَالَ: - تُرْبَةُ الْمَدِينَةِ رَدِيَّةٌ - يُضْرَبُ ثَلَاثِينَ دِرَّةً، وَأَمْرٌ بِحَبْسِهِ، وَكَانَ لَهُ قَدْرٌ؛ وَقَالَ: مَا أَخَوَجَّهِ إِلَى ضَرْبِ عَقَبِهِ! تُرْبَةُ دُفْنٍ فِيهَا خَيْرُ الْبَشَرِ: النَّبِيُّ ﷺ، يَزْعُمُ أَنَّهَا غَيْرُ طَيِّبَةٍ!!

١٣٣٢ - وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ - عَلَيْهِ السَّلَام - فِي الْمَدِينَةِ: «مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُخْدِئًا فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ؛ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا» [البخاري (١٨٧٠)، مسلم (١٣٧٠)].

١٣٣٣ - وَحَكَى أَنَّ جَهْجَهَاءَ الْغِفَارِيِّ أَخَذَ قَضِيبَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ يَدِ عِثْمَانَ

رضي الله عنه وتناوله ليكسره على رُكْبته، فصاح به الناس، فأخذته الآكلَة في رُكْبته فقطعها، ومات قبل الحول.

١٢٣٤ - وقال عليه السلام: «مَنْ حَلَفَ عَلَى مِنبَرِي كَاذِبًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» [أبو داود (٣٢٤٦)، ابن ماجه (٢٣٢٥)].

١٢٣٥ - وَحُدِّثُ أَنَّ أَبَا الْفَضْلِ الْجَوْهَرِيَّ لَمَّا وَرَدَ الْمَدِينَةَ زَائِرًا، وَقَرَّبَ مِنْ بَيْوتِهَا تَرَجَّلَ وَمَشَى بَاكِيًا، يُنْشِدُ:

وَلَمَّا رَأَيْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدْعُ لَنَا فَوَادًا لِعَرْفَانِ الرُّسُومِ وَلَا لُبَا
نَزَلْنَا عَنِ الْأَكْوَارِ نَمْشِي كَرَامَةً لِمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ تُلِمْ بِهِ رُكْبَا

١٢٣٦ - وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ الْمُرِيدِينَ أَنَّهُ لَمَّا أَشْرَفَ عَلَى مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ أَنَشَدَ يَقُولُ مِثْلًا:

رُفِعَ الْحِجَابُ لَنَا فَلَاخَ لِنَظَرٍ قَمَرٌ تَقَطَّعَ دَوْنَهُ الْأَوْهَامُ
وَإِذَا الْمَطِيُّ بِنَا بَلَّغْنَ مُحَمَّدًا فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامُ
قَرَّبْنَنَا مِنْ خَيْرٍ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى وَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامُ

١٢٣٦م - وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ الْمَشَائِخِ أَنَّهُ حَجَّ مَاشِيًا؛ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ؛ فَقَالَ: الْعَبْدُ الْآبِقُ لَا يَأْتِي إِلَى بَيْتِ مَوْلَاهُ رَاكِبًا، لَوْ قَدَرْتُ أَنْ أَمْشِيَ عَلَى رَأْسِي مَا مَشَيْتُ عَلَى قَدَمَيَّ.

١٢٣٦م - قَالَ الْقَاضِي: وَجَدِيرٌ لِمَوَاطِنَ عُمُرَتِ بِالْوَحْيِ وَالتَّزْيِيلِ، وَتَرَدَّدَ بِهَا جَبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ، وَعَرَجَتْ مِنْهَا الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ، وَضَجَّتْ عَرَصَاتُهَا بِالتَّقْدِيسِ وَالتَّسْبِيحِ، وَاشْتَمَلَتْ تُرْبَتُهَا عَلَى جَسَدِ سَيِّدِ الْبَشَرِ، وَانْتَشَرَ عَنْهَا مِنْ دِينِ اللَّهِ وَسَنَةِ رَسُولِهِ ﷺ مَا انْتَشَرَ، مَدَارِسُ آيَاتٍ، وَمَسَاجِدُ صَلَوَاتٍ، وَمَشَاهِدُ الْفَضَائِلِ وَالْخَيْرَاتِ، وَمَعَاهِدُ الْبِرَاهِينِ وَالْمُعْجَزَاتِ، وَمَنَاسِكُ الدِّينِ، وَمَشَاعِرُ الْمُسْلِمِينَ، وَمَوَاقِفُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَمُتَّبِعُوا خَاتَمِ النَّبِيِّينَ - ﷺ وَعَلَى عَتْرَتِهِ أَجْمَعِينَ - حَيْثُ انْفَجَرَتِ النَّبُوءَةُ، وَأَيْنَ فَاضَ عِبَابُهَا؛ وَمَوَاطِنَ مَهْبِطِ الرِّسَالَةِ؛ وَأَوَّلَ أَرْضِ مَسِّ جِلْدِ الْمُصْطَفَى تُرَابُهَا، أَنْ تُعْظَمَ عَرَصَاتُهَا، وَتُنْتَسَمَ نَفَحَاتُهَا، وَتُقْبَلَ رُبُوعُهَا وَجُذْرَانُهَا:

يَا دَارَ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ وَمَنْ بِهِ هُدًى الْأَنَامِ وَخُصَّ بِالْآيَاتِ
عِنْدِي لِأَجْلِكَ لَوْعَةٌ وَصَبَابَةٌ وَتَشَوُّقٌ مُتَوَقِّدُ الْجَمَرَاتِ
وَعَلَيَّ عَهْدٌ إِنْ مَلَأْتُ مَحَاجِرِي مِنْ تِلْكَ الْجُذُرَانِ وَالْعَرَصَاتِ

لَأَعْفِرَنَّ مَضُوءَ شَيْبِي بَيْنَهَا
لَوْلَا الْعَوَادِي، وَالْأَعَادِي زُرْتُهَا
لَكِن سَأْهَدِي مِنْ حَفِيلِ تَحِيَّتِي
أَزْكَى مِنَ الْمِسْكِ الْمُفْتَقِ نَفْحَةً
وَتَخْصُهُ بِزَوَاكِي الصَّلَوَاتِ
مِنْ كَثْرَةِ التَّقْبِيلِ وَالرَّشْفَاتِ
أَبْدَأُ وَلَوْ سَخَباً عَلَى الْوَجْنَاتِ
لِقَطِينِ تِلْكَ الدَّارِ وَالْحُجُرَاتِ
تَغْشَاهُ بِالْأَصَالِ وَالْبُكْرَاتِ
وَنَوَامِي التَّسْلِيمِ وَالْبَرَكَاتِ



الباب الرابع

فِي ذِكْرِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَالتَّسْلِيمِ وَقَرْضِ ذَلِكَ وَفَضِيلَتِهِ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

١٣٣٧ - قال ابن عباس: معناه: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُبَارِكُونَ عَلَى النَّبِيِّ.

وقيل: إِنَّ اللَّهَ يَتَرَحَّمُ عَلَى النَّبِيِّ، وَمَلَائِكَتُهُ يَدْعُونَ لَهُ.

قال المبرد: وأصل الصَّلَاةِ التَّرحُّمُ، فهي مِنَ اللَّهِ رَحْمَةٌ، ومن الملائكة رِقَّةٌ واستدعاءٌ للرحمة من الله.

١٣٣٨ - وقد ورد في الحديث صِفَةُ صَلَاةِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى مَنْ جَلَسَ يَنْتَظِرُ

الصَّلَاةَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ» [البخاري (٦٥٩)، مسلم (٢٧٢/٦٤٩)] فهذا دُعاء.

١٣٣٩ - وقال بَكْرُ الْقُشَيْرِيُّ: الصَّلَاةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ دُونَ النَّبِيِّ ﷺ

رَحْمَةً، وَلِلنَّبِيِّ ﷺ تَشْرِيفٌ وَزِيَادَةٌ تَكْرِمَةً.

١٣٤٠ - وقال أبو العالية: صَلَاةُ اللَّهِ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، وَصَلَاةُ

الْمَلَائِكَةِ الدُّعَاءُ.

١٣٤١ - قال القاضي أبو الفضل: وقد فَرَّقَ النَّبِيُّ ﷺ - فِي حَدِيثِ تَعْلِيمِ

الصَّلَاةِ عَلَيْهِ - بَيْنَ لَفْظِ الصَّلَاةِ وَلَفْظِ الْبَرَكَةِ؛ فَدَلَّ أَنَّهُمَا بِمَعْنَيْنِ.

١٣٤٢ - وَأَمَّا التَّسْلِيمُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ عِبَادَهُ فَقَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بِنَ

بُكَيْرٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَمَرَ اللَّهُ أَصْحَابَهُ أَنْ يَسْلَمُوا عَلَيْهِ؛

وكَذَلِكَ مَنْ بَعْدَهُمْ أُمِرُوا أَنْ يَسْلَمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ حُضُورِهِمْ قَبْرَهُ، وَعِنْدَ

ذِكْرِهِ.

وفي معنى السلام عليه ثلاثة وجوه:

أحدها: السلامة لك ومعك، ويكونُ السلامُ مَصْدَرًا كَاللَّذَاذِ وَاللَّذَاذَةُ.

الثاني: أي السلام على حفظك ورعايتك مُتَوَلٍّ له، وكَفِيل به، ويكون - هنا - السلام: اسْمُ الله.

الثالث: أَنَّ السلامَ بمعنى المُسالمة له والانقياد؛ كما قال: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فصل

فِي حُكْمِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ

واعلم أن الصلاة على النبي ﷺ فَرَضٌ عَلَى الجملة، غير محدد بوقت، لأمر الله تعالى بالصلاة عليه، وحمل الأئمة والعلماء له على الوجوب، وأجمعوا عليه.

وحكى أبو جعفر: محمد بن جرير الطبري - رحمه الله - أَنَّ مَحْمَلَ الآية عنده على التذنب؛ وادَّعى فيه الإجماع؛ ولعله فيما زاد على مرة؛ والواجب منه الذي يَسْقُطُ به الحَرَجُ ومَأْتَمُ ترك الفَرَضِ مرة؛ كالشهادة له بالنبوة؛ وما عدا ذلك مندوبٌ مُرَغَّبٌ فيه، من سنن الإسلام وشيعار أهله.

قال القاضي أبو الحسن بن القصار: المشهور عن أصحابنا أَنَّ ذلك واجب في الجملة على الإنسان، وفرض عليه أن يأتي بها مرة من ذفره مع القدرة على ذلك.

وقال القاضي أبو بكر بن بكير: افترض الله على خلقه أن يصلُّوا على نبيه ويسلموا تسليماً، ولم يجعل ذلك لوقت معلوم؛ فالواجب أن يُكثِرَ المرءُ منها، ولا يَغْفُلَ عنها.

قال القاضي أبو محمد بن نضر: الصلاة على النبي ﷺ واجبة في الجملة.

قال القاضي أبو عبد الله: محمد بن سعيد: ذهب مالك وأصحابه وغيرهم من أهل العلم أَنَّ الصلاة على النبي ﷺ فرض بالجملة بعقد الإيمان، لا تتعين فيه الصلاة، وأن مَنْ صَلَّى عليه مرة واحدة في عُمره سقط الفَرَضُ عنه.

وقال أصحاب الشافعي: الفَرَضُ منها الذي أمر الله تعالى به ورسوله عليه السلام هو في الصلاة.

وقالوا: وأما في غيرها فلا خلاف أنها غَيْرُ واجبة.

وأما في الصلاة فحكى الإمامان أبو جعفر: محمد بن جرير الطبري، والطحاوي وغيرهما إجماع جميع المتقدمين والمتأخرين من علماء الأئمة على أن الصلاة على النبي ﷺ في التشهد غير واجبة.

وشد الشافعي في ذلك؛ فقال: «مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ بَعْدِ التَّشَهُّدِ الْآخِرِ وَقَبْلَ السَّلَامِ فَصَلَاتُهُ بَاطِلَةٌ فَاسِدَةٌ، وَإِنْ صَلَّى عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ لَمْ تَعْزِهِ» وَلَا سَلَفَ لَهُ فِي هَذَا الْقَوْلِ وَلَا سُنَّةٌ يَتَّبِعُهَا.

وقد بالغ في إنكار هذه المسألة عليه - لمخالفته فيها مَنْ تَقَدَّمَه - جماعة، وشنعوا عليه الخلاف فيها، منهم الطبري، والقشيري، وغير واحد.

وقال أبو بكر بن المنذر: يَسْتَحَبُّ أَلَّا يُصَلِّيَ أَحَدٌ صَلَاةً إِلَّا صَلَّى فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَإِنْ تَرَكَ ذَلِكَ تَارَكَ فَصَلَاتُهُ مُجْزِئَةٌ فِي مَذْهَبِ مَالِكٍ، وَأَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وَأَهْلِ الْكُوفَةِ مِنْ أَصْحَابِ الرَّأْيِ وَغَيْرِهِمْ. وَهُوَ قَوْلُ جُمْهُلِ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَحَكَى عَنْ مَالِكٍ وَسُفْيَانَ أَنَّهَا فِي التَّشَهُّدِ الْآخِرِ مُسْتَحَبَّةٌ، وَأَنَّ تَارِكَهَا فِي التَّشَهُّدِ مُسِيءٌ.

وشد الشافعي فَأَوْجَبَ عَلَى تَارِكِهَا فِي الصَّلَاةِ الْإِعَادَةَ؛ وَأَوْجَبَ إِسْحَاقُ أَيْضاً الْإِعَادَةَ مَعَ تَعَمُّدِ تَرْكِهَا دُونَ الشُّيَانِ.

وحكى أبو محمد بن أبي زَيْدٍ، عَنْ - مُحَمَّدِ بْنِ الْمَوَّازِ - أَنَّ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَرِيضَةٌ.

قال أبو محمد: يَرِيدُ لَيْسَتْ مِنْ فَرَائِضِ الصَّلَاةِ؛ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ وَغَيْرُهُ.

وحكى ابْنُ الْقَضَائِ وَغَيْرُهُ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْمَوَّازِ - يَرَاهَا فَرِيضَةً فِي الصَّلَاةِ كَقَوْلِ الشَّافِعِيِّ.

وحكى أَبُو يَعْلَى الْعَبْدِيُّ الْمَالِكِيُّ عَنِ الْمَذْهَبِ فِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ فِي الصَّلَاةِ: الْوَجُوبُ، وَالتَّذَبُّبُ، وَالسَّنَةُ.

وقد خالف الخطابي - مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ - وَغَيْرُهُ الشَّافِعِيَّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ؛ قَالَ الْخَطَّابِيُّ: وَلَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ فِي الصَّلَاةِ؛ وَهُوَ قَوْلُ جَمَاعَةِ الْفُقَهَاءِ إِلَّا الشَّافِعِيَّ؛ وَلَا أَعْلَمُ لَهُ فِيهَا قَدْوَةٌ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ فَرَائِضِ الصَّلَاةِ عَمَلُ السَّلَفِ الصَّالِحِ قَبْلَ الشَّافِعِيِّ، وَإِجْمَاعُهُمْ عَلَيْهِ.

وقد شئع الناس عليه في هذه المسألة جداً.

١٣٤٣ - وهذا تشهد ابن مسعود [البخاري (٨٣١)، مسلم (٤٠٢)] الذي اختاره الشافعي، وهو الذي علمه له النبي ﷺ، ليس فيه الصلاة على النبي ﷺ.

١٣٤٤ حتى ١٣٥٠ - وكذلك كل من يزوي التشهد عن النبي ﷺ، كأبي هريرة، وابن عباس [مسلم (٤٠٣)]، وجابر [النسائي (٣٤٣/٢)]، وابن عمر [أبو داود (٩٧١)]، وأبي سعيد الخدري، وأبي موسى الأشعري [مسلم (٤٠٤)]، وعبد الله بن الزبير لم يذكروا فيه صلاة على النبي ﷺ.

١٣٥١، ١٣٥٢ - وقد قال ابن عباس، وجابر: كان النبي ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن [مسلم (٤٠٣)].

١٣٥٣ - ونحوه عن أبي سعيد.

١٣٥٤ - وقال ابن عمر: كان أبو بكر يعلمنا التشهد على المنبر كما يعلمون الصبيان في الكتاب.

١٣٥٥ - وعلمه أيضاً على المنبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

١٣٥٦ - وفي الحديث: «لا صلاة لمن لم يصل علي» [ابن ماجه (٤٠٠)].

قال ابن القصار: معناه: كاملة؛ أو لمن لم يصل علي مرة في عمره. وضعف أهل الحديث كلهم رواية هذا الحديث.

١٣٥٧ - وفي حديث أبي جعفر، عن أبي مسعود، عن النبي ﷺ: «من صلى صلاة لم يصل فيها علي وعلى أهل بيتي لم تقبل منه».

١٣٥٨ - قال الدارقطني: الصواب أنه من قول أبي جعفر: محمد بن علي بن الحسين: لو صليت صلاة لم أصل فيها على النبي ﷺ ولا على أهل بيته لرأيت أنها لا تتم.

فصل

في المواطن التي يستحب فيها الصلاة والسلام

على النبي ﷺ ويؤخذ

من ذلك في تشهد الصلاة كما قدمناه؛ وذلك بعد التشهد وقبل الدعاء.

١٣٥٩ - حدثنا أبو علي القاضي بقراءتي عليه - رحمه الله - قال: حدثنا الإمام أبو القاسم البلخي قال: حدثنا الفارسي، عن أبي القاسم الخزاعي، عن أبي سعيد: الهيثم بن كليب، عن أبي عيسى الحافظ قال: حدثنا محمود بن غيلان،

حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا حيوة بن شريح، حدثني أبو هانيء الخولاني أن عمرو بن مالك الجني، أخبره أنه سمع فضالة بن عبيد يقول: سمع النبي ﷺ رجلاً يذعو في صلاته، فلم يصل على النبي ﷺ؛ فقال النبي ﷺ: «عجل هذا». ثم دعا فقال له ولغيره: «إذا صلي أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه، ثم ليصل على النبي ﷺ؛ ثم ليندع بعد بما شاء» [الترمذي (٣٤٧٧)، أبو داود (١٤٨١)، النسائي (٤٤/٣)].

وروي من غير هذا السند: «بتحميد الله» وهو أصح.

١٣٦٠ - وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: الدعاء والصلاة معلق بين السماء والأرض؛ فلا يصعد إلى الله منه شيء حتى يصلي على النبي ﷺ [الترمذي (٤٨٦)].

١٣٦١ - وعن علي بن أبي طالب، عن النبي ﷺ بمعناه؛ وقال: وعلى آل محمد.

١٣٦٢ - وروي أن الدعاء محجوب حتى يصلي الداعي على النبي ﷺ.

١٣٦٣ - وعن ابن مسعود: إذا أراد أحدكم أن يسأل الله شيئاً فليبدأ بمذحه والثناء عليه بما هو أهله؛ ثم يصلي على النبي ﷺ؛ ثم ليسأل؛ فإنه أجدر أن يتجح.

١٣٦٤ - وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوني كفاح الركاب؛ فإن الركاب يملأ قدحه ثم يضعه، ويرفع متاعه؛ فإن احتاج إلى شراب شربه، أو الوضوء توضأ، وإلا هراقه؛ ولكن اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره».

١٣٦٥ - وقال ابن عطاء: للدعاء أركان وأجنحة وأسباب وأوقات؛ فإن وافق أركانه قوي، وإن وافق أجنحته طار في السماء، وإن وافق مواعيته فاز، وإن وافق أسبابه أنجح؛ فأركانه: حضور القلب، والرقعة، والاستكانة والخشوع، وتعلق القلب بالله، وقطعه من الأسباب، وأجنحته: الصدق. ومواعيته: الأسحار، وأسبابه: الصلاة على محمد ﷺ.

١٣٦٦ - وفي الحديث: «الدعاء بين الصلاتين علي لا يرد».

١٣٦٧ - وفي حديث آخر: «كل دعاء محجوب دون السماء، فإذا جاء الصلاة علي صعد الدعاء».

١٣٦٨ - وفي دعاء ابن عباس الذي رواه عنه حشش؛ فقال في آخره:

وَاسْتَجِبْ دُعَائِي، ثُمَّ يَبْدَأُ بِالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فيقول: اللهم! إني أسألك أن تُصَلِّيَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَنَبِيِّكَ وَرَسُولِكَ أَفْضَلَ مَا صَلَّيْتَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ أَجْمَعِينَ آمِينَ.

وَمِنْ مَوَاطِنِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ: عِنْدَ ذِكْرِهِ، وَسَمَاعِ اسْمِهِ، أَوْ حَدِيثِهِ، أَوْ عِنْدَ الْأَذَانِ.
١٣٦٩ - وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عَنْده فَلَمْ يَصَلِّ عَلَيَّ» [الترمذي (٣٥٤٥)].

وَكَرِهَ ابْنُ حَبِيبٍ ذِكْرَ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ الذَّنْبِ.
وَكَرِهَ سُخْنُونَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ عِنْدَ التَّعَجُّبِ؛ وَقَالَ: لَا يَصَلِّي عَلَيْهِ إِلَّا عَلَى طَرِيقِ الْإِحْتِسَابِ، وَطَلَبَ الثَّوَابِ.

قَالَ أَضْبَغُ، عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ: مَوْطِنَانِ لَا يُذْكَرُ فِيهِمَا إِلَّا اللَّهُ: الذَّبِيحَةُ، وَالْعُطَاسُ؛ فَلَا تَقُلْ فِيهِمَا بَعْدَ ذِكْرِ اللَّهِ؛ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ. وَلَوْ قَالَ بَعْدَ ذِكْرِ اللَّهِ: صَلَّيْ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ لَمْ يَكُنْ تَسْمِيَةً لَهُ مَعَ اللَّهِ.

وَقَالَه أَشْهَبُ؛ قَالَ: وَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَجْعَلَ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِيهِ اسْتِثْنَاءً.
١٣٧٠ - وَرَوَى النَّسَائِيُّ، عَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: الْأَمْرُ بِالْإِكْتَارِ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ [النسائي (٣/ ٩١-٩٢)، أَبُو دَاوُدَ (١٠٤٧)، ابْنُ مَاجَهَ (١٠٨٥)].

وَمِنْ مَوَاطِنِ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ دُخُولَ الْمَسْجِدِ:

١٣٧١ - قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ بْنِ شَعْبَانَ: وَيَنْبَغِي لِمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَعَلَى آلِهِ، وَيَتَرَحَّمُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَيُبَارِكُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ، وَيَسْلُمُ تَسْلِيمًا؛ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ».
وَإِذَا خَرَجَ فَعَلْ مِثْلَ ذَلِكَ، وَجْعَلْ مَوْضِعَ «رَحْمَتِكَ» «فَضْلِكَ».

١٣٧٢ - وَقَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى -: «فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» [النور: ٦١] - قَالَ: إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

١٣٧٣ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمَرَادُ بِالْبُيُوتِ - ههنا - الْمَسَاجِدُ.

١٣٧٤ - وَقَالَ التَّحَّيُّ: إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْمَسْجِدِ أَحَدٌ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ.

١٣٧٥ - وعن عَلْقَمَةَ: إِذَا دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ أَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ! وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ.

١٣٧٦ - وَنَحْوُهُ عَنْ كَعْبٍ: إِذَا دَخَلَ، وَإِذَا خَرَجَ، وَلَمْ يَذْكُرِ الصَّلَاةَ.

١٣٧٧ - وَاحْتِجَّ ابْنُ شُعْبَانَ - لَمَّا ذَكَرَهُ - بِحَدِيثِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَفْعَلُهُ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ [التِّرْمِذِيُّ (٣١٤)، ابْنُ مَاجَهَ (٧٧١)، أَحْمَدُ (٢٨٢/٦)].

١٣٧٨ - وَمِثْلُهُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ. وَذَكَرَ السَّلَامَ وَالرَّحْمَةَ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا الْحَدِيثَ آخِرَ الْقِسْمِ، وَالِاخْتِلَافَ فِي أَلْفَاظِهِ.

١٣٧٩ - وَمِنْ مَوَاطِنِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ أَيْضاً عِنْدَ الصَّلَاةِ عَلَى الْجَنَائِزِ.

وَذَكَرَ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّهَا مِنَ السَّنَةِ [النَّسَائِيُّ (٧٥/٤)].

وَمِنْ مَوَاطِنِ الصَّلَاةِ الَّتِي مَضَى عَلَيْهَا عَمَلُ الْأُمَّةِ، وَلَمْ تُنْكَرْهَا: الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ وَعَلَى آلِهِ فِي الرِّسَالِ، وَمَا يُكْتَبُ بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ؛ وَلَمْ يَكُنْ هَذَا فِي الصُّدْرِ الْأَوَّلِ؛ وَأُخْدِتْ عِنْدَ وَلَايَةِ بَنِي هَاشِمٍ، فَمَضَى بِهِ عَمَلُ النَّاسِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْتِمُ بِهِ أَيْضاً الْكُتُبَ.

١٣٨٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي كِتَابٍ لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ

تَسْتَغْفِرُ لَهُ مَا دَامَ اسْمِي فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ».

وَمِنْ مَوَاطِنِ السَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ تَشَهُدُ الصَّلَاةَ.

١٣٨١ - حَدَّثَنَا أَبُو الْقَاسِمِ: خَلْفَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمَقْرِيِّ الْخَطِيبِ رَحِمَهُ اللَّهُ،

وغيره قال: حَدَّثَنِي كَرِيمَةُ بِنْتُ أَحْمَدَ؛ قَالَتْ: حَدَّثَنَا أَبُو الْهَيْثَمِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ

يُوسُفَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ

شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَ: «إِذَا صَلَّيْتَ

أَحَدَكُمْ فَلْيَقُلْ: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ، أَيُّهَا النَّبِيُّ!

وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ؛ فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمُوهَا

أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» [الْبُخَارِيُّ (٨٣١)، مُسْلِمٌ (٤٠٢)].

هَذَا أَحَدُ مَوَاطِنِ التَّسْلِيمِ عَلَيْهِ؛ وَسُنَّتُهُ أَوَّلُ التَّشَهُدِ.

١٣٨٢ - وَقَدْ رَوَى مَالِكٌ، عَنْ ابْنِ عُمرَ: أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ إِذَا فَرَغَ مِنْ

تَشَهُدِهِ وَأَرَادَ أَنْ يُسَلِّمَ.

وَاسْتَحَبَّ مَالِكٌ فِي «الْمَبْسُوطِ» أَنْ يُسَلِّمَ بِمِثْلِ ذَلِكَ قَبْلَ السَّلَامِ.

١٣٨٣ - قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: أَرَادَ مَا جَاءَ عَنْ عَائِشَةَ وَابْنِ عُمرَ أَنَّهُمَا كَانَا

يَقُولَانِ عِنْدَ سَلَامِهِمَا: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ! وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ. السَّلَامُ عَلَيْكُمْ.

وَاسْتَحَبَّ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنْ يَنْوِي الْإِنْسَانُ حِينَ سَلَامِهِ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَبَنِي آدَمَ وَالْجِنِّ.

قَالَ مَالِكٌ فِي «الْمَجْمُوعَةِ»: «وَأَجِبْ لِلْمَأْمُومِ إِذَا سَلَّمَ إِمَامُهُ أَنْ يَقُولَ: السَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ. السَّلَامُ عَلَيْكُمْ».

فصل

فِي كَيْفِيَّةِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَالتَّسْلِيمِ

١٣٨٤ - حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ: إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ الْفَقِيهَ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، حَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو الْأَصْبَغِ، حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَتَّابٍ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ وَاغِدٍ وَغَيْرُهُ، قَالُوا: حَدَّثَنَا أَبُو عَيْسَى، حَدَّثَنَا غُبَيْدُ اللَّهِ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ سُلَيْمٍ الزُّرْقِيِّ أَنَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو حُمَيْدٍ السَّاعِدِيُّ أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ» [البخاري (٣٣٦٩)، مسلم (٤٠٧)].

١٣٨٥ - وَفِي رِوَايَةِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ؛ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ. وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ» [مسلم (٤٠٥)].

١٣٨٦ - وَفِي رِوَايَةِ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ: «اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ» [البخاري (٦٣٥٧)، مسلم (٤٠٦)].

١٣٨٧ - وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ حُدَيْشَةَ: «اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ» [أَبُو دَاوُدَ (٩٨١)، مسلم (٤٠٥)].

١٣٨٨ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: «اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ...» [البخاري (٦٣٥٨)].

١٣٨٩ - حدثنا القاضي أبو عبد الله التميمي سماعاً عليه، وأبو علي:

الحسن بن طريف النخوي بقراءتي عليه؛ قالوا: حدثنا أبو عبد الله بن سعدون
الفيهي، حدثنا أبو بكر المطوعي، حدثنا أبو عبد الله الحاكم، عن أبي بكر بن أبي
دارم الحافظ، عن علي بن أحمد العجلي، عن حزب بن الحسن، عن يحيى بن
المساور، عن عمرو بن خالد عن زيد بن علي بن الحسين عن أبيه علي، عن أبيه
الحسين، عن أبيه علي بن أبي طالب؛ قال: عَدَّهْنُ فِي يَدَي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،
وقال: «عَدَّهْنُ فِي يَدَي جَبْرِيلَ، وقال: هَكَذَا نَزَلَتْ مِنْ عِنْدِ رَبِّ الْعَرْزَةِ؛ اللَّهُمَّ!
صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ،
إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ، اللَّهُمَّ! بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى
إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ. اللَّهُمَّ وَتَرَحَّمْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى
آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا تَرَحَّمْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ.

اللَّهُمَّ! وَتَحَنَّنْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا تَحَنَّنْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ،
وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ، اللَّهُمَّ! وَسَلِّمْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ،
كَمَا سَلَّمْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ.

١٣٩٠ - وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْتَنَالَ بِالْمِكْيَالِ
الْأَوْفَى إِذَا صَلَّيْنا عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، النَّبِيِّ، وَأَزْوَاجِهِ
أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَذُرِّيَّتِهِ، وَأَهْلَ بَيْتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ
مُجِيدٌ» [أبو داود (٩٨٢)].

١٣٩١ - وفي رواية زيد بن خزيمة الأنصاري: سألت النبي ﷺ: كيف
نُصَلِّي عَلَيْكَ؟

فقال: «صَلُّوا عَلَيَّ واجتهدوا في الدعاء، ثم قولوا: اللَّهُمَّ! بَارِكْ عَلَى
مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ» [النسائي
(٤٩٣)، أحمد (١٩٩/١)].

١٣٩٢ - وعن سلامة الكندي: كان علي - رضي الله عنه - يعلمنا الصلاة
على النبي ﷺ فيقول: اللَّهُمَّ! دَاجِي الْمَدْحُوتَاتِ، وَبَارِي الْمَسْمُوكَاتِ، اجْعَلْ
شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ، وَتَوَاصِي بَرَكَاتِكَ، وَرَأْفَةَ تَحَنُّنِكَ عَلَى مُحَمَّدٍ، عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ،
الْفَاتِحِ لِمَا أُغْلِقُ، وَالْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ، وَالْمُغْلِبِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ، وَالْدَائِمِ لِحَيَّاتِ
الْأَبَاطِيلِ، كَمَا حُمِّلَ، فَاضْطَلَعَ بِأَمْرِكَ لَطَاعَتِكَ، مُسْتَوْفِزاً فِي مَرْضَاتِكَ، وَإِعْيَا
لَوْحِكَ، حَافِظاً لِعَهْدِكَ، مَاضِياً عَلَى نَفَاقِ أَمْرِكَ، حَتَّى أَوْزَى قَبْساً لِقَابِسِ، آلاءَ اللَّهِ

تَصِلُ بِأَهْلِهِ أَسْبَابَهُ. بِهِ هُلِيَّتِ الْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَاتِ الْفِتَنِ وَالْإِثْمِ، وَأَبْهَجَ مُوَضِّحَاتِ الْأَعْلَامِ، وَنَائِرَاتِ الْأَحْكَامِ، وَمُنِيرَاتِ الْإِسْلَامِ؛ فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وَخَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونُ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وَبِعَيْتِكَ نِعْمَةٌ، وَرَسُولُكَ بِالْحَقِّ رَحْمَةٌ؛ اللَّهُمَّ! افْسَحْ لَهُ فِي عَذْبِكَ، وَاجْزِهِ مَضَاعِفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ، مُهَنْتَاتٍ لَهُ غَيْرِ مُكْدَّرَاتٍ، مِنْ فَوْزِ ثَوَابِكَ الْمَحْلُولِ، وَجَزِيلِ عَطَائِكَ الْمَعْلُولِ.

اللَّهُمَّ! أَغْلِ عَلَى بِنَاءِ النَّاسِ بِنَاءَهُ، وَأَكْرِمْ مَثْوَاهُ لَدُنْكَ وَنَزْلَهُ، وَأَيِّمَ لَهُ نَوْرَهُ، وَاجْزِهِ مِنْ ابْتِعَانِكَ لَهُ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ، وَمَرْضَى الْمَقَالَةِ، ذَا مَنْطِقٍ عَدْلٍ، وَخُطْبَةٍ قُضِلَ، وَبُرْهَانٍ عَظِيمٍ.

١٣٩٣ - وعنه أيضاً في الصلاة على النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

لَيْتَكَ اللَّهُمَّ! رَبِّي وَسَعْدِيكَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ الْبَرِّ الرَّحِيمِ، وَالْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، وَالنَّبِيِّينَ وَالصُّدُوقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَمَا سَبَّحَ لَكَ مِنْ شَيْءٍ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ! عَلَى مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَرَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ الشَّاهِدِ الْبَشِيرِ، الدَّاعِي إِلَيْكَ بِإِذْنِكَ، وَالسَّرَاجِ الْمُنِيرِ؛ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ.

١٣٩٤ - وعن عبدالله بن مسعود: اللَّهُمَّ! اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَبَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ؛ إِمَامِ الْخَيْرِ، وَرَسُولِ الرَّحْمَةِ.

اللَّهُمَّ! ابْعَثْهُ مَقَاماً مَحْمُوداً يَغِظُهُ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ. اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَآلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ؛ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ [ابن ماجه (٩٠٦)].

١٣٩٥ - وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَقُولُ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَشْرَبَ بِالْكَأْسِ الْأَوْفَى مِنْ خَوْضِ الْمَضْطَفِّ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَأَوْلَادِهِ، وَأَزْوَاجِهِ، وَذُرِّيَّتِهِ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ، وَأَصْحَارِهِ، وَأَنْصَارِهِ وَأَشْيَاعِهِ وَمُحِبِّينِهِ وَأُمَّتِهِ؛ وَعَلَيْنَا، مَعَهُمْ أَجْمَعِينَ. يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ!

١٣٩٦ - وعن طاووس، عن ابن عباس. أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ! تَقَبَّلْ شَفَاعَةَ مُحَمَّدٍ الْكَبِيرِ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ الْعُلْيَا، وَأَتِهِ سُؤْلُهُ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى، كَمَا آتَيْتَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى.

١٣٩٧ - وعن وهيب بن الورد أنه كان يقول في دُعائه: اللهم! أعْطِ محمدًا أفضلَ ما سألَكَ لنفسه، وأعْطِ محمدًا أفضلَ ما سألَكَ له أحدٌ مِنْ خَلْقِكَ، وأعْطِ محمدًا أفضلَ ما أَنْتَ مسؤولٌ له إلى يومِ القيامةِ.

١٣٩٨ - وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عنه أنه كان يقول: إذا صَلَّيْتُمْ على النبي - عليه السلام - فَأَحْسِنُوا الصَّلَاةَ عليه؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَذَرُون، لَعَلَّ ذَلِكَ يُغَرِّضُ عليه؛ وقولوا: اللهم! اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَرَحْمَتَكَ وبركاتِكَ على سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وإمامِ الْمُتَّقِينَ، وخاتمِ النَّبِيِّينَ، محمدِ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، إمامِ الْخَيْرِ، وقائدِ الْخَيْرِ، وَرَسُولِ الرَّحْمَةِ.

اللهم! ابْعَثْهُ مقاماً محموداً، يَغِطُّهُ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ؛ اللَّهُمَّ! صَلِّ على محمد، وعلى آلِ محمد، كما صَلَّيْتَ على إبراهيم، وعلى آلِ إبراهيم، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ.

اللهم! بَارِكْ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ محمد، كما بَارَكْتَ على إبراهيم، وعلى آلِ إبراهيم إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ.

وما يُؤَثِّرُ في تطويل الصلاة، وتكثير الثناء على أهل البيت، وغيرهم، كثير. ١٣٩٩ - وقوله: «وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ» [مسلم (٤٠٥)] هو ما عَلَّمَهُمُ اللَّهُ فِي التَّشَهُّدِ مِنْ قَوْلِهِ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ! وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ».

١٤٠٠ - وفي تشهُّدِ عليّ - رضي الله عنه -: السَّلَامُ على نبيِّ اللَّهِ - ﷺ - السَّلَامُ على أنبياءِ اللَّهِ ورُسُلِهِ، السَّلَامُ على رسولِ اللَّهِ، السَّلَامُ على محمد بنِ عبدِ اللَّهِ، السَّلَامُ عَلَيْنَا، وعلى المؤمنين والمؤمنات، مَنْ غَابَ مِنْهُمْ وَمَنْ شَهِدَ. اللهم! اغْفِرْ لِمُحَمَّدٍ، وَتَقَبَّلْ شَفَاعَتَهُ، وَاغْفِرْ لِأَهْلِ بَيْتِهِ، وَاغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي وَمَا وَلَدْنَا، وَارْحَمَهُمَا.

السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، السَّلَامُ عَلَيْكَ، أَيُّهَا النَّبِيُّ! وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

جاء في هذا الحديث عن عليّ - رضي الله عنه -: الدُّعَاءُ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِالْغُفْرَانِ.

وفي حديث الصلاة عليه أيضاً قَبْلُ: الدُّعَاءُ لَهُ بِالرَّحْمَةِ؛ وَلَمْ يَأْتِ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ الْمَعْرُوفَةِ.

وقد ذهب أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، وَغَيْرُهُ إِلَى أَنَّهُ لَا يُدْعَى لِلنَّبِيِّ - ﷺ -

بالرحمة؛ وإنما يُدْعَى له بالصلاة والبركة التي تختص به، ويُدْعَى لغيره بالرحمة والمغفرة.

١٤٠١ - وقد ذكر أبو محمد بن أبي زَيْد في الصلاة على النبي ﷺ: اللهم! ارحم محمداً، وآل محمد، كما ترحمت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم. ولم يأت هذا في حديث صحيح. وحجته قوله في السلام: «السلام عليك أيها النبي! ورحمة الله وبركاته».

فصل

فِي فَضِيلَةِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْتَسْلِيمِ عَلَيْهِ وَالدُّعَاءِ لَهُ

١٤٠٢ - أخبرنا أحمد بن محمد الشيخ الصالح من كتابه، حدثنا القاضي يونس بن مغيث، حدثنا أبو بكر بن معاوية، حدثنا النسائي، حدثنا سُويد بن نصر، حدثنا عبد الله، عن حَيَّوَةَ بن شَرِيح؛ قال: أخبرني كَعْبُ بن عُلْقَمَةَ أنه سَمِعَ عبدالرحمن بن جُبَيْر: مَوْلَى نافع، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، وصلُّوا علي؛ فإنه مَنْ صَلَّيَ عليّ مرة واحدة صَلَّى اللهُ عليه بها عَشْرًا؛ ثُمَّ سَلُّوا اللهُ لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي، إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وأرجو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ؛ فَمَنْ سَأَلَ اللهُ لي الوسيلة حُلَّتْ عليه الشَّفَاعَةُ» [النسائي (٢٥/٢)، مسلم (٣٨٤)].

١٤٠٣ - وعن أنس بن مالك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَنْ صَلَّيَ عَلَيَّ صَلَاةً، صَلَّى اللهُ عليه عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَحُطَّ عَنْهُ عَشْرَ خَطِيئَاتٍ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ» [النسائي (٥٠/٣)].

١٤٠٤ - وفي رواية: «وكتب له عَشْرَ حَسَنَاتٍ» [أحمد (٢٦٢/٢)، الترمذي (٤٨٤)].

١٤٠٥ - وعن أنس، عنه عليه السلام: «إِنَّ جَبْرِيلَ نَادَانِي، فَقَالَ: مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عليه عَشْرًا، وَرَفَعَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ».

١٤٠٦ - وفي رواية عبدالرحمن بن عوف، عنه عليه السلام: «لَقِيتُ جَبْرِيلَ فَقَالَ لِي: إِنِّي أَبْشُرُكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: مَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْكَ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ» [أحمد (١٩١/١)].

١٤٠٧ - ونحوه مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ [مسلم (٤٠٨)].

١٤٠٨ - ومالك بن أوس بن الحدَّانِ.

١٤٠٩ - وعُبَيْدُ اللَّهِ بن أَبِي طَلْحَةَ [النسائي (٤٤/٣)، (٥٠)].

١٤١٠ - وعن زَيْد بن حُجَابٍ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَالَ: اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَأَنْزِلْهُ الْمُنْزَلَ الْمُقَرَّبَ عِنْدَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي» [أحمد (١٠٨/٤)].

١٤١١ - وعن ابن مسعود: «أَوَّلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً» [الترمذي (٤٨٤)].

١٤١٢ - وعن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي كِتَابٍ لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تَسْتَغْفِرُ لَهُ مَا بَقِيَ اسْمِي فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ».

١٤١٣ - وعن عامر بن ربيعة: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّيْتُ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ مَا صَلَّى عَلَيَّ، فَلْيُقِلَّ مِنْ ذَلِكَ عَبْدٌ أَوْ فَلْيُكْثِرْ» [ابن ماجه (٩٠٧)، أحمد (٤٤٥/٣)].

١٤١٤ - وعن أَبِي بِن كَعْبٍ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ رُبْعُ اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! اذْكُرُوا اللَّهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ، تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ».

فَقَالَ أَبُو بِن كَعْبٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أَكْثَرُ الصَّلَاةِ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟

قَالَ: «مَا شِئْتَ». قَالَ: الرَّبْعُ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ».

قَالَ: الثَّلَاثُ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ».

قَالَ: النِّصْفُ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ».

قَالَ: الثَّلَاثِينَ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَأَجْعَلُ صَلَاتِي كُلَّهَا لَكَ؟ قَالَ: «إِذَا تَكْفَى وَيُغْفَرُ ذَنْبُكَ» [الترمذي (٢٤٥٧)].

١٤١٥ - وعن أَبِي طَلْحَةَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَرَأَيْتُ مِنْ بَشَرِهِ وَطَلَّاقَتِهِ مَا لَمْ أَرَهُ قَطُّ، فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: «وَمَا يَمْنَعُنِي؟! وَقَدْ خَرَجَ جَبْرِيلُ أَنْفَاءً، فَأَتَانِي بِبَشَارَةِ مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ بِعَمَلِي إِلَيْكَ أَبْشَرُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ يَصَلِّي عَلَيْكَ مَرَّةً إِلَّا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، وَمَلَائِكَتُهُ بِهَا عَشْرًا».

١٤١٦ - وعن جابر بن عبد الله: قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ! رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَةُ! وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ، آتَى مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ

والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، خلَّتْ له الشفاعة يوم القيامة» [البخاري (٦١٤)].

١٤١٧ - وعن سعد بن أبي وقاص: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ - أَوْ الْمُؤَذِّنَ -:
وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ
بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا، غُفِرَ لَهُ» [مسلم (٣٨٦)].

١٤١٨ - وروى ابن وهب أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَلَّمَ عَلَيَّ عَشْرًا فَكَانَ مَا
أَعْتَقَ رَقَبَةً».

١٤١٩ - وَفِي بَعْضِ الْآثَرِ: «لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ مَا أَعْرِفُهُمْ إِلَّا بِكَثْرَةِ صَلَاتِهِمْ
عَلَيَّ».

١٤٢٠ - وَفِي آخَرٍ: «إِنَّ أَنْجَاكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَهْوَالِهَا وَمَوَاطِنِهَا أَكْثَرُكُمْ
عَلَيَّ صَلَاةً».

١٤٢١ - وعن أبي بكر رضي الله عنه: الصلاة على النبي ﷺ أمَحَقُّ
لِلذُّنُوبِ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ لِلنَّارِ؛ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ مِنْ عِتْقِ الرِّقَابِ.

فصل

فِي ذِمِّ مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَإِثْمِهِ

١٤٢٢ - حدثنا القاضي الشهيد أبو علي رحمه الله، حدثنا أبو الفضل بن
خَيْرُون، وَأَبُو الْحُسَيْنِ الصُّيْفِيُّ؛ قَالَا: أَخْبَرَنَا أَبُو يَغْلَى، أَخْبَرَنَا السُّنْجِيُّ، حَدَّثَنَا
مُحَمَّدُ بْنُ مَحْبُوبٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَيْسَى، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ [الترمذي (٣٥٤٥)] بْنُ إِبْرَاهِيمَ
الدُّورِيِّ، حَدَّثَنَا رَبِيعُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي
سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عَنْده فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ رَمَضَانُ
ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُفْقَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبْوَاهُ الْكِبَرِ فَلَمْ يَدْخُلْهُ
الْجَنَّةَ».

قال عبدالرحمن: وأظنُّه قال: «أَوْ أَحَدُهُمَا» [الترمذي (٣٥٤٥)].

١٤٢٣ - وفي حديث آخر: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعِدَ الْمِثْبَرُ فَقَالَ: «آمِينَ»، ثُمَّ
صَعِدَ، فَقَالَ: «آمِينَ» ثُمَّ صَعِدَ فَقَالَ: «آمِينَ»، فَسَأَلَهُ مَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ عَنْ ذَلِكَ،
فَقَالَ: «إِنَّ جَبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَتَانِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! مَنْ سُمِّيَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَمْ
يُصَلِّ عَلَيْكَ فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ، فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ؛ قُلْ: آمِينَ؛ فَقُلْتُ: آمِينَ».

وقال فيمن أدرك رمضان فلم يُقبل منه فمات مثل ذلك .

ومن أدرك أبويه - أو أحدهما - فلم يبرهما فمات مثله .

١٤٢٤ - وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - عنه عليه السلام ، أنه

قال : «البخيل - كُلُّ البخيل - الذي ذُكرتُ عنده فلم يُصلِّ عليَّ» .

١٤٢٥ - وعن جعفر بن محمد ، عن أبيه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ

ذُكرتُ عنده فلم يُصلِّ عليَّ أخطيء به طريق الجنة» [ابن ماجه (٩٠٨)] .

١٤٢٦ - وعن علي بن أبي طالب ، عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال :

«إِنَّ البخيلَ - كُلُّ البخيلِ - مَنْ ذُكرتُ عنده فلم يُصلِّ عليَّ» .

١٤٢٧ - وعن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ - «أَيُّمَا قَوْمٍ جَلَسُوا

مَجْلِسًا ثُمَّ تَفَرَّقُوا قَبْلَ أَنْ يَذْكُرُوا اللَّهَ ، وَيُصَلُّوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، كَانَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ اللَّهِ

تِزَةٌ ، إِنْ شَاءَ عَذَابُهُمْ ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ» [الترمذي (٣٣٨٠) ، أحمد (٤٤٦/٢)] .

١٤٢٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه : «مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ عَلَى نَسِي طَرِيقِ

الْجَنَّةِ» .

١٤٢٩ - وعن قتادة ، عنه - عليه السلام - : «مَنْ الْجَفَاءُ أَنْ أُذَكَّرَ عِنْدَ الرَّجُلِ

فَلَا يُصَلِّي عَلَيَّ» .

١٤٣٠ - وعن جابر ، عنه - عليه السلام - : «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا ثُمَّ تَفَرَّقُوا

عَلَى غَيْرِ صَلَاةٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا تَفَرَّقُوا عَنْ أَتْنَيْنِ مِنْ رِيحِ الْجَبِفَةِ» .

١٤٣١ - وعن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ ، قال : «لَا يَجْلِسُ قَوْمٌ مَجْلِسًا

لَا يَصَلُّونَ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ - وَإِنْ دَخَلُوا الْجَنَّةَ - لَمَا يَرَوْنَ

مِنْ الثَّوَابِ» [الترمذي (٣٣٨٠) ، النسائي (٤١٠)] .

١٤٣٢ - وحكى أبو عيسى الترمذي ، عن بغض أهل العلم ؛ قال : إذا صَلَّى

الرَّجُلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مَرَّةً فِي الْمَجْلِسِ أَجْزَأَ عَنْهُ مَا كَانَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ .

فصل

فِي تَخْصِيصِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِتَبْلِيغِ صَلَاةِ

مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ أَوْ سَلَّمَ مِنَ الْأَنَامِ

١٤٣٣ - حدثنا القاضي أبو عبد الله التميمي ، حدثنا الحسين بن محمد ،

حدثنا أبو عمر الحافظ ، حدثنا ابن عبد المؤمن ، حدثنا ابن داسة ، حدثنا أبو داود ،

حدثنا ابن عوف ، حدثنا المقرئ ، حدثنا حيوة ، عن أبي صخر : حُمِيدُ بْنُ زَيْدٍ ،

عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحدٍ يسلم عليّ إلا ردّ الله عليّ رُوحِي حتى أَرُدَّ عليه السلام» [أبو داود (٢٠٤١)، أحمد (٥٢٧/٢)].

١٤٣٤ - وذكر أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ عِنْدَ قَبْرِي سَمِعْتُهُ؛ وَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ نَائِيًا بُلِّغْتُهُ». ١٤٣٥ - وعن ابن مسعود: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يَبْلُغُونِي عَنْ أَمْنِي السَّلام» [النسائي (٤٣/٣)].

١٤٣٦ - ونحوه عن أبي هريرة [أبو داود (٢٠٤٢)، أحمد (٣٦٧/٢)].

١٤٣٧ - وعن ابن عُمر: أَكثَرُوا مِنَ السَّلامِ عَلَيَّ نَبِيِّكُمْ كُلَّ جُمُعَةٍ؛ فَإِنَّهُ يُؤْتَى بِهِ مِنْكُمْ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ.

١٤٣٨ - وفي رواية: «فَإِنْ أَحَدًا لَا يَصَلِّي عَلَيَّ إِلَّا عَرِضَتْ صَلَاتُهُ عَلَيَّ حِينَ يَفْرُغُ مِنْهَا» [ابن ماجه (١٦٣٧)].

١٤٣٩ - وعن الحسن بن علي، عنه ﷺ: «حِشْمًا كُتِمَ فَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنْ صَلَاتُكُمْ تَبْلُغُنِي».

١٤٤٠ - وعن ابن عباس: لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ يَسَلِّمُ عَلَيْهِ وَيَصَلِّي عَلَيْهِ إِلَّا بُلِّغَهُ.

١٤٤١ - وذكر بعضهم أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا صَلَّى عَلَيَّ النَّبِيِّ ﷺ عَرِضَ عَلَيْهِ اسْمُهُ.

١٤٤٢ - وعن الحسن بن علي: إِذَا دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ فَسَلِّمْ عَلَيَّ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا بَيْتِي عِيدًا، وَلَا تَتَّخِذُوا بَيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ حِشْمًا كُتِمَ؛ فَإِنَّ صَلَاتُكُمْ تَبْلُغُنِي حِشْمًا كُتِمَ».

١٤٤٣ - وفي حديث أَوْس: «أَكثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ؛ فَإِنَّ صَلَاتُكُمْ مَفْرُوضَةٌ عَلَيَّ».

١٤٤٤ - وعن سُلَيْمَانَ بْنِ سُهَيْمٍ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي النَّوْمِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْتُونَكَ فَيَسَلِّمُونَ عَلَيْكَ، أَتَفْقَهُ سَلَامَهُمْ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَأَرَدْتُ عَلَيْهِمْ.

١٤٤٥ - وعن ابنِ شِهَابٍ: بَلَّغْنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَكثَرُوا مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيَّ فِي اللَّيْلَةِ الزَّهْرَاءِ، وَالْيَوْمِ الْأَزْهَرِ؛ فَإِنَّهُمَا يَوْذِيَانِ عَنْكُمْ، وَإِنَّ الْأَرْضَ لَا تَأْكُلُ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَمَا مِنْ مُسْلِمٍ يَصَلِّي عَلَيَّ إِلَّا حَمَلَهَا مَلَكٌ حَتَّى يَوْذِيَهَا إِلَيَّ، وَيُسَمِّيهِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ: إِنَّ فَلَانًا يَقُولُ كَذَا وَكَذَا».

فصل

فِي الْاِخْتِلَافِ فِي الصَّلَاةِ عَلَى غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

قال القاضي - وفقه الله -: عامة أهل العلم متفقون على جواز الصلاة على غير النبي ﷺ.

١٤٤٦ - ورؤي عن ابن عباس أنه قال: لا تجوز الصلاة على غير

النبي ﷺ.

١٤٤٧ - ورؤي عنه: لا يتبغى الصلاة على أحد إلا النبيين.

١٤٤٨ - وقال سفيان: يكره أن يصلى إلا على نبي.

١٤٤٩ - ووجدت بخط بغض شيخي: مذهب مالك أنه لا يجوز أن يصلى

على أحد من الأنبياء سوى محمد ﷺ، وهذا غير معروف من مذهبه؛ وقد قال مالك في «المبسوط» ليحيى بن إسحاق: أكره الصلاة على غير الأنبياء، وما ينبغي لنا أن نتعدى ما أمرنا به.

١٤٥٠ - وقال يحيى بن يحيى: لست آخذ بقوله؛ لا بأس بالصلاة على

الأنبياء كلهم وعلى غيرهم؛ واحتج بحديث ابن عمر.

١٤٥١ - وبما جاء في حديث تعليم النبي ﷺ الصلاة عليه وفيه: «وعلى

آله، وعلى أزواجه».

وقد وجدت معلقاً عن أبي عمران الفاسي: رؤي عن ابن عباس رضي الله

عنهما كراهة الصلاة على غير النبي ﷺ؛ قال: وبه نقول. ولم تكن تستعمل فيما مضى.

١٤٥٢ - وقد روى عبدالرزاق عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«صلوا على أنبياء الله ورسله؛ فإنه بعثهم كما بعثني».

قالوا: والأسانيد عن ابن عباس ليئة، والصلاة في لسان العرب بمعنى

الترحم والدعاء؛ وذلك على الإطلاق حتى يمنع منه حديث صحيح أو إجماع.

وقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ

لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال: ﴿أَوَلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ...﴾ [البقرة: ١٥٧].

١٤٥٣ - وقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى». وكان إذا أتاه قومٌ بصدقتهم قال: «اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى آلِ فُلَانٍ» [البخاري (١٤٩٧)، مسلم (١٠٧٨)].

١٤٥٤ - وفي حديث الصلاة: «اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى أَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ».

١٤٥٥ - وفي حديث آخر: «وعلى آل محمد»: قيل: أتباعه، وقيل: آل بيته، وقيل: أمته. وقيل: الأتباع، والرُّفط، والعشيرة. وقيل: آل الرجل: قومه. وقيل: ولده. وقيل: أهلُه الذين حُرِّمَتْ عليهم الصَّدَقَةُ.

١٤٥٦ - وفي رواية أنس: سئل النبي ﷺ: مَنْ آلُ مُحَمَّدٍ؟ قال: «كُلُّ نَفْقِي».

١٤٥٧ - وَيَجِيءُ عَلَى مَذْهَبِ الْحَسَنِ أَنَّ الْمُرَادَ بِآلِ مُحَمَّدٍ: مُحَمَّدٌ نَفْسُهُ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي صَلَاتِهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: اللَّهُمَّ! اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَبَرَكَاتِكَ عَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، يَرِيدُ: نَفْسَهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ لَا يُخْلُ بِالْفَرَضِ، وَيَأْتِي بِالنَّفْلِ؛ لِأَنَّ الْفَرَضَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ هُوَ الصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ نَفْسِهِ.

١٤٥٨ - وهذا مِثْلُ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَقَدْ أُوْتِيَتْ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ» [البخاري (٥٠٤٨)، مسلم (٢٣٦/٧٩٣)]، يَرِيدُ: مِنْ مَزَامِيرِ دَاوُدَ.

١٤٥٩ - وفي حديث أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ فِي الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ».

١٤٦٠ - وفي حديث ابْنِ عُمرَ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. ذَكَرَهُ مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» مِنْ رِوَايَةِ يَحْيَى الْأَنْدَلُسِيِّ.

١٤٦١ - وَالصَّحِيحُ مِنْ رِوَايَةِ غَيْرِهِ: وَيَدْعُو لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ.

١٤٦٢ - وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: كُنَّا نَدْعُو لِأَصْحَابِنَا بِالْغَيْبِ؛ فَتَقُولُ: اللَّهُمَّ! اجْعَلْ مِنْكَ عَلَى فُلَانٍ صَلَوَاتِ قَوْمِ أَبِرَارٍ، الَّذِينَ يَقُومُونَ بِاللَّيْلِ، وَيَصُومُونَ بِالنَّهَارِ.

قال القاضي أبو الفضل: والذي ذهب إليه المحققون، وأميلُ إليه، ما قاله مالك وسُفيان رحمهما الله وزُوي عن ابن عباس؛ واختاره غيرُ واحدٍ من الفقهاء والمتكلمين أَنَّهُ لَا يُصَلَّى عَلَى غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ عِنْدَ ذِكْرِهِمْ؛ بَلْ هُوَ شَيْءٌ يَخْتَصُّ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، تَوْقِيراً لَهُمْ وَتَعْزِيزاً، كَمَا يُخَصُّ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ ذِكْرِهِ بِالتَّثْنِيَةِ وَالتَّفْذِيلِ وَالتَّعْظِيمِ، وَلَا يَشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ، كَذَلِكَ يَجِبُ تَخْصِيصُ النَّبِيِّ ﷺ وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ

بالصلاة والتسليم ولا يشارِكهم فيه سِوَاهُمْ، كما أمرَ اللهُ به بقوله: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وَيُذَكِّرُ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْأُثْمَةِ وَغَيْرِهِم بِالْغُفْرَانِ وَالرُّضَا؛ كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠].
وقال: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ...﴾ [التوبة: ١٠٠].

وأيضاً فهو أمرٌ لم يَكُنْ معروفاً في الصَّدْرِ الأول؛ كما قال أبو عَمْرٍاء؛ وإنما أحدثته الرافضة والمتشعبة في بعض الأئمة؛ فشاركوهم عند الذِّكْرِ لهم بالصلاة، وساوَوْهم بالنبي ﷺ في ذلك.
وأيضاً فإنَّ التشبُّه بأهلِ الْبِدْعِ منهيٌّ عنه؛ فَتَجِبَ مُخَالَفَتُهُمْ فيما التزموه من ذلك.

وذكرُ الصلاة على الآلِ والأزواج مع النبي ﷺ بِحُكْمِ التَّبَعِ والإضافة إليه لا على التخصيص.

قالوا: وصلاةُ النبي ﷺ على مَنْ صَلَّى عليه مُجَرَّاهَا مُجَرِّى الدَّعَاءِ والمُوَاجَهَةِ، ليس مِنْهَا معنى التعظيم والتوقير.

قالوا: وقد قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] وكذلك يجبُ أن يكونَ الدَّعَاءُ له مُخَالَفاً لدُعَاءِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ.

وهذا اختيارُ الإمام أبي المظفَّر الإسفَرَايِينِي أحدِ شيوخنا، وبه قال ابنُ عَبْدِ الْبَرِّ.

فصل

فِي حُكْمِ زِيَارَةِ قَبْرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفَضِيلَةِ مَنْ زَارَهُ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ وَكَيْفَ يُسَلِّمُ وَيَدْعُو لَهُ

وزيارَةُ قَبْرِهِ - عليه السلام - سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ الْمُسْلِمِينَ مُجْمَعٌ عَلَيْهَا، وَفَضِيلَةٌ مُرَغَّبٌ فِيهَا، رُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٤٦٣ - حدثنا القاضي أبو علي؛ قال: حدثنا أبو الفضل بن خَيْرُون؛ قال: حدثنا الْحَسَنُ بْنُ جَعْفَرٍ؛ قال: حدثنا أَبُو الْحَسَنِ: علي بن عُمَرَ الدَارَقُطْنِي؛ قال:

حدثنا القاضي المحاملي؛ قال: حدثنا محمد بن عبد الرزاق؛ قال: حدثنا موسى بن هلال، عن عبد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ أنه قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ زَارَ قَبْرِي وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي».

١٤٦٤ - وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ زَارَنِي فِي الْمَدِينَةِ مُخْتَسِباً كَانَ فِي جَوَارِي، وَكَنْتُ لَهُ شَفِيعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

١٤٦٥ - وفي حديث آخر: «مَنْ زَارَنِي بَعْدَ مَوْتِي فَكَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي».

١٤٦٦ - وكَرِهَ مالك أَنْ يُقَالَ: زُرْنَا قَبْرَ النَّبِيِّ ﷺ.

١٤٦٧ - وقد اختلف في معنى ذلك؛ ف قيل: كراهة الاسم؛ لِمَا وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَام: «لَعَنَ اللَّهُ زَوَارَاتِ الْقُبُورِ» [أحمد (٣٣٧/٢)، الترمذي (١٠٥٦)، ابن ماجه (١٥٧٦)].

١٤٦٨ - وهذا يَرُدُّهُ قَوْلُهُ: «نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا» [مسلم (٩٧٧)].

١٤٦٩ - وقوله: «مَنْ زَارَ قَبْرِي» فقد أطلق اسم الزيارة.

وقيل: إن ذلك لِمَا قِيلَ: إِنَّ الزَّائِرَ أَفْضَلُ مِنَ الْمَزُورِ.

١٤٧٠ - وهذا أيضاً ليس بشيء؛ إذ ليس كل زائر بهذه الصفة، وليس عموماً؛ وقد ورد في حديث أهل الجنة: زيارتهم لربهم [الترمذي (٢٥٤٩)، ابن ماجه (٤٣٣٦)]؛ ولم يُمنَحْ هذا اللفظ في حقه تعالى.

وقال أبو عمران - رحمه الله -: إنما كَرِهَ مالكُ أَنْ يُقَالَ: طَوَافُ الزِّيَارَةِ، وَزُرْنَا قَبْرَ النَّبِيِّ ﷺ لاسْتِعْمَالِ النَّاسِ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ؛ فَكِرَةٌ تَسْوِيَةٌ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ النَّاسِ بِهَذَا اللَّفْظِ؛ وَأَحَبُّ أَنْ يُخَصَّرَ بِأَنْ يُقَالَ: سَلَّمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

وأيضاً فَإِنَّ الزِّيَارَةَ مُبَاحَةٌ بَيْنَ النَّاسِ، وَوَجِبَ شُدُّ الرِّحَالِ إِلَى قَبْرِهِ ﷺ؛ يَرِيدُ بِالْوُجُوبِ هُنَا وَجُوبَ تَذَبُّبٍ وَتَرْغِيبٍ وَتَأْكِيدٍ، لَا وَجُوبَ فَرْضٍ.

١٤٧١ - وَالْأَوَّلَى عِنْدِي أَنْ مَنَعَهُ وَكَرَاهَةَ مَالِكٍ لَهُ لِإِضَافَتِهِ إِلَى قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ؛ وَأَنَّهُ لَوْ قَالَ: زُرْنَا النَّبِيَّ لَمْ يَكْرَهُه؛ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَام: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُغْبِئُ بَعْدِي، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

فحمى إضافة هذا اللفظ إلى القبر، والتشبه بفعل أولئك؛ قطعاً للذريعة، وَحَسْماً لِلْبَابِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال إسحاق بن إبراهيم الفقيه: وَمِمَّا لَمْ يَزَلْ مِنْ شَأْنِ مَنْ حَجَّ الْمَرُورُ

بالمدينة، والقصدُ إلى الصلاة في مسجدِ رسولِ الله ﷺ، والتبرُّكُ برؤيةِ رَوْضَتِهِ ومِنْبَرِهِ وقَبْرِهِ، ومجلسه، وملايس يديه، ومواطىء قدميه، والعمود الذي كان يَسْتَنِدُ إليه، وينزل جبريل بالوحي فيه عليه، ويَمُنُّ عَمْرَهُ وقَصْدَهُ من الصحابة وأئمة المسلمين، والاعتبار بذلك كله.

وقال ابنُ أبي قُذَيْبٍ: سمعتُ بعضَ مَنْ أذكَتْ يقول: بلغنا أنه مَنْ وقف عند قَبْرِ النبي ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ [الأحزاب: ٥٦] ثم قال: صلى الله عليك، يا محمد! مَنْ يَقُولُهَا سبعين مرةً ناداه ملك: صلى الله عليك يا فلان! ولم تَسْقُطْ له حاجة.

١٤٧٢ - وعن يزيد بن أبي سَعِيدٍ المَهْرِي: قدِمْتُ على عُمر بن عبد العزيز، فلما ودَّعْتُهُ قال لي: إليك حاجة؛ قلت: ما هي؟ قال: إذا أَتَيْتَ المدينةَ سترى قَبْرَ النبي ﷺ، فأقره مني السلام.

وقال غيره: وكان يُبْرَدُ إليه البريدُ من الشام.
١٤٧٣ - قال بعضهم: رأيتُ أنس بن مالك أتى قَبْرَ النبي ﷺ؛ فوقف، ورفع يَدَيْهِ، حتى ظَنَنْتُ أَنَّهُ افْتَتَحَ الصلاة، فسلم على النبي ﷺ ثم انصرف.

١٤٧٤ - وقال مالك - في رواية ابنِ وَهْب - في الرجل إذا سَلَّمَ على النبي ﷺ ودَّعَا: يَقِفُ ووجْههُ إلى القبر الشريف لا إلى القبلة، ويدنو، ويسلم، ولا يمسُّ القَبْرَ بيده.

١٤٧٥ - وقال في «المبسوط»: لا أرى أن يَقِفَ عند قَبْرِ النبي ﷺ يَدْعُو، ولكن يسلم ويمضي.

١٤٧٦ - قال ابنُ أبي مُلَيْكَةَ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقُومَ وَجَاهَ النبي ﷺ فليجعل القِنْدِيلَ الذي في القبلة عند القَبْرِ على رأسه.

١٤٧٧ - وقال نافع: كان ابنُ عُمر يسلم على القَبْرِ؛ رأيته مئة مرة وأكثر، يجيء إلى القبر فيقول: السلام على النبي ﷺ، السلام على أبي بكر، السلام على أبي، ثم ينصرف.

١٤٧٨ - ورؤي ابنُ عُمر واضعاً يَدَهُ على مَقْعَدِ النبي ﷺ من المنبر، ثم وضعها على وجهه.

١٤٧٩ - وعن ابن قُسيطٍ والعُثْبِي: كان أصحابُ النبي ﷺ إذا خلا المسجدُ جَسُّوا رُمَانَةَ المِنْبَرِ التي تلي القَبْرَ بِمَآئِمِهِمْ، ثم استقبلوا القبلة يَدْعُونَ.

١٤٨٠ - وفي الموطأ - من رواية يحيى بن يحيى اللَّيْثِي - أنه كان يقف على

قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَيُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ، وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ.

١٤٨١ - وَعَنْدَ ابْنِ الْقَاسِمِ وَالْقَعْنَبِيِّ: وَيَدْعُو لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ.

١٤٨١م - قَالَ مَالِكٌ - فِي رَوَايَةِ ابْنِ وَهْبٍ -: يَقُولُ الْمُسْلِمُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ،

أَيُّهَا النَّبِيُّ! وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

١٤٨١م - قَالَ فِي «الْمَبْسُوطِ»: وَيُسَلِّمُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ.

١٤٨١م - ٢ - قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِي: وَعِنْدِي أَنَّهُ يَدْعُو لِلنَّبِيِّ ﷺ

بِلَفْظِ الصَّلَاةِ، وَلَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ، كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمرٍ مِنَ الْخِلَافِ.

١٤٨١م - ٣ - وَقَالَ ابْنُ حَبِيبٍ: وَيَقُولُ إِذَا دَخَلَ مَسْجِدَ الرَّسُولِ: بِاسْمِ اللَّهِ،

وَسَلَامٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - السَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّنَا، وَصَلَّى اللَّهُ

وَمَلَائِكَتُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ. اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ وَجَنَّتِكَ،

وَاحْفَظْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ثُمَّ اقْصِدْ إِلَى الرُّوضَةِ - وَهِيَ مَا بَيْنَ الْقَبْرِ وَالْمِنْبَرِ -

فَارْكَعْ فِيهَا رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ وَقُوفِكَ بِالْقَبْرِ تَحْمَدُ اللَّهُ فِيهِمَا وَتَسْأَلُهُ تَمَامَ مَا خَرَجْتَ إِلَيْهِ

وَالْعَوْنَ عَلَيْهِ.

وَإِنْ كَانَتْ رَكْعَتَانِ فِي غَيْرِ الرُّوضَةِ أَجْزَأُكَ، وَفِي الرُّوضَةِ أَفْضَلُ.

١٤٨٢ - وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ

الْجَنَّةِ؛ وَمِنْبَرِي عَلَى تُرْعَةٍ مِنْ تُرْعِ الْجَنَّةِ» [أحمد (٣٣٥/٥)].

ثُمَّ تَقِفُ بِالْقَبْرِ مُتَوَاضِعاً مُتَوَقِّراً، فَتُصَلِّي عَلَيْهِ وَتُثْنِي بِمَا يَخْضُرُكَ، وَتُسَلِّمُ

عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَتَدْعُو لَهُمَا.

وَأَكْثَرُ مِنَ الصَّلَاةِ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَلَا تَدْعُ أَنْ تَأْتِيَ

مَسْجِدَ قُبَاءَ وَقُبُورَ الشَّهَدَاءِ.

وَقَالَ مَالِكٌ فِي كِتَابِ مُحَمَّدٍ: وَيُسَلِّمُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إِذَا دَخَلَ وَخَرَجَ - يَعْنِي

فِي الْمَدِينَةِ - وَفِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ.

وَقَالَ مُحَمَّدٌ: وَإِذَا خَرَجَ جَعَلَ آخِرَ عَهْدِهِ الْوُقُوفَ بِالْقَبْرِ، وَكَذَلِكَ مَنْ خَرَجَ

مَسَافِراً.

١٤٨٣ - وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - عَنْ

النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ فَصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقُلْ: اللَّهُمَّ! اغْفِرْ

لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجْتَ فَصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقُلْ:

اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»..

١٤٨٤ - وفي رواية أخرى: «فليسلم» مكان: فليصل فيه، ويقول إذا خرج: «اللهم! إني أسألك من فضلك» [أبو داود (٤٦٥)، مسلم (٧١٣)].

١٤٨٥ - وفي رواية: «اللهم! احفظني من الشيطان الرجيم» [ابن ماجه (٧٧٣)].

١٤٨٥ م - وعن محمد بن سيرين: كان الناس يقولون إذا دخلوا المسجد: صلّى الله وملائكته على محمد. السلام عليك أيها النبي! ورحمة الله وبركاته، باسم الله دخلنا، وباسم الله خرجنا، وعلى الله توكلنا. وكانوا يقولون إذا خرجوا مثل ذلك.

١٤٨٦ - وعن فاطمة أيضاً: كان النبي ﷺ إذا دخل المسجد قال: «صلّى الله على محمد وسلم» [الترمذي (٣١٤)، أحمد (٢٨٢/٦)، (٢٨٣)]. ثم ذكر مثل حديث فاطمة قبل هذا.

١٤٨٧ - وفي رواية: حمد الله وسمي، وصلى على النبي ﷺ، وذكر مثله.

١٤٨٨ - وفي رواية: «باسم الله، والسلام على رسول الله» [ابن ماجه (٧٧١)، أحمد (٢٨٣/٦)].

١٤٨٩ - وعن غيرها: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد قال: «اللهم! افتح لي أبواب رحمتك، ويسر لي أبواب رزقك».

١٤٩٠ - وعن أبي هريرة: «إذا دخل أحدكم المسجد فليصل على النبي ﷺ، وليقل: اللهم افتح لي...».

وقال مالك في «المبسوط»: وليس يلزم من دخل المسجد وخرج منه من أهل المدينة الوقوف بالقبر؛ وإنما ذلك للغرباء.

وقال فيه أيضاً: لا بأس لمن قدم من سفر، أو خرج إلى سفر أن يقف على قبر النبي ﷺ فيصلّي عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر.

ف قيل له: فإن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه، يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر؛ وربما وقفوا في الجمعة أو في الأيام المرة والمرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة.

فقال: لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا، ونزكه واسع، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها؛ ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك، ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراد.

قال ابن القاسم: ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها أو دخلوا إليها أتوا القبر فسلموا، قال: وذلك رأي.

قال الباجي: ففرق بين أهل المدينة والغرباء، لأن الغرباء قصدوا لذلك وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم.

١٤٩١ - وقال عليه السلام: «اللهم! لا تجعل قبري وثناً يُعبَد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

١٤٩٢ - وقال: «لا تجعلوا قبري عيداً» (أبو داود (٢٠٤٢)، أحمد (٢٣٦٧)).

ومن كتاب أحمد بن سعيد الهندي - فيمن وقف بالقبر: لا يلصق به، ولا يمسّه، ولا يقف عنده طويلاً.

وفي «الغنية» يبدأ بالركوع قبل السلام في مسجد رسول الله ﷺ، وأحب مواضع التنفل فيه عُصَلَى النَّبِيِّ ﷺ حيث العمود المخلوق.

وأما في الفريضة فالتقدم إلى الصفوف والتنفل فيه للغرباء أحب إلى من التنفل في البيوت.

فصل

فيما يلزم من دخل مسجد النبي ﷺ من الأدب

سوى ما قدمناه، وفضله، وفضل الصلاة فيه، وفي مسجد مكة،

وذكر قبره ومثبره، وفضل سكّنى المدينة ومكة

قال الله تعالى: «لَتَسْمِعُنَّ أَصْحَابَ الشَّقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ يَوْمَ أُخْرِجُوا مِنْهَا...»

[التوبة: ١٠٨].

١٤٩٣ - زوي أن النبي ﷺ شل: أي مسجد هرو؟ قال: هو مسجدي هذا

[إسلم (١٣٩٨)].

وهو قول ابن المسيب، وزيد بن ثابت، وابن عمر، ومالك بن أنس، وغيرهم.

١٤٩٤ - وعن ابن عباس أنه مسجد قباء.

١٤٩٥ - حدثنا هشام بن أحمد الفقيه بقراعتي عليه: قال: حدثنا الحسين بن

محمد الحافظ، حدثنا أبو عمر النعماني، حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن، حدثنا

أبو بكر بن داسة، حدثنا أبو داود، حدثنا مسدد، حدثنا شفيان، عن الزهري، عن

سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَ: «لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِي هَذَا، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى» [أَبُو دَاوُدَ (٢٠٣٣)، الْبُخَارِيُّ (١١٨٩)، مُسْلِمٌ (١٣٩٧)].

وَقَدْ تَقَدَّمتِ الْآثَارُ فِي الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ دُخُولِ الْمَسْجِدِ.
١٤٩٦ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» [أَبُو دَاوُدَ (٤٦٦)].

١٤٩٧ - وَقَالَ مَالِكٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: سَمِعَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَوْتًا فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَا بِصَاحِبِهِ؛ فَقَالَ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ قَالَ: رَجُلٌ مِنْ ثَقِيفٍ.
قَالَ: لَوْ كُنْتُ مِنْ هَاتَيْنِ الْقَرْيَتَيْنِ لَأَدْبَيْتُكَ، إِنَّ مَسْجِدَنَا هَذَا لَا يُرْفَعُ فِيهِ الصَّوْتُ [الْبُخَارِيُّ (٤٧٠)].

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَعْتَمِدَ الْمَسْجِدَ بِرَفْعِ الصَّوْتِ، وَلَا بِشَيْءٍ مِنَ الْأَذَى، وَأَنْ يُتَزَّهَ عَمَّا يُكْرَهُ.

قَالَ الْقَاضِي: حَكَى ذَلِكَ كُلَّهُ الْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ فِي «مَبْسُوطِهِ» فِي بَابِ فَضْلِ مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ. وَالْعُلَمَاءُ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ حُكْمَ سَائِرِ الْمَسَاجِدِ هَذَا الْحُكْمُ.

قَالَ الْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ: وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: وَيُكْرَهُ فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ الْجَهْرُ عَلَى الْمُصَلِّينَ فِيمَا يَخْلُطُ عَلَيْهِمْ صَلَاتُهُمْ، وَلَيْسَ مِمَّا يَخْصُ بِهِ الْمَسَاجِدُ رَفْعُ الصَّوْتِ، قَدْ كُرِّهَ رَفْعُ الصَّوْتِ بِالتَّلْبِيَةِ فِي مَسَاجِدِ الْجَمَاعَاتِ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَمَسْجِدَ مَنَى.

١٤٩٨ - وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» [الْبُخَارِيُّ (١١٩٠)، مُسْلِمٌ (١٣٩٤)].

قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْفَضْلِ: اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مَعْنَى هَذَا الْإِسْتِثْنَاءِ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ فِي الْمُقَاضَلَةِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ؛ فَذَهَبَ مَالِكٌ - فِي رِوَايَةِ أَشْهَبِ عَنْهُ - وَقَالَ ابْنُ نَافِعٍ صَاحِبُهُ، وَجَمَاعَةُ أَصْحَابِهِ، إِلَى أَنَّ مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ الصَّلَاةَ فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ فِي سَائِرِ الْمَسَاجِدِ بِأَلْفِ صَلَاةٍ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ بِدُونَ الْأَلْفِ.

١٤٩٩ - وَاحْتَجُّوا بِمَا رَوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صَلَاةٌ فِي

المسجد الحرام خَيْرٌ من مئة صلاة فيما سواه. فتأتي فضيلة مسجد الرسول ﷺ يتشع مئة، وعلى غيره بألف.

وهذا مبني على تفضيل المدينة على مكة على ما قدمناه؛ وهو قول عمر بن الخطاب، ومالك، وأكثر أهل المدينة.

وذهب أهل الكوفة ومكة إلى تفضيل مكة؛ وهو قول عطاء، وابن وهب وابن حبيب من أصحاب مالك، وحكاها الساجي عن الشافعي؛ وحملوا الاستثناء في الحديث المتقدم على ظاهره، وأن الصلاة في المسجد الحرام أفضل.

١٥٠٠ - واحتجوا بحديث عبد الله بن الزبير، عن النبي ﷺ بمثل حديث أبي هريرة؛ وفيه: «وصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجدي هذا بمئة صلاة» [أحمد (٥/٤)].

وروى قتادة مثله؛ فيأتي فضل الصلاة في المسجد الحرام - على هذا - على الصلاة في سائر المساجد بمئة ألف.

ولا خلاف أن موضع قبره أفضل بقاع الأرض.

قال القاضي أبو الوليد الباجي: الذي يقتضيه الحديث مخالفة حكم مسجد مكة لسائر المساجد، ولا يعلم منه حكمها مع المدينة.

وذهب الطحاوي إلى أن هذا التفضيل إنما هو في صلاة الفرض.

وذهب مطرف - من أصحابنا - إلى أن ذلك في النافلة أيضاً؛ قال: وجُمعة خير من جُمعة، ورمضان خير من رمضان.

١٥٠١ - وقد ذكر عبدالرزاق في تفضيل رمضان بالمدينة وغيرها حديثاً نحوه.

١٥٠٢ - وقال - عليه السلام - «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» [البخاري (١١٩٥)، مسلم (١٣٩٠)].

١٥٠٣ - ومثله عن أبي هريرة - أو أبي سعيد - وزاد: «ومنبري على حوضي» [البخاري (١١٩٦)، مسلم (١٣٩١)].

١٥٠٤ - وفي حديث آخر: «منبري على ترعة من ترع الجنة».

قال الطبري: فيه معنيان:

١٥٠٥ - أحدهما: أن المراد بالبيت: بيت سكناه على الظاهر، مع أنه روي ما بينته: «بين حُجرتي ومنبري» [أحمد (٣٨٩/٣)].

١٥٠٦ - والثاني: أن البيت هذا القبر؛ وهو قول زيد بن أسلم في هذا

الحديث، كما رَوَى: «بين قبري ومثبري» [أحمد (٦٤/٣)]. قال الطَّبْرِي: وإذا كان قَبْرُهُ فِي بَيْتِهِ اتَّفَقَتْ معاني الروايات، ولم يكن بينها خِلَاف؛ لأن قَبْرَهُ فِي حُجْرَتِهِ، وَهُوَ بَيْتُهُ.

وقوله: «ومثبري على حَوْضِي»: قيل: يحتمل أنه مَثْبِرُهُ بِعَيْنِهِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا؛ وَهُوَ أَظْهَرُ.

والثاني: أن يكون له هناك منبر.

والثالث: أَنَّ قَصْدَ مَثْبِرِهِ وَالْحَضُورَ عِنْدَهُ لِمَلَاظِمَةِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ يُورَدُ الْحَوْضَ، وَيُوجِبُ الشُّرْبَ مِنْهُ، قَالَه الْبَاجِي.

وقوله: «رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ» يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه مَوْجِبٌ لَذَلِكَ، وَأَنَّ الدُّعَاءَ وَالصَّلَاةَ فِيهِ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِنَ الثَّوَابِ.

١٥٠٧ - كما قيل: «الجنة تحت ظلال السيوف» [البخاري (٢٨١٨)، مسلم (١٧٤٢)].

والثاني: أَنَّ تِلْكَ الْبُقْعَةَ قَدْ يَنْقُلُهَا اللَّهُ فَتَكُونُ فِي الْجَنَّةِ بِعَيْنِهَا؛ قَالَه الدَّوْدِيُّ.

١٥٠٨ - وَرَوَى ابْنُ عَمْرٍ، وَجَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي الْمَدِينَةِ: «لَا يَضْبِرُ عَلَى لَأْوَانِهَا، وَشِدَّتِهَا أَحَدٌ، إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَهِيداً - أَوْ شَفِيعاً - يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [مسلم (١٣٧٧)].

١٥٠٩ - وَقَالَ فَيَمَنْ تَحَمَّلَ عَنِ الْمَدِينَةِ: «وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» [البخاري (١٨٧٥)، مسلم (١٣٨٨)].

١٥١٠ - وَقَالَ: «إِنَّمَا الْمَدِينَةُ كَالْكَبِيرِ تَنْفِي حَبَّتِهَا، وَتَنْصَعُ طَبِيبُهَا» [البخاري (١٨٨٣)، مسلم (١٣٨٣)].

١٥١١ - وَقَالَ: «لَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنَ الْمَدِينَةِ رَغْبَةً عَنْهَا إِلَّا أَبْدَلَهَا اللَّهُ خَيْراً مِنْهُ» [مسلم (١٣٦٣)].

١٥١٢ - وَرَوَى عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ مَاتَ فِي أَحَدِ الْحَرَمَيْنِ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِراً، بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ وَلَا عَذَابَ».

١٥١٣ - وَفِي طَرِيقِ آخَرٍ: «بُعِثَ مِنَ الْأَمْنِيِّينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

١٥١٤ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ: «مَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ بِهَا؛ فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا» [الترمذي (٣٩١٧)، ابن ماجه (٣١١٢)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢٥﴾ فِيهِ مَكِينٌ بِبَيْتِكَ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

قال بعض المفسرين: ﴿مَكِينًا﴾ من النار. وقيل: كان يأتي من الطلب من أحدث حديثاً خارجاً عن الحرم، ولجأ إليه في الجاهلية؛ وهذا مثل قوله: ﴿وَلَا جُنَاكَ إِلَهٌ مِثْلُ مَا لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٥] على قول بعضهم.

وحكي أن قوماً أتوا سعدون الخولاني بالمُنشِير فأعلموه أن كُتُمَةً قَتَلُوا رجلاً، وأضرموا عليه النار طول الليل. فلم يُعْمَل فيه شيئاً وبقي أبيض البدن، فقال: لعله حج ثلاث حجج؟ قالوا: نعم. قال: حَدَّثْتُ أَنَّ مَنْ حَجَّ حَجَّةً أَتَى فَرَضَهُ، وَمَنْ حَجَّ ثَانِيَةً دَلِنَ رِيَهُ، وَمَنْ حَجَّ ثَلَاثَ حَجَجٍ حَرَّمَ اللَّهُ شَعْرَهُ وَسَوَّاهُ عَلَى النَّارِ.

١٥١٥ - ولما نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة قال: «مَرْحَباً بِكَ مِنْ بَيْتِ؛ مَا أَعْظَمَكَ! وَأَعْظَمَ حُزْمَتَكَ!» [الترمذي (٢٠٣٢)].

١٥١٦ - وفي الحديث، عنه عليه السلام: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَ الرُّكْنِ الْأَسْوَدِ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ، وَكَذَلِكَ عِنْدَ الْمِيزَابِ».

١٥١٧ - وعنه عليه السلام: «مَنْ صَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ وَكَعْبَتَيْنِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَخَيْرُ يَوْمٍ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَمِينِ».

١٥١٨ - قال الفقيه القاضي أبو الفضل - رحمه الله -: قرأتُ علي القاضي الحافظ أبي علي رحمه الله، قلتُ له: حَدَّثَكَ أَبُو الْعِيَّاسِ الْعُلَويُّ؟ قال: حَدَّثَنَا أَبُو أَسَامَةَ: مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْهَرَوِيُّ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ زَيْبِقٍ، سَمِعْتُ أبا الْحَسَنِ: مُحَمَّدَ بْنَ الْحَسَنِ بْنِ رَاشِدٍ، سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ: مُحَمَّدَ بْنَ إِدْرِيسَ، سَمِعْتُ الْحُمَيْدِيَّ، قال: سَمِعْتُ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ، قال: سَمِعْتُ عُمَرَو بْنَ دِينَارٍ قال: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا دَعَا أَحَدٌ بِشَيْءٍ فِي هَذَا الْمَلْتَزَمِ إِلَّا اسْتَجِيبَ لَهُ».

قال ابن عباس: وَأَنَا فَمَا دَعَوْتُ اللَّهَ بِشَيْءٍ فِي هَذَا الْمَلْتَزَمِ مِنْهُ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا اسْتَجِيبَ لِي.

وقال عمرو بن دينار: وَأَنَا فَمَا دَعَوْتُ اللَّهَ تَعَالَى بِشَيْءٍ فِي هَذَا الْمَلْتَزَمِ مِنْهُ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ إِلَّا اسْتَجِيبَ لِي.

وقال سُفْيَانُ: وَأَنَا فَمَا دَعَوْتُ اللَّهَ بِشَيْءٍ فِي هَذَا الْمَلْتَزَمِ مِنْهُ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ عُمَرَو بْنَ دِينَارٍ إِلَّا اسْتَجِيبَ لِي.

قال الحميدي: وأنا فما دعوت الله بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من سُفيان إلا استجيب لي.

وقال محمد بن إدريس: وأنا فما دعوت الله بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من الحميدي إلا استجيب لي.

وقال أبو الحسن: محمد بن الحسن: وأنا فما دعوت الله بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من محمد بن إدريس إلا استجيب لي.

قال أبو أسامة: وما أذكر الحسن بن رَشِيق قال فيه شيئاً: وأنا فما دعوت الله بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من الحسن بن رَشِيق إلا استجيب لي من أمر الدنيا، وأنا أرجو أن يُستجاب لي من أمر الآخرة.

قال العُدري: وأنا فما دعوت الله بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من أبي أسامة إلا استجيب لي.

قال أبو علي: وأنا فقد دعوت الله فيه بأشياء كثيرة واستجيب لي بعضها، وأرجو من سعة فضله أن يستجيب لي بقيتها.

قال القاضي أبو الفضل: قد ذكرنا بُدْأً من هذه الثُكُت في هذا الفضل وإن لم تكن من الباب، لتعلقها بالفضل الذي قبله حرصاً على تمام الفائدة؛ واللَّهُ الموفق للصواب برحمته.



القسم الثالث

فَإِنَّمَا يَجِبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَمَا يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِ
أَوْ يَجُوزُ عَلَيْهِ، وَمَا يَمْتَنِعُ أَوْ يَصِحُّ
مِنَ الْأَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ تُضَافَ إِلَيْهِ

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَتَتْهُ صِديقَةٌ كَانَا يَاجُلَانِ الطَّلَعُ أَظَلَّ كَتَبْتُ نُبُوتَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَظَلَّ أَنْ يُوَفَّكَوْكَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّلَعُ وَيَسْخَرُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ [الكهف: ١١٠].
فمحمد ﷺ وسائر الأنبياء مِنَ الْبَشَرِ، أُرْسِلُوا إِلَى الْبَشَرِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا أَطَاعَ النَّاسُ مَقَاوِمَتَهُمْ، وَالْقَبُولَ عَنْهُمْ، وَمَخَاطَبَتَهُمْ.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]؛ أي لَمَا كَانَ إِلَّا فِي صُورَةِ الْبَشَرِ الَّذِينَ يُمْكِنُكَ مَخَاطَبَتُهُمْ وَمَخَالَطَتُهُمْ؛ إِذْ لَا تُطَبِّقُونَ مَقَاوِمَةَ الْمَلِكِ، وَمَخَاطَبَتَهُ، وَرُؤْيَاهُ، إِذَا كَانَ عَلَى صُورَتِهِ.

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا لَّيَسَّرْتُ مَطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]؛ أي لَا يُمْكِنُ فِي سُنَّةِ اللَّهِ إِرْسَالُ

الْمَلِكِ إِلَّا لِمَنْ هُوَ مِنْ جَنْسِهِ، أَوْ مَنْ خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى وَاصْطَفَاهُ وَقَوَّاهُ عَلَى مُقَاوَمَتِهِ، كَالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ.

فَالْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَسَائِطُ بَيْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَبَيْنَ خَلْقِهِ يُبَلِّغُونَهُمْ أَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ، وَرَغَدَهُ وَوَعِيدَهُ، وَيُعَرِّفُونَهُمْ بِمَا لَمْ يَعْلَمُوهُ مِنْ أَمْرِهِ وَخَلْقِهِ، وَجَلَالِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَجَبَرُوتِهِ وَمَلَكُوتِهِ؛ فَظَوَاهِرُهُمْ وَأَجْسَادُهُمْ وَبَنِيَّتُهُمْ مُتَّصِفَةٌ بِأَوْصَافِ الْبَشَرِ، طَارِئٌ عَلَيْهَا مَا يَظَرُّ عَلَى الْبَشَرِ مِنَ الْأَعْرَاضِ وَالْأَسْقَامِ، وَالْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ، وَنَعَوَاتِ الْإِنْسَانِيَةِ، وَأَزْوَاجِهِمْ وَبَوَاطِنُهُمْ مُتَّصِفَةٌ بِأَعْلَى مِنْ أَوْصَافِ الْبَشَرِ، مُتَعَلِّقَةٌ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى، مُتَشَبِّهَةٌ بِصِفَاتِ الْمَلَائِكَةِ، سَلِيمَةٌ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالْآفَاتِ، لَا يَلْحَقُهَا غَالِبٌ عَجَزُ الْبَشَرِيَّةِ، وَلَا ضَعْفُ الْإِنْسَانِيَةِ، إِذْ لَوْ كَانَتْ بَوَاطِنُهُمْ خَالِصَةً لِلْبَشَرِيَّةِ كَظَوَاهِرِهِمْ لَمَّا أَطَاقُوا الْأَخْذَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ، وَرَوَيْتَهُمْ لَهُمْ وَمَخَاطَبَتَهُمْ إِيَّاهُمْ، وَمُخَالَطَتَهُمْ، كَمَا لَا يُطِيقُهُ غَيْرُهُمْ مِنَ الْبَشَرِ.

وَلَوْ كَانَتْ أَجْسَادُهُمْ وَظَوَاهِرُهُمْ مُتَّسِمَةً بِنَعَوَاتِ الْمَلَائِكَةِ، وَبِخِلَافِ صِفَاتِ الْبَشَرِ، لَمَّا أَطَاقَ الْبَشَرُ وَمَنْ أَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ مُخَالَطَتَهُمْ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَجَعَلُوا مِنْ جِهَةِ الْأَجْسَامِ وَالظُّوَاهِرِ مَعَ الْبَشَرِ، وَمِنْ جِهَةِ الْأَرْوَاحِ وَالْبَوَاطِنِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ.

١٥١٩ - كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا؛ وَلَكِنْ أُخُوَّةَ الْإِسْلَامِ، لَكِنْ صَاحِبَكُمْ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ».

١٥٢٠ - وَكَمَا قَالَ: «تَنَامُ عَيْنَايَ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي».

١٥٢١ - وَقَالَ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ؛ إِنِّي أَظَلُّ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي».

فَبَوَاطِنُهُمْ مُنْزَهَةٌ عَنِ الْآفَاتِ، مُطَهَّرَةٌ مِنَ النَّقَائِصِ وَالْإِعْتِلَالَاتِ.

وَهَذِهِ جَمَلَةٌ لَنْ يَكْتَفِيَ بِمُضْمُونِهَا كُلِّ ذِي هِمَّةٍ؛ بَلِ الْأَكْثَرُ يَحْتَاجُ إِلَى بَسْطِ وَتَفْصِيلِ عَلَى مَا نَأْتِي بِهِ بَعْدَ هَذَا الْبَابِ فِي الْبَابَيْنِ بَعَوْنِ اللَّهِ وَهُوَ حَسْبِي وَنَعْمَ الْوَكِيلُ.



الباب الأول

فِيمَا يَخْتَصُّ بِالْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَالْكَلَامِ فِي عِصْمَةِ نَبِيِّنَا
وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه: اعلم أن الطوارئ من التغيرات والآفات على أحوال البشر لا يخلو أن تطرأ على جسمه، أو على خواشه بغير قصد واختيار، كالأمراض والأسقام، أو تطرأ بقصد واختيار، وكله في الحقيقة عمل وفعل، ولكن جرى رسم المشايخ بتفصيله إلى ثلاثة أنواع: عقد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح. وجميع البشر تطرأ عليهم الآفات والتغيرات بالاختيار وبغير الاختيار في هذه الوجوه كلها.

والنبي ﷺ - وإن كان من البشر، ويجوز على جبلته ما يجوز على جبلته البشر - فقد قامت البراهين القاطعة، وثبتت كلمة الإجماع على خروجه عنهم، وتزويده عن كثير من الآفات التي تقع على الاختيار وعلى غير الاختيار، كما سيأتي - إن شاء الله - فيما يأتي به من التفاصيل.

فصل

فِي حُكْمِ عَقْدِ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ وَقْتِ نُبُوَّتِهِ

اعلم - متحنا الله وإياك توفيقه - أن ما تعلق منه بطريق التوحيد، والعلم بالله وصفاته، والإيمان به، وبما أوجبه إليه، فعلى غاية المعرفة، ووضوح العلم واليقين، والانتفاء عن الجهل بشيء من ذلك، أو الشك أو الريب فيه، والعصمة من كل ما يضاد المعرفة بذلك واليقين.

هذا ما وقع إجماع المسلمين عليه، ولا يصح بالبراهين الواضحة أن يكون في عقود الأنبياء سواه؛ فلا يُعترض على هذا بقول إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمُ﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ إذ لم يشك إبراهيم في إخبار الله تعالى له بإحياء الموتى، ولكن أراد طمأنينة القلب، وترك المنازعة لمشاهدة الإحياء؛ فحصل له العلم الأول بوقوعه، وأراد العلم الثاني بكيفيته ومشاهدته.

الوجه الثاني: أن إبراهيم - عليه السلام - إنما أراد اختبار منزله عند ربه، وعلم إجابته دعوته بسؤال ذلك من ربه؛ ويكون قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَوْنُوا﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ أي تصدق بمنزلتك مني، وخلتكَ، واصطفائك؟.

الوجه الثالث: أنه سأل زيادةً يقين وقوة طمأنينة، وإن لم يكن في الأول شك؛ إذ العلوم الضرورية والنظرية قد تتفاضل في قوتها، وطريقتان الشكوك على الضروريات مُمتنع؛ ومجوز في النظريات؛ فأراد الانتقال من النظر أو الخبر إلى المشاهدة والترقي من علم اليقين إلى عين اليقين؛ فليس الخبر كالمعاينة؛ ولهذا قال سهل بن عبد الله: سأل كشف غطاء العيان ليزداد بشور اليقين تمكناً في حاله.

الوجه الرابع: أنه لما احتج على المشركين بأن ربه يخفي ويميت طلب ذلك من ربه، ليصح احتجاجه عياناً.

الوجه الخامس: قول بعضهم: هو سؤال على طريق الأدب؛ المراد: أفيدني على إحياء الموتى، وقوله: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمُ﴾ عن هذه الأمانة.

الوجه السادس: أنه أرى من نفسه الشك، وما شك، لكن ليُجواب فيزداد قرينه.

١٥٢٢ - وقول نبينا عليه السلام: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»: نفى لأن يكون إبراهيم شك، وإبعاد للخواطر الضعيفة أن تظن هذا بإبراهيم عليه السلام؛ أي نحن موقنون بالبعث، وإحياء الله الموتى؛ فلو شك إبراهيم لكان أولى بالشك منه؛ إما على طريق الأدب، أو أن يريد أتمته الذين يجوز عليهم الشك، أو على طريق التواضع والإشفاق إن حملت قصة إبراهيم على اختبار حاله، أو زيادة يقينه.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ فَتَنَّا الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قِبَلِكُ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ولا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ [يونس: ٩٤، ٩٥].

فاحذَر - ثَبَّتَ اللَّهُ قَلْبِي وَقَلْبَكَ - أَنْ يَخْطُرَ بِإِلَاكَ مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ،
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - أَوْ غَيْرِهِ - مِنْ إِبْطَاتِ شَكِّ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ مِنْ
الْبَشَرِ؛ فَمِثْلُ هَذَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ جُمْلَةٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

١٥٢٣ - بَلْ قَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: لَمْ يَشْكُ النَّبِيُّ ﷺ، وَلَمْ يَسْأَلْ.
وَنَحْوَهُ عَنْ ابْنِ جُبَيْرٍ، وَالْحَسَنِ.

١٥٢٤ - وَحَكَى قَتَادَةُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا أَشْكُ وَلَا أَسْأَلُ»، وَعَامَّةُ
الْمُفَسِّرِينَ عَلَى هَذَا.

وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الْآيَةِ: فَقِيلَ: الْمَرَادُ: قُلْ يَا مُحَمَّدًا لِلشَّائِكِ: «فَإِنْ كُنْتُ
فِي شَكٍّ...» ﴿الآيَةُ [يونس: ٩٤].

قَالُوا: وَفِي السُّورَةِ نَفْسُهَا مَا دَلَّ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ وَهُوَ قَوْلُهُ: «قُلْ يَكْفُرُ
النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا آعْتِدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ آعْتِدُ اللَّهَ الَّذِي
يَتَوَكَّلُكُمْ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» ﴿[يونس: ١٠٤].

وقيل: المراد بالخطاب العربَ وَغَيْرَ النَّبِيِّ ﷺ، كَمَا قَالَ: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ
لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» [الزمر: ٦٥] الخطابُ لَهُ، وَالْمَرَادُ غَيْرُهُ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ» [هود: ١٠٩]
وَنظِيرُهُ كَثِيرٌ.

قَالَ بَكْرُ بْنُ الْعَلَاءِ: أَلَا تَرَاهُ يَقُولُ: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» ﴿[يونس: ٩٥]. وَهُوَ ﷺ كَانَ الْمُكَذَّبَ فِي مَا يَدْعُو إِلَيْهِ؛
كَيْفَ يَكُونُ مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِهِ؟

فَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَرَادَ بِالْخِطَابِ غَيْرُهُ.

وَمِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ: «الرَّحْمَنُ قَسَلَ لَكُمْ سَبُلَكُمْ» [الفرقان: ٥٩] الْمَأْمُورُ
هَـا هُنَا غَيْرُ النَّبِيِّ ﷺ، لِيَسْأَلَ النَّبِيَّ، وَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ الْخَبِيرُ الْمَسْئُولُ، لَا
الْمُسْتَخِيرُ السَّائِلُ.

وَقَالَ: إِنَّ هَذَا الشَّكَّ الَّذِي أَمَرَ بِهِ غَيْرُ النَّبِيِّ ﷺ بِسُؤَالِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ
الْكِتَابَ إِنَّمَا هُوَ فِي مَا قَضَاهُ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ، لَا فِي مَا دَعَا إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ
وَالشَّرِيعَةِ.

وَمِثْلُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ
الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ» ﴿[الزخرف: ٤٥] الْمَرَادُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، وَالْخِطَابُ مُوَاجَهَةٌ
لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَه الْقُتَيْبِيُّ.

وقيل: المعنى سَلْنَا عَمَّنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ؛ فَحَذِفَ الْخَافِضُ، وَتَمَّ الْكَلَامُ؛
ثُمَّ ابْتَدَأَ الْكَلَامَ: ﴿أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ...﴾ [الزخرف: ٤٥] الآية إِلَى آخِرِهَا عَلَى
طَرِيقِ الْإِنْكَارِ؛ أَيِ مَا جَعَلْنَا؛ حَكَاهُ مَكِّيٌّ.

وقيل: أَمَرَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَسْأَلَ الْأَنْبِيَاءَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ عَنْ ذَلِكَ؛ فَكَانَ أَشَدَّ
يَقِينًا مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى السُّؤَالِ.

١٥٢٥ - فُرُوِي أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَسْأَلُ؛ قَدْ اكْتَفَيْتُ»؛ قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ.

وقيل: سَلْ أُمَّمَ مَنْ أَرْسَلْنَا؛ هَلْ جَاؤُوهُمْ بِغَيْرِ التَّوْحِيدِ؟ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ
مُجَاهِدٍ، وَالسُّدِّيِّ، وَالضَّحَّاكِ، وَقَتَادَةَ.

وَالْمَرَادُ بِهَذَا وَالَّذِي قَبْلَهُ إِعْلَامُهُ بِمَا بُعِثَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَأْذَنْ فِي
عِبَادَةٍ غَيْرِهِ لِأَحَدٍ؛ رَدًّا عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ؛ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا
لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣].

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَبُ يَكْمُونَ أَنَّهُمْ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَتِّينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]؛ أَيِ فِي عِلْمِهِمْ بِأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَإِنْ لَمْ
يَقْرُؤُوا بِذَلِكَ؛ وَلَيْسَ الْمَرَادُ بِهِ شَكُّهُ فِيمَا ذَكَرَ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ.

وَقَدْ يَكُونُ أَيْضًا عَلَى مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ؛ أَيِ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ! لِمَنْ امْتَرَى فِي
ذَلِكَ: لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَتِّينَ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ أَوَّلَ الْآيَةِ: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَتَتَّبِعُ حَكَمًا
وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْأَكْثَبَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَبُ يَكْمُونَ أَنَّهُمْ مُنْزَلٌ مِنْ
رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَتِّينَ﴾ [الأنعام: ١١٤] وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَخَاطَبُ
بِذَلِكَ غَيْرَهُ.

وقيل: هُوَ تَقْرِيرٌ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ
اتَّخِذُونِي وَأَهْلِيَّ إِلَهَيْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ.
وقيل: مَعْنَاهُ مَا كُنْتُ فِي شَكٍّ فَاسْأَلْ تَزِدُّ ذُكْرًا طُمَأْنِينَةً وَعِلْمًا إِلَى عِلْمِكَ،
وَيَقِينًا.

وقيل: إِنْ كُنْتُ تَشْكُ فِيمَا شَرَّفْنَاكَ وَفَضَّلْنَاكَ بِهِ فَسَلُّهُمْ عَنْ صِفَتِكَ فِي
الْكِتَابِ وَنَشْرِ فَضَائِلِكَ.

وَحُكِيَ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّ الْمَرَادَ: إِنْ كُنْتُ فِي شَكٍّ مِنْ غَيْرِكَ فِيمَا أَنْزَلْنَاهُ.
فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿حَقٌّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾
[يوسف: ١١٠] عَلَى قِرَاءَةِ التَّخْفِيفِ؟

قُلْنَا: الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ مَا قَالَتْهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَظُنَّ ذَلِكَ

الرسول برئها؛ وإنما معنى ذلك أن الرسول لما استأشروا ظنوا أن من وعظهم القصر من أتباعهم كتبهم، وعلى هذا أكثر المفسرين.

وقيل: إن الضمير في «ظنوا» عائذ على الأتباع والأمم، لا على الأنبياء والرسول؛ وهو قول ابن عباس، والثَّعْمِي، وابن خبير، وجماعة من العلماء. وبهذا المعنى قرأ مجاهد: «كُتِبُوا» - بالفتح؛ فلا تُشغَلْ بالك من شاة التصير بسواء، مما لا يليق بمنصب العلماء، فكيف بالأنبياء؟

١٥٢٥م - وكذلك ما ورد في حديث السيرة، ومبتدأ الوحي؛ في قوله ﷺ لخبينة: «لقد خشيْتُ على نفسي» (البخاري (٣)، مسلم (١٦٠)) ليس معناه الشك فيما آتاه الله بعد رؤية الملك؛ ولكن لَعَلَّه خشي ألا تحتمل قُوَّتُه مقاومة الملك وأغلبه الوحي، فيلج قلبه، أو تزهق نفسه.

وهذا على ما ورد في الصحيح: أنه قاله بعد لقائه الملك؛ أو يكون ذلك قبل لقاء الملك وإعلام الله تعالى له بالنبوة لأول ما عرضت عليه من العجائب، وسلم عليه الحجر والشجر، وبدأته المنامات والتأثير؛ كما روي في بعض طرق هذا الحديث: إن ذلك كان أولاً في المنام، ثم أرى في اليقظة مثل ذلك؛ تأنيباً له عليه السلام؛ لتلايقه الأمر مشاهدة ومشاهدة؛ فلا تخشعه لأول حالة بيته البشرية.

١٥٢٦ - وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها: أول ما بُدِيَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة؛ قالت: ثم حُبِبَ إليه الخلاء؛ وقالت: إلى أن جاءه الحق وهو في غار حراء... الحديث (البخاري (٣)، مسلم (١٦٠)).

١٥٢٧ - وعن ابن عباس: مكث النبي ﷺ بمكة خمس عشرة سنة. يسمع الصوت، ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيئاً؛ وثماني سنين يوحى إليه (مسلم (١٢٣/٢٣٥٣)، أحمد (٣١٢/١)).

١٥٢٨ - وقد روى ابن إسحاق عن بعضهم أن النبي ﷺ قال - وذكر حواره بغار حراء - قال: «فجاءني وأنا نائم فقال: اقرأ، فقلت: ما أقرأ؟» وذكر نحو حديث عائشة في غطه له وإقرانه إياه: «اقرأ باسم ربك...» (السورة ثلاثاً). قال: «فانصرف عني، وهبئت من نومي كأنما ضُورث في قلبي، ولم يكن ألبس إلي من شاعر أو مجنون.

ثم قلت: لا تحدث عني قريش بهذا أبداً؛ لأصيرد إلى خالق من الجبل فلا طرحن نفسي منه، فلا قتلها.

فبينما أنا عامدٌ لذلك إذ سمعتُ مُنادياً يُنادي من السماء: يا محمدُ أنتَ رسولُ الله، وأنا جبريلُ، فرفعتُ رأسي فإذا جبريلُ على صورة رجل... وذكر الحديث.

فقد بين لك في هذا أن قوله لما قال، وقصده لما قصد، إنما كان قبل لقاء جبريلَ عليهما السلام، وقبل إعلامِ الله تعالى له بالنبوة، وإظهاره اصطفاؤه له بالرسالة.

١٥٢٩ - ومثله حديث عمرو بن شرحبيل أنه - عليه السلام - قال لخديجة رضي الله عنها: «إني إذا خلوتُ وخدي سمعتُ نداءً، وقد خشيتُ والله! أن يكونَ هذا لأمر».

١٥٣٠ - ومن رواية حماد بن سلمة أنَّ النبي ﷺ قال لخديجة: «إني لأسمعُ صوتاً، وأرى ضوءاً، وأخشى أن يكونَ بي جنونٌ» [أحمد (٣١٢/١)].

١٥٣١ - وعلى هذا يتأولُ - لو صحَّ - قوله في بعض هذه الأحاديث: «إنَّ الأبعدَ شاعرٌ أو مجنونٌ» والألفاظُ يفهم منها معاني الشكِّ في تصحيح ما رآه؛ وأنه كان كله في ابتداء أمره، وقبل لقاء الملك له، وإعلامِ الله أنه رسوله؛ فكيف وبعضُ هذه الألفاظ لا تصحُّ طُرُقها؟! وأما بعدَ إعلامِ الله تعالى له ولقائه الملك فلا يصحُّ فيه ريبٌ، ولا يجوز عليه شكٌّ فيما أُلقي إليه.

١٥٣٢ - وقد روى ابنُ إسحاق عن شيوخه أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يُزقي بمكة من العين قبل أن يُنزَلَ عليه، فلما نزل عليه القرآن أصابه نحو ما كان يُصيّبه؛ فقالت له خديجة: أوجهُ إليك من يزقيك؟ قال: «أما الآن فلا».

١٥٣٣ - وحديثُ خديجة واختبارُها أمرَ جبريلَ بكشفِ رأسها... الحديث إنما ذلك في حق خديجة لتتحقق صِحَّة نبوة رسولِ الله ﷺ، وأنَّ الذي يأتيه ملكٌ، ويزولُ الشكُّ عنها، لا أنها فعلت ذلك للنبي ﷺ وليختبرَ هو حاله بذلك.

١٥٣٤ - بل قد وردَ في حديث عبدِ الله بن محمد بن يحيى بن عروة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة: أنَّ ورقةً أمر خديجة أن تختبر الأمرَ بذلك.

١٥٣٥ - وفي حديث إسماعيل بن أبي حَكِيم أنها قالت لرسولِ الله ﷺ: «يا بنَ عمٍّ! هل تستطيعُ أن تُخبرني بصاحبك إذا جاءك؟ قال: «نعم» فلما جاء جبريلُ أخبرها، فقالت له: اجلس إلى شِقِّي... وذكر الحديث إلى آخره؛ وفيه: فقالت: ما هذا شيطان! هذا الملك يابنُ عمٍّ! فاثبت وأبشِرْ، وأمنتَ به.

فهذا يدل على أنها مُسْتَشَبَّة بما فعلته لنفسها، ومستظهِرة لإيمانها، لا للنبي ﷺ.

١٥٣٦ - وقول مَعْمَرٍ في قِطْرَةِ الْوَحْيِ: «فَحَزَنَ النَّبِيُّ ﷺ - فيما بلغنا - حُزْنًا غَدًا مِنْهُ مِرَارًا كِي يَتَرَدَّى مِنْ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ» [البخاري (٦٩٨٢)] لَا يَقْدَحُ فِي هَذَا الْأَصْلِ، لِقَوْلِ مَعْمَرٍ عَنْهُ: فِيمَا بَلَّغْنَا، وَلَمْ يُسْنِدْهُ، وَلَا ذَكَرَ رَاوِيَهُ، وَلَا مَنْ حَدَّثَ بِهِ، وَلَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ؛ وَلَا يُعْرِفُ مِثْلُ هَذَا إِلَّا مِنْ جِهَةِ النَّبِيِّ ﷺ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ يُحْمَلُ عَلَى أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ الْأَمْرِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ؛ أَوْ أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ لِمَا أُخْرِجَهُ مِنْ تَكْذِيبِ مَنْ بَلَّغَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا كَبُحَ ثَمُودُ عَلَىٰ نَفْسِكَ عَلَيْنَا أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا ﴿١﴾ [الكهف: ٦].

١٥٣٧ - وَيُصَحِّحُ مَعْنَى هَذَا التَّأْوِيلِ حَدِيثُ رَوَاهُ شَرِيكٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَقِيلٍ، عَنْ جَاهِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ الْمَشْرِكِينَ لَمَّا اجْتَمَعُوا بِدَارِ التَّنْذِيرِ لِلتَّشَاوُرِ فِي شَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ يَقُولُوا: إِنَّهُ سَاحِرٌ، اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَتَزَمَّلَ فِي ثِيَابِهِ، وَتَدَثَّرَ فِيهَا؛ فَاتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْزُوقُ ﴿١﴾﴾ [المزمل: ١] وَ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ [المدثر: ١].

أَوْ خَافَ أَنَّ الْفِتْرَةَ لِأَمْرِ أَوْ سَبَبٍ مِنْهُ، فَخَشِيَ أَنْ يَكُونَ عَقُوبَةً مِنْ رَبِّهِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَرِذْ بَعْدَ شَرْعِ الْإِسْلَامِ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ، فَيُعْتَرِضُ بِهِ.

وَنَحْوُ هَذَا فِرَازُ يُونُسَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - خَشْيَةُ تَكْذِيبِ قَوْمِهِ لَهُ، لَمَّا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ؛ وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَظَنُّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ...﴾ [الأنبياء: ٨٧] مَعْنَاهُ أَنْ لَنْ نُضَيِّقَ عَلَيْهِ.

قَالَ مَكِّي: طَمِعَ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ وَأَلَّا يُضَيِّقَ عَلَيْهِ مَسْلَكَهُ فِي خُرُوجِهِ.

وَقِيلَ: حَسَنَ ظَنُّهُ بِمَوْلَاهُ أَنَّهُ لَا يَقْضِي عَلَيْهِ الْعَقُوبَةَ.

وَقِيلَ: تَقَدَّرَ عَلَيْهِ مَا أَصَابَهُ.

وَقَدْ قُرِئَ: ﴿تَقَدَّرَ عَلَيْهِ﴾ بِالتَّشْدِيدِ.

وَقِيلَ: نَوَازَخَهُ بِغَضَبِهِ وَذَهَابَهُ.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: مَعْنَاهُ: أَظُنُّ أَنْ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ؟ عَلَى الْإِسْتِفْهَامِ.

وَلَا يَلِيقُ أَنْ يُظَنَّ بِنَبِيِّ أَنْ يَجْهَلَ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ رَبِّهِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِذْ دَهَبَ مُغْنِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] الصَّحِيحُ: مُغَاضِبًا لِقَوْمِهِ

لِكُفْرِهِمْ؛ وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالضَّحَّاكِ، وَغَيْرِهِمَا؛ لَا لِزَيْدٍ عَزَّ وَجَلَّ إِذْ مُغَاضِبَةُ اللَّهِ: مُعَادَاةُ لَهُ؛ وَمُعَادَاةُ اللَّهِ: كُفْرٌ لَا تَلِيْقُ بِالْمُؤْمِنِينَ، فَكَيْفَ بِالْأَنْبِيَاءِ.

وقيل: مُسْتَحْيَا مِنْ قَوْمِهِ أَنْ يَسْمُوهُ بِالْكَذِبِ أَوْ يَقْتُلُوهُ، كما ورد في الخبر.
وقيل: مُغَاضِباً لِبَعْضِ الْمُلُوكِ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ مِنَ التَّوَجُّهِ إِلَى أَمْرِ أَمْرِهِ اللَّهُ بِهِ
عَلَى لِسَانِ نَبِيِّ آخَرٍ؛ فَقَالَ لَهُ يُونُسُ: غَيْرِي أَقْوَى عَلَيْهِ مِنِّي؛ فَعَزَمَ عَلَيْهِ فَخَرَجَ
لِذَلِكَ مُغَاضِباً.

وقد رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ إِرْسَالَ يُونُسَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَنُبُوتَهُ إِنَّمَا
كَانَتْ بَعْدَ أَنْ نَبَذَهُ الْحَوْتُ، وَاسْتَدَلَّ مِنَ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ
﴿١٥٠﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٥١﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ بَاقَةَ آلِفٍ أَوْ زَيْدُونَ ﴿١٥٢﴾﴾
[الصفات: ١٤٥ - ١٤٧].

وُاسْتَدَلَّ أَيْضاً بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْكُوْتِ...﴾ [القلم: ٤٨] وَذَكَرَ
الْقِصَّةَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٥٠]؛ فَتَكُونُ هَذِهِ الْقِصَّةُ
إِذَا قَبِلَ نُبُوتَهُ.

١٥٣٨ - فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّهُ لِيُغَانَّ عَلَى قَلْبِي،
فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِثْلَ مَرَّةٍ؟» [مسلم (٢٧٠٢)].

١٥٣٩ - وَفِي طَرِيقٍ آخَرَ: «فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً» [البخاري (٦٣٠٧)].
فَاخْذَرْ أَنْ يَقَعَ بِبَالِكَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْغَيْنُ وَسُوسَةً أَوْ زَيْناً وَقَعَ فِي قَلْبِهِ عَلَيْهِ
السَّلَامُ؛ بَلْ أَضَلَّ الْغَيْنُ فِي هَذَا: مَا يَتَغَشَّى الْقَلْبَ وَيُغْطِيهِ؛ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ،
وَأَصْلُهُ مِنَ غَيْنِ السَّمَاءِ؛ وَهُوَ إِطْبَاقُ الْغَيْمِ عَلَيْهَا.
وَقَالَ غَيْرُهُ: وَالْغَيْنُ شَيْءٌ يَغْشَى الْقَلْبَ وَلَا يُغْطِيهِ كُلُّ التَّغْطِيَةِ كَالْغَيْمِ الرَّقِيقِ
الَّذِي يَغْرُضُ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا يَمْنَعُ ضَوْءَ الشَّمْسِ.

وَكَذَلِكَ لَا يُفْهَمُ مِنَ الْحَدِيثِ أَنَّهُ يُغَانَّ عَلَى قَلْبِهِ مِثْلَ مَرَّةٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ
مَرَّةً فِي الْيَوْمِ؛ إِذْ لَيْسَ يَقْتَضِيهِ لَفْظُهُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ؛ وَهُوَ أَكْثَرُ الرِّوَايَاتِ؛ وَإِنَّمَا هَذَا
عَدَدٌ لِلْإِسْتِغْفَارِ لَا لِلْغَيْنِ؛ فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِهَذَا الْغَيْنِ إِشَارَةً إِلَى غَفَلَاتِ قَلْبِهِ،
وَفَقَرَاتِ نَفْسِهِ، وَسَهْوِهَا عَنْ مَدَاوِمَةِ الذِّكْرِ وَمَشَاهِدَةِ الْحَقِّ، بِمَا كَانَ ﷺ دَفَعَ إِلَيْهِ
مِنْ مُقَاسَاةِ الْبَشَرِ، وَسِيَاسَةِ الْأُمَّةِ، وَمُعَانَاةِ الْأَهْلِ، وَمُقَاوَمَةِ الْوَلِيِّ، وَالْعَدُوِّ،
وَمَصْلَحَةِ النَّفْسِ؛ وَكُلَّفَهُ مِنْ أَعْيَاءِ أَدَاءِ الرِّسَالَةِ، وَحَمْلِ الْأَمَانَةِ؛ وَهُوَ فِي كُلِّ هَذَا
فِي طَاعَةِ رَبِّهِ، وَعِبَادَةِ خَالِقِهِ؛ وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ ﷺ أَرْفَعَ الْخَلْقَ عِنْدَ اللَّهِ مَكَانَةً،
وَأَعْلَاهُمْ دَرَجَةً، وَأَتَمَّهُمْ بِهِ مَعْرِفَةً؛ وَكَانَتْ حَالُهُ عِنْدَ خُلُوصِ قَلْبِهِ، وَخُلُوعِ هِمَّتِهِ،
وَتَقَرُّدِهِ بِرَبِّهِ، وَإِقْبَالِهِ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَيْهِ، وَمَقَامُهُ هُنَاكَ أَرْفَعَ حَالِيهِ، رَأَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -

حال قترته عنها، وشغلها بسواها، غصاً من علي حاله، وحفظاً من زبيع مقابله،
فاستغفر الله من ذلك.

وهذا أولي وأجود الحديث وأشهرها.

والى معنى ما أشرنا به، مال إليه كثير من الناس، وحام حوله، فقارب ولم
يرف.

وقد قرئنا غايض معناه، وكشفنا للمستفيد فحشاء؛ وهو مبني على جوار
الفترات، والفتلات، والشهر في غير طريق البلاغ، على ما سيأتي.

ودعيت طائفة من أرباب القلوب، ومشيخة المتصوفة بمن قال بفتريه
النبي ﷺ عن هذا جملة، وأجله أن يجوز عليه في حال منهو أو قتره إلى أن
معنى الحديث: ما يهم خاطره، ويغم فكره من أمر أمته - عليه السلام -
لاهتمام بهم، وكثرة شفقتهم عليهم، فيستغفر لهم.

قالوا: وقد يكون الغنى - هنا - على قلبه: السكينة التي تتغشاها؛ لقوله
تعالى: ﴿فَأَسْرَأَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٥] ويكون استغفاره - عليه السلام -
عندها إظهاراً للعبودية والافتقار.

وقال ابن عطاء: استغفاره وفعله هذا تعريف لأئمة يحتلهم على الاستغفار.

وقال غيره: يستغفرون الحذر، ولا يركنون إلى الأمن.

وقد يحتمل أن تكون هذه الإغالة حالة خلية وإعظام تغش قلبه، فيستغفر
حيث شكراً لله، وملازمة لعبوديته.

١٥٤٠ - كما قال في ملازمة العبادة: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟».

١٥٤١ - وعلى هذه الوجوه الأخيرة يحمل ما روي في بعض طرق هذا
الحديث عنه عليه السلام: «إِنَّ لِي قَلْبًا فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً
فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ»^(١).

فإن قلت: فما معنى قوله تعالى لمحمد عليه السلام: ﴿وَلَوْ كُنَّا اللَّهُ لَجَمَعْنَهُمْ
عَلَى الْهَدَىٰ فَلَأَكُونُوا مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٥] -

وقوله لنوح عليه السلام: ﴿فَلَا تَتَّبِعِ مَا يَدْعُوكَ إِلَىٰ طُغْيَانٍ أَن تَكُونَ
مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [مروء: ١٤٦] -

فاعلم أنه لا يلحق في ذلك إلى قول من قال في آية نبينا عليه السلام: فلا
تكون ممن يجهل أن الله لو شاء لجمعهم على الهدى. وفي آية نوح: لا تكون
ممن يجهل أن وعد الله حق؛ لقوله: ﴿وَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [مروء: ١٤٥] إذ فيه

إثبات الجَهْلِ بصفة من صفات الله؛ وذلك لا يجوز على الأنبياء.

والمقصودُ وَغَظْهُمُ أَلَّا يَتَشَبَّهُوا في أمورهم بِسِمَاتِ الجاهِلين، كما قال: ﴿إِنِّي أَعْطُكُ﴾. وليس في آية منها دَلِيلٌ على كَوْنِهِمْ على تلك الصفة التي نهاهم الله عن الكَوْنِ عليها؛ فكيف؟ وآية نوح قِيلَها: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾. فَحَمَلُ ما بعدها على ما قبلها أَوَّلِي؛ لَأَنَّ مِثْلَ هذا قد يحتاج إلى إِذْنٍ. وقد تَجَوَّزُ إِبَاحَةُ السُّؤَالِ فيه ابتداءً؛ فنهاه الله أَن يسأله عَمَّا طَوَى عنه عِلْمُهُ، وَأَكْتَنَهُ مِنْ غَيْبِهِ من السببِ المُوجِبِ لهلاكِ ابنه.

ثم أَكْمَلَ اللهُ تعالى نعمته عليه بإعلامه ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّمَا عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]. حكى معناه مَكِّي.

كذلك أَمَرَ نَبِيُّنا - عليه السلام - في الآية الأخرى بالتزام الصَّبْرِ على إعراض قومه؛ ولا يَخْرُجُ عند ذلك؛ فيقارب حال الجاهل بشدة التحسُّر. حكاه أبو بكر بن مُورَك.

وقيل: معنى الخطاب لأمة محمد ﷺ؛ أي: فلا تكونوا من الجاهلين. حكاه أبو محمد مَكِّي؛ وقال: مثله في القرآن كثير.

فبهذا الفضل وجب القول بِعِصْمَةِ الأنبياء منه بعد النبوة قَطْعاً.

فإِن قُلْتُ: فإذا قَرَرْتَ عِصْمَتَهُمْ من هذا، وأنه لا يجوزُ عليهم شيء من ذلك، فما معنى إذا وَعَيْدُ اللَّهِ لِنَبِيِّنا ﷺ على ذلك إِنْ فَعَلَهُ، وتحذيره منه، كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن نَّبْتَثُكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) إِذَا لَادَقْنَاكَ ضَعُفَ الْحَيَوةِ وَضَعُفَ أَلَمَاتِ ثُمَّ لَا يَحْدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

وقوله: ﴿لَاخِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٥].

وقوله: ﴿وَلَنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية [الأنعام: ١١٦].

وقوله: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخَيِّرْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤].

وقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقوله: ﴿أَتَنَى اللَّهُ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُشْفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

فاغْلَمْ - وَقَفْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكَ - أَنَّهُ ﷺ لا يَصْحُحُ، ولا يجوزُ عليه، أَن لا يُلَغَّ،

وَأَنْ يَخَالَفَ أَمْرَ رَبِّهِ، وَلَا أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَلَا يَقُولَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يُحِبُّ، أَوْ يَقْتَرِي عَلَيْهِ، أَوْ يَضِلُّ أَوْ يُخْتَمَ عَلَى قَلْبِهِ، أَوْ يُطِيعَ الْكَافِرِينَ؛ لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسِّرُ أَمْرَهُ بِالْمُكَاشَفَةِ وَالْبَيَانِ فِي الْبَلَاغِ لِلْمُخَالَفِينَ، وَأَنْ يُبَلِّغَهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِهَذِهِ السَّبِيلِ فَكَانَهُ مَا بَلَغَ.

فَطِيبَ نَفْسَهُ، وَقَوَّى قَلْبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]؛ كَمَا قَالَ لِمُوسَى وَهَارُونَ: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا﴾ [طه: ٤٦]؛ لِتَشْتَدَّ بِصَائِرِهِمْ فِي الْإِبْلَاغِ، وَإِظْهَارِ دِينَ اللَّهِ، وَيُذْهِبَ عَنْهُمْ خَوْفَ الْعَدُوِّ الْمُضْعِفِ لِلنَّفْسِ. وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ قَوْلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ ٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْآوِينَ ٤٦﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذَا لَادَقْتَكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٥] فَمَعْنَاهُ: أَنَّ هَذَا جَزَاءٌ مَنْ فَعَلَ هَذَا، وَجَزَاؤُكَ لَوْ كُنْتَ مِمَّنْ يَفْعَلُهُ، وَهُوَ لَا يَفْعَلُهُ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ تَطْعَ أَعْدَاكَ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] فَالْمَرَادُ بِهِ غَيْرُهُ؛ كَمَا قَالَ: ﴿إِنْ تُطِيعُوا الزَّيْطَ كَفَرُوا بِرُدُّوكُمْ عَلَى أَفْقَافِكُمْ فَتَسْقَلُوا حَسِيرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ نَسِيلَ اللَّهِ يُخْتَمُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤] وَ ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِحَبْلِ اللَّهِ غَمَلًا﴾ [الزمر: ٦٥] وَمَا أَشْبَهَهُ، فَالْمَرَادُ بِهِ غَيْرُهُ وَأَنَّ هَذِهِ حَالٌ مَنْ أَشْرَكَ؛ وَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ هَذَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَتَى اللَّهَ وَلَا تَطِيعَ الْكَافِرِينَ وَالْمُشْفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] فَلَيْسَ فِيهِ أَنَّهُ أَطَاعَهُمْ، وَاللَّهُ بِنَهَايَةٍ عَمَّا يَشَاءُ وَيَأْمُرُهُ بِمَا يَشَاءُ؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا تَقْلُدُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْعَدْوَةِ وَالْيَمِينِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ٥٢﴾ [الأنعام: ٥٢]. وَمَا كَانَ طَرْدُهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَلَا كَانَ مِنَ الظَّالِمِينَ.

فصل

فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَ النَّبُوَّةِ مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ

وَأَمَّا عِصْمَتُهُمْ مِنْ هَذَا الْفَنِّ قَبْلَ النَّبُوَّةِ فَلِلنَّاسِ فِيهِ خِلَافٌ؛ وَالصَّوَابُ أَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - قَبْلَ النَّبُوَّةِ مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَالشُّكِّ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ؛

وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتزويدهم عن هذه النقيصة منذ وُلِدُوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان؛ بل على إشراق أنوار المعارف، ونفحات لطاف السعادة، كما نبهنا عليه في الباب الثاني من القسم الأول من كتابنا هذا. ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نُبِئَ واصطُفِيَ مِنَّ عَرَفَ بكُفْرِ وإشراكٍ قبل ذلك. ومُستندُ هذا الباب الثقل؛ وقد استدلل بعضهم بأن القلوب تنفِرُ عَمَّنْ كانت هذه سبيله.

وأنا أقول: إن قُرَيْشاً قد رَمَتْ نَبِيَّنا - عليه السلام - بكل ما افترته، وعَيَّرَ كُفَّارُ الأُمَمِ أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته، مما نَصَّ اللَّهُ تعالى عليه، أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في شيء من ذلك تغييراً لواحدٍ منهم برفضه آلهته، وتفريعه بدمه بتزك ما كان قد جامعهم عليه.

ولو كان هذا، لكانوا بذلك مُتَبَادِرِينَ، وبتلويته في معبوده محتججين، ولكان توبيخهم له بنهيم عما كان يعبد قبل أقطع وأقطع في الحجة من توبيخه بنهيم عن تزكهم آلهتهم، وما كان يعبد آباؤهم من قبل.

ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليه؛ إذ لو كان لثقل، ولما سكتوا عنه، كما لم يسكتوا عند تحويل القبلة، وقالوا: ﴿مَا وَلَهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الْأَيَّ كَانُوا عَلَيْهَا...﴾ [البقرة: ١٤٢]، كما حكاها الله عنهم.

وقد استدلل القاضي القشنري على تزويدهم عن هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال: فطهره الله في الميثاق. وبعيد أن يأخذ منه الميثاق قبل خلقه، ثم يأخذ ميثاق النبيين بالإيمان به ونصره قبل مولده بدهور، ويجوز عليه الشرك أو غيره من الذنوب. هذا ما لا يجوز إلا ملحد. هذا معنى كلامه.

١٥٤٢ - وكيف يكون ذلك وقد أتاه جبريل عليه السلام وشق قلبه صغيراً، واستخرج منه علقه، وقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله بماء حكمة وإيماناً، كما تظاهرت به أخبار المبدأ.

ولا يشبهه عليك بقول إبراهيم في الكوكب والقمر والشمس: ﴿هَذَا رَبِّي﴾

[الأنعام: ٧٦] فإنه قد قيل: كان هذا في سِنِّ الطفولية، وابتداء النظر والاستدلال؛ وقبل لزوم التكليف.

وذهب معظم الحُذَّاق من العلماء المفسرين إلى أنه إنما قال ذلك مُبَكِّتاً، لقومه، ومستدلاً عليهم.

وقيل: معناه الاستفهام الوارد مؤرد الإنكار؛ والمراد: فهذا رَبِّي؟
قال الرَّجَّاجُ: قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] أي على قولكم؛ كما قال: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ [فصلت: ٤٧] أي عندكم.

ويدل على أنه لم يعبُد شيئاً من ذلك، ولا أشرك قط بالله طرفة عين: قول الله تعالى عنه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٧٠].

ثم قال: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [٧٥] أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ أَتَمَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَنَّهُمْ عَتَوْا عَلَىٰ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧].

وقال: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّكَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤]؛ أي: من الشُّرك.

وقوله: ﴿وَأَحْسَبْنِي وِثْقًا آَثَمًا﴾ [إبراهيم: ٣٥].

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

قيل: إنه إن لم يؤيِّدني الله بمعونته أَكُنْ مثلكم في ضلالتكم وعبادتكم، على معنى الإشفاق والحذر؛ وإلا فهو معصوم في الأزل من الضلال.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا...﴾ [إبراهيم: ١٣]. ثم قال بعد ذلك عن الرسل: ﴿فَدَأَوْا ثَمَرَنَا عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ عُنَادًا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ...﴾ [الأعراف: ٨٩]؛ فلا يُشْكِلُ عليك لفظة العود، وأنها تقتضي أَنَّهُمْ إِنَّمَا يعودون إلى ما كانوا فيه من مِلَّتِهِمْ؛ فقد تأتي هذه اللفظة في كلام العرب لغير ما ليس له ابتداء بمعنى الصيرورة.

١٥٤٣ - كما جاء في حديث الجهنميين: «عَادُوا حُمَاً» [البخاري (٦٥٦٠)، مسلم (١٨٣)] ولم يكونوا قبل كذلك.

ومثله قول الشاعر:

بَلَّكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانٍ مِنْ لَبَنِ شَيْبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَغْدُ أَبْوَالَا
وما كانا قَبْلَ ذلك، كذلك.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]؛ فليس

هو من الضلال الذي هو الكُفْر؛ قيل: ضالاً عن الثبوت فهذا إلهيا؛ قاله الطبري.
وقيل: وجدك بين أهل الضلال، فعصمك من ذلك، وهذا للإيمان، وإلى
إرشادهم.

ونحوه عن السدي وغير واحد.

وقيل: ضالاً عن شريعتك التي لا تعرفها فهذا إلهيا.
والضلال ها هنا: التَّحْيِير؛ ولهذا كان - عليه السلام - يخلو بغار حراء في
طلب ما يتوجه به إلى ربه، ويتشرع به حتى هداه إلى الإسلام، قال معناه
القشيري.

وقيل: لا تعرف الحق، فهذا إلهي. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا
لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]؛ قاله علي بن عيسى.
قال ابن عباس: لم تكن له ضلالة معصية.
وقيل: هدى؛ أي بين أمرك بالبراهين.
وقيل: وجدك ضالاً بين مكة والمدينة، فهذا إلى المدينة.
وقيل: المعنى: وجدك فهدى بك ضالاً.

وعن جعفر بن محمد: ووجدك ضالاً عن محبتي لك في الأزل؛ أي: لا
تعرفها؛ فمنتث عليك بمعرفتي.

وقرأ الحسن بن علي: ووجدك ضالاً فهدى؛ أي اهتدى بك.
وقال ابن عطاء: ووجدك ضالاً، أي: مُجِباً لمعرفتي. والضال: المُجِبُّ؛
كما قال: ﴿إِنَّكَ لَكَيِّ صَلَاتِكَ الْكَدِيرُ﴾ [يوسف: ٩٥]؛ أي محبتك القديمة؛ ولم
يريدوا ها هنا في الدين؛ إذ لو قالوا ذلك في نبي الله لكفروا.
ومثله عند هذا قوله: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي صَلَاتٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]. أي: مَحَبَّةٍ
بَيِّنَةٍ.

وقال الجنيّد: ووجدك مُتَحَيِّراً في بيان ما أنزل عليك فهذا لبيانيه؛ لقوله
تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].
وقيل: ﴿وَوَعَدَكَ﴾ لم يعرفك أحد بالنبوة حتى أظهرتك، فهدى بك السعادة،
ولا أعلم أحداً قال من المفسرين ها هنا فيها: ضالاً عن الإيمان.
وكذلك في قصة موسى عليه السلام قوله: ﴿فَلَمَّا إِذَا مَا قَالَ وَمَا بَيْنَ يَدَيَّ الْوَيْلُ﴾ [الشعراء: ٢٠] أي: من المخطئين الفاعلين شيئاً بغير قصد؛ قاله ابن عرفة.
وقال الأزهري: معناه من الناسين.

وقد قيل ذلك في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]؛ أي ناسياً؛ كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ...﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرٍ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢].

فالجواب أن السمرقندي قال: معناه: ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان.

وقال بكر القاضي نحوه؛ قال: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام؛ قال: فكان قبل مؤمناً بتوحيده؛ ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل؛ فزاد بالتكليف إيماناً؛ وهو أحسن وجوهه.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَإِن كُنْتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٢٣] فاعلم أنه ليس بمعنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: ٧]؛ بل قد حكى أبو عبيد الهروي أن معناه لمن الغافلين عن قصة يوسف؛ إذ لم تغلبها إلا بوحيها.

١٥٤٤ - وكذلك الحديث الذي يرويه عثمان بن أبي شيبة بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قد كان يشهد مع المشركين مشاهدتهم، فسمع الملكين خلفه، أحدهما يقول لصاحبه: اذهب حتى تقوم خلفه. فقال الآخر: كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام؟ فلم يشهدهم بعد. فهذا حديث أنكره أحمد بن حنبل جداً، وقال: هذا موضوع، أو شبيهه بالموضوع.

وقال الدارقطني: يقال: إن عثمان وهم في إسناده. والحديث بالجملة منكّر غير متفق على إسناده؛ فلا يلتفت إليه. ١٥٤٥ - والمعروف عن النبي ﷺ خلافه عند أهل العلم من قوله: «بُغِضْتُ إِلَى الْأَصْنَامِ».

١٥٤٦ - وقوله في الحديث الآخر الذي روثه أم أيمن حين كلمه عمه وآله في حضور بعض أعيادهم، وعزّموا عليه فيه بعد كراهته لذلك؛ فخرج معهم، ورجع مزعوباً؛ فقال: «كَلِمَا ذَنُوتُ مِنْهَا مِنْ صَنَمٍ تَمَثَّلَ لِي شَخْصٌ أَبْيَضٌ طَوِيلٌ يَصْبِحُ بِي: وَرَاءَكَ، لَا تَمْسُهُ» فما شهد بغد لهم عيداً.

١٥٤٧ - وقوله - في قصة بحيرا - حين استحلف النبي ﷺ باللات

والعزى، إذ لقيه بالشام في سفرته مع عمه أبي طالب وهو صبي، ورأى فيه علامات النبوة، فاختبره بذلك، فقال له النبي ﷺ: «لا تسألني بهما، فوالله! ما أبغضت شيئاً قط أبغضهما».

فقال له بحيراً: فبالله! إلا ما أخبرني عما أسألك عنه. فقال: «سَلْ عَمَّا بَدَأَ لَكَ».

وكذلك المعروف من سيرته - عليه الصلاة والسلام - وتوفيق الله له أنه كان قبل نبوته يخالف المشركين في وقوفهم بمزدلفة في الحج؛ فكان يقف هو بعرفة؛ لأنه كان موقف إبراهيم عليه السلام.

فصل

فِي أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ الْعِصْمَةُ مِنْ عَدَمِ مَغْرِفَتِهِمْ بِتَغْضِ أُمُورِ الدُّنْيَا

قال القاضي أبو الفضل - رحمه الله -: قد بان بما قدمناه عقود الأنبياء في التوحيد، والإيمان، والوحي وعِصْمَتِهِمْ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ. فَأَمَّا مَا عَدَا هَذَا الْبَابَ مِنْ عَقُودِ قُلُوبِهِمْ فَجَمَاعُهَا أَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ عِلْماً وَبِقِيْنًا عَلَى الْجُمْلَةِ، وَأَنَّهَا قَدْ احْتَوَتْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ بِأُمُورِ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا مِمَّا لَا شَيْءَ قُوَّةَ.

وَمَنْ طَالَعَ الْأَخْبَارَ، وَاعْتَنَى بِالْحَدِيثِ، وَتَأَمَّلَ مَا قُلْنَا وَجَدَهُ. وَقَدْ قَدِمْنَا مِنْهُ فِي حَقِّ نَبِيِّنَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْبَابِ الرَّابِعِ أَوَّلَ قِسْمٍ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ مَا يُنْبِئُ عَلَى مَا وَرَاءَهُ، إِلَّا أَنَّ أَحْوَالَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَعَارِفِ تَخْتَلِفُ. فَأَمَّا مَا تَعَلَّقَ مِنْهَا بِأَمْرِ الدُّنْيَا فَلَا يُشْتَرَطُ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ الْعِصْمَةُ مِنْ عَدَمِ مَعْرِفَةِ الْأَنْبِيَاءِ بَعْضُهَا، أَوْ اعْتِقَادِهَا عَلَى خِلَافِ مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَلَا وَضَمَّ عَلَيْهِمْ فِيهِ؛ إِذْ هِمَّتُهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْآخِرَةِ وَأَنْبَاءُهَا، وَأَمْرُ الشَّرِيعَةِ وَقَوَانِينِهَا. وَأُمُورُ الدُّنْيَا تَضَادُّهَا، بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا الَّذِينَ «يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ» [٧: الروم].

كَمَا سَبَقَ فِي هَذَا فِي الْبَابِ الثَّانِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ وَلَكِنَّهُ لَا يُقَالُ: إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُوْدِي إِلَى الْغَفْلَةِ وَالْبَلْهَةِ، وَهُمْ الْمَنْزُهِونَ عَنْهُ؛ بَلْ قَدْ أُرْسِلُوا إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا، وَقُلَّدُوا سِيَاسَتَهُمْ وَهَدَايَتَهُمْ، وَالنَّظَرَ فِي مَصَالِحِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ؛ وَهَذَا لَا يَكُونُ مَعَ عَدَمِ الْعِلْمِ بِأُمُورِ الدُّنْيَا بِالْكُلِّيَّةِ؛ وَأَحْوَالِ

الأنبياء وسيّرهم في هذا الباب معلومة، ومعرفتهم بذلك كله مشهورة.

وأما إن كان هذا العقد مما يتعلّق بالدين فلا يصحّ من النبي ﷺ إلاّ العلم به، ولا يجوز عليه جهله جملة؛ لأنّه لا يخلو أن يكون حصل عنده ذلك عن وحي من الله، فهو ما لا يصحّ الشك منه فيه - على ما قدّمناه - فكيف الجهل؟ بل حصل له العلم اليقين. أو يكون فعل ذلك باجتهاده فيما لم ينزل عليه فيه شيء، على القول بتجويز وقوع الاجتهاد منه في ذلك على قول المحقّقين.

١٥٤٨ - وعلى مقتضى حديث أم سلمة رضي الله عنها: «إني إنما أقضي بينكم برأيي فيما لم ينزل عليّ فيه شيء» [البخاري (٢٦٨٠)، مسلم (١٧١٣)، أبو داود (٣٥٨٥)]. خرّجه الثقات.

وكقصة أسرى بدر، والإذن للمتخلفين على رأي بعضهم، فلا يكون أيضاً ما يعتقده مما يثمره اجتهاده إلاّ حقاً وصحيحاً.

هذا هو الحق الذي لا يلتفت إلى خلاف من خالف فيه ممّن أجاز عليه الخطأ في الاجتهاد لا على القول بتضويب المجتهدين الذي هو الحق والصواب عندنا؛ ولا على القول الآخر بأن الحق في طرف واحد لعصمة النبي ﷺ من الخطأ في الاجتهاد في الشرعيات؛ ولأنّ القول في تخطئة المجتهدين إنما هو بعد استقرار الشرع؛ ونظر النبي ﷺ واجتهاده إنما هو فيما لم ينزل عليه فيه شيء، ولم يشرع له قبل؛ هذا فيما عقد عليه قلبه ﷺ، فأما ما لم يعقد عليه قلبه من أمر التوازل الشرعية؛ فقد كان لا يعلم منها أولاً إلاّ ما علّمه الله - عز وجل - شيئاً فشيئاً حتى استقرّ علم جملتها عنده؛ إمّا بوحي من الله، أو إذن له أن يشرع في ذلك، ويحكم بما أراه الله.

وقد كان يتطرّح الوحي في كثير منها؛ ولكنه لم يمت ﷺ حتى استقرّ علم جميعها عنده عليه السلام، وتقرّرت معارفها لديه على التحقيق، ورفع الشك والريب، وانتفاء الجهل.

وبالجملة فلا يصحّ منه الجهل بشيء من تفاصيل الشرع الذي أمر بالدعوة إليه؛ إذ لا تصحّ دعوته إلى ما لا يعلم.

وأما ما تعلّق بعقده من ملكوت السموات والأرض، وخلق الله تعالى وتعيين أسمائه الحسنی، وآياته الكبرى، وأمور الآخرة، وأشراف الساعة، وأحوال السعداء والأشقياء، وعلم ما كان وما يكون مما لا يعلمه إلاّ بوحي - فعلى ما تقدّم - من

أنه معصوم فيه، لا يأخذه فيما أعلم به شك ولا ريب؛ بل هو فيه على غاية اليقين.

١٥٤٩ - لكنه لا يشترط له العلم بجميع تفاصيل ذلك، وإن كان عنده من علم ذلك ما ليس عند جميع البشر؛ لقوله: «إني لا أعلم إلا ما علمني ربي».

١٥٥٠ - ولقوله: «ولا خطر على قلب بشر». ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ...﴾ [السجدة: ١٧] [مسلم (٢٨٢٥)].

وقول موسى - عليه السلام - للخضر: ﴿هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

١٥٥١ - وقوله ﷺ: «أسألك بأسمائك الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم».

١٥٥٢ - وقوله: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك» [أحمد (٣٩١/١)].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] قال زيد بن أسلم وغيره: حتى ينتهي العلم إلى الله.

وهذا ما لا خفاء به، إذ معلوماته - تعالى - لا يحاط بها، ولا تنتهي لها. هذا حكم عقيد النبي ﷺ في التوحيد والشرع والمعارف والأمر الدينية.

فصل

فِي إِجْمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَىٰ عِصْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكِفَايَتِهِ مِنْهُ

واعلم أن الأمة مجتمعة على عاصمة النبي ﷺ من الشيطان وكفايته منه، لا في جسمه بأنواع الأذى، ولا على خاطره بالوساوس.

١٥٥٣ - وقد أخبرنا القاضي الحافظ أبو علي - رحمه الله - قال: حدثنا أبو الفضل بن خيرون العدل، حدثنا أبو بكر البرقاني وغيره، حدثنا أبو الحسن الدارقطني، حدثنا إسماعيل الصفار، حدثنا عباس الترقفي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا شفيان، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة».

قالوا: وإياك؟ يا رسول الله! قال: «وإياي؛ ولكن الله تعالى أعانني عليه فأسلم».

زاد غيره، عن منصور: «فلا يأمرني إلا بخير» [مسلم (٢٨١٤)].

١٥٥٤ - وعن عائشة بمعناه [مسلم (٢٨١٥)].

زوي: «فأسلم» بضم الميم؛ أي فأسلم أنا منه.

وصحح بعضهم هذه الرواية ورَّجَّحها.

وروي: «فأسلم» يعني: القرين، أنه انتقل من حال كفره إلى الإسلام؛ فصار لا يأمر إلا بخير، كالملك.

وهو ظاهر الحديث.

١٥٥٥ - ورواه بعضهم: «فأسلم».

قال القاضي أبو الفضل: فإذا كان هذا حُكْمُ شَيْطَانِهِ وَقَرِينِهِ الْمُسَلِّطِ عَلَى بَنِي آدَمَ، فكيف بمن بعد منه، ولم يلزم صُحْبَتَهُ، ولا أُقْدِرَ عَلَى الدُّنُو مِنْهُ؟!

وقد جاءت الآثارُ بتصدّي الشياطين له في غير موطن؛ رغبة في إطفاء نُورِهِ وإِمَانَةِ نَفْسِهِ، وإِدْخَالِ شُغْلٍ عَلَيْهِ؛ إِذْ يَشُؤْنَ مِنْ إِغْوَانِهِ فَانْقَلَبُوا خَاسِرِينَ، كَتَعَرُّضِهِ لَهُ فِي صَلَاتِهِ؛ فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَسْرَهُ.

١٥٥٦ - ففي الصُّحَاحِ، قال أبو هريرة، عنه عليه السلام: «إِنَّ الشَّيْطَانَ عَرَضَ لِي - قال عبدالرزاق: في صورة هُرٍّ - فَشَدَّ عَلَيَّ يَقْطَعُ عَلَيَّ الصَّلَاةَ فَأَمْكَنِي اللَّهُ مِنْهُ، فَدَعَّاهُ. وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُوْتِقَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُضَيِّحُوا تَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سَلِيمَانَ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] الْآيَةَ، فَردَّه الله خَاسِئًا.

١٥٥٧ - وفي حديث أبي الدُّزْدَاءِ عنه عليه السلام: «إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ إِبْلِيسَ جَاءَنِي بِشَهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِ» - وَالنَّبِيُّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ وَذَكَرَ تَعَوُّدَهُ بِاللَّهِ مِنْهُ، وَلَعَنَهُ لَهُ - «ثُمَّ أَرَدْتُ أَنْ أَخْذَهُ» وَذَكَرَ نَحْوَهُ؛ وَقَالَ: «لَأَصْبَحَ مُوْتَقًا يَتَلَاغَبُ بِهِ وَلَدَانِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» [مسلم (٥٤٢)].

١٥٥٨ - وكذلك في حديثه في الإِسْرَاءِ، وَطَلَبِ عِفْرِيتٍ لَهُ بِشَعْلَةٍ نَارٍ، فَعَلَّمَهُ جَبْرِيلُ مَا يَتَعَوَّذُ بِهِ مِنْهُ. ذَكَرَهُ فِي الْمَوْطَأِ [أحمد (٤١٩/٣)].

١٥٥٩ - وَلَمَّا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى أَذَاهُ بِمَبَاشَرَتِهِ تَسَبَّبَ بِالتَّوَسُّطِ إِلَى عِدَائِهِ؛ كَقَضِيَّتِهِ مَعَ قُرَيْشٍ فِي الْإِثْمَارِ بِقَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَصَوُّرِهِ فِي صُورَةِ الشَّيْخِ النَّجْدِيِّ.

١٥٦٠ - وَمَرَّةً أُخْرَى فِي غَزْوَةِ يَوْمِ بَذَرٍ فِي صُورَةِ سُرَاقَةِ بْنِ مَالِكٍ، وَهُوَ

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

١٥٦١ - ومرة يُنْذِرُ بشأنه عند بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ.

وَكُلُّ هَذَا فَقَدْ كَفَّاهُ اللَّهُ أَمْرَهُ، وَعَصَمَهُ ضَرُّهُ وَشَرُّهُ.

١٥٦٢ - وقد قال عليه السلام: «إِنْ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَفَى مِنْ لَمْسِهِ، فَجَاءَ لِيَطْعَنَ بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتَيْهِ حِينَ وَلَدَ، فَطَعَنَ فِي الْحِجَابِ» [البخاري (٣٢٨٦)، مسلم (٢٣٦٦)].

١٥٦٣ - وقال عليه السلام - حِينَ لُدَّ فِي مَرَضِهِ، وَقِيلَ لَهُ: خَشِينَا أَنْ يَكُونَ بِكَ ذَاتُ الْجَنْبِ - فَقَالَ: «إِنَّهَا مِنَ الشَّيْطَانِ، وَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُسَلِّطَهُ عَلَيَّ» [أحمد (١١٨/٦)، البخاري (٤٤٥٨)، مسلم (٢٢١٣)].

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا يَزْعُفَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَلَا سَعْدَ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]. فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسُرِينَ: إِنَّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]؛ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَمَّا يَزْعُفَنَّكَ﴾ أَيِ يَسْتَحِفُّكَ غَضَبٌ يَحْمِلُكَ عَلَى تَرْكِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ تَعَالَى.

وقيل: النَّزْعُ - هُنَا -: الْفَسَادُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠] أَيِ: أَفْسَدَ. وَقِيلَ: بَاعَدَ.

وقيل: ﴿يَزْعُفَنَّكَ﴾: يُغَرِّبُكَ وَيُحَرِّكُكَ. وَالنَّزْعُ: أَدْنَى الْوَسْوَسَةِ، فَأَمْرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ مَتَى تَحَرَّكَ عَلَيْهِ غَضَبٌ عَلَى عَدْوِهِ، أَوْ زَامَ الشَّيْطَانُ مِنْ إغْرَائِهِ بِهِ وَخَوَاطِرِ أَدَانِي وَسَاوِسِهِ، مَا لَمْ يُجْعَلْ لَهُ سَبِيلٌ إِلَيْهِ، أَنْ يَسْتَعِذَّ مِنْهُ، فَيَكْفَى أَمْرَهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ تَمَامِ عِصْمَتِهِ، إِذْ لَمْ يُسَلِّطْ عَلَيْهِ بِأَكْثَرِ مِنَ التَّعَرُّضِ لَهُ، وَلَمْ يُجْعَلْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَيْهِ. وَقَدْ قِيلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ غَيْرُ هَذَا.

وَكَذَلِكَ لَا يَصِحُّ أَنْ يَتَصَوَّرَ لَهُ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ الْمَلِكِ، وَيُلْبَسَ عَلَيْهِ، لَا فِي أَوَّلِ الرِّسَالَةِ وَلَا بَعْدَهَا.

وَالاعْتِمَادُ فِي ذَلِكَ دَلِيلُ الْمَعْجَزَةِ؛ بَلْ لَا يَشْكُ النَّبِيُّ أَنَّ مَا يَأْتِيهِ مِنَ اللَّهِ الْمَلِكُ وَرَسُولُهُ حَقِيقَةٌ، إِمَّا بِعِلْمِ ضَرُورَتِي يَخْلُقُهُ اللَّهُ لَهُ، أَوْ بِبِرْهَانِ يُظْهِرُهُ لَدَيْهِ، لَيْتِمُ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا، لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِنَّا نَمُوتُ أَلْفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ

مَا لَيْتِيهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ [الحج: ٥٢].

فَاعْلَمْ أَنَّ للنَّاسِ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ أَقَاوِيلَ، مِنْهَا السَّهْلُ وَالْوَعْثُ، وَالسَّمِينُ وَالْعَثُ؛ وَأَوَّلَى مَا يُقَالُ فِيهَا مَا عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنَ الْمَفْسَرِينَ: أَنَّ (الْتَمَتِي) هَا هُنَا: التَّلَاوَةُ، (وَالْقَاءُ الشَّيْطَانِ فِيهَا) شَغْلُهُ بِخَوَاطِرٍ وَأَذْكَارٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا لِلتَّالِي حَتَّى يُدْخَلَ عَلَيْهِ الْوَهْمُ وَالنِّسْيَانُ فِيمَا تَلَاَهُ، أَوْ يُدْخَلَ غَيْرَ ذَلِكَ عَلَى أَفْهَامِ السَّامِعِينَ مِنَ التَّحْرِيفِ، وَسُوءِ التَّأْوِيلِ مَا يَزِيلُهُ اللَّهُ وَيَنْسَخُهُ، وَيَكْشِفُ لُبَّسَهُ، وَيُحْكَمُ آيَاتُهُ. وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ بَأْشَعٍ مِنْ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَدْ حَكَى السَّمَرْقَنْدِيُّ إِنْكَارَ قَوْلِ مَنْ قَالَ بِتَسْلُطِ الشَّيْطَانِ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ، وَعَلَبَتْهُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ مِثْلَ هَذَا لَا يَصِحُّ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا قِصَّةَ سُلَيْمَانَ مَبِينَةً بَعْدَ هَذَا، وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الْجَسَدَ هُوَ الْوَلَدُ الَّذِي وُلِدَ لَهُ.

وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: مَكِّيٌّ - فِي قِصَّةِ أَيُّوبَ - وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]: إِنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَأَوَّلَ أَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الَّذِي أَمْرَضَهُ، وَأَلْقَى الضَّرَّ فِي بَدَنِهِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بِفَعْلِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ، لِيَتَلَبَّسَ بِهِ وَيُشَبِّهَهُمْ. قَالَ مَكِّيٌّ: وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الَّذِي أَصَابَهُ بِهِ الشَّيْطَانُ مَا وَسَّوسَ بِهِ إِلَى أَهْلِهِ. فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى - عَنْ يُوشَعَ: ﴿وَمَا أُنْسِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣] وَقَوْلُهُ - عَنْ يُوسُفَ: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢].

١٥٦٤ - وَقَوْلِ نَبِيِّنَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حِينَ نَامَ عَنِ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْوَادِي: «إِنَّ هَذَا وَادٍ بِهِ شَيْطَانٌ».

وَقَوْلِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي وَكْرَتِهِ: «هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ...؟» [القصص: ١٥].

فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ قَدْ يَرِدُ فِي جَمِيعِ هَذَا عَلَى مُزَوَّدٍ مُسْتَمِرٍّ كَلَامِ الْعَرَبِ فِي وَضْفِهِمْ كُلِّ قَبِيحٍ، مِنْ شَخْصٍ، أَوْ فَعْلٍ، بِالشَّيْطَانِ أَوْ فَعْلِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيْطَانِ﴾ [الصافات: ٦٥].

١٥٦٥ - وَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - «فَلْيُبْقَاتِلْهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ» [البخاري (٥٠٩)، مسلم (٥٠٥)].

وَأَيْضاً فَإِنَّ قَوْلَ يُوشَعَ لَا يَلْزِمُنَا الْجَوَابَ عَنْهُ؛ إِذْ لَمْ يَثْبُتْ لَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ نَبْوَةٌ مَعَ مُوسَى؛ كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ...﴾ [الكهف: ٦٠].

والمَرْوِيُّ أَنَّهُ إِنَّمَا نُبِّئَ بَعْدَ مَوْتِ مُوسَى، وَقِيلَ: قُبِّلَ مَوْتَهُ.

وَقَوْلُ مُوسَى كَانَ قَبْلَ نُبُوءَتِهِ بِدَلِيلِ الْقُرْآنِ.

وَقِصَّةُ يُوسُفَ أَيْضاً قَدْ ذُكِرَ أَنَّهَا كَانَتْ قَبْلَ نُبُوءَتِهِ.

وَقَدْ قَالَ الْمَفْسَّرُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنسَنَاهُ الشَّيْطَانُ﴾ [يُوسُفَ: ٤٢]

قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا:

أَنَّ الَّذِي أَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبَّهُ أَحَدُ صَاحِبِي السُّجُنِ، وَ (رَبُّهُ): الْمَلِكُ؛

أَيَّ أَنَسَاهُ أَنْ يَذْكُرَ لِلْمَلِكِ شَأْنَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَأَيْضاً فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا مِنْ فِعْلِ الشَّيْطَانِ لَيْسَ فِيهِ تَسْلِيْطٌ عَلَى يُوسُفَ - عَلَيْهِ

السَّلَامُ - وَيُوشَعَ بَوْسَاوَسٍ وَنَزَغٍ؛ وَإِنَّمَا هُوَ بِشْغَلٍ خَوَاطِرُهُمَا بِأُمُورٍ أُخَرَ،

وَتَذْكِيرُهُمَا مِنْ أُمُورِهِمَا مَا يَنْبَغِيهِمَا مَا نَسِيَاهُ.

١٥٦٦ - وَأَمَّا قَوْلُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «إِنَّ هَذَا وَادٍ بِهِ شَيْطَانٌ». فَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ

تَسْلُطِهِ عَلَيْهِ، وَلَا وَسْوَسةٍ لَهُ.

١٥٦٧ - بَلْ إِنَّ كَانَ بِمَقْتَضَى ظَاهِرِهِ فَقَدْ بَيَّنَّ أَمْرَ ذَلِكَ الشَّيْطَانِ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ

الشَّيْطَانَ أَتَى بِلَالاً، فَلَمْ يَزَلْ يَهْدُوهُ كَمَا يَهْدُو الصَّبِيَّ حَتَّى نَامَ».

فَاعْلَمْ أَنَّ تَسْلُطَ الشَّيْطَانِ فِي ذَلِكَ الْوَادِي الَّذِي عَرَّسَ بِهِ إِنَّمَا كَانَ عَلَى بِلَالِ

الْمَوْكَلِ بِكِلَاءَةِ الْفَجْرِ.

هَذَا إِنْ جَعَلْنَا قَوْلَهُ: «إِنَّ هَذَا وَادٍ بِهِ شَيْطَانٌ» تَنْبِيْهاً عَلَى سَبَبِ النَّوْمِ عَنْ

الصَّلَاةِ. وَأَمَّا إِنْ جَعَلْنَاهُ تَنْبِيْهاً عَلَى سَبَبِ الرَّجِيلِ عَنِ الْوَادِي، وَعَلَّةَ لَتَرْكِ الصَّلَاةِ

بِهِ، وَهُوَ دَلِيلُ مَسَاقٍ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فَلَا اعْتِرَاضَ بِهِ فِي هَذَا الْبَابِ؛ لِبَيَانِهِ،

وَارْتِفَاعِ إِشْكَالِهِ.

فصل

فِي صِدْقِ أَقْوَالِهِ ﷺ فِي جَمِيعِ أَخْوَالِهِ

وَأَمَّا أَقْوَالُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَامَتِ الدَّلَائِلُ الْوَاضِحَةُ بِصَحَّةِ الْمَعْجِزَةِ عَلَى

صِدْقِهِ، وَأَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ - فِيمَا كَانَ طَرِيقُهُ الْبَلَاغُ - أَنَّهُ مَعْصُومٌ فِيهِ مِنَ الْإِخْبَارِ عَنْ

شَيْءٍ مِنْهَا بِخِلَافِ مَا هُوَ بِهِ، لَا قَضْدًا وَعَمْدًا، وَلَا سَهْوًا أَوْ غَلْطًا.

أَمَّا تَعَمُّدُ الْخُلْفِ فِي ذَلِكَ فَمُتَنَفِّذٌ، بِدَلِيلِ الْمَعْجِزَةِ الْقَائِمَةِ مَقَامَ قَوْلِ اللَّهِ:

صَدَقَ فِيمَا قَالَ، اتِّفَاقًا، وَيُطَابِقُ أَهْلَ الْمِلَّةِ، إِجْمَاعًا.

وَأَمَّا وَقُوعُهُ عَلَى جِهَةِ الْغَلْطِ فِي ذَلِكَ فَهَذِهِ السَّبِيلُ عِنْدَ الْأَسْتَاذِ أَبِي إِسْحَاقَ

الإسفرائيني ومن قال بقوله. ومن جهة الإجماع فقط، وورود الشَّرع بانتفاء ذلك، وعصمة النبي ﷺ لا من مقتضى المعجزة نفسها عند القاضي أبي بكر الباقلاني ومن وافقه لاختلاف بينهم في مقتضى الدليل. أعني: دليل المعجزة. لا نُطوّل بذكره، فنخرج عن غرض الكتاب؛ بل نعتمد على ما وقع عليه - إجماع المسلمين - أنه لا يجوز عليه خُلْف في القول في إبلاغ الشريعة، والإعلام بما أخبر به عن ربّه، وما أوحاهُ إليه من وحيه، لا على وجه العمد، ولا على غير عمد، ولا في حالتي الرضا والسخط، والصحة والمرض.

١٥٦٨ - وفي حديث عبدالله بن عمرو: قلت: يا رسول الله! أكتب كل ما أسمع منك؟ قال: «نعم». قلت: في الرضا والغضب؟ قال: «نعم، فإنني لا أقول في ذلك كله إلا حقاً» [أبو داود (٣٦٤٦)، أحمد (١٦٢/٢)].

ولتزد ما أشرنا إليه من دليل المعجزة عليه بياناً؛ فنقول: إذا قامت المعجزة على صدقه، وأنه لا يقول إلا حقاً، ولا يبلغ عن الله إلا صدقاً، وأن المعجزة قائمة مقام قول الله تعالى له: صدقت فيما تذكره عني؛ وهو يقول: إني رسول الله إليكم، لأبلغكم ما أرسلت به إليكم، وأبين لكم ما نزل إليكم، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [النجم: ٣، ٤]. و ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠].

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]؛ فلا يصح أن يوجد منه في هذا الباب خبر بخلاف مخبره على أي وجه كان. فلو جوزنا عليه الغلط والسهو لما تميز لنا من غيره، ولاختلط الحق بالباطل؛ فالمعجزة مشتملة على تصديقه جملة واحدة من غير خصوص؛ فتزويه النبي ﷺ عن ذلك كله واجب برهاناً وإجماعاً كما قال أبو إسحاق رضي الله عنه.

فصل

فِي رَدِّ الْمُؤَلِّفِ لِبَغْضِ الشُّبُهَاتِ وَالْمَطَاعِنِ،
كَرَدِهِ لِقِصَّةِ الْغَرَانِيقِ وَبَغْضِ الشُّبُهَةِ الَّتِي يَتَمَسَّكُ بِهَا الزَّائِعُونَ

وقد توجهت هنا لبعض الطاعنين سؤالات؛ منها:

١٥٦٩ - ما روي من أن النبي ﷺ لما قرأ سورة: ﴿وَالنَّجْمِ﴾. وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢)﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]. قال: «تلك

الغَرَانِيقُ الْعُلَا، وَإِنَّ شَفَاعَتَهَا لَتَرْتَجِي وَيُرَوَّى: «تَرْقِضِي» وفي رواية: «إِنَّ شَفَاعَتَهَا لَتَرْتَجِي، وَإِنَّا لَمَعَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَا».

وفي رواية أخرى: «والغَرَانِيقُ الْعُلَا، تلك للشفاعة تَرْتَجِي».

فلما ختم السورة، سجد ﷺ، وسجد المسلمون معه، والكُفَّارُ لَمَّا سمعوه أَثْنَى على آلِهِمْ.

وما وقع في بعض الروايات أَنَّ الشَّيْطَانَ أَلْفَاها على لسانه، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان تَمَتَّى أَنْ لو نَزَلَ عليه شيء يُقَارِبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ.

وفي رواية أخرى: أَلَّا يَنْزِلَ عليه شيء يَنْفِرُهُمْ عَنْهُ؛ وذكر هذه القصة، وَأَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جاءه فَعَرَضَ عليه السُّورَةَ، فلما بلغ الكلمتين قال له: مَا جِئْتُكَ بِهَاتَيْنِ، فَحَزَنَ لَذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عز وجل - عليه تَسْلِيَةً له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَحْيَ إِلَّا إِنْ تَمَعَّى أََلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ ءَابِسْتُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٢﴾ [الحج: ٥٢].

وقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْقَرِيَ عَلَيْنَا غَمٌّ وَإِذَا لَأَتَّخِذُوكَ خَلِيلًا ٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنَّ ثُبْنَتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَزْكُرُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ٧٤﴾ [الإسراء: ٧٣، ٧٤].

فاعْلَمْ - وَفَقَّكَ اللَّهُ - أَنَّ لَنَا فِي الْكَلَامِ عَلَى مُشْكِـلِ هَذَا الْحَدِيثِ مَأْخِذَيْنِ: أَحَدُهُمَا: فِي تَوْهِينِ أَضْلِهِ، وَالثَّانِي عَلَى تَسْلِيمِهِ.

أَمَّا الْمَأْخِذُ الْأَوَّلُ: فَيَكْفِيكَ أَنَّ هَذَا حَدِيثٌ لَمْ يُخْرِجْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصَّحَّةِ، وَلَا رِوَاةٌ ثِقَّةٌ بِسَنَدٍ سَلِيمٍ مُتَّصِلٍ؛ وَإِنَّمَا أُولِغَ بِهِ وَيُمَثِّلُهُ الْمَفْسُرُونَ وَالْمُؤَرِّخُونَ الْمَوْلَعُونَ بِكُلِّ غَرِيبٍ، الْمُتَلَفِّقُونَ مِنَ الصَّحَفِ كُلِّ صَحِيحٍ وَسَقِيمٍ.

ولقد صدق القاضي بَكْرُ بْنُ الْعَلَاءِ الْمَالَكِيُّ حَيْثُ قَالَ: لَقَدْ بُلِيَ النَّاسُ بِبَعْضِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالتَّفْسِيرِ، وَتَعَلَّقَ بِذَلِكَ الْمُلْجِدُونَ مَعَ ضَعْفِ ثِقَلَتِهِ وَاضْطِرَابِ رِوَايَاتِهِ، وَانْقِطَاعِ إِسْنَادِهِ، وَاخْتِلَافِ كَلِمَاتِهِ؛ فَقَاتِلْ يَقُولُ: إِنَّهُ فِي الصَّلَاةِ؛ وَآخِرُ يَقُولُ: قَالَهَا فِي نَادِي قَوْمِهِ حِينَ أَنْزَلَتْ عَلَيْهِ السُّورَةُ؛ وَآخِرُ يَقُولُ: قَالَهَا وَقَدْ أَصَابَتْهُ سِنَةٌ؛ وَآخِرُ يَقُولُ: بَلْ حَدَّثَ نَفْسَهُ فَسَهَا؛ وَآخِرُ يَقُولُ: إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَهَا عَلَى لِسَانِهِ، وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا عَرَضَهَا عَلَى جَبْرِيلَ قَالَ: مَا هَكَذَا أَقْرَأْتُكَ؛ وَآخِرُ يَقُولُ: بَلْ أَعْلَمَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَهَا؛ فَلَمَّا بَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ قَالَ: «وَاللَّهِ! مَا هَكَذَا نَزَلَتْ» إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ اخْتِلَافِ الرِّوَاةِ.

وَمَنْ حُكِّيتْ هَذِهِ الْحِكَايَةُ عَنْهُ مِنَ الْمَفْسَّرِينَ وَالتَّابِعِينَ لَمْ يَسْنِدْهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَا رَفَعَهَا إِلَى صَاحِبٍ؛ وَأَكْثَرُ الطَّرِيقِ عَنْهُمْ فِيهَا ضَعِيفَةٌ وَاهِيَةٌ، وَالْمَرْفُوعُ فِيهِ: حَدِيثُ شُعْبَةَ، عَنْ أَبِي بَشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ فِيمَا أَحْسَبُ - الشَّكَّ فِي الْحَدِيثِ -: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ بِمَكَّةَ . . . وَذَكَرَ الْقِصَّةَ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّازُ: هَذَا الْحَدِيثُ لَا نَعْلَمُهُ يُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِإِسْنَادٍ مُتَّصِلٍ يَجُوزُ ذِكْرُهُ إِلَّا هَذَا، وَلَمْ يُسْنِدْهُ عَنْ شُعْبَةَ إِلَّا أُمِّيَّةُ بْنُ خَالِدٍ، وَغَيْرُهُ يُزِيلُهُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ؛ وَإِنَّمَا يَعْرِفُ عَنِ الْكَلْبِيِّ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ فَقَدْ بَيَّنَّ لَكَ أَبُو بَكْرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ لَا يُعْرِفُ مِنْ طَرِيقٍ يَجُوزُ ذِكْرُهُ سِوَى هَذَا. وَفِيهِ مِنَ الضَّعْفِ مَا نَبَّهَ عَلَيْهِ مَعَ وَقُوعِ الشَّكِّ فِيهِ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الَّذِي لَا يُوثَقُ بِهِ، وَلَا حَقِيقَةٌ مَعَهُ.

وَأَمَّا حَدِيثُ الْكَلْبِيِّ فِيمَا لَا تَجُوزُ الرِّوَايَةُ عَنْهُ وَلَا ذِكْرُهُ لِقُوَّةِ ضَعْفِهِ وَكَذِبِهِ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْبَزَّازُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

١٥٧٠ - وَالَّذِي مِنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ - وَهُوَ بِمَكَّةَ - فَسَجَدَ، وَسَجَدَ الْمُسْلِمُونَ وَالْمَشْرُكُونَ وَالْجَنِّ وَالْإِنْسَ. هَذَا تَوْهِينُهُ مِنْ طَرِيقِ الثَّقَلِ، فَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى فَقَدْ قَامَتِ الْحُجَّةُ، وَأَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى عَصَمَتِهِ ﷺ وَنَزَاهَتِهِ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الرِّذِيلَةِ؛ إِمَّا مِنْ تَمَنِّيهِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِ مِثْلُ هَذَا مِنْ مَدْحِ آلِهِ غَيْرِ اللَّهِ، وَهُوَ كُفْرٌ؛ أَوْ أَنْ يَتَسَوَّرَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَيُشَبَّهُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ حَتَّى يَجْعَلَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَيَعْتَقِدَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مِنَ الْقُرْآنِ مَا لَيْسَ مِنْهُ حَتَّى يُنَبِّهَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ يَقُولُ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ عَمْدًا، وَذَلِكَ كُفْرٌ؛ أَوْ سَهْوًا، وَهُوَ مَعْصُومٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ.

وَقَدْ قَرَّرْنَا بِالْبُرْهَانِ وَالْإِجْمَاعِ عَصَمَتَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ جَرَيَانِ الْكُفْرِ عَلَى قَلْبِهِ أَوْ لِسَانِهِ، لَا عَمْدًا وَلَا سَهْوًا، أَوْ أَنْ يَتَشَبَّهُ عَلَيْهِ مَا يُلْقِيهِ الْمَلَكُ مِمَّا يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ، أَوْ يَكُونُ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ سَبِيلٌ، أَوْ أَنْ يَقُولَ عَلَى اللَّهِ، لَا عَمْدًا وَلَا سَهْوًا، مَا لَمْ يُنْزَلْ عَلَيْهِ؛ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا بِعَصِ الْأَقَاوِيلِ ۖ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۖ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۖ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا كُنَّا لِلْأَذْنَانِ سَوَاءً لَدُنْكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۖ﴾ [الإسراء: ٧٥].

وَوَجْهٌ ثَانٍ: وَهُوَ اسْتِحَالَةُ هَذِهِ الْقِصَّةِ نَظْرًا وَعُرْفًا؛ وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَوْ كَانَ - كَمَا رَوَى - لَكَانَ بَعِيدَ الْإِلْتِمَامِ لَكُونِهِ مُتَنَاقِضَ الْأَقْسَامِ، مُمْتَرِجَ الْمَدْحِ بِالذَّمِّ،

متخاذل التأليف والنظم. ولَمَّا كان النبي ﷺ ولا مَنْ بحضرتة من المسلمين، وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك؛ وهذا لا يخفى على أدنى متأمل، فكيف بمن رَجَحَ حِلْمُهُ، واتَّسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه؟!

ووجه ثالث: أنه عُلِمَ مِنْ عادة المنافقين، ومُعَانِدِي المشركين، وَضَعْفَةِ الْقُلُوبِ، والجهلة من المسلمين، نفورهم لأول وهلة؛ وتخليط العدو على النبي ﷺ لأقل فتنة، وتعييرهم المسلمين، والشُّمَاتِ بِهِمُ الْفِتْنَةَ بعد الفينة، وارتداد مَنْ فِي قلبه مَرَضٌ مِمَّنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ لِأَذْنَى شُبْهَةٍ، ولم يَخْكِ أَحَدٌ فِي هذه الْقِصَّةِ شَيْئاً سِوَى هذه الرواية الضعيفة الأصل، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصُّلَّةَ، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة، كما فعلوا مكابرة في قصة الإسراء حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردةً، وكذلك ما رُوي في قِصَّةِ الْقِضْيَةِ؛ ولا فِتْنَةً أعظم من هذه البلية لو وَجَدَتْ، ولا تُشْغِبُ لِلْمُعَادِي حِينَئِذٍ أَشَدَّ من هذه الحادثة لو أمكنت؛ فما رُوي عَنْ معانيد فيها كلمة، ولا عن مسلم بسببها بنتُ شَفَّةٍ؛ فَذَلَّ عَلَى بَطْلِهَا واجتثاث أصلها.

ولا شك في إدخال بَعْضِ شياطين الْإِنْسِ أو الْجَنِّ هذا الحديث على بعض معقلي المحدثين، لِيَلْبَسَ به على ضعفاء المسلمين.

ووجه رابع: ذكر الرواية لهذه القضية أَنَّ فيها نزلت: ﴿وَلَا كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرًا وَإِذَا لَا تُغْنِيكَ ذِلَّةٌ﴾ (٧٣) ﴿وَلَوْلَا أَن تَبْنَتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) [الإسراء: ٧٣، ٧٤].

وهاتان الآيتان تَرُدُّانِ الْخَبَرَ الَّذِي رَوَاهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ أَنَّهُمْ كَادُوا يَفْتِنُونَهُ حَتَّى يَفْتَرِيَ، وَأَنَّهُ لَوْلَا أَنَّهُ ثَبَّتَهُ لَكَادَ يَرْكَنُ إِلَيْهِمْ.

فمضمون هذا ومفهومه أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَصَمَهُ مِنْ أَنْ يَفْتَرِيَ، وَثَبَّتَهُ حَتَّى لَمْ يَرْكَنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا؛ فكيف كثيراً؟! وهم يَزُوونَ فِي أخبارهم الواهية أَنَّهُ زَادَ عَلَى الرُّكُونِ وَالْإِفْتِرَاءِ بِمَذْهِبِ الْكَهْتَمِ، وَأَنَّهُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: افْتَرَيْتُ عَلَى اللَّهِ، وَقُلْتُ مَا لَمْ يَقُلْ؛ وَهَذَا ضِدُّ مَفْهُومِ الْآيَةِ، وَهِيَ تُضَعِّفُ الْحَدِيثَ لَوْ صَحَّ، فَكَيْفَ وَلَا صَحَّةَ لَهُ؟!

وهذا مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتَ طَائِفَةً مِّنْهُمْ أَنَّ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النساء: ١١٣].

١٥٧١ - وقد رُوي عن ابن عباس: كل ما في القرآن «كاد» فهو ما لا يكون

أبدأ؛ قال الله تعالى: ﴿يَكَادُ مَنَا بَرْقِي يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ [النور: ٤٣]؛ ولم يذهب، و ﴿أَكَادُ أُخْفِي﴾ [طه: ١٥]؛ ولم يفعل.

قال القسيري القاضي: ولقد طالبه ثريش وثقيف إذ مرَّ بالهتيم أن يقبل بوجهه إليها، ووعدوه الإيمان به إن فعل، فما فعل، ولا كان ليفعل. قال ابن الأنباري: ما قارب الرسول ولا ركن.

وقد ذكرت في معنى هذه الآية تفاسير أخر، ما ذكرناه من نص الله على عصمة رسوله يرُدُّ سفسافها؛ فلم يبق في الآية إلا أن الله تعالى امتن على رسوله بعصمته وتثبيته مما كاذ به الكفار، وراموا من فتنته؛ ومرادنا من ذلك تنزيهه وعصمته ﷺ؛ وهو مفهوم الآية.

وأما المأخذ الثاني: فهو مبني على تسليم الحديث لو صح؛ وقد أعادنا الله من صحته؛ ولكن على كل حال فقد أجاب على ذلك أئمة المسلمين بأجوبة؛ منها العتق والسمن؛ فمنها - ما رواه قتادة ومقاتل - أن النبي ﷺ أصابته سنة عند قراءته هذه السورة فجرى هذا الكلام على لسانه بحكم النوم.

وهذا لا يصح؛ إذ لا يجوز على النبي مثله في حالة من أحواله، ولا يخلقه الله على لسانه، ولا يستولي الشيطان عليه في نوم ولا يقظة لعصمته في هذا الباب من جميع العمد والسهو.

وفي قول الكلبي: إن النبي ﷺ حدث نفسه؛ فقال ذلك الشيطان على لسانه. وفي رواية ابن شهاب؛ عن أبي بكر بن عبد الرحمن؛ قال: وسنها؛ فلما أخبر بذلك قال: إنما ذلك من الشيطان. وكل هذا لا يصح أن يقوله - عليه السلام - لا سهواً ولا قسداً، ولا يتقوله الشيطان على لسانه عليه السلام.

وقيل: لعل النبي ﷺ قاله في أثناء تلاوته على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار؛ كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] على أحد التأويلات. وكقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُمْ كَيْدُ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] بعد السكت وبيان الفضل بين الكلامين، ثم رجع إلى تلاوته.

وهذا ممكن مع بيان الفصل وقريئة تدل على المراد، وأنه ليس من المتلو، وهو أحد ما ذكره القاضي أبو بكر.

فلا يفتراض على هذا بما روي أنه كان في الصلاة؛ فقد كان الكلام فيها قبل غير ممنوع.

والذي يَظْهَرُ وَيَتَرَجَّحُ في تأويله عنده وعند غيره من المحققين على تسليمه أن النبي ﷺ كان - كما أمره ربه - يُرْتَلُ القرآن ترتيلاً، ويفضَّلُ الآي تَفْصِيلاً في قراءته، كما رَوَاهُ الثقات عنه، فيمكن تَرْصُدُ الشيطان لتلك السكتات ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات، مُحَاكِياً نَعْمَةَ النبي ﷺ بحيث يَسْمَعُهُ مَنْ دَنَا إِلَيْهِ مِنَ الْكُفَّارِ، فَظَنُّوْهَا مِنْ قَوْلِ النبي ﷺ، وأشاعوها، ولم يَقْدَحْ ذلك عند المسلمين بِحِفْظِ السُّورَةِ قَبْلَ ذلك على ما أنزلها اللَّهُ تعالى وتحققهم مِنْ حال النبي ﷺ في ذَمِّ الْأَوْثَانِ وَعَيْنِهَا عَلَى مَا عُرِفَ مِنْهُ.

وقد حَكَى مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ في مَعَاذِهِ نَحْوَ هذا، وقال: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَسْمَعُوهَا، وَإِنَّمَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ ذَلِكَ فِي أَسْمَاعِ الْمُشْرِكِينَ وَقُلُوبِهِمْ؛ وَيَكُونُ مَا رَوَى مِنْ حُزْنِ النَّبِيِّ ﷺ لِهَذِهِ الْإِشَاعَةِ وَالشَّهَةِ، وَسَبَبِ هَذِهِ الْفِتْنَةِ.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْتُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج: ٥٢].

فمعنى ﴿تَمَعَّى﴾: تلا، قال الله تعالى: ﴿لَا يَلْمُوكَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ [البقرة: ٧٨] أي تلاوة.

وقوله: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ [الحج: ٥٢] أي يذهب، ويزيل اللبس به، ويُحْكِمُ آيَاتِهِ.

وقيل: معنى الآية: هو ما يَقَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ مِنَ السَّهْوِ إِذَا قَرَأَ فَيَنْتَبِهَ لذلك وَيَرْجِعُ عَنْهُ.

وهذا نَحْوُ مِنْ قَوْلِ الْكَلْبِيِّ فِي الْآيَةِ: إِنَّهُ حَدَّثَ نَفْسَهُ، وقال: ﴿إِذَا تَمَعَّى﴾ أي: حَدَّثَ نَفْسَهُ.

وفي رواية أبي بكر بن عبدالرحمن نَحْوَهُ.

وهذا السَّهْوُ فِي الْقِرَاءَةِ إِنَّمَا يَصِحُّ فِيمَا لَيْسَ طَرِيقُهُ تَغْيِيرَ الْمَعَانِي، وَتَبْدِيلِ الْأَلْفَاظِ، وَزِيَادَةِ مَا لَيْسَ مِنَ الْقُرْآنِ؛ بَلِ السَّهْوُ عَنْ إِسْقَاطِ آيَةٍ مِنْهُ أَوْ كَلِمَةٍ؛ وَلَكِنَّهُ لَا يَقْرَأُ عَلَى هَذَا السَّهْوِ؛ بَلِ يُنَبِّهُ عَلَيْهِ، وَيَذَكِّرُ بِهِ لِلْحِجْنِ عَلَى مَا سَنَذَكِرُهُ فِي حَكْمِ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مِنَ السَّهْوِ وَمَا لَا يَجُوزُ.

ومما يظهر في تأويله أيضاً أَنَّ مجاهداً رَوَى هَذِهِ الْقِصَّةَ: «وَالْغَرَانِقَةُ الْعُلَا» فَإِنَّ سَلَمْنَا الْقِصَّةَ قُلْنَا: لَا يَبْعُدُ أَنَّ هَذَا كَانَ قُرْآنًا، وَالْمُرَادُ بِالْغَرَانِقَةِ الْعُلَا، وَأَنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتَرْتَجَى؛ الْمَلَائِكَةُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ.

وهذا فسّر الكلبي (الغرائقة) أنها الملائكة، وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون أن الأوثان والملائكة بنات الله، كما حكى الله عنهم ورّد عليهم في هذه السورة بقوله: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النجم: ٢١] فانكر الله كل هذا من قولهم، ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح، فلما تأولوا المشركون على أن المراد بهذا الذكر الهتهم، وليس عليهم الشيطان ذلك، وزينه في قلوبهم وألقاه إليهم نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم آياته، ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللتين وجد الشيطان بهما سبيلاً للتليس، كما نسخ كثير من القرآن وزفت تلاوته؛ وكان في إنزال الله تعالى لذلك حكمة، وفي نسخه حكمة؛ ليضل به من يشاء ويهدي من يشاء؛ وما يضل به إلا الفاسقين، و﴿يَتَجَدَّ مَا يَلِيكَ الشَّيْطَانُ وَيَسْتَكْبِرُ﴾ في قلوبهم مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةُ قُلُوبُهُمْ وَلِلَّهِ الظُّلُمَاتُ لَيْسَ بِشَيْءٍ بِمَعْبُودٍ ﴿٢٢﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَكَنَ الْغَاثُ الْبَاسُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٣﴾ [الحج: ٥٣، ٥٤].

وقيل: إن النبي ﷺ لما قرأ هذه السورة، وبلغ ذكر الآلات والغزى ومناة الثالثة الأخرى، خاف الكفار أن يأتي بشيء من دُمها فسيقوا إلى تذبحها بتلك الكلمتين ليحفظوا في تلاوة النبي ﷺ، ويشعّبوا عليه على عاداتهم وقولهم: ﴿لَا تَسْمُوا إِلَهًا فَتُغْلِبَ فِي الْفِرْيَانِ لِمَ الْكُفْرَ قَلِيلُونَ﴾ [ص: ٢٦].

ونسب هذا الفعل إلى الشيطان لحمله لهم عليه، وأشاعوا ذلك وأذاعوه، وأن النبي ﷺ - قاله - فحرّث لذلك من كذبهم وافترائهم عليه، فسلأه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ...﴾ الآية [الحج: ٥٢] ويثبت للناس الحق في ذلك من الباطل، وحفظ القرآن، وأحكم آياته، ودفع ما ليس به الغدو، وكما ضمه الله تعالى من قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ وَإِنَّا لَكَنُ الْحَقُّ﴾ [الحج: ٢٩].

ومن ذلك ما روي من قصة يونس - عليه السلام - أنه وعد قومَه بالعذاب عن ربه، فلما تابوا، كُفِّت عنهم العذاب، فقال: لا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ كَذِبًا أَبَدًا، فَلَعَبَ مُمَارِعًا.

فاعلم - أكرمك الله - أنه ليس في خبر من الأخبار الواردة في هذا الباب أن يونس - عليه السلام - قال لهم: إِنَّ اللَّهَ مُهْلِكُكُمْ، وإنما فيه أنه دعا عليهم بالهلاك والدعاه ليس بخبر يُطْلَبُ صدقه من كذبه، لكنه قال لهم: إن العذاب مُصَيِّحُكُمْ وَفَتْ كَذَا وَكَذَا، فكان ذلك، كما قال: ثم رَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ الْعَذَابَ.

وَتَذَارِكُهُمْ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِينَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَعَابَ الْغَزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

١٥٧١م - وَرُوِيَ فِي الْأَخْبَارِ أَنَّهُمْ رَأَوْا دَلَائِلَ الْعَذَابِ وَمَخَايِلَهُ؛ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: غَشَّاهُمُ الْعَذَابُ كَمَا يُغَشِّي الثَّوْبَ الْقَبْرُ.

١٥٧٢ - فَإِنْ قُلْتُ: فَمَا مَعْنَى مَا رُوِيَ مِنْ أَنَّ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ أَبِي سَرْحٍ كَانَ

يَكْتُبُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ ارْتَدَّ مُشْرِكًا، وَصَارَ إِلَى قَرِيشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي كُنْتُ أَصْرَفَ مُحَمَّدًا حَيْثُ أُرِيدُ؛ كَانَ يُمْلِي عَلَيَّ «عَزِيزٌ حَكِيمٌ» فَأَقُولُ أَوْ «عَلِيمٌ حَكِيمٌ» فيقول: «نَعَمْ؛ كُلُّ صَوَابٍ».

١٥٧٣ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: فيقول له النبي ﷺ: «اكتب كذا» فيقول: أكتب

كذا؟ فيقول: «اكتب كيف شئت». ويقول: «اكتب: عَلِيمًا حَكِيمًا» فيقول: أكتب سميعًا بصيرًا، فيقول له: «اكتب كيف شئت».

١٥٧٤ - وَفِي الصَّحِيحِ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَضْرَانِيًّا كَانَ يَكْتُبُ

لِلنَّبِيِّ ﷺ - بَعْدَ مَا أَسْلَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ كَافِرًا، وَكَانَ يَقُولُ: مَا يَذَرِي مُحَمَّدٌ إِلَّا مَا كَتَبْتُ لَهُ [البخاري (٣٦١٧)، مسلم (٢٧٨١)، أحمد (٣/ ١٢٠-١٢١)].

فَاعْلَمْ - ثَبَّتْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ عَلَى الْحَقِّ، وَلَا جَعَلَ لِلشَّيْطَانِ وَتَلْبِيسِهِ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ عَلَيْنَا وَلَا إِلَيْنَا سَبِيلًا - أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْحِكَايَةِ أَوَّلًا لَا تَوْقِعُ فِي قَلْبِ مُؤْمِنٍ رَبِيًّا؛ إِذْ هِيَ حِكَايَةُ عَمَنَ ارْتَدَّ وَكَفَرَ بِاللَّهِ، وَنَحْنُ لَا نَقْبَلُ خَبَرَ الْمُسْلِمِ الْمُتَّهَمِ، فَكَيْفَ بِكَافِرٍ افْتَرَى هُوَ وَمِثْلَهُ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا؟!

وَالْعَجَبُ لِسَلِيمِ الْعَقْلِ يَشْغَلُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحِكَايَةِ سِرَّهُ، وَقَدْ صَدَرَتْ مِنْ عَدُوِّ كَافِرٍ، مُبْغِضٍ لِلدِّينِ، مُفْتَرٍ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ وَلَمْ يَرِذْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا ذَكَرَ أَحَدًا مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ شَاهَدَ مَا قَالَهُ وَافْتَرَاهُ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ وَ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

وَمَا وَقَعَ مِنْ ذِكْرِهَا فِي حَدِيثِ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَظَاهِرُ حِكَايَتِهَا؛ فَلَيْسَ فِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ شَاهَدَهَا، وَلَعَلَّهُ حَكِيَ مَا سَمِعَ.

وَقَدْ عَلَّلَ الْبَزَّازُ حَدِيثَهُ ذَلِكَ، وَقَالَ: رَوَاهُ ثَابِتٌ عَنْهُ، وَلَمْ يُتَابِعْ عَلَيْهِ؛ وَرَوَاهُ حُمَيْدٌ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: وَأَظُنُّ حُمَيْدًا إِنَّمَا سَمِعَهُ مِنْ ثَابِتٍ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْفَضْلِ - وَفَقَّهَ اللَّهُ -: وَلِهَذَا؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَمْ يَخْرُجْ أَهْلُ الصَّحِيحِ حَدِيثَ ثَابِتٍ وَلَا حُمَيْدٍ [مسلم (٢٧٨١)، أحمد (٣/ ١٢٠-١٢١)]. وَالصَّحِيحُ حَدِيثُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ رُفَيْعٍ عَنْ أَنَسٍ [البخاري (٣٦١٧)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الَّذِي خَرَّجَهُ

أَهْلُ الصَّحَّةِ، وَذَكَرْنَاهُ، وَلَيْسَ فِيهِ عَنِ أَتَسْ قَوْلُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ إِلَّا مِنْ حِكَايَتِهِ عَنِ الْمُرْتَدِّ النَّصْرَانِيِّ. وَلَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً لَمَا كَانَ فِيهَا قَدْخٌ وَلَا تَوْهِيمٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ. فِيمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، وَلَا جَوَازٌ لِلنَّسْيَانِ وَالْعَلَطِ عَلَيْهِ وَالتَّحْرِيفِ فِيمَا بُلَّغَهُ، وَلَا طَعَنٌ فِي نَظْمِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ إِذْ لَيْسَ فِيهِ - لَوْ صَحَّ - أَكْثَرُ مِنْ أَنَّ الْكَاتِبَ قَالَ لَهُ: عَلِيمٌ حَكِيمٌ - وَكُتِبَ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ - ﷺ -: «كَذَلِكَ هُوَ»، فَسَبَقَهُ لِسَانُهُ أَوْ قَلَمُهُ لِكَلِمَةٍ أَوْ كَلِمَتَيْنِ مِمَّا نُزِّلَ عَلَى الرَّسُولِ قَبْلَ إِظْهَارِ الرَّسُولِ لَهَا؛ إِذْ كَانَ مَا تَقَدَّمَ مِمَّا أَمْلَأَهُ الرَّسُولُ يَدُلُّ عَلَيْهَا، وَيَقْتَضِي وَقُوعَهَا بِقُوَّةِ قُدْرَةِ الْكَاتِبِ عَلَى الْكَلَامِ، وَمَعْرِفَتِهِ بِهِ، وَجُودَةِ حِسِّهِ وَفِطْنَتِهِ، كَمَا يَتَّفِقُ ذَلِكَ لِلْعَارِفِ إِذَا سَمِعَ وَلَا يَتَّفِقُ ذَلِكَ فِي جُمْلَةِ الْكَلَامِ، كَمَا لَا يَتَّفِقُ ذَلِكَ فِي آيَةٍ وَلَا سُورَةٍ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِنْ صَحَّ -: «كُلُّ صَوَابٍ» فَقَدْ يَكُونُ هَذَا فِيمَا كَانَ فِيهِ مِنْ مَقَاطِعِ الْآيِ وَجْهَانِ وَقَرَأَتَانِ أُنْزِلَتَا جَمِيعاً عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَمَلَى إِخْدَاهَا، وَتَوَضَّلَ الْكَاتِبُ بِفِطْنَتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ بِمَقْتَضَى الْكَلَامِ إِلَى الْأُخْرَى، فَذَكَرَهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ كَمَا قَدَمْنَاهُ فَصَوَّبَهَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ؛ ثُمَّ أَحْكَمَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَحْكَمَ، وَنَسَخَ مَا نَسَخَ كَمَا قَدْ وَجَدَ ذَلِكَ فِي بَعْضِ مَقَاطِعِ الْآيِ؛ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَاتُّبِعْتُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغَيَّرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

وهذه قراءة الجمهور، وقد قرأ بعضهم، وهم جماعة: «فإنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». وليست من المصحف.

وكذلك كلمات جاءت على وجهين في غير المقاطع، قرأ بهما معاً الجمهور، وثبتت في المصحف، مثل: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْإِطَارِ كَيْفَ تُنْشِرُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] و﴿تُنْشِرُهَا﴾.

و ﴿يَقْضِ الْحَقُّ﴾ و﴿يَقْضُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٥٧].
وكلُّ هذا لا يوجب زبناً، ولا ينسب للنبي - ﷺ - غلطاً ولا وهماً.
وقد قيل: إن هذا يحتمل أن يكون فيما يكتبه عن النبي - ﷺ - الكاتب إلى الناس غير القرآن، فيصف الله ويسميه في ذلك كيف يشاء.

فصل

فِي خَالِهِ ﷺ فِي أَخْبَارِ الدُّنْيَا

هذا القول فيما طريقه البلاغ، وأما ما ليس سبيله سبيل البلاغ من الأخبار التي لا تستند لها إلى الأحكام، ولا أخبار المعاد، ولا تُضاف إلى وحي؛ بل في

أمور الدنيا وأحوال نفسه - فالذي يجب اعتقاده تنزيه النبي - ﷺ - عن أن يقع خبره في شيء من ذلك بخلاف مخبره، لا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً، وأنه معصوم من ذلك في حال رضاه وفي سخطه، وجده ومزجه وصحته ومرضيه.

ودليل ذلك اتفاق السلف وإجماعهم عليه؛ وذلك أنا نعلم من دين الصحابة وعاديتهم مبادرتهم إلى تصديق جميع أحواله، والثقة بجميع أخباره في أي باب كانت، وعن أي شيء وقعت، وأنه لم يكن لهم توقف ولا تردد في شيء منها، ولا استثبات عن حاله عند ذلك؛ هل وقع فيها سهو أم لا؟.

١٥٧٥ - ولما احتج ابن أبي الحقيق اليهودي على عمر حين أخلاهم من خبير بإقرار رسول الله - ﷺ - لهم، واحتج عليه عمر رضي الله عنه بقوله ﷺ: «كيف بك إذا أخرجت من خبير؟» فقال اليهودي: كانت هزيلة من أبي القاسم. فقال عمر: كذبت، يا عدو الله! [البخاري (٢٧٣٠)].

وأيضاً فإن أخباره وآثاره وسيره وشماله مغلطة بها، مستقصى تفاصيلها، ولم يرد في شيء منها استدراكه - عليه السلام - لغلط في قول قاله، أو اعترافه بوزم في شيء أخبر به.

١٥٧٦ - ولو كان ذلك لنقل كما نقل من قصته - عليه السلام - في رجوعه - ﷺ - عما أشار به على الأنصار في تلقيح النخل - وكان ذلك رأياً لا خيراً.

١٥٧٧ - وغير ذلك من الأمور التي ليست من هذا الباب؛ كقوله ﷺ: «والله! لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيراً منها إلا فعلت الذي حلفت عليه وكفرت عن يميني» [البخاري (٦٦٢٣)، مسلم (١٦٤٩)].

١٥٧٨ - وقوله: «إنكم تختصمون إلي...» الحديث [البخاري (٢٦٨٠)، مسلم (١٧١٣)].

١٥٧٩ - وقوله: «اسق يا زبير! حتى يبلغ الماء الجذر» [البخاري (٢٣٥٩)، مسلم (٢٣٥٧)] كما سبب كل ما في هذا من مشكل ما في هذا الباب والذي بعده إن شاء الله، مع أشباهها.

وأيضاً فإن الكذب متى عرف من أحد، في شيء من الأخبار، بخلاف ما هو، على أي وجه كان، استريب بخبره، وأثيم في حديثه، ولم يقع لقوله في النفوس موقع، ولهذا ما ترك المحدثون والعلماء الحديث عن عرف بالوهم والغفلة وسوء الحفظ، وكثرة الغلط، مع ثقته.

وأيضاً فإنَّ تَعَمُّدَ الكَذِبِ في أمور الدنيا معصية والإكثارُ منه كبيرةٌ بإجماع، مُنْقِطَةٌ للمروءة.

وكلُّ هذا مما يُتَرَدَّدُ عنه مُنْصَبُ النبوة؛ والمرءُ الواحدُ منه فيما يُسْتَبَشَعُ وَيُسْتَشْعَرُ وينتفع بما يُجَلُّ بِصاحبها، ويُزَيَّرُ بِقائلها لاجئةٌ بذلك.

وأما فيما لا يَقَعُ هذا الموقِعُ فإنَّ عَدَدَاتِهَا من الصغائر فهل يجري على حُكْمِهَا في الخلاف فيها؟ مختلف فيه. والصوابُ تَثْبِيهُ النبوة عن قليله وكثيره، شَهْرُهُ وَعَمَلُهُ؛ إذ عَمَلُهُ النبوةُ البلاغُ والإعلامُ والتَّشْيِيعُ، وتَضَلُّيقُ ما جاء به النبي ﷺ وتَحْوِيزُ شَيْءٍ من هذا قاذِحٌ في ذلك، ومُشْكِكٌ فيه، مانِئٌ للمعجزة؛ فَلتَقْطَعِ عن يَقِينِ بَأَنِهِ لَا يَجُوزُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ حُلْفٌ في القولِ في وَجْهِ من الوجوه، لَا بِقَضْبٍ وَلَا بِغَيْرِ قَضْبٍ، وَلَا تَسَامِيحٍ مع مَنْ سَامَحَ في تحويزِ ذلك عليهم حالَ الشُّهُورِ فيما ليس طريقُهُ البلاغُ؛ نعم، وبَأَنِهِ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الْكَلْبُ قَبْلَ النبوة، وَلَا الْأَسَامُ بِهِ في أُمُورِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ يُزَيَّرُ وَيُرَبَّى بِهِمْ وَيَقَرُّ الْقُلُوبُ عَنْ تَصَدِيقِهِمْ بِهِ.

والتَّنَظُّرُ إلى أحوالِ أهلِ غُضْرِ النبي ﷺ من قُرَيْشٍ وَغَيْرِهَا من الْأَسَمِ وشَوَالِهِمْ عن حالِهِ في حِدْقِ لِسَانِهِ، وما عُرِفُوا بِهِ من ذَلِكَ واعترفوا به مما عُرِفَ، وَاتَّفَقَ أَهْلُ الثَّقَلِ عَلَى عِصْمَةِ نَبِيِّنَا ﷺ مِنْ قَبْلِ وَبَعْدِهِ، وقد ذُكِرْنَا مِنَ الْأَثَارِ فِيهِ فِي الْبَابِ الثَّانِي أَوَّلَ الْكِتَابِ مَا يَبَيِّنُ لَكَ صِلَةَ مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ.

فصل

فِي رَدِّ بَغْضِ الْأَعْتِرَاضَاتِ وَالشُّبْهِ، كَشَهْوِهِ ﷺ

فِي الصَّلَاةِ، وَقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ: إِنِّي سَقِيمٌ

١٥٨٠ - فَإِنْ قُلْتَ: فما معنى قوله - عليه السلام - في حديث الشَّهْرِ الَّذِي حَدَّثَنَا بِهِ الْفَقِيه أَبُو إِسْحَاقَ: إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو الْأَصْبَغِ بْنُ سَهْلٍ، حَدَّثَنَا حَاتِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الْفَخَّارِ، حَدَّثَنَا أَبُو عَيْسَى، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحَصِينِ، عَنْ أَبِي سَفْيَانَ مَوْلَى ابْنِ أَبِي أَحْمَدَ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الْعَصْرِ، فَسَلَّمَ فِي رَكْعَتَيْنِ، فَقَامَ ذُو الْيَدَيْنِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَصَبَرْتَ الصَّلَاةَ أَمْ نَسِيتَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ» [مسلم (١٩/٥٧٣)].

١٥٨١ - وفي الرواية الأخرى: «ما قَصِرَتْ الصلاة، وما نَسِيتُ» [البخاري ٤٨٢، ١٢٢٩، ٦٠٥١]. الحديث بقصته؛ فأخبره بِنَفْيِ الحالتين، وأنها لم تُكُنْ؛ وقد كان أحدُ ذلك، كما قال ذو اليَدَيْنِ: قد كان بعضُ ذلك يا رسولَ الله! فاعلَمَ - وفَقَّنَا الله وإياكَ - أَنَّ للعلماء في ذلك أجوبةً، بعضها بصدِّ الإنصاف؛ ومنها ما هو بِنَيْتِ التعسُّف والاعتساف؛ وها أنا أقول:

أما على القول بتجويز الوَهْم والغَلَط فيما ليس طريقه من القول البلاغ، وهو الذي زَيَّنَاهُ من القَوْلَيْنِ - فلا اعْتِراضُ بهذا الحديث وشِبْهه.

وأما على مذهب مَنْ يَمْنَعُ السَّهْوَ والنسيان في أفعاله جملةً، ويَرى أنه في مثل هذا عامِدٌ لصورة النسيان لِيَسُنَّ، فهو صادقٌ في خَبَره؛ لأنه لم يَنْسَ ولا قَصِرَتْ، ولكنه على هذا القولِ تعمَّدَ هذا الفِعْلَ في هذه الصورة ليستَهْ لمن اغْتَرَاهُ مثله؛ وهو قولٌ مرغوبٌ عنه، ونَذْكُرُه في موضِعِه.

وأما على إحالة السَّهْوِ عليه في الأقوالِ وتجويز السَّهْوِ عليه فيما ليس طريقه القول - كما سنذكره - ففيه أجوبةٌ.

منها: أَنَّ النبي ﷺ أخبر عن اعتقاده وضميره؛ أَمَا إنكارُ القُضْرِ فحقٌّ وصدقٌ باطنًا وظاهرًا. وأما النسيانُ فأخبر - ﷺ - عن اعتقاده، وأنه لم يَنْسَ في ظَنِّه؛ فكانه قصدَ الخَبَرَ بهذا عن ظَنِّه وإن لم ينطق به؛ وهذا صدقٌ أيضاً.

ووجهٌ ثانٍ: أَنَّ قوله: «ولم أنس» راجعٌ إلى السلام: أي إني سلمتُ قُضْدًا، وسهوتُ عن العدَدِ، أي لم أنسه في نفسِ السلام؛ وهذا محتملٌ؛ وفيه بُغْدٌ.

ووجهٌ ثالثٌ: - وهو أبعدُها - ما ذهب إليه بعضهم، وإن احتمله اللفظُ من قوله: «كلُّ ذلك لم يكن»: أي لم يجتمع القُضْرُ والنسيان؛ بل كان أحدهما ومفهومُ اللفظِ خلافُه، مع الرواية الأخرى الصحيحة، وهو قوله: «ما قَصِرَتْ الصلاة وما نَسِيتُ».

هذا ما رأيتُ فيه لأثمتنا؛ وكلُّ من هذه الوجوه محتملٌ لللفظِ على بُغْدِ بعضها، وتعسُّف الآخر منها.

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: والذي أقول - ويظهر لي أنه أقربُ من هذه الوجوه كلها -: أن قوله ﷺ: «لم أنس» إنكارٌ لللفظِ الذي نفاه عن نفسه.

١٥٨٢ - وأنكره على غيره بقوله: «بئس ما لأحدكم أن يقول: نَسِيتُ آيةً كذا وكذا، ولكنه نُسِّي» [البخاري (٥٠٣٢)، مسلم (٧٩٠)].

١٥٨٣ - ويقولُه في بعض روايات الحديث الآخر: «لَسْتُ أنسى، ولكن

أَنْسَى». فلما قال له السائل: أَقْصِرْتَ الصَّلَاةَ أَمْ نَسِيتَ؟ أَنْكَرَ قَصْرَهَا كَمَا كَانَ، وَنَسِيَانَهُ هُوَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، وَإِنَّ كَانَ جَرَى شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ نُسِيَ حَتَّى سَأَلَ غَيْرَهُ؛ فَتَحَقَّقَ أَنَّهُ نُسِيَ، وَأُجِرِيَ عَلَيْهِ ذَلِكَ لَيْسَنَ؛ فَقَوْلُهُ عَلَى هَذَا: «لَمْ أَنْسَ وَلَمْ تُقْصِرْ» أَوْ «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ» صِدْقٌ وَحَقٌّ؛ لَمْ تُقْصِرْ، وَلَمْ يَنْسَ حَقِيقَةً، وَلَكِنَّهُ نُسِيَ.

وَوَجْهٌ آخَرُ اسْتَشْرَفَهُ مِنْ كَلَامِ بَعْضِ الْمَشَايخِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَنْسَهُو وَلَا يَنْسَى؛ وَلِذَلِكَ نَفَى عَنْ نَفْسِهِ النَّسِيَانَ؛ قَالَ: لِأَنَّ النَّسِيَانَ غَفْلَةٌ وَآفَةٌ؛ وَالسَّهْوُ إِنَّمَا هُوَ شُغْلٌ بِالِإِيقَانِ قَالَ: فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَنْسَهُو فِي صَلَاتِهِ وَلَا يَغْفُلُ عَنْهَا؛ وَكَانَ يَشْغَلُهُ عَنْ حَرَكَاتِ الصَّلَاةِ مَا فِي الصَّلَاةِ؛ شُغْلًا بِهَا، لَا غَفْلَةً عَنْهَا. فَهَذَا - إِنْ تَحَقَّقَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى - لَمْ يَكُنْ فِي قَوْلِهِ: «مَا قُصِرَتْ الصَّلَاةُ وَلَا نُسِيَ» خُلْفٌ فِي قَوْلِهِ.

وَعِنْدِي أَنَّ قَوْلَهُ: «مَا قُصِرَتْ الصَّلَاةُ وَمَا نُسِيَتُ» بِمَعْنَى التَّزَكُّ الَّذِي هُوَ أَحَدُ وَجْهَيْ النَّسِيَانِ؛ أَرَادَ - وَاللَّهِ أَعْلَمُ -: إِنِّي لَمْ أَسْلَمْ مِنْ رُكْعَتَيْنِ تَارِكًا لِإِكْمَالِ الصَّلَاةِ، وَلَكِنِّي نَسِيتُ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِي.

١٥٨٤ - وَالِدَلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنِّي لَا أَنْسَى، أَوْ أَنْسَى لِأُسْرٍ».

١٥٨٥ - وَأَمَّا قِصَّةُ كَلِمَاتِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الْمَذْكُورَةِ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهَا كَذِبَاتُهُ الثَّلَاثُ [الْبُخَارِيُّ (٣٣٥٧)، مُسْلِمٌ (٢٣٧١)]، الْمَنْصُوصَةُ، فِي الْقُرْآنِ مِنْهَا اثْنَتَانِ: قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصَّافَاتِ: ٨٩] وَقَوْلُهُ: ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِطَالِمِ بْنِ يَتَارِهِمُ﴾ ٧٧ قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كَبِيرُهُمْ هَذَا. [الْأَنْبِيَاءِ: ٦٢، ٦٣]. وَقَوْلُهُ لِلْمَلِكِ عَنْ زَوْجَتِهِ: «إِنِّهَا أُخْتِي» فاعلم - أكرمك الله - أَنَّ هَذِهِ كُلُّهَا خَارِجَةٌ عَنِ الْكَذْبِ؛ لَا فِي الْقَضْدِ وَلَا فِي غَيْرِهِ؛ وَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْمَعَارِضِ الَّتِي فِيهَا مَدْوُوحَةٌ عَنِ الْكَذْبِ.

أَمَّا قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ - فَقَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ: مَعْنَاهُ: سَأْسَقِمُ؛ أَيِ إِنْ كُلَّ مَخْلُوقٍ مَعْرُضٌ لِلذَّكَاءِ، فَاعْتَذِرْ لِقَوْمِهِ مِنَ الْخُرُوجِ مَعَهُمْ إِلَى عِيْدِهِمْ بِهَذَا. وَقِيلَ: بَلْ سَقِيمٌ بِمَا قُدِّرَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ.

وَقِيلَ: سَقِيمٌ الْقَلْبِ بِمَا أَشَاهَدُهُ مِنْ كُفْرِكُمْ وَعِنَادِكُمْ.

وَقِيلَ: بَلْ كَانَتْ الْحُمَى تَأْخُذُهُ عِنْدَ طُلُوعِ نَجْمٍ مَعْلُومٍ؛ فَلَمَّا رَأَاهُ، قَالَ هَذَا، اعْتَذَرَ بِعَادَتِهِ.

وكل هذا ليس فيه كذب؛ بل هو خبر صحيح صدق.

وقيل: بل عَرَضَ بسقم حجته عليهم، وضمف ما أراد بيانه لهم من جهة النجوم التي كانوا يشتغلون بها، وأنه أثناء نظره في ذلك، وقبل استقامة حجته عليهم في حال سقم ومريض حال، مع أنه لم يشك هو ولا ضعف إيمانه، ولكنه ضعف في استدلاله عليهم وسقم نظره، كما يقال: حجة سقيمة، ونظر معلول، حتى ألهمه الله باستدلاله وصحة حجته عليهم بالكوكب والشمس والقمر - نصه الله تعالى - وقد قدمنا بيانه.

وأما قوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا فَتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] فإنه علق خبره بشرط نطقه، كأنه قال: إن كان ينطق فهو فعلة على طريق التبكيت لقومه. وهذا صدق أيضاً، ولا خلف فيه.

وأما قوله: «أختي» فقد بين في الحديث، وقال: «فإنك أختي في الإسلام» وهو صدق؛ والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾ [الحجرات: ١٠].

١٥٨٦ - فإن قلت: فهذا النبي ﷺ قد سماها كذبات، وقال: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ».

١٥٨٧ - وقال في حديث الشفاعة: «ويذكر كذباته» [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (١٩٤)] فمعناه: أنه لم يتكلم بكلام صورته صورة الكذب - وإن كان حقاً في الباطن - إلا هذه الكلمات.

ولما كان مفهوم ظاهرها خلاف باطنها أشفق إبراهيم - عليه السلام - من مؤاخذته بها.

١٥٨٨ - وأما الحديث: «كان النبي ﷺ إذا أراد غزوة ورى بغيرها» [البخاري (٢٩٤٨)، مسلم (٥٤/٢٧٦٩)] فليس فيه خلف في القول؛ إنما هو ستر مقصده، لئلا يأخذ عدوه جذره؛ وكنتم وجه ذهابه بذكر السؤال عن موضع آخر، والبحث عن أخباره والتعريض بذكره، لا أنه يقول: تجهزوا إلى غزوة كذا، أو وجهتنا إلى موضع كذا خلاف مقصده؛ فهذا لم يكن؛ والأول ليس فيه خبر يذخله الخلف.

١٥٨٩ - فإن قلت: فما معنى قول موسى - عليه السلام - وقد سئل: «أي الناس أعلم؟» فقال: أنا أعلم؛ فعتب الله عليه ذلك؛ إذ لم ير العلم إليه الحديث [البخاري (١٢٢)، مسلم (٢٣٨٠)]؛ وفيه قال: «بل عبد لنا بمجمع البحرين أعلم منك».

وهذا خبر قد أنبا الله أنه ليس كذلك.

١٥٩٠ - فاعلم أنه قد وقع في هذا الحديث من بعض طرقه الصحيحة، عن ابن عباس: «هل تعلم أحدا أعلم منك؟».

فإذا كان جوابه على علمه فهو خبر حَقٍّ وصدق ولا خُلف فيه ولا شبهة. وعلى الطريق الآخر فتَحَمَّلَه على قَلْبِهِ ومُتَعَقِّدِهِ، كما لو ضُرِّحَ بِهِ، لأنَّ حاله في التَّوْبَةِ والاصطِفَاءِ يقتضي ذلك، فيكون إختياره بذلك أيضاً عن اعتقاده وجوابه صدقاً لا خُلف فيه.

وقد يُريدُ بقوله: «أنا أعلم» بما تَقْتَضِيهِ وظائفُ التَّوْبَةِ من علوم التَّوْحِيدِ، وأُمُورِ الشَّرِيعَةِ، وسِياسةِ الأُمَّةِ، ويكون الخَصِيرُ أعلمُ منه بأُمُورِ آخرِ ما لا يعلمه أحدٌ إلا بإعلامِ الله من علوم غُيُوبِهِ، كالقصص المذكورة في خبرهما، فكان موسى عليه السلام أعلم على الجملة بما تقدَّم. وهذا أعلم على الخصوص بما أعلم به. ويُدَلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف: ٦٥].

وعَتَبَ الله ذلك عليه - فيما قاله العلماء - إنكار هذا القول عليه، لأنه لم يَزِدْ العِلْمَ إليه، كما قالت الملائكة: ﴿لَا يَلْمُكَ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَّا﴾ [البقرة: ٣٢]، أو لأنه لم يَرْضَ قوله شَرْعاً، وذلك - والله أعلم - لثلاث يَفْتَنِي بِهِ فيه مَنْ لم يَبْلُغْ كَمَالَهُ في تَرْكِيبِ نَفْسِهِ وَغُلُوبِ دَرَجَتِهِ من أُمَّةٍ، فيَهْلِكُ لِمَا تُضَمُّهُ مِنْ مَذْهَبِ الإنسانِ نَفْسُهُ، وَيُورِثُهُ ذَلِكَ مِنَ الْكِبَرِ وَالْمُحِبِّ والتعاطي والدَّعْوَى، وإنْ نُزِّهَ عن هذه الرذائل الأنبياء فغَيْرُهُمْ بِمَذْهَبِ سَبِيلِهَا وَذَكَرَ لَيْلِهَا إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ، فَالتَّحْفُظُ مِنْهَا أَوَّلَى لِنَفْسِهِ، وَلِيَقْتَضِيَ بِهِ.

١٥٩١ - ولذا قال - عليه السلام - تحمُّطاً من بَثْلِ هذا مما قد أعلم به: «أنا سَيِّدُ زَلَّةِ آدَمَ وَلَا فَخْرٍ».

وهذا الحديث إحدى حُجَجِ القائلين بِتَّوْبَةِ الخَصِيرِ - عليه السلام - لقوله فيه: «أنا أعلم من موسى»، ولا يكون الولي أعلم من النبي، بل النبي أعلم من الولي. فأما الأنبياء فيتفاضلون في المعارف.

ويقوله: ﴿وَمَا كُنَّا عَنْ أَمْرٍ﴾ [الكهف: ٨٢]، فذلك أنه بوحى، ومن قال: إنه ليس بنبي قال: يحصل أن يكون فعله بأمر نبي آخر.

وهذا يَضْعُفُ، لأنه ما عَلِمْنَا أَنَّهُ كَانَ في زَمَنِ موسى - عليه السلام - نبي غيره إلا أخاه هارون، وما نُقِلَ أحدٌ من أهل الأخبار في ذلك شيئاً يُعَوَّلُ عليه.

وإذا جعلنا: «أعلم منك» ليس على العموم، وإنما هو على الخصوص، وفي قضايَا مُعَيَّنَةٍ - لم يَخْتِجْ إلى إثبات تَّوْبَةِ الخَصِيرِ، ولهذا قال بعضُ الشيوخ:

كان موسى أعلم من الخضر فيما أخذ عن الله، والخضر أعلم فيما دفع إليه من موسى.

وقال آخر: إنما أُلجئ موسى إلى الخضر للتأديب لا للتعليم.

فصل

فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الصَّغَائِرِ وَالْكِبَائِرِ

وأما ما يتعلق بالجوارح من الأعمال، ولا يخرج من جملتها القول باللسان فيما عدا الخبر الذي وقع فيه الكلام والاعتقاد بالقلب فيما عدا التوحيد، وما قدمناه من معارفه المختصة به فأجمع المسلمون على عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالْكِبَائِرِ الْمَوْبِقَاتِ. ومستند الجمهور في ذلك الإجماع الذي ذكرناه.

وهو مذهب القاضي أبي بكر؛ ومنعها غيره بدليل العقل مع الإجماع؛ وهو قول الكافة، واختاره الأستاذ أبو إسحاق.

وكذلك لا خلاف أنهم معصومون من كتمان الرسالة والتقصير في التبليغ؛ لأن كل ذلك تقتضي العصمة منه المعجزة، مع الإجماع على ذلك من الكافة.

والجمهور قائلون: بأنهم معصومون من ذلك من قبل الله، معتصمون باختيارهم وكبريائهم، إلا حسناً النجار؛ فإنه قال: لا قدرة لهم على المعاصي أصلاً.

وأما الصغائر فجزوها جماعة من السلف وغيرهم على الأنبياء؛ وهو مذهب أبي جعفر الطبري وغيره من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين. وسورّد بعد هذا ما احتجوا به.

وذهبت طائفة أخرى إلى الوقف، وقالوا: العقل لا يحيل وقوعها منهم؛ ولم يأت في الشرع قاطع بأحد الوجهين.

وذهبت طائفة أخرى من المحققين من الفقهاء والمتكلمين إلى عصمتهم من الصغائر كعصمتهم من الكبائر؛ قالوا: لاختلاف الناس في الصغائر وتعيينها من الكبائر وإشكال ذلك، وقول ابن عباس وغيره: إن كل ما عصي الله - عز وجل - به فهو كبيرة، وإنه إنما سُمي منها الصغيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منه؛ ومخالفة الباري في أي أمر كان، يجب كونه كبيرة.

قال القاضي أبو محمد: عبد الوهاب: لا يمكن أن يقال: إن في معاصي الله صغيرة إلا على معنى أنها تُغتفر باجتناب الكبائر، ولا يكون لها حكم مع ذلك،

بخلاف الكبار إذا لم يَتَّب منها فلا يُحِبُّها شيء. والمشيئة في العفو عنها إلى الله تعالى؛ وهو قول القاضي أبي بكر وجماعة أئمة الأشعرية وكثير من أئمة الفقهاء. قال القاضي رحمه الله: وقال بعض أئمتنا: ولا يجب على القولين أن يختلف أنهم معصومون عن تكرار الصغائر وكثرتها؛ إذ يلحقها ذلك بالكبار؛ ولا في صغيرة أدت إلى إزالة الحشمة، وأسقطت المروءة، وأوجبت الإزراء والخساسة؛ فهذا أيضاً ممّا يُعَصِّمُ عنه الأنبياء إجماعاً؛ لأن مثل هذه يحطُّ مَنْصِبُهُ المُتَّسِمُ به، ويُزَيِّرُ بصاحبه، ويُتَّقِرُ القلوب عنه؛ والأنبياء منزّهون عن ذلك. بل يُلْحَقُ بهذا ما كان من قبيل المُبَاح؛ فأدى إلى مثله؛ لخروجه بما أدى إليه عن اسم المباح إلى الحظر.

وقد ذهب بعضهم إلى عصمتهم من مؤاكلة المكروه قَصْداً. وقد استدلَّ بعض الأئمة على عصمتهم من الصغائر بالمصير إلى امتثال أفعالهم، واتباع آثارهم وسيرهم مطلقاً.

وجمهور الفقهاء على ذلك من أصحاب الشافعي ومالك وأبي حنيفة من غير التزام قرينة، بل مطلقاً عند بعضهم، وإن اختلفوا في حُكْم ذلك.

وحكى ابن خُوَيز مَنَازِدَ، وأبو الفرج عن مالك، التَّزَامُ ذلك وجوباً، وهو قول الأبهري وابن القُصَّار وأكثر أصحابنا.

وقول أكثر أهل العراق، وابن سريج، والإسْطَخْرِي، وابن خيران من الشافعية. وأكثر الشافعية على أن ذلك نَذْبٌ.

وذهبت طائفة إلى الإباحة.

وقيد بعضهم الاتباع فيما كان من الأمور الدينية وعُلِمَ به مقصِدُ القربة.

ومن قال بالإباحة في أفعاله لم يُقَيَّد. قال: فلو جَوَّزْنَا عليهم الصغائر لم يكن الاقتداء بهم في أفعالهم؛ إذ ليس كلُّ فِعْلٍ من أفعاله يَتِمِّزُ مَقْصِدُهُ من القربة أو الإباحة، أو الحظر، أو المعصية. ولا يصحُّ أن يُؤَمَّرَ المرءُ بامْتِثَالِ أمرٍ لعلَّه معصية، لا سيما على مَنْ يَرَى تقديم الفعل على القول إذا تعارضاً من الأصوليين.

ونزید هذا حجة بأن نقول: مَنْ جَوَّزَ الصغائر وَمَنْ نَهَاها عن نبيتنا - عليه السلام - مُجْمِعُونَ على أنه لا يَقَرُّ على مُنْكَرٍ مِنْ قولٍ، أو فِعْلٍ، وأنه متى رأى شيئاً، فسكت عنه - ﷺ - دَلَّ على جوازِهِ، فكيف يكون هذا حاله في حق غيره، ثم يجوز وقوعه منه في نفسه؟!.

وعلى هذا المآخذ تجب عصمتهم من مُواقعة المكروه، كما قيل. وإذ الحظر أو الذنب على الاقتداء بفعله يُتأني الزجر والنهي عن فعل المكروه. وأيضاً قد عُلِمَ مِنْ دين الصحابة قطعاً الاقتداء بأفعال النبي ﷺ كيف توجّهت، وفي كل فن كالاقتداء بأقواله.

١٥٩٢ - فقد تَبَدُّوا خواتيمهم حين نبذ خاتمهم [البخاري (٦٦٥١)، مسلم (٢٠٩١)].

١٥٩٣ - وخلعوا نعالهم حين خَلَعَ نعله [أبو داود (٦٥٠)].

١٥٩٤ - واحتجاجهم برؤية ابنِ عُمَرَ إياه جالساً لقضاء حاجته مستقبلاً بيت المقدس [البخاري (١٤٥)، مسلم (٢٦٦)].

واحتجَّ غَيْرُ واحدٍ منهم في غير شيء مما بابه العبادة أو العادة بقوله: رأيت النبي ﷺ - يفعله.

١٥٩٥ - وقال: «هَلَّا خَبَرْتِهَا أَنِّي أَقْبَلُ وَأَنَا صَائِمٌ».

١٥٩٦ - وقالت عائشة - محتجّة -: كنت أفعله أنا ورسولُ الله ﷺ [الترمذي (١٠٨)].

١٥٩٧ - وغَضِبَ - عليه السلام - على الذي أُخْبِرَ بمثل هذه عنه؛ فقال: يُجِلُّ اللهُ لرسوله ما يشاء وقال: «إِنِّي لِأَخْشَاكُم لِلَّهِ وَأَعْلَمُكُمْ بِحُدُودِهِ».

والآثارُ في هذا أعظم من أَنْ نُحِيطَ عليها، لكنه يُعْلَمُ مِنْ مجموعها على القَطْعِ اتباعهم أفعاله واقتداؤهم بها، ولو جَوَّزُوا عليه المخالفة في شيء منها لما اتَّسَقَ هذا، وَلْتَقَلَّ عنهم وظهر بَخْثُهُمْ عن ذلك، وَلَمَّا أَنْكَرَ - عليه السلام - على الآخر قوله واعتذاره بما ذكرناه.

وأما المباحات فجائز وقوعها منهم؛ إذ ليس فيها قَذْحٌ، بل هي مأذون فيها، وأيديهم كأيدي غيرهم مسلّطة عليها، إلا أَنَّهُمْ بما خُصُّوا به من رفيع المنزلة، وشَرِحَتْ له صدورهم من أنوار المعرفة، واضطُّفُوا به مِنْ تَعَلُّقِ الهمم بالله والدار الآخرة، لا يأخذون من المباحات إلا الضَّرُورَاتِ مما يَتَقَوَّوْنَ به على سُلُوكِ طريقهم، وصلاح دينهم، وضرورة دنياهم، وما أَخِذَ على هذه السبيل التحق بطاعة، وصار قُرْبَةً، كما بَيَّنَّا منه أَوَّلَ الكتاب طرفاً في خصال نبينا عليه السلام؛ فإن لك عظيمَ فَضْلِ اللَّهِ على نبينا عليه السلام وعلى سائر أنبيائه عليهم السلام. بأن جعل أفعالهم قُرْبَاتٍ وطاعاتٍ بعيدةً عن وَجْهِ المخالفة ورسم المعصية.

فصل

فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْمَعَاصِي قَبْلَ النَّبُوَّةِ

وقد اختلف في عصمتهم من المعاصي قبل النبوة؛ فمنعها قوم، وجوزها آخرون. والصحيح - إن شاء الله - تنزيههم من كل عيب، وعصمتهم من كل ما يوجب الريب؛ فكيف والمسألة تصوؤها كالمُمتنع؛ فإن المعاصي والنواهي إنما تكون بعد تقرر الشرع.

وقد اختلف الناس في حال نبينا - عليه السلام - قبل أن يوحى إليه؛ هل كان متبعاً لشرع قبله أم لا؟ فقال جماعة: لم يكن متبعاً لشيء؛ وهذا قول الجمهور؛ فالمعاصي على هذا القول غير موجودة ولا مُغتبرة في حقه حينئذ؛ إذ الأحكام الشرعية إنما تتعلق بالأوامر والنواهي وتقرر الشريعة.

ثم اختلفت حُجج القائلين بهذه المقالة عليها؛ فذهب سيف السنيّة، ومفتدى فرق الأئمة، القاضي أبو بكر إلى أن طريق العلم بذلك الثقل، وموارد الخبر من طريق السمع؛ وحجته أنه لو كان ذلك لثقل، ولما أمكن كتمه وستره في العادة؛ إذ كان من مهم أمره؛ وأولى ما اهتبل به من سيرته، ولفخر به أهل تلك الشريعة، ولاختجوا به عليه؛ ولم يؤثر شيء من ذلك جملة.

وذهبت طائفة إلى امتناع ذلك عقلاً؛ قالوا: لأنه ينبغي أن يكون متبوعاً من عرف تابعاً؛ وبنوا هذا على التحسين والتبحيح؛ وهي طريقة غير سديدة؛ واستناد ذلك إلى الثقل - كما تقدم للقاضي أبي بكر - أولى وأظهر.

وقالت فرقة أخرى بالوقف في أمره عليه السلام، وترك قطع الحكم عليه بشيء في ذلك؛ إذ لم يحل أحد الوجهين منها العقل، ولا استبان عندنا في أحدهما طريق الثقل؛ وهو مذهب أبي المعالي.

وقالت فرقة ثالثة: إنه كان عاملاً بشرع من قبله؛ ثم اختلفوا: هل يتعين ذلك الشرع أم لا؟ فوقف بعضهم عن تعيينه، وأخجم، وجسر بعضهم على التعيين وصنم.

ثم اختلفت هذه المعينة فيمن كان يتبع؛ فقيل: نوح، وقيل: إبراهيم، وقيل: موسى، وقيل: عيسى صلوات الله عليهم. فهذه جملة المذاهب في هذه المسألة.

والأظهر فيها ما ذهب إليه القاضي أبو بكر، وأبعدها مذاهب المعينين؛ إذ

لو كان شيء من ذلك لُنُقِلَ كما قَدَّمنا، ولم يَخَفَ جملة؛ ولا حجة لهم في أن عيسى آخِرَ الأنبياء، فلزمت شريعته مَنْ جاء بعدها؛ إذ لم يثبت عمومُ دَعْوَةِ عيسى، بل الصحيح أنه لم يكن لنبي دَعْوَةٌ عامَّةٌ إلا لنبيِّنا ﷺ؛ ولا حجة أيضاً للآخرين في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، ولا للآخرين في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣]، فتُحْمَلُ هذه الآية على اتِّباعهم في التَّوْحِيدِ؛ كقوله تعالى: ﴿أُوَلِّيكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقد سَمَّى اللَّهُ تعالى فيهم مَنْ لم يُنْعَثْ، ولم يَكُنْ له شريعةٌ تُخَصُّهُ؛ كيوسف بن يعقوب على قول مَنْ يقول: إنه ليس برسولٍ.

وقد سَمَّى اللَّهُ تعالى جماعةً منهم في هذه الآية شرائعهم مختلفة لا يمكن الجَمْعَ بينها؛ فدلَّ أن المراد ما اجتمعوا عليه من التوحيد وعبادة الله تعالى. وبعْدَ هذا؛ فهل يلزم مَنْ قال بَمَنْعِ الاتِّباعِ هذا القولُ في سائر الأنبياء غيرِ نبيِّنا ﷺ، أو يخالفون بينهم؟

أما مَنْ مَنَعَ الاتِّباعَ عقلاً فيطرُدُ أضله في كلِّ رسولٍ بلا مِزْيَةٍ. وأما مَنْ قال إلى الثَّقَلِ فأينما تُصوِّرُ له وتقرِّرُ اتِّبعه.

ومن قال بالوقوفِ فعلى أضله، ومن قال بوجوب الاتِّباعِ لمن قبله يلتزمه بمَسَاقِ حُجَّتِهِ في كلِّ نبيٍّ.

فصل

في حُكْمِ السَّهْوِ وَالنَّسْيَانِ فِي الْوُظَائِفِ الشَّرْعِيَّةِ

هذا حُكْمٌ ما تكونُ المخالفةُ فيه من الأعمالِ عن قَضْدٍ؛ وهو ما يسمَّى مَعْصِيَةً، ويدخلُ تحت التكليف. وأما ما يكونُ بغيرِ قَضْدٍ وتَعَمُّدٍ، كالسَّهْوِ، والنَّسْيَانِ في الوُظَائِفِ الشَّرْعِيَّةِ، مما تَقَرَّرَ الشَّرْعُ بعدمِ تعلقِ الخطابِ به، وتركِ المؤاخِذةِ عليه؛ فأحوالُ الأنبياء - عليهم السلام - في تركِ المؤاخِذةِ به، وكونه ليس بمَعْصِيَةٍ لهم مع أممهم سواء. ثم ذلك على نوعين: ما طريقُه البلاغُ، وتقريرُ الشَّرْعِ، وتعلقُ الأحكامِ، وتعليمُ الأمةِ بالفعل، وأخذهم باتِّباعِهِ فيه، وما هو خارجٌ عن هذا مما يخصُّ بنفسه.

أما الأولُ: فحُكْمُهُ عِنْدَ جماعةٍ من العلماءِ حُكْمُ السَّهْوِ في القولِ في هذا الباب، وقد ذكرنا الاتفاقَ على امتناعِ ذلك في حقِّ النبيِّ ﷺ، وعِصْمَتِهِ مِنْ

جوازِهِ عَلَيْهِ قَضَاءٌ أَوْ سَهْوٌ؛ وَكَذَلِكَ قَالُوا: الْأَفْعَالُ فِي هَذَا الْبَابِ لَا يَجُوزُ طَرُؤُ
الْمُخَالَفَةِ فِيهَا لَا عَمْدًا وَلَا سَهْوًا؛ لِأَنَّهَا بِمَعْنَى الْقَوْلِ مِنْ جِهَةِ التَّبْلِيغِ وَالْأَدَاءِ،
وَطَرُؤَ هَذِهِ الْعَوَارِضُ عَلَيْهَا يُوجِبُ التَّشْكِيكَ، وَيَسَبِّبُ الْمَطَاعِينَ.
وَاعْتَذَرُوا عَنْ أَحَادِيثِ السَّهْوِ بِتَوَجُّهَاتٍ نَذَرْنَا بِهَا بَعْدَ هَذَا. وَإِلَى هَذَا مَالُ أَبُو
إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَايِينِي.

وَذَهَبَ الْأَكْثَرُ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ إِلَى أَنَّ الْمُخَالَفَةَ فِي الْأَفْعَالِ الْبَلَاغِيَةِ
وَالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ - سَهْوٌ وَعَنْ غَيْرِ قَضَاءٍ مِنْهُ - جَائِزَةٌ عَلَيْهِ، كَمَا تَقَرَّرَ مِنْ أَحَادِيثِ
السَّهْوِ فِي الصَّلَاةِ؛ وَفَرَّقُوا بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ الْأَقْوَالِ الْبَلَاغِيَةِ لِقِيَامِ الْمَعْجِزَةِ عَلَى
الصَّدَقِ فِي الْقَوْلِ، وَمُخَالَفَتُهُ ذَلِكَ يَنَاقِضُهَا.
وَأَمَّا السَّهْوُ فِي الْأَفْعَالِ فَغَيْرُ مُنَاقِضٍ لَهَا، وَلَا قَادِحٍ فِي النُّبُوَّةِ، بَلْ غُلَطَاتُ
الْفِعْلِ وَغَفَلَاتُ الْقَلْبِ مِنْ سِمَاتِ الْبَشَرِ.

١٥٩٨ - كَمَا قَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، أَنَسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا
نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي» [الْبَخَارِيُّ (٤٠١)، مُسْلِمٌ (٥٧٢)].

١٥٩٩ - نَعَمْ، بَلْ حَالَةُ النِّسْيَانِ وَالسَّهْوِ - هُنَا - فِي حَقِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَبَبٌ
إِفَادَةٍ عِلْمٍ، وَتَقْرِيرِ شَرْعٍ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي لَأَنْسَى - أَوْ أَنْسَى -
لَأَسْنَ».

١٦٠٠ - بَلْ قَدْ رُوِيَ: «لَسْتُ أَنْسَى، وَلَكِنْ أَنَسَى لَأَسْنَ».
وَهَذِهِ الْحَالَةُ زِيَادَةٌ لَهُ فِي التَّبْلِيغِ، وَتِمَامٌ عَلَيْهِ فِي النِّعْمَةِ، بَعِيدَةٌ عَنْ سِمَاتِ
النَّقْصِ، وَاعْتِرَاضِ الطُّغْنِ؛ فَإِنَّ الْقَائِلِينَ بِتَجْوِيزِ ذَلِكَ يَشْتَرِطُونَ أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقَرَّرُ
عَلَى السَّهْوِ وَالْغُلَطِ؛ بَلْ يَنْبَهُونَ عَلَيْهِ، وَيُعَرِّفُونَ حُكْمَهُ بِالْفَوْرِ - عَلَى قَوْلِ بَعْضِهِمْ -
وَهُوَ الصَّحِيحُ وَقَبْلَ انْقِرَاضِهِمْ عَلَى قَوْلِ الْآخَرِينَ.

وَأَمَّا مَا لَيْسَ طَرِيقُهُ الْبَلَاغُ، وَلَا بَيَانُ الْأَحْكَامِ مِنْ أَعْمَالِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا
يَخْتَصُّ بِهِ مِنْ أُمُورِ دِينِهِ، وَأَذْكَارِ قَلْبِهِ، مِمَّا لَمْ يَقْعَلْهُ لِيُتَّبَعَ فِيهِ، فَلَا أَكْثَرَ مِنْ طَبَقَاتِ
عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ عَلَى جَوَازِ السَّهْوِ وَالْغُلَطِ عَلَيْهِ فِيهَا، وَلِحُقُوقِ الْفَتَرَاتِ، وَالْغَفَلَاتِ
بِقَلْبِهِ؛ وَذَلِكَ بِمَا كَلَّفَهُ مِنْ مَقَاسَاةِ الْخَلْقِ، وَسِيَاسَاتِ الْأُمَّةِ، وَمَعَانَاةِ الْأَهْلِ،
وَمُلَاحَظَةِ الْأَعْدَاءِ؛ وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَى سَبِيلِ التَّكْرَارِ، وَلَا الْإِتِّصَالِ؛ بَلْ عَلَى
سَبِيلِ التَّنْذِيرِ.

١٦٠١ - كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّهُ لَيَغَاثُ عَلَى قَلْبِي، فَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ».
وَلَيْسَ فِي هَذَا شَيْءٌ يَخْطُ مِنْ رُثْبَتِهِ وَيُنَاقِضُ مَعْجِزَتَهُ.

وذهبت طائفة إلى مَنَعَ السَّهْوِ، والنَّسيان، والعَقَلات، والفترات في حقه - عليه السلام - جملة.

وهو مذهب جماعة المتصوفة وأصحاب علم القلوب والمقامات، ولهم في هذه الأحاديث مذاهب نذكرها - إن شاء الله - بَعْدُ.

فصل

فِي الْكَلَامِ عَلَى الْأَحَادِيثِ الْمَذْكُورِ

فِيهَا السَّهْوُ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قد قَدَّمْنَا فِي الْفصول قبل هذا ما يجوزُ فيه عليه السَّهْوُ - عليه السلام - وما يَمْتَنِعُ، وَأَحْلَنَاهُ فِي الْأَخْبَارِ جملةً، وفي الْأَقْوَالِ الدِّينية قَطْعاً، وَأَجْزَأَ وقوعه فِي الْأَفْعَالِ الدِّينية عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي رَتَّبْنَاهُ، وَأَشْرْنَا إِلَى ما ورد فِي ذَلِكَ؛ وَنَحْنُ نَبْسُطُ الْقَوْلَ فِيهِ هَا هُنَا - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - وَنَقُولُ: الصَّحِيحُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْوَاردَةِ فِي سَهْوِهِ - عليه السلام - فِي الصَّلَاةِ ثَلَاثَةُ أَحَادِيثَ:

١٦٠٢ - أَوَّلُهَا: حَدِيثُ ذِي الْيَدَيْنِ فِي السَّلَامِ مِنْ اثْنَتَيْنِ.

١٦٠٣ - الثَّانِي: حَدِيثُ ابْنِ بُحَيْنَةَ فِي الْقِيَامِ مِنْ اثْنَتَيْنِ [البخاري (٨٢٩)، مسلم (٥٧٠)].

١٦٠٤ - الثَّالِثُ: حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى الظُّهْرَ خَمْساً [البخاري (١٢٢٦)، مسلم (٩١/٥٧٢)].

وهذه الْأَحَادِيثُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى السَّهْوِ فِي الْفِعْلِ الَّذِي قَرَّرْنَاهُ، وَحِكْمَةُ اللَّهِ فِيهِ لِيُسْتَشَنَّ بِهِ، إِذِ الْبَلَاغُ بِالْفِعْلِ أَجْلَى مِنْهُ بِالْقَوْلِ، وَأَرْفَعُ لِلْاحْتِمَالِ؛ وَشَرْطُهُ أَنَّهُ لَا يُقَرَّرُ عَلَى السَّهْوِ؛ بَلْ يُشْعَرُ بِهِ لِيَرْتَفَعَ الْإِلْتِبَاسُ، وَتُظْهَرَ فَائِدَةُ الْحِكْمَةِ فِيهِ كَمَا قَدَمْنَاهُ؛ وَإِنْ النِّسيانَ وَالسَّهْوَ فِي الْفِعْلِ فِي حَقِّهِ - عليه السلام - غَيْرُ مُضَادٍّ لِلْمَعْجَزَةِ، وَلَا قَادِحٍ فِي التَّصَدِيقِ.

١٦٠٥ - وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ؛ فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي».

١٦٠٦ - وَقَالَ ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ فُلَانًا؛ لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً، كُنْتُ أَسْقُطُهَا» [البخاري (٥٠٣٨)، مسلم (٧٨٨)]، وَيُرْوَى: «أَنْسَيْتُهَا».

١٦٠٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي لَأَنْسَى - أَوْ أَنْسَى - لَأَنْسَى».

١٦٠٨ - قِيلَ: هَذَا اللَّفْظُ شَكٌّ مِنَ الرَّايِ. وَقَدْ رَوَى: «إِنِّي لَا أَنْسَى، وَلَكِنْ أَنْسَى لَأَنْسَى».

وذهب ابن نافع، وعيسى بن دينار أنه ليس بشك؛ وأن معناه التقسيم؛ أي
أَنْسَى أنا، أو يُنْسِي الله..

قال القاضي أبو الوليد الباجي: يَحْتَمِلُ ما قالاه، أَنْ يُرِيدَ إِنِّي أَنْسَى فِي
الْيَقَظَةِ، وَأَنْسَى فِي النَوْمِ، أو أَنْسَى عَلَى سَبِيلِ عَادَةِ الْبَشَرِ مِنَ الدُّهُولِ عَنِ الشَّيْءِ
وَالسَّهْوِ؛ أو أَنْسَى مَعَ إِقْبَالِي عَلَيْهِ وَتَفَرُّغِي لَهُ؛ فَأُضَافُ أَحَدَ الشَّيْأَيْنِ إِلَى نَفْسِهِ؛
إِذَا كَانَ لَهُ بَعْضُ السَّبَبِ فِيهِ، وَنَفَى الْآخَرَ عَنْ نَفْسِهِ؛ إِذَا هُوَ فِيهِ كَالْمُضْطَرِّ.

وذهبت طائفة من أصحاب المعاني والكلام عَلَى الْحَدِيثِ إِلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ
كَانَ يَسْهُو فِي الصَّلَاةِ وَلَا يُنْسَى؛ لِأَنَّ النِّسْيَانَ دُهُولٌ وَعَقْلَةٌ وَآفَةٌ؛ قَالَ: وَالنَّبِيُّ ﷺ
مُنَزَّوَةٌ عَنْهَا؛ وَالسَّهْوُ شُغْلٌ؛ فَكَانَ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَنْسَهُو فِي صَلَاتِهِ، وَيَشْغَلُهُ
عَنِ حَرَكَاتِ الصَّلَاةِ مَا فِي الصَّلَاةِ، شُغْلًا بِهَا، لَا عَقْلَةً عَنْهَا.
وَاحْتِجَّ بِقَوْلِهِ فِي الرَّوَايَةِ الْآخَرَى: «إِنِّي لَا أَنْسَى».

وذهبت طائفة إِلَى مَنْعِ هَذَا كُلِّهِ عَنْهُ، وَقَالُوا: إِنَّ سَهْوَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ
قَصْدًا وَعَمْدًا لَيْسَ.

وهذا قول مرغوب عنه، مُتَنَاقِضُ الْمَقَاصِدِ، وَلَا يُخْلَى مِنْهُ بِطَائِلٍ؛ لِأَنَّهُ
كَيْفَ يَكُونُ مُتَعَمِّدًا سَاهِيًا فِي حَالٍ؟! وَلَا حِجَّةَ لَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ أَمَرَ بِتَعَمُّدِ
صَوْرَةِ النِّسْيَانِ لَيْسَ؛ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي لَا أَنْسَى أَوْ أَنْسَى لِأَسْنٍ». وَقَدْ أَثْبَتَ
أَحَدُ الْوُصَفَيْنِ، وَنَفَى مُنَاقِضَةَ التَّعَمُّدِ وَالْقَصْدِ.

١٦٠٩ - وَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتَ
فَذَكِّرُونِي».

وقد مَالَ إِلَى هَذَا عَظِيمٌ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَمَمِنَا، وَهُوَ أَبُو الْمُظَفَّرِ
الْإِسْفَرَايِينِي، وَلَمْ يَرْتَضِهِ غَيْرُهُ مِنْهُمْ، وَلَا أَرْضِيهِ، وَلَا حِجَّةَ لِهَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ فِي
قَوْلِهِ: «إِنِّي لَا أَنْسَى وَلَكِنْ أَنْسَى» إِذْ لَيْسَ فِيهِ نَفْيُ حُكْمِ النِّسْيَانِ بِالْجُمْلَةِ، وَإِنَّمَا
فِيهِ نَفْيُ لَفْظِهِ وَكَرَاهَةُ لَفْظِهِ.

١٦١٠ - كَقَوْلِهِ: «بَشَرٌ مَا لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَذَا، وَلَكِنَّهُ نُسِيَ»
أَوْ نَفْيُ الْعَقْلَةِ وَقِلَّةُ الْإِهْتِمَامِ بِأَمْرِ الصَّلَاةِ عَنْ قَلْبِهِ، لَكِنْ شُغْلٌ بِهَا عَنْهَا، وَنَسِيَ
بَعْضُهَا يَبْعُضُهَا.

١٦١١ - كَمَا تَرَكَ الصَّلَاةَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَتَّى خَرَجَ وَقُتِلَ [الْبَخَارِيُّ (٢٩٣١)،
مُسْلِمَ (٦٢٧)]، وَشُغِلَ بِالتَّحَوُّزِ مِنَ الْعَدُوِّ عَنْهَا؛ فَشُغِلَ بِطَاعَةِ عَنِ طَاعَةِ.

١٦١٢ - وَقِيلَ: إِنَّ الَّذِي تَرَكَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ أَرْبَعَ صَلَوَاتٍ: الظُّهْرَ، وَالْعَصْرَ،

والمغرب، والعشاء، وبه احتجَّ مَنْ ذَهَبَ إِلَى جَوَازِ تَأْخِيرِ الصَّلَاةِ فِي الْحَرْبِ، إِذَا لَمْ يَتِمَّكَنْ مِنْ أَدَائِهَا إِلَى وَقْتِ الْأَمْنِ، وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّامِيِّينَ.

والصحيح أَنَّ حُكْمَ صَلَاةِ الْخَوْفِ كَانَ بَعْدَ هَذَا، فَهُوَ نَاسِخٌ لَهُ.

١٦١٣ - فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا تَقُولُ فِي نَوْمِهِ ﷺ عَنْ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْوَادِي.

١٦١٤ - وَقَدْ قَالَ: «إِنْ عَيْنِي تَنَامَانُ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي؟».

فَاعْلَمْ أَنَّ لِلْعُلَمَاءِ عَنْ ذَلِكَ أَجْوَبَةً.

مِنْهَا: أَنَّ الْمُرَادَ بِأَنَّ هَذَا حُكْمُ قَلْبِهِ عِنْدَ نَوْمِهِ وَعَيْنِيهِ فِي غَالِبِ الْأَوْقَاتِ،

وَقَدْ يَنْدُرُ مِنْهُ غَيْرُ ذَلِكَ، كَمَا يَنْدُرُ مِنْ غَيْرِهِ خِلَافُ عَادَتِهِ.

١٦١٥ - وَيُصَحِّحُ هَذَا التَّأْوِيلَ قَوْلُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْحَدِيثِ نَفْسُهُ:

«إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَنَا».

١٦١٦ - وَقَوْلُ بِلَالٍ فِيهِ: مَا أَلْقَيْتَ عَلَيَّ نَوْمَةً مِثْلَهَا قَطُّ [البخاري (٥٩٥)].

وَلَكِنْ مِثْلُ هَذَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنْهُ لِأَمْرِ يَرِيدُهُ اللَّهُ مِنْ إِثْبَاتِ حُكْمٍ، وَتَأْسِيسِ سُئَةٍ، وَإِظْهَارِ شَرْعٍ.

١٦١٧ - وَكَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَا يَنْقُطْنَا، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ

يَكُونَ لِمَنْ بَعْدَكُمْ».

الثَّانِي: أَنَّ قَلْبَهُ لَا يَسْتَغْرِقُهُ النَّوْمُ حَتَّى يَكُونَ مِنْهُ الْحَدَثُ فِيهِ.

١٦١٨ - لَمَّا رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ مُحْرَسًا.

وَأَنَّهُ كَانَ يَنَامُ حَتَّى يَنْفُخَ، وَحَتَّى يُسْمَعَ غَطِيطُهُ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي وَلَا يَتَوَضَّأُ

[البخاري (١١٧)، مسلم (٧٦٣)].

١٦١٩ - وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ الْمَذْكُورُ فِيهِ وَضُوئُهُ عِنْدَ قِيَامِهِ مِنَ النَّوْمِ [البخاري

(٦٣١٦)، مسلم (١٨٢/٧٦٣)]، فِيهِ نَوْمُهُ مَعَ أَهْلِهِ؛ فَلَا يُمْكِنُ الْإِحْتِجَاجُ بِهِ عَلَى وَضُوئِهِ

- عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِمَجَرَّدِ النَّوْمِ، إِذْ لَعَلَّ ذَلِكَ لِمَلَامَسَةِ الْأَهْلِ أَوْ لِحَدِيثِ آخَرَ، فَكَيْفَ

وَفِي آخِرِ الْحَدِيثِ نَفْسِهِ: ثُمَّ نَامَ حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ، ثُمَّ أَقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَصَلَّيْتُ

وَلَمْ يَتَوَضَّأْ؟

١٦٢٠ - وَقِيلَ: لَا يَنَامُ قَلْبُهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ يُوَحَّى إِلَيْهِ فِي النَّوْمِ، وَلَيْسَ فِي

قِصَةِ الْوَادِي إِلَّا نَوْمٌ عَيْنِيهِ عَنْ رُؤْيَا الشَّمْسِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ فِعْلِ الْقَلْبِ، وَقَدْ قَالَ

- عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَنَا وَلَوْ شَاءَ لَرَدَّهَا إِلَيْنَا فِي حِينٍ غَيْرِ هَذَا».

١٦٢١ - فَإِنْ قِيلَ: فَلَوْلَا عَادَتُهُ مِنْ اسْتِغْرَاقِ النَّوْمِ لَمَّا قَالَ لِإِلَالٍ: «اُتَخَلَّأْ لَنَا

الصُّبْحُ» [مسلم (٦٨٠)].

١٦٢٢ - فُقِيلَ فِي الْجَوَابِ: إِنَّهُ كَانَ مِنْ شَأْنِهِ - عَلَيْهِ السَّلَام - التَّغْلِيصُ
بِالصُّبْحِ؛ وَمِرَاعَاةِ أَوَّلِ الْفَجْرِ لَا يَصْحُحُ مِمَّنْ نَامَتْ عَيْنُهُ؛ إِذْ هُوَ ظَاهِرٌ يُذْرَكُ
بِالْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ، فَوَكَّلَ بِلَاأَ بِمِرَاعَاةِ أَوَّلِهِ لِيُعْلِمَهُ بِذَلِكَ، كَمَا لَوْ شُغِلَ بِشُغْلٍ غَيْرِ
النَّوْمِ عَنْ مُرَاعَاتِهِ.

١٦٢٣ - فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى نَهْيِهِ - عَلَيْهِ السَّلَام - عَنِ الْقَوْلِ: «نَسِيتُ».

١٦٢٤ - وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ

فَذَكِّرُونِي».

١٦٢٥ - وَقَالَ: «لَقَدْ أَذَكَّرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً كُنْتُ أَنْسِيْتُهَا».

فَاعْلَمْ - أَكْرَمَكَ اللَّهُ - أَنَّهُ لَا تَعَارُضَ فِي هَذِهِ الْأَلْفَاظِ؛ أَمَّا نَهْيُهُ عَنِ أَنْ
يُقَالَ: «نَسِيتُ آيَةً كَذَا» فَمَحْمُولٌ عَلَى مَا تُسَيِّخُ فَعْلُهُ مِنَ الْقُرْآنِ، أَيِ: إِنَّ الْعَقْلَ فِي
هَذَا لَمْ تَكُنْ مِنْهُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اضْطَرَّهٗ إِلَيْهَا لِيَمْحُوَ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتَ، وَمَا كَانَ
مِنْ سَهْوٍ، أَوْ غَفْلَةٍ مِنْ قِبَلِهِ تَذَكَّرَهَا صَلَحَ أَنْ يُقَالَ فِيهِ: أَنْسَى.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ هَذَا مِنْهُ - ﷺ - عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِحْبَابِ فِي أَنَّهُ يُضَيَّفُ الْفِعْلُ
إِلَى خَالِقِهِ، وَالْآخَرُ عَلَى طَرِيقِ الْجَوَازِ لِاِكْتِسَابِ الْعَبْدِ فِيهِ، وَإِسْقَاطِهِ - عَلَيْهِ
السَّلَام - لِمَا أَسْقَطَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ جَائِزٌ عَلَيْهِ بَعْدَ بِلَاغٍ مَا أَمَرَ بِبِلَاغِهِ، وَتَوْصِيلِهِ
إِلَى عِبَادِ اللَّهِ، ثُمَّ يَسْتَذَكِّرُهَا مِنْ أُمَّتِهِ، أَوْ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ، إِلَّا مَا قَضَى اللَّهُ - عَزَّ
وَجَلَّ - نَسْخَهُ وَمَحْوَهُ مِنَ الْقُلُوبِ وَتَرَكَ اسْتِذْكَارَهُ.

وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَنْسَى النَّبِيُّ - ﷺ - مَا هَذَا سَبِيلُهُ كَرَّةً؛ وَيَجُوزُ أَنْ يُنْسِيَهُ مِنْهُ
قَبْلَ الْبِلَاغِ مَا لَا يَغَيِّرُ نَظْمًا، وَلَا يَخْلُطُ حُكْمًا، مِمَّا لَا يُدْخِلُ خَلَلًا فِي الْخَبَرِ، ثُمَّ
يُذَكِّرُهُ إِيَّاهُ، وَيَسْتَحِيلُ دَوَامَ نَسْيَانِهِ لَهُ؛ لِحِفْظِ اللَّهِ كِتَابَهُ، وَتَكْلِيفِهِ بِلَاغَهُ.

فصل

فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ أَجَارَ عَلَيْهِمُ الصَّغَائِرَ

وَالْكَلَامِ عَلَى مَا احْتَجُّوا بِهِ فِي ذَلِكَ

اعْلَمْ أَنَّ الْمَجُوزِينَ الصَّغَائِرَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ وَمَنْ شَايَعَهُمْ
عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ احْتَجُّوا عَلَى ذَلِكَ بِظَوَاهِرَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ، إِنْ
التَّزَمُوا ظَوَاهِرَهَا أَفْضَتْ بِهِمْ إِلَى تَجْوِيزِ الْكِبَائِرِ وَخَرْقِ الْإِجْمَاعِ، وَمَا لَا يَقُولُ بِهِ
مُسْلِمٌ، فَكَيْفَ وَكُلُّ مَا احْتَجُّوا بِهِ مِمَّا اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ، وَتَقَابَلَتْ
الِاحْتِمَالَاتُ فِي مُقْتَضَاهُ، وَجَاءَتْ أَقَاوِيلُ فِيهَا لِلْسَّلَفِ بِخِلَافِ مَا التَّزَمُوهُ مِنْ ذَلِكَ؟

فإذا لم يكن مذهبهم إجماعاً، وكان الخلاف فيما احتجوا به من ذلك قديماً، وقامت الحجة والدلالة على خطأ قولهم، وصحة غيره، وجب تركه، والمصير إلى ما صَحَّ.

وها نحن نأخذ في النظر فيها إن شاء الله:

فمن ذلك قوله تعالى لِنَبِيِّنَا مُحَمَّد ﷺ:

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾ الآية [محمد: ١٩].

وقوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۝ أَلَيْسَ أَتَقَضَّ ظَهْرُكَ ۝﴾ [الشرح: ٢، ٣].

وقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهْمَ...﴾ الآية [التوبة: ٤٣].

وقوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [١٨]

[الأنفال: ٦٨].

وقوله: ﴿عَسَىٰ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَنْ جَاءَهُ الْأَحْمَقُ ۝﴾ الآية [عبس: ١، ٢].

وما قصَّ عليه من قصص غيره من الأنبياء؛ كقوله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾

[طه: ١٢١].

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَبَحَا جَعَلَا لَمْ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَلَىٰ اللَّهُ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ۝﴾ [الأعراف: ١٩٠].

وقوله - عنه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

[الأعراف: ٢٣].

وقوله - عن يونس: ﴿سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الآية [الأنبياء: ٨٧].

وما ذكر من قصته وقصة داود؛ وقوله: ﴿وَلَقَدْ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا

وَأَنَابَ ۝ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَنَا عِندَنَا لَآلِفًا وَحُسْنَ مَنَاقِبَ ۝﴾ [ص: ٢٤، ٢٥].

وقوله - عن يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْسُفَ وَهَمَّ بِهَا﴾ الآية [يوسف: ٢٤] وما

قصَّ من قصته مع إخوته.

وقوله - عن موسى: ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾

[القصص: ١٥].

١٦٢٦ - وقول النبي ﷺ - في دعائه: «اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وما

أَخَّرْتُ، وما أَسْرَرْتُ وما أَعْلَنْتُ» [مسلم (٧٧١)] ونحوه من أذعيته. عليه السلام.

١٦٢٧ - وذكر الأنبياء في الموقف ذنوبهم، في حديث الشفاعة.

١٦٢٨ - وقوله: «إنه لينفأ على قلبي فاستغفر الله».

١٦٢٩ - وفي حديث أبي هريرة: «إني لأستغفرُ اللهَ، وأتوبُ إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

وقوله تعالى - عن نوح: ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] وقد كان الله - عز وجل - قال له: ﴿وَلَا تَحْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ﴾ [هود: ٣٧].

وقال - عن إبراهيم: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٨٧) الآية [الشعراء: ٨٢].

وقوله - عن موسى: ﴿بُئِيَثَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].
وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ...﴾ الآيات [ص: ٣٤] إلى ما أشبه هذه الظواهر.

قال القاضي رحمه الله:
فأما احتجاجهم بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فهذا قد اختلف فيه المفسرون؛ ف قيل: المراد ما كان قبل النبوة وبعدها.
وقيل: المراد ما وقع لك من ذنب وما لم يقع. أعلمه أنه مغفور له.
وقيل: المتقدم ما كان قبل النبوة، والمتأخر: عَصَمْتُكَ بَعْدَهَا، حكاه أحمد بن نصر.

وقيل: المراد بذلك أمته عليه السلام.
وقيل: المراد ما كان عن سهو وغفلة، وتأويل. حكاه الطبري رحمه الله، واختاره القشيري.

وقيل: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ لأبيك آدم، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ من ذنوب أمتك؛ حكاه السمرقندي والسلمي عن ابن عطاء.

وبمثله والذي قبله يتأول قوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] قال مكِّي: مخاطبة النبي ﷺ - ها هنا - هي مخاطبة لأمته.

وقيل: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ - لَمَّا أُمِرَ أَنْ يَقُولَ: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩] - سُرَّ بذلك الكفار لعنهم الله؛ فأنزل الله تعالى عليه: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ الآية [الفتح: ٢] وبماك المؤمنين في الآية الأخرى بعدها؛ قاله ابن عباس؛ فمقصود الآية: إنك مغفور لك، غير مُوَاحِدٍ بِذَنْبٍ تُذْنِبُ أَنْ لَوْ كَانَ. قال بعضهم: المغفرة ها هنا: ثَبَرَةٌ مِنَ الْعُيُوبِ.

وأما قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ (٢) الَّتِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) [الشرح: ٢، ٣]؛

فقيل: ما سلف مِنْ ذَنْبِكَ قبل النبوة؛ وهو قولُ ابنِ زَيْدٍ، والحسن، ومعنى قول قتادة.

وقيل: معناه أَنَّهُ حَفِظَ قَبْلَ نبوّته منها، وعَصِمَ؛ ولولا ذلك لَأَثْقَلَتْ ظَهْرُهُ؛ حكى معناه السمرقندي.

وقيل: المرادُ بذلك ما أَثْقَلَ ظَهْرُهُ مِنْ أَغْبَاءِ الرِّسَالَةِ حتّى بَلَغَهَا؛ حكاه الماوردي، والسلمي.

وقيل: حَطَطْنَا عَنْكَ ثِقَلَ أَيَّامِ الجاهلية؛ حكاه مكي.

وقيل: ثَقُلَ شَغْلُ سِرِّكَ وَخَيْرَتِكَ وَطَلِبُ شَرِيعَتِكَ حتّى شَرَعْنَا ذلك لَكَ، حكى معناه القشيري.

وقيل معناه: حَقَّقْنَا عَلَيْكَ مَا حُمِلْتَ بِحِفْظِنَا لما اسْتَحْفِظْتَ، وَحَفِظَ عَلَيْكَ.

ومعنى «أَنْقَضَ ظَهْرَكَ» أي: كَادَ يَنْقُضُهُ؛ فيكون المعنى على مَنْ جَعَلَ ذلك لما قبل النبوة اهتمامَ النبي - ﷺ - بِأُمُورِ فَعَلَهَا قبل نُبُوتِهِ، وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِ بعد النبوة؛ فَعَذَّا أَوْزَارًا، وَثَقَلَتْ عَلَيْهِ، وَأَشْفَقَ مِنْهَا.

أو يكون الِوضْعُ عِصْمَةُ اللَّهِ لَهُ وَكِفَايَتُهُ مِنْ ذُنُوبٍ لو كانت لَأَنْقَضَتْ ظَهْرَهُ.

أو يكون مِنْ ثِقَلِ الرِّسَالَةِ؛ أو ما ثَقُلَ عَلَيْهِ وَشَغَلَ قَلْبَهُ مِنْ أُمُورِ الجاهلية، وإِعْلَامِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِحِفْظِ مَا اسْتَحْفَظَهُ مِنْ وَحْيِهِ.

وأما قَوْلُهُ: «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهْمُ» [التوبة: ٤٣] فَأَمَرَ لَمْ يَتَقَدَّمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِيهِ مِنَ اللَّهِ - تَعَالَى - نَهْيٌ فَبَعْدَ مَعْصِيَةٍ، وَلَا عَدَّةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ مَعْصِيَةٍ؛ بَلْ لَمْ يَعْذِرْ أَهْلَ الْعِلْمِ مُعَاتَبَةً، وَغَلَطُوا مَنْ ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ؛ قَالَ يَفْطَوِيهِ: وَقَدْ حَاشَا اللَّهَ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ؛ بَلْ كَانَ مُحْخِرًا فِي أَمْرَيْنِ؛ قَالُوا: وَقَدْ كَانَ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا شَاءَ فِيمَا لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ فِيهِ وَحْيٌ، فَكَيْفَ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «فَأَذْنِ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ» [النور: ٦٢]. فَلَمَّا أَذِنَ لَهُمْ أَغْلَمَهُ اللَّهُ بِمَا لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ مِنْ سِرِّهِمْ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَأْذِنْ لَهُمْ لَقَعَدُوا، وَأَنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِيمَا فَعَلَ، وَلَيْسَ «عَفَا» - هُنَا - بِمَعْنَى غَفَرَ.

١٦٣٠ - بَلْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَفَا اللَّهُ لَكُمْ عَنْ صَدَقَةِ الْخَيْلِ وَالرَّقِيقِ» [الترمذي (٦٢٠)، أَبُو دَاوُدَ (١٥٧٤)، النَّسَائِيُّ (٣٧/٥)، ابْنُ مَاجَةَ (١٧٩٠)]. وَلَمْ تَجِبْ عَلَيْهِمْ قَطُّ؛ أَي لَمْ يُلْزَمْكُمْ ذَلِكَ.

ونحوه للقشيري؛ قال: وإنما يقول: العفو لا يكون إلا عن ذنب من لم يعرف كلام العرب؛ قال: ومعنى ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ أي: لم يلزمك ذنباً.
قال الداودي: روي أنها تكرمة من الله عز وجل.
وقال مكي: هو استفتاح كلام؛ مثل: أعزك الله! وأكرمك الله!
وحكى السمرقندي أن معناه: عافاك الله.

وأما قوله في أسارى بذر: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَتَخَيَّرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨]. فليس فيه أيضاً إلزام ذنب للنبي ﷺ؛ بل فيه بيان ما خص به وفضل من بين سائر الأنبياء؛ فكأنه قال: ما كان هذا لنبي غيرك.

١٦٣١ - كما قال ﷺ: «أجلت لي الغنائم، ولم تحل لنبي قبلي». فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

قيل: المغمي بالخطاب لمن أراد ذلك منهم، وتجرد عرضه لعرض الدنيا وخذه فيها، والاستكثار منها؛ وليس المراد بهذا النبي ﷺ، ولا عليه أصحابه؛ بل قد روي عن الضحّاك أنها نزلت حين انهزم المشركون يوم بدر، واشتغل الناس بالسلب وجمع الغنائم عن القتال؛ حتى خشي عمر أن يغطف عليهم العدو.

ثم قال تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨]؛ فاختلف المفسرون في معنى الآية؛ فقيل: معناها: لولا أنه سبق مني أن لا أعذب أحداً إلا بعد النهي لعذبتكم. فهذا ينفي أن يكون أمر الأسرى معصية.

وقيل: المعنى: لولا إيمانكم بالقرآن - وهو الكتاب السابق - فاستوجبتم به الصفح لعوقبتكم على الغنائم.

ويؤاد هذا القول تفسيراً وبياناً بأن يقال: لولا ما كنتم مؤمنين بالقرآن، وكنتم ممن أجلت لهم الغنائم لعوقبتكم، كما عوقب من تعدى.

وقيل: لولا أنه سبق في اللوح المحفوظ أنها حلال لكم لعوقبتكم. فهذا كله ينفي الذنب والمعصية؛ لأن من فعل ما أجل له يغص؛ قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩].

١٦٣٢ - وقيل: بل كان - عليه السلام - قد خَيَّرَ في ذلك؛ وقد رُوِيَ عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال: جاء جبريل - عليه السلام - إلى النبي - ﷺ - يوم بدر، فقال: خَيَّرَ أصحابك في الأسارى، إن شأؤوا القتل، وإن شأؤوا الفداء، على أن يُقتل منهم في العام المُقبِل مِثلُهم. فقالوا: الفداء ويُقتل مِنّا [الترمذي (١٥٦٧)].

وهذا دليل على صحة ما قلناه، وأنهم لم يفعلوا إلا ما أذن لهم فيه؛ ولكن بعضهم مَالَ إلى أضعف الوجهين مما كان الأصلح غيره من الإنحان والقتل؛ فعوتبوا على ذلك، ويُنَّ لهم ضَعْفُ اختيارهم وتصويب اختيار غيرهم؛ وكلهم غَيَّرَ عَصَاةً ولا مُذْنِبِينَ؛ وإلى نحو هذا أشار الطبري.

١٦٣٣ - وقوله - عليه السلام - في هذه القضية: «لو نزل من السماء عَذَابٌ ما نجا منه إلا عُمَرُ» إشارة إلى هذا من تصويب رأيه، ورَأْي مَنْ أَخَذَ بِمَا أَخَذَهُ، في إعزاز الدين، وإظهار كلمته، وإبادة عَدُوِّهِ، وأنَّ هذه القضية لو استوجبت عذاباً نجا منه عمر ومثله، وعَيَّنَ عُمَرُ لأنه أول من أشار بقتلهم؛ ولكن الله لم يَقْدِرْ عليهم في ذلك عذاباً لِحَلِّهِ لهم فيما سبق.

وقال الداودي: الخَبَرُ بهذا لا يثبت، ولو ثبت لما جاز أن يُظَنَّ أَنَّ النبي ﷺ حَكَمَ بما لا نَصَّ فيه، ولا دليل من نَصِّ، ولا جُعِلَ الأَمْرُ إليه فيه؛ وقد نَزَّهَهُ اللَّهُ تعالى عن ذلك.

وقال القاضي بَكْرُ بن العلاء: أخبر الله تعالى نبيّه - عليه السلام - في هذه الآية أن تأويله وافق ما كتبه له من إحلال الغنائم والفداء؛ وقد كان قَبْلَ هذا فاذوا في سَرِيَّةِ عبد الله بن جَحْشٍ التي قُتِلَ فيها ابنُ الحَضْرَمِيِّ بالحَكَمِ بن كَيْسَانَ وصاحبه، فما عَتَبَ اللَّهُ ذلك عليهم؛ وذلك قَبْلَ بَدْرَ بأكثر من عام.

فهذا كله يَدُلُّ على أن فِعْلَ النبي ﷺ في شأنِ الأسرى كان على تأويل وبصيرة، وعلى ما تقدّم قَبْلَ مثله؛ فلم يَنْكِره اللَّهُ تعالى عليهم، لكن الله تعالى أراد - لعظم أمرِ بَدْرَ وكثرة أسراها - والله أعلم - إظهارَ نعمته، وتأكيدِ مِثَّتِهِ، بتعريفهم ما كتبه في اللُّوحِ المحفوظ من حِلِّ ذلك لهم، لا على وجهِ عِتَابٍ وإنكارٍ أو تَذَنُّيبٍ. هذا معنى كلامه.

وأما قوله: ﴿عَسَ وَتَوَلَّى﴾ ① أَنَّ جَاءَهُ الْآخِصَ ② [عيس: ١، ٢].

فليس فيه إثباتُ ذَنْبٍ له عليه السلام، بل إعلامُ الله - عز وجل - أن ذلك

الْمُتَّصِدِّي لَهُ مَمَّنْ لَا يَتَزَكَّى، وَأَنَّ الصُّوَابَ وَالْأَوَّلَى كَانَ - لَوْ كُشِفَ لَكَ حَالُ
الرَّجُلَيْنِ - الْإِقْبَالُ عَلَى الْأَعْمَى.

وفعل النبي - ﷺ - لِمَا فَعَلَ، وَتَصَدَّيْهِ لَذَلِكَ الْكَافِر، كَانَ طَاعَةً لِلَّهِ وَتَبْلِيغًا
عَنْهُ وَاسْتِثْلَافًا لَهُ، كَمَا شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُ، لَا مَعْصِيَةَ، وَلَا مَخَالَفَةَ لَهُ.

وَمَا قَصَّهَ اللَّهُ لَهُ - عَلَيْهِ السَّلَام - مِنْ ذَلِكَ إِعْلَامٌ بِحَالِ الرَّجُلَيْنِ وَتَوْهِينِ أَمْرِ
الْكَافِرِ عِنْدَهُ وَالْإِشَارَةُ إِلَى الْإِعْرَاضِ عَنْهُ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبُ﴾ [عبس: ٧].

وقيل: أَرَادَ بـ «عبس»، وَ «تَوَلَّى» - الْكَافِرَ الَّذِي كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَهُ أَبُو
تَمَّامٍ.

وَأَمَّا قِصَّةُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَكْكَلَا مِنْهَا﴾ [طه: ١٢١] بَعْدَ
قَوْلِهِ: ﴿وَلَا قَرْبًا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ نَكْنِ
عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وَتَصْرِيحُهُ - تَعَالَى - عَلَيْهِ بِالمَعْصِيَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١] أَيْ جَهَلَ.

وقيل أخطأ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ بِعُذْرِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ
قَبْلُ فَنَسَى وَلَمْ يَحْدِ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]؛ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: نَسِيَ عِدَاوَةَ إِبْلِيسَ
لَهُ، وَمَا عَهِدَ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ...﴾ [طه: ١١٧].

وقيل: نَسِيَ ذَلِكَ بِمَا أَظْهَرَ لَهُمَا إِبْلِيسَ مِنَ الشَّفَقَةِ، وَالْمِيلِ إِلَيْهِمَا، وَالتَّضَحُّحِ
لَهُمَا.

وقال ابن عباس: إِنَّمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ إِنْسَانًا لِأَنَّهُ عَهِدَ إِلَيْهِ فَنَسِيَ.
وقيل: لَمْ يَقْصِدِ المَخَالَفَةَ اسْتِحْلَالًا لَهَا، وَلَكِنْ هُمَا اغْتَرَّا بِحَلْفِ إِبْلِيسَ لَهُمَا:
﴿إِنِّي لَكُمَا لَوْنٌ الشَّهِيدُ﴾ [الأعراف: ٢١]؛ وَتَوَهَّمَا أَنَّ أَحَدًا لَا يَحْلِفُ بِاللَّهِ حَانَثًا.

وقد رُوِيَ عُذْرُ آدَمَ عَنْ ذَلِكَ بِمِثْلِ هَذَا فِي بَعْضِ الْأَثَارِ.
وقال ابن جُبَيْرٍ: حَلَفَ بِاللَّهِ لَهُمَا حَتَّى عَزَّمَا؛ وَالْمُؤْمِنُ يُخَدِّعُ.
وقد قيل: نَسِيَ، وَلَمْ يَتَوَّعِ المَخَالَفَةَ؛ فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَلَمْ يَحْدِ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] أَيْ قَصْدًا لِلْمَخَالَفَةِ.

وَأَكْثَرُ الْمَفْسَرِينَ عَلَى أَنَّ الْعَزْمَ - هَا هُنَا - الْحَزْمُ وَالصَّبْرُ.
وقيل: كَانَ عِنْدَ أَكْلِهِ سَكْرَانًا؛ وَهَذَا فِيهِ ضَعْفٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ -
وَصَفَ خَمْرَ الْجَنَّةِ أَنَّهَا لَا تُسَكَّرُ؛ فَإِذَا كَانَ نَاسِيًا لَمْ تَكُنْ مَعْصِيَةً؛ وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ
مَلْبَسًا عَلَيْهِ غَالِطًا؛ إِذَا الِاتِّفَاقُ عَلَى خُرُوجِ النَّاسِي وَالسَّاهِي عَنْ حُكْمِ التَّكْلِيفِ.

وقال الشيخ أبو بكر بن فُورك وغيره: إنه يمكن أن يكون ذلك قبل النبوة؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢] فذكر أن الاجتباء والهداية كانا بعد العَصِيَانِ.

وقيل: بل أكلها متأولاً، وهو لا يَعْلَمُ أَنَّها الشجرة التي نُهيِيَ عنها؛ لأنه تأوَّل نُهيِيَ الله عن شجرة مخصوصة لا على الجنس؛ ولهذا قيل: إنما كانت التوبة من تَرَكَ التحفُّظَ، لا مِن المخالفة.

وقيل: تأوَّل أَنَّ الله لم يَنْهَهُ عنها نُهيِيَ تخريم.
فإن قيل: فعلى كُلِّ حالٍ فقد قال الله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]؛ وقال: ﴿قَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

١٦٣٤ - وقوله في حديث الشفاعة - ويذكرُ ذَنْبَهُ -: «واني نُهيْتُ عن أكل الشجرة فعصيتُ» فسيأتي الجواب عنه وعن أشباهه مُجْمَلًا آخِرَ هذا الفصلِ إن شاء الله تعالى.

وأما قِصَّةُ يونس فقد مضى الكلام على بعضها آنفاً؛ وليس في قصة يونس نصٌّ على ذَنْبٍ؛ وإنما فيه: ﴿أَتَى﴾ [الصفات: ١٤٠] و ﴿ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقد تكلمنا عليه.

وقيل: إنما نَقِمَ الله عليه خروجه عن قومه فارًّا من نزول العذاب.
وقيل: بل لَمَّا وعدهم العذاب ثم عفا الله عنهم قال: واللَّهِ لا أَلْقَاهُمْ بوجه كَذَابٍ أبداً.

وقيل: بل كانوا يقتلون مَنْ كَذَبَ فخاف ذلك.
وقيل: ضَعُفَ عن حَمْلِ أعباء الرسالة. وقد تَقَدَّمَ الكلام أنه لم يكذبهم. وهذا كله ليس فيه نصٌّ على معصية إلا على قولٍ مرغوب عنه.
وقوله: ﴿إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصفات: ١٤٠] قال المفسرون: تباعد.

وأما قوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ فالظلمُ وَضَعُ الشيء في غير موضعه؛ وهذا اعترافٌ منه عند بعضهم بذَنْبِهِ؛ فإمَّا أن يكون لخروجه عن قومه بغير إذن ربه، أو لضعفه عما حُمِّلَهُ، أو لدعائه بالعذاب على قومه، وقد دعا نوحٌ بهلاك قومه فلم يؤاخِذْ.

وقال الواسطي في معناه: نَزَّهُ رَبُّهُ عن الظلم، وأضاف الظلمَ إلى نفسه اعترافاً واستحقاقاً. وقيل: هذا مثل قولِ آدم وخوَّاء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾

[الأعراف: ٢٣]؛ إذ كانا السبب في وَضْعهما غير الموضع الذي أُنْزِلَا فيه؛ وإخْرَاجهما من الجَنَّةِ، وإنْزَالهما إلى الأرض.

١٦٢٥ - وأما قصة داود - عليه السلام - فلا يجب أن يُلْتَفَتَ إلى ما سَطَرَهُ فيها الإخباريون عن أهل الكتاب الذين بَدَّلُوا وَغَيَّرُوا؛ ونقله بَعْضُ المفسرين. ولم يَنْصُ اللَّهُ على شيء من ذلك، ولا وردَ في حديث صحيح. والذي نصَّ اللَّهُ عليه قوله: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِنْ يَأْمُرُكَ أَنْ تَمُوتَ مِنْ أَلْفَلَاةٍ لِيَنِّي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لَكَفْلًا وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: ٢٤، ٢٥]. وقوله فيه: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

فمعنى ﴿فَتَنَّا﴾ أي: اختبرناه. و ﴿أَوَّابٌ﴾: قال قتادة: مُطِيع. وهذا التفسير أولى.

١٦٣٦، ١٦٣٧ - وقال ابن عباس، وابن مسعود: ما زاد داودُ على أن قال للرجل: أنزل لي عن امرأتك وأَكْمِلْنيها؛ فعاتبه اللَّهُ على ذلك، ونَبَّهه عليه، وأنكر عليه شُغْلَه بالدنيا، وهذا الذي ينبغي أن يَعُولَ عليه من أمره عليه السلام. وقد قيل: خطبها على خطبته.

وقيل: بل أحبَّ بقلبه أن يُسْتَشْهَدَ.

وحكى السمرقندي أن ذنبه الذي استغفر منه قوله لأَحَدِ الْخَضَمِينَ: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ﴾ [ص: ٢٤]، فظلمه بقول خضمه.

وقيل: بل لِمَا خَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ، وَظَنَّ مِنَ الْفِتْنَةِ بما بُسِطَ له من المُلْكِ والدُّنْيَا.

وإلى نَفْيِ ما أَضْيَفَ في الأخبارِ إلى داود من ذلك، ذَهَبَ أحمدُ بن نصر، وأبو تَمَّام، وغيرهما من المحققين.

وقال الدَّوْدِيُّ: ليس في قصة داود وأُورِيَا خَبَرٌ يَثْبُتُ؛ ولا يظُنُّ بنو محبة قَتْلَ مُسْلِمٍ.

وقيل: إِنَّ الْخَضَمِينَ اللَّذِينَ اخْتَصَمَا إِلَيْهِ رَجُلَانِ فِي نِتَاجِ غَنَمٍ، على ظاهر الآية.

وأما قصة يوسف وإخوته فليس على يوسف منها تعقُّب، وأما إخوته فلم تَثْبُتْ نبوتهم فَيَلَزَمَ الكلامُ على أفعالهم. وَذَكَرُ الْأَسْبَاطِ وَعَدَّهُمْ في القرآنِ عند ذِكْرِ الأنبياء ليس صريحاً في كونهم من أهل الأنبياء.

قال المفسرون: يريد من نبيء من أبناء الأسباط.

وقد قيل: إنهم كانوا حين فعلوا بيوسف ما فعلوه صِغَارَ الأسنان؛ ولهذا لم يميزوا يوسف حين اجتمعوا به؛ ولهذا قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢] وإن ثبت لهم نبوة فبعد هذا، والله أعلم.
وأما قول الله تعالى فيه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤].

١٦٢٨ - فعلى مذهب كثير من الفقهاء والمُحَدِّثِينَ أَنَّ هَمَّ النَّفْسِ لَا يُؤَاخِذُ به العبد، وليس سيئة لقوله - عليه السلام - عن ربه: «إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ» [البخاري (٦٤٩١، ٧٥٠١)، مسلم (١٢٩، ١٣١)]، فلا معصية حينئذ ليوسف في هَمِّه إِذَا.

وأما على مذهب المحققين من الفقهاء والمتكلمين فَإِنَّ هَمَّ - إِذَا وُطِنَ عليه النفس - سيئة. وأما ما لم تُوطِن عليه النفس من همومها وخَوَاطِرِهَا فهو المعفو عنه.

وهذا هو الحق؛ فيكون - إن شاء الله - هَمُّ يوسف من هذا؛ ويكون قوله: ﴿وَمَا أَتَرَى نَفْسِي إِنْ النَّفْسُ لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَدَ رَجِيًّا إِنْ رَأَى عَفْوَرٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

أي ما أبرئها من هذا الهَمِّ؛ أو يكون ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف بمخالفة النفس لِمَا رُكِّي قَبْلُ وَبُرِّي، فكيف وقد حكى أبو حاتم عن أبي عبيدة، أَنَّ يوسف لَمْ يَهَمْ، وَأَنَّ الكلامَ فيه تقديم وتأخير؛ أي: ولقد هَمَّتْ به؛ ولولا أن رأى برهانَ ربه لَهَمْ بها؛ وقد قال الله تبارك وتعالى - عن المرأة -: ﴿وَلَقَدْ زَوَّجْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَثْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ...﴾ [يوسف: ٢٣].

قيل في ﴿رَبِّي﴾: الله تعالى، وقيل: المَلِك.

وقيل: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: بزجرها ووعظها.

وقيل: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: غَمَّها امتناعه عنها.

وقيل: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾: نظر إليها.

وقيل: هَمَّ بضربها ودفعها.

وقيل: هذا كله كان قَبْلَ نبوته عليه السلام.

وقد ذَكَرَ بعضهم: ما زال النساءُ يَمْلَنُ إلى يوسفَ مِثْلَ شهوةٍ حتى نبأه الله، فألقى عليه هيبَ النبوة؛ فشغلتْ هيبته كلَّ مَنْ رآه عن حُسْنِهِ.

وأما خَبَرُ موسى - عليه السلام - مع قتيله الذي وَكَزَّهُ فقد نصَّ الله تعالى أنه مِنْ عَدُوِّهِ، وقال: كان مِنَ الْقَبِيضِ الَّذِينَ عَلَى دِينِ فِرْعَوْنَ.

ودليلُ السُّورَةِ في هذا كله أنه قَبْلَ نُبُوَّةِ موسى عليه السلام.

وقال قتادة: وَكَزَّهُ بالعصا، ولم يتعمَّد قَتْلَهُ، فعلى هذا لا معصية في ذلك.

وقوله: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ...﴾ [القصص: ١٥]. وقوله: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي

فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦] قال ابن جُرَيْجٍ: قال ذلك من أَجْلِ أنه لا ينبغي لنبِيٍّ أَنْ يَقْتُلَ حتى يُؤْمَرَ.

وقال النقاش: لم يَقْتُلْهُ عن عَمْدٍ مُريداً للقتل، وإنما وَكَزَّهُ وَكَزَرَهُ يريدُ بها

دَفْعَ ظُلْمِهِ، قال: وقد قيل: إِنَّ هذا كان قَبْلَ النبوة، وهو مُقْتَضَى التَّلَاوَةِ.

وقوله تعالى - في قصته: ﴿وَفَشَّكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]، أي ابتليناكَ ابتلاءً بعد

ابتلاءٍ. قيل: في هذه القصة وما جَرَى له مع فرعون. وقيل: إلقاؤه في التابوت واليَمِّ، وغير ذلك.

وقيل: معناه أَخْلَصْنَاكَ إِخْلَاصاً؛ قاله ابنُ جَبْرِ ومجاهد؛ مِنْ قولهم: فَنَشْتُ

الْفِضَّةَ فِي النَّارِ، إِذَا خَلَصْتَهَا. وَأَضْلُ الْفِتْنَةِ مَعْنَى: الْإِخْتِبَارِ، وإظهارُ ما بَطَنَ، إِلا

أنه استعمل في عَزْفِ الشَّعْرِ في إِبْتِحَارٍ أَدَّى إِلَى ما يُكْرَهُ.

١٦٣٩ - وكذلك ما رُوِيَ فِي الْخَبَرِ الصَّحِيحِ؛ مِنْ أَنَّ مَلِكَ الْمَوْتِ جَاءَهُ

فَلَطَمَ عَيْنَهُ فَقَافَاها... الْحَدِيثُ [البخاري (١٣٣٩)، مسلم (١٥٨/٢٣٧٢)].

ليس فيه ما يُحَكِّمُ به عَلَى موسى - عليه السلام - بِالتَّعَدِّيِّ وَفَعَلَ ما لا يَجِبُ

لَهُ، إِذْ هُوَ ظَاهِرُ الْأَمْرِ، بَيْنَ الْوَجْهِ، جَائِزُ الْفِعْلِ، لِأَنَّ موسى دَافَعَ عَنْ نَفْسِهِ مَنْ

آتَاهُ لِإِتْلَافِهَا، وَقَدْ تَصَوَّرَ لَهُ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَلَا يُمْكِنُ أَنَّهُ عَلِمَ حِينَئِذٍ أَنَّهُ مَلِكُ

الْمَوْتِ، فِدَافَعَهُ عَنْ نَفْسِهِ مَدَافَعَةً أَدَّتْ إِلَى ذَهَابِ عَيْنِ تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي تَصَوَّرَ لَهُ

فِيهَا مَلِكُ الْمَوْتِ امْتِحَاناً مِنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لِمُوسَى، فَلَمَّا جَاءَهُ بَعْدُ،

وَأَعْلَمَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنَّهُ رَسُولُهُ إِلَيْهِ اسْتَسَلَّمَ.

وللمتقدمين والمتأخرين على هذا الحديث أجوبة هذا أسدُّها عندي، وهو

تَأْوِيلُ شَيْخِنَا الْإِمَامِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْمَازَرِيِّ.

وقد تَأَوَّلَهُ - قَدِيمًا - ابْنُ عَائِشَةَ، وَغَيْرُهُ عَلَى صَكِّهِ وَلَطْمِهِ بِالْحِجَّةِ، وَفَقَّ

عَنِ حُجَّتِهِ، وَهُوَ كَلَامٌ مُسْتَعْمَلٌ فِي هَذَا الْبَابِ؛ مَعْرُوفٌ فِي اللُّغَةِ.

وَأَمَّا قِصَّةُ سُلَيْمَانَ وَمَا حُكِيَ فِيهَا أَهْلُ التَّفَاسِيرِ مِنْ ذَنْبِهِ وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٤]؛ فَمَعْنَاهُ ابْتَلَيْنَاهُ: أَيِ اخْتَبَرْنَاهُ.

١٦٤٠ - وَابْتِلَاؤُهُ: مَا حُكِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا طُوفُوقَ اللَّيْلَةِ عَلَى مِثْلِ امْرَأَةٍ - أَوْ تَسْعٍ وَتَسْعِينَ - كُلُّهُنَّ يَأْتِينَ بِفَارِسٍ، يَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ. فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ».

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

قَالَ أَصْحَابُ الْمَعَانِي: وَالشُّقُّ: هُوَ الْجَسَدُ الَّذِي أُلْقِيَ عَلَى كُرْسِيِّهِ حِينَ غُرِضَ عَلَيْهِ، وَهُوَ عَقُوبَتُهُ وَمِخْتَتُهُ.

وَقِيلَ: بَلْ مَاتَ فَأُلْقِيَ عَلَى كُرْسِيِّهِ مَيِّتًا.

وَقِيلَ: ذَنْبُهُ: حِرْضُهُ عَلَى ذَلِكَ وَتَمَنُّيهِ.

وَقِيلَ: لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَشِنْ لِمَا اسْتَغْرَقَهُ مِنَ الْحِرْصِ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ مِنَ التَّمَنِّي.

وَقِيلَ: عَقُوبَتُهُ أَنْ سَلِبَ مُلْكُهُ، وَذَنْبُهُ: أَنْ أَحَبَّ بَقْلَهُ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ لِأَخْتَانِهِ عَلَى خَصْمِهِمْ.

وَقِيلَ: أَوْخِذَ بِذَنْبٍ قَارَقَهُ بَعْضُ نِسَائِهِ. وَلَا يَصِحُّ مَا نَقَلَهُ الْإِخْبَارِيُّونَ مِنْ خِرَافَاتِهِمْ: مِنْ تَشْبِهِ الشَّيْطَانِ بِهِ، وَتَسْلُطِهِ عَلَى مُلْكِهِ، وَتَصَرُّفِهِ فِي أَمْتِهِ بِالْجَوْرِ فِي حُكْمِهِ؛ لِأَنَّ الشَّيَاطِينَ لَا يُسَلِّطُونَ عَلَى مِثْلِ هَذَا؛ وَقَدْ عُصِمَ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ مِثْلِهِ. وَإِنْ سُئِلَ: لِمَ لَمْ يَقُلْ سُلَيْمَانُ فِي الْقِصَّةِ الْمَذْكُورَةِ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ؟ فَعَنَّهُ أَجُوبَةٌ:

١٦٤١ - أَحَدُهَا: مَا رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ نَسِيَ أَنْ يَقُولَهَا [مُسْلِمٌ

(١٦٥٤)، الْبُخَارِيُّ (٥٢٤٢)]، وَذَلِكَ لِيَتَفَضَّلَ مَرَادُ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ صَاحِبَهُ وَشَغِلَ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَبَّ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]. لَمْ يَفْعَلْ هَذَا

سُلَيْمَانٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - غَيْرَةً عَلَى الدُّنْيَا وَلَا نَفَاسَةً بِهَا؛ وَلَكِنْ مَقْصِدُهُ فِي ذَلِكَ - عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْمَفْسُورُونَ - أَلَّا يَسْلُطَ عَلَيْهِ أَحَدٌ كَمَا سُلِّطَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ الَّذِي سَلَبَهُ إِيَّاهُ مُدَّةَ امْتِحَانِهِ عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: بَلْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنَ اللَّهِ فَضِيلَةٌ، وَخَاصَّةٌ يَخْتَصُّ بِهَا كَاخْتِصَاصِ

غيره من أنبياء الله ورسوله بخواص منه .
 وقيل: ليكون ذلك دليلاً وحجة على نبوته؛ كإلانة الحديد لأبيه داود عليه السلام، وإحياء الموتى لعيسى، واختصاص محمد ﷺ بالشفاعة، ونحو هذا.

وأما قصة نوح - عليه السلام - فظاهرة العذر، وأنه أخذ فيها بالتأويل وظاهر اللفظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَفْلَكَ﴾ [هود: ٤٠]؛ فطلب مقتضى هذا اللفظ، وأراد علم ما طوي عنه من ذلك؛ لا أنه شك في وعد الله تعالى فبين الله عليه أنه ليس من أهله الذين وعده بنجاتهم لكفره، وعمله الذي هو غير صالح؛ وقد أعلمه أنه مغرور الذين ظلموا، ونهاه عن مخاطبته فيهم؛ فأوخذ بهذا التأويل، وعتب عليه، وأشفق هو من إقدامه على ربه لسؤاله ما لم يؤذن له في السؤال فيه؛ وكان نوح - فيما حكاه النقاش - لا يعلم بكفر ابنه.

وقيل في الآية غير هذا؛ وكل هذا لا يقضي على نوح بمعصية سوى ما ذكرناه من تأويله وإقدامه بالسؤال فيما لم يؤذن له فيه، ولا نهى عنه.

١٦٤٢ - وما روي في الصحيح: من أن نبياً قرصته نملة فحرق قرية النمل، فأوحى الله إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح؟! [البخاري (٣٠١٩)، مسلم (٢٢٤١)]. فليس في هذا الحديث أن هذا الذي أتى بمعصية؛ بل فعل ما رآه مصلحة وصواباً بقتل من يؤذي جسده، ويمنع المنفعة بما أباح الله.

ألا ترى أن هذا النبي كان نازلاً تحت الشجرة، فلما أذته النملة تحول برخله عنها مخافة تكرار الأذى عليه؟ وليس فيما أوحى الله - عز وجل - إليه ما يوجب عليه معصية؛ بل نذبه إلى احتمال الصبر وترك التشفي؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ صَبْرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]؛ إذ ظاهر فعله إنما كان لأجل أنها أذته هو في خاصته؛ فكان انتقاماً لنفسه، وقطع مضرّة يتوقعها من بقية النمل هناك؛ ولم يأت في كل هذا أمراً نهى عنه، فبعضى به، ولا نص فيما أوحى الله إليه بذلك، ولا بالتوبة ولا بالاستغفار منه. والله أعلم.

١٦٤٣ - فإن قيل: فما معنى قوله - عليه الصلاة والسلام -: «ما من أحد إلا ألم بَلَنبٍ أو كاد إلا يحيى بن زكريا» [أحمد (٢٥٤/١)، (٢٩٢)] أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

فالجواب عنه: كما تقدم من ذنوب الأنبياء التي وقعت عن غير قصد وعن سهو وغفلة.

فصل

فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾، وَمَا تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ مِنْ اعْتِرَافِ الْأَنْبِيَاءِ بِذُنُوبِهِمْ

فَإِنْ قُلْتُ: فَإِذَا نَفَيْتَ عَنْهُمْ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِيَ بِمَا ذَكَرْتَهُ مِنْ اخْتِلَافِ الْمَفْسَّرِينَ وَتَأْوِيلِ الْمُحَقِّقِينَ، فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، وَمَا تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ مِنْ اعْتِرَافِ الْأَنْبِيَاءِ بِذُنُوبِهِمْ وَتَوْبَتِهِمْ وَاسْتِغْفَارِهِمْ وَبُكَائِهِمْ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُمْ، وَإِشْفَائِهِمْ، وَهَلْ يُشْفَى وَيَتَابُ وَيُسْتَغْفَرُ إِلَّا مِنْ شَيْءٍ عَظِيمٍ؟

فَاعْلَمْ - وَقَفَّقْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكَ - أَنَّ دَرَجَةَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الرَّفْعَةِ، وَالْعُلُوِّ، وَالْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ، وَسُتَيْهِ فِي عِبَادِهِ، وَعِظَمُ سُلْطَانِهِ، وَقُوَّةُ بَطْنِيهِ، فِيمَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْخَوْفِ مِنْهُ جَلٍّ جَلَّالُهُ، وَالْإِشْفَاقِ مِنَ الْمُؤَاخَذَةِ بِمَا لَا يُؤَاخَذُ بِهِ غَيْرُهُمْ، وَأَنَّهُمْ - فِي تَصَرُّفِهِمْ بِأُمُورٍ لَمْ يُنْهَوْا عَنْهَا، وَلَا أُمِرُوا بِهَا؛ ثُمَّ أُؤْخِذُوا عَلَيْهَا، وَعُوتِبُوا بِسَبَبِهَا، أَوْ حُذِرُوا مِنَ الْمُؤَاخَذَةِ بِهَا، وَأَتَوْهَا عَلَى وَجْهِ التَّأْوِيلِ، أَوِ السَّهْوِ، أَوْ تَزْيِيدٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا الْمُبَاحَةِ - خَائِفُونَ وَجُلُونَ، وَهِيَ ذُنُوبٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَى عَلَيٍّ مَنْصِبِهِمْ، وَمَعَاصٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كِمَالِ طَاعَتِهِمْ، لَا أَنَّهَا كَذُنُوبٍ غَيْرِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ؛ فَإِنَّ الذَّنْبَ مَأْخُذٌ مِنَ الشَّيْءِ الذَّنِّيِّ الرَّذَلِ، وَمِنْهُ ذَنْبٌ كُلُّ شَيْءٍ، أَيْ: آخِرُهُ. وَأَذْنَابُ النَّاسِ: رِذَالُهُمْ، فَكَأَنَّ هَذِهِ أَذْنَى أَعْمَالِهِمْ، وَأَسْوَأُ مَا يَجْرِي مِنْ أَحْوَالِهِمْ لِتَطْهِيرِهِمْ، وَتَنْزِيهِهِمْ، وَعِمَارَةِ بَوَاطِنِهِمْ وَظَوَاهِرِهِمْ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالْكَلِمِ الطَّيِّبِ، وَالذِّكْرِ الظَّاهِرِ وَالْخَفِيِّ، وَالْخَشْيَةِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِعْظَامِهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَغَيْرِهِمْ يَتَلَوَّثُ مِنَ الْكِبَائِرِ، وَالْقَبَائِحِ، وَالْفَوَاحِشِ مَا تَكُونُ بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِ هَذِهِ الْهَنَاتُ فِي حَقِّهِ كَالْحَسَنَاتِ، كَمَا قِيلَ: حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ، أَيْ يَرُونَهَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى عَلَيٍّ أَحْوَالِهِمْ كَالسَّيِّئَاتِ.

وَكَذَلِكَ الْعِضْيَانُ: التَّرُكُ وَالْمُخَالَفَةُ؛ فَعَلَى مَقْتَضَى اللَّفْظَةِ كَيْفَمَا كَانَتْ مِنْ سَهْوٍ أَوْ تَأْوِيلٍ فَهِيَ مُخَالَفَةٌ وَتَرْكٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَغَوَى﴾ أَيْ: جَهَلَ أَنَّ تِلْكَ الشَّجَرَةَ هِيَ الَّتِي نُهِيَ عَنْهَا؛ وَالْعَيُّ: الْجَهْلُ.

وقيل: أخطأ ما طَلَبَ مِنَ الْخُلُودِ، إِذْ أَكَلَهَا، وَخَابَتْ أُمْنِيَّتُهُ.

وهذا يَوْسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَدْ أُؤْخِذَ بِقَوْلِهِ لِأَحَدٍ صَاحِبِي السَّجَنِ:

﴿أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسِنُهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّي فَلَيْتَ فِي السَّجْنِ يَضَعُ
سِجِّينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

قيل: أنسي يوسف ذكْر الله.

وقيل: أنسي صاحبه أن يذكره لسيده الملك.

١٦٤٤ - قال النبي ﷺ: «لولا كلمة يوسف - عليه السلام - ما لبث في

السَّجْنِ ما لبث».

قال مالك بن دينار: لما قال ذلك يوسف قيل له: اتَّخَذْتَ مِنْ دُونِي
وَكَيْلًا؟ لأُطِيلَنَّ حَبْسَكَ. فقال: يَا رَبِّ! أَنَسَى قَلْبِي كَثْرَةُ الْبُلُوَى.

وقال بعضهم: يُوَاخِذُ الْأَنْبِيَاءَ بِمَثَاقِيلِ الذُّرِّ، لِمَكَائَتِهِمْ عِنْدَهُ، وَيَجَاوِزُ عَنْ
سَائِرِ الْخَلْقِ لِقَلَّةِ مُبَالَاتِهِ بِهِمْ فِي أَضْعَافٍ مَا أَتَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْأَدَبِ.

وقد قال المحتج للفرقة الأولى على سياق ما قُلْنَاهُ: إِذَا كَانَ الْأَنْبِيَاءُ
يُوَاخِذُونَ بِهَذَا مِمَّا لَا يُوَاخِذُ بِهِ غَيْرُهُمْ مِنَ السُّهْوِ وَالنُّسْيَانِ، وَمَا ذَكَرْتُهُ، وَحَالُهُمْ
أَرْفَعُ فَحَالُهُمْ إِذَا فِي هَذَا أَسْوَأَ حَالًا مِنْ غَيْرِهِمْ.

فاعلم - أكرمك الله - أَنَّا لَا نُنْبِئُ لَكَ الْمُواخَاظَةَ فِي هَذَا عَلَى حَدِّ مُوَاخَاظَةِ
غَيْرِهِمْ؛ بَلْ نَقُولُ: إِنَّهُمْ يُوَاخِذُونَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي
دَرَجَاتِهِمْ؛ وَيُنْبِتُونَ بِذَلِكَ، لِيَكُونَ اسْتِشْعَارُهُمْ لَهُ سَبَبًا لِمَنْمَآةِ رَبِّهِمْ، كَمَا قَالَ:
﴿ثُمَّ لَنَجْجِبَنَّ رَبُّهُ قَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢].

وقال لداود: ﴿فَفَقَرْنَا لَمْ ذَلِكَ وَإِنَّ لَمْ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَقَابٍ﴾ [ص: ٢٥].

وقال بعد قول موسى: ﴿ثَبَّتْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]: ﴿إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى

النَّاسِ﴾ الآية [الأعراف: ١٤٤] وقال بعد ذكر فتنة سليمان وإنابته: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ
تَجْرَى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَتَّى أَصَابَ﴾ [٣٦] وَالشَّيْطَانِ كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ [٣٧] وَآخِرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ
[٣٨] هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [٣٩] وَإِنَّ لَمْ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَقَابٍ [٤٠].
[ص: ٣٦ - ٤٠].

وقال بعض المتكلمين: زَلَّاتُ الْأَنْبِيَاءُ فِي الظَّاهِرِ زَلَّاتٌ، وَفِي الْحَقِيقَةِ زُلْفٌ
وَكِرَامَاتٌ، وَأَشَارَ إِلَى نَحْوِ مَا قَدَّمْنَاهُ.

وَأَيْضًا فَلْيَنْبَغْ غَيْرُهُمْ مِنَ الْبَشَرِ مِنْهُمْ، أَوْ مِمَّنْ لَيْسَ فِي دَرَجَتِهِمْ بِمُواخَاذَتِهِمْ
بِذَلِكَ، فَيَسْتَشْعِرُوا الْحَذَرَ؛ وَيَعْتَقِدُوا الْمَحَاسِبَةَ لِيَلْتَزِمُوا الشُّكْرَ عَلَى النِّعَمِ، وَيُعِدُّوا

الصَّبْرُ عَلَى الْمَحَنِّ بِمِلَاحِظَةٍ مَا وَقَعَ بِأَهْلِ هَذَا النَّصَابِ الرَّفِيعِ الْمَعْصُومِ؛ فَكَيْفَ بِمَنْ سِوَاهُمْ؟! وَلِهَذَا قَالَ صَالِحُ الْمُرِّي: ذَكُرَ دَاوُدَ بَسْطَةً لِلتَّوَابِينَ.

قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: لَمْ يَكُنْ مَا نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنْ قِصَّةِ صَاحِبِ الْخُوتِ نَقْصاً لَهُ، وَلَكِنْ اسْتِرَادَةً مِنْ نَبِيْنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَأَيْضاً فَيَقَالُ لَهُمْ: فَإِنَّكُمْ، وَمَنْ وَافَقَكُمْ، تَقُولُونَ بِغُفْرَانِ الصَّغَائِرِ بِاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ.

وَلَا خِلَافَ فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْكِبَائِرِ، فَمَا جَوَزْتُمْ مِنْ وَقُوعِ الصَّغَائِرِ عَلَيْهِمْ هِيَ مَغْفُورَةٌ عَلَى هَذَا، فَمَا مَعْنَى الْمُواخَاذَةِ بِهَا إِذَا عِنْدَكُمْ وَخُوفُ الْأَنْبِيَاءِ وَتَوْبَتُهُمْ مِنْهَا، وَهِيَ مَغْفُورَةٌ لَهُمْ لَوْ كَانَتْ؟!

فَمَا أَجَابُوا بِهِ فَهُوَ جَوَابُنَا عَنْ الْمُواخَاذَةِ بِأَفْعَالِ السَّهْوِ وَالتَّأْوِيلِ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ كَثْرَةَ اسْتِغْفَارِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَوْبَتِهِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى وَجْهِ مِلَازِمَةِ الْخُضُوعِ وَالْعُبُودِيَّةِ، وَالاعْتِرَافِ بِالتَّقْصِيرِ، شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ.

١٦٤٥ - كَمَا قَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَقَدْ أَمِنَ مِنَ الْمُواخَاذَةِ مِمَّا تَقَدَّمَ وَتَأَخَّرَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟».

١٦٤٦ - وَقَالَ: «إِنِّي أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَعْلَمُكُمْ بِمَا أَتَّقِي» [البخاري (٥٠٦٣)].
قَالَ الْحَارِثُ بْنُ أَسَدٍ الْمَحَاسِبِيُّ: خُوفُ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ خُوفُ إِعْظَامِ وَتَعَبُّدٍ لِلَّهِ؛ لِأَنَّهُمْ آمَنُونَ.

وَقِيلَ: فَعَلُوا ذَلِكَ لِيُقْتَدَى بِهِمْ، وَتَسْتَنَّى بِهِمْ أُمَّهَاتُهُمْ.

١٦٤٧ - كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَغْلَمَ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبْكَيْتُمْ كَثِيرًا».

وَأَيْضاً فَإِنَّ فِي التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ مَعْنَى آخَرَ لَطِيفًا أَشَارَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ اسْتِدْعَاءُ مَحَبَّةِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

فِإِحْدَاثُ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ الِاسْتِغْفَارَ وَالْأُوبَةَ وَالتَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ فِي كُلِّ حِينٍ اسْتِدْعَاءٌ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَالِاسْتِغْفَارُ فِيهِ أَيْضاً مَعْنَى التَّوْبَةِ، وَقَدْ قَالَ - اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ - بَعْدَ أَنْ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الْآيَةُ [التوبة: ١١٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣].

فصل

فِي فَوَائِدِ الْقَوْلِ بِعِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ

قد استَبَانَ لك أَيُّهَا النَّاظِرُ بما قَرَّرْنَاهُ، ما هو الحقُّ من عِصْمَتِهِ - عليه السلام - عن الجهل بالله، وَصِفَاتِهِ، أو كونه على حَالَةٍ تُنَافِي الْعِلْمَ بِشَيْءٍ من ذلك كَلَّةً جُمْلَةً، بعد النُبُوَّةِ عَقْلاً وإِجْمَاعاً، وَقَبْلَهَا سَمْعاً وَتَقْلاً، ولا بِشَيْءٍ مِمَّا قَرَّرَهُ مِنْ أُمُورِ الشَّرْعِ، وَأَدَّاهُ عَنْ رَبِّهِ من الرُّوحِي قَطْعاً عَقْلاً وَشَرْعاً، وَعِصْمَتِهِ عن الكَذِبِ وَخُلْفِ الْقَوْلِ - مِنْذُ نَبَأِ اللَّهِ وَأَرْسَلَهُ - قَضَداً أو غَيْرَ قَضَدٍ، واستِحَالَهُ ذلك عليه شَرْعاً وإِجْمَاعاً، ونظراً وبرهاناً، وتنزيهه عنه قَبْلَ النُبُوَّةِ قَطْعاً؛ وتنزيهه عن الكبائر إِجْمَاعاً، وعن الصغائر تحقيقاً، وعن استدامة السُّهُوِّ والعَفْلَةِ، واستمرارِ الْعَلَطِ والنِّسيانِ عليه فيما شرعهُ للأُمَّةِ، وعِصْمَتِهِ في كل حالاته؛ مِنْ رِضاً وَغَضَبٍ، وَجِدٍّ وَمَرْحٍ؛ فيجب عليك أن تتلقاه باليمين، وتشدُّ عليه يَدَ الضَّئِينِ، وتقدير هذه الفصول حَقُّ قَدْرِهَا، وتَعْلَمَ عَظِيمَ فائِدَتِهَا وَخَطَرِهَا. فَإِنَّ مَنْ يَجْهَلُ ما يَجِبُ للنبي ﷺ، أو يجوز له، أو يستحيل عليه، ولا يعرف ضَوْرَ أَحْكَامِهِ، لا يَأْمَنُ أن يعتقِدَ في بعضها خِلَافَ ما هي عليه، ولا يُنَزِّهَهُ عَمَّا لا يَجِبُ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ، فيَهْلِكُ مِنْ حَيْثُ لا يَذَرِي، ويسْقُطُ في هُوَّةِ الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ؛ إِذْ ظَنُّ الباطل به؛ واعتقاده ما لا يجوزُ عليه - ﷺ - يَحُلُّ بِصَاحِبِهِ دَارَ الْبَوَارِ.

١٦٤٨ - ولهذا ما اختاط النبي - عليه السلام - على الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ رَأَىاهُ لَيْلاً، وهو مُغْتَكِفٌ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ صَفِيَّةَ، فقال لهما: «إِنَّهَا صَفِيَّةٌ». ثم قال لهما: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ؛ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْدِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئاً فَتَهْلِكَا» [البخاري (٢٠٣٥)، مسلم (٢١٧٥)].

هذه - أكرمك الله - إحدى فوائِدِ ما تكلَّمنا عليه من هذه الفصول؛ ولعلَّ جاهلاً لا يعلم بِجَهْلِهِ إِذَا سَمِعَ شَيْئاً مِنْهَا يَرَى أَنَّ الْكَلَامَ فِيهَا جُمْلَةٌ مِنْ فُضُولِ الْعِلْمِ، وَأَنَّ السَّكُوتَ أَوْلَى. وقد استبان لك أنه متعيَّنٌ للفائدة التي ذكرناها.

وفائدة ثانية يُضْطَرُّ إِلَيْهَا فِي أَصُولِ الْفِقْهِ، ويُنْبِئُ عَلَيْهَا مَسَائِلُ لا تَنَعُدُ مِنَ الْفِقْهِ، وَيُتَخَلَّصُ بِهَا مِنْ تَشْغِيبِ مُخْتَلَفِي الْفُقَهَاءِ فِي عِدَّةٍ مِنْهَا؛ وهي: الْحُكْمُ فِي أَقْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَفْعَالِهِ؛ وهو بابٌ عَظِيمٌ، وَأَصْلٌ كَبِيرٌ مِنْ أَصُولِ الْفِقْهِ؛ ولا بُدَّ مِنْ بَنَائِهِ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ فِي إِخْبَارِهِ وَبِلَاغِهِ؛ وَأَنَّهُ لا يَجُوزُ عَلَيْهِ السُّهُوُّ فِيهِ، وَعِصْمَتُهُ مِنَ الْكِبَائِرِ وَالْمُخَالَفَةِ فِي أَفْعَالِهِ عَمْداً؛ وَبِحَسَبِ اخْتِلَافِهِمْ فِي وَقُوعِ الصَّغَائِرِ، وَقَعَ خِلَافُ

في امتثال الفعل، بسط بيانه في كتب ذلك العلم؛ فلا تطول به.

وفائدة ثالثة: يحتاج إليها الحاكم والمفتي فيمن أضاف إلى النبي ﷺ شيئاً من هذه الأمور، ووصفه بها؛ فمن لم يعرف ما يجوز عليه وما يمتنع، وما وقع الإجماع فيه والخلاف، كيف يصمم في الفتيا في ذلك؛ ومن أين يذري؟ هل ما قاله فيه نقص أو مدح؟ فإما أن يجترى على سفك دم مسلم حرام، أو يسقط حقاً، أو يضيع حرمة للنبي عليه السلام.

ولسبيل هذا ما قد اختلف فيه أرباب الأصول، وأئمة العلماء، والمحققين في عصمة الملائكة.

فصل

في القول في عصمة الملائكة عليهم السلام

أجمع المسلمون على أن الملائكة مؤمنون فضلاء؛ واتفق أئمة المسلمين أن حكم المرسلين منهم حكم النبيين سواء في العصمة كما ذكرنا عصمتهم منه، وأنهم في درجات الأنبياء، وحقوقهم، والتبليغ إليهم للأنبياء كالأنبياء مع الأمم. واختلفوا في غير المرسلين منهم؛ فذهبت طائفة إلى عصمة جميعهم عن المعاصي؛ واحتجوا بقوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

وبقوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (١١٤) ﴿وَلَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ (١١٥) ﴿وَلَا لَنَحْنُ اللَّسِيُونَ﴾ (١١٦) [الصفات: ١٦٤-١٦٦].

ويقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾ (١١) ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (١٢) [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وبقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (١٣) [الأعراف: ٢٠٦].

وبقوله: ﴿كَرِّمٌ بَرٌّ﴾ (١٤) [عبس: ١٦] و ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (١٥) [الواقعة: ٧٩] ونحوه من الآيات.

وذهبت طائفة إلى أن هذا خصوص للمرسلين منهم والمقرّبين. واحتجوا بأشياء ذكرها أهل الأخبار والتفاسير، نحن نذكرها - إن شاء الله - بعد؛ وتبين الوجه فيها إن شاء الله والصواب: عصمة جميعهم، وتنزيه جنابهم الرفيع عن

جميع ما يحط من رتبته ومزلة من جليل بمقدارهم.

ورأيت بعض شيوخنا أشار إلى أن لا حاجة للفتية بالكلام في عضمتهم، وأنا أقول: إن للكلام في ذلك ما للكلام في عضمة الأنبياء من الفوائد التي ذكرناها، سوى فائدة الكلام في الأقوال والأفعال، فهي ساقطة ها هنا.

١٦٤٩ - فمننا احتج به من لم يوجب عضمة جميعهم قصة هاروت وماروت

الحمد (١٣٤/٢)، وما ذكر فيها أهل الأخبار وثقله المفسرين؛ وما روي عن علي وابن عباس في خروجهما وابتلائهما.

فاغلب - وفقك الله - أن هذه الأخبار لم يرو منها شيء لا سقيم ولا صحيح

عن رسول الله ﷺ، وليس هو في شيء يؤخذ بقياس.

والذي منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه؛ وأنكر بعضهم قول بعض، وأنكر أيضاً ما قال بعضهم فيه كثير من السلف كما ستذكرون. وهذه الأخبار من كتب اليهود واقترائهم، كما نضه الله - تعالى - أول الآيات من اقترائهم بذلك على سليمان - عليه السلام - وتكفيرهم إياه.

وقد الطوت القصة على شئ عظيمة. وما نحن نحيي في ذلك ما يكشف

عن غطاء هذه الإشكالات إن شاء الله.

فاختلف أولاً في هاروت وماروت؛ هل هما ملكان أو إسيان؟ وهل هما

المراد بالملكين أم لا؟ وهل القراءة ملكين أو ملكين بفتح اللام، أو بكسرها أو بهما جميعاً؟ وهل «ما» في قوله: «وَمَا أَرْبُ عَلَى السَّالِكِينَ» (البقرة: ١٠٢). «وَمَا يَحْكُمَانِ مِنْ أَمْرٍ» (البقرة: ١٠٢) نافية أو موجبة؟

فأكثر المفسرين قالوا: إن الله تعالى انتحن الناس بالملكين لتعليم الشجر وتبيينه، وأن عمله كفر فمن تعلمه كفر، ومن تركه آمن؛ قال الله تعالى حكاية عنهما: «إِنَّمَا نَحْنُ فَتَنَةٌ فَمَا تَكْفُرُ» (البقرة: ١٠٢). وتعليمهما للناس له تعليم إلزامي أي بقولان لمن جاء يطلب تعلمه؛ لا تفعلوا كذا، فإنه يفرق بين المرء وزوجه؛ ولا تتجملوا بكذا؛ فإنه سخر، فلا تكفروا.

فعلى هذا: فعل الملكين طاعة، ونصرتهم فيما أبرا به ليس بمعصية؛ وهي لغيرهما فتنة.

وروي ابن وهب، عن - خالد بن أبي عمران - أنه ذكر عنده هاروت

وमारوت، وأنهما يعلمان الشجر، فقال: نحن نترفعهما عن هذا.

فقرأ بعضهم: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فقال خالد: لم يُنزل عليهما.

فهذا خالد - على جلالته وعلمه - نزههما عن تعليم السحر الذي قد ذكّر غيره أنهما مأذون لهما في تعليمه بشريطة أن يُبَيَّنَا أنه كفر، وأنه امتحان من الله تعالى وابتلاء؛ فكيف لا نُنزههما عن كبائر المعاصي والكفر المذكورة في تلك الأخبار؟

وقول خالد: لم يُنزل: يريد أن «ما» نافية؛ وهو قول ابن عباس؛ قال مكي: وتقدير الكلام: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ [البقرة: ١٠٢] يريد بالسحر الذي افتعلته عليه الشياطين، واتبعتهم في ذلك اليهود.

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ [البقرة: ١٠٢] قال مكي: هما جبريل وميكائيل: ادّعى اليهود عليهما المجيء به، كما ادّعى علي سليمان، فأكذبهم الله تعالى بقوله في ذلك.

﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢] قيل: هما رجلان تعلّماه.

قال الحسن: هاروت وماروت علجان من أهل بابل؛ وقرأ: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ - بكسر اللام، وتكون «ما» إيجاباً على هذا.

وكذلك قراءة عبدالرحمن بن أنزى: بكسر اللام. ولكنه قال: المَلِكَا ن هنا: داود وسليمان وتكون «ما» نفيًا على ما تقدّم.

وقيل: كانا ملكين من بني إسرائيل، فمسخهما الله، حكاة السمرقندي. والقراءة بكسر اللام شاذة؛ فَمَحْمِلُ الآية - على تقدير أبي محمد: مكي - حسن، ينزه الملائكة، ويذهب الرَجَسَ عنهم، ويظهرهم تطهيراً.

وقد وصفهم الله بأنهم مُطَهَّرُونَ، وكَرَامٌ بَرَّة، ولا يَغْضُونَ الله ما أمرهم. ومما يذكرونه قصة إبليس، وأنه كان من الملائكة ورئيساً فيهم، ومن خُزَانِ

الجنة... إلى آخر ما حكوه، وأنه استثناه من الملائكة بقوله: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤] وهذا أيضاً لم يَتَّفَقْ عليه؛ بل الأكثرُ يَنفُونَ ذلك، وأنه أهر الجِنِّ، كما أن آدم أبو الإنس؛ وهو قول الحسن، وقتادة، وابن زيد.

وقال شهر بن حوشب: كان من الجن الذين طردتهم الملائكة في الأرض حين أفسدوا؛ والاستثناء من غير الجنس شائع، في كلام العرب سائح؛ وقد

قال الله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧].

وَمِمَّا رَوَّاهُ فِي الْأَخْبَارِ أَنَّ خَلْقًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَصَوْا اللَّهَ فَحُرِّقُوا، وَأَمَرُوا أَنْ
يَسْجُدُوا لِآدَمَ فَأَبَوْا فَحُرِّقُوا، ثُمَّ آخَرُونَ كَذَلِكَ؛ حَتَّى سَجَدَ لَهُ مَنْ ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى
إِلَّا إِبْلِيسَ، فِي أَخْبَارٍ، لَا أَضِلُّ لَهَا، تَرُدُّهَا صِحَاحُ الْأَخْبَارِ، فَلَا يُشْتَغَلُ بِهَا. وَاللَّهُ
أَعْلَمُ.



الباب الثاني من القسم الثالث

فِيمَا يَخْصُّهُمْ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَيَطْرَأُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَوَارِضِ الْبَشَرِيَّةِ

قد قَدِّمْنَا أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَام - وسائر الأنبياء والرسل مِنَ الْبَشَرِ، وَأَنَّ جِسْمَهُ، وَظَاهِرَهُ خَالِصٌ لِلْبَشَرِ، يَجُوزُ عَلَيْهِ مِنَ الْآفَاتِ وَالتَّغْيِيرَاتِ، وَالْآلَامِ وَالْأَسْقَامِ، وَتَجَرُّعِ كَأْسِ الْحِمَامِ مَا يَجُوزُ عَلَى الْبَشَرِ؛ وَهَذَا كُلُّهُ لَيْسَ بِنَقِيصَةٍ فِيهِ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ إِنَّمَا يَسْمَى نَاقِصًا بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا هُوَ أَتَمُّ مِنْهُ وَأَكْمَلُ مِنْ نَوْعِهِ؛ وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الدَّارِ: ﴿فِيهَا حَيَوْنٌ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]، وَخَلَقَ جَمِيعَ الْبَشَرِ بِمَدْرَجَةِ الْغِيَرَةِ: فَقَدْ مَرَضَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاشْتَكَى، وَأَصَابَهُ الْحَرُّ وَالْقُرُّ، وَأَدْرَكَهُ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ، وَلَحِقَهُ الْغَضَبُ وَالضَّجَرُ، وَنَالَهُ الْإِعْيَاءُ وَالتَّعَبُ، وَمَسَّهُ الضَّعْفُ وَالْكِبَرُ، وَسَقَطَ فَجَحِشَ شِفْهُهُ [البخاري (٨٠٥)]، مُسَلِّمٌ ((٤١١))، وَشَجَّهَ الْكَفَّارُ، وَكَسَرُوا رِبَاعِيَّتَهُ، وَسَقَى السُّمَّ، وَسُحِرَ، وَتَدَاوَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَاحْتَجَمَ، وَتَنَشَّرَ، وَتَعَوَّذَ، ثُمَّ قَضَى نَحْبَهُ فَتَوَفَّى ﷺ، وَلَحِقَ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى، وَتَخَلَّصَ مِنْ دَارِ الْإِمْتِحَانِ وَالْبَلَوَى، وَهَذِهِ كُلُّهَا سِمَاتُ الْبَشَرِ الَّتِي لَا مَحِيصَ لَهُمْ عَنْهَا؛ وَأَصَابَ غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ؛ فَفَتِلُوا قَتْلًا.

وَرُمُوا فِي النَّارِ، وَنُشِرُوا بِالْمَنَاشِيرِ. وَمِنْهُمْ مَنْ وَقَاهُ اللَّهُ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ. وَمِنْهُمْ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - كَمَا عَصَمَ بَعْدُ نَبِيَّنَا - ﷺ - مِنَ النَّاسِ؛ فَلِئِنْ لَمْ يَكْفِ نَبِيَّنَا رُيُّهُ يَدَ ابْنِ قِمَّةٍ يَوْمَ أَحُدَ، وَلَا حَاجَّهَ عَنْ عُيُونِ عِدَاةٍ عِنْدَ دَعْوَتِهِ أَهْلَ الطَّائِفِ؛ فَلَقَدْ أَخَذَ عَلَى عُيُونِ قُرَيْشٍ عِنْدَ خُرُوجِهِ إِلَى ثَوْرٍ، وَأَمْسَكَ عَنْهُ سَيْفَ غَوْرَثَ، وَحَجَرَ أَبِي جَهْلٍ، وَفَرَسَ سُرَاقَةَ؛ وَلِئِنْ لَمْ يَقِهِ مِنْ

سِخْرِ ابْنِ الْأَعْصَمِ فَلَقَدْ وَقَاهُ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، مِنْ سُمْ الْيَهُودِيَّةِ.

وهكذا سائرُ أنبيائه، مُبْتَلَى، وَمُعَاقَى؛ وذلك مِنْ تَمَامِ حِكْمَتِهِ، لِيُظْهَرَ شَرَفُهُمْ فِي هَذِهِ الْمَقَامَاتِ، وَيُبَيَّنَ أَمْرُهُمْ، وَيُتَمَّ كَلِمَتُهُ فِيهِمْ، وَلِيَحَقَّقَ بِامْتِحَانِهِمْ بَشَرِيَّتَهُمْ، وَيَرْتَفِعَ الْإِلْتِبَاسُ عَنْ أَهْلِ الضَّعْفِ فِيهِمْ، لِئَلَّا يَضَلُّوا بِمَا يَظْهَرُ مِنَ الْعَجَائِبِ عَلَى أَيْدِيهِمْ، ضَلَالُ النَّصَارَى بَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِيَكُونَ فِي مَحَنِهِمْ تَسْلِيَةً لِأَمَمِهِمْ، وَوَفُورَ لَأُجُورِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ.

قال بعضُ المحققين: وهذه الطَّوَارِيُّ والتَّغْيِيرَاتُ المذكورةُ إنما تختصُّ بأجسامهم البشريَّةَ المقصودُ بها مقاومةُ البَشَرِ، ومعاناةُ بني آدَمَ لِمُشَاكَلَةِ الْجَنَسِ.

وأما بَوَاطِنُهُمْ: فمَنْزَهَةٌ غَالِباً عَنْ ذَلِكَ، مَعْصُومَةٌ مِنْهُ، مَتَعَلِّقَةٌ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى وَالْمَلَائِكَةِ لِأَخْذِهَا عَنْهُمْ، وَتَلْقِيَّهَا الْوَحْيَ مِنْهُمْ.

١٦٥٠ - قال: وقد قال عليه السلام: «إِنْ عَيْنِي تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي».

١٦٥١ - وقال: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ؛ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي».

١٦٥٢ - وقال: «لَسْتُ أَنْسَى، وَلَكِنْ أَنَسَى، لِيَسْتَنْ بِي».

فأخبر - عليه السلام - أَنَّ سِرَّهُ وَبَاطِنَهُ وَرُوحَهُ بِخِلَافِ جِسْمِهِ وَظَاهِرِهِ، وَأَنَّ الْآفَاتِ الَّتِي تَحُلُّ ظَاهِرَهُ مِنْ ضَعْفٍ وَجُوعٍ، وَسَهَرٍ وَنَوْمٍ، لَا يَحُلُّ مِنْهَا شَيْءٌ بِبَاطِنِهِ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ الْبَشَرِ فِي حُكْمِ الْبَاطِنِ؛ لِأَنَّ غَيْرَهُ إِذَا نَامَ اسْتَغْرَقَ النَّوْمُ جِسْمَهُ وَقَلْبَهُ.

١٦٥٣ - وهو - عليه السلام - فِي نَوْمِهِ حَاضِرُ الْقَلْبِ كَمَا هُوَ فِي يَقَظَتِهِ، حَتَّى قَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْآثَارِ أَنَّهُ كَانَ مُحْرُوساً مِنَ الْحَدَثِ فِي نَوْمِهِ لِكُونَ قَلْبِهِ يَقْظَانِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ.

١٦٥٤ - وكذلك غَيْرُهُ إِذَا جَاعَ ضَعُفَ لَدَيْكَ جِسْمُهُ، وَخَارَتْ قُوَّتُهُ، فَبَطَلَتْ بِالْكَلِيَّةِ جَمَلَتُهُ، وَهُوَ - عليه السلام - قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَغْتَرِيهِ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ بِخِلَافِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ: «لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ؛ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي».

وكذلك أَقُولُ: إِنَّهُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ كُلِّهَا؛ مِنْ وَصَبٍ وَمَرَضٍ، وَسِخْرِ وَعَرَضٍ، وَغَضَبٍ، لَمْ يَجْرِ عَلَى بَاطِنِهِ مَا يُخْلُ بِهِ، وَلَا فَاضَ مِنْهُ عَلَى لِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، كَمَا يَغْتَرِي غَيْرُهُ مِنَ الْبَشَرِ مِمَّا نَأْخُذُ بَعْدُ فِي بَيَانِهِ.

فصل

في الرَّدِّ عَلَى مَنْ طَعَنَ فِي حَدِيثِ السَّخْرِ

١٦٥٥ - فَإِنْ قُلْتُ: فَقَدْ جَاءَتْ الْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - سُحِّرَ
كَمَا حَدَّثَنَا الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْعَتَّابِيُّ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا حَاتِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ،
حَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ: عَلِيُّ بْنُ خُلْفٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ
يُوسُفَ، حَدَّثَنَا الْبَخَارِيُّ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ
هَشَامِ بْنِ غَزْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سُحِّرَ رَسُولُ اللَّهِ
- ﷺ - حَتَّى إِنَّهُ لِيُخَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ فَعَلَ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ [البخاري (٥٧٦٦)، مسلم
(٢١٨٩)].

١٦٥٦ - وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى: حَتَّى كَانَ يَخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلَا
يَأْتِيَهُنَّ... الْحَدِيثُ [البخاري (٥٧٦٥)].

وَإِذَا كَانَ هَذَا مِنَ التَّبَاسِ الْأَمْرِ عَلَى الْمَسْحُورِ فَكَيْفَ حَالُ النَّبِيِّ ﷺ فِي
ذَلِكَ وَكَيْفَ جَازَ عَلَيْهِ، وَهُوَ مَعْصُومٌ؟!

فَاعْلَمْ - وَقَفْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ - أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ صَحِيحٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ؛ وَقَدْ طَعَنَتْ
فِيهِ الْمُلْحَدَةُ، وَتَذَرَعَتْ بِهِ - لِسُخْفِ عَقُولِهَا وَتَلْبِيسِهَا عَلَى أَمْثَالِهَا - إِلَى التَّشْكِيكِ
فِي الشَّرْعِ؛ وَقَدْ نَزَّهَ اللَّهُ الشَّرْعَ وَالنَّبِيَّ عَمَّا يُدْخِلُ فِي أَمْرِهِ لِبَسًا، وَإِنَّمَا السُّخْرُ
مَرَضٌ مِنَ الْأَمْرَاضِ، وَعَارِضٌ مِنَ الْعِلَلِ، تَجَوُّزُ عَلَيْهِ كَأَنْوَاعِ الْأَمْرَاضِ مِمَّا لَا يُنْكِرُ
وَلَا يَقْدَحُ فِي ثُبُوتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَأَمَّا مَا وَرَدَ أَنَّهُ كَانَ يَخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ فَعَلَ الشَّيْءَ وَلَا يَفْعَلُهُ، فَلَيْسَ فِي هَذَا مَا
يُدْخِلُ عَلَيْهِ دَاخِلَةً فِي شَيْءٍ مِنْ تَبْلِيغِهِ أَوْ شَرِيعَتِهِ، أَوْ يَقْدَحُ فِي صِدْقِهِ؛ لِقِيَامِ
الدَّلِيلِ وَالْإِجْمَاعِ عَلَى عِصْمَتِهِ مِنْ هَذَا، وَإِنَّمَا هَذَا فِيمَا يَجُوزُ طُرُؤُهُ عَلَيْهِ فِي أَمْرِ
دُنْيَاهُ الَّتِي لَمْ يُنْعَثْ بِسَبَبِهَا، وَلَا فُضِّلَ مِنْ أَجْلِهَا؛ وَهُوَ فِيهَا غُرْصَةٌ لِلْآفَاتِ كَسَائِرِ
الْبَشَرِ؛ فَغَيْرُ بَعِيدٍ أَنْ يُخَيَّلَ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِهَا مَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ، ثُمَّ يَنْجَلِي عَنْهُ، كَمَا
كَانَ.

١٦٥٧ - وَأَيْضًا فَقَدْ قَسَرَ هَذَا الْفَضْلُ الْحَدِيثَ الْآخَرَ مِنْ قَوْلِهِ: «حَتَّى يُخَيَّلَ
إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي أَهْلَهُ وَلَا يَأْتِيَهُنَّ». وَقَدْ قَالَ سَفِيَانُ: وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السُّخْرِ
[البخاري (٥٧٦٥)].

وَلَمْ يَأْتِ فِي خَبَرٍ مِنْهَا أَنَّهُ تُقِلَّ عَنْهُ فِي ذَلِكَ، قَوْلٌ بِخِلَافِ مَا كَانَ أَخْبَرَ أَنَّهُ

فعله ولم يفعلْهُ؛ وإنما كانت خواطر وتخيلات.

وقد قيل: إنَّ المراد بالحديث أنه كان يتخيَّل الشيء أنه فعله، وما فعله، لكنه تخيَّل لا يَعتقدُ صحته، لتكون - بحمد الله - اعتقاداته كلها على السَّداد، وأقواله على الصحة.

١٦٥٨ - هذا ما وَقَعْتُ عليه لأثمتنا من الأجوبة عن هذا الحديث مع ما أَوْضَحْنَاهُ من معنى كلامهم، وزِدْنَاهُ بياناً من تلويحاتهم. وكُلُّ وَجْهِ منها مُفْنَعٌ؛ لكنه قد ظهر لي في الحديث تأويلٌ أَجْلَى وأَبْعَدُ من مَطَاعِنِ ذَوِي الْأَصَالِيلِ، يستفاد من نَفْسِ الحديث؛ وهو أَنَّ عبدالرزاق قد رَوَى هذا الحديث، عن ابن المسيَّب، وعُروَةَ بن الزبير، وقال فيه عنهما: سَحَرَ يَهُودُ بني زُرَيْقَ رسولَ الله ﷺ، فجعلوه في بئر حتى كاد رسول الله ﷺ أَنْ يُنْكَرَ بَصَرُهُ؛ ثُمَّ دَلَّهَ اللَّهُ عَلَى مَا صَنَعُوا فاستخرجه من البئر.

ورَوَى نحوه، عن الواقدي، وعن عبدالرحمن بن كعب، وعُمر بن الحَكَم. ١٦٥٩ - وَذَكَرَ عن عطاء الخُراساني، عن يحيى بن يَغْمَر: حُبِسَ رسولُ الله ﷺ عن عائشة سنةً، فَبَيَّنَّا هُوَ نَائِمٌ أَنَاهُ مَلَكَانِ، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِهِ وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيْهِ... الحديث.

١٦٦٠ - قال عبدالرزاق: حُبِسَ رسولُ الله ﷺ عن عائشة خاصةً سنةً حتى أَنْكَرَ بَصَرُهُ.

١٦٦١ - وروى محمد بن سَعْدٍ، عن ابن عباس: مَرَضَ رسولُ الله ﷺ، فَحُبِسَ عن النساء والطعام والشراب، فَهَبَطَ عَلَيْهِ مَلَكَانِ... وذكر القصة.

فقد استبان لك مِنْ مضمون هذه الروايات أَنَّ السَّخَرَ إِنَّمَا تَسَلَّطَ عَلَى ظَاهِرِهِ وَجَوَارِحِهِ، لا على قلبه واعتقاده وعَقْلِهِ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا أَثَّرَ فِي بَصَرِهِ، وَحَبَسَهُ عَنِ طَعْمِ نَسَائِهِ، وَطَعَامِهِ، وَأَضْعَفَ جِسْمَهُ وَأَمْرَضَهُ؛ وَيَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ: «يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي أَهْلَهُ وَلَا يَأْتِيهِنَّ» أَي: يَظْهَرُ لَهُ مِنْ نَشَاطِهِ وَمَتَقَدِّمِ عَادَتِهِ الْقُدْرَةَ عَلَى النِّسَاءِ؛ فَإِذَا دَنَا مِنْهُنَّ أَصَابَتْهُ أَخْذَةُ السَّخْرِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِيْتَانِهِنَّ كَمَا يَعْتَرِي مَنْ أَخْذَ وَاعْتَرَضَ.

ولعله لمثل هذا أشار سُفْيَانُ بقوله: وهذا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السَّخْرِ [البخاري (٥٧٦٥)]. وَيَكُونُ قَوْلُ عَائِشَةَ فِي الرِّوَايَةِ الْآخَرَى: «إِنَّهُ لَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ فَعَلَ الشَّيْءَ وَلَمْ يَفْعَلْهُ، أَوْ مَا فَعَلَهُ» مِنْ بَابِ مَا اخْتَلَّ مِنْ بَصَرِهِ، كَمَا ذُكِرَ فِي الْحَدِيثِ؛ فَيُظَنُّ أَنَّهُ رَأَى شَخْصاً مِنْ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ، أَوْ شَاهَدَ فِعْلاً مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَى مَا

يُخَيَّلُ إِلَيْهِ، لِمَا أَصَابَهُ فِي بَصَرِهِ وَضَعْفَ نَظَرِهِ، لَا لشيءٍ طَرَأَ عَلَيْهِ فِي مَيزِهِ.
وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِيهِمَا ذِكْرٌ مِنْ إصَابَةِ السُّخْرِ لَهُ، وَتَأْثِيرِهِ فِيهِ، مَا
يُدْخِلُ لَبْسًا، وَلَا يَجِدُ بِهِ الْمَلْحَدُ الْمَعْتَرِضُ أُتْسًا.

فصل

فِي أَحْوَالِهِ ﷺ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا

هَذِهِ حَالُهُ فِي جِسْمِهِ، فَأَمَّا أَحْوَالُهُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا فَتَحْنُ نَسْبُهَا عَلَى أُسْلُوبِهَا
الْمُتَقَدِّمِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - بِالْعَقْدِ وَالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ.

١٦٦٢ - أَمَّا الْعَقْدُ مِنْهَا فَقَدْ يَعْتَقِدُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا الشَّيْءَ عَلَى وَجْهِ وَيُظْهِرُ
خِلَافَهُ، أَوْ يَكُونُ مِنْهُ عَلَى شَكٍّ أَوْ ظَنٍّ بِخِلَافِ أُمُورِ الشَّرْعِ؛ كَمَا حَدَّثَنَا أَبُو بَخْرٍ:
سُفْيَانُ بْنُ الْعَاصِيِّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ سَمَاعًا وَقِرَاءَةً؛ قَالُوا: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ: أَحْمَدُ بْنُ
عُمَرَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الرَّازِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ بْنُ عَمْرٍوهِ، حَدَّثَنَا ابْنُ
سُفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرَّؤُمِيِّ، وَعَبَّاسُ الْعَنْبَرِيِّ وَأَحْمَدُ
الْمَعْقِرِيُّ؛ قَالُوا: حَدَّثَنَا النُّضَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا عِكْرَمَةُ، حَدَّثَنَا أَبُو
النَّجَاشِيِّ؛ قَالَ حَدَّثَنَا رَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ؛ قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَهُمْ
يَأْتُرُونَ النَّخْلَ، فَقَالَ: «مَا تَصْنَعُونَ؟» قَالُوا: كُنَّا نَصْنَعُهُ. قَالَ: «لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ
تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا»؛ فَتَرَكُوهُ، فَتَقَصَّصَتْ؛ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ؛ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا
أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيٍ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ»
[مسلم (٢٣٦٢)].

١٦٦٣ - وَفِي رِوَايَةِ أَنَسٍ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ» [مسلم (٢٣٦٣)].

١٦٦٤ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا، فَلَا تَوَاضَعُونَ بِالظَّنِّ» [مسلم

(٢٣٦١)].

١٦٦٥ - وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قِصَّةِ الْخَرْصِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ، فَمَا حَدَّثْتُكُمْ بِهِ عَنْ اللَّهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا قُلْتُ فِيهِ مِنْ قَبْلِ
نَفْسِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَخْطِئُ وَأُصِيبُ».

وَهَذَا عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ فِيهِمَا قَالَهُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَظَنَّهُ مِنْ
أَحْوَالِهَا، لَا مَا قَالَهُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ وَاجْتِهَادِهِ فِي شَرْعِ شَرْعِهِ؛ أَوْ سِتَّةَ سَنَاهَا.

١٦٦٦ - وَكَمَا حَكَى ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا نَزَلَ بِأَذْنَى مِيَاهِ
بَذْرِ، قَالَ لَهُ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذَرِ: أَهَذَا مَنَزَلُ أَنْزَلَكُمُ اللَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَ، أَمْ هُوَ

الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «لا، بل هو الرأي والحرب والمكيدة». قال: فإنه ليس بمنزل، انهض حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فنزله، ثم نعوّز ما وراه من القلب؛ فنشرب ولا يشربون.

فقال: «أشزت بالرأي»، وفعل ما قاله.

وقد قال له الله عز وجل: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾. [آل عمران: ١٥٩].

١٦٦٧ - وأراد مصالحة بغض عدوه على ثلث ثمر المدينة، فاستشار الأنصار. فلما أخبروه برأيهم رجع عنه.

فمثل هذا وأشباهه من أمور الدنيا التي لا مدخل فيها لعلم ديانة، ولا اعتقادها، ولا تعليمها، يجوز عليه فيها ما ذكرناه؛ إذ ليس في هذا كله تقيصة ولا محطّة؛ وإنما هي أمور اعتيادية يعرفها من جرّبها، وجعلها همّة، وشغل بها نفسه، والنبي ﷺ مشحون القلب بمعرفة الزبوية؛ ملأ الجوانح بالعلوم الشرعية، مقيّد البال بمصالح الأمة الدينية والدنيوية، ولكن هذا إنما يكون في بعض الأمور، ويجوز في النادر وفيما سبيله التدقيق في حراسة الدنيا واستثمارها، لا في الكثير المؤذن بالبله والعفلة.

وقد تواتر بالنقل عنه - عليه السلام - من المعرفة بأمور الدنيا ودقائق مصالحها، وسياسة فزق أهلها ما هو معجز في البشر، مما قد نبهنا عليه في باب معجزاته - عليه السلام - من هذا الكتاب.

فصل

في ما يُعتقد في أمور أحكام البشر

الجارية على يديه ﷺ وقضاياهم

١٦٦٨ - وأما ما يُعتقد في أمور أحكام البشر الجارية على يديه وقضاياهم، ومعرفة المحق من المبطل، وعلم المصلح من المفسد، فهذه السبيل؛ لقوله عليه السلام: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض؛ فأقضي له على نحو ما أسمع؛ فمن قضيت له من حق أخيه شيء فلا يأخذ منه شيئاً، فإنما أقطع له قطعة من النار» [أبو داود (٣٥٨٣)].

١٦٦٩ - حدثنا الفقيه أبو الوليد رحمه الله؛ حدثنا الحسين بن محمد الحافظ، حدثنا أبو عمر، حدثنا أبو محمد، حدثنا أبو بكر، حدثنا أبو داود، حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سفيان، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن زينب

بنت أم سلمة، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ ... الحديث [أبو داود (٣٥٨٣)].

١٦٧٠ - وفي رواية الزهري، عن عُرْوَةَ، قال: «فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ؛ فَأَخْسِبَ أَنْهُ صَادِقٌ فَأَقْضِي لَهُ» [البخاري (٢٤٥٨)، مسلم (٥/١٧١٣)].

وَتَجْرِي أَحْكَامُهُ - عَلَيْهِ السَّلَام - عَلَى الظَّاهِرِ وَمُوجِبِ غَلَبَاتِ الظَّنِّ بِشَهَادَةِ الشَّاهِدِ، وَيَمِينِ الْحَالِفِ، وَمِرَاعَاةِ الْأَشْبِهِ، وَمَعْرِفَةِ الْعِفَاصِ وَالْوِكَاءِ، مَعَ مُقْتَضَى حِكْمَةِ اللَّهِ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى - لَوْ شَاءَ - لَأُطْلِعَهُ عَلَى سَرَائِرِ عِبَادِهِ، وَمُخَبَّاتِ ضَمَائِرِ أُمَّتِهِ؛ فَتَوَلَّى الْحُكْمَ بَيْنَهُمْ بِمَجْرَدِ يَقِينِهِ وَعِلْمِهِ دُونَ حَاجَةٍ إِلَى اعْتِرَافٍ، أَوْ بَيِّنَةٍ، أَوْ يَمِينٍ أَوْ شُبْهَةٍ؛ وَلَكِنْ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ أُمَّتَهُ بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِهِ فِي أَحْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، وَقَضَايَاهُ، وَسِيرِهِ؛ وَكَانَ هَذَا لَوْ كَانَ مِمَّا يَخْتَصُّ بِعِلْمِهِ وَيُؤَثِّرُهُ اللَّهُ بِهِ، لَمْ يَكُنْ لِلْأُمَّةِ سَبِيلٌ إِلَى الْإِقْتِدَاءِ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا قَامَتْ حُجَّةٌ بِقَضِيَّتِهِ مِنْ قَضَايَاهُ لِأَحَدٍ فِي شَرِيعَتِهِ؛ لَأَنَّا لَا نَعْلَمُ مَا أُطْلِعَ عَلَيْهِ هُوَ فِي تِلْكَ الْقَضِيَّةِ لِحُكْمِهِ هُوَ إِذَا فِي ذَلِكَ بِالْمَكْنُونِ مِنْ إِعْلَامِ اللَّهِ لَهُ بِمَا أُطْلِعَهُ عَلَيْهِ مِنْ سَرَائِرِهِمْ؛ وَهَذَا مَا لَا تَعْلَمُهُ الْأُمَّةُ؛ فَاجْزَى اللَّهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُ عَلَى ظَوَاهِرِهِمُ الَّتِي يَسْتَوِي فِيهَا هُوَ وَغَيْرُهُ مِنَ الْبَشَرِ؛ لِيَتِمَّ اقْتِدَاءُ أُمَّتِهِ بِهِ فِي تَغْيِينِ قَضَايَاهُ، وَتَنْزِيلِ أَحْكَامِهِ، وَيَأْتُونَ مَا أَتَوْا مِنْ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ وَيَقِينٍ مِنْ سُنَّتِهِ، إِذَ الْبَيَانُ بِالْفِعْلِ أَوْقَعَ مِنْهُ بِالْقَوْلِ، وَأَزْغَى لِحَتْمَالِ اللَّفْظِ، وَتَأْوِيلِ الْمَتَاوَلِ؛ وَكَانَ حُكْمُهُ عَلَى الظَّاهِرِ أَجْلَى فِي الْبَيَانِ، وَأَوْضَحَ فِي وَجْهِهِ الْأَحْكَامِ، وَأَكْثَرَ فَائِدَةً لِمَوْجِبَاتِ الشَّاسِجِ وَالْخِصَامِ، وَلِيَقْتَدِيَ بِذَلِكَ كُلُّ حُكَّامٍ أُمَّتِهِ، وَيُسْتَوْتِقَ بِمَا يُؤَثِّرُ عَنْهُ، وَيَنْضَبِطَ قَانُونُ شَرِيعَتِهِ، وَطَيَّ ذَلِكَ عَنْهُ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ الَّذِي اسْتَأْثَرَ بِهِ ﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢١) إِلَّا مَنْ أَرَضَقْنِي مِنْ رَسُولٍ ﴿الْجَن: ٢٦، ٢٧﴾ فَيَعْلَمُهُ مِنْهُ بِمَا شَاءَ، وَيَسْتَأْثِرُ بِمَا شَاءَ، وَلَا يَقْدَحُ هَذَا فِي نُبُوَّتِهِ، وَلَا يَقْصِمُ عُرْوَةَ مِنْ عَصْمَتِهِ.

فصل

فِي أَقْوَالِهِ ﷺ الدِّنْيَوِيَّةِ مِنْ إِخْبَارِهِ عَنْ أَحْوَالِهِ، وَأَحْوَالِ غَيْرِهِ، وَمَا فَعَلَهُ، أَوْ يَفْعَلُهُ

وَأَمَّا أَقْوَالُهُ الدِّنْيَوِيَّةُ: مِنْ إِخْبَارِهِ عَنْ أَحْوَالِهِ، وَأَحْوَالِ غَيْرِهِ، وَمَا يَفْعَلُهُ أَوْ فَعَلَهُ - فَقَدْ قَدَّمْنَا - أَنَّ الْخُلَفَ فِيهَا مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِ فِي كُلِّ حَالٍ، وَعَلَى أَيِّ وَجْهِ كَانَ مِنْ عَمْدٍ أَوْ سَهْوٍ، أَوْ صَحَّةٍ، أَوْ مَرَضٍ، أَوْ رِضَا، أَوْ غَضَبٍ، وَأَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنْهُ ﷺ.

هذا فيما طريقه الخبر المخض مما يدخله الصدق والكذب؛ فأما
المعارض، الموهم ظاهرها خلاف باطنها، فجائز ورودها منه في الأمور الدنيوية
لا سيما لفضد المصلحة.

١٦٧١ - كثورته عن وجه مغازيه لئلا يأخذ العدو جذره.

وكما روي من مزارحته ودعابته لبسط أمته، وتطبيب قلوب المؤمنين من
صحابته، وتأكيده في تخييرهم وصحبهم، ومسرة نفوسهم.

١٦٧٢ - كقوله عليه السلام: «لأخملنك على ابن الناقة» [أبو داود (٤٩٩٨)،

أحمد (٢٦٧/٣)].

١٦٧٣ - وقوله - للمرأة التي سألته عن زوجها: «أهو الذي بعينه بياض؟».

وهذا كله صدق؛ لأن كل جمل ابن ناقة، وكل إنسان بعينه بياض.

١٦٧٤ - وقد قال عليه السلام: «إني لأمرخ، ولا أقول إلا حقاً» [الترمذي

(١٩٩٠)، أحمد (٣٤٠/٢)].

هذا كله فيما بابه الخبر؛ فأما ما بابه غير الخبر فيما صورته صورة الأمر
والتهني في الأمور الدنيوية فلا يصح منه أيضاً، ولا يجوز عليه أن يأمر أحداً بشيء
أو ينهى أحداً عن شيء وهو يظن خلافه.

١٦٧٥ - وقد قال عليه السلام: «ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين» [أبو

داود (٢٦٨٣)، النسائي (١٠٦/٧)]. فكيف أن تكون له خيانة قلب؟!

فإن قلت: فما معنى إذا قوله تعالى في قصة زيد: «وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ
عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ
وَيَخْفَى النَّاسُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ» [الأحزاب: ٣٧].

فاعلم - أكرمك الله - ولا تسترّب في تزويج النبي - عليه السلام - عن هذا
الظاهر وأن يأمر زيدا بامساكها وهو يحبّ تطليقه إياها، كما ذكر عن جماعة من
المفسرين.

١٦٧٦ - وأصح ما في هذا القول ما حكاه أهل التفسير، عن علي بن

الحسين رضي الله عنهما، أن الله تعالى كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من
أزواجه، فلما شكها إليه زيد قال له: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ» [الأحزاب: ٣٧]
وأخفى في نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها مما الله مُبْدِيهِ ومُظْهِرِهِ
بتمام التزويج وطلاق زيد لها.

١٦٧٧ - وروى نحوه عمرو بن فائد، عن الزهري، قال: نزل جبريل على

النبي ﷺ يُعَلِّمُهُ أَنَّ اللَّهَ يَزْوَجُهُ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ؛ فَذَلِكَ الَّذِي أَخْفَى فِي نَفْسِهِ.
وَيَصَحَّحُ هَذَا قَوْلَ الْمُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَقْذُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] أي: لَا بُدَّ لَكَ أَنْ تَتَزَوَّجَهَا.

وَيُوضِّحُ هَذَا أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُنِدِّ مِنْ أَمْرِهِ مَعَهَا غَيْرَ زَوَاجِهِ إِيَّاهَا، فَدَلَّ أَنَّهُ الَّذِي أَخْفَاهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَمَا كَانَ أَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ.

وقوله تعالى في آخر هذه القصة في بقية الآيات: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

فدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ حَرَجٌ فِي الْأَمْرِ.
قَالَ الطَّبْرِيُّ: مَا كَانَ اللَّهُ لِيُؤْتِمَّ نَبِيَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِيمَا أَحَلَّ لَهُ مِثَالَ فِعْلِهِ لِمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ٣٨] أي من النبيين فيما أُحِلَّ لَهُمْ.

١٦٧٨ - وَلَوْ كَانَ - عَلَى مَا رُوِيَ فِي حَدِيثٍ قَتَادَةَ - مِنْ وَقْعِهَا مِنْ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَمَا أَعْجَبَتْهُ، وَمَحَبَّتِهِ طَلَاقَ زَيْنَدٍ لَهَا لَكَانَ فِيهِ أَعْظَمُ الْحَرَجِ، وَمَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ مَدَّةٍ عَيْنِيهِ لِمَا نَهَى عَنْهُ مِنْ زَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَكَانَ هَذَا نَفْسَ الْحَسَدِ الْمَذْمُومِ الَّذِي لَا يَرْضَاهُ، وَلَا يَتَّسِمُ بِهِ الْأَنْقِيَاءُ، فَكَيْفَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ؟!
قَالَ الْقُشَيْرِيُّ: وَهَذَا إِقْدَامٌ عَظِيمٌ مِنْ قَائِلِهِ، وَقَلَّةٌ مَعْرِفَةٍ بِحَقِّ النَّبِيِّ ﷺ وَبِقَضَائِهِ.

وكيف يقال: رَأَاهَا فَأَعْجَبَتْهُ؟ وَهِيَ: بِثُتِّ عَمَّتِهِ، وَلَمْ يَزَلْ يَرَاهَا مِنْذُ وَلَدَتْ، وَلَا كَانَ النِّسَاءُ يَخْتَجِبْنَ مِنْهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَبْلَ النَّبُوَّةِ وَبَعْدَهَا، هَذَا وَهُوَ زَوْجُهَا لَزِينَدٍ؛ وَإِنَّمَا جَعَلَ اللَّهُ طَلَاقَ زَيْنَدٍ لَهَا، وَتَزْوِيجَ النَّبِيِّ ﷺ إِيَّاهَا؛ لِإِزَالَةِ حُرْمِهِ الثَّبَنِيِّ، وَإِبْطَالِ سُنَّتِهِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ...﴾ الْآيَةُ [الأحزاب: ٤٠]، وَقَالَ: ﴿لَكَ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْفَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ الْآيَةُ [الأحزاب: ٣٧].
وَنَحْوُهُ لَابْنُ فُورَكَ.

وقال أبو الليث السمرقندي: فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْفَائِدَةُ فِي أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ لَزِينَدٍ بِإِمْسَاكِهَا؟ فَهُوَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمَ نَبِيَّهُ أَنَّهَا زَوْجَتُهُ، فَهَاءُ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ طَلَاقِهَا؛ إِذْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَهُمَا أُلْفَةٌ؛ وَأَخْفَى فِي نَفْسِهِ - ﷺ - مَا أَعْلَمَهُ اللَّهُ بِهِ، فَلَمَّا طَلَّقَهَا زَيْنَدَ خَشِيَ النَّبِيُّ ﷺ قَوْلَ النَّاسِ: يَتَزَوَّجُ امْرَأَةً ابْنَةَ؛ فَأَمَرَهُ اللَّهُ بِزَوَاجِهَا لِيُبَاحَ مِثْلُ

ذلك لأمته، كما قال تعالى: ﴿لِيَكُنْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقد قيل: كان أمره لزيد بإمساكها قنماً للشهوة، ورداً للنفس عن هواها. وهذا القول إذا جَوَزْنَا عليه - عليه السلام - أنه رآها فجأةً واستحسنها. فمثل هذا لا نُكْرَهُ فيه، لما طُبِعَ عليه ابنُ آدمَ من استحسانه الحسن، ونظرةُ الفجأة مغفوة عنها؛ ثم قمع نفسه عنها، وأمر زيداً بإمساكها؛ وإنما تُنْكَرُ تلك الزيادات التي في القصة. والتعويل والأولى ما ذكرناه عن علي بن الحسين، وحكاة السمرقندي؛ وهو قول ابن عطاء، وصححه واستحبه القاضي القشيري. وعليه عول أبو بكر بن فورك، وقال: إنه معنى ذلك عند المحققين من أهل التفسير؛ قال: والنبى ﷺ مُنْزَعٌ عن استعمال التَّفَاق في ذلك، وإظهار خلاف ما في نفسه، وقد نَزَّهَهُ اللَّهُ عن ذلك بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٨]؛ وقال: وَمَنْ ظَنَّ ذَلِكَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ أَخْطَأَ.

قال: وليس معنى الخشية - هنا -: الخوف؛ وإنما معناه: الاستحياء؛ أي: يستحيي منهم أن يقولوا: تزوج زوجة ابنه.

وأن خشيته - عليه السلام - من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود، وتشغيبيهم على المسلمين بقولهم: تزوج محمد زوجة ابنه، بعد نهيه عن نكاح حلائل الأبناء، كما كان؛ فعتبه الله - عز وجل - على هذا، ونزَّهَهُ عن الالتفات إليهم فيما أحلَّ له، كما عتبه على مُرَاعَاةِ رِضَا أَزْوَاجِهِ في سورة التحريم بقوله: ﴿لَيْدُ نَجْرٍ مَّا أَمَلَ اللَّهُ لَكَ تَبْلَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحريم: ١] وكذلك قوله له هنا: ﴿وَقَضَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

١٦٧٩، ١٦٨٠ - وقد رَوَى عن الحسن البصري وعائشة: لو كنتم رسول الله ﷺ - شيئاً مما نزل عليه كنتم هذه الآية [مسلم (٢٨٨/١٧٧)، الترمذي (٣٢٠٨)] لما فيها من عتبه وإبداء ما أخفاه.

فصل

في شرح حديث الوصية في مرضه ﷺ

١٦٨١ - فإن قلت: قد تقررت عصمته - عليه السلام - في جميع أقواله وأحواله، وأنه لا يصحُّ منه فيها خُلُفٌ ولا اضطراب، في عَمْدٍ ولا سَهْوٍ، ولا صحة ولا مَرَضٍ، ولا جَدٍّ ولا مزح، ولا رِضاً ولا غَضَبٍ. ولكن ما معنى

الحديث في وصيته - عليه السلام - الذي حدثنا به القاضي الشهيد أبو علي رحمه الله؛ قال: حدثنا القاضي أبو الوليد، حدثنا أبو ذر، حدثنا أبو محمد، وأبو الهيثم، وأبو إسحاق؛ قالوا: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا عبد الرزاق بن همام، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس؛ قال: كما حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ: «هَلُمُّوا أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بعده» [البخاري (٤٤٣٢)، مسلم (٢٢/١٦٣٧)].

فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع... الحديث.
١٦٨٢ - وفي رواية: «اتنوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعدي أبداً» فتنازعوا، فقالوا: ماله؟ أهجر؟! استفهموه؛ فقال: «دعوني، فإن الذي أنا فيه خَيْرٌ» [البخاري (٣١٦٨، ٤٤٣١)، مسلم (٢٠/١٦٣٧)].

١٦٨٣ - وفي بعض طرقه: إن النبي ﷺ يَهْجُرُ؟ [مسلم (٢١/١٦٣٧)].
١٦٨٤ - وفي رواية: هَجَرَ [البخاري (٣٠٥٣)]. ويُرْوَى: أهجر؟ ويروى: أهجراً؟

١٦٨٥ - وفيه: فقال عمر: إن النبي ﷺ قد اشتد به الوجع، وعندنا كتاب الله، حسبنا. وكثر اللغط؛ فقال: «قوموا عني» [البخاري (١١٤)].
١٦٨٦ - وفي رواية: واختلف أهل البيت واختصموا؛ فمنهم من يقول: قُربوا له يكتب لكم رسول الله ﷺ كتاباً. ومنهم من يقول ما قال عمر [البخاري (٧٣٦٦)، مسلم (٢٢/١٦٣٧)].

قال أئمتنا في هذا الحديث: النبي ﷺ - غير معصوم من الأمراض، وما يكون من عوارضها من شدة وجع، وغشي، ونحوه مما يطرأ على جسمه، معصوم أن يكون منه من القول أثناء ذلك ما يقطع في معجزته، ويؤدي إلى فساد في شريعته من هذيان، أو اختلال في كلام.

وعلى هذا لا يصح ظاهر رواية من روى في الحديث: «هَجَرَ» إذ معناه: هَذَى. يقال: هَجَرَ هُجْراً، إذا هَذَى. وأهَجَرَ هُجْراً: إذا أفض؛ وأهَجَرَ: تَغْدِيَةُ هَجَرَ؛ وإنما الأصح والأولى: «أَهْجَرَ؟» على طريق الإنكار على من قال: لا يكتب...

١٦٨٧ - وهكذا روايتنا فيه في «صحيح البخاري» من رواية جميع الرواة في حديث الزهري المتقدم.

١٦٨٨ - وفي حديث محمد بن سلام، عن ابن عُيَيْنَةَ [البخاري (٣١٦٨)]، وكذا ضَبَطَهُ الْأَصْبَلِيُّ بخطه في كتابه، وَغَيْرُهُ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ.

١٦٨٩ - وكذا زَوَيْنَاهُ عَنْ مُسْلِمٍ فِي حَدِيثِ سُفْيَانَ [مسلم (٢١٠/١٦٣٧)]، وَعَنْ غَيْرِهِ.

وقد تُحْمَلُ عَلَيْهِ رَوَايَةُ مَنْ رَوَاهُ «هَجَرَ؟» عَلَى حَذْفِ أَلِفِ الاسْتِفْهَامِ؛ وَالتَّقْلِيدِ: «أَهْجَرَ؟» أَوْ أَنَّ يُحْمَلَ قَوْلُ الْقَائِلِ: «هَجَرَ» أَوْ «أَهْجَرَ» دَهْشَةً مِنْ قَائِلِ ذَلِكَ، وَحَيْرَةً لِعَظِيمِ مَا شَاهَدَ مِنْ حَالِ الرَّسُولِ ﷺ، وَشِدَّةِ وَجَعِهِ؛ وَهَوَّلِ الْمَقَامِ الَّذِي اخْتَلَفَ فِيهِ عَلَيْهِ، وَالْأَمْرُ الَّذِي هَمَّ بِالْكِتَابِ فِيهِ، حَتَّى لَمْ يَضْبُطْ هَذَا الْقَائِلُ لَفْظَهُ، وَأَجْرَى الْهَجَرَ مُجْرَى شِدَّةِ الْوَجَعِ؛ لَا أَنَّهُ اعْتَقَدَ أَنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْهَجَرُ، كَمَا حَمَلَهُمُ الْإِشْفَاقُ عَلَى جَرَّاسَتِهِ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وَنَحْوِ هَذَا.

١٦٩٠ - وَأَمَّا عَلَى رَوَايَةِ: «أَهْجَرَ» وَهِيَ رَوَايَةُ أَبِي إِسْحَاقَ الْمُسْتَمْلِي فِي الصَّحِيحِ فِي حَدِيثِ ابْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، مِنْ رَوَايَةِ قُتَيْبَةَ [البخاري (٤٤٣١)] - فَقَدْ يَكُونُ هَذَا رَاجِعاً إِلَى الْمُخْتَلِفِينَ عِنْدَهُ ﷺ، وَمَخَاطَبَةَ لَهُمْ مِنْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ؛ أَيْ جُنْتُمْ بِاخْتِلَافِكُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ يَدَيْهِ - هُجْراً وَمُنْكَراً مِنْ الْقَوْلِ؟

وَالْهُجْرُ: يَضُمُّ الْهَاءُ: الْفُخْشُ فِي الْمَنْطِقِ.

وقد اختلف العلماء في معنى هذا الحديث اختلافاً كثيراً، وكيف اختلف الصحابة بعد أمره لهم - عليه السلام - أَنْ يَأْتَوْهُ بِالْكِتَابِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَوْامِرُ النَّبِيِّ ﷺ يُفْهَمُ إِيْجَابُهَا، مِنْ نَذْبِهَا، مِنْ إِبَاحَتِهَا بِقِرَائِنٍ، فَلَعَلَّه قَدْ ظَهَرَ مِنْ قِرَائِنِ قَوْلِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِبَعْضِهِمْ مَا فَهَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ عَزْمَةٌ، بَلْ أَمْرٌ رَدُّهُ إِلَى اخْتِيَارِهِمْ أَوْ اخْتِيَارِهِمْ عِنْدَ مَوْتِهِ وَيَعْضُهُمْ لَمْ يَفْهَمُوا ذَلِكَ، فَقَالَ: اسْتَفْهَمُوهُ، فَلَمَّا اخْتَلَفُوا كَفَّ عَنْهُ، إِذْ لَمْ يَكُنْ عَزْمَةٌ، وَلَمَّا رَأَوْهُ مِنْ صَوَابِ رَأْيِ عُمَرَ.

ثم هؤلاء قالوا: ويكون امتناع عمر إمَّا إِشْفَاقاً عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ تَكْلِيفِهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ إِمْلَاءَ الْكِتَابِ، وَأَنْ تَدْخُلَ عَلَيْهِ مَشَقَّةٌ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ: إِنْ النَّبِيُّ ﷺ اشْتَدَّ بِهِ الْوَجَعُ.

وقيل: خَشِيَ عُمَرُ أَنْ يَكْتَبَ أَمُوراً يَعْجِزُونَ عَنْهَا فَيَحْصِلُونَ فِي الْحَرَجِ بِالْمُخَالَفَةِ، وَرَأَى أَنْ الْأَرْقُ بِالْأَمَةِ فِي تِلْكَ الْأُمُورِ سَعَةُ الْجَهْدِ، وَحُكْمُ النِّظَرِ، وَطَلَبُ الصَّوَابِ؛ فَيَكُونُ الْمَصِيبُ وَالْمَخْطِئُ مَأْجُوراً.

وقد عَلِمَ عُمَرُ تَقَرَّرَ الشَّرْعَ، وتَأْسِيسَ الْمِلَّةِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

١٦٩١ - وقوله عليه السلام: «أَوْصِيَكُمْ بكتاب الله وَعِزَّتِي» [مسلم (٢٤٠٨)].

وقولُ عُمَرَ: «حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ» رَدٌّ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ، لَا عَلَى أَمْرِ

النَّبِيِّ ﷺ.

وقد قيل: إِنَّ عُمَرَ خَشِيَ تَطَرُّقَ الْمُنَافِقِينَ وَمَنْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ لِمَا كُتِبَ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ فِي الْخَلْوَةِ، وَأَنْ يَتَقَوْلُوا فِي ذَلِكَ الْأَقَاوِيلَ، كَادْعَاءِ الرَّافِضَةِ الْوَصِيَّةَ لِعَلِّيٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وقيل: إِنَّهُ كَانَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لَهُمْ عَلَى طَرِيقِ الْمَشُورَةِ وَالْإِخْتِبَارِ. هَلْ يَتَفَقُونَ عَلَى ذَلِكَ أَمْ يَخْتَلِفُونَ؟ فَلَمَّا اخْتَلَفُوا تَرَكَهُ.

وقالت طائفة أخرى: إِنَّ مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - كَانَ مُجِيباً فِي هَذَا الْكِتَابِ لِمَا طُلِبَ مِنْهُ؛ لَا أَنَّهُ ابْتَدَأَ بِالْأَمْرِ بِهِ؛ بَلْ اقْتَضَاهُ مِنْهُ بَغْضُ أَصْحَابِهِ؛ فَأَجَابَ رَغْبَتَهُمْ، وَكَرِهَ ذَلِكَ غَيْرُهُمْ لِلْعِلَلِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا.

١٦٩٢ - وَاسْتَدِلَّ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ بِقَوْلِ الْعَبَّاسِ لِعَلِّيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ فِينَا عَلِمْنَاهُ؛ وَكَرَاهَةِ عَلِيِّ هَذَا، وَقَوْلِهِ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ... الْحَدِيثُ [البخاري (٤٤٤٧)].

١٦٩٣ - وَاسْتَدِلَّ بِقَوْلِهِ: «دَعُونِي؛ فَإِنَّ الَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ» أَي: الَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ مِنْ إِسْرَالِ الْأَمْرِ، وَتَرْكِكُمْ وَكِتَابِ اللَّهِ، وَأَنْ تَدْعُونِي مِمَّا طَلَبْتُمْ. وَذَكَرَ أَنَّ الَّذِي طُلِبَ كِتَابُهُ أَمْرُ الْخِلَافَةِ بَعْدَهُ، وَتَعْيِينُ ذَلِكَ.

فصل

فِي شَرْحِ حَدِيثٍ: أَيُّمَا مُؤْمِنٍ آذَيْتُهُ أَوْ سَبَّيْتُهُ أَوْ جَلَدْتُهُ فَاجْعَلْهَا كَفَّارَةً، وَأَحَادِيثَ أُخَرَ

١٦٩٤ - فَإِنْ قِيلَ: فَمَا وَجْهَ حَدِيثِهِ أَيْضاً الَّذِي حَدَّثَنَا بِهِ الْفَقِيه أَبُو مُحَمَّدٍ الْخُسْنِيُّ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الطَّبْرِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْغَافِرِ الْفَارِسِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ الْجُلُودِيُّ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ، حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا لَيْثٌ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ سَالِمِ مَوْلَى النَّضْرِيِّينَ؛ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ! إِنَّمَا مُحَمَّدٌ بَشَرٌ، يَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، وَإِنِّي قَدْ اتَّخَذْتُ عِنْدَكَ عَهْداً لَنْ تُخْلِفَنِي، فَأَيُّمَا

مؤمن آذيتُهُ، أو سَبَّيْتُهُ، أو جَلَدْتُهُ، فاجعلها له كفارةً وقُرْبَةً، تُقَرِّبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [مسلم (٩١/٢٦٠١)، البخاري (٦٣٦١)].

١٦٩٥ - وفي رواية: «فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ دَعْوَةً» [مسلم (٢٦٠٣)].

١٦٩٦ - وفي رواية: «لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ» [مسلم (٢٦٠٣)].

١٦٩٧ - وفي رواية: «فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبَّيْتُهُ، أو لَعَنْتُهُ، أو جَلَدْتُهُ، فاجعلها له زَكَاةً، وَصَلَاةً، وَرَحْمَةً» [مسلم (٨٩/٢٦٠١)].

وَكَيْفَ يَصُحُّ أَنْ يَلْعَنَ النَّبِيُّ ﷺ - مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ اللَّعْنَ، وَيَسُبُّ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ السَّبَّ، وَيَجْلُدُ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ الْجُلْدَ، أَوْ يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَهُوَ مَعْصُومٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ؟

فَاعْلَمْ - شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَكَ - أَنَّ قَوْلَهُ ﷺ أَوَّلًا: «لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ»؛ أَيُّ: عِنْدَكَ يَا رَبِّ فِي بَاطِنِ أَمْرِهِ؛ فَإِنَّ حُكْمَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى الظَّاهِرِ، كَمَا قَالَ، وَلِلْحُكْمَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، فَحَكَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِجُلْدِهِ، أَوْ أَدَبِهِ بِسَبِّهِ، أَوْ لَعْنِهِ، بِمَا اقْتِضَاهُ عِنْدَهُ حَالُ ظَاهِرِهِ؛ ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَشَفَقَتِهِ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ، وَرَأْفَتِهِ عَلَيْهِمُ الَّتِي وَصَفَهُ اللَّهُ بِهَا، وَخَذَرَهُ أَنْ يَقْبَلَ اللَّهُ فِيمَنْ دَعَا عَلَيْهِ دَعْوَتَهُ - أَنْ يَجْعَلَ دَعَاءَهُ وَلَعْنَهُ وَسَبَّهُ لَهُ رَحْمَةً؛ فَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ»؛ لَا أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَحْمِلُهُ الْغَضَبُ، وَيَسْتَفْزُهُ الضُّجْرُ لِأَنَّهُ يَفْعَلُ مِثْلَ هَذَا بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ مُسْلِمٍ.

وَهَذَا مَعْنَى صَحِيحٍ، وَلَا يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ: «أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ» أَنَّ الْغَضَبَ حَمَلَهُ عَلَى مَا لَا يَجِبُ فَعَلَهُ؛ بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَذَا أَنَّ الْغَضَبَ اللَّهُ حَمَلَهُ عَلَى مَعَاقِبَتِهِ بَلَّغْنَاهُ أَوْ سَبَّهَ؛ وَأَنَّهُ مِمَّا كَانَ يَحْتَمِلُ وَيَجُوزُ عَفْوُهُ عَنْهُ، أَوْ كَانَ مِمَّا خُيِّرَ بَيْنَ الْمَعَاقِبَةِ فِيهِ أَوْ الْعَفْوِ عَنْهُ.

وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ، بِمُخْرَجِ الْإِشْفَاقِ وَتَعْلِيمِ أُمَّتِهِ الْخَوْفَ وَالْحَذَرَ مِنْ تَعَدِّي حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَدْ يُحْتَمَلُ مَا وَرَدَ مِنْ دُعَائِهِ هَذَا، وَمِنْ دَعَوَاتِهِ عَلَى غَيْرِ وَاحِدٍ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ، عَلَى غَيْرِ الْعَقْدِ وَالْقَضْدِ؛ بَلْ بِمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الْعَرَبِ؛ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا الْإِجَابَةُ.

١٦٩٨ - كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «تَرِبَتْ يَمِينُكَ» [أحمد (٨١/٣)، البخاري (١٣٠)].

مسلم (٣١٠)].

١٦٩٩ - وَ «لَا أَشْبِعُ اللَّهَ بِطَنِّكَ» [مسلم (٢٦٠٤)].

١٧٠٠ - و «عَفَرِي خَلَقِي» [البخاري (١٥٦١)، مسلم (١٢١١/١٢٨)] وغيرها من دعواته عليه السلام.

١٧٠١ - وقد وَرَدَ فِي صِفَتِهِ - فِي غَيْرِ حَدِيثٍ - أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ فَحَّاشًا.

١٧٠٢ - وَقَالَ أَنَسٌ: لَمْ يَكُنْ سَبَّابًا، وَلَا فاحشًا، وَلَا لَعَانًا؛ وَكَانَ يَقُولُ لِأَحَدِنَا عِنْدَ الْمَغْتَبَةِ: «مَا لَهُ تَرِبَ جَبِينُهُ؟» [البخاري (٦٠٣١، ٦٠٤٦)].

فَيَكُونُ حَمْلُ الْحَدِيثِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى؛ ثُمَّ أَشْفَقَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ مُوَافَقَةِ أَمْثَالِهَا إِبْجَابَةً، فَعَاهَدَ رَبَّهُ، كَمَا قَالُ فِي الْحَدِيثِ، أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ لِلْمَقُولِ لَهُ زَكَاةً، وَرَحْمَةً، وَفُرْجَةً.

وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ إِشْفَاقًا عَلَى الْمَدْعُوِّ عَلَيْهِ، وَتَأْنِيْسًا لَهُ؛ لِثَلَا يَلْحَقَهُ مِنْ اسْتِشْعَارِ الْخَوْفِ وَالْحَذَرِ مِنْ لَعْنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَقَبُّلِ دَعَائِهِ، مَا يَحْمِلُهُ عَلَى الْيَأْسِ وَالْقَنُوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ سُؤْلًا مِنْهُ لِرَبِّهِ - عِزٍّ وَجَلٍّ - لِمَنْ جَلَدَهُ، أَوْ سَبَّهُ عَلَى حَقٍّ، وَيُوجِبُهُ صَحِيحٌ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ لَهُ كَفَّارَةً لِمَا أَصَابَهُ، وَتَمْجِيةً لِمَا اجْتَرَمَ، وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَقُوبَتَهُ لَهُ فِي الدُّنْيَا سَبَبَ الْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ.

١٧٠٣ - كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ» [البخاري (١٨)، مسلم (١٧٠٩)].

١٧٠٤ - فَإِنْ قُلْتُ: فَمَا مَعْنَى حَدِيثِ الزُّبَيْرِ وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ - حِينَ تَخَاضَمِهِ مَعَ الْأَنْصَارِيِّ فِي شِرَاجِ الْحَرَّةِ -: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ! حَتَّى يَبْلُغَ الْمَاءُ الْكَعْبَيْنِ». فَقَالَ لَهُ الْأَنْصَارِيُّ: أَنْ كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَتَلَوْنَ وَجْهَ النَّبِيِّ ﷺ؛ ثُمَّ قَالَ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ! ثُمَّ احْسِنْ حَتَّى يَبْلُغَ الْجَذَرَ...» الْحَدِيثُ.

فَالْجَوَابُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُنْزَعٌ أَنْ يَقَعَ بِنَفْسِ مُسْلِمٍ مِنْهُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَمْرٌ يُرِيبُ؛ وَلَكِنَّهُ ﷺ نَدَبَ الزُّبَيْرَ أَوَّلًا إِلَى الْاِقْتِصَارِ عَلَى بَعْضِ حَقِّهِ عَلَى طَرِيقِ التَّوَسُّطِ، وَالصُّلْحِ، فَلَمَّا لَمْ يَرْضَ بِذَلِكَ الْآخِرُ، وَلَجَّ، وَقَالَ مَا لَا يَجِبُ، اسْتَوْفَى النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ.

وَلِهَذَا تَرَجَّمَ الْبُخَارِيُّ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ: بَابُ: إِذَا أَشَارَ الْإِمَامُ بِالصُّلْحِ فَأَبَى حَكَمَ عَلَيْهِ بِالْحُكْمِ الْبَيِّنِ [البخاري (٣٠٩/٥) فتح].

١٧٠٥ - وَذَكَرَ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ: فَاسْتَوْعَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ ذُكِرَ لِلزُّبَيْرِ حَقُّهُ

[البخاري (٢٧٠٨)].

وقد جعل المسلمون هذا الحديث أضلاً في قضيته.

١٧٠٦ - وفيه الاقتداء به ﷺ في كل ما فعله في حال غضبه ورضاه، وأنه - وإن نهي أن يقضي القاضي وهو غضبان [البخاري (٧١٥٨)، مسلم (١٧١٧)] - فإنه في حكمه في حال الغضب والرضا سواء، لكونه فيهما معصوماً. وغضب النبي ﷺ في هذا إنما كان لله تعالى لا لنفسه، كما جاء في الحديث الصحيح. ١٧٠٧ - وكذلك الحديث في إقادته عكاشة من نفسه لم يكن لتعد حمله الغضب عليه؛ بل وقع في الحديث نفسه أن عكاشة قال له: وضربتني بالقضيب، فلا أذري أعمداً، أم أردت ضرب الناقة؟ فقال النبي ﷺ: «أعبدك بالله، يا عكاشة! أن يتعمدك رسول الله ﷺ».

١٧٠٨ - وكذلك في حديثه الآخر مع الأعرابي حين طلب - عليه السلام - الاقتصاص منه، فقال الأعرابي: قد عفوت عنك. وكان النبي ﷺ قد ضربه بالسوط لتعلقه بزمام ناقته مرة بعد مرة، والنبي ﷺ ينهأ ويقول له: «تذكر حاجتك» وهو يأبى؛ فضربه - عليه السلام - بعد أن نهاه ثلاث مرات. وهذا منه - عليه السلام - لمن لم يقف عند نهيه صواب، وموضع أدب، لكنه - عليه السلام - أشفق إذ كان حق نفسه من الأمر حتى عفا عنه. ١٧٠٩ - وأما حديث سواد بن عمرو: أتيت النبي ﷺ - وأنا متخلق فقال عليه الصلاة والسلام: «ورس! ورس! خط، خط» وعشيني بقضيب كان في يده في بطني فأوجعني. قلت: القصاص، يا رسول الله! فكشف لي عن بطنه - ﷺ - فأبى القصاص.

وإنما كان ضربه - عليه السلام - لمُنكر رآه به؛ ولعله لم يرد بضربه بالقضيب إلا تنبيهه، فلما كان منه إيجاع لم يقصده طلب التحلل منه على ما قدمناه.

فصل

فِي أَنَّ عَامَّةَ أَفْعَالِهِ ﷺ سَدَادٌ وَصَوَابٌ،

وَالرَّدُّ عَلَى بَغْضِ الشُّبْهِ

وأما أفعاله - عليه السلام - الدنيوية فحكمته فيها من توقي المعاصي والمكروهات ما قد قدمناه، ومن جواز السهو والغلط في بعضها ما ذكرناه. وكله غير قادح في نبوته عليه السلام. بلى، إن هذا فيها على الثذور؛ إذ عامة أفعاله على السداد والصواب، بل أكثرها أو كلها جارية مجرى العبادات

وَالْقُرْبَ عَلَى مَا يَبَيِّنُ؛ إِذْ كَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَا يَأْخُذُ مِنْهَا لِنَفْسِهِ إِلَّا ضَرُورَتَهُ، وَمَا يُقِيمُ بِهِ زَمَقَ جَسَدِهِ، وَفِيهِ مَصْلَحَةٌ ذَاتُهُ الَّتِي بِهَا يَغْبُدُ رَبَّهُ، وَيُقِيمُ شَرِيعَتَهُ، وَيُسَوِّسُ أَمَّتَهُ، وَمَا كَانَ فِيهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ مِنْ ذَلِكَ فَيَبَيِّنُ مَعْرُوفَ يَضَعُهُ، أَوْ يَرْيُوسُغُهُ، أَوْ كَلَامَ حَسَنِ يَقُولُهُ أَوْ يَسْمَعُهُ، أَوْ تَأْلُفَ شَارِدٍ، أَوْ قَهْرَ مُعَانِدٍ، أَوْ مُدَارَاةَ حَاسِدٍ؛ وَكُلُّ هَذَا لِأَحَقِّ بِصَالِحِ أَعْمَالِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مُنْتَظِمٍ فِي زَاكِي وَظَائِفِ عِبَادَاتِهِ؛ وَقَدْ كَانَ يُخَالِفُ فِي أَعْمَالِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ، وَيُعَدُّ لِلْأُمُورِ أَشْبَاهَهَا، فَيَرْكَبُ فِي تَصَرُّفِهِ - لَمَّا قُرْبَ - الْحِمَارَ، وَفِي أَسْفَارِهِ الْبَعِيدَةِ الرَّاحِلَةَ، وَيَرْكَبُ الْبَغْلَةَ فِي مَعَارِكِ الْحَرْبِ، دَلِيلًا عَلَى الثَّبَاتِ، وَيَرْكَبُ الْخَيْلَ وَيُعِدُّهَا لِيَوْمِ الْفَرَجِ وَاجَابَةِ الصَّارِخِ.

وَكَذَلِكَ فِي لِبَاسِهِ وَسَائِرِ أَحْوَالِهِ بِحَسَبِ اعْتِبَارِ مَصَالِحِهِ، وَمَصَالِحِ أَمَّتِهِ. وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ الْفِعْلَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، مُسَاعِدَةً لِأَمَّتِهِ، وَسِيَاسَةً وَكَرَاهِيَةً لِخِلَافِهَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ يَرَى غَيْرَهُ خَيْرًا مِنْهُ، كَمَا يَتْرُكُ الْفِعْلَ أَبَدًا؛ وَقَدْ يَرَى فِعْلَهُ خَيْرًا مِنْهُ. وَقَدْ يَفْعَلُ هَذَا فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ مِمَّا لَهُ الْخَيْرَةُ فِي أَحَدٍ وَجْهِيهِ، كَخُرُوجِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ لِأَحَدٍ، وَكَانَ مَذْهَبُهُ التَّحَصُّنَ بِهَا.

١٧١٠ - وَتَرَكَهُ قَتْلَ الْمُنَافِقِينَ، وَهُوَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهِمْ مُؤَالَفَةً لغيرِهِمْ، وَرِعَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَرَابَتِهِمْ، وَكَرَاهَةً لِأَنَّهُ يَقُولُ النَّاسُ: إِنْ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ.

١٧١١ - وَتَرَكَهُ بِنَاءَ الْكَعْبَةِ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، مُرَاعَاةً لِقُلُوبِ قُرَيْشٍ، وَتَعْظِيمَهُمْ لِتَغْيِيرِهَا، وَحَذَرًا مِنْ نِفَارِ قُلُوبِهِمْ لِلذَلِكَ، وَتَحْرِيكِ مُتَقَدِّمِ عَدَاوَتِهِمْ لِلدِّينِ وَأَهْلِهِ؛ فَقَالَ لِعَائِشَةَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لَوْ لَا حِذْثَانُ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ لَأَتَمَمْتُ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ» [البخاري (١٥٨٥)، مسلم (١٣٣٣)].

١٧١٢ - وَيَفْعَلُ الْفِعْلَ ثُمَّ يَتْرُكُهُ؛ لِكُونَ غَيْرِهِ خَيْرًا مِنْهُ؛ كَانْتِقَالِهِ مِنْ أَذْنَى مِيَاهٍ بَذَرٍ إِلَى أَقْرَبِهَا لِلْعَدُوِّ مِنْ قُرَيْشٍ.

١٧١٣ - وَقَوْلُهُ: «لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا سَقْتُ الْهَذْيَ» [البخاري (٧٢٢٩)، مسلم (١٥/١٢١١)].

وَيَسْطُ وَجْهَهُ لِلْعَدُوِّ الْكَافِرِ رَجَاءً اسْتِثْلَافِهِ.

١٧١٤ - وَيَصْبِرُ لِلْجَاهِلِ، وَيَقُولُ: «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْ اتَّقَاهُ النَّاسُ لِشَرِّهِ» [البخاري (٢١٣١)، مسلم (٢٥٩١)]. وَيَبْذُلُ لَهُ الرِّغَائِبَ لِيَحْبِبَ إِلَيْهِ شَرِيعَتَهُ وَدِينَ رَبِّهِ.

ويتولّى في منزله ما يتولّى الخادِمُ مِنْ مِهْنَتِهِ، وَيَتَسَمَّتُ فِي مَلَيْتِهِ، حَتَّى لَا يَبْدُو مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ أَطْرَافِهِ، وَحَتَّى كَأَن عَلَى رُؤُوسِ جُلُوسَائِهِ الطَّيْرُ؛ وَبِتَحَدُّثِ مَعَ جُلُوسَائِهِ بِحَدِيثِ أَوْلِهِمْ، وَبِتَعَجُّبِ مِمَّا يَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ، وَيَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْهُ؛ قَدْ وَسَّعَ النَّاسُ بِشْرَهُ وَعَدْلُهُ، لَا يَسْتَفْزُهُ الْعَضْبُ، وَلَا يَقْصُرُ عَنِ الْحَقِّ، وَلَا يُبْطِئُ عَلَى جُلُوسَائِهِ.

١٧١٥ - يَقُولُ: «مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ».

١٧١٦ - فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي الدَّخْلِ عَلَيْهِ: «بِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ» فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ، أَلَّا لَهُ الْقَوْلُ، وَضَحَكَ مَعَهُ، فَلَمَّا سَأَلَتْهُ عَنْ ذَلِكَ قَالَ: «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْ اتَّقَاهُ النَّاسُ لَشَرِّهِ».

وَكَيْفَ جَازَ أَنْ يُظْهِرَ لَهُ خِلَافَ مَا يُبْطِئُ، وَيَقُولُ فِي ظَهْرِهِ مَا قَالَ؟ فَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ: أَنَّ فِعْلَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ اسْتِثْلَافاً لِمِثْلِهِ، وَتَطْيِيباً لِنَفْسِهِ؛ لِيَتِمَّ كُنْ إِيْمَانُهُ، وَيَدْخُلَ فِي الْإِسْلَامِ بِسَبِيهِ أَتْبَاعُهُ، وَيَرَاهُ مِثْلُهُ فَيَنْجَذِبُ بِذَلِكَ إِلَى الْإِسْلَامِ.

وَمِثْلُ هَذَا عَلَى هَذَا الْوَجْهِ قَدْ خَرَجَ مِنْ حَدِّ مَدَارَةِ الدُّنْيَا إِلَى السِّيَاسَةِ الدِّينِيَّةِ.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ يَسْتَأْذِنُهُمْ بِأَمْوَالِ اللَّهِ الْعَرِيضَةِ، فَكَيْفَ بِالْكَلِمَةِ اللَّيِّتَةِ؟

١٧١٧ - وَعَنْ صَفْوَانَ: لَقَدْ أَعْطَانِي وَهُوَ أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا زَالٍ يُعْطِينِي حَتَّى صَارَ أَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَيَّ [مُسْلِم (٢٣١٣)].

١٧١٨ - وَقَوْلُهُ فِيهِ: «بِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ» هُوَ غَيْرُ غَيْبَةٍ؛ بَلْ هُوَ تَعْرِيفٌ مَا عِلْمُهُ مِنْهُ لَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ، لِيُخَذَرَ حَالُهُ، وَيُخْتَرَزَ مِنْهُ، وَلَا يُوَثَّقَ بِجَانِبِهِ كُلِّ الثَّقَةِ، وَلَا سِيماً وَكَانَ مُطَاعاً مَتَّبِعاً فِي قَوْمِهِ.

وَمِثْلُ هَذَا إِذَا كَانَ لِمَنْ لُزُومُهُ، وَدَفْعُ مَضَرَّةٍ، لَمْ يَكُنْ بِغَيْبَةٍ، بَلْ كَانَ جَائِزاً، بَلْ وَاجِباً فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كَعَادَةِ الْمُحَدِّثِينَ فِي تَجْرِيعِ الرِّوَاةِ، وَالْمَزْكِينَ فِي الشُّهُودِ.

١٧١٩ - فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى الْمُغْضِلِ الْوَاردِ فِي حَدِيثِ بَرِيرَةَ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ لِعَائِشَةَ؛ وَقَدْ أَخْبَرْتَهُ أَنَّ مَوَالِيَّ بَرِيرَةَ أَبْوَا بَيْنَهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْوَلَاءُ؛ فَقَالَ لَهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اشْتَرِيهَا وَاشْتَرِطِي لَهُمُ الْوَلَاءَ» ففعلت، ثُمَّ قَامَ خَطِيباً، فَقَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شَرْطاً لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ كُلُّ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ» [الْبُخَارِيُّ (٢١٦٨)، مُسْلِم (١٥٠٤)] وَالنَّبِيُّ - ﷺ - قَدْ أَمَرَهَا بِالشَّرْطِ لَهُمْ، وَعَلَيْهِ بَاغُوا،

ولولاه - واللَّهُ أعلم - لما باغوها من عائشة، كما لم يبيعوها قَبْلُ حتى شرطوا ذلك عليها؛ ثم أبطله - عليه السلام - وهو قد حرَّم الغش والخديعة؟!

فاعلم - أكرمك الله - أَنَّ النبي ﷺ مُنْزَعٌ عن ذلك مما يَقَعُ في بال الجاهل مِنْ هذا، ولتَنزيه النبي - عليه السلام - عن ذلك ما قد أنكر قومُ هذه الزيادة في الرواية قوله: «اشتري لهم الولاء» إذ ليست في أكثر طرق الحديث؛ ومع ثباتها فلا اعتراض بها؛ إذ يَقَعُ «لهم» بمعنى «عليهم»؛ قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الرعد: ٢٥]. أي: عليهم.

وقال: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]. أي: فعلها.

فعلى هذا يكون معناه: اشترطي عليهم الولاء لك، ويكون قيام النبي ﷺ ووَغْظُهُ لما سلف لهم من شَرْطِ الولاءِ لَأَتَقْسِمَ قَبْلُ ذلك.

ووجه ثانٍ: أَنَّ قوله عليه السلام: «اشتري لهم الولاء»، ليس على معنى الأمر، لكن على معنى التسوية والإعلام بأنَّ شَرْطَهُ لهم لا يَنْفَعُهُمْ بعد بيان النبي ﷺ لهم قَبْلُ: أَنَّ الولاءَ لِمَنْ أَعْتَقَ؛ فكأنه قال: اشترطي أو لا تَشْتَرِطِي، فإنه شَرْطٌ غَيْرُ نافع.

وإلى هذا ذهب الدَّوْدِيُّ وَغَيْرُهُ؛ وتوبيخ النبي ﷺ لهم؛ وتقريعهم على ذلك يَدُلُّ على عِلْمِهِمْ به قَبْلُ هذا.

الوجه الثالث: أَنَّ معنى قوله: «اشتري لهم الولاء» أي: أظهر لهم حُكْمَهُ، ويُنَبِّئُ عندهم سُنَّتَهُ أَنَّ الولاءَ إنما هو لِمَنْ أَعْتَقَ. ثم بعد هذا قام هو ﷺ مَبِيناً ذلك ومُؤَبِّخاً على مخالفة ما تقدَّم مِنْهُ فيه.

فإن قيل: فما معنى فِعْلِ يوسف - عليه السلام - بأخيه؛ إذ جعل السَّقَايَةَ في رَحْلِهِ، وأَخَذَهُ باسم سَرِقَتِهَا، وما جَرَى على إِخْوَتِهِ في ذلك، وقوله تعالى: ﴿إِنكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]؛ ولم يَسْرِقُوا؟

فاعلم - أكرمك الله - أَنَّ الآيةَ تدلُّ على أَنَّ فِعْلَ يوسف كان عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَبْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

فإذا كان كذلك فلا اعتراض به، كان فيه ما فيه.

وأيضاً فإنَّ يوسف كان أَعْلَمَ أَخَاهُ بـ: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ الآية [يوسف: ٦٩] فكان ما جَرَى عليه بعد هذا من وَفْقِهِ وَرَغْبَتِهِ، وعلى يقينٍ من عَفْوِ الْخَيْرِ له به، وإِزَاحَةِ السُّوءِ عنه والمَضَرَّةَ بذلك.

وأما قوله: ﴿أَبْتَهَا أَعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] فليس من كلام يوسف ولا من قوله، فيلزم عليه جوابٌ لِجَلِّ شُبْهِهِ. ولعلَّ قائله إنَّ حُسْنَ له التأويلُ كائناً مَنْ كان ظَنَّ على صورة الحال ذلك. وقد قيل: قال ذلك لِفَعْلِهِمْ قَبْلُ بيوسفَ وَبَيَعَهُمْ له. وقيل غير هذا. ولا يلزم أن يَقُولَ الأنبياء ما لم يأتِ أنهم قالوه، حتى يُطْلَبَ الخلاصُ منه، ولا يلزم الاعتذار عن زَلَّاتٍ غيرهم.

فصل

فِي الْحِكْمَةِ فِي إِجْرَاءِ الْأَمْرَاضِ وَشِدَّتِهَا عَلَيْهِ ﷺ، وَعَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ

فإن قيل: فما الحكمة في إجراء الأمراض وشدتها عليه، وعلى جميع الأنبياء عليهم السلام؟ وما الوجه فيما ابتلاهم الله به من البلاء، وامتحانهم بما امْتَحِنُوا به كأيوب، ويعقوب، ودانيال، ويحيى، وزكريا، وعيسى، وإبراهيم، ويوسف، وغيرهم، صلوات الله عليهم، وهم خيرته من خلقه وأحبائه وأضيافه؟ فاعلم - وفقك الله - أنَّ أفعال الله تعالى كلها عدلٌ، وكلماته جميعها صدقٌ لا مُبْدَلٌ لكلماته، يَبْتَلِي عِبَادَهُ، كما قال تعالى لهم: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

و ﴿يَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

﴿وَلْيَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤٠].

﴿وَلْيَبْلُوكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَبَلَّوْا أَنْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

﴿وَلَمَّا يَخْلِرِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَكُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

فامتحانه - عز وجل - إياهم بضروبِ المَحْنِ زيادةً في مكانتهم، ورفعَةً في درجاتهم، وأسبابٌ لاستخراج حالات الصبر والرضا، والشكر والتسليم، والتوكل، والتفويض، والدعاء، والتضرع منهم، وتأكيذٌ لبصائرهم في رَحْمَةِ الْمُتَمَحِّنِينَ، والشفقة على الْمُبْتَلِينَ، وتذكرةٌ لغيرهم، وموعظةٌ لسواهم ليتأسَّوا في البلاءِ بهم؛ ويتسلَّوا في المَحْنِ بما جَرَى عليهم، ويقْتَدُوا بهم في الصَّبر، وَمَحْوُ لِهَنَاتِ فِرْطَتِ منهم، أو غَفَلَاتِ سَلَفَتِ لهم، لِيَلْقُوا الله تعالى طَيِّبِينَ مُهْذَبِينَ؛ وليكون أجْرهم أكمل، وثوابهم أوفرَ وأَجْزَل.

١٧٢٠ - حدثنا القاضي أبو علي الحافظ، حدثنا أبو الحسين الصيرفي وأبو

الفضل بن خَيْرُون؛ قالوا: حدثنا أَبُو يَعْلَى البَغْدَادِيُّ، حدثنا أَبُو عَلِي السَّنْجِيُّ، حدثنا مُحَمَّد بن محبوب، حدثنا أَبُو عَيْسَى التَّرْمِذِيُّ، حدثنا قُتَيْبَةُ، حدثنا حَمَاد بن زيد، عن عاصم بن بَهْدَلَةَ، عن مُضْعَب بن سَعْد، عن أَبِيهِ، قال: قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قال: «الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَلَا أَمْثَلُ، يُنْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ» [الترمذي (٢٣٩٨)، ابن ماجه (٤٠٢٣)].

وكما قال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَبِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ فَقَالَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

١٧٢١ - وعن أَبِي هُرَيْرَةَ [الترمذي (٢٣٩٩)]: «مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ فِي نَفْسِهِ، وَوَلَدِهِ، وَمَالِهِ حَتَّى يُلْقَى اللَّهَ، وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ».

١٧٢٢ - وعن أَنَسٍ، عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُؤَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [الترمذي (٢٣٩٦)].

١٧٢٣ - وفي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتَلَاهُ لِيَسْمَعَ نَضْرَعَهُ». وَحَكَى السَّمَرْقَنْدِيُّ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى كَانَ بَلَاؤُهُ أَشَدَّ كُنِيَ يَتَبَيَّنُ فَضْلُهُ، وَيَسْتَوْجِبُ الثَّوَابَ؛ كَمَا رُوِيَ عَنْ لُقْمَانَ أَنَّهُ قَالَ: يَا بَنِي! الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ يُخْتَبَرَانِ بِالنَّارِ، وَالْمُؤْمِنُ يُخْتَبَرُ بِالْبَلَاءِ. وَقَدْ حُكِيَ: أَنَّ ابْتِلَاءَ يَعْقُوبَ بِيُوسُفَ كَانَ سَبَبَهُ التَّفَاتِهِ فِي صَلَاتِهِ إِلَيْهِ، وَيُوسُفُ نَائِمٌ مَحَبَّةً لَهُ.

١٧٢٤ - وقيل: بَل اجْتَمَعَ يَوْمًا هُوَ وَابْنُهُ يُوسُفُ عَلَى أَكْلِ حَمَلٍ مَشْوِيٍّ، وَهُمَا يَضْحَكَانِ، وَكَانَ لَهُمَا جَارٌّ يَتِيمٌ، فَشَمَّ رِيحَهُ وَاشْتَهَاهُ وَبَكَى، وَبَكَتْ جَدَّةُ لَهُ عَجُوزٌ لِبُكَائِهِ، وَبَيْنَهُمَا جِدَارٌ، وَلَا عِلْمَ عِنْدَ يَعْقُوبَ وَابْنِهِ؛ فَعُوقِبَ يَعْقُوبُ بِالْبُكَاءِ أَسْفًا عَلَى يُوسُفَ إِلَى أَنْ سَأَلَتْ حَدَقَتَاهُ، وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ. فَلَمَّا عَلِمَ بِذَلِكَ كَانَ بَقِيَّةَ حَيَاتِهِ لَا يَرُدُّ سَائِلًا، وَيَأْمُرُ مُنَادِيًا يَنَادِي عَلَى سَطْحِهِ: أَلَا مَنْ كَانَ مُفْطَرًّا فَلْيَتَغَدَّ عِنْدَ آلِ يَعْقُوبَ.

وَعُوقِبَ يُوسُفَ بِالْمِحْنَةِ الَّتِي نَصَّ اللَّهُ عَلَيْهَا. ١٧٢٥ - وَرُوِيَ عَنِ اللَّيْثِ أَنَّ سَبَبَ بَلَاءِ أَيُّوبَ أَنَّهُ دَخَلَ مَعَ أَهْلِ قَرْيَتِهِ عَلَى

مَلِكِهِمْ، فَكَلَّمُوهُ فِي ظُلْمِهِ، وَأَغْلَظُوا لَهُ إِلَّا أَيُّوبَ، فَإِنَّهُ رَفَقَ بِهِ مَخَافَةً عَلَى رَزْغِهِ، فَعَاقَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِبَلَاءِهِ.

وَمِخْنَةُ سَلِيمَانَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ نِيَّتِهِ فِي كَوْنِ الْحَقِّ فِي جِهَةِ أَصْهَارِهِ؛ أَوْ لِلْعَمَلِ بِالْمَعْصِيَةِ فِي دَارِهِ، وَلَا عِلْمَ عِنْدَهُ.

١٧٢٦ - وَهَذِهِ فَائِدَةٌ شَدَّةِ الْمَرَضِ وَالْوَجَعِ بِالنَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَتْ عَائِشَةُ: مَا رَأَيْتُ الْوَجَعَ عَلَى أَحَدٍ أَشَدَّ مِنْهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [البخاري (٥٦٤٦)، مسلم (٢٥٧٠)].

١٧٢٧ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَرَضِهِ، يُوعَكُ وَغَكَا شَدِيدًا، فَقُلْتُ: إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَغَكَا شَدِيدًا! قَالَ: «أَجَلْ، إِنِّي أُوْعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ». قُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ الْأَجَرَ مَرَّتَيْنِ؟ قَالَ: «أَجَلْ، ذَلِكَ كَذَلِكَ» [البخاري (٥٦٤٨)، مسلم (٢٥٧١)].

١٧٢٨ - وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَجُلًا وَضَعَ يَدَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَطِيقُ أَصْغَ يَدِي عَلَيْكَ مِنْ شِدَّةِ حُمَاكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّا مَغْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ يُضَاعَفُ لَنَا الْبَلَاءُ، إِنْ كَانَ النَّبِيُّ لِيُنْتَلَى بِالْقَمَلِ حَتَّى يَقْتُلَهُ، وَإِنْ كَانَ النَّبِيُّ لِيُنْتَلَى بِالْفَقْرِ، وَإِنْ كَانُوا لِيُفْرَحُونَ بِالْبَلَاءِ كَمَا تَفْرَحُونَ بِالرِّخَاءِ» [ابن ماجه (٤٠٢٤)].

١٧٢٩ - وَعَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ» [الترمذي (٢٣٩٦)، ابن ماجه (٤٠٣١)].

١٧٣٠، ١٧٣١ - وَقَدْ قَالَ الْمَفْسُورُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ» [النساء: ١٢٣]: إِنَّ الْمُسْلِمَ يُجْزَى بِمَصَائِبِ الدُّنْيَا، فَتَكُونُ لَهُ كِفَارَةً. وَرَوَى هَذَا عَنْ عَائِشَةَ [أحمد (٦٥/٦٦)، وَأَبِي بَكْرٍ [الترمذي (٣٠٣٩)، وَمُجَاهِدٌ.

١٧٣٢ - وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ» [البخاري (٥٦٤٥)].

١٧٣٣ - وَقَالَ فِي رِوَايَةِ عَائِشَةَ: «مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلَّا يَكْفُرُ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُّهَا» [البخاري (٥٦٤٠)، مسلم (٤٩/٢٥٧٢)].

١٧٣٤ - وَقَالَ فِي رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدٍ: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حَزَنٍ، وَلَا أَذًى، وَلَا غَمٍّ - حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُّهَا - إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ» [البخاري (٥٦٤١)، مسلم (٢٥٧٣)].

١٧٣٥ - وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى إِلَّا حَاتَّ اللَّهُ

عنه خطابة: كما تحاث وِرْقُ الشَّجَرِ [البخاري (٥٦٤٧)، مسلم (٢٥٧١)].

وحكمة أخرى أودعها الله في الأمراض لأجسامهم، وتعاقب الأوجاع عليها وشدتها عند مماتهم، لتضعف قُوَى نفوسهم، فيسهل خروجها عند قبضهم، وتخف عليهم مؤنة التَّزَعِ، وشدة السكرات بتقدم المرض، ويضعف الجسم والتَّقس. كذلك.

١٧٣٦ - وهذا خلاف موت الفجاءة وأخذه، كما يُشاهد من اختلاف أحوال الموتى في الشدة واللين، والصعوبة والسهولة. وقد قال عليه السلام: «مَثَلُ الْمُؤْمَنِ مَثَلُ خَامَةِ الزَّرْعِ تُفَيِّئُهَا الرِّيحُ هَكَذَا. وَهَكَذَا» [البخاري (٥٦٤٣)، (٥٦٤٤)، مسلم (٢٨٠٩)].

١٧٣٧ - وفي رواية أبي هريرة عنه: «من حيث أتتها الرِّيحُ تكفؤها؛ فإذا سكنت اعتدلَّتْ؛ وكذلك المؤمنُ يُكفأُ بالبلاء. ومَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الْأَرْزَةِ، صَمَاءٌ مُعْتَدِلَةٌ حَتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ» [البخاري (٧٤٦٦)، مسلم (٢٨٠٩)].

معناه: أَنَّ الْمُؤْمِنَ مُرْزَأٌ، مُصَابٌ بِالْبَلَاءِ وَالْأَمْرَاضِ، رَاضٍ بِتَصْرِيفِهِ مِنْ أَقْدَارِ اللَّهِ تَعَالَى مُنْطَاعٌ لِدَلِّكَ، لِيَنَ الْجَانِبَ بِرِضَاهُ وَقَلَّةِ سَخَطِهِ، كَطَاعَةِ خَامَةِ الزَّرْعِ وَانْقِيَادِهَا لِلرِّيحِ، وَتَمَائِلِهَا لِهَوْبِهَا وَتَرْنَحِهَا مِنْ حَيْثُ مَا أَتَتْهَا؛ فَإِذَا أَزَاحَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِ رِيَّاحَ الْبَلَاءِ، وَاعْتَدَلَ صَاحِبُهَا كَمَا اعْتَدَلَّتْ خَامَةُ الزَّرْعِ عِنْدَ سُكُونِ رِيَّاحِ الْجَوِّ، رَجَعَ إِلَى شُكْرِ رَبِّهِ وَمَعْرِفَةِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ بِرَفْعِ بَلَاتِهِ، مُنْتَظِرًا رَحْمَتَهُ وَثَوَابَهُ عَلَيْهِ.

فإذا كان بهذه السبيل لم يصعب عليه مَرَضُ الْمَوْتِ، وَلَا نَزْوُلُهُ، وَلَا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ سَكَرَاتُهُ وَتَزَعُهُ، لِعَادَتِهِ بِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآلَامِ، وَمَعْرِفَةِ مَا لَهُ فِيهَا مِنَ الْأَجْرِ، وَتَوَطُّيْنِهِ نَفْسَهُ عَلَى الْمَصَائِبِ وَرِقَّتِهَا وَضَعْفِهَا بِتَوَالِي الْمَرَضِ أَوْ شِدَّتِهِ، وَالْكَافِرُ بِخِلَافِ هَذَا: مُعَافَى فِي غَالِبِ حَالِهِ، مُتَمَتِّعٌ بِصِحَّةِ جِسْمِهِ، كَالْأَرْزَةِ الصَّمَاءِ، حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللَّهُ هَلَاكَهُ قَصَمَهُ لَحِينُهُ عَلَى غِرَّةٍ، وَأَخَذَهُ بَغْتَةً مِنْ غَيْرِ لُطْفٍ وَلَا رَفَقٍ؛ فَكَانَ مَوْتُهُ أَشَدَّ عَلَيْهِ حَسْرَةً، وَمَقَاسَاةً نَزَعِهِ مَعَ قُوَّةِ نَفْسِهِ وَصِحَّةِ جِسْمِهِ أَشَدَّ أَلَمًا وَعَذَابًا، وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَقُّ كَانْجِعَافِ الْأَرْزَةِ. وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَاخِذْنَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥].

وكذلك عادة الله تعالى في أعدائه، كما قال تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فجأ جميعهم بالموت، على حال عُتُوْ وَغَفْلَةٍ، وصَبَحهم به، على غير استعدادٍ بَغْتَةً؛ ولهذا ما كره السلفُ موتَ الفجأة.

١٧٣٨ - ومنه في حديث إبراهيم: كانوا يكرهون أَخَذَةً كَأَخَذَةِ الْأَسَفِ.

أي: الْعُصْب، يريد: موتَ الفجأة.

وحكمةُ الثالثة: أَنَّ الأمراضَ نَذِيرُ المماتِ، وبَقْدَرِ شِدَّتِهَا شِدَّةُ الخوفِ من نزولِ الموتِ؛ فيستعدُّ مَنْ أصابته، وَعَلِمَ تَعَاهُداً له، لِلقاءِ رَبِّه، وَيُغْرِضُ عن دَارِ الدنيا الكثيرةِ الْإِنْكَادِ ويكونَ قَلْبُهُ مَعْلَقاً بالمعاد، فيتنصّلُ مِنْ كُلِّ ما يَخْشَى تَبَاعْثَهُ مِنْ قِبَلِ الله، وَيَقِلُّ العباد، وَيُؤْذِي الحقوقَ إِلَى أهلِها، وينظرُ فيما يحتاجُ إِلَيْهِ مِنْ وَصِيَّةٍ فيمن يَخْلُفه أو أَمْرٍ يَغْهده.

١٧٣٩ - وهذا نبينا - عليه السلام - المَغْفُورُ له ما تَقَدَّمَ من ذنبه وما تأخَّر، قد طلبَ التَّنْصِلَ في مَرَضِهِ مِمَّنْ كانَ له عليه مالٌ أو حقٌ في بَدَن، وَأَقَادَ مِنْ نَفْسِهِ وماله، وأمكنَ من القِصاصِ منه، على ما وردَ في حديثِ القُضَلِ.

١٧٤٠ - وحديثُ الوفاةِ.

١٧٤١ - وأوصى بالثَّقَلَيْنِ بعده: كتابُ الله، وعِثْرَتُهُ [مسلم (٢٤٠٨)].

١٧٤٢ - وبِالْأَنْصَارِ عَيْنِيهِ [البخاري (٣٧٩٩)، مسلم (٢٥١٠)].

١٧٤٣ - ودعا إِلَى كُتُبِ كِتَابِ لَثَلَا تَضِلُّ أُمَّتُهُ بعده؛ إما في التَّصَنِ على الْخِلافةِ، أو الله أعلمُ بِمراده. ثم رأى الْإِمْسَاكَ عَنْهُ أَفْضَلَ وخيراً. وهكذا سيرةُ عبادِ الله الْمُؤْمِنِينَ وأولِيائِهِ الْمُتَّقِينَ.

وهذا كُلُّهُ يُخَرِّمُهُ غَالِباً الْكُفَّارُ، لِإِمْلَاءِ اللَّهِ لَهُمْ، لِيَزِدَادُوْهُ إِثْماً وَلِيَسْتَدْرِجَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ؛ كما قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ ① فَلَا يَسْتَطِيعُونَ قِيَامَهُ وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ② [يس: ٤٩، ٥٠].

١٧٤٤ - ولذلك قال - عليه السلام - في رجل مات فجأةً: «سبحان الله!

كأنه على غَضَبٍ، الْمُحْرَمُ مِنْ حُرْمٍ وَصِيَّتِهِ» [ابن ماجه (٢٧٠٠)].

١٧٤٥ - وقال: «موتُ الْفُجَاءَةِ راحةٌ لِلْمُؤْمِنِ، وَأَخْذَةُ الْأَسَفِ لِلْكَافِرِ أو

الْفَاجِرِ» [أحمد (١٣٦/٦)].

١٧٤٦ - وذلك لِأَنَّ الْمَوْتَ يَأْتِي الْمُؤْمِنَ، وَهُوَ غَالِباً مُسْتَعِدٌّ لَهُ مُنْتَظَرٌ لِحُلُولِهِ؛ فَهَانَ أَمْرُهُ عَلَيْهِ كَيْفَ ما جاء، وَأَفْضَى إِلَى رَاحَتِهِ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا؛ كما قالَ عليه السلام: «مُسْتَرَيِّحٌ وَمُسْتَرَاخٌ مِنْهُ» [البخاري (٦٥١٢)، مسلم (٩٥٠)].

وتَأْتِي الْكَافِرَ وَالْفَاجِرَ مَنِيَّتُهُ على غيرِ اسْتِعْدَادٍ، وَلَا أَهْبَةَ، وَلَا مَقْلَعَاتٍ مُنْذِرَةَ

مُزْعَجَةٍ ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَفْئَةٌ فَيَقْتُلُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾
[الأنبياء: ٤٠]؛ فكان الموت أشدَّ شيءٍ عليه.

١٧٤٧ - وفراق الدنيا أفظعُ أمرٍ صدمه، وأكرهُ شيءٍ له؛ وإلى هذا
المعنى أشار - عليه السلام - بقوله: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ
كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».



القسم الرابع

في تَصْرِفِ وَجْهِ الْأَحْكَامِ فِيمَنْ تَنْقُصُهُ
أَوْ سَبَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه: قد تقدم من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ما يجب من الحقوق للنبي ﷺ، وما يتعين له من برٍّ وتوقير، وتعظيم وإكرام؛ وبحسب هذا حرّم الله تعالى أذاه في كتابه، وأجمعت الأمة على قتل مُنتَقِصِهِ من المسلمين وسابّه؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [٥٧] [الأحزاب: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقال تعالى في تحريم التعريض له: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِكَثِيرٍ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤].

وذلك أَنَّ اليهود - لعنهم الله - كانوا يقولون: راعنا، يا محمدا أي أزعنا سمعك، واسمع منا، ويعرضون بالكلمة، يريدون: الرعونة؛ فنهى الله المؤمنين عن التشبه بهم، وقطع الذريعة بنهي المؤمنين عنها، لئلا يتوصل بها الكافر والمنافق إلى سبّه، والاستهزاء به.

وقيل: بل لما فيها من مُشاركة اللفظ؛ لأنها عند اليهود بمعنى: اسمع لا سمعت.

وقيل: بل لما فيها من قِلَّةِ الأدب، وعدم توقير النبي ﷺ وتعظيمه؛ لأنها في لغة الأنصار بمعنى: ازعنا نزعك؛ فثبوا عن ذلك؛ إذ مضمونه أنهم لا يزعمونه إلا برعايته لهم، وهو - عليه السلام - واجب الرعاية بكل حال.

١٧٤٨ - وهذا هو - عليه السلام - قد نهي عن التكني بكنيته، فقال: «تسموا باسمي، ولا تكنوا بكنيتي»؛ صيانة لنفسه، وحماية عن أذاه.

١٧٤٩ - إذ كان ﷺ استجاب لرجل نادى: يا أبا القاسم! فالتفت إليه، فقال: لم أعنيك، إنما عنيت فلاناً [البخاري (٣٥٣٧)، مسلم (٢١٣١)]؛ فنهى حيثئذ عن التكني بكنيته لئلا يتأذى بإجابة دعوة غيره ممن لم يدعه، ويجد بذلك المنافقون والمستهزئون ذريعة إلى أذاه والإضرار به فينادونه، فإذا التفت قالوا: إنما أردنا هذا - لسواه - تغنيًا له، واستخفافاً بحقه على عادة المُجَّان والمستهزئين، فحمى - عليه السلام - حمى أذاه بكل وجه؛ فحمل محققو العلماء نهيه عن هذا على مدة حياته، وأجازوه بعد وفاته لارتفاع العلة.

وللناس في هذا الحديث مذاهب ليس هذا موضعها؛ وما ذكرناه هو مذهب الجمهور، والصواب إن شاء الله. وإن ذلك على طريق تعظيمه وتوقيره، وعلى سبيل التذنب والاستحاب، لا على التحريم؛ ولذلك لم ينه عن اسمه؛ لأنه قد كان الله ممنع من ندائه به بقوله: «لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا» [النور: ٦٣]؛ وإنما كان المسلمون يدعونه: يا رسول الله! يا نبي الله! ﷺ، وقد يدعونه بكنيته أبا القاسم! بعضهم في بعض الأحوال.

١٧٥٠ - وقد روى أنس رضي الله عنه عنه عليه السلام، ما يدل على كراهية التسمي باسمه، وتنزيهه عن ذلك؛ إذا لم يوقر، فقال: «تسمون أولادكم محمداً ثم تلعنونهم؟!».

١٧٥١ - وروى أن عمر رضي الله عنه كتب إلى أهل الكوفة: لا يُسمَّى أحدٌ منكم باسم النبي ﷺ، حكاة أبو جعفر الطبري.

١٧٥٢ - وحكى محمد بن سعد أنه نظر إلى رجل اسمه محمد، ورجل يسميه، ويقول له: فعل الله بك، يا محمداً! وصنع. فقال عمر لابن أخيه محمد بن زيد بن الخطاب: لا أرى محمداً ﷺ يُسبُّ بك؛ والله! لا تدعى محمداً ما دمت حياً؛ وسماء عبد الرحمن.

١٧٥٣ - وأراد أن يمنع أن يُسمَّى أحدٌ بأسماء الأنبياء إكراماً لهم بذلك، وغير أسماء جماعة تسموا بأسماء الأنبياء، ثم أنسك.

والصواب خلافه وجوازه يَغْدَهُ عليه السلام، بدليل إطباق الصحابة على ذلك.

١٧٥٤ - وقد سَمِيَ جماعةٌ منهم ابنه محمداً، وكناه بأبي القاسم.

١٧٥٥ - وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَدْنَى فِي ذَلِكَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [أَبُو دَاوُدَ (٤٩٦٧)، الترمذي (٢٨٤٣)].

١٧٥٦ - وقد أخبر عليه السلام أَنَّ ذَلِكَ اسْمُ الْمَهْدِيِّ وَكُنْيَتُهُ [أَبُو دَاوُدَ (٤٩٨٢)، الترمذي (٢٢٣٠)].

١٧٥٧ وحتى ١٧٥٩ - وقد سَمِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مُحَمَّدُ بْنُ طَلْحَةَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو بْنُ خَزَمٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ ثَابِتٍ بْنُ قَيْسٍ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ.

١٧٦٠ - وقال: «مَا ضَرَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَكُونَ فِي بَيْتِهِ مُحَمَّدٌ وَمُحَمَّدَانِ وَثَلَاثَةٌ».

وقد فصلت الكلام في هذا القسم على بابين كما قدمناه.



الباب الأول

في بَيَانِ مَا هُوَ فِي حَقِّهِ - عَلَيْهِ السَّلَام -
سَبٌّ، أَوْ نَقْصٌ، مِنْ تَغْرِیضٍ أَوْ نَصٍّ

اعْلَمُ - وَقَعْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ - أَنَّ جَمِيعَ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، أَوْ عَابَهُ، أَوْ أَلْحَقَ بِهِ نَقْصًا فِي نَفْسِهِ، أَوْ نَسَبِهِ، أَوْ دِينِهِ، أَوْ خُصَالَةٍ مِنْ خِصَالِهِ، أَوْ عَرَضَ بِهِ، أَوْ شَبَّهَهُ بِشَيْءٍ عَلَى طَرِيقِ السَّبِّ لَهُ، أَوْ الْإِزْرَاءِ عَلَيْهِ، أَوْ التَّصْغِيرِ لَشَأْنِهِ، أَوْ الْعَضُّ مِنْهُ، وَالْغَيْبِ لَهُ؛ فَهُوَ سَابٌّ لَهُ؛ وَالْحَكْمُ فِيهِ حَكْمُ السَّابِّ، يُقْتَلُ كَمَا تُبَيِّتُهُ، وَلَا نَسْتَتْنِي فُضْلًا مِنْ فُضُولِ هَذَا الْبَابِ عَلَى هَذَا الْمَقْصِدِ، وَلَا نَمْتَرِي فِيهِ تَصْرِيحًا كَانَ أَوْ تَلْوِيحًا.

وكَذَلِكَ مَنْ لَعَنَهُ أَوْ دَعَا عَلَيْهِ، أَوْ تَمَنَّى مَضَرَّةً لَهُ، أَوْ نَسَبَ إِلَيْهِ مَا لَا يَلِيقُ بِمَنْصِبِهِ عَلَى طَرِيقِ الدِّمِّ أَوْ الْعَيْبِ فِي جِهَتِهِ الْعَزِيزَةِ بِسُخْفٍ مِنَ الْكَلَامِ وَهَنْجَرٍ، وَمُنْكَرٍ مِنَ الْقَوْلِ وَزُورٍ، أَوْ غَيْرِهِ بِشَيْءٍ مِمَّا جَرَى مِنَ الْبَلَاءِ وَالْمِحْنَةِ عَلَيْهِ، أَوْ غَمَصَهُ بِيَعُضِ الْعَوَارِضِ الْبَشَرِيَّةِ الْجَائِزَةِ وَالْمَعْهُودَةِ لَدَيْهِ.

وَهَذَا كُلُّهُ إِجْمَاعٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَأُئِمَّةِ الْفَتَوَى مِنْ لَدُنِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِلَى هَلَمْ جَرَاءً.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْمَنْدَرِ: أَجْمَعَ عَوَامُّ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ يُقْتَلُ؛ وَمِمَّنْ قَالَ ذَلِكَ: مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ، وَأَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ، وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْفَضْلِ: وَهُوَ مُقْتَضَى قَوْلِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ.

وسئل قال أبو حنيفة، وأصحابه، والثوري، وأهل الكوفة، والأوزاعي في المسلم، لكنهم قالوا: هي ردة.

وروى مثله الوليد بن مسلم عن مالك.

وحكى الطبري مثله، عن أبي حنيفة، وأصحابه، فيمن تنقض عليه السلام، أو برى منه، أو كذبه.

وقال سُخُونُ فيمن سبه: ذلك ردة كالردة.

وعلى هذا وقع الخلاف في استنابته وتكفيره، وهل قتله حداً أو كفراً كما سئيت في الباب التالي إن شاء الله تعالى ولا نعلم خلافاً في استحابة دمه بين علماء الأمصار وسلف الأئمة وقد ذكر غير واحد الإجماع على قتله وتكفيره، وأشار بعض الظاهرية - وهو أبو محمد: علي بن أحمد الفارسي - إلى الخلاف في تكفير المستخف به والمعروف ما قدمناه.

قال محمد بن سُخُون: أجمع العلماء أن شاتم النبي ﷺ المستخف له كافر. والوعيد جارٍ عليه بعقاب الله له، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعليه كفر.

واحتج إبراهيم بن حسين بن خالد الفقيه في مثلي هذا بقتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة لقوله - عن النبي ﷺ -: صابحكم.

وقال أبو سليمان الخطابي: لا أعلم أحداً من المسلمين اختلف في وجوب قتله إذا كان مسلماً.

وقال ابن القاسم، عن مالك، في «كتاب ابن سُخُون» و«المبسوط» و«الغنيّة»، وحكاة مطرف، عن مالك، في «كتاب ابن حبيب»: من سب النبي ﷺ من المسلمين قُتل، ولم يُستَب.

قال ابن القاسم في «الغنيّة»: من سبه أو شتمه أو عابه أو تنقض طاهه يُقتل، وحكمه عند الأمة القتل كالزنديق وقد فرض الله تعالى توقيره ويزره. وفي «المبسوط» عن عثمان بن كنانة: من شتم النبي ﷺ من المسلمين قُتل، أو صلب حياً، ولم يُستَب، والإمام مخير في صلبه حياً أو قتله.

ومن رواية أبي المصعب، وابن أبي أويس: سمعنا مالكا يقول: من سب رسول الله ﷺ، أو شتمه، أو عابه، أو تنقضه، قُتل - مسلماً كان أو كافراً - ولا يُستَب.

وفي كتاب محمد: أخبرنا أصحاب مالك أنه قال: من سب النبي ﷺ أو غيره من النبيين من مسلم أو كافر قُتل ولم يُستَب.

وقال أَضْبَغُ: يُقْتَلُ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَسْرَ ذَلِكَ أَوْ أَظْهَرُهُ؛ وَلَا يُسْتَتَابُ؛ لِأَنَّ تَوْبَتَهُ لَا تَعْرِفُ.

وقال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ: مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ كَافِرٍ قُتِلَ وَلَمْ يُسْتَبَّ.

وحكى الطبريُّ فِيهِ مِثْلَهُ، عَنْ أَشْهَبٍ، عَنْ مَالِكٍ.

وروى ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ مَالِكٍ: مَنْ قَالَ: إِنَّ رِءَاءَ النَّبِيِّ ﷺ - وَيُرْوَى: زَرَّ النَّبِيَّ ﷺ - وَسَخَّ؛ أَرَادَ بِهِ عَيْنَهُ: قُتِلَ.

وقال بعضُ عُلَمَائِنَا: أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ مَنْ دَعَا عَلَى نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بِالْوَيْلِ، أَوْ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَكْرُوهِ أَنَّهُ يَقْتُلُ بِهَا اسْتِثْنَاءً.

وأفتى أَبُو الْحَسَنِ الْقَاسِمِيُّ فِيمَنْ قَالَ فِي النَّبِيِّ ﷺ: الْحَمَالُ؛ يَتِيمُ أَبِي طَالِبٍ - بِالْقَتْلِ.

وأفتى أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي زَيْدٍ بِقَتْلِ رَجُلٍ سَمِعَ قَوْمًا يَتَذَكَّرُونَ صِفَةَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ مَرَّ بِهِمْ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ وَاللَّخِيَةِ؛ فَقَالَ لَهُمْ: تَرِيدُونَ تَعْرِفُونَ صِفَتَهُ؟ هِيَ فِي صِفَةِ هَذَا الْمَارِّ فِي خَلْقِهِ وَلَحِيَّتِهِ. قَالَ: وَلَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ.

وقد كَذَبَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - وَلَيْسَ يَخْرُجُ ذَلِكَ مِنْ قَلْبِ سَلِيمٍ الْإِيمَانِ.

وقال أَحْمَدُ بْنُ أَبِي سَلِيمَانَ - صَاحِبُ سُحُنُونَ -: مَنْ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أَسْوَدَ يُقْتَلُ.

وقال فِي رَجُلٍ قِيلَ لَهُ: لَا، وَحَقُّ رَسُولِ اللَّهِ! فَقَالَ: فَعَلَ اللَّهُ بِرَسُولِ اللَّهِ كَذَا وَكَذَا، وَذَكَرَ كَلَامًا قَبِيحًا؛ فَقِيلَ لَهُ: مَا تَقُولُ؟ يَا عَدُوَّ اللَّهِ! فَقَالَ أَشَدُّ مِنْ كَلَامِهِ الْأَوَّلِ؛ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَرَدْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ الْعُقُوبَ. فَقَالَ ابْنُ أَبِي سَلِيمَانَ الَّذِي سَأَلَهُ: أَشْهَدُ عَلَيْهِ وَأَنَا شَرِيكَكَ يُرِيدُ: فِي قَتْلِهِ وَثَوَابِ ذَلِكَ.

قال حَبِيبُ بْنُ الرَّبِيعِ: لِأَنَّ ادِّعَاءَهُ التَّأْوِيلَ فِي لَفْظِ صَرَاحٍ لَا يُقْبَلُ؛ لِأَنَّهُ امْتِهَانٌ؛ وَهُوَ غَيْرُ مُعَزَّزٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا مُؤَقَّرَ لَهُ؛ فَوَجِبَ إِبَاحَةُ دِمِهِ.

وأفتى أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَتَّابٍ - فِي عَشَارٍ؛ قَالَ لِرَجُلٍ: أَدَّ، وَاشْكُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ وَقَالَ: إِنْ سَأَلْتُ أَوْ جَهِلْتُ، فَقَدْ جَهِلْتُ وَسَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ - بِالْقَتْلِ.

وأفتى فُقَهَاءُ الْأَنْدَلُسِ بِقَتْلِ ابْنِ حَاتِمِ الْمُتَفَقِّهِ الطَّلِيظِيِّ وَصَلَبِهِ بِمَا شَهِدَ عَلَيْهِ بِهِ مِنْ اسْتِخْفَافِهِ بِحَقِّ النَّبِيِّ ﷺ وَتَسْمِيَةِ إِيَّاهُ أَثْنَاءَ مُنَاطَرَتِهِ بِالْيَتِيمِ، وَخَتْنِ حَيْدَرَةٍ، وَزَعْمِهِ أَنَّ زُهْدَهُ لَمْ يَكُنْ قَضْدًا؛ وَلَوْ قَدَّرَ عَلَى الطَّيِّبَاتِ أَكْلَهَا، إِلَى أَشْبَاهِ لِهَذَا.

وأفتى فُقَهَاءُ الْقَيْرَوَانِ وَأَصْحَابُ سُحُنُونَ بِقَتْلِ إِبْرَاهِيمَ الْفَزَارِيِّ، وَكَانَ شَاعِرًا

مُتَمَنِّئاً فِي كَثِيرٍ مِنَ الْعُلُومِ، وَكَانَ مِمَّنْ يَحْضُرُ مَجْلِسَ الْقَاضِي أَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ طَالِبٍ لِلْمُنَاطَرَةِ، فَرُفِعَتْ عَلَيْهِ أُمُورٌ مُنْكَرَةٌ مِنْ هَذَا الْبَابِ فِي الْإِسْتِهْزَاءِ بِاللَّهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَنَبِيِّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَأَحْضَرَ لَهُ الْقَاضِي يَحْيَى بْنُ عُمَرَ وَغَيْرِهِ مِنَ الْفُقَهَاءِ، وَأَمَرَ بِقَتْلِهِ وَصَلْبِهِ؛ فَطُعِنَ بِالسَّكِينِ، وَصُلِبَ مُنْكَسَأً؛ ثُمَّ أُنْزِلَ وَأُحْرِقَ بِالنَّارِ.

وَحَكَى بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ أَنَّهُ لَمَّا رُفِعَتْ خَشَبَتُهُ، وَزَالَتْ عَنْهَا الْأَيْدِي اسْتَدَارَتْ، وَحَوَّلَتْهُ عَنِ الْقَبِيلَةِ؛ فَكَانَ آيَةً لِلْجَمِيعِ، وَكَبَّرَ النَّاسُ، وَجَاءَ كُلُّ فَوْلَعٍ فِي دِمِيهِ؛ فَقَالَ يَحْيَى بْنُ عُمَرَ: صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

١٧٦١ - وَذَكَرَ حَدِيثاً عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَلُغُ الْكُلْبُ فِي دَمِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ».

وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمَرَابِطِ: مَنْ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ هُزِمَ يُسْتَأْتَبُ، فَإِنَّ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ؛ لِأَنَّهُ تَنَقَّصَ؛ إِذْ لَا يَجُوزُ ذَلِكَ عَلَيْهِ فِي خَاصَّتِهِ، إِذْ هُوَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَقِينُ مِنْ عَصَمَتِهِ.

وَقَالَ حَبِيبُ بْنُ رَبِيعٍ الْقَرَوِيُّ: مَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ أَنَّ مَنْ قَالَ فِيهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: مَا فِيهِ نَقْصٌ، قُتِلَ ذُونُ اسْتِئَابَةٍ.

وَقَالَ ابْنُ عَتَّابٍ: الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مُوجِبَانِ أَنَّ مَنْ قَصَدَ النَّبِيَّ ﷺ بِأَذَى أَوْ نَقْصٍ، مِعْرُضاً أَوْ مَصْرَحاً - وَإِنْ قُلَّ - فَقَتْلُهُ وَاجِبٌ. فَهَذَا الْبَابُ كُلُّهُ مِمَّا عَدَّهُ الْعُلَمَاءُ سَبّاً وَنَقْصاً يَجِبُ قَتْلُ قَائِلِهِ، لَمْ يَخْتَلَفْ فِي ذَلِكَ مُتَقَدِّمُهُمْ وَلَا مُتَأَخَّرُهُمْ، وَإِنْ اخْتَلَفُوا فِي حُكْمِ قَتْلِهِ عَلَى مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ وَنَبَيْتُهُ بَعْدُ أَيْضاً. إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَكَذَلِكَ أَقُولُ: حُكْمُ مَنْ غَمَصَهُ أَوْ عَيَّرَهُ بِرِعَايَةِ الْغَنَمِ، أَوْ السَّهْوِ، أَوْ النِّسْيَانِ، أَوْ السَّخْرِ، أَوْ مَا أَصَابَهُ مِنْ جُرُوحٍ أَوْ هَزِيمَةٍ لِبَعْضِ جِيُوشِهِ، أَوْ أَذَى مِنْ عَدُوِّهِ، أَوْ شِدَّةٍ مِنْ زَمَنِهِ، أَوْ بِالْمَيْلِ إِلَى نِسَائِهِ؛ فَحُكْمُ هَذَا كُلِّهِ - لِمَنْ قَصَدَ بِهِ نَقْصَهُ - الْقَتْلُ.

فصل

فِي الْحُجَّةِ فِي إِنْجَابِ قَتْلِ مَنْ سَبَّهُ أَوْ عَابَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فَمِنْ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ لَعْنَةُ اللَّهِ لِمُؤَذِّنِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقِرَائَتُهُ تَعَالَى أَذَاهُ بِأَذَاهُ، وَلَا خِلَافَ فِي قَتْلِ مَنْ سَبَّ اللَّهَ، وَأَنَّ اللَّعْنََ إِنَّمَا يَسْتَوْجِبُهُ مَنْ هُوَ كَافِرٌ، وَحُكْمُ الْكَافِرِ الْقَتْلُ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةُ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وقال - في قاتل المؤمنين مثل ذلك؛ فمن لَعْنْتِهِ في الدنيا القَتْلُ؛ بقوله تعالى: ﴿لَنْ يَنْتَهِى الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُوتُونَ فِي الْمَدِينَةِ لِنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَارِبُوكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أُحْذُوا وَقَتَلُوا تُفْسِيلًا ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠، ٦١].

وقال في - الْمُحَارِبِينَ، وذكر عقوبتهم: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءُ فِي الدُّنْيَا﴾ [المائدة: ٣٣].

وقد يَقَعُ القَتْلُ بمعنى اللُّعْن؛ قال الله تعالى: ﴿قِيلَ لِّلْمَرْصُورِ ﴿٦٧﴾﴾ [الذاريات: ١٠] أي لعنهم الله. و ﴿فَنَلَّهْمُ اللَّهُ أَنْ يَوْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤] أي: لعنهم الله؛ ولأنه فَرَّقَ بين أذاهما وأذى المؤمنين؛ فقال في أذى المؤمنين ما دُونَ القَتْلِ؛ مِنَ الضَّرْبِ وَالتَّكَالِ بقوله: ﴿فَقَدَّ أَحْمَلُوا بُهْتَانًا﴾ الآية [الأحزاب: ٥٨]. وكان حُكْمٌ مِنْ يُؤْذِي اللَّهَ وَنَبِيَّهَ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ؛ وهو القَتْلُ. وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

فسلَب اسم الإيمان عَمَّنْ وَجَدَ فِي صَدْرِهِ حَرَجًا مِنْ قَضَائِهِ، ولم يَسَلِّمْ لَهُ؛ وَمَنْ تَقَصَّه فَقَدْ نَاقَضَ هَذَا.

وقال الله تعالى: ﴿يَتْلَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات: ٢]. ولا يُخِطُّ الْعَمَلُ إِلَّا الْكُفْرُ، وَالْكَافِرُ يُقْتَلُ.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَرَّ يُحْيِكَ بِهَ اللَّهُ...﴾ [المجادلة: ٨]. ثم قال تعالى: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فِئَسَ الْمَصِيدُ﴾ [المجادلة: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١] ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِكُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَرُسُلِهِمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَقْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

قال أهل التفسير: ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بقولكم في رسول الله ﷺ.

وأما الإجماع فقد ذكرناه.

١٧٦٢ - وَأَنَا الْإِمَارُ فَحَدَّثَنَا الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ غُلْبُونٍ، عَنِ الشَّيْخِ أَبِي دَرِّ الْهَرَوِيِّ إِجَارَةً، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ الدَّارَقُطْنِيُّ، وَأَبُو عُمَرَ بْنِ حَيَّوَةَ، قَالَا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ نُوحٍ، حَدَّثَنَا عَبْدِ الْعَزِيزُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ زَيْنَالَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ، عَنِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَبَّ نَبِيًّا فَاقْتُلُوهُ، وَمَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَاضْرِبُوهُ».

١٧٦٣ - وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَتْلِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ. وَقَوْلُهُ: «مَنْ لَكَعَبِ بْنِ الْأَشْرَفِ؟ فَإِنَّهُ يُؤْذِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [البخاري (٥٢١٠)، مسلم (١٨٠١)]. وَوَجَّهَ إِلَيْهِ مَنْ قَتَلَهُ غِيلَةً دُونَ دَعْوَةٍ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَعَلَّلَ قَتْلَهُ بِأَذَاهُ لَهُ، فَدَلَّ أَنَّ قَتْلَهُ إِيَّاهُ لَغَيْرِ الْإِشْرَاقِ، بَلْ لِلْأَذَى.

١٧٦٤ - وَكَذَلِكَ قَتَلَ أَبَا رَافِعٍ، قَالَ الْبَرَاءُ: وَكَانَ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَيُعِينُ عَلَيْهِ [البخاري (٤٠٣٩)].

١٧٦٥ - وَكَذَلِكَ أَمَرَهُ يَوْمَ الْفَتْحِ بِقَتْلِ ابْنِ خَطْلٍ، وَجَارِيَتَيْهِ اللَّتَيْنِ كَانَتَا مَعَهُ تُعَيِّنَانِ بِسَبِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامَ.

١٧٦٦ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَسُبُّهُ عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَقَالَ: «مَنْ يَكْفِينِي عَذْوِي؟» فَقَالَ خَالِدٌ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَبَعَثَهُ ﷺ فَقَتَلَهُ.

وَكَذَلِكَ قَتَلَ جَمَاعَةً مِمَّنْ كَانُوا يُؤْذُونَهُ مِنَ الْكُفَّارِ وَيَسُبُّونَهُ كَالْتَضَرِّ بْنِ الْحَارِثِ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ.

وَعَهْدَ بِقَتْلِ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ قَبْلَ الْفَتْحِ وَبَعْدَهُ، فَقَتَلُوا إِلَّا مَنْ بَادَرَ بِإِسْلَامِهِ قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ.

١٧٦٧ - وَقَدْ رَوَى الْبَزَّازُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - أَنَّ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ نَادَى: مَا مَغْشَرُ قَرِيشٍ! مَالِي أَقْتُلُ مِنْ بَيْنِكُمْ صَبْرًا؟! فَقَالَ لَهُ ﷺ: «بِكُفْرِكَ وَافْتِرَائِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ».

١٧٦٨ - وَذَكَرَ عَبْدِ الرَّزَّاقِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَبَّهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: «مَنْ يَكْفِينِي عَذْوِي؟» فَقَالَ الزَّبِيرُ: أَنَا، فَبَارَزَهُ فَقَتَلَهُ الزَّبِيرُ.

١٧٦٩ - وَرَوَى أَيْضًا أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ تُسَبُّهُ عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَقَالَ: «مَنْ يَكْفِينِي عَذْوِي؟» فَخَرَجَ إِلَيْهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَقَتَلَهَا.

١٧٧٠ - وَرَوَى أَنَّ رَجُلًا كَذَّبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَبَعَثَ عَلِيًّا وَالزَّبِيرَ إِلَيْهِ لِيَقْتُلَاهُ.

١٧٧١ - وَرَوَى ابْنُ قَانِعٍ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ فِيكَ قَوْلًا قَبِيحًا فَقَتَلْتُهُ! فَلَمْ يَشُقْ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

١٧٧٢ - وَبَلَغَ الْمُهَاجِرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةٍ - أَمِيرَ الْيَمَنِ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ امْرَأَةً هُنَاكَ فِي الرَّدَةِ غُنْتُ بِسَبِّ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَطَعَ يَدَهَا، وَنَزَعَ ثِيْبَتَهَا، فَبَلَغَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ: لَوْلَا مَا فَعَلْتَ لَأَمَرْتُكَ بِقَتْلِهَا، لِأَنَّ حَدَّ الْأَنْبِيَاءِ لَيْسَ بِشِبْهِ الْحُدُودِ.

١٧٧٣ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هَجَتْ امْرَأَةٌ مِنْ خَطَمَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «مَنْ لِي بِهَا؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهَا: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَهَضَفْتُهَا، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «لَا يَنْتَطِعُ فِيهَا عِزْرَانٍ».

١٧٧٤ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَعْمَى كَانَتْ لَهُ أُمٌّ وَلَدَ تَسُبُّ النَّبِيَّ ﷺ فَيَزُجُّهَا فَلَا تَنْزَجِرُ، فَلَمَّا كَانَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ جَعَلَتْ تَقْعُ فِي النَّبِيِّ ﷺ وَتَشْتُمُهُ، فَقَتَلَهَا، وَأَعْلَمَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ، فَأَهْدَرَ دَمَهَا [أَبُو دَاوُدَ (٤٣٦١)، النَّسَائِيُّ (١٠٧/٧-١٠٨)].

١٧٧٥ - وَفِي حَدِيثٍ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ: كُنْتُ يَوْمًا جَالِسًا عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، فَغَضِبَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ - وَحَكَى الْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَثْمَةِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ سَبَّ أَبَا بَكْرٍ - وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ: أَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ - وَقَدْ أَعْلَظَ لِرَجُلٍ فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ! دَغْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ. فَقَالَ: اجْلِسْ، فَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ [أَبُو دَاوُدَ (٤٣٦٣)، النَّسَائِيُّ (١٠٩/٧، ١١١)، أَحْمَدُ (١٠/١)].

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ نَصْرٍ: وَلَمْ يَخَالِفْ عَلَيْهِ أَحَدٌ، فَاسْتَدَلَّ الْأَثْمَةُ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَى قَتْلِ مَنْ أَغْضَبَ النَّبِيَّ ﷺ بِكُلِّ مَا أَغْضَبَهُ، أَوْ آذَاهُ أَوْ سَبَّهُ. وَمِنْ ذَلِكَ كِتَابُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عَامِلِ الْكُوفَةِ، وَقَدْ اسْتَشَارَهُ فِي قَتْلِ رَجُلٍ سَبَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَكَتَبَ عُمَرُ إِلَيْهِ: إِنَّهُ لَا يَحِلُّ قَتْلُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِسَبِّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا رَجُلًا سَبَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَمَنْ سَبَّهُ فَقَدْ حَلَّ دَمَهُ.

وَسَأَلَ الرَّشِيدُ مَالِكًا فِي رَجُلٍ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ، وَذَكَرَ لَهُ أَنَّ فَهَاءَ الْعِرَاقِ أَقْتَنُوهُ بِجَلْدِهِ، فَغَضِبَ لَذَلِكَ، وَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! مَا بَقَاءُ الْأُمَّةِ بَعْدَ شَتْمِ نَبِيِّهَا؟ مَنْ شَتَمَ الْأَنْبِيَاءَ قُتِلَ، وَمَنْ شَتَمَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ يُجْلَدُ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْفَضْلِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَا وَقَعَ فِي هَذِهِ الْحِكَايَةِ، رَوَاهَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ أَصْحَابِ فَتَاوَى مَالِكٍ، وَمُؤَلِّفِي أَخْبَارِهِ وَغَيْرِهِمْ، وَلَا أُدْرِي مَنْ

هؤلاء الفقهاء بالعراق الذين أفتوا الرشيد بما ذكر؟ وقد ذكرنا مذهب العراقيين بقتله، ولعلهم ممن لم يشهر بعلم، أو من لا يؤثق بفتواه، أو يميل به هواه، أو يكون ما قاله يحمل على غير السب، فيكون الخلاف: هل هو سب أو غير سب؟ أو يكون رجع وتاب عن سبه، فلم يقله لمالك على أضله، وإلا فالإجماع على قتل من سبه كما قدمناه.

ويدل على قتله من جهة النظر والاعتبار أن من تنقصه - عليه السلام - أو سبه فقد ظهرت علامة مرض قلبه، وبرهان سر طويته وكفره، ولهذا حكم له كثير من العلماء بالردة، وهي رواية الشاميين عن مالك والأوزاعي، وقول الثوري، وأبي حنيفة، والكوفيين.

والقول الآخر: أنه دليل على الكفر، فيقتل حداً، وإن لم يحكم له بالكفر إلا أن يكون متمادياً على قوله، غير منكر له، ولا مقلع عنه، فهذا كافر، وقوله: إنما صريح كفر كالتكذيب ونحوه، أو من كلمات الاستهزاء والذم، فاعتراه بها وترك توبته عنها دليل استخلاصه لذلك، وهو كفر أيضاً، فهذا كافر بلا خلاف، قال الله تعالى في مثله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

قال أهل التفسير: هي قولهم: إن كان ما يقول محمد حقاً لنحسب شر من الحمير.

وقيل: بل قول بعضهم: ما مثلنا ومثل محمد إلا كقول القائل: سمع كلبك يأكلك وأجعه يتبعك، ولئن رجعتا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

١٧٧٦ - وقد قيل: إن قاتل مثل هذا، إن كان مستتراً به إن حكمه حكم الزنديق يقتل، ولأنه قد غيّر دينه، وقد قال عليه السلام: «من غيّر دينه فاضربوا عنقه» [البخاري (٣٠١٧)] ولأن لحكم النبي ﷺ في الخزمية مزية على أمته، وساب الحر من أمته يحد، فكانت العقوبة لمن سبه - عليه السلام - القتل، لعظيم قدره، وشفوف منزلته على غيره.

فصل

في أسباب عفوهِ ﷺ عن بغض من آذاه

١٧٧٧ - فإن قلت: فلم لم يقتل النبي ﷺ اليهودي الذي قال له: السام عليكم [البخاري (٦٩٢٦)]، وهذا دعاء عليه.

١٧٧٨ - وَلَا قَتَلَ الْآخَرَ الَّذِي قَالَ لَهُ: إِنَّ هَذِهِ لَفَيْسَمَةٌ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ،
وقد تَأَذَّى النَّبِيُّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: «قَدْ أُودِيَ مُوسَى بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبِرَ»
[البخاري (٣١٥٠)، مسلم (١٠٦٢)] وَلَا قَتَلَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُؤْذُونَهُ فِي أَكْثَرِ
الْأَحْيَانِ؟

١٧٧٩ - فَاعْلَم - وَفَقَّنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ يَسْتَأْذِنُ
عَلَيْهِ النَّاسَ، وَيُصِِّلُ قُلُوبَهُمْ إِلَيْهِ وَإِلَى مُحَبَّتِهِ وَيَحْبُبُ إِلَيْهِمُ الْإِيمَانَ وَيَزِينُهُ فِي
قُلُوبِهِمْ، وَيُدَارِيهِمْ، وَيَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: «إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُبَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُنْفَرِينَ»
[البخاري (٢٢٠)].

١٧٨٠ - وَيَقُولُ: «يَسْرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَسَكُنُوا وَلَا تَنْفَرُوا» [البخاري (٦١٢٥)،
مسلم (١٧٣٤)].

١٧٨١ - وَيَقُولُ: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ».
وَكَانَ ﷺ يُدَارِي الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَيُجَمِّلُ صُخْبَتَهُمْ، وَيَغْضِي عَلَيْهِمْ،
وَيَحْتَمِلُ مِنْ أَذَاهُمْ، وَيَصْبِرُ عَلَى جَفَائِهِمْ مَا لَا يَجُوزُ لَنَا الْيَوْمَ الصَّبْرُ لَهُمْ عَلَيْهِ،
وَكَانَ يُزَفِّقُهُمْ بِالْعَطَاءِ وَالْإِحْسَانِ، وَبِذَلِكَ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: «وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى
خَآئِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» [المائدة: ١٣].
وَقَالَ تَعَالَى: «أَدْفَعْ بِأَلْفِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ
حَمِيمٌ» [فصلت: ٣٤].

وَذَلِكَ لِحَاجَةِ النَّاسِ لِلتَّأْلَفِ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ، وَجَمْعِ الْكَلِمَةِ عَلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ
وَأَظْهَرَ اللَّهُ عَلَى الدِّينِ كُلَّهُ قَتَلَ مَنْ أَقْدَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَاشْتَهَرَ أَمْرُهُ، كَفَعْلِهِ بَابِنِ
خَطْلٍ، وَمَنْ عَهْدَ بَقْتَلِهِ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَمَنْ أَمَكَنَهُ قَتَلَهُ غِيلَةً مِنْ يَهُودٍ وَغَيْرِهِمْ، أَوْ
غَلْبَةً مِمَّنْ لَمْ يَنْظُمْهُ قَبْلُ سِلْكَ صُخْبَتِهِ، وَالْإِنْخِرَاطُ فِي جُمْلَةِ مُظْهَرِي الْإِيمَانِ لَهُ
مِمَّنْ كَانَ يُؤْذِيهِ، كَابْنِ الْأَشْرَفِ، وَأَبِي رَافِعٍ، وَالتَّضَرِّ، وَعُقْبَةَ.
وَكَذَلِكَ نَذَرُ دَمَ جَمَاعَةٍ سِوَاهُمْ، كَكُغْبِ بْنِ زَهِيرٍ، وَابْنِ الزُّبَيْرِ وَغَيْرِهِمَا
مِمَّنْ أَذَاهُ حَتَّى أَلْقَوْا بِأَيْدِيهِمْ، وَلَقَوْهُ مُسْلِمِينَ.

وَبَوَاطِنُ الْمُنَافِقِينَ مُسْتَبْرَأَةٌ، وَحُكْمُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى الظَّاهِرِ، وَأَكْثَرُ تِلْكَ
الْكَلِمَاتِ إِنَّمَا كَانَ يَقُولُهَا الْقَائِلُ مِنْهُمْ حُفْيَةً، وَمَعَ أَمْثَالِهِ الْكُفَّارِ وَيَحْلِفُونَ عَلَيْهَا إِذَا
نُمِيتَ، وَنَكَرُونَهَا، وَ «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ
إِسْلَامِهِمْ» [التوبة: ٧٤]، وَكَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَعَ هَذَا يَطْمَعُ فِي فَيْتَتِهِمْ، وَرَجَوْعِهِمْ
إِلَى الْإِسْلَامِ، وَتَوْبَتِهِمْ، فَيَصْبِرُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى هَنَاتِهِمْ وَجَفَوْتِهِمْ، كَمَا صَبَرَ

أولوا العزم من الرُّسل حتى فاء كثير منهم باطناً، كما فاء ظاهراً، وأخلص سيراً
كما أظهر جَهراً، ونفع الله بَعْدُ بكثير منهم، وقام منهم للدين وُزراءُ وأعوانٌ
وحُماةٌ وأنصار كما جاءت به الأخبار.

وبهذا أجاب بَعْضُ أئمتنا رَحِمَهُمُ اللهُ عن هذا السؤال وقال: لعله لم يَثْبُتْ
عنده - عليه السلام - من أقوالهم ما رُفِعَ، وإنما نقله الواحدُ، ومن لم يَصِلْ رُتْبَةُ
الشهادة في هذا الباب، من صَبِيٍّ، أو عَبْدٍ، أو امرأةٍ، والدماء لا تُسْتَبَاحُ إلا
بِعَدْلَيْنِ.

١٧٨٢ - وعلى هذا يُخْمَلُ أَمْرُ الْيَهُودِ في السلام، وأنهم لوَازَ به أَلَسْتَهُمْ،
ولم يَبَيِّنُوهُ، أَلَا تَرَى كَيْفَ تَبَيَّنَتْ عَلَيْهِ عَائِشَةُ، ولو كان صَرَحَ بِذَلِكَ لَمْ تَنْفَرِدْ
بِعِلْمِهِ، ولهذا نَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ عَلَى فِعْلِهِمْ، وَقَلَّةِ صِدْقِهِمْ فِي سَلَامِهِمْ،
وخيانتهم في ذلك، لِيَأْ بِالْأَسْتَنْتَهُمْ، وَطَعْنًا فِي الدِّينِ، فَقَالَ: «إِنَّ الْيَهُودَ إِذَا سَلِمَ
أَحَدُهُمْ فَإِنَّمَا يَقُولُ: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقُولُوا: عَلَيْكُمْ».

وكذلك قال بَعْضُ أَصْحَابِنَا الْبَغْدَادِيِّينَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَقْتُلِ الْمُنَافِقِينَ
بِعِلْمِهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَأْتِ أَنَّهُ قَامَتْ بَيْتَةٌ عَلَى نِفَاقِهِمْ، فَلِذَلِكَ تَرَكَهُمْ.

وأيضاً فَإِنَّ الْأَمْرَ كَانَ سِرّاً وَباطناً، وظاهرهم الإسلامُ والإيمانُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ
أَهْلِ الذِّمَّةِ بِالْعَهْدِ وَالْجَوَارِ، وَالنَّاسُ قَرِيبٌ عَنْهُمْ بِالْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَتَمَيَّزْ بَعْدُ
الْخَبِيثُ مِنَ الطَّيِّبِ.

وقد شاعَ عَنِ الْمَذْكُورَيْنِ فِي الْعَرَبِ كَوْنُ مَنْ يُتُّبَهُمُ بِالْثِّقَاقِ مِنْ جَمَلَةِ
الْمُؤْمِنِينَ وَصَحَابَةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَأَنْصَارِ الدِّينِ بِحُكْمِ ظَاهِرِهِمْ، فَلَوْ قَتَلَهُمُ
النَّبِيُّ ﷺ لَنَفَاقَهُمْ وَمَا يَبْدُرُ مِنْهُمْ، وَعِلْمِهِ بِمَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ لَوَجَدَ الْمُنْفَرُ
مَا يَقُولُ، وَلَا زَتَابَ الشَّارِدِ، وَأَرْجَفَ الْمَعَانِدِ، وَارْتَاعَ مِنْ صَحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ،
وَالدَّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرُ وَاحِدٍ، وَلَزَعَمَ الزَّاعِمُ وَطَعَنَ الْعَدُوَّ الظَّالِمَ - أَنَّ الْقَتْلَ
إِنَّمَا كَانَ لِلْعَدَاوَةِ وَطَلَبِ أَخْذِ الثَّرَةِ.

١٧٨٣ - وقد رَأَيْتُ مَعْنَى مَا حَرَّزْتُهُ مَنْسُوباً إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللهُ
ولهذا قال عليه السلام: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ».

١٧٨٤ - وقال: «أُولَئِكَ الَّذِينَ نَهَانِي اللهُ عَنْ قَتْلِهِمْ».

وهذا بخلاف إجراء الأحكام الظاهرة عليهم من حُدُودِ الزُّنَا وَالْقَتْلِ وَشَبِهِهِ،
لظهورها واستواء الناس في علمها.

وقد قال محمد بن المَوَاز: لو أظهر المنافقون نفاقهم لقتلهم النبي ﷺ،
وقاله القاضي أبو الحسن بن القِصَار.

وقال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ سَأَلْتَهُنَّ فِي الْقُرْآنِ وَإِنْ يَسْأَلْكَ أَهْلُ الْقُرْآنِ فَاذْكُرْهُنَّ مِنْهُنَّ مَا كُنْتَ يَتْلُوَنَّهُ عَلَيْهِنَّ وَإِذَا أَقْرَبْتَهُنَّ مِنْهُنَّ مَا كُنْتَ يَتْلُوَنَّهُ عَلَيْهِنَّ وَإِذَا أَقْرَبْتَهُنَّ مِنْهُنَّ مَا كُنْتَ يَتْلُوَنَّهُ عَلَيْهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢].

قال: معناه إذا أظهروا النفاق.

وحكى محمد بن مسلمة في «المبسوط» عن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]. أنها نسخت ما كان قبلها.

وقال بعض مشايخنا: لعل القائل: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله. وقوله: - اغلظ - لم يفهم النبي ﷺ منه الطعن عليه، والتهمة له، وإنما رآها من وجه الغلط في الرأي، وأمور الدنيا، والاجتهاد في مصالح أهلها، فلم ير ذلك سباً، ورأى من الأذى الذي له العفو عنه، والصبر عليه، فلذلك لم يعاقبه. وكذلك يُقال في اليهود قالوا: السَّامُ عليك. ليس فيه صريح سب ولا دعاء إلا بما لا بُدَّ منه من الموت الذي لا بُدَّ من لحاقه جميع البشر.

وقيل: بل المراد: تَسَامُونَ دينكم. والسَّامُ والسَّامَةُ: المَلال. وهذا دعاء على سامة الدين ليس بصريح سب، ولهذا تَرَجَّم البخاري على هذا الحديث: «باب: إذا عَرَّضَ الدِّمِيُّ أو غَيْرُهُ بِسَبِّ النَّبِيِّ ﷺ». قال بعض علمائنا: وليس هذا بتعريض بالسب، وإنما هو تعريض بالأذى. قال القاضي أبو الفضل: قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الْأَذَى وَالسَّبَّ فِي حَقِّهِ - عليه السلام - سواء.

وقال القاضي أبو محمد بن نصر مُجِيباً عن هذا الحديث ببعض ما تقدّم، ثم قال: ولم يذكر في هذا الحديث: هل كان هذا اليهودي من أهل العهد والذمة أو الحرب؟

ولا يتركُ مُوجِبُ الأدلة للأمر المُحتمل. والأولى في ذلك كله والأظهر من هذه الوجوه مَقْصِدُ الاستتلافِ والمداواة على الدين لعلمهم يؤمنون.

ولهذا تَرَجَّم البخاري على حديث القسمة والخوارج: «باب: مَنْ تَرَكَ قِتَالَ

الخوارج للتألف ولثلا يَنْفِرَ النَّاسُ عَنْهُ»، وَلَمَّا ذَكَرْنَا مَعْنَاهُ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، وَقَرَرْنَاهُ قَبْلُ.

وقد صبر لهم عليه السلام على سِخْرِهِ وَسَمِّهِ، وهو أعظمُ مِنْ سَبِّهِ إِلَى أَنْ نَصَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَأَذِنَ لَهُ فِي قَتْلِ مَنْ حَيَّيْتُهُ مِنْهُمْ، وَإِنْزَالِهِمْ مِنْ صِيَاصِيهِمْ، وَقَذْفِ فِي قُلُوبِهِم الرُّغْبَ، وَكُتِبَ عَلَى مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ الْجَلَاءُ، وَأَخْرَجَهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، وَخَرَّبَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ.

١٧٨٥ - وَكَاشَفَهُم بِالسَّبِّ، فَقَالَ: «يَا إِخْوَةَ الْقِرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ».

وَحَكَّم فِيهِمْ سَيُوفَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَجْلَاهُمْ مِنْ جَوَارِهِمْ وَأَوْرَثَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، لِيَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا وَكَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى.

١٧٨٦ - فَإِنْ قُلْتُ: فَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ يُوْتَى إِلَيْهِ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لَهَا.

فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا لَا يَفْتَضِي أَنَّهُ لَمْ يَنْتَقِمَ مِنْ سَبِّهِ، أَوْ آذَاهُ، أَوْ كَذْبِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ مِنْ حُرْمَاتِ اللَّهِ الَّتِي انْتَقَمَ لَهَا، وَإِنَّمَا يَكُونُ مَا لَا يَنْتَقِمُ لَهُ فِيمَا تَعَلَّقَ بِسُوءِ أَدَبٍ، أَوْ مَعَامَلَةٍ، مِنَ الْقَوْلِ، وَالْفِعْلِ، بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ، مِمَّا لَمْ يَقْصِدْ فَاعِلُهُ بِهِ آذَاهُ، لَكِنْ مِمَّا جُعِلَتْ عَلَيْهِ الْأَعْرَابُ مِنَ الْجَفَاءِ، وَالْجَهْلِ، أَوْ جُبِلَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ مِنَ الْغَفْلَةِ.

١٧٨٧ - كَجَبْذِ الْأَعْرَابِيِّ بِإِزَارِهِ [البخاري (٥٨٠٩)، مسلم (١٠٥٧)] حَتَّى أَثَّرَ فِي عُنُقِهِ.

١٧٨٨ - وَكَرَفَعَ صَوْتَ الْآخِرِ عِنْدَهُ.

١٧٨٩ - وَكَجَحْدِ الْأَعْرَابِيِّ شِرَاءَهُ مِنْهُ قَرَسَهُ الَّتِي شَهِدَ فِيهَا حُزِيمَةً.

١٧٩٠ - وَلَمَّا كَانَ مِنْ تَظَاهُرِ رُؤُوسِهِ عَلَيْهِ [البخاري (٤٩١٤)، مسلم (١٤٧٩)]،

وَأَشْبَاهَ هَذَا مِمَّا يَخْسُنُ الصَّفْحُ عَنْهُ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا: إِنَّ أَذَى النَّبِيِّ ﷺ حَرَامٌ، لَا يَجُوزُ بِفِعْلِ مَبَاحٍ وَلَا غَيْرِهِ. وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ النَّاسِ فَيَجُوزُ بِفِعْلِ مَبَاحٍ مِمَّا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ فِعْلُهُ، وَإِنْ تَأَذَى بِهِ غَيْرُهُ. وَاحْتِجَّ بِعَمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

١٧٩١ - وَبِقَوْلِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي حَدِيثِ فَاطِمَةَ: «إِنِّهَا بَضْعَةٌ مِنِّي، يُؤْذِنِي مَا يُؤْذِيهَا، أَلَا وَإِنِّي لَا أَحْرَمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَلَكِنْ لَا تَجْتَمِعُ ابْنَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

وابنة عدو الله عند رجل أبداً» أو يكون هذا مما آذاه به كافرٌ وجاء بعد ذلك إسلامه، كعقوه عن اليهودي الذي سحره، وعن الأعرابي الذي أراد قتله، وعن اليهودية التي سمته، وقد قيل: قتلها.

ومثل هذا مما يبلغه من أذى أهل الكتاب والمنافقين، فصنع عنهم رجاء استلافهم واستتلاف غيرهم بهم كما قرزناه قبل، وبالله التوفيق.

فصل

فِي حُكْمِ مَنْ تَنَقَّصَ النَّبِيَّ ﷺ غَيْرَ قَاصِدٍ لِلسَّبِّ وَالْإِزْرَاءِ وَلَا مُعْتَقِدٍ لَهُ

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: تقدّم الكلام في قتل القاصد لسبه والإزراء به، وعَمَصِه بأي وجه كان من مُمكنٍ أو محالٍ، فهذا وجهٌ بين لا إشكال فيه.

والوجه الثاني: لاجئ به في البيان والجلء، وهو أن يكون القائل لما قال في جهته - عليه السلام - غير قاصد للسب والإزراء، ولا معتقد له ولكنه تكلم في جهته - عليه السلام - بكلمة الكفر: من لعنه، أو سبه، أو تكذبه، أو إضافة ما لا يجوز عليه إليه، أو نفى ما يجب له، مما هو في حقه عليه السلام نقيصة، مثل أن ينسب إليه إثبات كبيرة، أو مداينة في تبليغ الرسالة، أو في حكم بين الناس، أو يُقص من مرتبته، أو شرف نسيه، أو وفور علمه أو زهده، أو يكذب بما اشتهر من أمور أخبر بها - عليه السلام - وتواتر الخبر بها عنه، عن قصد لرد خبره، أو يأتي بسفه من القول، وقبيح من الكلام، ونوع من السب في جهته، وإن ظهر بدليل حاله أنه لم يعتمد دمه، ولم يقصد سبه، إمّا لجهالة حملته على ما قاله، أو لضجر أو سكر اضطره إليه، أو قلة مراقبة، وضبط للسانه، وعجرفة، وتهور في كلامه، فحكم هذا الوجه حكم الوجه الأول: القتل دون تلغثم، إذ لا يُعذر أحد في الكفر بالجهالة، ولا يدعوى زلل اللسان، ولا بشيء مما ذكرناه، إذ كان عقله في فطرته سليماً، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان.

وبهذا أفتى الأندلسيون على ابن حاتم في نفيه الزهد عن رسول الله ﷺ الذي قدمناه.

وقال محمد بن سحنون في المأثور يسب النبي ﷺ في أيدي العدو: يُقتل، إلا أن يُعلم تنصره أو إكراهه.

وعن أبي محمد بن أبي زيد: لا يُعَذَّرُ بِدَعْوَى زَلَلِ اللِّسَانِ فِي مِثْلِ هَذَا.
وَأَتَتْهُ أَبُو الْحَسَنِ الْقَاسِمِيُّ فِيمَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ فِي سُكْرِهِ: يُقْتَلُ، لِأَنَّهُ يُظَنُّ
بِهِ أَنَّهُ يَخْتَقِدُ هَذَا وَيَفْعَلُهُ فِي صُخْرِهِ.

وَأَيْضاً فَإِنَّهُ حَدٌّ لَا يُسْقِطُهُ السُّكْرُ، كَالْقَذْفِ، وَالْقَتْلِ، وَسَائِرِ الْحُدُودِ، لِأَنَّهُ
أَدْخَلَهُ عَلَى نَفْسِهِ، لِأَنَّهُ مِنْ شَرِبِ الْخَمْرِ عَلَى عِلْمٍ مِنْ زَوَالِ عَقْلِهِ بِهَا، وَإِثْنَانِ مَا
يُنْكَرُ مِنْهُ، فَهُوَ كَالْعَامِدِ لَمَّا يَكُونُ بِسَبِيهِ.

وَعَلَى هَذَا أَلْزَمْنَاهُ الطَّلَاقَ وَالْعِتَاقَ، وَالْقِصَاصَ وَالْحُدُودَ.

١٧٩٢ - وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَى هَذَا بِحَدِيثِ حَمْزَةَ، وَقَوْلِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ: وَهَلْ أَنْتُمْ
إِلَّا عَبِيدٌ لِأَبِي؟ [البخاري (٢٣٧٥)، مسلم (١٩٧٩)].

قَالَ: فَعَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ ثَمَلٌ فَانصَرَفَ وَتَرَكَهُ، لِأَنَّهُ الْخَمْرُ كَانَتْ حِينْتَهُ
غَيْرَ مُحَرَّمَةٍ، فَلَمْ يَكُنْ فِي جَنَائِهَا إِثْمٌ، وَكَانَ حُكْمُ مَا يَحْدُثُ عَنْهَا مَغْفُوراً عَنْهُ كَمَا
يَحْدُثُ مِنَ النُّوْمِ، وَشَرَبِ الدَّوَاءِ الْمَأْمُونِ.

فصل

فِي حُكْمِ مَنْ تَنَقَّصَ النَّبِيَّ ﷺ قَاصِداً لِذَلِكَ

الوجه الثالث: أَنَّ يَقْصِدَ إِلَى تَكْذِيبِهِ فِيمَا قَالَهُ وَأَتَى بِهِ، أَوْ يَنْفِي نَبَوَّتَهُ، أَوْ
رِسَالَتَهُ، أَوْ وُجُودَهُ، أَوْ يَكْفُرُ بِهِ، انْتَقَلَ بِقَوْلِهِ ذَلِكَ إِلَى دِينٍ آخَرَ غَيْرِ مِلَّتِهِ أَمْ لَا،
فَهَذَا كَافِرٌ بِإِجْمَاعٍ، يَجِبُ قَتْلُهُ، ثُمَّ يُنْظَرُ، فَإِنْ كَانَ مُصْرِحاً بِذَلِكَ كَانَ حُكْمُهُ أَشْبَهَ
بِحُكْمِ الْمُرْتَدِّ، وَقَوِيَ الْخِلَافُ فِي اسْتِثْنَائِهِ.

وَعَلَى الْقَوْلِ الْآخَرِ: لَا يَسْقِطُ الْقَتْلُ عِنْدَ تَوْبَتِهِ لِحَقِّ النَّبِيِّ ﷺ، إِنْ كَانَ
ذَكَرَهُ بِنَقِيصَةٍ فِيمَا قَالَهُ مِنْ كَذِبٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَإِنْ كَانَ مُسْتَتِراً بِذَلِكَ فَحُكْمُهُ حُكْمُ
الزَّنَادِقِ لَا تُسْقِطُ قَتْلُهُ التَّوْبَةُ عِنْدَنَا كَمَا سَنِيئُهُ.

قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ: مَنْ بَرِئَ مِنْ مُحَمَّدٍ، أَوْ كَذَّبَ بِهِ، فَهُوَ مُرْتَدٌّ
حَلَالُ الدِّمِّ إِلَّا إِنْ رَجَعَ.

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ فِي الْمُسْلِمِ إِذَا قَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا لَيْسَ بِنَبِيٍّ، أَوْ لَمْ يُرْسَلْ،
أَوْ لَمْ يُنْزَلْ عَلَيْهِ قُرْآنٌ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ تَقُولُهُ: يُقْتَلُ.

قَالَ: وَمَنْ كَفَرَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنْكَرَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُرْتَدِّ،
وَكَذَلِكَ مَنْ أَعْلَنَ بِتَكْذِيبِهِ، إِنَّهُ كَالْمُرْتَدِّ يُسْتَبَاطُ.

وَكَذَلِكَ قَالَ، فِيمَنْ تَنَبَّأَ وَزَعَمَ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ. وَقَالَ سُحُنُونُ.

قال ابن القاسم: دعا إلى ذلك سراً كان أو جَهْراً.
 قال أَصْبَغُ: وهو كالمُرْتَدِّ، لأنه قد كفر بكتاب الله مع الفِرْية على الله.
 قال أَشْهَبُ في يهودي تنبأ أو زعم أنه أُرْسِلَ إلى الناس أو قال: بعد نبيكم
 نبي: إنه يُسْتَتَاب إن كان مُعْلِناً بذلك، فإن تاب وإلا قُتِلَ.
 ١٧٩٣ - وذلك لأنه مكذَّب للنبي ﷺ في قوله: «لا نبي بعدي» [البخاري
 (٤٤١٦)، مسلم (٢٤٠٤)] مُفْتَرٍ على الله تعالى في دَعْوَاهُ عليه للرسالة والنبوة.
 وقال محمد بن سُخْنُون: مَنْ شَكَّ في حَرْفٍ مما جاء به محمد ﷺ عن الله
 فهو كافرٌ جاحدٌ.

وقال: مَنْ كَذَبَ النبي ﷺ كان حُكْمُهُ عند الأئمة القَتْلُ.
 وقال أحمد بن أبي سليمان صاحبُ سُخْنُون، مَنْ قال: إِنَّ النبي ﷺ أَسْوَدُ
 قَتِلَ، فإنه لم يكن - عليه السلام - بِأَسْوَدَ.
 وقال نحوه أبو عثمان الحَذَاد، قال: لو قال: إنه مات قَبْلَ أَنْ يَلْتَحِجِي، أو
 إنه كان بِتَاهَزَتْ ولم يكن بِتِهَامَةٍ قَتِلَ، لَأَنَّ هذا نَفْيٌ.
 قال حبيب بن ربيع: تَبْدِيلُ صِفَتِهِ وَمَوَاضِعِهِ كُفْرٌ، والمَظْهَرُ له كافرٌ، وفيه
 الاستتابة، والمُسِيرُ له زِنْدِيقٌ، يُقْتَلُ دُونَ اسْتِتَابَتِهِ.

فصل

فِي حُكْمِ مَنْ قَالَ كَلَاماً يَخْتَمِلُ السَّبَّ وَغَيْرَهُ

الْوَجْهُ الرَّابِعُ: أَنَّ يَأْتِي مِنَ الْكَلَامِ بِمُجْمَلٍ، وَيُلْفِظُ مِنَ الْقَوْلِ بِمُشْكَلٍ يُمْكِنُ
 حَمْلُهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَوْ غَيْرِهِ، أَوْ يَتَرَدَّدُ فِي الْمَرَادِ بِهِ مِنْ سَلَامَتِهِ مِنَ الْمَكْرُوهِ أَوْ
 شَرِّهِ، فَهَذَا هُنَا مُتَرَدِّدُ النَّظَرِ وَخَيْرُهُ الْغَيْرُ، وَمِطْلَقُهُ اخْتِلَافُ الْمُجْتَهِدِينَ، وَوَقْفُهُ اسْتِثْنَاءُ
 الْمُقْلَدِينَ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]
 فَمِنْهُمْ مَنْ غَلَبَ حُرْمَةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَحَمَى حِمَى عِزِّهِ، فَعَجَسَ عَلَى الْقَتْلِ، وَمِنْهُمْ
 مَنْ عَظَّمَ حُرْمَةَ الْقَتْلِ وَالدَّمِ، وَدَرَأَ الْحَدَّ بِالشُّبْهَةِ لِاحْتِمَالِ الْقَوْلِ.
 وَقَدْ اخْتَلَفَ أَئِمَّتُنَا فِي رَجُلٍ أَغْضَبَهُ غَرِيمُهُ، فَقَالَ لَهُ: صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ
 مُحَمَّدٍ، فَقَالَ لَهُ الطَّالِبُ: لَا صَلَّيْ اللَّهُ عَلَى مَنْ صَلَّيَ عَلَيْهِ، فَقِيلَ لِسُخْنُون: هَلْ
 هُوَ كَمَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ أَوْ شَتَمَ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: لَا، إِذَا كَانَ
 عَلَى مَا وَصَفَتْ مِنَ الْغَضَبِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُضْمِراً الشَّتْمَ.
 وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الْبَرْقِيُّ، وَأَصْبَغُ بْنُ الْفَرَجِ: لَا يُقْتَلُ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا شَتَمَ

الناس، وهذا نحو قول سُخْنُون، لأنه لم يغذره بالعَصَب في شتم النبي ﷺ، ولكنه لما احتمل الكلام عنده، ولم تكن معه قرينة تدل على شتم النبي ﷺ، أو شتم الملائكة صلوات الله عليهم، ولا مُقَدِّمَةٌ يُحْمَلُ عليها كلامه، بل القرينة تدل على أن مراده الناس غَيْرُ هؤلاء، لأجل قول الآخر له: صَلَّ على النبي محمد، فحمل قوله وسبه لمن يُصَلِّي عليه الآن لأجل أمر الآخر له بهذا عند غَضَبه. هذا معنى قول سُخْنُون، وهو مُطَابِقٌ لعلَّة صاحبيه.

وذهب الحارث بن مسكين القاضي وغيره في مثل هذا إلى القتل. وتوقف أبو الحسن القابسي في قتل رجل قال: كل صاحب فُنْدُقٍ قَرْنَانٌ، ولو كان نبيًّا مُرْسَلًا، فأمر بشده بالقيود والتضييق عليه حتى تُسْتَفْهَم البينة عن جملة ألفاظه، وما يدل على مقصده، هل أراد أصحاب الفنادق الآن؟ فمعلوم أنه ليس فيهم نبي مرسل، فيكون أمره أخف.

قال: ولكن ظاهر لفظه العموم لكل صاحب فُنْدُقٍ من المتقدمين والمتأخرين. وقد كان فيمن تقدّم من الأنبياء والرسل من اكتسب المال. قال: ودم المسلم لا يُقدَّم عليه إلا بأمر بين. وما تُردُّ إليه التأويلات لا بُدَّ من إمعان النظر فيه. هذا معنى كلامه.

وحكي عن أبي محمد بن أبي زيد رحمه الله - فيمن قال: لعن الله العرب، ولعن الله بني إسرائيل، ولعن الله بني آدم، وذكر أنه لم يرد الأنبياء، وإنما أردت الظالمين منهم، أن عليه الأدب بقدر اجتهاد السلطان.

وكذلك أفتى، فيمن قال: لعن الله من حرّم المُسْكِر، وقال: لم أعلم من حرّمه.

١٧٩٤ - وفيمن لعن حديث: «لا يبيع حاضر لباد» ولعن من جاء به، أنه إن كان يُعَذَّرُ بالجهل وعَدَم معرفة السُنن فعليه الأدب الوجيع، وذلك أن هذا لم يَقْصِدْ بظاهر حاله سب الله ولا سب رسوله، وإنما لعن من حرّمه من الناس على نحو فتوى سُخْنُون وأصحابه في المسألة المتقدمة.

ومثل هذا ما يجري في كلام سُفْهَاء الناس من قول بعضهم لبعض: يابن ألف خنزير! وابن مئة كلب! وشبهه من فُحْش القول.

ولا شك أنه يدخل في مثل هذا العدد من آبائه وأجداده جماعة من الأنبياء، ولعل بعض هذا العدد مُنْقَطِعٌ إلى آدم عليه السلام، فينبغي الزجر عنه، وتبيين ما جهل قائله منه، وشدة الأدب فيه.

ولو عَلِمَ أنه قصد سب من في آبائه من الأنبياء على علم لقتل.

وقد يضيق القول في نحو هذا لو قال لرجل هاشمي: لعن الله بني هاشم وقال: أردت الظالمين منهم، أو قال لرجل من ذرية النبي عليه السلام قولاً قبيحاً في آبائه، أو من نسله، أو ولده على علم منه أنه من ذرية النبي عليه السلام، ولم يكن قرينة في المسألتين تقتضي تخصيص بغض آبائه، وإخراج النبي عليه السلام ممن سبه منهم.

وقد رأيت لأبي موسى: - عيسى بن مناس - فيمن قال لرجل: لعنك الله إلى آدم عليه السلام... أنه إن ثبت ذلك عليه قُتل.

وقد كان اختلف شيوخنا فيمن قال لشاهد شهد عليه بشيء ثم قال له: أتتهمني؟ فقال له الآخر: الأنبياء يُتهمون، فكيف أنت؟! فكان شيخنا أبو إسحاق بن جعفر يرى قتله، لبساعة ظاهر اللفظ.

وكان القاضي أبو محمد بن منصور يتوقف عن القتل لاختمال اللفظ عنده أن يكون خبراً عمن اتهمهم من الكفار.

وأفتى فيها قاضي قرطبة أبو عبد الله بن الحاج بنحو هذا. وشدّد القاضي أبو محمد تضيّده، وأطال سجنه، ثم استخلفه بعد على تكذيب ما شهد به عليه، إذ دخل في شهادة بغض من شهد عليه وهن، ثم أطلقه. وشاهدت شيخنا القاضي أبا عبد الله: محمد بن عيسى أيام قضائه أتي برجل هاتر رجلاً اسمه محمد ثم قصّد إلى كلب، فضربه برجله، وقال له: قم يا محمد! فأنكر الرجل أن يكون قال ذلك، وشهد عليه لفيء من الناس، فأمر به إلى السجن، وتقصى عن حاله، وهل يصحب من يستراب بدينه من الناس، أم لا؟ فلما لم يجد ما يقوي الرية باعتقاده ضربه بالسوط وأطلقه.

فصل

في حكم من لم يقصد نقصاً، ولم يذكر عيياً ولا سباً. بل قال قولاً على مقصد الترفيع لنفسه، أو لغيره، أو على سبيل التمثيل وعدم التوقيف لنبيه، أو على قصد الهزل والتذير

الوجه الخامس: ألا يقصد نقصاً، ولا يذكر عيياً ولا سباً، لكنه ينزع بذكر بعض أوصافه، أو يستشهد ببعض أحواله ﷺ الجائزة عليه في الدنيا على طريق ضرب المثل، والحجة لنفسه أو لغيره، أو على التشبه به، أو عند

هَضِيمَةٌ نَالَتْهُ، أَوْ غَضَاضَةٌ لِحَقَّتْهُ، لَيْسَ عَلَى طَرِيقِ التَّأْسِي وَطَرِيقِ التَّحْقِيقِ، بَلْ عَلَى مَقْصِدِ التَّرْفِيعِ لِنَفْسِهِ أَوْ لْغَيْرِهِ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ وَعَدَمِ التَّوْقِيرِ لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ عَلَى قَصْدِ الْهَزْلِ وَالتَّنْذِيرِ بِقَوْلِهِ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ: إِنْ قِيلَ فِي السُّوءِ فَقَدْ قِيلَ فِي النَّبِيِّ، وَإِنْ كُذِّبَتْ فَقَدْ كُذِّبَ الْأَنْبِيَاءُ، أَوْ إِنْ أُذْنِبَتْ فَقَدْ أُذْنِبُوا، أَوْ أَنَا أَسْلَمْتُ مِنَ السَّنَةِ النَّاسِ وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْهُمْ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ وَرُسُلُهُ، أَوْ قَدْ صَبَرْتُ كَمَا صَبَرَ أَوْلَا الْعَزْمِ، أَوْ كَصَبْرِ أَيُوبَ، أَوْ قَدْ صَبَرَ نَبِيُّ اللَّهِ عَنْ عِدَائِهِ، وَحَلَمَ عَلَى أَكْثَرِ مَا صَبَرْتُ، وَكَقَوْلِ الْمُتَبَيِّ:

أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكَهَا اللَّـهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودٍ
وَنَحْوِهِ مِنْ أَشْعَارِ الْمُتَعَجَّرِينَ فِي الْقَوْلِ، الْمُتَسَاهِلِينَ فِي الْكَلَامِ، كَقَوْلِ الْمَعْرِيِّ:

كُنْتُ مُوسَى وَاقِفُهُ بَنْتُ شُعَيْبٍ غَيْرَ أَنْ لَيْسَ فَيْكُمَا مِنْ فَقِيرٍ
عَلَى أَنْ آخَرَ الْبَيْتِ شَدِيدٌ عِنْدَ تَدْبِيرِهِ، وَدَاخِلٌ فِي بَابِ الْإِزْرَاءِ وَالتَّحْقِيرِ بِالنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَفْضِيلِ حَالِ غَيْرِهِ عَلَيْهِ.
وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ أَيْضاً:

لَوْلَا انْقِطَاعُ الْوَحْيِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ قُلْنَا: مُحَمَّدٌ مِنْ أَبِيهِ بِدِيلٍ
هُوَ مِثْلُهُ فِي الْفَضْلِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَأْتِهِ بِرِسَالَةٍ جَبْرِيْلُ
فَصَدْرُ الْبَيْتِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْفَصْلِ شَدِيدٌ لِتَشْبِيهِهِ غَيْرَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي فَضْلِهِ بِالنَّبِيِّ، وَالْعَجْزُ مُحْتَمَلٌ لَوْجِهَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنَّ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ نَقَصَتِ الْمَدْحُوحُ، وَالْآخَرُ: اسْتِغْنَاؤُهُ عَنْهَا. وَهَذَا أَشَدُّ.
وَنَحْوُ مِنْهُ قَوْلُ الْآخَرِ:

وَإِذَا مَا رُفِعَتْ رَايَاؤُهُ صَفَّقْتُ بَيْنَ جَنَاحِي جَبْرِيْلَ
وَقَوْلُ الْآخَرِ مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ:

فَرُّ مِنَ الْخُلْدِ وَاسْتِجَارَ بِنَا فَصَبَّرَ اللَّهُ قَلْبَ رَضْوَانَ
وَكَقَوْلِ حَسَّانِ الْمَصْطِصِيِّ - مِنْ شُعْرَاءِ الْأَنْدَلُسِ - فِي مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ
الْمَعْرُوفِ بِالْمُعْتَمِدِ، وَوَزِيرِهِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ زَيْدُونَ:

كَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَبُو بَكْرٍ الرُّضَا وَحَسَّانَ حَسَّانُ وَأَنْتَ مُحَمَّدُ

إلى أمثال هذا وإنما كثُرنا بشاهدها مع استِثْقَالنا حكايتها لتعريف أمثلتها،
ولتساهل كثير من الناس في ولوج هذا الباب الضنك، واستخفافهم فادح هذا
العيب، وقلة علمهم بعظيم ما فيه من الوزر، وكلامهم منه بما ليس لهم به علم
﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]. لا سيما الشعراء. وأشدُّهم فيه
تصريحاً، ولللسان تسريحاً ابنُ هانئ الأندلسي، وابن سليمان المَعَرِّي، بل قد
خرج كثير من كلامهما إلى حد الاستخفاف والثقص وصريح الكفر.

وقد أجبنا عنه أولاً، وعَرَضْنَا الآن الكلام في هذا الفضل الذي سَفَتَا أمثلته،
فإن هذه كلها وإن لم تتضمَّن سباً، ولا أضافت إلى الملائكة والأنبياء نقصاً ولا
عيباً، ولست أعني عَجْزِي بِنَتِي المَعَرِّي، ولا قصد قائلها إزراءً وغَضاً، فما وُقِرَ
النبوة، ولا عَظُم الرسالة، ولا عَزَزَ حُزْمَةُ الاصطفاء، ولا عَزَزَ حُظُوةُ الكرامة،
حتى شبه مَنْ شَبَّهَ في كرامة نالها، أو مَعَرَّةٍ قَصَدَ الانتفاء منها، أو ضَرْبٍ مِثْلٍ
لتطبيب مجلسه، أو إغلاءٍ في وصفٍ لتحسين كلامه بمن عَظُمَ اللَّهُ خَطَره، وشَرَفَ
قَدْره، وألزم تَوْقِيره وِبره، ونَهَى عن جَهْرِ القولِ له، وزَفَعَ الصوتِ عنده.

فحقُّ هذا - إنْ دُرِيَ عنه القَتْلُ - الأدبُ والسُّجُنُ وقوةُ تَغْزِيره بِحَسَبِ شُنْعِهِ
مَقَاله، ومقتضى قُبْحِ ما نطق به، ومألوف عَادِيَه لِمِثْلِه، أو نُدُورِه، وقرينة كلامه،
أو نَدَمِه على ما سبق منه، ولم يَزَلِ المتقدمون يُنْكَرُون مِثْلَ هذا مِمَّنْ جَاءَ به،
وقد أنكر الرشيدُ على أَبِي نُوَاسِ قوله:

فإن يك باقي سِخْرِ فرعونَ فيكمُ فإن عصا موسى بِكَفِّ خَصِيبِ
وقال له: يا بْنَ اللَّخْنَاءِ، أنت المستهزئُ بعصا موسى عليه السلام! وأمر
بإخراجه عن عسكره من ليلته.

وذكر القُتَيْبِيُّ أَنَّ مِمَّا أَخَذَ عليه أيضاً، وكُفِّرَ فيه، أو قاربَ، قوله في محمد
الأمين وتشبيهه إياه بالنبي ﷺ حيث قال:

تَنَارَعَ الْأَحْمَدَانِ الشُّبْهَ فَاشْتَبَهَا خُلِقَا وَخُلِقَا كَمَا قُدَّ الشَّرَاكِيَانِ
وقد أنكروا عليه أيضاً قوله:

كَيفَ لَا يُذْنِيكَ مِنْ أَمَلٍ مَنْ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ نَفَرِهِ
لأنَّ حقَّ الرسول عليه السلام وموجب تعظيمه وإنافة منزلته أَنْ يُضَافَ إليه،
ولا يُضَاف.

فالحكم في أمثال هذا ما بسطناه في طريق الفتيا على هذا المنهج جاءت فتيا
إمام مذهبنا مالك بن أنس رحمه الله وأصحابه.

ففي «النوادر» - من رواية ابن أبي مريم عنه - في رجل عَيَّرَ رجلاً بالفقر،
فقال: تُعَيِّرُنِي بِالْفَقْرِ وَقَدْ رَعَى النَّبِيُّ ﷺ الْغَنَمَ؟ فقال مالك: قد عَرَضَ بِذِكْرِ
النَّبِيِّ ﷺ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَرَى أَنْ يُوَدَّبَ، قال: ولا ينبغي لأهل الذنوب إذا
عُوتِبُوا أَنْ يَقُولُوا: قد أَخْطَأَتِ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَنَا.

وقال عمر بن عبدالعزيز لرجل: انْظُرْ لَنَا كَاتِبًا يَكُونُ أَبُوهُ عَرَبِيًّا. فقال كاتب
له: قد كان أبو النبي كافراً، فقال: جعلت هذا مثلاً فعزله، وقال: لا يَكْتُبُ لِي
أبداً.

وقد كَرِهَ سُخْثُونَ أَنْ يَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ التَّعَجُّبِ إِلَّا عَلَى طَرِيقِ
الثَّوَابِ وَالْإِحْتِسَابِ، تَوْقِيراً لَهُ وَتَعْظِيماً، كَمَا أَمَرَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ.

وسُئِلَ - الْقَابِسِيُّ - عَنْ رَجُلٍ قَالَ لِرَجُلٍ قَبِيحٍ: كَأَنَّهُ وَجْهُ نَكِيرٍ، وَلِرَجُلٍ
عَبُوسٍ: كَأَنَّهُ وَجْهُ مَالِكِ الْغَضْبَانِ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَرَادَ بِهِذَا؟ وَنَكِيرٌ أَحَدُ فَتَاتِنِي
الْقَبْرِ، وَهُمَا مَلَكَانِ، فَمَا الَّذِي أَرَادَ؟ أَرُوْعُ دَخَلَ عَلَيْهِ حِينَ رَأَاهُ مِنْ وَجْهِهِ، أَمْ
عَافَ النَّظَرَ إِلَيْهِ لِدَمَامَةِ خَلْقِهِ؟ فَإِنْ كَانَ هَذَا فَهُوَ شَدِيدٌ، لِأَنَّهُ جَرَى مَجْرَى التَّحْقِيرِ
وَالْتَهْوِينِ، فَهُوَ أَشَدُّ عَقُوبَةً، وَلَيْسَ فِيهِ تَصْرِيحٌ بِالسَّبِّ لِلْمَلِكِ، وَإِنَّمَا السَّبُّ وَاقِعٌ
عَلَى الْمُخَاطَبِ. وَفِي الْأَدَبِ بِالسُّوْطِ وَالسَّجَنِ نَكَالٌ لِلْسَفَهَاءِ، قَالَ: وَأَمَّا ذَاكِرُ
مَالِكِ خَازِنِ النَّارِ فَقَدْ جَفَا الَّذِي ذَكَرَهُ عِنْدَمَا أَنْكَرَ حَالَهُ مِنْ عَبُوسٍ الْآخِرِ إِلَّا أَنْ
يَكُونَ الْمُعْبَسُ لَهُ يَدٌ فَيَزِيهُبُ بِعَبْسَتِهِ، فَيَشَبَّهُهُ الْقَاتِلُ بِمَالِكِ خَازِنِ النَّارِ عَلَى طَرِيقِ
الذَّمِّ لِهَذَا فِي فِعْلِهِ، وَلِزُومِهِ فِي ظُلْمِهِ صِفَةَ مَالِكِ، الْمَلِكِ الْمُطِيعِ لِرَبِّهِ فِي فِعْلِهِ،
فَيَقُولُ: كَأَنَّهُ لِلَّهِ يَغْضَبُ غَضَبَ مَالِكِ، فَيَكُونُ أَخْفَ، وَمَا كَانَ يَنْبَغِي لَهُ التَّعَرُّضُ
لِمِثْلِ هَذَا، وَلَوْ كَانَ أَتَى عَلَى الْعَبُوسِ بِعَبْسَتِهِ، وَاحْتَجَّ بِصِفَةِ مَالِكِ كَبَانَ أَشَدَّ،
فَيَعَاقَبُ الْمَعَاقِبَةَ الشَّدِيدَةَ، وَلَيْسَ فِي هَذَا ذَمٌّ لِلْمَلِكِ، وَلَوْ قَصِدَ دَمَهُ لَقُتِلَ.

وقال - أبو الحسن أيضاً - فِي شَابٍّ مَعْرُوفٍ بِالْخَيْرِ قَالَ لِرَجُلٍ شَيْئاً، فَقَالَ
لَهُ الرَّجُلُ: اسْكُتْ، فَإِنَّكَ أُمِّيٌّ. فَقَالَ الشَّابُّ: أَلَيْسَ قَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أُمِّيًّا فَشَتَعَ
عَلَيْهِ مَقَالَهُ، وَكَفَّرَهُ النَّاسُ، وَأَشْفَقَ الشَّابُّ مِمَّا قَالَ، وَأَظْهَرَ النَّدَمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ أَبُو
الْحَسَنِ: أَمَّا إِطْلَاقُ الْكُفْرِ عَلَيْهِ فَخَطَأٌ لَكِنَّهُ مَخْطِئٌ فِي اسْتِشْهَادِهِ بِصِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ،
وَكُونَ النَّبِيِّ أُمِّيًّا آيَةٌ لَهُ، وَكَوْنُ هَذَا أُمِّيًّا نَقِصَةٌ فِيهِ وَجَهَالَةٌ.

ومن جهالته احتجاجه بِصِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ، لَكِنَّهُ إِذَا اسْتَغْفَرَ وَتَابَ، وَاعْتَرَفَ

ولجأ إلى الله فيترك، لأنَّ قوله لا ينتهي إلى حدِّ القتل، وما طريقه الأدب فطوع فاعله بالندم عليه يوجب الكفَّ عنه.

ونزلت أيضاً مسألة استفتى فيها بعض قضاة الأندلس شيخنا القاضي أبا محمد بن منصور رحمه الله في رجل تنقَّضه آخرُ بشيء، فقال له: إنما تُريدُ نَقْصِي بقولك، وأنا بَشَرٌ، وجميعُ البَشَرِ يُلْحَقُهُم النِّقْصُ حتى النبي ﷺ، فافتأه بإطالة سجنه، وإيجاع أدبه، إذ لم يقصد السَّبَّ، وكان بعضُ فقهاء الأندلس أفتى بقتله.

فصل

في حُكْمِ الْقَائِلِ وَالْحَاكِي لِهَذَا الْكَلَامِ عَنْ غَيْرِهِ

الوجه السادس: أن يقول القائل ذلك حاكياً عن غيره، وأثراً له عن سواه، فهذا يُنْظَرُ في صورة حكايته وقرينة مقالته، ويختلف الحُكْمُ باختلاف ذلك على أربعة وجوه: الوجوب، والندب، والكراهة، والتحريم، فإن كان أخبر به على وجه الشهادة والتعريف بقائله، والإنكار والإعلام بقوله، والتنفير منه، والتجريح له، فهذا مما يَنْبَغِي امتثاله، ويُحْمَدُ فاعله، وكذلك إن حكاه في كتاب أو في مجلس على طريق الرد له والنقض على قائله، وألْقِيَا بما يلزمه.

وهذا منه ما يجب، ومنه ما يستحب بحسب حالات الحاكي لذلك والمحكي عنه، فإن كان القائل لذلك ممن تصدَّى لأن يؤخذ عنه العلم، أو رواية الحديث، أو يُقْطَعُ بِحُكْمِهِ أو بشهادته، أو فُتِّيَاهُ في الحقوق، وجب على سامعه الإشادة بما سمع منه والتنفير للناس عنه، والشهادة عليه بما قاله، ووجب على مَنْ بَلَغَهُ ذلك من أئمة المسلمين إنكاره، وبيان كُفْرِهِ، وفساد قَوْلِهِ، لِقْطَعِ ضَرَرِهِ عن المسلمين، وقياماً بحق سيِّد المرسلين، وكذلك إن كان ممن يَعِظُ الْعَامَّةَ، أو يودَّبُ الصبيان، فإنَّ مَنْ هذه سريرته لا يُؤْمَنُ على إلقاء ذلك في قلوبهم، فيتأكد في هؤلاء الإيجاب لحق النبي ﷺ، ولحق شريعته.

وإن لم يكن القائل بهذه السبيل فالقيام بحق النبي ﷺ واجب، وحماية عرضه مُتَعَيِّن، ونُضْرَتُهُ عن الأدنى، حياً وميتاً، مستحق على كل مؤمن، لكنه إذا قام بهذا مَنْ ظهر به الحق، وفُصِّلَتْ به القضية، وبانَّ به الأمر، سقط عن الباقي الفرض، وبقي الاستحباب في تكثير الشهادة عليه وعَضْدِ التحذير منه.

وقد أجمع السلف على بيان حال المتهم في الحديث، فكيف بمثل هذا؟

وقد سُئِلَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي زَيْدٍ عَنِ الشَّاهِدِ يَسْمَعُ مِثْلَ هَذَا فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى يَسْعُهُ أَلَّا يُؤَدِّيَ شَهَادَتَهُ؟ قَالَ: إِنْ رَجَا نَفَازَ الْحُكْمِ بِشَهَادَتِهِ فَلْيَشْهَدْ. وَكَذَلِكَ إِنْ عَلِمَ أَنَّ الْحَاكِمَ لَا يَرَى الْقَتْلَ بِمَا شَهِدَ بِهِ، وَيَرَى الْإِسْتِثْنَاءَ وَالْأَدَبَ فَلْيَشْهَدْ، وَيَلْزِمُهُ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الْإِيَابَةُ لِحِكَايَةِ قَوْلِهِ لَغَيْرِ هَذَيْنِ الْمُقْصِدَيْنِ، فَلَا أَرَى لَهَا مَذْخَلًا فِي هَذَا الْبَابِ، فَلَيْسَ التَّفَكُّهُ بِعَرَضِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالتَّمَضُّضُ بِسَوْءِ ذِكْرِهِ لِأَحَدٍ لَا ذَاكِرًا وَلَا أَثِيرًا لَغَيْرِ غَرَضٍ شَرْعِي بِمُبَاحٍ.

وَأَمَّا لِلْأَغْرَاضِ الْمُتَقَدِّمَةِ فَمُتَرَدِّدٌ بَيْنَ الْإِيجَابِ وَالْإِسْتِحْبَابِ.

وَقَدْ حَكَى اللَّهُ تَعَالَى مَقَالَاتِ الْمُفْتَرِّينَ عَلَيْهِ، وَعَلَى رُسُلِهِ، فِي كِتَابِهِ عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ لِقَوْلِهِمْ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ كُفْرِهِمْ، وَالْوَعِيدِ عَلَيْهِ، وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ بِمَا تَلَاَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ.

وَكَذَلِكَ وَقَعَ مِنْ أَمْثَالِهِ فِي أَحَادِيثِ النَّبِيِّ ﷺ الصَّحِيحَةِ عَلَى الْوُجُوهِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَأَجْمَعَ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ مِنْ أَتَمَّةِ الْهُدَى عَلَى حِكَايَاتِ مَقَالَاتِ الْكُفْرَةِ وَالْمُلْجِدِينَ فِي كُتُبِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ لِيُبَيِّنُوا لِلنَّاسِ، وَيَنْقُضُوا شُبُهَاتَهُمْ عَلَيْهِمْ. وَإِنْ كَانَ وَرَدَ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ إِنْكَارٌ لِبَعْضِ هَذَا عَلَى الْحَارِثِ بْنِ أَسَدٍ، فَقَدْ صَنَعَ أَحْمَدُ مِثْلَهُ فِي رَدِّهِ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ وَالْقَائِلِينَ بِالْمَخْلُوقِ.

هَذِهِ الْوُجُوهُ السَّائِغَةُ الْحِكَايَةُ عَنْهَا، فَأَمَّا مَنْ ذَكَرَهَا عَلَى غَيْرِ هَذَا: مِنْ حِكَايَةِ سَبِّهِ وَالْإِزْرَاءِ بِمَنْصِبِهِ عَلَى وَجْهِ الْحِكَايَاتِ، وَالْأَسْمَارِ، وَالطَّرْفِ، وَأَحَادِيثِ النَّاسِ، وَمَقَالَاتِهِمْ فِي الْعُتْ وَالسَّمِينِ، وَمُضَاحِكِ الْمُجَانِّ، وَنَوَادِرِ السُّفَهَاءِ، وَالْخَوْضِ فِي قِيلٍ وَقَالَ، - وَمَا لَا يَغْنِي - فَكُلُّ هَذَا مَمْنُوعٌ، وَبَعْضُهُ أَشَدُّ فِي الْمَنْعِ وَالْعُقُوبَةِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَا كَانَ مِنْ قَائِلِهِ الْحَاكِي لَهُ عَلَى غَيْرِ قَضْدٍ أَوْ مَعْرِفَةٍ بِمَقْدَارِ مَا حَكَاهُ، أَوْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَادَتَهُ، أَوْ لَمْ يَكُنْ الْكَلَامُ مِنَ الْبَشَاعَةِ حَيْثُ هُوَ، وَلَمْ يَظْهَرْ عَلَى حَاكِيهِ اسْتِحْسَانُهُ وَاسْتِضَاوَابُهُ، رُجِرَ عَنْ ذَلِكَ، وَنُهِيَ عَنِ الْعُودَةِ إِلَيْهِ، وَإِنْ قُومَ بِبَعْضِ الْأَدَبِ فَهُوَ مُسْتَوْجِبٌ لَهُ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُهُ مِنَ الْبَشَاعَةِ حَيْثُ هُوَ كَانَ الْأَدَبُ أَشَدَّ.

وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ مَالِكًا عَنْ يَقُولِ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ. فَقَالَ مَالِكٌ: كَافِرٌ فَاقْتُلُوهُ. فَقَالَ: إِنَّمَا حَكَيْتُهُ عَنْ غَيْرِي. فَقَالَ مَالِكٌ: إِنَّمَا سَمِعْنَاهُ مِنْكَ.

وَهَذَا مِنْ مَالِكٍ عَلَى طَرِيقِ الزُّجْرِ وَالتَّغْلِيظِ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ لَمْ يَنْقُذْ قَتْلَهُ.

وَإِنْ أَتَاهُمْ هَذَا الْحَاكِي فِيمَا حَكَاهُ أَنَّهُ اخْتَلَقَهُ، وَنَسَبَهُ إِلَى غَيْرِهِ، أَوْ كَانَتْ

تلك عادة له، أو ظهر استخسائه لذلك، أو كان مولعاً بمثله، والاستخفاف له، أو التحفظ لمثله، وطلبه، ورواية أشعار هجوه عليه السلام، وسبه، فحكم هذا حكم الساب نفسه، يؤاخذ بقوله، ولا ينفعه نسبته إلى غيره، فيبادر بقتله، ويعجل إلى الهاوية أمه.

وقد قال أبو عبيد: القاسم بن سلام - فيمن حفظ شطر بيت مما هجى به النبي ﷺ: فهو كافر.

وقد ذكر بعض من ألف في الإجماع إجماع المسلمين على تحريم رواية ما هجى به النبي عليه السلام، وكتابتة وقراءته، وتزكته متى وجد دون مخو. وزجم الله أسلافنا المتقين المتحرزين لدينهم، فقد أسقطوا من أحاديث المغازي والسير ما كان هذا سبيله، وتركوا روايته إلا أشياء ذكروها يسيرة وغير مستبشرة، على نحو الوجوه الأول، ليروا نعمة الله من قائلها، وأخذ المفتري عليه بذنبه.

وهذا أبو عبيد: القاسم بن سلام - رحمه الله - قد تحرى مما اضطر إلى الاستشهاد به من أهاجي أشعار العرب في كتبه، فكئى عن اسم المهجو بوزن اسمه، استبراء لدينه، وتحفظاً من المشاركة في ذم أحد بروايته أو نشره، فكيف بمن يتطرق إلى عرض سيد البشر والمرسلين ﷺ؟!

فصل

في حكم ذكر ما يجوز على النبي ﷺ، أو يختلف في جوازه عليه، على طريق المذاكرة والتعليم

الوجه السابع: أن يذكر ما يجوز على النبي ﷺ، أو يختلف في جوازه عليه، وما يطرأ من الأمور البشرية به ويمكن إضافتها إليه، أو يذكر بعض ما امتحن به، وصبر في ذات الله عليه وعلى شدته من مقاساة أعدائه، وأذاهم له، ومعرفة ابتداء حاله وسيرته، وما لقيه من بؤس زمته، ومر عليه من معاناة عيشته، كل ذلك على طريق الرواية، ومذاكرة العلم، ومعرفة ما صححت منه العصمة للأنبياء - وما يجوز عليهم - فهذا فن خارج عن هذه الفنون الستة، إذ ليس فيه غمض ولا نقص، ولا إزراء ولا استخفاف، لا في ظاهر اللفظ، ولا في مقصد الالفاظ، لكن يجب أن يكون الكلام فيه مع أهل العلم وفهماء طلبة الدين ممن يفهم مقاصده. ويحققون قوائده، ويجنب ذلك من عساه لا يفقه، أو يخشى به فتنته، فقد كره بعض السلف تعليم النساء سورة يوسف - عليه السلام - لما

انطوت عليه من تلك القصص لضغف معرفتهن، ونقص عقولهن وإدراكهن.

١٧٩٥ - فقد قال - عليه السلام - مخبراً عن نفسه باستجاره لرعاية الغنم في ابتداء حاله، وقال: «ما من نبي إلا وقد رعى الغنم» [البخاري (٢٢٦٢)، (٣٤٠٦)، مسلم (٢٠٥٠)].

وأخبرنا الله تعالى بذلك عن موسى عليه السلام، وهذا لا غضاضة فيه جملة واحدة لمن ذكره على وجهه، بخلاف من قصد به الغضاضة والتحقير، بل كانت عادة جميع العرب.

نعم، في ذلك للأنبياء حكمة بالغة، وتدريب لله تعالى لهم إلى كرامته، وتدريب برعاتها لسياسة أمهم من خليقته بما سبق لهم من الكرامة في الأزل، ومتقدم العلم.

وكذلك قد ذكر الله يثمه - عليه السلام - وعيّلته على طريق المنة عليه، والتعريف بكرامته له، فذكر الذاكِر لها على وجه تغريف حاله، والخبر عن مبتدئه، والتعجب من منح الله قبّله، وعظيم مئته عنده ليس فيه غضاضة، بل فيه دلالة على نبوته وصحة دعوته، إذ أظهره الله تعالى بعد هذا على صناديد العرب، ومن ناوَاه من أشرافهم، شيئاً فشيئاً، وتَمَّ أمره حتى قهرهم، وتمكّن من ملك مقاليدهم، واستباحة ممالك كثير من الأمم غيرهم، بإظهار الله تعالى له، وتأييده بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم، وإمداده بالملائكة المسؤولين، ولو كان - عليه السلام - ابن ملك أو ذا أشياخ متقدمين لحسب كثير من الجهال أن ذلك موجب ظهوره، ومقتضى علوه.

١٧٩٦ - ولهذا قال هرقل - حين سأل أبا سفيان عنه :-

هل في آبائه من ملك؟ فقال: لا ثم قال: فلو كان في آبائه ملك لقلنا: رجل يطلب ملك أبيه، وإذ اليتيم من صفته وإحدى علاماته في الكتب المتقدمة وأخبار الأمم السالفة.

وكذا وقع ذكره - عليه السلام - في كتاب أزمينا، وبهذا وصفه ابن ذي يزن لعبد المطلب، وبجيرا لأبي طالب.

وكذلك إذا وُصف بأنه أمي كما - وصفه الله تعالى به - فهي مِدحة له وفضيلة ثابتة فيه، وقاعدة مُعجزته، إذ مُعجزته العظمى من القرآن العظيم إنما هي متعلقة بطريق المعارف والعلوم، مع ما مُنح به ﷺ، وفُضِّل به من ذلك، كما قدّمناه في القسم الأول.

ووجودٌ مثْلُ ذلك في رَجُلٍ، لم يقرأ، ولم يكتب، ولم يُدَارِسْ، ولا لَقِّنْ، مُقتضى العَجَبِ، ومُنْتَهَى العَبَرِ، ومعجزةُ البشرِ.

وليس في ذلك نَقِصَةٌ، إذ المطلوبُ من الكتابة والقراءة المعرفة، وإنما هي آلة لها، وواسطة موصلة إليها، غَيْرُ مُرادَةٍ في نفسها فإذا حصلت الثمرة والمطلوب استغني عن الوسطة والسبب.

والأُمِّيَّةُ في غيره نَقِصَةٌ، لأنها سببُ الجهالة، وعُتُوانُ العَبَاوَةِ، فسبحانَ مَنْ بَيَّنَّ أَمْرَهُ من أمر غيره، وجعل شرفه فيما فيه مَحْطَةٌ من سِوَاهُ، وجَعَلَ حياته فيما فيه هلاكٌ من عَدَاهُ، هذا شَقُّ قَلْبِهِ، وإخراجُ حُشْوَتِهِ، كان تمامَ حياته، وغايةَ قُوَّةِ نَفْسِهِ، وثباتَ رُوعِهِ، وهو فيمن سِوَاهُ مُنْتَهَى هَلَاكِهِ، وَحَتَمَ مَوْتِهِ وَفَنَائِهِ، وهَلُمَّ جَزْأً، إلى سائر ما رُوِيَ له من أخباره وسِيَرِهِ، وتقلُّله من الدنيا، ومن الملبس، والمَطْعَمِ، والمَرْكَبِ، وتواضعه ومَهْنَتِهِ نَفْسَهُ في أمورِهِ، وَخِدْمَةِ بَيْتِهِ زُهْدًا، ورغبةً عن الدنيا، وتسويةً بين حَقِيرِهَا وَخَطِيرِهَا، لسرعةِ فناءِ أمورِهَا، وتقلُّبِ أحوالِهَا، كُلُّ هَذَا من فضائله ومآثِرِهِ وَشَرَفِهِ كما ذكرنا، فمن أورد شيئاً منها مُؤَرِّدَهُ، أو قَصَدَ بها مَقْصِدَهُ كان حسناً، وَمَنْ أورد ذلك على غير وَجْهِهِ، وَعَلِمَ منه بذلك سوءَ قَصْدِهِ لَحِقَ بالفصول التي قدمناها.

وكذلك ما وردَ من أخبارِهِ وأخبارِ سائر الأنبياء - عليهم السلام - في الأحاديث مما في ظاهِرِهِ إشكالٌ يقتضي أموراً لا تَلِيْقُ بهم بحالٍ، وتحتاج إلى تأويلٍ، وتَرَدُّدٍ احتمالٍ، فلا يجبُ أَنْ يُتَحَدَّثَ منها إلا بالصحيح، ولا يُزَوَّى منها إلا المعلومُ الثابت.

فَرَجَمَ اللَّهُ مالِكاً، فلقد كَرِهَ التَّحَدُّثُ بمثل ذلك من الأحاديث الموهمة للتشبيه والمشكلة المعنى، وقال: ما يَدْعُو الناسَ إلى التَّحَدُّثِ بمثل هذا؟ فقل له: إِنَّ ابْنَ عَجْلَانَ يَحَدِّثُ بها، فقال: لم يكن من الفُحَّهَاءِ، وليت الناسَ وافقوه على تَرْكِ الحديثِ بها، وساعدوه على طَيِّبِهَا، فَإِنَّ أَكْثَرَهَا ليس تحته عَمَلٌ.

وقد حُكِيَ عن جماعةٍ من السَّلَفِ، بل عنهم على الجملة، أَنَّهُمْ كانوا يكرهون الكلامَ فيما ليس تحته عَمَلٌ، - والنبي ﷺ - أوردوا على قوم عَرَبٍ يفهمون كلامَ العَرَبِ على وَجْهِهِ، وتصرفاتهم في حقيقته وَمَجَازِهِ، واستعارته وبليغته وإيجازِهِ، فلم تُكُنْ في حَقِّهِمْ مشكلةٌ، ثم جاء مَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الْعُجْمَةُ، ودَاخَلَتْهُ الأُمِّيَّةُ، فلا يكاد يفهمُ مِنْ مقاصدِ العرب إلا نَصَّها وَصَرَّيْحَها، ولا يتحقق بإشاراتها إلى غَرَضِ الإيجازِ، وَوَحْيِها وتبليغها، وتلويحها دون تصريحها، ففارقوا

في تأويلها أو حملها على ظاهرها شذّر مدّر، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر. فأما ما لا يصح من هذه الأحاديث، فواجب ألا يذكر منها شيء في حق الله سبحانه ولا في حق أنبيائه، ولا يتحدث بها، ولا يتكلف الكلام على معانيها. والصواب - والله أعلم - طرؤها، وترك الاشتغال بها إلا أن تذكر على وجه التعريف بأنها ضعيفة المقادير، واهية الإسناد.

وقد أنكر الأشياخ - رحمهم الله - على أبي بكر بن فورك تكلفه في «مشكله» الكلام على أحاديث ضعيفة موضوعية لا أصل لها، أو منقولة عن أهل الكتاب الذين يلبسون الحق بالباطل كان يكفيه طرؤها، ويغنيه عن الكلام عليها التنبه على ضعفها، إذ المقصود بالكلام على مشكل ما فيه إزالة اللبس بها. واحتثائها من أصلها، وطرؤها، أكشف للبس وأشفى للنفس.

فصل

في الأدب اللازم عند ذكر أخباره ﷺ

ومما يجب على المتكلم فيما يجوز على النبي - عليه السلام - وما لا يجوز، والذاكر من حالاته ما قدمناه في الفصل قبل هذا على طريق المذاكرة والتعليم أن يلتزم في كلامه عند ذكره عليه السلام، وذكر تلك الأحوال الواجب من توقيره وتعظيمه، ويراقب حال لسانه، ولا يهمله، وتظهر عليه علامات الأدب عند ذكره، فإذا ذكر ما قاساة من الشدائد ظهر عليه الإشفاق والارتماض، والغنىظ على عدوه، ومودة الفداء للنبي ﷺ لو قدر عليه، والتضرع له لو أمكنه.

وإذا أخذ في أبواب العصمة، وتكلم على مجاري أعماله وأقواله - عليه السلام - تحرى أحسن اللفظ، وأدب العبارة على ما أمكنه، واجتنب بشيع ذلك، وهجر من العبارة ما يفتح، كلفظة الجهل والكذب والمعصية، فإذا تكلم في الأقوال قال: هل يجوز عليه الخلف في القول والإخبار بخلاف ما وقع سهواً أو غلطاً؟ أو نحوه من العبارة، ويتجنب لفظة الكذب جملة واحدة.

وإذا تكلم على العلم قال: هل يجوز ألا يعلم إلا ما علم؟ وهل يمكن ألا يكون عنده علم من بعض الأشياء حتى يوحى إليه؟ ولا يقول: يجهل، لقبح اللفظ وبشاعته.

وإذا تكلم في الأفعال قال: هل تجوز منه المخالفة في بعض الأوامر والنواهي ومواقعة بعض الصغائر؟ فهو أولى وأدب من قوله: هل يجوز أن

يَغْصِي، أَوْ يُذَيَّبُ أَوْ يَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا، مِنْ أَنْوَاعِ الْمَعَاصِي؟ فَهَذَا مِنْ حَقِّ تَوْقِيرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا يَجِبُ لَهُ مِنْ تَغْزِيرٍ وَإِعْظَامٍ.

وَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ لَمْ يَتَحَفَّظْ مِنْ هَذَا، فَقُبِّحَ مِنْهُ، وَلَمْ أُسْتَضَوِّبْ عِبَارَتَهُ فِيهِ.

وَوَجَدْتُ بَعْضَ الْحَاضِرِينَ قَوْلَهُ لِأَجْلِ تَرْكِ تَحْفُظِهِ فِي الْعِبَارَةِ، مَا لَمْ يَقُلْهُ، وَشَتَّ عَلَيْهِ بِمَا يَأْبَاهُ، وَيُكَفِّرُ قَائِلُهُ.

وَإِذَا كَانَ مِثْلُ هَذَا بَيْنَ النَّاسِ مُسْتَعْمَلًا فِي آدَابِهِمْ، وَحُسْنِ مُعَاشَرَتِهِمْ، وَخِطَابِهِمْ، فَاسْتَعْمَالُهُ فِي حَقِّهِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - أَوْجِبُ، وَالتَّزَامُهُ أَكْدُ.

فَجُودَةُ الْعِبَارَةِ تُقْبِحُ الشَّيْءَ أَوْ تُحَسِّنُهُ، وَتَحْرِيرُهَا وَتَهْذِيبُهَا تُعْظِمُ الْأَمْرَ أَوْ تَهَوِّنُهُ.

١٧٩٧ - وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِخْرًا» [البخاري (٥٧٦٧)، مسلم (٨٦٩)].

فَإِنَّمَا مَا أُرَدُّهُ عَلَى جِهَةِ النَّفْيِ عَنْهُ وَالتَّزْيِيهِ لَهُ، فَلَا خَرَجَ فِي تَسْرِيحِ الْعِبَارَةِ، وَتَصْرِيحِهَا فِيهِ، كَقَوْلِهِ: لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْكَذِبُ جُمْلَةً، وَلَا إِتْيَانُ الْكِبَائِرِ بَوَاجِهِ، وَلَا الْجَوْرُ فِي الْحُكْمِ عَلَى حَالٍ، وَلَكِنْ مَعَ هَذَا يَجِبُ ظُهُورُ تَوْقِيرِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَتَغْزِيرِهِ عِنْدَ ذِكْرِهِ مُجَرَّدًا، فَكَيْفَ عِنْدَ ذِكْرِ مِثْلِ هَذَا؟!

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ تَظَهَّرَ عَلَيْهِمْ حَالَاتٌ شَدِيدَةٌ عِنْدَ مُجَرَّدِ ذِكْرِهِ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي.

وَقَدْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَلْتَزِمُ مِثْلَ ذَلِكَ عِنْدَ تِلَاوَةِ آيٍ مِنَ الْقُرْآنِ، حَكَى اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا مَقَالَ عِدَاةٍ، وَمَنْ كَفَرَ بِآيَاتِهِ، وَافْتَرَى عَلَيْهِ الْكَذِبَ، فَكَانَ يَخْفِضُ بِهَا صَوْتَهُ إِعْظَامًا لِرَبِّهِ، وَإِجْلَالًا لَهُ، وَإِشْفَاقًا مِنَ التَّشْبِهِ بِمَنْ كَفَرَ بِهِ.



الباب الثاني

في حُكْم سَابِهِ وَشَانِيهِ وَمَتَنَّقَصِهِ وَمُؤْذِيهِ وَعُقُوبَتِهِ
وَذِكْرِ اسْتِنَابَتِهِ وَوَرَاثَتِهِ

قال القاضي - رحمه الله -: قد قدمنا ما هو سبٌّ وأذى في حقِّه عليه السلام، وذكرنا إجماع العلماء على قتلِّ فاعلِ ذلك وقائِلِه، أو تخيير الإمام في قتلِه أو صلبه على ما ذكرناه، وقَرَرنا الحُجَجَ عليه.

وبعد: فاعلم أنَّ مشهورَ مذهبِ مالك وأصحابه، وقولِ السلفِ وجمهورِ العلماء قتلُه حدًّا لا كُفْرًا إنَّ أظهرَ التوبةِ منه، ولهذا لا تُقبلُ عندهم توبته، ولا تنفعُه استقالته، ولا فيئُتُه كما قدمناه قَبْلُ، وحُكْمُه حُكْمُ الزَّانِيقِ، ومُسرُّ الكُفْرِ في هذا القول، وسواء كانت توبته على هذا بعد القُدْرَةِ عليه والشهادة على قوله، أو جاء تائبًا مِنْ قَبْلِ نَفْسِه، لأنه حدٌّ وجب، لا تُسْقِطُه التوبةُ كسائر الحدود.

قال الشيخ أبو الحسن القابسي رحمه الله: إذا أقرَّ بالسبِّ، وتاب مِنْهُ، وأظهرَ التوبةَ قُتِلَ بالسَّبِّ، لأنه هو حدُّه.

وقال أبو محمد بن أبي زَيْدٍ في مثله: وأما ما بَيْنَه وَبَيْنَ اللَّهِ فتوبته تنفعُه.

وقال ابنُ سَخُونٍ: مَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ من الموحِّدين، ثم تاب عن ذلك لم تُرَلْ توبتهُ عنه القَتْلُ.

وكذلك قد اختلف في الزنديق إذا جاء تائبًا، فحكى القاضي أبو الحسن بن القصار في ذلك قولين:

قال: من شيوخنا من قال: أقتله بإقراره، لأنَّه كان يَقْدِرُ على سِتْرِ نَفْسِه، فلما اعترف خِفْنَا أَنَّهُ خَشِيَ الظهورَ عليه فبادرَ لذلك.

ومنهم من قال: أَقْبَلُ تَوْبَتَهُ، لَأَنِّي أَسْتَدِلُّ عَلَى صِحَّتِهَا بِمَجِيئِهِ، فَكَأَنَّا وَقَفْنَا عَلَى بَاطِنِهِ، بِخِلَافِ مَنْ أَسْرَتُهُ الْبَيِّنَةُ.

قال القاضي أبو الفضل - رحمه الله -: وهذا قول أَضْبَغَ، ومَسْأَلَةُ سَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَقْوَى، لَأَنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ فِيهَا الْخِلَافُ عَلَى الْأَصْلِ الْمَتَقَدِّمِ، لَأَنَّهُ حَقٌّ مُتَعَلِّقٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلَا مَتَّهِ بِسَبِّهِ، لَا تَسْقُطُهُ التَّوْبَةُ كَسَائِرِ حُقُوقِ الْآدَمِيِّينَ. والزُّنْدِيقُ إِذَا تَابَ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ فَعِنْدَ مَالِكٍ، وَاللَّيْثِ، وَإِسْحَاقَ، وَأَحْمَدَ، لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ.

وعند الشافعي تُقْبَلُ.

واختلف فيه عن أبي حنيفة وأبي يوسف.

وحكى ابن المنذر، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يُسْتَتَابُ. قال محمد بن سَخْنُون: وَلَمْ يَزَلِ الْقَتْلُ عَنِ الْمُسْلِمِ بِالتَّوْبَةِ مِنْ سَبِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَأَنَّهُ لَمْ يَنْتَقِلْ مِنْ دِينٍ إِلَى دِينٍ غَيْرِهِ، وَإِنَّمَا فَعَلَ شَيْئاً حَدَّهُ عِنْدَنَا الْقَتْلُ، لَا عَفْوٌ فِيهِ لِأَحَدٍ، كَالزُّنْدِيقِ، لَأَنَّهُ لَمْ يَنْتَقِلْ مِنْ ظَاهِرٍ إِلَى ظَاهِرٍ.

وقال القاضي - أبو محمد بن نصر - مُخْتَجاً لِسُقُوطِ اعْتِبَارِ تَوْبَتِهِ: وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى مَشْهُورِ الْقَوْلِ بِاسْتِثَابَتِهِ أَنَّ النَّبِيَّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَشَرٌ، وَالْبَشَرُ جَنْسٌ تَلْحَقُهُمُ الْمَعْرَةُ إِلَّا مَنْ أَكْرَمَ اللَّهُ بِنَبَوْتِهِ تَعَالَى، وَالْبَارِئُ جَلْ جَلَالِهِ مُنَزَّهٌ عَنِ جَمِيعِ الْمَعَائِبِ قَطْعاً، وَلَيْسَ مِنْ جَنْسٍ مَنْ تَلْحَقُ الْمَعْرَةُ بِجَنْسِهِ، وَلَيْسَ سَبُّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَالْإِرْتِدَادِ الْمَقْبُولِ فِيهِ التَّوْبَةُ، لِأَنَّ الْإِرْتِدَادَ مَعْنَى يَنْفَرِدُ بِهِ الْمُرْتَدُّ لَا حَقَّ فِيهِ لَغَيْرِهِ مِنَ الْآدَمِيِّينَ، فَقُبِلَتْ تَوْبَتُهُ. وَمَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ تَعَلَّقَ فِيهِ وَبِهِ حَقُّ الْآدَمِيِّ، فَكَانَ كَالْمُرْتَدِّ يَقْتُلُ حِينَ ارْتِدَادِهِ أَوْ يَقْذِفُ، فَإِنَّ تَوْبَتَهُ لَا تُسْقُطُ عَنْهُ حَدَّ الْقَتْلِ وَالْقَذْفِ.

وأيضاً فَإِنَّ تَوْبَةَ الْمُرْتَدِّ إِذَا قُبِلَتْ لَا تُسْقُطُ ذُنُوبُهُ مِنْ زِنَا، وَشَرْبٍ، وَسُرْقَةٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَمْ يُقْتَلْ سَابُّ النَّبِيِّ ﷺ لِكُفْرِهِ، لَكِنْ لِمَعْنَى يَرْجِعُ إِلَى تَعْظِيمِ حُرْمَتِهِ، وَزَوَالِ الْمَعْرَةِ بِهِ وَذَلِكَ لَا تُسْقِطُهُ التَّوْبَةُ.

قال القاضي أبو الفضل: يَرِيدُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لَأَنَّ سَبَّهُ لَمْ يَكُنْ بِكَلِمَةٍ تَقْتَضِي الْكُفْرَ، وَلَكِنْ بِمَعْنَى الْإِزْرَاءِ وَالِاسْتِخْفَافِ، أَوْ لِأَنَّ تَوْبَتَهُ وَإِظْهَارَ إِنَابَتِهِ لَهُ ارْتَفَعَ عَنْهُ اسْمُ الْكُفْرِ ظَاهِراً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِسِرِّهِ، وَبَقِيَ حُكْمُ السَّبِّ عَلَيْهِ.

وقال أبو عِمْرَانَ الْفَاسِي: مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، ثُمَّ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ قُتِلَ، وَلَمْ يُسْتَتَبْ، لِأَنَّ السَّبَّ مِنْ حُقُوقِ الْآدَمِيِّينَ الَّتِي لَا تَسْقُطُ عَنِ الْمُرْتَدِّ.

وكلامُ شيوخنا هؤلاء مبنيٌّ على القول بقتله، حدّاً لا كفراً، وهو يحتاج إلى تفصيل.
وأما على رواية الوليد بن مسلم، عن مالك، ومن وافقه على ذلك ممن ذكرناه وقال به من أهل العلم، فقد صرّحوا أنه ردّة، قالوا: ويُسْتَتَابُ منها، فإن تاب ترك وتكل، وإن أبى قُتِلَ، فحكم له بحكم المرتدّ مطلقاً في هذا الوجه.
والوجه الأول أشهر وأظهر لما قدمناه، ونحن نبسط الكلام فيه، فنقول: من لم يَرَهُ ردّةً فهو يُوجِبُ القتلَ فيه حدّاً، وإنما نقول ذلك مع فضلين: إمّا مع إنكاره ما شهد عليه به وإظهاره الإقلاع والتوبة عنه، فنقنله حدّاً لثبات كلمة الكفر عليه في حق النبي ﷺ، وتخفيره ما عظم الله من حقه، وأجرينا حكمه في ميراثه، وغير ذلك - حكم الزنديق -، إذا ظهر عليه وأنكر، أو تاب.
فإن قيل: فكيف تثبتون عليه الكفر، ويشهد عليه بكلمة الكفر ولا تحكمون عليه بحكمه من الاستتابة وتوابعها؟!.

قلنا: نحن وإن أثبتنا له حكم الكافر في القتل، فلا نَقْطَعُ عليه بذلك، لإقراره بالتوحيد والنبوة، وإنكاره ما شهد عليه به، أو رَغِمَ أَنْ ذَلِكَ كان منه وهلاً ومعصيةً، وأنه مُقْلِعٌ عن ذلك، نادِمٌ عليه، ولا يَمْتَنِعُ إثباتُ بعضِ أحكام الكفر على بعضِ الأشخاص وإن لم تثبت له خصائصه، كقتل تارك الصلاة.
وأما من عليم أنه سبّه - عليه السلام - مُعْتَقِداً لاستحلاله، فلا شك في كفره بذلك.
وكذلك إن كان سبّه في نفسه كفر، كتكذيبه أو تكفيره أو نحوه، فهذا ما لا إشكال فيه، ويُقْتَلُ - وإن تاب منه - لأنّا لا نقبلُ توبته، ونقتله بعد التوبة حدّاً، لقوله، ومتقدّم كفره، وأمره بغد إلى الله المّطْلِع على صحّة إقلاعه، العالم بسرّه.
وكذلك من لم يُظْهِرِ التوبة، واعترف بما شهد به عليه، وصمّم عليه فهذا كافرٌ بقوله، واستحلاله هُنَا حُرْمَةُ الله وحُرْمَةُ رسوله ﷺ يُقْتَلُ كافراً بلا خلاف.
فعلى هذه التفصيلات خُذْ كلام العلماء، ونزّل مختلف عبارتهم في الاحتجاج عليها، وأجر اختلافهم في الموارثة وغيرها على ترتيبها يتّضح لك مقاصدُهم إن شاء الله تعالى.

فصل

في استتابة المرتدّ

إذا قلنا بالاستتابة حيث نصّح، فالاختلاف فيها على الاختلاف في توبة المرتدّ، إذ لا فرق.

وقد اختلف السلف في وجوبها وصورتها ومُدَّتْها، فذهب جمهور أهل العلم إلى أنَّ المرتدَّ يُسْتَتَابُ.

وحكى ابن القصار أنه إجماع من الصحابة على تصويب قول عمر في الاستتابة، ولم ينكره واحد منهم، وهو قول عثمان، وعلي، وابن مسعود، وبه قال عطاء بن أبي رباح، والنخعي، والثوري، والأوزاعي، ومالك، وأصحابه، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأصحاب الرأي.

وذهب طاووس ومحمد بن الحسن وعبيد بن عمير، والحسن في - إحدى الروايتين عنه - أنه لا يُسْتَتَابُ، وقاله عبدالعزيز بن أبي سلمة، وذكره عن معاذ، وأنكره سُخْثُون عن معاذ، وحكاه الطحاوي عن أبي يوسف، وهو قول أهل الظاهر، قالوا: وتَنَفَّعَ تَوْبَتُهُ عند الله.

١٧٩٨ - ولكن لا يُذَرُّ القَتْلُ عنه، لقوله ﷺ: «مَنْ بَدَلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»

[البخاري (٣٠١٧)].

وحكى أيضاً عن عطاء قال: إِنْ كَانَ مِمَّنْ وُلِدَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُسْتَتَبْ، وَيُسْتَتَابُ الْإِسْلَامِي.

وجمهور العلماء على أنَّ المرتدَّ والمُرتَدَّةَ في ذلك سواء.

وروي عن علي رضي الله عنه: لَا تُقْتَلُ الْمُرْتَدَّةُ، وَتَسْتَرَقُ، وَقَالَ عَطَاءُ، وَقَتَادَةُ.

وروي عن ابن عباس: لَا تُقْتَلُ النِّسَاءُ بِالرَّدِّ، وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ.

قال مالك: وَالْحَرْ، وَالْعَبْدُ، وَالذَّكْرُ، وَالْأُنْثَى فِي ذَلِكَ سَوَاءٌ.

وأما مُدَّتُهَا: فمذهب الجمهور، وروي عن عمر، أنه يُسْتَتَابُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ يُخْبَسُ

فِيهَا، وَقَدْ اِخْتَلَفَ فِيهِ عَنْ عُمَرَ، وَهُوَ أَحَدُ قَوْلِي الشَّافِعِيِّ، وَقَوْلُ أَحْمَدَ، وَإِسْحَاقَ،

وَاسْتَحْسَنَهُ مَالِكٌ، وَقَالَ: لَا يَأْتِي الْاسْتِظْهَارُ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ جَمَاعَةُ النَّاسِ.

قال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد: يَرِيدُ فِي الْاسْتِيتَاءِ ثَلَاثًا.

وقال مالك أيضاً: الَّذِي أَخَذَ بِهِ فِي الْمُرْتَدِّ قَوْلُ عُمَرَ: يُخْبَسُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ،

وَيُغْرَضُ عَلَيْهِ كُلُّ يَوْمٍ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ.

وقال أبو الحسن بن القصار: فِي تَأْخِيرِهِ ثَلَاثًا رَوَاتَانِ عَنْ مَالِكٍ: هَلْ ذَلِكَ

وَاجِبٌ أَوْ مُسْتَحَبٌّ؟ وَاسْتَحْسَنَ الْاسْتِيتَابَةَ وَالْاسْتِيتَاءَ ثَلَاثًا أَصْحَابُ الرَّأْيِ.

وروي عن أبي بكر الصديق أنه استتاب في خلافته امرأة فلم تثب فقتلها،

وقاله الشافعي مرة، فقال: إِنْ لَمْ يَتُبْ قُتِلَ مَكَانَهُ، وَاسْتَحْسَنَهُ الْمُزْنِي.

وقال الزهري: يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، فَإِنْ أَبَى قُتِلَ.

وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يُسْتَتَابُ شَهْرَيْنِ.
 وقال الشَّافِعِيُّ: يُسْتَتَابُ أَبَدًا، وبه أخذ الثَّوْرِيُّ مَا رُجِيَتْ تَوْبَتُهُ.
 وحكى ابن القُصَّار عن أَبِي حَنِيفَةَ: أَنَّهُ يُسْتَتَابُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ،
 أَوْ ثَلَاثَ جُمُعٍ، كُلُّ يَوْمٍ أَوْ كُلَّ جُمُعَةٍ مَرَّةً.
 وفي كتاب محمد، عن ابن القاسم: يُدْعَى الْمُزْتَدُّ إِلَى الْإِسْلَامِ ثَلَاثَ
 مَرَّاتٍ، فَإِنْ أَبَى ضَرَبَتْ عُنُقُهُ.
 واخْتُلِفَ عَلَى هَذَا، هَلْ يُهَدَّدُ، أَوْ يُشَدَّدُ عَلَيْهِ أَيَّامُ الْاسْتِتَابَةِ لِيَتُوبَ أَمْ لَا؟ فَقَالَ
 مَالِكٌ: مَا عَلِمْتُ فِي الْاسْتِتَابَةِ تَجْوِيعًا وَلَا تَغْطِيشًا، وَيُؤْتَى مِنَ الطَّعَامِ بِمَا لَا يَضُرُّهُ.
 وقال أَصْبَغُ: يَخُوفُ أَيَّامُ الْاسْتِتَابَةِ بِالْقَتْلِ، وَيُغْرَضُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامُ.
 وفي كتاب أَبِي الْحَسَنِ الطَّائِبِيِّ: يَوْعَظُ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ، وَيَذَكَّرُ بِالْجَنَّةِ،
 وَيَخُوفُ بِالنَّارِ.

قال أَصْبَغُ: وَأَيُّ الْمَوَاضِعِ حُبِسَ فِيهَا مِنَ السَّجُونِ مَعَ النَّاسِ أَوْ وَخَدَهُ إِذَا اسْتَوْتِقَ مِنْهُ
 سِوَاءُ، وَيُوقَفُ مَالُهُ إِذَا خِيفَ أَنْ يُتْلَفَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَيُطْعَمَ مِنْهُ، وَيُسْقَى.
 وكذلك يُسْتَتَابُ أَبَدًا كُلَّمَا رَجَعَ وَارْتَدَّ.

١٧٩٩ - وقد استتابَ النَّبِيُّ ﷺ تَبَّهَانَ الَّذِي ارْتَدَّ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ أَوْ خَمْسًا.
 وقال ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ مَالِكٍ: يُسْتَتَابُ أَبَدًا كُلَّمَا رَجَعَ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ،
 وَأَحْمَدَ، وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ.

وقال إِسْحَاقُ: يُقْتَلُ فِي الرَّابِعَةِ.
 وقال أَصْحَابُ الرَّأْيِ: إِنْ لَمْ يَتُبْ فِي الرَّابِعَةِ قُتِلَ دُونَ اسْتِتَابَتِهِ وَإِنْ تَابَ
 ضُرِبَ ضَرْبًا وَجِيعًا، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ السَّجَنِ حَتَّى يَظْهَرَ عَلَيْهِ خَشُوعُ التَّوْبَةِ.
 قال ابن المنذر: وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا أَوْجَبَ عَلَى الْمُرْتَدِّ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى أَدْبًا إِذَا
 رَجَعَ. وَهُوَ عَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَالْكَوْفِيِّ.

فصل

فِي حُكْمِ الْمُزْتَدِّ إِذَا اشْتَبَهَ ارْتِدَادَهُ

قال القاضي رحمه الله: هَذَا حُكْمٌ مَنْ ثَبِتَ عَلَيْهِ ذَلِكَ بِمَا يَجِبُ ثَبُوتُهُ مِنْ
 إِقْرَارٍ، أَوْ عُذُولٍ لَمْ يَدْفَعْ فِيهِمْ، فَأَمَّا مَنْ لَمْ تَتِمَّ الشَّهَادَةُ عَلَيْهِ إِنَّمَا شَهِدَ عَلَيْهِ
 الْوَاحِدُ، أَوْ اللَّفِيفُ مِنَ النَّاسِ، أَوْ ثَبِتَ قَوْلُهُ لَكِنْ احْتِمَلُ وَلَمْ يَكُنْ صَرِيحًا،
 وَكَذَلِكَ إِنْ تَابَ - عَلَى الْقَوْلِ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِ - فَهَذَا يَذَرَأُ عَنْهُ الْقَتْلُ، وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْهِ

اجتهاد الإمام بقدر شهرته حاله، وقوة الشهادة عليه، وضعفها، وكثرة السماع عنه، وصورة حاله من التهمة في الدين، والتبني بالسفاهة والمجون، فمن قوي أمره أذاقه من شديد النكال ومن الضيق في السجن، والشدة في القيود إلى الغاية التي هي مُنتهى طاقته بما لا يمنعه القيام لضرورته، ولا يُفَعِّدُه عن صلاته، وهو حُكْمُ كُلِّ مَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ الْقَتْلُ، ولكن وَقَفَ عَنْ قَتْلِهِ لِمَعْنَى أَوْجِبَهُ، وَتُرْبِصَ بِهِ لِإِشْكَالِ وَعَاقِقِ اقْتِضَاءِ أَمْرِهِ، وحالات الشدة في نكاله تختلف بحسب اختلاف حاله. وقد رَوَى الْوَلِيدُ، عَنْ مَالِكٍ، وَالْأَوْزَاعِيِّ أَنَّهَا رِدَّةٌ، فَإِذَا تَابَ نُكِّلَ. وَلِمَالِكٍ فِي «الْعُثْيِيَّةِ» وَكِتَابِ مُحَمَّدٍ، مِنْ رِوَايَةِ أَشْهَبَ: إِذَا تَابَ الْمَرْتَدُّ فَلَا عِقَابَ عَلَيْهِ. وَقَالَ سُخْنُونُ.

وَأَفْتَى أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَتَّابٍ فِيمَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ - فَشَهِدَ عَلَيْهِ شَاهِدَانِ عُدْلَ أَحَدُهُمَا - بِالْأَدَبِ الْمَوْجِعِ، وَالتَّنْكِيلِ، وَالسَّخْنِ الطَوِيلِ حَتَّى تَظْهَرَ تَوْبَتُهُ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ فِي مِثْلِ هَذَا: وَمَنْ كَانَ أَقْصَى أَمْرِهِ الْقَتْلُ فَعَاقَ عَاتِقُ عَنْ ذَلِكَ أَشْكَلَ فِي الْقَتْلِ، لَمْ يَنْبَغِ أَنْ يُطْلَقَ مِنَ السَّجْنِ، وَلَكِنْ يُسْتَطَالُ سَجْنُهُ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ مِنَ الْمَدَةِ مَا عَسَى أَنْ يُقِيمَ، وَيُحْمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْقَيْدِ مَا يُطِيقُ. وَقَالَ فِي مِثْلِهِ مِمَّنْ أَشْكَلَ أَمْرُهُ: يُشَدُّ فِي الْقِيودِ شَدًّا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ فِي السَّجْنِ حَتَّى يُنْظَرَ فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهِ.

وَقَالَ فِي مَسْأَلَةٍ أُخْرَى مِثْلِهَا: وَلَا تُهْرَاقَ الدَّمَاءُ إِلَّا بِالْأَمْرِ الْوَاضِحِ، وَفِي الْأَدَبِ بِالسُّوْطِ وَالسَّجْنِ نَكَالٌ لِلْسَفَهَاءِ، وَيَعَاقَبُ عِقَابَ شَدِيدَةٍ، فَأَمَّا إِنْ لَمْ يُشْهَدْ عَلَيْهِ سِوَى شَاهِدَيْنِ، فَأُتْبِتَ مِنْ عَدَاوَتِهِمَا أَوْ جَرْحَتِهِمَا مَا أَسْقَطَهُمَا عَنْهُ، وَلَمْ يُسْمَعْ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِمَا فَأَمْرُهُ أَحْفَ لِسُقُوطِ الْحُكْمِ عَنْهُ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يُشْهَدْ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يَلِيقُ بِهِ ذَلِكَ، وَيَكُونُ الشَّاهِدَانِ مِنْ أَهْلِ التَّبَرُّيزِ، فَأَسْقَطَهُمَا بَعْدَاوَةً، فَهُوَ - وَإِنْ لَمْ يَنْقُذِ الْحُكْمُ عَلَيْهِ بِشَهَادَتِهِمَا - فَلَا يَدْفَعُ الظَّنُّ صِدْقَهُمَا، وَلِلْحَاكِمِ هُنَا فِي تَنْكِيلِهِ مَوْضِعُ اجْتِهَادٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فصل

فِي حُكْمِ الذَّمِّ إِذَا صَرَّحَ بِسَبِّهِ ﷺ، أَوْ عَرَّضَ، أَوْ اسْتَخَفَّ بِقَدْرِهِ، أَوْ وَصَفَهُ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي كَفَرَ بِهِ

قال القاضي أبو الفضل: هذا حكم المسلم، فأما الذمُّ إذا صرَّحَ بسبِّه، أو عَرَّضَ، أو اسْتَخَفَّ بِقَدْرِهِ، أو وَصَفَهُ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي كَفَرَ بِهِ فَلَا خِلَافَ عِنْدَنَا

في قتله إن لم يُسلم، لأننا لم نُعطيه الدِّمَّةَ والعهد على هذا، وهو قولُ عامةِ العلماء، إلا أبا حنيفةَ والثوري وأتباعهما من أهل الكوفة، فإنهم قالوا: لا يُقتل، ما هو عليه من الشُّركِ أعظم، ولكن يؤذَّب ويمرَّد.

واستدل بعضُ شيوخنا على قتله بقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّكُم مِّنْهُم مَّن يَمْدُ عَهْدِهِمْ وَيُفَعِّلُونَ فِي رِيبِكُمْ فَعِيلًا أَيْمَةً الْكُفْرَ إِنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُمْ لَعَلَّهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (التوبة: ١١٢).

ونُستدلُّ أيضاً عليه بقتل النبي ﷺ لابن الأشرف، وأشباهه، ولأننا لم نعاينهم، ولم نُعطهم الدِّمَّةَ على هذا، ولا يجوز لنا أن نفعل ذلك معهم فإذا أتوا ما لم يعطوا عليه العهد ولا الدِّمَّة، فقد نقضوا دِئنتهم، وصاروا كفاراً أهل حرب يُقتلون لكفرهم.

وأيضاً فإن دِئنتهم لا تُسقط حدود الإسلام عنهم، من القطع في سرقة أموالهم، والقتل لمن قتلوه منهم، وإن كان ذلك خلافاً عندهم فكذلك سبُّهم للنبي ﷺ يُقتلون به.

ووردت لأصحابنا ظواهرُ تقتضي الخلاف إذا ذكره الدِّمي بالوجه الذي كفر به، سكَّفَ عليها من كلام ابن القاسم وابن سحنون بعد.

وحكى أبو المصعب الخلاف فيها عن أصحابه المنينين واختلفوا إذا سبَّه ثم أسلم، فقيل: يُسقط إسلامه قتله، لأن الإسلام يجب ما قبله، بخلاف المسلم إذا سبَّه ثم تاب، لأننا نعلم باطلة الكافر في نفسه له، وننقُصه بقلبه، لكننا منعاه من إظهاره، فلم يزدنا ما أظهره إلا مخالفةً للأمر، ونقُضاً للعهد، فإذا رجع عن دينه الأول إلى الإسلام سقط ما قبله، بقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَتُوبُواْ إِن يَكْفُرُواْ يُكْفَرُواْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (الأحزاب: ٣٨).

والمسلم بخلافه، إذ كان ظنُّنا بباطله حكم ظاهره، وخلاف ما بدا منه الآن، فلم نُقتل بعد رجوعه، ولا استئمنَّا إلى باطنه، إذ قد بدت سرائره، وما ثبت عليه من الأحكام باقية عليه لم يُسقطها شيء.

وقيل: لا يُسقط إسلام الدِّمي الساب قتله، لأنه حقٌ للنبي ﷺ وحب عليه القتل لانتهاك حرمة، وقُضِيه إلحاق الثَّقيفة والغزوة به، فلم يكن رجوعه إلى الإسلام بالذي يُسقطه، كما رُجِب عليه من حقوق المسلمين من قتل إسلاميه: من قتل، أو قُذِّب، أو سرق. وإذا كنا لا نُقبل توبة المسلم فإن لا نُقبل توبة الكافر أولى.

وقال مالك في كتاب ابن حبيب، و «المبسوط»، وابن القاسم، وابن الماجشون، وابن عبدالحكم، وأصبغ - فيمن شتم نبينا عليه السلام - من أهل الذمة، أو أحداً من الأنبياء - عليهم السلام - قُتل إلا أن يُسلم، وقاله ابن القاسم في «العتبية»، وعند محمد، وابن سحنون.

وقال سحنون وأصبغ: لا يُقال له: أسلم، ولا: لا تُسلم، ولكن إن أسلم فذلك له توبة.

وفي كتاب محمد: أخبرنا أصحاب مالك أنه قال: من سب رسول الله ﷺ أو غيره من الأنبياء، من مسلم أو كافر قُتل ولم يُستتب. وروى لنا عن مالك: إلا أن يُسلم الكافر.

وقد روى ابن وهب، عن ابن عمر، أن راهباً تناول النبي ﷺ! فقال ابن عمر: فهلاً قتلتموه!

وروى عيسى، - عن ابن القاسم - في ذمّي قال: إن محمداً لم يُرسل إلينا، إنما أُرسل إليكم، وإنما نبينا موسى أو عيسى، أو نحو هذا: لا شيء عليهم، لأن الله تعالى أقرهم على مثله.

وأما إن سبه، فقال: ليس بنبي، أو لم يُرسل، أو لم ينزل عليه قرآن، وإنما هو شيء تَقُوله أو نحو هذا فيقتل.

وقال ابن القاسم: وإذا قال النصراني: ديننا خير من دينكم، إنما دينكم دين الحميم، ونحو هذا من الكلام القبيح، أو سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله، فقال: كذلك يُعطيكُم الله، ففي هذا الأدب الموجه، والسجن الطويل.

قال: وأما إن شتم النبي ﷺ شتماً يُعرف فإنه يُقتل إلا أن يُسلم، قاله مالك غير مرة، ولم يقل: يُستتاب.

قال ابن القاسم: ومَحْمَلُ قوله عندي إن أسلم طائعاً.

وقال ابن سحنون في سؤالات سليمان بن سالم - في اليهودي يقول للمؤذن، إذا تشهد: كذبت - يُعاقب أيضاً العقوبة الموجعة مع السجن الطويل.

وفي «النوادر» من رواية سحنون عنه: من شتم الأنبياء من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي به كفروا ضربت عنقه إلا أن يُسلم.

قال محمد بن سحنون: فإن قيل: لم قتلته في سب النبي - عليه السلام - ومن دينه سبه وتكذيبه؟! قيل: لأننا لم نُعطيهم العهد على ذلك، ولا على قتلنا،

وأخذ أموالنا، فإذا قُتل واحدٌ منا قُتِلناه، وإن كان من دينه استحلَّه فكَذلك إظهاره لسبِّ نبيِّنا عليه السلام.

قال سَخْنون: كما لو بذل لنا أهلُ الحَرْبِ الجِزْيَةَ على إقرارهم على سبِّه لم يَجْز لنا ذلك في قول قائل من المسلمين.

كذلك يَتَقَضُّ عَهْدُ مَنْ سَبَّ منهم، ويحلُّ لنا دمه، وكما لم يُحصِّن الإسلامُ مَنْ سَبَّه من القَتْلِ، كذلك لا تُحصِنه الذمَّة.

قال القاضي أبو الفضل: ما ذكره ابن سَخْنون عن نفسه، وعن أبيه، مخالفٌ لقول ابنِ القاسم فيما خَفَّفَ عقوبَتهم فيه بما به كَفَرُوا، فتأمَّلْه.

ويدلُّ على أنه خلافُ ما رُوِيَ عن المدنيِّين في ذلك، فحكى أبو المُضْعَب الزهري، قال: أَتَيْتُ بنُصْرانيَّ قال: والذي اصطفى عيسى على محمداً فاخْتَلَف عليّ فيه، فضربته حتى قتلتَه، أو عاش يوماً وليلاً، وأمرتُ من جَرَّ يَرْجِله، وطَرَحَ على مَزْبِلَةٍ، فأكلته الكلابُ.

وسُئِلَ أبو المصعب عن نصراني قال: عيسى خلق محمداً؟ فقال: يُقْتَل. وقال ابنُ القاسم: سَأَلْنَا مالكاَ عن نُصْرانيٍّ بمصر شهد عليه أنه قال: مسكين محمداً يخبركم أنه في الجنة، ما له لم يَنفَعْ نفسه إذ كانت الكلابُ تأكل ساقِيَه! لو قتلوه استراح منه الناس.

قال مالك: أَرَى أَنْ تُضْرَبَ عُنُقُه.

قال: ولقد كَذْتُ أَلَّا أَتَكَلَّمُ فيها بشيء، ثم رأيتُ أنه لا يسعني الصَّمْتُ.

قال ابن كِنانة في «المبسوطة»: مَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ من اليهود والنصارى فأَرى للإمام أَنْ يُحَرِّقَه بالنار، وإن شاء قتله ثم حَرَّقَ جُثَّتَه، وإن شاء أحرقه بالنار حيّاً إذا تهافثوا في سبِّه عليه السلام.

وقد كُتِبَ إلى مالك من مِصْرَ - وذكر مسألة ابنِ القاسم المتقدمة، قال: فأمرني مالك، فكَتَبْتُ بأن يُقْتَلَ، وَأَنْ تُضْرَبَ عُنُقُه، فكَتَبْتُ، ثم قلت: يا أبا عَبْدِ اللَّهِ! وأَكْتُبُ: ثم يُحَرَّقَ بالنار؟ فقال: إنه لَحَقِيقٌ بذلك، وما أولاه به!

فكَتَبْتَه بيدي بين يَدَيْهِ، فما أنكره ولا عابه، ونُقِذَتِ الصحيفةُ بذلك فَقُتِلَ وَحُرِّقَ.

وأفتى عُبيد اللَّهِ بن يحيى، وابنُ لُبابة في جماعة سَلَفِ أصحابنا الأندلسيين بِقَتْلِ نصرانيةٍ استهلَّتْ بِنَفْيِ الربوبية، وبُتُوَّةِ عيسى لله وتكذيب محمد في النبوة، وبِقَبُولِ إسلامِها وذَرْءِ القَتْلِ عنها به.

وبه قال غَيْرُ واحدٍ من المتأخرين منهم القابسي، وابن الكاتب، وقال أبو القاسم بن الجلاب في كتابه: مَنْ سَبَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ كَافِرٍ، قُتِلَ وَلَا يُسْتَتَابُ.

وحكى - القاضي أبو محمد - في الذمّي يَسُبُّ رَوَاتَيْنِ فِي ذَرْءِ الْقَتْلِ عَنْهُ بِإِسْلَامِهِ.

وقال ابن سَخْنُون: وَحَدَّ الْقَذْفُ وَشِبْهَهُ مِنْ حَقَقِ الْعِبَادِ لَا يُسْقِطُهُ عَنِ الذَّمِّ إِسْلَامُهُ، وَإِنَّمَا يَسْقُطُ عَنْهُ بِإِسْلَامِهِ حَدُودُ اللَّهِ.

فَأَمَّا حَدُّ الْقَذْفِ فَحَقٌّ لِلْعِبَادِ هُوَ سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ لِنَبِيِّ أَوْ غَيْرِهِ، فَأَوْجِبْ عَلَى الذَّمِّ إِذَا قَذَفَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ أَسْلَمَ حَدُّ الْقَذْفِ.

ولكن انظر ماذا يجبُ عليه؟ هل حَدُّ الْقَذْفِ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ الْقَتْلُ لزيادةِ حُرْمَةِ النَّبِيِّ - عليه السلام - على غيره؟ أم هل يَسْقُطُ الْقَتْلُ بِإِسْلَامِهِ، وَيُحَدُّ ثَمَانِينَ؟ فَتَأَمَّلْهُ.

فصل

فِي مِيرَاثِ مَنْ قُتِلَ بِسَبِّ النَّبِيِّ ﷺ وَعَسَلِهِ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ

اختلف العلماء في ميراثِ مَنْ قُتِلَ بِسَبِّ النَّبِيِّ ﷺ، فذهب سَخْنُون إلى أنه لجماعة المسلمين من قبل: أَنَّ شَتْمَ النَّبِيِّ - عليه السلام - كُفْرٌ شِبْهُ كُفْرِ الزُّنْدَقَةِ.

قال أَصْبَغُ: ميراثه لورثته من المسلمين إِنْ كَانَ مُسْتَسِرّاً بِذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُظْهِراً لَهُ، مُسْتَهْلاً بِهِ، فميراثه لِلْمُسْلِمِينَ، وَيُقْتَلُ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَلَا يُسْتَتَابُ. وقال أبو الحسن القابسي: إِنْ قُتِلَ وَهُوَ مُنْكَرٌ لِلشَّهَادَةِ عَلَيْهِ فَالْحُكْمُ فِي مِيرَاثِهِ عَلَى مَا أَظْهَرَ مِنْ إِقْرَارِهِ - يعني لورثته -، وَالْقَتْلُ حَدٌّ ثَبَتَ عَلَيْهِ لَيْسَ مِنَ الْمِيرَاثِ فِي شَيْءٍ.

وكذلك لو أَقْرَأَ بِالسَّبِّ وَأَظْهَرَ التَّوْبَةَ لَقُتِلَ، إِذْ هُوَ حَدٌّ. وَحُكْمُهُ فِي مِيرَاثِهِ، وَسَائِرِ أَحْكَامِهِ، حُكْمُ الْإِسْلَامِ.

ولو أَقْرَأَ بِالسَّبِّ، وَتَمَادَى عَلَيْهِ، وَأَبَى التَّوْبَةَ مِنْهُ، فَقُتِلَ عَلَى ذَلِكَ كَانَ كَافِراً، وَمِيرَاثُهُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَغْتَسَلُ وَلَا يَكْفَنُ وَلَا يَصَلَّى عَلَيْهِ وَتُسْتَرُّ عَوْرَتُهُ، وَيُؤَاوَى كَمَا يُفْعَلُ بِالْكَفَّارِ.

وقول الشيخ أبي الحسن في المُجَاهِر المتِمَادِي على ذلك، بَيِّن لا يمكن
الخلاف فيه، لأنه كافر مرتدٌ غَيْرُ تَائِبٍ ولا مُقْلِعٍ.
وهو مثُل قول أَصْبَغ، وكذلك قال: ابن سَخْنُون في الزُّنْدِيق يتِمَادِي على
قوله.

ومثله لابن القاسم في «الْعُنْيَةِ».

ولجماعة من أصحاب مالك في كتاب ابن حبيب فيمن أعلن كفره مثله.
قال ابن القاسم: وحكمه حُكْمُ المرتد لا يرثه ورثته من المسلمين، ولا من
أهل الدين الذي ارتد إليه، ولا تجوز وصاياه ولا عتقه، وقال ذلك أيضاً أَصْبَغ:
قُتِلَ على ذلك، أو مات عليه.

وقال أبو محمد بن أبي زيد: وإنما يُخْتَلَف في ميراث الزُّنْدِيق الذي يستهلُّ
بالتوبة، فلا تُقْبَل منه، فأما المُتِمَادِي على الكفر والارتداد فلا خلاف أنه لا
يورث.

وقال - أبو محمد - فيمن سبَّ الله تعالى ثم مات ولم تُعَدَّل عليه بيعة، أو
لم تُقْبَل: إنه يصلّى عليه.

وروى أَصْبَغ، عن ابن القاسم، في كتاب ابن حبيب فيمن كذَّب
برسول الله ﷺ أو أعلن ديناً مما يُفَارِقُ به الإسلام، أن ميراثه للمسلمين.

وقال - بقول مالك -: إن ميراث المرتد للمسلمين، ولا ترثه ورثته: ربيعة،
والشافعي، وأبو ثور، وابن أبي ليلى، واختلف فيه عن أحمد.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، وابن المسيب،
والحسن، والشافعي، وعمر بن عبد العزيز، والحكم، والأوزاعي، والليث،
وإسحاق، وأبو حنيفة: يرثه ورثته من المسلمين.

وقيل: ذلك فيما كسبه قبل ارتداده، وما يكسبه في الارتداد فليُسلمين.

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: وتفصيلُ أبي الحسن في باقي جوابه
حسنٌ بَيِّن، وهو على رأي أَصْبَغ، وخلاف قول سَخْنُون، واختلافهما على قولني
مالك في ميراث الزُّنْدِيق، فمرة ورثته ورثته من المسلمين، سواء قامت عليه بذلك
بينة فأنكرها، أو اعترف بذلك وأظهر التوبة.

وقاله أَصْبَغ، ومحمد بن مسلمة، وغير واحد من أصحابه، لأنه أظهر
الإسلام بإنكاره أو توبته، وحكمه حكم المنافقين الذين كانوا على عهد
رسول الله ﷺ.

وَوَوَى - ابْنُ نَافِعٍ عَنْهُ فِي «الْعُتْبِيَّةِ» وَكِتَابِ مُحَمَّدٍ - أَنَّ مِيرَاثَهُ لَجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، لِأَنَّ مَالَهُ تَبِعَ لِدَمِهِ.

وَقَالَ بِهِ أَيْضاً جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَقَالَه أَشْهَبُ، وَالْمَغِيرَةُ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ، وَمُحَمَّدٌ، وَسُخْنُونُ.

وَذَهَبَ ابْنُ الْقَاسِمِ فِي «الْعُتْبِيَّةِ» إِلَى أَنَّهُ إِنْ اعْتَرَفَ بِمَا شَهِدَ عَلَيْهِ بِهِ وَتَابَ فَقُتِلَ فَلَا يُورَثُ. وَإِنْ لَمْ يُقَرَّرْ حَتَّى قُتِلَ أَوْ مَاتَ وَرَّثَ.

قَالَ: وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ أَسَرَ كُفْرًا فَإِنَّهُمْ يَتَوَارَثُونَ بَوْرَاةَ الْإِسْلَامِ.

وَسُئِلَ أَبُو الْقَاسِمِ بِنُ الْكَاتِبِ عَنِ النَّضْرَانِيِّ يَسُبُّ النَّبِيَّ ﷺ فَيُقْتَلُ، هَلْ يَرِثُهُ أَهْلُ دِينِهِ أَمْ الْمُسْلِمُونَ؟

فَأَجَابَ: إِنَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ لَيْسَ عَلَى جِهَةِ الْمِيرَاثِ، لِأَنَّهُ لَا تَوَارَثَ بَيْنَ أَهْلِ مِلَّتَيْنِ، وَلَكِنْ لِأَنَّهُ مِنْ فِتْنِهِمْ، لِنَقْضِ الْعَهْدِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ وَاجْتِصَارُهُ.



الباب الثالث

في حُكْم مَنْ سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ وَأَنْبِيَاءَهُ وَكُتُبَهُ
وَأَلَّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَزْوَاجَهُ وَصَحْبَهُ

قال القاضي - رحمه الله تعالى - :

لا خلاف أنَّ سَابَّ اللَّهَ تَعَالَى من المسلمين كافرٌ حلالٌ الدم . واختلفَ في استتابته ، فقال ابن القاسم في «المبسوط» وفي كتاب ابن سَخْنُون ، ومحمد ، ورواهُ ابنُ القاسم عن مالك في كتاب إسحاق بن يحيى : مَنْ سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى من المسلمين قُتِلَ ولم يُسْتَتَبْ ، إلَّا أنَّ يكونَ افتراءً على اللَّهِ بارتداده إلى دينِ دَانٍ به ، وأظهره ، فيستتابُ ، وإن لم يُظْهِرْهُ لم يُسْتَتَبْ .

وقال - في «المبسوط» - مُطَرَّفٌ ، وعبدالمك ملك مثله .

وقال المخزومي ، ومحمد بن مَسْلَمَةَ ، وابنُ أَبِي حازم : لا يُقْتَلُ المسلمُ بالسَّبِّ حتى يُسْتَتَبَ .

وكذلك اليهوديُّ والنَّصْرانيُّ ، فإن تابوا قُبِلَ منهم توبتهم ، وإن لم يتوبوا قُتِلُوا ، ولا بُدَّ من الاستتابة ، وذلك كله كالردة ، وهو الذي حكاه القاضي ابن نصر عن المذهب .

وأفتى أبو محمد بن أبي زَيْد - فيما حُكِيَ عنه - في رجل لعن رجلاً وَلَعَنَ اللَّهَ ، فقال : إنما أَرَدْتُ أَنْ أَلْعَنَ الشَّيْطَانَ فَرَلُّ لِسَانِي ، فقال : يُقْتَلُ بظاهرِ كُفْرِهِ ، ولا يَقْبَلُ عُذْرُهُ .

وأما فيما بينه وبين اللَّه تَعَالَى فمُعْذُورٌ .

واختلف فقهاء قُرطبة في مسألة هارون بن حبيب أخى عبدالمك الفقيه ،

وكان ضيق الصدر، كثير التبرم، وكان قد شهد عليه بشهادات، منها أنه قال عند استقلاله من مرض: لقيت في مرضي هذا ما لو قتل أبا بكر وعمر لم أستوجب هذا كله.

فأفتى إبراهيم بن حسين بن خالد بقتله، وأن مضمّن قوله تجويز الله تعالى وتظلم منه، والتعريض فيه كال تصريح.

وأفتى أخوه عبد الملك بن حبيب، وإبراهيم بن حسين بن عاصم، وسعيد بن سليمان القاضي بطرح القتل عنه، إلا أن القاضي رأى عليه الثقل في الحبس، والشدة في الأدب، لاحتمال كلامه، وصرفه إلى التشكي.

فوجه من قال في سب الله تعالى بالاستتابة: إنه كفر وردة مخضة لم يتعلق بها حق لغير الله، فأشبهه قصد الكفر بغير سب الله، وإظهار الانتقال من دين إلى دين آخر من الأديان المخالفة للإسلام.

وجه ترك استتابة: أنه لما ظهر منه ذلك بعد إظهار الإسلام قبل اتهمناه وظننا أن لسانه لم ينطق به إلا هو معتقد له، إذ لا يتساهل في هذا أحد، فحكم له بحكم الزنديق، ولم تقبل توبته، وإذا انتقل من دين إلى آخر، وأظهر السب بمعنى الارتداد فهذا قد أعلم أنه خلع ربة الإسلام من عنقه، بخلاف الأول المتمسك به، وحكم هذا حكم المرتد: يستتاب على مشهور مذاهب أكثر العلماء وهو مذهب مالك، وأصحابه، على ما بيناه قبل، وذكرنا الخلاف في فضوله.

فصل

فِي حُكْمِ مَنْ أَضَافَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ
عَنْ طَرِيقِ التَّأْوِيلِ وَالْاجْتِهَادِ وَالْخَطَأِ الْمُفْضِي
إِلَى الْهَوَى وَالْبِدْعَةِ

وأما من أضاف إلى الله تعالى ما لا يليق به ليس على طريق السب ولا الردة وقصد الكفر، ولكن على طريق التأويل، والاجتهاد، والخطأ المفضي إلى الهوى والبدعة، من تشبيه، أو نعت بجارحة، أو نفي صفة كمال، فهذا مما اختلف السلف والخلف في تكفير قائله ومعتقده.

واختلف قول مالك وأصحابه في ذلك، ولم يختلفوا في قتالهم إذا تحيزوا فئة، وأنهم يستتابون، فإن تابوا وإلا قتلوا، وإنما اختلفوا في المنفرد منهم، فأكثر

قول مالك وأصحابه ترك القول بتكفيرهم، وترك قتلهم، والمبالغة في عقوبتهم، وإطالة سجنهم، حتى يظهر إقلاعهم، وتستبين توبتهم، كما فعل عمر رضي الله عنه بصيغ.

وهذا قول محمد بن المَوَّاز في الخَوارج، وعبد الملك بن الماجشون، وقول سخنون في جميع أهل الأهواء، وبه فُسِّر قول مالك في الموطأ، وما رواه عن عمر بن عبد العزيز، وجده، وعمه، من قولهم في القَدْرِيَّة: يُسْتَتَابُونَ، فَإِنْ تَابُوا وَإِلَّا قُتِلُوا.

وقال عيسى، عن ابن القاسم في أهل الأهواء من الإباضية، والقَدْرِيَّة، وشبههم ممن خالف الجماعة من أهل البدع والتحريف، لتأويل كتاب الله عز وجل: يُسْتَتَابُونَ أظهروا ذلك أو أسروه. فَإِنْ تَابُوا وَإِلَّا قُتِلُوا، وميراثهم لورثتهم. وقال مثله أيضاً ابنُ القاسم في «كتاب محمد» في أهل القَدْر وغيرهم، قال: واستتابهم أن يقال لهم: اتركوا ما أنتم عليه.

ومثله له في «المبسوط» في الإباضية والقَدْرِيَّة وسائر أهل البدع، قال: وهم مسلمون، وإنما قُتِلُوا لرأيهم السَّوء، وبهذا عمل عمر بن عبد العزيز. قال ابن القاسم: مَنْ قال: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْلَمْ موسى تكليماً استُشِيب، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ.

وابن حبيب وغيره من أصحابنا يرى تكفيرهم وتكفير أمثالهم من الخوارج والقَدْرِيَّة والمرجئة.

وقد روي أيضاً عن سخنون مثله فيمن قال: ليس لله كلام، إنه كافر. واختلفت الروايات عن مالك، فأطلق في رواية الشاميين: أبي مُسْهِرٍ، ومروان بن محمد الطاطري الكُفْرَ عليهم، وقد شوَّزَ في زَوَاجِ القَدْرِي، فقال: لا تزوجه، قال الله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وروي عنه أيضاً أنه قال: أهل الأهواء كلهم كفار. وقال: مَنْ وصف شيئاً مِنْ ذَاتِ اللَّهِ تعالى، وأشار إلى شيء من جسده: يَد، أو سَمْع، أو بَصَر، قُطِعَ ذَلِكَ مِنْهُ، لأنه شبه الله بنفسه. وقال: فيمن قال: القرآن مخلوق -: كافر فاقْتُلُوهُ.

وقال أيضاً - في رواية ابن نافع -: يُجْلَد، ويُوجع ضرباً، ويُخَبَس حتى يتوب.

وفي رواية بشر بن بكر التَّيْسِي عنه: يُقْتَل ولا تُقَبَّل توبته.

قال القاضي أبو عبد الله البزنگاني، والقاضي أبو عبد الله التستري من أئمة العراقيين من أصحابنا: جوابه مُختلف، يُقتل المستبصر الداعية.

وعلى هذا الخلاف اختلف قوله في إعادة الصلاة خلفهم.

وحكى ابن المنذر، عن الشافعي: لا يستأب القدري.

وأكثر أقوال السلف تكفيرهم، وممن قال به: الليث بن سعد، وابن عيينة،

وابن لهيعة، وزوي عنهم ذلك فيمن قال بخلق القرآن، وقاله أيضاً ابن المبارك،

والأودي، ووَكيع، وحفص بن غياث، وأبو إسحاق الفزاري، وهشيم، وعلي بن

عاصم في آخرين، وهو من قول أكثر المحدثين، والفقهاء، والمتكلمين فيهم،

وفي الخوارج، والقدرية، وأهل الأهواء المضلة، وأصحاب البدع المتأولين، وهو

قول أحمد بن حنبل، وكذلك قالوا في الواقعة والشاكة في هذه الأصول.

وممن روي عنه معنى القول الآخر بترك تكفيرهم: علي بن أبي طالب، وابن

عمر، والحسن البصري، وهو رأي جماعة من الفقهاء، والنظار، والمتكلمين،

واحتجوا بتورث الصحابة والتابعين ورثة أهل حروراء، ومن عُرف بالقدر مِمَّن مات

منهم، ودفِنهم في مقابر المسلمين، وجزي أحكام الإسلام عليهم.

قال إسماعيل القاضي: وإنما قال مالك في القدرية وسائر أهل البدع:

«يُسْتَتَابُونَ، فَإِنْ تَابُوا وَإِلَّا قُتِلُوا» لأنه من الفساد في الأرض، كما قال في

المُحَارِبِ: إِنْ رَأَى الْإِمَامُ قَتْلَهُ، وَإِنْ لَمْ يَقْتُلْ، قَتَلَهُ، وفساد المُحَارِبِ إنما هو في

الأموال ومصالح الدنيا، وإن كان قد يدخل أيضاً في أمر الدين من سبيل الحج

والجهاد. وفساد أهل البدع مُعْظَمُهُ على الدين، وقد يدخل في أمر الدنيا بما

يُلْقُونَ بين المسلمين من العداوة، والله الموفق للصواب.

فصل

في تحقيق القول في إكفار المتأولين

قد ذكرنا مذاهب السلف في إكفار أصحاب البدع والأهواء المتأولين، ممن

قال قولاً، يُؤدِّيهِ مَسَاقُهُ إِلَى كُفْرٍ، وهو إِذَا وَقَفَ عَلَيْهِ لَا يَقُولُ بِمَا يُؤدِّيهِ قَوْلُهُ إِلَيْهِ.

وعلى اختلافهم، اختلف الفقهاء والمتكلمون في ذلك، فمنهم مَنْ صَوَّبَ

التكفير الذي قال به الجمهور من السلف، ومنهم مَنْ أَبَاهُ وَلَمْ يَرِ إِخْرَاجَهُمْ مِنْ

سَوَادِ الْمُؤْمِنِينَ، وهو قول أكثر الفقهاء والمتكلمين، وقالوا: هم فُسَاقُ عُصَاةٍ

ضُلَالٍ، وَثَوَارِثُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ونحكم لهم بأحكامهم، ولهذا قال سحنون: لا

إعادة على مَنْ صَلَّى خَلْفَهُمْ في وقت، ولا غيره. قال: وهو قول جميع أصحاب مالك مثل: المغيرة، وابن كنانة، وأشهب، قال: لأنه مُسلم، وذنبه لم يخرجْه من الإسلام.

واضطرب آخرون في ذلك، ووقفوا عن القول بالتكفير أو ضده واختلاف قَوْلِي مالك في ذلك، وتوقفه عن إعادة الصلاة خَلْفَهُمْ منه وإلى نحو من هذا ذهب القاضي أبو بكر إمام أهل التحقيق والحق، وقال: إنها من الْمُغْرِصَاتِ، إذ القَوْمُ لم يُضْرَحُوا باسم الكفر، وإنما قالوا قولاً يُؤَدِّي إليه.

واضطرب قوله في المسألة على نحو اضطراب قول إمامه مالك بن أنس حتى قال في بعض كلامه: إنهم على رأي مَنْ كفرهم بالتأويل لا تَجِلْ مُنَاكَحَتُهُمْ، ولا أَكُلْ ذَبَانِحَهُمْ، ولا الصلاة على مَيِّتِهِمْ.

وَيُخْتَلَفُ في مَوَارِيثِهِمْ على الخلاف في ميراث المُرْتَدِّ.

وقال أيضاً: نورث مَيِّتَهُمْ وَرَثَتَهُمْ من المسلمين، ولا نورثتهم هم من المسلمين، وأكثر مِثْلَهُ إلى ترك التكفير بالمال، وكذلك اضطرب فيه قول شيخه أبي الحسن الأشعري، وأكثر قوله ترك التكفير، وأنَّ الكُفْرَ خَصْلَةٌ وَاحِدَةٌ، وهو الجهل بوجود الباري عز وجل.

وقال مرة: مَنْ اعتقد أَنَّ الله جِسْمٌ، أو المَسِيحُ، أو بعض مَنْ يَلْقَاهُ في الطَّرِيقِ، فليس بعارِفٍ به، وهو كافر.

ولم يَلِ هذا ذهب أبو المعالي رحمه الله في أجوبته لأبي محمد: عبد الحق، وكان سألَه عن المسألة، فاعتذر له بأنَّ الغلطَ فيها يَضْعُبُ، لأنَّ إدخالَ كافرٍ في المِلَّةِ، أو إخراجَ مسلمٍ منها، عَظِيمٌ في الدين.

وقال غيرهما من المحققين: الذي يجب الاحتراز من التكفير في أهل التَّأْوِيلِ، فإن استباحة دماء المصلين الموحدين خطر، والخطأ في ترك ألف كافرٍ أَهْوَنُ من الخطأ في سَفَكِ مِخْجَمَةٍ، من دم مسلم واحد.

١٨٠٠ - وقد قال عليه السلام: «فإذا قالوها - يعني الشهادة - فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله».

فالعصمة مقطوعة بها مع الشهادة، ولا ترتفع ويستباح خلافها إلا بقاطع، ولا قاطع من شرع، ولا قياس عليه.

١٨٠١ - وألفاظ الأحاديث الواردة في الباب مُعْرَضَةٌ للتأويل، فما جاء منها في التصريح بكُفْرِ القُلُوبِ، وقوله: «لا سَهْمَ لهم في الإسلام».

١٨٠٢ - وتسميته الرافضة بالشُّرك، وإطلاق اللُّعنة عليهم، وكذلك في الخوارج وغيرهم من أهل الأهواء والبدع، فقد يَخْتَجُّ بها مَنْ يَقُولُ بالكُفْرِ، وقد يَجِبُ الْآخِرُ عنها بأنه قد وردَ مثْلُ هذه الألفاظ في الحديث في غير الكُفْرِ على طريقِ التغليظ، وكُفِّرَ دون كُفْرٍ، وإشراكٌ دون إشراكٍ.

وقد ورد مثله: في الرِّياء، وعقوقِ الوالدين، والزَّوج، والزَّور، وغير معصية.

وإذا كان محتملاً للأثرين فلا يُقَطَّعُ على أحدهما إلا بدليل قاطع. ولا دليل.

١٨٠٣ - وقوله في الخوارج: «هم من شرِّ البرية» [مسلم (١٨٠٣)] وهذه صفة الكُفَّار.

١٨٠٤ - وقال: «شَرُّ قَبِيلٍ تَحْتَ أَيْدِمِ السَّمَاءِ، طُوبَى لِمَنْ قَتَلَهُمْ، أَوْ قَتَلُوهُ».

١٨٠٥ - وقال: «فَإِذَا وَجَدْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ قَتْلَ عَادٍ» [مسلم (١٠٦٤)، (١٠٦٦)، البخاري (٥٠٥٧)].

وظاهرُ هذا الكُفْر، لا سِيَّما مع تشبيههم بعَادٍ، فَيَخْتَجُّ به مَنْ يَرَى تكفيرهم، فيقول له الآخرُ: إنما ذلك مِنْ قَتْلِهِمْ لخروجهم على المسلمين وبغيهم عليهم.

١٨٠٦ - بدليله من الحديثِ نَفْسِهِ: «يُقْتَلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ» [مسلم (١٠٦٤)] قَتَلُهُمْ هَا هُنَا حَدٌّ لَا كُفْرَ.

وَذَكَرَ عَادٍ تشبيهًُ لِلْقَتْلِ وَحِلَّهُ، لا للمقتول، وليس كُلُّ مَنْ حُكِمَ بِقَتْلِهِ يُحَكَّمُ بِكُفْرِهِ.

١٨٠٧ - ويعارضه بقول خالدٍ في الحديث: دَغْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قال: «لَعَلَّهُ يُصَلِّي» [البخاري (٤٣٥١)، مسلم (١٠٦٤/١٤٤)].

١٨٠٨ - فَإِنْ احْتَجُّوا بقوله عليه السلام: «يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يَجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ» [البخاري (٥٠٥٨)، مسلم (١٠٦٤/١٤٣)]، فَأَخْبِرْ أَنَّ الْإِيمَانَ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ.

١٨٠٩ - وكذلك قوله: «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ثُمَّ لَا يَفُودُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَعُودَ السَّهْمُ عَلَى فُوقِهِ» [البخاري (٧٥٦٢)، مسلم (١٠٦٤/١٤٨)].

١٨١٠ - وبقوله: «سَبَقَ الْفَرْتُ وَالْدَمُّ» [البخاري (٣٦١٠)، مسلم (١٠٦٤/١٤٨)] يدلُّ على أنه لم يتعلَّقْ من الإسلام بِشَيْءٍ.

أجابه الآخرون: إِنَّ مَعْنَى «لَا يَجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ» أَي لَا يَفْهَمُونَ مَعَانِيَهُ

بقلوبهم، ولا تَشْرُحْ له صدورهم، ولا تعملْ به جَوَارِحُهم.

١٨١١ - وعارضوهم بقوله: «وَيَتَمَارَى فِي الْفُوقِ» [البخاري (٦٩٣١)، مسلم

(١٤٧/١٠٦٤)].

وهذا يقتضي التشكك في حاله.

١٨١٢ - وَإِنْ احْتَجُّوا بِقَوْلِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: سَمِعْتُ

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُخْرَجُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ» [البخاري (٦٩٣١)، مسلم (١٤٧/١٠٦٤)]

ولم يقل: من هذه الأمة، وتَحْرِيرُ أَبِي سَعِيدٍ الرَّوَايَةَ، وإِتْقَانُهُ اللَّفْظَ.

١٨١٣ - أَجَابَهُمُ الْآخَرُونَ: بِأَنَّ الْعِبَارَةَ: بِ «فِي» لَا تَقْتَضِي تَضَرِيحاً بِكَوْنِهِمْ

مِنْ غَيْرِ الْأُمَّةِ، بِخِلَافِ لَفْظَةِ «مِنْ» الَّتِي هِيَ لِلتَّبْعِيضِ وَكَوْنِهِمْ مِنَ الْأُمَّةِ مَعَ أَنَّهُ قَدْ

رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ، وَأَبِي ذَرٍّ، وَأَبِي أُمَامَةَ وَغَيْرِهِمْ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «يُخْرَجُ مِنْ

أُمَّتِي» [مسلم (١٥٦/١٠٦٦)].

١٨١٤ - وَ «سَيَكُونُ مِنْ أُمَّتِي» [مسلم (١٠٦٧)]، وَحُرُوفُ الْمَعَانِي مُشْتَرَكَةٌ،

فَلَا تَعْوِيلُ عَلَى إِخْرَاجِهِمْ مِنَ الْأُمَّةِ بِ «فِي»، وَلَا عَلَى إِدْخَالِهِمْ فِيهَا بِ «مِنْ»، لَكِنْ

أَبَا سَعِيدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَجَادَ مَا شَاءَ فِي التَّنْبِيهِ الَّذِي نَبَّهَ عَلَيْهِ. وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ

عَلَى سَعَةِ فَهْمِهِ الصَّحَابَةَ، وَتَحْقِيقِهِمُ لِلْمَعَانِي، وَاسْتِنْبَاطِهَا مِنَ الْأَلْفَاظِ، وَتَحْرِيرِهِمْ

لَهَا، وَتَوْقِيهِمْ فِي الرَّوَايَةِ.

هَذِهِ الْمَذَاهِبُ الْمَعْرُوفَةُ لِأَهْلِ السُّنَّةِ. وَلِغَيْرِهِمْ مِنَ الْفِرَاقِ فِيهَا مَقَالَاتٌ كَثِيرَةٌ

مُضْطَرِبَّةٌ سَخِيفَةٌ، أَقْرَبُهَا قَوْلُ جَهْمٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ شَبِيبٍ: إِنَّ الْكُفْرَ بِاللَّهِ الْجَهْلُ بِهِ،

لَا يَكْفُرُ أَحَدٌ بِغَيْرِ ذَلِكَ.

وَقَالَ أَبُو الْهُدَيْلِ: إِنَّ كُلَّ مَتَأَوَّلٍ كَانَ تَأْوِيلُهُ تَنْشِيهًا لِلَّهِ بِخَلْقِهِ، وَتَجْوِيرًا لَهُ فِي

فِعْلِهِ، وَتَكْذِيبًا لِحَبْرِهِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَكُلُّ مَنْ أَثْبَتَ شَيْئًا قَدِيمًا لَا يُقَالُ لَهُ: اللَّهُ، فَهُوَ

كَافِرٌ.

وَقَالَ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ: إِنْ كَانَ مَمَّنْ عَرَفَ الْأَصْلَ، وَبَنَى عَلَيْهِ، وَكَانَ فِيْمَا

هُوَ مِنْ أَوْصَافِ اللَّهِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَذَا الْبَابِ فَفَاسِقٌ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ

مَمَّنْ لَمْ يَعْرِفِ الْأَصْلَ فَهُوَ مَخْطِئٌ غَيْرُ كَافِرٍ.

وَذَهَبَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَسَنِ الْعَنْبَرِيُّ إِلَى تَصْوِيبِ أَقْوَالِ الْمُجْتَهِدِينَ فِي أَصُولِ

الدِّينِ فِيْمَا كَانَ غَرْضُهُ لِلتَّأْوِيلِ، وَفَارَقَ فِي ذَلِكَ فِرَقَ الْأُمَّةِ، إِذْ أَجْمَعُوا سِوَاهُ عَلَى

أَنَّ الْحَقَّ فِي أَصُولِ الدِّينِ فِي وَاحِدٍ، وَالْمَخْطِئُ فِيهِ آثِمٌ عَاصٍ فَاسِقٌ. وَإِنَّمَا

الْخِلَافُ فِي تَكْفِيرِهِ.

وقد حكى القاضي أبو بكر الباقلاني مثل قول عبيد الله عن داود الأصبهاني، قال: وحكى قومٌ عنهما أنهما قالَا ذلك في كلِّ مَنْ عَلِمَ اللَّهُ سبحانه من حاله استفراغِ الوُسْعِ في طلب الحقِّ من أهلِ مِلَّتِنَا أو من غيرهم.

وقال نَحْوَ هذا القول: الجاحظُ، وثُمَامَةُ، في أَنَّ كثيراً من العامة والنساء والبله ومقلدة النصارى واليهود وغيرهم لا حُجَّةَ لِلَّهِ عليهم، إذ لم تُكُنْ لهم طِبَاعٌ يمكنُ معها الاستدلالُ.

وقد نحا العزالي قريباً من هذا المنحى في كتاب «التفرقة».

وقائل هذا كله كافرٌ بالإجماع على كُفْرِ مَنْ لَمْ يكفر أحدًا من النصارى واليهود، وكلُّ مَنْ فارقَ دينَ المسلمين، أو وقف في تكفيرهم، أو شكَّ.

قال القاضي أبو بكر: لأنَّ التوقيف والإجماع على كُفْرِهِمْ، فَمَنْ وقف في ذلك فقد كَذَّبَ النصَّ، والتوقيفُ، أو شكُّ فيه. والتكذيب أو الشكُّ فيه لا يَقَعُ إلاَّ من كافر.

فصل

في بَيَانِ مَا هُوَ مِنَ الْمَقَالَاتِ كُفْرٌ، وَمَا يَتَوَقَّفُ أَوْ يُخْتَلَفُ فِيهِ، وَمَا لَيْسَ بِكُفْرٍ

اعلم أنَّ تحقيق هذا الفضل، وكشف اللبس فيه، مَزْرُوعُ الشَّرْعِ، ولا مجال للعقل فيه، والفضلُ البَيِّنُ في هذا أنَّ كلَّ مَقَالَةٍ صَرَّحَتْ بِنُفْيِ الرُّبُوبِيَّةِ، أو الوُحْدَانِيَّةِ، أو عبادةِ أَحَدٍ غير الله، أو مع اللّه - فهي كُفْرٌ -، كمقالةِ الدَّهْرِيَّةِ، وسائرِ فرقِ أصحابِ الاثْنَيْنِ من الدِّيَّانِيَّةِ، وَالْمَانَوِيَّةِ، وأشباهِهِمْ من الصابئين، والنصارى، والمجوس، والذين أشركوا بعبادة الأوثان، أو الملائكة، أو الشياطين، أو الشمس، أو القمر، أو النجوم، أو النار، أو أحدٍ غَيْرِ اللَّهِ، مِنْ مُشْرِكِي العرب، وأهلِ الهِنْدِ، والصِّينِ، والسُّودَانِ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ لا يَرْجِعُ إلى كتاب.

وكذلك القرامِطَةُ، وأصحابُ الحُلُولِ، والتناسُخِ من الباطنية، والطيارَةِ من الروافضِ، والجناحية والبيانية والغرابية.

وكذلك من اعترفَ بِالْهَيْئَةِ الله ووَحْدَانِيَّتِهِ، ولكنه اعتقد أنه غير حيٍّ، أو غَيْرُ قديمٍ، وأنه مُخَدَّتٌ أو مَصُورٌ، أو ادَّعَى له وَلَدًا، أو صاحِبَةً، أو والدًا، أو أنه متولَّدٌ مِنْ شَيْءٍ، أو كائنٌ عنه، أو أنَّ معه في الْأَزَلِّ شيئاً قديمًا غَيْرُهُ، أو أنَّ ثَمَّ صَانِعًا لِلْعَالَمِ سِوَاهُ، أو مُدَبِّرًا غَيْرَهُ، فذلك كله كُفْرٌ بإجماع المسلمين، كقول

الإلهيين من الفلاسفة، والمنجمين، والطبائعين، وكذلك من ادعى مجالسة الله،
والعروج إليه، ومكالمته، أو حلوله في أحد الأشخاص، كقول بغض المتصوفة،
والباطنية، والنصارى، والقرامطة.

وكذلك يقطع على كُفر من قال بقدَم العالم، أو بقائه، أو شك في ذلك
على مذهب بعض الفلاسفة، والذهرية، أو قال بتناسخ الأزواج، وانتقالها أبد
الآباد في الأشخاص، وتعذيبها أو تنعيمها فيها بحسب زكاتها وخبيثها. وكذلك من
اعترف بالإلهية والوحدانية، ولكنه جحد النبوة من أصلها عموماً، أو نبوة نبينا
- عليه السلام - خصوصاً، أو أحداً من الأنبياء الذين نص الله عليهم بعد علمه
بذلك، فهو كافر بلا ريب: كالبراهمة، ومُعظم اليهود، والأروسيّة من النصارى،
والغُرَابِيَّة من الرّوافض الرّاعمين أنّ عليّاً رضي الله عنه كان المبعوث إليه جبريلُ،
وكالمعطلة. والقرامطة، والإسماعيلية والعنبريّة من الرافضة، وإن كان بعض هؤلاء
قد أشركوا في كُفر آخر مع من قبلهم.

وكذلك من دأب بالوحدانية، وصحّة النبوة، ونبوة نبينا عليه السلام، ولكن
جوز على الأنبياء الكذب فيما أتوا به، ادعى في ذلك المصلحة بزعمه أو لم
يدعها فهو كافر بإجماع، كالمفلسفين، وبعض الباطنية والرّوافض وغلاة
المتصوفة، وأصحاب الإباحية فإن هؤلاء زعموا أنّ ظواهر الشّرع، وأكثر ما جاءت
به الرّسل من الأخبار عما كان، ويكون، من أمور الآخرة، والحشر، والقيامة
والبعث والنشور والجنة والنار، ليس منها شيء على مقتضى لفظها، ومفهوم
خطابها، وإنما خاطبوا بها الخلق على جهة المصلحة لهم، إذ لم يمكنهم
التصريح لمقصود أفهامهم، فمضمون مقالاتهم إبطال الشرائع، وتعطيل الأوامر
والنواهي، وتكذيب الرّسل، والارتياح فيما أتوا به.

وكذلك من أضاف إلى نبينا ﷺ تعمّد الكذب فيما بلغه أو أخبر به، أو
شك في صدقه، أو سبه، أو قال: إنّه لم يبلغ، أو استخف به، أو يأخذ من
الأنبياء، أو أزرى عليهم، أو آذاهم، أو قتل نبياً، أو حاربه، فهو كافر بإجماع.

وكذلك تُكفر من ذهب مذهب بعض القدماء في أنّ في كل جنس من
الحيوان نذيراً، أو نبياً من القردة والخنازير والشیاطين والدواب والدود ويحتج
بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. إذ ذلك يؤدّي إلى أن
يوصف أنبياء هذه الأجناس بصفاتهم المذمومة. وفيه من الإزراء على هذا
المنصب المُنيف ما فيه، مع إجماع المسلمين على خلافه وتكذيب قائله.

وكذلك نُكْفَرُ من اعترف من الأصول الصحيحة بِمَا تقدم، وبنبوة نبينا عليه السلام، ولكن قال: كان أسود، أو مات قبل أن يَلْتَحِي، أو ليس الذي كان بمكة والحجاز، أو ليس بقرشي، لأنَّ وَصْفَهُ بغير صفاته المعلومة ﷺ نَفْيٌ له، وتكذيبٌ به.

وكذلك مَنْ ادَّعى نبوة أحدٍ مع نبينا - عليه السلام - أو بعده، كالعيسوية من اليهود القائلين بتخصيص رسالته إلى العرب، وكالخرموية القائلين بتواتر الرُّسل، وكأكثر الرافضة القائلين بمشاركة عليٍّ للنبي ﷺ في الرسالة ونَعْدَهُ، وكذلك كلُّ إمام عند هؤلاء يقوم مقامه في النبوة والحجة، وكالبريغية والبيانية منهم القائلين بنبوة بريغ وبيانٍ وأشباه هؤلاء. أو من ادَّعى النبوة لنفسه، أو جوَّز اكتسابها والبلوغ بصفاء القلب إلى مرتبتها، كالفلاسفة وغلاة المتصوفة.

وكذلك من ادَّعى منهم أنه يُوحى إليه وإن لم يدَّع النبوة، أو أنه يضعُدُّ إلى السماء ويدخل الجنة، ويأكل من ثمارها، ويعانق الحور العين، فهؤلاء كلُّهم كفارٌ مكذبون للنبي ﷺ، لأنه أخبر - عليه السلام - أنه خاتم النبيين، لا نبي بعده، وأخبر أيضاً عن الله تعالى أنه خاتم النبيين، وأنه أرسل إلى كافة الناس.

وأجمعت الأمة على حمل هذا الكلام على ظاهره، وأنَّ مفهومه المراد منه دون تأويل ولا تخصيص، فلا شك في كفر هؤلاء الطوائف كلها قطعاً، إجماعاً وسمعاً.

وكذلك وقع الإجماع على تكفير كلِّ مَنْ دافع نصَّ الكتاب، أو خصَّ حديثاً مُجمِعاً على ثقله، مقطوعاً به، مُجمِعاً على حمله على ظاهرة، كتكفير الخوارج بإبطال الرِّجَم، ولهذا نُكْفَرُ مَنْ دان بغير مِلَّةِ المسلمين من الجمل، أو وقف فيهم، أو شكَّ، أو صَحَّح مذهبهم، وإن أظهر مع ذلك الإسلام، واعتقده، واعتقد إبطال كلِّ مذهب سواه، فهو كافرٌ بإظهار ما أظهره من خلاف ذلك.

وكذلك تُقَطَّعُ بتكفير كلِّ قائل قال قولاً يتوصَّلُ به إلى تَضليل الأمة، وتكفير جميع الصحابة، كقول الكَمِيلِيَّةِ من الرافضة بتكفير جميع الأمة بعد النبي ﷺ، إذ لم تُقدِّم علياً، وكفَّرت علياً، إذ لم يتقدَّم ويطلب حقَّه في التقديم، فهؤلاء قد كفروا من وجوه، لأنهم أبطلوا الشريعة بأسرها، إذ قد انقطع ثقلها ونقل القرآن، إذ ناقَلوه كفرَةً على رَغمهم، وإلى هذا - والله أعلم - أشار مالكٌ في أحدِ قَوْلِيهِ بِقَتْلِ مَنْ كَفَرَ الصحابة.

ثم كفروا مِنْ وَجْهِ آخر بِسَبِّهم النبي ﷺ على مُقتضى قولهم ورَغمهم أنه

عَهْدَ إِلَى عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَكْفُرُ بَعْدَهُ - عَلَى قَوْلِهِمْ - لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ.

وَكَذَلِكَ نَكْفُرُ بِكُلِّ فِعْلٍ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ لَا يَصُدُّ إِلَّا مِنْ كَافِرٍ، وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ مُصْرَحًا بِالْإِسْلَامِ مَعَ فِعْلِهِ ذَلِكَ الْفِعْلُ، كَالسُّجُودِ لِلصَّنَمِ، أَوْ لِلشَّمْسِ، وَالْقَمَرِ، وَالصَّلِيبِ، وَالنَّارِ، وَالسَّغِيِّ إِلَى الْكَتَائِسِ وَالْبَيْعِ مَعَ أَهْلِهَا وَالتَّزْيِي بِزَيْهِمْ: مِنْ شِدِّ الزَّنَانِيرِ، وَفَخْصِ الرُّؤُوسِ، فَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ لَا يَوْجَدُ إِلَّا مِنْ كَافِرٍ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَفْعَالَ عِلَامَةٌ عَلَى الْكُفْرِ، وَإِنْ صَرَخَ فَاعِلُهَا بِالْإِسْلَامِ.

وَكَذَلِكَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى تَكْفِيرِ كُلِّ مَنْ اسْتَحْلَ الْقَتْلَ، أَوْ شَرَبَ الْخَمْرَ أَوْ الزَّنا مِمَّا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ عِلْمِهِ بِتَحْرِيمِهِ، كَأَصْحَابِ الْإِبَاحَةِ مِنَ الْقِرَامِطَةِ، وَبَعْضِ غُلَاةِ الْمُتَصَوِّفَةِ.

وَكَذَلِكَ نَقْطَعُ بِتَكْفِيرِ كُلِّ مَنْ كَذَبَ وَأَنْكَرَ قَاعِدَةً مِنْ قَوَاعِدِ الشَّرْعِ، وَمَا عُرِفَ يَقِينًا بِالنَّقْلِ الْمُتَوَاتِرِ مِنْ فِعْلِ الرَّسُولِ ﷺ، وَوَقَعَ الْإِجْمَاعُ الْمُتَّصِلُ عَلَيْهِ، كَمَنْ أَنْكَرَ وَجُوبَ الْخُمْسِ الصَّلَوَاتِ، أَوْ عَدَدَ رَكَعَاتِهَا وَسُجُودَاتِهَا، وَيَقُولُ: إِنَّمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْنَا فِي كِتَابِهِ الصَّلَاةَ عَلَى الْجُمْلَةِ، وَكَوْنَهَا خُمْسًا، وَعَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ وَالشَّرُوطِ لَا أَعْلَمُهُ، إِذْ لَمْ يَرِدْ فِيهِ فِي الْقُرْآنِ نَصٌّ جَلِيٌّ، وَالْخَبَرُ بِهِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ خَبَرٌ وَاحِدٌ.

وَكَذَلِكَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى تَكْفِيرِ مَنْ قَالَ مِنَ الْخَوَارِجِ: إِنَّ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ، وَعَلَى تَكْفِيرِ الْبَاطِنِيَةِ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّ الْفَرَاثِضَ أَسْمَاءَ رِجَالٍ أَمْرُوا بِوَلَايَتِهِمْ، وَالْخَبَائِثُ وَالْمَحَارِمُ أَسْمَاءَ رِجَالٍ أَمْرُوا بِالْبِرَاءَةِ مِنْهُمْ.

وَقَوْلُ بَعْضِ الْمُتَصَوِّفَةِ: إِنَّ الْعِبَادَةَ وَطُولَ الْمُجَاهَدَةِ إِذَا صَفَّتْ نَفْسُهُمْ أَفْضَلَتْ بِهِمْ إِلَى إِسْقَاطِهَا، وَإِبَاحَةِ كُلِّ شَيْءٍ لَهُمْ، وَرَفَعَ عَهْدَ الشَّرَائِعِ عَنْهُمْ.

وَكَذَلِكَ إِنْ أَنْكَرَ مُنَكِّرُ مَكَّةَ، أَوِ الْبَيْتِ، أَوِ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، أَوْ صِفَةَ الْحَجِّ، أَوْ قَالَ: الْحَجُّ وَاجِبٌ فِي الْقُرْآنِ، وَاسْتِقْبَالُ الْقِبْلَةِ كَذَلِكَ، وَلَكِنْ كَوْنُهُ عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ الْمُتَعَارِفَةِ، وَأَنَّ تِلْكَ الْبُقْعَةُ هِيَ مَكَّةُ، وَالْبَيْتُ، وَالْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، لَا أَدْرِي هَلْ هِيَ تِلْكَ أَوْ غَيْرُهَا؟ وَلَعَلَّ النَّاظِلِينَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فَسَّرَهَا بِهَذِهِ التَّفَاسِيرِ غَلَطُوا أَوْ وَهَمُوا، فَهَذَا وَمِثْلُهُ لَا مِرْيَةَ فِي تَكْفِيرِهِ إِنْ كَانَ مِمَّنْ يُظَنُّ بِهِ عِلْمُ ذَلِكَ، وَمِمَّنْ خَالَطَ الْمُسْلِمِينَ، وَامْتَدَّتْ صَحْبَتُهُ لَهُمْ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِالْإِسْلَامِ، فَيُقَالُ لَهُ: سَبِيلُكَ أَنْ تَسْأَلَ عَنِ هَذَا الَّذِي لَمْ تَعْلَمْهُ بَعْدَ كَافَّةِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَا تَجِدَ بَيْنَهُمْ خِلَافًا، كَافَّةً عَنْ كَافَّةٍ، إِلَى مُعَاَصِرِي الرَّسُولِ ﷺ - أَنْ

هذه الأمور كما قيل لك، وأنَّ تلك البقعة هي مكة، والبيت الذي فيها هو الكعبة، والقبلة التي صلى لها الرسول ﷺ والمسلمون، وحجُّوا إليها، وطافوا بها، وأنَّ تلك الأفعال هي صفات عبادة الحج، والمراد به، وهي التي فعلها النبي ﷺ والمسلمون، وأنَّ صفات الصلوات المذكورة هي التي فعل النبي ﷺ، وشرح مُراد الله بذلك، وأبان حدودها، فيقع لك العلم كما وقع لهم، ولا ترتأب بذلك بعد، والمُرتأب في ذلك، أو المُنكر - بعد البحث وضجة المسلمين - كافر باتفاق، لا يُعذر بقوله: لا أدري، ولا يُصدق فيه، بل ظاهره التستر عن التكذيب، إذ لا يمكن أنه لا يدري.

وأيضاً فإنه إذا جَوَّزَ على جميع الأمة الوهم والغلط فيما نقلوه من ذلك، وأجمعوا أنه قول الرسول - عليه السلام - وفعله وتفسير مُراد الله به - أدخل الاستربة في جميع الشريعة -، إذ هم الناقلون لها وللقرآن، وانحلت عرى الإسلام كرامة، ومن قال هذا فهو كافر.

وكذلك من أنكر القرآن، أو حَزَفاً منه، أو غيّر شيئاً منه، أو زاد فيه، كفعل الباطنية والإسماعيلية، أو من زعم أنه ليس بحجة للنبي ﷺ، أو ليس فيه حجة ولا مُعجزة، كقول هشام القوطي، ومُعمر البصري: إنه لا يدلُّ على الله، ولا حجة فيه لرَسُوله، ولا يدلُّ على ثواب ولا عقاب، ولا حُكم، ولا محالة في كفرهما بهذا القول، أو من قال بقولهما.

وكذلك تكفيرهما بإنكارهما أن يكون في سائر معجزات النبي ﷺ حجة له، أو في خلق السموات والأرض دليل على الله، لمخالفتهم الإجماع والثقل المتواتر عن النبي ﷺ باحتجاجه بهذا كله، وتصريح القرآن به.

وكذلك من أنكر شيئاً ممَّا نصَّ فيه القرآن - بعد علمه - أنه من القرآن الذي في أيدي الناس، ومصاحف المسلمين، ولم يكن جاهلاً به، ولا قريب عهد بالإسلام، واحتج لإنكاره إمَّا بأنه لم يصرخ النقل عنده، ولا بلغه العلم به، أو لتجويز الوهم على ناقليه، فنكفروه بالطريقين المتقدمين، لأنه مكذب للقرآن، مكذب للنبي ﷺ، لكنه تَسَتَّرَ بدعواه.

وكذلك من أنكر الجنة، أو النار، أو البعث أو الحساب أو القيامة فهو كافر بإجماع، للنص عليه، وإجماع الأمة على صحة نقله متواتراً، وكذلك من اعترف بذلك، ولكنه قال: إنَّ المراد بالجنة والنار، والحشر والنشر، والثواب والعقاب - معنى غير ظاهره -، وإنها لذات روحانية، ومعانٍ باطنة، كقول النصاري،

والفلاسفة، والباطنية، وبعض المتصوفة، وزعيمهم أن معنى القيامة الموت أو فناء مخض، وانتقاض هيئة الأفلاك، وتحليل العالم، كقول بعض الفلاسفة.

وكذلك نقطع بتكفير غلاة الرافضة في قولهم: إن الأئمة أفضل من الأنبياء عليهم السلام. فأما من أنكر ما عُرف بالتواتر من الأخبار، والسير، والبلاد التي لا ترجع إلى إبطال شريعة، ولا تُفْضِي إلى إنكار قاعدة من الدين، كإنكار غزوة تبوك، أو مؤتة، أو وجود أبي بكر، وعمر، أو قتل عثمان أو خلافة علي، مما عَلِمَ بالثقل ضرورة، وليس في إنكاره جحد شريعة، فلا سبيل إلى تكفيره بجحد ذلك، وإنكاره وقوع العلم له، إذ ليس في ذلك أكثر من المباهة، كإنكار هشام وعباد وثقة الجمل، ومحاربة علي من خالفه.

فأما إن ضَعَفَ ذلك من أجل تهمة الناقلين، وَوَهَمَ المسلمون أجمع، فتكفره بذلك لِسَرَيَانِهِ إلى إبطال الشريعة.

فأما من أنكر الإجماع المجرد، الذي ليس طريقه الثقل المتواتر عن الشارع، فأكثر المتكلمين من الفقهاء والنظار في هذا الباب قالوا بتكفير كل من خالف الإجماع، أعني: الإجماع الصحيح الجامع لشروط الإجماع المتفق عليه عموماً.

وَحُجَّتُهُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝﴾ [النساء: ١١٥].

١٨١٥ - وقوله عليه السلام: «مَنْ خَالَفَ الْجَمَاعَةَ قَبْلَ أَنْ يَنْبَغِيَ لَهَا أَنْ يَخْلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ».

وَحَكَّوْا الْإِجْمَاعَ عَلَى تَكْفِير مَنْ خَالَفَ الْإِجْمَاعَ.

وذهب آخرون إلى الوقوف عن القطع بتكفير من خالف الإجماع الذي يختص بنبطه العلماء، وذهب آخرون إلى التوقف في تكفير من خالف الإجماع الكائن عن نظر، كتكفير النظام بإنكاره الإجماع، لأنه بقوله هذا مخالف إجماع السلف على احتجاجهم به، خارق للإجماع.

قال القاضي أبو بكر: القول عندي أن الكفر بالله هو الجهل بوجوده، والإيمان بالله هو العلم بوجوده، وأنه لا يكفر أحد بقول ولا رأي إلا أن يكون هو الجهل بالله، فإن عصي بقول أو فعل نص الله ورَسُولُهُ عَلَيْهِ أو أجمع المسلمون، أنه لا يوجد إلا من كافر، أو يقوم دليل على ذلك، فقد كفر، ليس لأجل قوله أو فعله، لكن لما يقارنه من الكفر، فالكفر بالله لا يكون إلا بأحد ثلاثة أمور: أحدها: الجهل بالله تعالى. والثاني: أن يأتي فعلاً أو يقول قولاً

يُخْبِرُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، أَوْ يُجْمِعُ الْمُسْلِمُونَ، أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ كَافِرٍ، كَالسُّجُودِ لِلصَّنَمِ، وَالْمَشْيِ إِلَى الْكُنَائِسِ بِالتَّزَامِ الزُّنَارِ مَعَ أَصْحَابِهَا فِي أَعْيَادِهِمْ، أَوْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْقَوْلُ أَوْ الْفِعْلُ لَا يُمْكِنُ مَعَهُ الْعِلْمُ بِاللَّهِ تَعَالَى.

قال: فهذان الضربان، وإن لم يكونا جهلاً بالله، فهما علم أن فاعلهما كافر مُنْسَلَخٌ مِنَ الْإِيمَانِ، فَأَمَّا مَنْ نَفَى صِفَةً مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى الذَّاتِيَّةِ، أَوْ جَحَدَهَا مُسْتَبْصِراً فِي ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: لَيْسَ بِعَالِمٍ، وَلَا قَادِرٍ، وَلَا مَرِيدٍ، وَلَا مُتَكَلِّمٍ، وَشِبْهِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ الْوَاجِبَةِ لَهُ تَعَالَى، فَقَدْ نَصَّ أَثْمَتَنَا عَلَى الْإِجْمَاعِ عَلَى كُفْرِ مَنْ نَفَى عَنْهُ تَعَالَى الْوُضُفَ بِهَا، وَأَعْرَاهُ عَنْهَا.

وعلى هذا حُمِلَ قَوْلُ سَخْنُونٍ: مَنْ قَالَ: «لَيْسَ لِلَّهِ كَلَامٌ»، فَهُوَ كَافِرٌ وَهُوَ لَا يُكْفَرُ الْمَتَأَوَّلِينَ كَمَا قَدَمْنَاهُ.

فَأَمَّا مَنْ جَهِلَ صِفَةً مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ هَاهُنَا، فَكَفَرَهُ بَعْضُهُمْ، وَحَكِي ذَلِكَ عَنْ أَبِي جَعْفَرِ الطَّبْرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَغَيْرِهِ، وَقَالَ بِهِ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ مَرَّةً، وَتَوَقَّفَ فِيهِ مَرَّةً.

وذهبت طائفة إلى أَنَّ هَذَا لَا يَخْرُجُهُ عَنْ حَدِّ الْإِيمَانِ، وَلَا عَنْ اسْمِهِ، وَإِلَيْهِ رَجَعَ الْأَشْعَرِيُّ، قَالَ: لِأَنَّهُ لَمْ يَعْتَقِدْ ذَلِكَ اعْتِقَاداً يَقْطَعُ بِصَوَابِهِ، وَيَرَاهُ دِيناً وَشَرْعاً، وَإِنَّمَا نَكَفَّرُ مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ مَقَالَهُ حَقٌّ.

١٨١٦ - وَاحْتِجَّ هَؤُلَاءُ بِحَدِيثِ السَّوْدَاءِ [مُسْلِم (٥٣٧)]، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا طَلَبَ مِنْهَا التَّوْحِيدَ لَا غَيْرَ.

١٨١٧ - وَبِحَدِيثِ الْقَائِلِ: «لَيْتَنِي قَدَّرَ اللَّهُ عَلَيَّ» [الْبُخَارِيُّ (٧٥٠٦)]، مُسْلِمٌ (٢٧٥٦).

١٨١٨ - وَفِي رَوَايَةٍ فِيهِ: «لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ» [أَحْمَدُ (٥/٥)] ثُمَّ قَالَ: «فَقَفَرَ اللَّهُ لَهُ».

قالوا: وَلَوْ بُوْحَتْ أَكْثَرُ النَّاسِ عَنِ الصِّفَاتِ، وَكُوشِفُوا عَنْهَا، لَمَّا وَجَدَ مَنْ يَعْلَمُهَا إِلَّا الْأَقْلَ.

وَقَدْ أَجَابَ الْآخَرُ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ بِوُجُوهٍ، مِنْهَا: أَنَّ «قَدَرَ» بِمَعْنَى قَدَّرَ، وَلَا يَكُونُ شَكُّهُ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى إِحْيَائِهِ، بَلْ فِي نَفْسِ الْبَغْثِ الَّذِي لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِشَرْعٍ، وَلَعَلَّهُ لَمْ يَكُنْ وَرَدَ عَنْهُمْ بِهِ شَرْعٌ يَقْطَعُ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ الشَّكُّ فِيهِ حَيْثُ ذِكْرُ كُفْرٍ.

فَأَمَّا مَا لَمْ يَرِذْ بِهِ شَرْعٌ فَهُوَ مِنْ مُجَوِّزَاتِ الْعُقُولِ، أَوْ يَكُونُ «قَدَرَ» بِمَعْنَى

ضَيِّقٌ، ويكون ما فعله بنفسه إزراءً عليها، وَغَضَباً لِعُضَيَّانِهَا.
 وقيل: إِنَّمَا قَالَهُ وَهُوَ غَيْرُ عَاقِلٍ لِكَلَامِهِ، وَلَا ضَابِطٍ لِلْقُظْمَةِ مِمَّا اسْتَوْلَى عَلَيْهِ
 مِنَ الْجَزَعِ، وَالْخَشْيَةِ الَّتِي أَذْهَبَتْ لُبَّهُ، فَلَمْ يُوَاطِئْ بِهِ.
 وقيل: كَانَ هَذَا فِي زَمَنِ الْفِتْرَةِ، وَحَيْثُ يَنْفَعُ مُجَرَّدُ التَّوْحِيدِ.
 وقيل: بَلْ هَذَا مِنْ مَجَازِ كَلَامِ الْعَرَبِ الَّذِي صَوَّرَتْهُ الشُّكُّ، وَمَعْنَاهُ التَّحْقِيقُ،
 وَهُوَ يَسْمَى تَجَاهُلَ الْعَارِفِ، وَلَهُ أَمْثَلَةٌ فِي كَلَامِهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ
 يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِنَّا أَوْ لِيَاكُم لَعَلَّ هَذَى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾
 [سبا: ٢٤].

فَأَمَّا مَنْ أَثَبَّتَ الْوَصْفَ، وَنَفَى الصِّفَةَ، فَقَالَ: أَقُولُ: عَالِمٌ، وَلَكِنْ لَا عِلْمَ
 لَهُ، وَمَتَكَلَّمٌ وَلَكِنْ لَا كَلَامَ لَهُ. وَهَكَذَا فِي سَائِرِ الصِّفَاتِ عَلَى مَذْهَبِ الْمَعْتَزَلَةِ.
 فَمَنْ قَالَ بِالْمَالِ لِمَا يُوَدِّيهِ إِلَيْهِ قَوْلُهُ، وَيَسُوِّفُهُ إِلَيْهِ مَذْهَبُهُ - كَقَرِّهِ - لِأَنَّهُ إِذَا نَفَى
 الْعِلْمَ انْتَفَى وَصْفُ عَالِمٍ، إِذْ لَا يُوَصَّفُ بِعَالِمٍ إِلَّا مَنْ لَهُ عِلْمٌ، فَكَانَهُمْ صَرَّحُوا
 عِنْدَهُ بِمَا أَدَّى إِلَيْهِ قَوْلُهُمْ.

وهكذا عند هذا سائر فِرَقِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ مِنَ الْمُشَبِّهَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ.
 وَمَنْ لَمْ يَرِ أَخَذَهُمْ بِمَالِ قَوْلِهِمْ، وَلَا أَلْزَمَهُمْ مُوجِبُ مَذْهَبِهِمْ، لَمْ يَرِ
 إِكْفَارَهُمْ، قَالَ: لَأَنَّهُمْ إِذَا وَقَفُوا عَلَى هَذَا قَالُوا: لَا نَقُولُ لَيْسَ بِعَالِمٍ، وَنَحْنُ نَنْتَفِي
 مِنَ الْقَوْلِ بِالْمَالِ الَّذِي أَلْزَمْتُمُوهُ لَنَا، وَنَعْتَقِدُ نَحْنُ وَأَنْتُمْ أَنَّهُ كَفَرٌ، بَلْ نَقُولُ: إِنَّ
 قَوْلَنَا لَا يُوَوِّلُ إِلَيْهِ عَلَى مَا أَصْلَنَاهُ.

فعلى هذين المأخذين اختلف الناس في إكفار أهل التأويل، وإذا فهنته
 انضح لك الموجب لاختلاف الناس في ذلك.

والصواب ترك إكفارهم، والإعراض عن الحثم عليهم بالخسران، وإجراء
 حُكْمِ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِمْ فِي قِصَاصِهِمْ وَوَرَاثَتِهِمْ، وَمُنَاقَحَاتِهِمْ، وَدِيَاتِهِمْ، وَالصَّلَاةِ
 عَلَيْهِمْ، وَدَفْنِهِمْ فِي مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَسَائِرِ مُعَامَلَاتِهِمْ، لَكِنَّهُمْ يُغْلَظُ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِ
 الْأَدَبِ، وَشَدِيدِ الزَّجْرِ وَالْهَجْرِ، حَتَّى يَرْجِعُوا عَنْ بَذْعَتِهِمْ.

وهذه كانت سيرة الصَّدرِ مِنَ السَّلَفِ الْأَوَّلِ فِيهِمْ، فَقَدْ كَانَ نَشْأً عَلَى زَمَنِ
 الصَّحَابَةِ وَبَعْدَهُمْ فِي التَّابِعِينَ مَنْ قَالَ بِهِذِهِ الْأَقْوَالِ مِنَ الْقَدَرِ، وَرَأَى الْخَوَارِجَ،
 وَالْإِعْتِرَالَ، فَمَا أَزَاحُوا لَهُمْ قَبْرًا، وَلَا قَطَعُوا لِأَحَدٍ مِنْهُمْ مِيرَاثًا، لَكِنَّهُمْ هَجَرُوهُمْ
 وَأَذَبُوهُمْ بِالضَّرْبِ، وَالتَّنْفِي، وَالْقَتْلِ عَلَى قَدَرِ أَحْوَالِهِمْ، لِأَنَّهُمْ فُسَاقٌ، ضَلَالٌ،
 عُصَاةٌ، أَصْحَابُ كِبَائِرٍ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ وَأَهْلِ السُّنَّةِ مِمَّنْ لَمْ يَقُلْ بِكُفْرِهِمْ مِنْهُمْ،

خِلافاً لِمَنْ رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ الْمَوْقُوفُ لِلصَّوَابِ.

قال القاضي أبو بكر: وأما مسائل الوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَالرُّؤْيَةِ، وَالْمَخْلُوقِ، وَخَلْقِ الْأَفْعَالِ، وَبَقَاءِ الْأَعْرَاضِ، وَالتَّوَلُّدِ، وَشِبْهَيْهَا مِنَ الدَّقَائِقِ، فَالْمَنْعُ فِي إِكْفَارِ الْمُتَأَوِّلِينَ فِيهَا أَوْضَحُّ، إِذْ لَيْسَ فِي الْجَهْلِ بِشَيْءٍ مِنْهَا جَهْلٌ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَلَا أَجْمَعُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى إِكْفَارِ مَنْ جَهِلَ شَيْئاً مِنْهَا.

وقد قدَّمنا في الْفَضْلِ قَبْلَهُ مِنَ الْكَلَامِ وَصُورَةَ الْخِلَافِ فِي هَذَا مَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ - هَا هُنَا - بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

فصل

فِي حُكْمِ الذَّمِّ السَّابِّ لِلَّهِ تَعَالَى

هَذَا حُكْمُ الْمُسْلِمِ السَّابِّ لِلَّهِ تَعَالَى وَأَمَّا الذَّمُّ فَرَوِي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ فِي ذَمِّي تَنَاوَلَ مِنْ حُزْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى غَيْرِ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ دِينِهِ، وَحَاجٌّ فِيهِ، فَخَرَجَ ابْنُ عُمَرَ عَلَيْهِ بِالسَّيْفِ فَطَلَبَهُ فَهَرَبَ.

وقال مالك، في كتاب ابن حبيب و «المبسوطة» وابن القاسم في «المبسوط» وكتاب محمد، وابن سَخْنُون: مَنْ شَتَمَ اللَّهَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي بِهِ كَفَرُوا قُتِلَ وَلَمْ يُسْتَتَبْ.

قال ابن القاسم: إِلَّا أَنْ يُسْلِمَ. قال في «المبسوطة»: طَوْعاً.

قال أَصْبَغُ: لِأَنَّ الْوَجْهَ الَّذِي بِهِ كَفَرُوا هُوَ دِينُهُمْ، وَعَلَيْهِ عُوْهُدُوا مِنْ دَعْوَى الصَّاحِبَةِ وَالشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ.

وَأَمَّا غَيْرُ هَذَا مِنَ الْفِرْيَةِ وَالشَّتْمِ فَلَمْ يُعَاهَدُوا عَلَيْهِ، فَهُوَ نَقْضٌ لِلْعَهْدِ.

قال ابن القاسم في كتاب محمد: وَمَنْ شَتَمَ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذُكِرَ فِي كِتَابِهِ قُتِلَ، إِلَّا أَنْ يُسْلِمَ.

وقال المخزومي في «المبسوطة» ومحمد بن مسلمة، وابن أبي حازم: لَا يُقْتَلُ، حَتَّى يُسْتَتَبَ، مُسْلِماً كَانَ أَوْ كَافِراً، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ.

وقال مُطَرِّفٌ وَعَبْدُ الْمَلِكِ مِثْلَ قَوْلِ مَالِكٍ.

وقال أبو محمد بن أبي زَيْدٍ: مَنْ سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى - بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي بِهِ كَفَرَ - قُتِلَ إِلَّا أَنْ يُسْلِمَ.

وقد ذكرنا قَوْلَ ابْنِ الْجَلَّابِ قُتِلَ، وَذَكَرْنَا قَوْلَ عَبْدِ اللَّهِ، وَابْنَ ثُبَابَةَ، وَشِبْخَ

الأندلسيين في النصرانية، وفُتِيَّاهُمْ بِقَتْلِهَا لِسَبِّهَا - بِالْوَجْهِ الَّذِي كَفَرَتْ بِهِ - الله تعالى، ولِلنَّبِيِّ ﷺ.

وَإِجْمَاعُهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ نَحْوُ الْقَوْلِ الْآخِرِ فَيَمْنُ سَبُّ النَّبِيِّ ﷺ مِنْهُمْ بِالْوَجْهِ الَّذِي كَفَرُ بِهِ، وَلَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ سَبِّ اللَّهِ وَسَبِّ نَبِيِّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِأَنَّا عَاهَدْنَاهُمْ عَلَى أَلَّا يُظْهِرُوا لَنَا شَيْئاً مِنْ كُفْرِهِمْ، وَأَلَّا يَسْمَعُونَا شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، فَمَتَى فَعَلُوا شَيْئاً مِنْهُ فَهُوَ تَقْضُ لِعَهْدِهِمْ.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الدُّمِيِّ إِذَا تَرَنَّدَقَ، فَقَالَ مَالِكٌ، وَمُطَرِّفٌ، وَابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ، وَأَصْبَغٌ: لَا يُقْتَلُ، لِأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ كُفْرٍ إِلَى كُفْرٍ. وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ الْمَاجِشُونِ: يُقْتَلُ لِأَنَّهُ دِينَ لَا يُقَرُّ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وَلَا تَوْخَذُ عَلَيْهِ جَزِيَّةٌ. قَالَ ابْنُ حَبِيبٍ: وَلَا أَعْلَمُ مَنْ قَالَهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ غَيْرُهُ.

فصل

فِي خُكْمِ الْمُفْتَرِيِ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِادِّعَاءِ الْإِلَهِيَّةِ أَوْ الرِّسَالَةِ، أَوْ النَّافِيِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ رَبَّهُ أَوْ خَالِقَهُ

هَذَا حُكْمٌ مَنْ صَرَخَ بِسَبِّهِ وَإِضَافَةٍ لَهُ مَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، فَأَمَّا مُفْتَرِيِ الْكَذِبِ عَلَيْهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بِادِّعَاءِ الْإِلَهِيَّةِ، أَوْ الرِّسَالَةِ، أَوْ النَّافِيِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - خَالِقَهُ، أَوْ رَبَّهُ، أَوْ قَالَ: لَيْسَ لِي رَبٌّ، أَوْ الْمَتَكَلِّمُ بِمَا لَا يُعْقَلُ مِنْ ذَلِكَ فِي سُكْرِهِ، أَوْ غَمَرَةٍ جَثُونِهِ، فَلَا خِلَافَ فِي كُفْرِهِ قَائِلِ ذَلِكَ وَمُدَّعِيهِ مَعَ سَلَامَةِ عَقْلِهِ كَمَا قَدَمْنَا، لَكِنَّهُ تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ عَلَى الْمَشْهُورِ، وَتَنْفَعُهُ إِثَابَتُهُ، وَتُنَجِّيهِ مِنَ الْقَتْلِ قَبِيلَتُهُ، لَكِنَّهُ لَا يَسْلَمُ مِنْ عَظِيمِ النَّكَالِ، وَلَا يُرْفَعُ عَنْ شَدِيدِ الْعِقَابِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ زَجْراً لِمِثْلِهِ عَنْ قَوْلِهِ، وَلَهُ عَنِ الْعَوْدَةِ لِكُفْرِهِ أَوْ جَهْلَتِهِ، إِلَّا مَنْ تَكَرَّرَ مِنْهُ ذَلِكَ، وَغُرِفَ اسْتِهَانَتُهُ بِمَا أَتَى بِهِ، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى سُوءِ طَوْبَتِهِ، وَكَذِبِ تَوْبَتِهِ، وَصَارَ كَالزُّنْدِيقِ الَّذِي لَا تَأْمَنُ بَاطِنُهُ، وَلَا تُقْبَلُ رُجُوعُهُ، وَحُكْمُ السَّكَرَانِ فِي ذَلِكَ حُكْمُ الصَّاحِي.

وَأَمَّا الْمَجْنُونُ وَالْمَغْتَوُّهُ فَمَا عَلِمَ أَنَّهُ قَالَهُ مِنْ ذَلِكَ فِي حَالِ غَمَرَتِهِ، وَدَهَابِ مَيِّزِهِ بِالْكَلِيَّةِ فَلَا نَظَرَ فِيهِ، وَمَا فَعَلَهُ مِنْ ذَلِكَ فِي حَالِ مَيِّزِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ عَقْلُهُ وَسَقَطَ تَكْلِيفُهُ أَدَبٌ عَلَى ذَلِكَ لِيَنْزَجَرَ عَنْهُ، كَمَا يُوَدَّبُ عَلَى قَبَائِحِ الْأَفْعَالِ، وَيُؤَالَى أَدَبُهُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يَنْكَفَّ عَنْهُ، كَمَا تُوَدَّبُ الْبَهِيمَةُ عَلَى سُوءِ الْخُلُقِ حَتَّى تُرَاضَ. وَقَدْ حَرَّقَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ ادَّعَى لَهُ الْإِلَهِيَّةَ، وَقَدْ قَتَلَ

عبد الملك بن مَرْوَانَ الحَارِثَ الْمُتَنَبِّئَةَ وصلبه، وفعل ذلك غَيْرُ واحدٍ من الخلفاء والملوك بأشباههم.

وأجمع علماء وقتهم على صَوَابِ فِعْلِهِمْ، والمخالفُ في ذلك مِنْ كُفْرِهِمْ كَافِرٌ.
وأجمع فقهاء بَغْدَادَ - أيامَ المقتدر - من المالكية، وقاضي قُضَاتِهَا أَبُو عُمَرَ المالكي على قَتْلِ الحَلَّاجِ وصلِّيه، لِدَعْوَاهُ الإلهية، والقولُ بالحُلُولِ، وقوله: أنا الحقُّ، مع تَمَسُّكِهِ في الظَّاهِرِ بالشرِعة، ولم يقبلوا توبته.
وكذلك حكموا في ابْنِ أَبِي العَزَاقِرِ - وكان على نحو من مذهب الحلاج - بعد هذا أيام الراضي بالله، وقاضي قُضَاةِ بَغْدَادِ يومئذِ أَبُو الحُسَيْنِ بنِ أَبِي عمر المالكي.

وقال ابنُ عبدالحكم في «المبسوط»: مَنْ تَنَبَّأ قُتِلَ.
وقال أبو حنيفة وأصحابه: مَنْ جَحَدَ أَنَّ اللهَ تعالى خالقه أو ربّه، أو قال: ليس لي ربٌّ، فهو مُرْتَدٌّ.
وقال ابنُ القاسم في كتاب محمد، وابن حبيب في «العُتْبِيَّةِ» - فيمن تَنَبَّأ - يُسْتَتَابُ، أَسَرَ ذَلِكَ، أو أعلنه، وهو كالمُرتَدِّ.
وبه قال سَخْنُونُ وَغَيْرُهُ، وقاله أَشْهَبُ في يَهُودِيَّ تَنَبَّأ، وادَّعى أنه رسولُ إلينا: إِنْ كَانَ مُعْلِنًا بِذَلِكَ اسْتَيْبَ، فَإِنْ تَابَ، وَإِلَّا قُتِلَ.
وقال أبو محمد بنِ أَبِي زَيْدٍ - فيمن لعن باريّه، وادَّعى أَنَّ لِسَانَهُ زَلٌّ، وإنما أَرَادَ لَعَنَ الشَّيْطَانَ -: يُقْتَلُ بِكَفْرِهِ، ولا يُقْبَلُ عُذْرُهُ.
وهذا على القولِ الآخر من أنه لا تُقْبَلُ توبته.
وقال أبو الحسن القَاسِمِيُّ - في سَكْرَانٍ، قال: أنا الله، أنا الله -: إِنْ تَابَ أَدَبٌ، فَإِنْ عَادَ إِلَى مِثْلِ قَوْلِهِ طُولِبَ مَطَالِبَةُ الزُّنْدِيقِ، لِأَنَّ هَذَا كُفْرُ الْمُتَلَاعِينِ.

فصل

فِي حُكْمِ مَنْ تَكَلَّمَ مِنْ سَقَطِ الْقَوْلِ، وَسُخْفِ اللَّفْظِ،
مِمَّنْ لَمْ يَضْبُطْ كَلَامَهُ، وَأَهْمَلَ لِسَانَهُ، بِمَا يَقْتَضِي
الاستِخْفَافَ بِعَظَمَةِ رَبِّهِ، وَجَلَالَةِ مَوْلَاهُ

وَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ مِنْ سَقَطِ الْقَوْلِ وَسُخْفِ اللَّفْظِ مِمَّنْ لَمْ يَضْبُطْ كَلَامَهُ وَأَهْمَلَ
لِسَانَهُ بِمَا يَقْتَضِي الاستِخْفَافَ بِعَظَمَةِ رَبِّهِ، وَجَلَالَةِ مَوْلَاهُ، أَوْ تَمَثَّلَ فِي بَعْضِ

الأشياء ببعض ما عَظَمَ اللَّهُ مِنْ مَلَكُوتِهِ، أَوْ نَزَعَ مِنَ الْكَلَامِ لِمَخْلُوقٍ بِمَا لَا يَلِيقُ إِلَّا فِي حَقِّ خَالِقِهِ غَيْرَ قَاصِدٍ لِلْكَفْرِ وَالِاسْتِخْفَافِ، وَلَا عَامِدٍ لِلْإِلْحَادِ بِهِ، فَإِنْ تَكَرَّرَ هَذَا مِنْهُ، وَعُرِفَ بِهِ، ذَلَّ عَلَى تَلَاغِيهِ بَدِينَهُ، وَاسْتِخْفَافِهِ بِحُزْمَةِ رَبِّهِ، وَجَهْلِهِ بِعَظِيمِ عِزَّتِهِ وَكِبَرِيَّائِهِ، وَهَذَا كُفْرٌ لَا مِرْيَةَ فِيهِ.

وكذلك إن كان ما أوردَه يوجب الاستخفاف والتقص لربه .

وقد أفتى ابنُ حبيب، وأصبغُ بنُ خليل من فقهاء قُرطُبة بِقَتْلِ المعروف: بَابِنِ أَخِي عَجَبٍ، وكان خرج يوماً، فأخذَهُ المَطَرُ، فقال بدأ الخِرَّازُ يرش جلودَه . وكان بعضُ الفقهاء بها: أبو زيد صاحبُ «الْثُمَائِيَّةِ»، وَعَبْدُ الْأَعْلَى بنُ وَهْبٍ، وَأَبَانُ بنُ عَيْسَى، قد تَوَقَّفُوا عَنْ سَفْكِ دِمِهِ، وَأَشَارُوا إِلَى أَنَّهُ عَبَثٌ مِنَ الْقَوْلِ يَكْفِي فِيهِ الْأَدَبُ.

وأفتى بمثله القاضي حينئذٍ موسى بن زياد، فقال ابنُ حبيب: دَمُهُ فِي عُنُقِي، أَيَسْتَمُ رَبُّ عَبْدَنَاهُ، ثُمَّ لَا نَنْتَصِرُ لَهُ؟! إِنَّا إِذَا لَعِبِيدُ سَوْءٍ، وَمَا نَحْنُ لَهُ بِعَابِدِينَ، وَبَكَى، ورفع المجلس إلى الأمير بها: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ الْحَكَمِ الْأُمَوِي . وكانت عَجَبٌ - عَمَّةُ هَذَا الْمَطْلُوبِ - مِنْ حَظَايَاهُ، وَأَعْلِمَ بِاخْتِلَافِ الْفُقَهَاءِ، فَخَرَجَ الْإِذْنُ مِنْ عِنْدِهِ بِالْأَخْذِ بِقَوْلِ ابْنِ حَبِيبٍ وَصَاحِبِهِ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ الْمَذْكُورِ فَقَتِلَ، وَصُلِبَ بِحَضْرَةِ الْفَقِيهَيْنِ، وَعُزِّلَ الْقَاضِي لِتُهْمَتِهِ بِالْمَدَاهِنَةِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَوَيْخَ بَقِيَّةِ الْفُقَهَاءِ وَسِتِّهِمْ.

وَأَمَّا مَنْ صَدَرَتْ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ الْهَنَةِ الْوَاحِدَةُ وَالْفَلَتَةُ الشَّارِدَةُ - مَا لَمْ يَكُنْ تَنْقِصاً وَإِزْراءً - فَيُعَاقَبُ عَلَيْهَا وَيُؤَدَّبُ بِقَدْرِ مَقْتَضَاهَا، وَشُنْعَةِ مَعْنَاهَا، وَصُورَةِ حَالِ قَائِلِهَا، وَشَرْحِ سَبَبِهَا وَمُقَارِنِهَا.

وقد سُئِلَ ابْنُ الْقَاسِمِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ رَجُلٍ نَادَى رَجُلًا بِاسْمِهِ، فَأَجَابَهُ: لَيْتَكَ، اللَّهُمَّ! لَيْتَكَ.

فقال: إِنْ كَانَ جَاهِلًا، أَوْ قَالَهُ عَلَى وَجْهِ سَفَهٍ فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ.

قال القاضي أبو الفضل: وَشَرْحُ قَوْلِهِ أَنَّهُ لَا قَتْلَ عَلَيْهِ، وَالْجَاهِلُ يُزَجَرُ وَيُعَلَّمُ، وَالسَّفِيهُ يُؤَدَّبُ، وَلَوْ قَالَهَا عَلَى اعتقادِ إِنْزَالِهِ مَثَرَةً رَبِّهِ لَكُفْرٌ. هَذَا مُقْتَضَى قَوْلِهِ.

وقد أسرف كثيرٌ من سُخْفَاءِ الشُّعْرَاءِ وَمُتَّهِمِيهِمْ فِي هَذَا الْبَابِ، وَاسْتِخْفُوا عَظِيمَ هَذِهِ الْحَرَمَةِ، فَأَتَوْا مِنْ ذَلِكَ بِمَا تُنَزُّهُ كِتَابُنَا وَلِسَانُنَا وَأَقْلَامُنَا عَنْ ذِكْرِهِ، وَلَوْ لَا أَنَّا قَصَدْنَا نَصْرَ مَسَائِلِ حَكِيمِنَا لَمَا ذَكَرْنَا شَيْئًا مِمَّا يَثْقُلُ ذِكْرَهُ عَلَيْنَا مِمَّا حَكِيمُنَا فِي هَذِهِ الْفُصُولِ.

وأما ما ورد في هذا من أهل الجهالة وأغاليط اللسان، كقول بعض الأعراب:

رَبِّ الْعِبَادِ مَا لَنَا وَمَا لَكَ قَدْ كُنْتَ تَسْقِينَا فَمَا بَدَا لَكَ
أَنْزِلَ عَلَيْنَا الْغِيثَ لَا أَبَالَكَ

في أشباه لهذا مِنْ كلام الجُهَّال.

وَمَنْ لَمْ يَقْوَمْهُ ثِقَافُ تَأْدِيبِ الشَّرِيعَةِ وَالْعِلْمِ فِي هَذَا الْبَابِ، فَقَلَّمَا يَصْدُرُ إِلَّا
مِنْ جَاهِلٍ، يَجِبُ تَعْلِيمُهُ، وَرَجْرُهُ، وَالْإِغْلَاطُ لَهُ عَنِ الْعُودَةِ إِلَى مِثْلِهِ.
قال أبو سليمان الخطَّابي: وهذا تهوُّرٌ مِنَ الْقَوْلِ، وَاللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مُنْزَعٌ
عَنْ هَذِهِ الْأُمُورِ كُلِّهَا.

وقد رَوَيْنَا عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ: لِيُعْظَمَ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَهُ
فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى يَقُولَ: أَخْزَى اللَّهُ الْكَلْبَ، وَقَعَلَ بِهِ كَذَا وَكَذَا.
قال: وَكَانَ بَعْضُ مَنْ أَدْرَكْنَا مِنْ مَشَايخِنَا قَلَّمَا يَذْكُرُ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا فِيمَا
يَتَّصِلُ بِطَاعَتِهِ. وَكَانَ يَقُولُ لِلْإِنْسَانِ: جُزَيْتَ خَيْرًا. وَقَلَّمَا يَقُولُ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا،
إِعْظَامًا لِاسْمِهِ تَعَالَى أَنْ يُمْتَهَنَ فِي غَيْرِ قُرْبَةٍ.

وَحَدَّثَنَا الثَّقَةُ أَنَّ الْإِمَامَ أَبَا بَكْرٍ الشَّاشِيَّ كَانَ يَعْيبُ عَلَى أَهْلِ الْكَلَامِ كَثْرَةَ
خَوْضِهِمْ فِيهِ تَعَالَى، وَفِي ذِكْرِ صِفَاتِهِ، إِجْلَالًا لِاسْمِهِ تَعَالَى، وَيَقُولُ: هَؤُلَاءِ
يَتَمَنَّدُونَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَيَنْزِلُ الْكَلَامُ فِي هَذَا الْبَابِ تَنْزِيلُهُ فِي بَابِ سَابِّ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْوُجُوهِ
الَّتِي فَضَّلْنَاهَا. وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ.

فصل

فِي حُكْمِ مَنْ سَبَّ سَائِرَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَلَائِكَتِهِ

وَاسْتَخَفَّ بِهِمْ

وَحُكْمُ مَنْ سَبَّ سَائِرَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَلَائِكَتِهِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَاسْتَخَفَّ
بِهِمْ، أَوْ كَذَّبَهُمْ فِيمَا أَتَوْا بِهِ، أَوْ أَنْكَرَهُمْ أَوْ جَحَدَهُمْ، حُكْمُ نَبِيِّنَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ -
عَلَى مَسَاقٍ مَا قَدَمْنَاهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ
وَيَقُولُونَ نَحْنُ مُسْلِمُونَ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضِ مَا نَزَّلَ اللَّهُ وَرُسُلُهُ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۖ﴾

أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

وقال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

قال مالك في كتاب ابن حبيب، ومحمد، وقاله ابن القاسم، وابن الماجشون، وابن عبدالحكم، وأصبغ، وسخون - فيمن شتم الأنبياء أو أحداً منهم أو تنقصه -: قُتِلَ ولم يُسْتَب. ومن سبهم من أهل الذمة قُتِلَ إلا أن يُسلم. وروى سخون، عن ابن القاسم: من سب الأنبياء من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي به كفر ضرب عُقُقه إلا أن يُسلم. وقد تقدّم الخلاف في هذا الأصل.

وقال القاضي بقُرْبَةِ سعيد بن سليمان في بعض أجوبته: من سب الله تعالى، وملائكته قُتِلَ.

وقال سخون: من شتم ملكاً من الملائكة فعليه القتل. وفي «الثوادر» عن مالك فيمن قال: إن جبريل أخطأ بالوحي، وإنما كان النبي علي بن أبي طالب: استُيِب، فإن تاب وإلا قُتِل. ونحوه عن سخون وهذا قول الغرابية من الروافض، سُمُوا بذلك لقولهم: كان النبي ﷺ أشبه بعلي - رضي الله عنه - من الغراب بالغراب. وقال أبو حنيفة وأصحابه على أصلهم: من كذب بأحد من الأنبياء، أو تنقص أحداً منهم، أو برىء منه فهو مُرْتَد.

وقال أبو الحسن القابسي - في الذي قال لآخر -: كأنه وجه مالك الغضبان: لو عُرف أنه قصد دَمَ الملك قُتِل.

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: وهذا كله فيمن تكلم فيهم بما قلناه على جملة الملائكة والنبين، أو على معينٍ ممن حققنا كونه من الملائكة والنبين ممن نصّ الله تعالى عليه في كتابه، أو حققنا علمه بالخبر المتواتر، والمشتهر المتفق عليه بالإجماع القاطع، كجبريل، وميكائيل، ومالك، وخزنة الجنة، وجهنم، والزبانية، وحملة العرش المذكورين في القرآن من الملائكة، ومن سُمي فيه من

الأنبياء، وكعزرائيل، وإسرافيل والحَفْظَةُ، ورضوان، ومُنْكَر، ونَكِير من الملائكة المَتَّقِينَ على قَبُولِ الخبر بهما، فَأَمَّا مَنْ لَمْ تَثْبُتِ الْأَخْبَارُ بِتَغْيِينِهِ وَلَا وَقَعَ الْإِجْمَاعُ عَلَى كَوْنِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ الْأَنْبِيَاءِ، كَهَارُوتَ وَمَارُوتَ فِي الْمَلَائِكَةِ، وَالْخَضِرَ، وَلُقْمَانَ، وَذِي الْقُرْنَيْنِ، وَمَرْيَمَ، وَآسِيَةَ، وَخَالِدَ بْنِ سَنَانَ الْمَذْكُورِ أَنَّهُ نَبِيٌّ أَهْلُ الرِّسِّ، وَرَزَادَشْتُ الَّذِي تَدْعِي الْمَجُوسُ وَالْمُؤَرِّخُونَ نَبُوَّتَهُ، فَلَيْسَ الْحُكْمُ فِي سَابِقِهِمْ، وَالْكَافِرُ بِهِمْ، كَالْحُكْمِ فِيهِمْ قَدَمْنَا، إِذْ لَمْ تَثْبُتْ لَهُمْ تِلْكَ الْحُزْمَةُ، وَلَكِنْ يُزَجَرُ مَنْ تَنَقَّضَ عَنْهُمْ وَأَذَاهُمْ، وَيُؤَدَّبُ بِقَدْرِ حَالِ الْمَقُولِ فِيهِ، لَا سِيَّمَا مَنْ عُرِفَتْ صِدْقِيَّتُهُ، وَفَضْلُهُ مِنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ تَثْبُتْ نُبُوَّتُهُ.

وَأَمَّا إِنْكَارُ نُبُوَّتِهِمْ، أَوْ كَوْنُ الْآخَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَإِنْ كَانَ الْمُتَكَلِّمُ فِي ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ لِاخْتِلَافِ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مِنْ عَوَامِّ النَّاسِ رُجِرَ عَنِ الْخَوْضِ فِي مِثْلِ هَذَا، فَإِنْ عَادَ أَذَبٌ، إِذْ لَيْسَ لَهُمُ الْكَلَامُ فِي مِثْلِ هَذَا.

وَقَدْ كَرِهَ السَّلَفُ الْكَلَامَ فِي مِثْلِ هَذَا مِمَّا لَيْسَ تَحْتَهُ عَمَلٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ، فَكَيْفَ لِلْعَامَةِ؟

فصل

فِي حُكْمِ مَنْ اسْتَحَفَّ بِالْقُرْآنِ، أَوْ الْمُصْحَفِ، أَوْ بِشَيْءٍ مِنْهُ، أَوْ سَبَّهُمَا

وَعَلِمَ أَنَّ مَنْ اسْتَحَفَّ بِالْقُرْآنِ، أَوْ الْمُصْحَفِ، أَوْ بِشَيْءٍ مِنْهُ، أَوْ سَبَّهُمَا، أَوْ جَحَدَهُ، أَوْ حَرَفَهُ مِنْهُ، أَوْ آيَةً، أَوْ كَذَّبَ بِهِ، أَوْ بِشَيْءٍ مِنْهُ، أَوْ كَذَّبَ بِشَيْءٍ مِمَّا صُرِّحَ بِهِ فِيهِ مِنْ حُكْمٍ، أَوْ خَبَرٍ، أَوْ أَثْبَتَ مَا نَفَاهُ، أَوْ نَفَى مَا أَثْبَتَهُ، عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِذَلِكَ أَوْ شَكٍّ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِإِجْمَاعٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْتُمْ لَكُمْ عَزِيزٌ ۖ﴾ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

١٨١٩ - حَدَّثَنَا الْفَقِيهَ أَبُو الْوَلِيدِ: هِشَامُ بْنُ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ، حَدَّثَنَا ابْنُ دَاسَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «الْمِرَاءُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ» [أبو دَاوُدَ (٤٦٠٣)، أَحْمَدُ (٤٢٤/٢)]، تُؤَوَّلُ بِمَعْنَى الشَّكِّ، وَيَمَعْنَى الْجِدَالِ.

١٨٢٠ - وعن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «مَنْ جَحَدَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَدْ حُلَّ ضَرْبُ عُنُقِهِ» [ابن ماجه (٢٥٣٩)]، وكذلك إِنْ جَحَدَ التَّوْرَةَ، وَالْإِنْجِيلَ، وَكُتِبَ اللَّهُ الْمَنْزِلَةُ، أَوْ كَفَرَ بِهَا، أَوْ لَعَنَهَا، أَوْ سَبَّهَا، أَوْ اسْتَخَفَّ بِهَا فَهُوَ كَافِرٌ.

وقد أجمع المسلمون أَنَّ الْقُرْآنَ الْمَتْلُوَّ فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، الْمَكْتُوبُ فِي الْمَصْحَفِ الَّذِي بِيَايِدِ الْمُسْلِمِينَ، مِمَّا جَمَعَهُ الدَّفْتَانِ مِنْ أَوَّلِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] إِلَى آخِرِ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]. أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، وَوَحْيُهُ الْمَنْزُورُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنْ جَمِيعُ مَا فِيهِ حَقٌّ، وَأَنْ مَنْ نَقَصَ مِنْهُ حَرْفًا قَاصِدًا لِدَلَالَتِهِ، أَوْ بَدَّلَهُ بِحَرْفٍ آخَرَ مَكَانَهُ، أَوْ زَادَ فِيهِ حَرْفًا مِمَّا لَمْ يَشْتَمِلْ عَلَيْهِ الْمُصْحَفُ الَّذِي وَقَعَ الْإِجْمَاعُ عَلَيْهِ، وَأُجْمِعَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْقُرْآنِ، عَامِدًا لِكُلِّ هَذَا، أَنَّهُ كَافِرٌ.

ولهذا رأى مالك قَتَلَ مَنْ سَبَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِالْفَرْيَةِ، لِأَنَّهُ خَالَفَ الْقُرْآنَ، وَمَنْ خَالَفَ الْقُرْآنَ قُتِلَ، أَيْ لِأَنَّهُ كَذَّبَ بِمَا فِيهِ. وقال ابن القاسم: مَنْ قَالَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا يُقْتَلُ، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ.

وقال محمد بن سَخْنُون - فِيمَنْ قَالَ: الْمَعْوِذَتَانِ لَيْسَتَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ -: يُضْرَبُ عُنُقُهُ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ.

وكذلك كُلُّ مَنْ كَذَّبَ بِحَرْفٍ مِنْهُ. قَالَ: وَكَذَلِكَ إِنْ شَهِدَ شَاهِدٌ عَلَى مَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَشَهِدَ آخَرُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ مَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، لِأَنَّهُمَا اجْتَمَعَا عَلَى أَنَّهُ كَذَّبَ النَّبِيَّ ﷺ.

وقال أبو عثمان بن الحِذَاد: جَمِيعُ مَنْ يَنْتَحِلُ التَّوْحِيدَ مَتَّقُونَ أَنَّ الْجَحْدَ لِحَرْفٍ مِنَ التَّنْزِيلِ كُفْرٌ.

وكان أبو العالية إِذَا قَرَأَ عِنْدَهُ رَجُلٌ لَمْ يَقُلْ لَهُ: لَيْسَ كَمَا قَرَأْتَ، وَيَقُولُ: أَمَّا أَنَا فَأَقْرَأُ كَذَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ: أَرَاهُ سَمِعَ أَنَّهُ مَنْ كَفَرَ بِحَرْفٍ مِنْهُ فَقَدْ كَفَرَ بِهِ كُلَّهُ.

١٨٢٠م - وقال عبد الله بن مسعود: مَنْ كَفَرَ بِآيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَقَدْ كَفَرَ بِهِ كُلَّهُ.

وقال أَصْبَغُ بْنُ الْفَرَجِ: مَنْ كَذَّبَ بِبَعْضِ الْقُرْآنِ فَقَدْ كَذَّبَ بِهِ كُلَّهُ. وَمَنْ كَذَّبَ بِهِ فَقَدْ كَفَرَ بِهِ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ فَقَدْ كَفَرَ بِاللَّهِ.

وقد - سئل القابسي - عمن خاصم يهودياً، فحلف له بالتَّوراة، فقال له الآخر: لعن الله التوراة، فشهد عليه بذلك شاهداً، ثم شهد آخر أنه سأله عن القضية فقال: إنما لعنتُ تَوْرَةَ الْيَهُودِ، فقال أبو الحسن: الشاهد الواحد لا يوجب القتل، والثاني علّق الأمر بصفة تحتمل التأويل، إذ لعله لا يرى اليهود متمسكين بشيء من عند الله لتبديلهم وتخريفهم.

ولو اتفق الشاهدان على لعن التَّوراة مجرداً لضاق التأويل.

وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة ابن شنبوذ المقرئ - أحد أئمة المقرئين المتصدين بها مع ابن مجاهد رضي الله عنهما - لقراءته وإقراءته بشواذ من الحروف مما ليس في المصحف، وعقدوا عليه بالرجوع عنه، والتوبة منه سجلاً، أشهد فيه بذلك على نفسه في مجلس الوزير أبي علي بن مُقَلَّة سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة وكان فيمن أفتى عليه بذلك أبو بكر الأبهري وغيره.

وأفتى - أبو محمد بن أبي زَيْد بالأدب - فيمن قال لصبي: لعن الله معلمك وما علمك. وقال: أردت سوء الأدب، ولم أريد القرآن. قال أبو محمد: وأما من لعن المصحف فإنه يُقتل.

فصل

وَسَبُّ آلِ بَيْتِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَصْحَابِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَتَنْقِضُهُمْ حَرَامٌ مَلْعُونٌ فَاعِلُهُ

١٨٢١ - حدثنا القاضي الشهيد أبو علي رحمه الله، حدثنا أبو الحسين الصيرفي، وأبو الفضل العدل قالا: حدثنا أبو يغلى، حدثنا أبو علي السنجي، حدثنا ابن محبوب، حدثنا الترمذي، حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا عبيدة بن أبي ربيعة، عن عبدالرحمن بن زياد، عن عبداللّه بن مَعْقِل، قال: قال رسول الله ﷺ: «اللّهُ اللّهُ في أصحابي، اللّهُ اللّهُ في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى اللّهُ، ومن آذى اللّهُ يوشك أن يأخذه» [الترمذي (٣٨٦٢)].

١٨٢٢ - وقال عليه السلام: «لا تسبوا أصحابي، فمن سبهم فعليه لعنة اللّهِ، والملائكة، والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً».

١٨٢٣ - وقال عليه السلام: «لا تسبوا أصحابي، فإنه يجيء قوم في آخر

الزمان يسبون أصحابي فلا تَصَلُّوا عليهم، ولا تُصَلُّوا معهم، ولا تناكحوهم، ولا تجالسوهم، وإن مَرَضُوا فلا تَعُودُوهم».

١٨٢٤ - وعنه عليه السلام: «مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَاضْرِبُوهُ».

١٨٢٥ - وقد أَعْلَمَ النَّبِيُّ - عليه السلام - أَنَّ سَبَّهُمْ وَأَذَاهُمْ يُؤْذِيهِ، وَأَذَى النَّبِيِّ ﷺ حَرَامٌ، فَقَالَ: «لَا تُؤْذُونِي فِي أَصْحَابِي، وَمَنْ أَذَاهُمْ فَقَدْ أَذَانِي».

١٨٢٦ - وقال لبعض نسائه: «لَا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ» [البخاري (٢٥٨١)].

١٨٢٧ - وقال في فاطمة: «بِضْعَةٍ مِنِّي، يُؤْذِينِي مَا أَذَاهَا، وَمَنْ أَغْضَبَهَا فَقَدْ

أَغْضَبَنِي».

وقد اختلف العلماء في هذا، فمشهورُ مذهب مالك في ذلك: الاجتهاد والأدب المَوْجِع: قال مالك رحمه الله: مَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ قُتِلَ، وَمَنْ شَتَمَ أَصْحَابَهُ أُدْب.

وقال أيضاً: مَنْ شَتَمَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: أبا بكر، أو عمر، أو عثمان، أو معاوية، أو عمرو بن العاص، فَإِنْ قَالَ: كانوا على ضلالٍ وكُفْرٍ قُتِلَ، وَإِنْ شَتَمَهُمْ بِغَيْرِ هَذَا مِنْ مُشَاتِمَةِ النَّاسِ نُكِّلَ نَكَالًا شَدِيدًا.

وقال ابن حبيب: من غَلَا من الشيعة إلى بُغْضِ عثمان والبراءة منه أُدْب أَدْبًا شَدِيدًا، وَمَنْ زَادَ إِلَى بُغْضِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَالْعُقُوبَةُ عَلَيْهِ أَشَدُّ، وَيَكْرُرُ ضَرْبُهُ، وَيُطَالُ سِجْنُهُ حَتَّى يَمُوتَ وَلَا يُبَلِّغُ بِهِ الْقَتْلَ إِلَّا فِي سَبِّ النَّبِيِّ ﷺ.

وقال سَخْنُون: مَنْ كَفَّرَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ عَلِيًّا، أو عثمان، أو غَيْرَهُمَا، يُوجِعُ ضَرْبًا.

وحكى أبو محمد بن أبي زَيْد، عن سَخْنُون: مَنْ قَالَ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: إِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى ضَلَالَةٍ وَكُفْرٍ قُتِلَ. وَمَنْ شَتَمَ غَيْرَهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ بِمِثْلِ هَذَا نُكِّلَ النَّكَالَ الشَّدِيدَ.

وَرَوَى عَنْ مَالِكٍ: مَنْ سَبَّ أَبَا بَكْرٍ جُلِدَ، وَمَنْ سَبَّ عَائِشَةَ قُتِلَ، قِيلَ لَهُ: لِمَ؟ قَالَ: مَنْ رَمَاهَا فَقَدْ خَالَفَ الْقُرْآنَ.

وقال ابنُ شَعْبَانَ عَنْهُ: لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧]، فَمَنْ عَادَ لِمِثْلِهِ فَقَدْ كَفَرَ.

وحكى أبو الحَسَنِ الصَّقْفِيُّ: أَنَّ الْقَاضِي أَبَا بَكْرٍ بْنُ الطَّيِّبِ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ مَا نَسَبَهُ إِلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ سَبَّحَ نَفْسَهُ لِنَفْسِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ...﴾ [الأنبياء: ٢٦] فِي آيٍ كَثِيرَةٍ.

وذكر تعالى ما نسبته المنافقون إلى عائشة فقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] سَبَّحَ نَفْسَهُ فِي تَزْيِيهِهَا مِنَ السَّوْءِ، كَمَا سَبَّحَ نَفْسَهُ فِي تَبَرُّثِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنَ السَّوْءِ.

وهذا يشهد لقول مالك في قَتْل مَنْ سَبَّ عَائِشَةَ.

ومعنى هذا - والله أعلم - أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا عَظَّمَ سَبِّهَا كَمَا عَظَّمَ سَبِّهَ، وَكَانَ سَبُّهَا سَبًّا لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَرَنَ سَبَّ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَذَاهُ بِأَذَاهُ تَعَالَى، وَكَانَ حُكْمُ مُؤْذِيهِ تَعَالَى - الْقَتْلُ -، وَكَانَ مُؤْذِي نَبِيِّهِ كَذَلِكَ، كَمَا قَدَمْنَاهُ.

وَشَتَمَ رَجُلٌ عَائِشَةَ بِالكُوفَةِ، فَقَدَّمَ إِلَى مُوسَى بْنِ عِيسَى الْعَبَّاسِيِّ الْهَاشِمِيِّ فَقَالَ: مَنْ حَضَرَ هَذَا؟ فَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى: أَنَا، فَجَلَدَهُ ثَمَانِينَ، وَحَلَقَ رَأْسَهُ، وَأَسْلَمَهُ لِلْحَجَّامِينَ.

١٨٢٨ - وَرَوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ نَذَرَ قَطْعَ لِسَانِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، إِذْ شَتَمَ الْمُقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدِ الْكَنْدِيِّ فَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: دَعُونِي أَقْطَعُ لِسَانَهُ حَتَّى لَا يَشْتَمَ أَحَدٌ بَعْدَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

١٨٢٩ - وَرَوَى أَبُو ذَرٍّ الْهَرَوِيُّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَى بِأَعْرَابِيٍّ يَهْجُو الْأَنْصَارَ، فَقَالَ: لَوْلَا أَنَّ لَهُ صَحْبَةً لَكَفَيْتُكُمْوهُ.

قَالَ مَالِكٌ: مَنْ انْتَقَصَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَيْسَ لَهُ فِي هَذَا الْفَنَاءِ حَقٌّ، قَدْ قَسَمَ اللَّهُ الْفَنَاءَ فِي ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ فَقَالَ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهِجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَصُومُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَحْتَوُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وهؤلاء هم الأنصار.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

فَمَنْ تَنَقَّصَهُمْ فَلَا حَقَّ لَهُ فِي فَنَاءِ الْمُسْلِمِينَ.

وَفِي كِتَابِ ابْنِ شُعْبَانَ: مَنْ قَالَ فِي وَاحِدٍ مِنْهُمْ: إِنَّهُ ابْنُ زَانِيَةٍ، وَأُمُّهُ مُسْلِمَةٌ، خُذْ عِنْدَ بَعْضِ أَصْحَابِنَا حَدِيثًا: حَدًّا لَهُ، وَحَدًّا لِأُمِّهِ، وَلَا أَجْعَلْهُ كَقَافِذِ الْجَمَاعَةِ فِي كَلِمَةٍ لِفَضْلِ هَذَا عَلَى غَيْرِهِ.

١٨٣٠ - ولقوله عليه السلام: «مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَاجْلِدُوهُ».

قال: وَمَنْ قَذَفَ أُمَّ أَحَدِهِمْ، وهي كافرة، حُدَّ حَدُّ الْفِرْيَةِ، لَأَنَّهُ سَبَّ لَه، فَإِنْ كَانَ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِ هَذَا الصَّحَابِيِّ حَيًّا قَامَ بِمَا يَجِبُ لَه، وَإِلَّا فَمَنْ قَامَ بِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ عَلَى الْإِمَامِ قَبُولُ قِيَامِهِ، قال: وليس هذا كحقوقِ غَيْرِ الصَّحَابَةِ لِحُزْمَةِ هَؤُلَاءِ بَنِيهِمْ عَلَيْهِ السَّلَام، وَلَوْ سَمِعَهُ الْإِمَامُ، وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ، كَانَ وَلِيُّ الْقِيَامِ بِهِ، قال: وَمَنْ سَبَّ غَيْرَ عَائِشَةَ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَفِيهَا قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: يُقْتَلُ، لَأَنَّهُ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ بِسَبِّ حَلِيلَتِهِ.

وَالْآخَرُ: أَنَّهَا كَسَائِرُ الصَّحَابَةِ، يُجْلَدُ حَدُّ الْمُفْتَرِي، قال: وبالأول أقول.

وروى أبو مُضْعَب، عن مالك: مَنْ انتَسَبَ إِلَى بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ: يُضْرَبُ ضَرْبًا وَجِيعًا، وَيُشْهَرُ، وَيُخْبَسُ طَوِيلًا حَتَّى تَظْهَرَ تَوْبَتُهُ، لَأَنَّهُ اسْتَحْفَافٌ بِحَقِّ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَام.

وَأَفْتَى أَبُو الْمُطَرِّفِ الشَّعْبِي - فَقِيهٌ مَالِقَةٌ - فِي رَجُلٍ أَنْكَرَ تَحْلِيلَ امْرَأَةٍ بِاللَّيْلِ، وَقَالَ: لَوْ كَانَتْ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ مَا حُلِفْتُ إِلَّا بِالنَّهَارِ، وَصَوَّبَ قَوْلَهُ بَعْضُ الْمُتَمَسِّمِينَ بِالْفِقْهِ، فَقَالَ أَبُو الْمُطَرِّفِ: ذَكَرَ هَذَا لَابْنَةُ أَبِي بَكْرٍ فِي مِثْلِ هَذَا يُوجِبُ عَلَيْهِ الضَّرْبَ الشَّدِيدَ، وَالسَّجْنَ الطَّوِيلَ، وَالْفَقِيهَ الَّذِي صَوَّبَ قَوْلَهُ هُوَ أَحَقُّ بِاسْمِ الْفِسْقِ مِنْ اسْمِ الْفِقْهِ، فَيَتَقَدَّمُ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَيُزَجَّرُ، وَلَا تُقْبَلُ فَتْوَاهُ، وَلَا شَهَادَتُهُ، وَهِيَ جُرْحَةٌ ثَابِتَةٌ فِيهِ، وَيُبْعَضُ فِي اللَّهِ.

وقال أبو عمران - فِي رَجُلٍ قَالَ: لَوْ شَهِدَ عَلِيٌّ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقِ -: إِنَّهُ إِنْ كَانَ أَرَادَ أَنْ شَهِدَتْهُ فِي مِثْلِ هَذَا، لَا يَجُوزُ فِيهِ الشَّاهِدُ الْوَاحِدُ، فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ أَرَادَ غَيْرَ هَذَا، فَيُضْرَبُ ضَرْبًا يُبْلَغُ بِهِ حَدُّ الْمَوْتِ. وَذَكَرُوهَا رَوَايَةً.

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: هُنَا انْتَهَى الْقَوْلُ بِنَا فِيْمَا حَرَّزْنَاهُ، وَانْتَجَزَ الْغَرَضُ الَّذِي انْتَحَيْنَاهُ وَاسْتَوْفِيَ الشَّرْطُ الَّذِي شَرَطْنَاهُ، مِمَّا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ قِسْمٍ مِنْهُ لِلْمُرِيدِ مَفْتَعٌ، وَفِي كُلِّ بَابٍ مَنَهْجٌ إِلَى بُغْيَتِهِ وَمَنْزَعٌ.

وَقَدْ سَقَرْتُ فِيهِ عَنْ نُكَيْتٍ تُسْتَعْرَبُ وَتُسْتَبَدَعُ، وَكَرَعْتُ فِي مَشَارِبٍ مِنَ التَّحْقِيقِ لَمْ يورَدْ لَهَا قَبْلُ فِي أَكْثَرِ التَّصَانِيفِ مَشْرَعٌ، وَأَوْدَعْتُهُ غَيْرَ مَا فَضَّلْتُ، وَدِدْتُ لَوْ وَجَدْتُ مَنْ يَسْطِ قَبْلِي الْكَلَامَ فِيهِ، أَوْ مُقْتَدِي يَفِيدُنِيهِ عَنْ كِتَابِهِ أَوْ فِيهِ، لِأَكْتَفِي بِمَا أَرَوِيهِ عَمَّا أَرَوِيهِ.

وَالِلَّهِ تَعَالَى جَزِيلُ الصَّرَاعَةِ فِي الْمِنَّةِ بِقَبُولِ مَا مِنْهُ لَوَجْهِهِ، وَالْعَفْوِ عَمَّا تَخَلَّلَهُ مِنْ تَزْيِينٍ وَتَصْنَعٍ لَغَيْرِهِ، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا ذَلِكَ بِجَمِيلِ كَرَمِهِ وَعَفْوِهِ، لَمَّا أَوْدَعْتَاهُ

من شَرَفٍ مُضْطَفَاه، وَأَمِينٍ وَخِيهِ، وَأَسْهَرْنَا بِهِ جَفُونَنَا لَتَتَّبِعَ فُضَائِلَهُ، وَأَعْمَلْنَا فِيهِ خَوَاطِرَنَا مِنْ إِبْرَازِ خِصَائِصِهِ وَوَسَائِلِهِ، وَيُخَيِّمِي أَعْرَاضَنَا عَنْ نَارِهِ الْمُوقَدَةِ لِحِمَايَتِنَا كَرِيمٍ عِزُّهُ، وَيَجْعَلُنَا مِمَّنْ لَا يَذَادُ إِذَا ذِيدَ الْمُبْدَلُ عَنْ حَوْضِهِ، وَيَجْعَلُهُ لَنَا وَلِمَنْ تَهَمُّ بِاِكْتِسَابِهِ، وَاِكْتِسَابِهِ سَبَبًا يَصِلُنَا بِأَسْبَابِهِ، وَذَخِيرَةً نَجِدُهَا ﴿يَوْمَ تَعْدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُنْضَرًّا﴾ [آل عمران: ٣٠] نَحُورُ بِهَا رِضَاهُ، وَجَزِيلَ ثَوَابِهِ، وَيَخْصُنَا بِخِصْصِيَّ زُمْرَةِ نَبِيَّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَمَاعَتِهِ، وَيَحْشِرُنَا فِي الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ، وَأَهْلِ الْبَابِ الْأَيْمَنِ، مِنْ أَهْلِ شِفَاعَتِهِ، وَنَحْمَدُهُ تَعَالَى عَلَى مَا هَدَى إِلَيْهِ مِنْ جَمْعِهِ وَأَلْهَمَ، وَفَتَحَ الْبَصِيرَةَ لِذَلِكَ حَقَائِقِ مَا أَوْدَعْنَاهُ وَفَهَّمَهُ، وَنَسْتَعِيزُهُ - جَلَّ اسْمُهُ - مِنْ دَعَاءٍ لَا يُسْمَعُ، وَعِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَعَمَلٍ لَا يُزْفَعُ، فَهُوَ الْجَوَادُ الَّذِي لَا يَخِيبُ مَنْ أَمَلَهُ، وَلَا يَتَنَصَّرُ مَنْ خَذَلَهُ، وَلَا يَزُدُّ دَعْوَةَ الْقَاصِدِينَ، وَلَا يُضْلِحُ عَمَلَ الْمَفْسِدِينَ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

ووقع الفراغ منه آخر النهار، يوم الاثنين، الثاني عشر من رجب الفرد سنة (٧٤٤) في المدرسة القِيمَازِيَّةِ رَحِمَ اللَّهُ وَاقِفَهَا، عَلَى يَدَيِ أَضْعَفِ خَلْقِ اللَّهِ جُرْمًا، وَأَكْثَرَهُمْ جُرْمًا، مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ رَمْضَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْحَاجِّ الْحَنْفِيِّ الرَّومِيِّ الْمَلِيفِدُونِيِّ، عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ، وَجَعَلَ الْجَنَّةَ مِثْوَاهُمْ، وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ!



فهرس الأحاديث والآثار^(١) (مرتب على رقم الحديث)

حرف الألف

- أتوني أكتب لكم كتاباً: ١٦٨٢
 آتي باب الجنة: ٥٠٩
 أؤخر عن أمي لعل الله يتوب عليهم: ٢٣٩
 أخركم موتاً في النار: ٩٨٥
 آذنت النبي ﷺ بالجن شجرة: ٧٤٥
 آمين: ١٤٢٣
 الآن استرحت: ١٥٦
 الآن يا عمر: ١١٩٦
 آية الإيمان حبُّ الأنصار: ١٢٣٦
 أبعث محمدٍ تفعل هذا؟: ٢
 أبشُر فوالله! لا يخزيك الله: ٢٥٥ (ث)
 أبيض مُشرب: ٣٧٧
 أتاني جبريل فقال إن ربي: ٩
 أتاني جبريل فقال قلِّبْتُ مشارق: ٣٩٠
 أتاني ملكٌ فقال لي أنت قُتِمَ: ٦٣١
 اتق الله حشماً كنت: ١١٥
 أتيتُ بالبراق: ٤٣٢
 أتيتُ رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه،
 أزيز: ٣٤٣
 أتيتُ فانطلقوا بي إلى زمزم: ٤٦٢

- اثبت أحد: ٧٨٣
 اثبت فإنما عليك نبِّي وصدق: ١٠٣٧
 أجل إني أوعك: ١٧٢٧
 أجل ذلك كذلك: ١٧٢٧
 اجلس فليس ذلك لأحد إلا لرسول الله:
 ١٧٧٥ (ث)
 اجلسي يا أم فلان: ٢٦٠
 أجملُ الناس من بعيد: ٥٩
 أجوع يوماً وأشبع يوماً: ٣١٥
 أحب حبيك هوناً ما: ١١٧
 أحبَّ الله من أحبِّ حسيناً: ١٢٨٢
 أحب الصلاة إلى الله صلاة داود: ٣٦٤
 أحبيه فإني أحبه: ١٢٣٥
 أحسنت إليك: ٢٢٩
 احصب وجوهها: ٨٠٠
 احفظ عليّ ميثأتك: ٧٠٤
 احفظوني في أصحابي: ١٣١٨
 أحلَّت لي الغنائم: ١٦٣١
 أخبرتني هذه الذراع: ٨٢٤
 اختار دار البقاء: ٧٧١
 اخترت الفطرة: ٤٣٢

(١) رمزنا للأثر بالحرف (ث).

أخذ النبي ﷺ كفاً من حصي فسبّح: ٧٧٥

ادع ثلاثين من أشرف الأنصار: ٧١٣

ادع سبعين: ٧١٣

ادع ستين: ٧١٣

ادع عشرة: ٧٢٩

ادن فقاتل: ١٠٦٨

إذا أحب الله عبداً ابتلاه: ١٧٢٣

إذا أراد الله بعبده الخير عجل: ١٧٢٢

إذا أراد الله رحمة بأمة قبض: ٧

إذا تقارب الزمان لم تكدر رؤيا: ١٠٧٥

إذا تكفى ويغفر ذنبك: ١٤١٤

إذا دخل أحدكم إلى المسجد فليصل على

النبي ﷺ: ١٤٩٠

إذا دخل أهل النار النار: ٥٦٤ (ث)

إذا دخلت المسجد فصل على النبي ﷺ:

١٤٨٣

إذا ذكر أصحابي فأمسكوا: ١٣٠٠، ١٣٠٧

إذا ذكرت ذكرت معي: ٩

إذا رأيتم آية فاسجدوا: ١٢٩٧

إذا سمعتم المؤذن فقولوا: ١٤٠٢، ٥٩٦

إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله: ١٣٥٩

إذا صلى أحدكم فليقل: التحيات: ١٣٨١

إذا مشى مشى مجتمعاً: ٢٩٧

إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه: ١١٤٥

إذا وجدتموهم فاقتلوهم قتل عاد: ١٨٠٥

إذا وطئ بقدمه وطئ بكلها: ٣٨٢

أذهب: ٧٢٥

أذهبوا بها إلى بيت فلانة: ٢٤٤

أذهبوا فأنتم الطلقاء: ١٨٢

أذهبى فإنما لم نأخذ من مائك شيئاً: ٧٠٥

أذود الناس عنه بعصاتي: ٦٣٢

أرأيت إن دعوت هذا العذق؟: ٧٥٢

ارجع: ٧٥٢

ارجع كما جئت: ٧٥٠

ارجعي: ٧٤٩

ارحموا من في الأرض: ٧٢٩

أردفني النبي ﷺ خلفه: ٦٧

ارفع: ٧٢٣، ٧٣٥

ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة:

٨٢١

ارقبوا محمداً في أهل بيته: ١٢٨٠ (ث)

اركب أمامي: ٢١٧

ارم به: ٨٣٩

أرني آية لا أبالي من كذبتني بعدها: ٧٥١

أرئت ما تلقى أمتي من بعدي: ٥٦٢

أسألك بكل اسم هو لك: ١٥٥٢

أسألك بأسمائك الحسنی: ١٥٥١

استتاب رسول الله ﷺ تبهان: ١٧٩٩

أستحي من الله أن أطأ تربة: ١٣٢٨ (ث)

اسق يا زبير: ١٥٧٩

اسق يا زبير حتى يبلغ الكعبين: ١٧٠٤

اسق يا زبير ثم اجلس حتى: ١٧٠٤

أسلم تسلم: ١١٠

اشتد غضب الله على قوم: ١٤٧١، ١٤٩١

اشترى واشترطى لهم الولاء: ١٧١٩

اشرب: ٧٠٨

أشرت بالرأي: ١٦٦٦

اشفوه أو عافيه: ٨٥٢

أشكل العينين: ٣٧٩

أشكّبت دَرْد: ١٠٩٦

أشهدوا: ٦٧٣

أصحابي كالنجوم: ١٣٠٢

أصدق الناس لهجة: ٢٨٥

أصل كل داء البردة: ١٠٧٦

أصليت يا علي؟: ٦٨٤

أصنع كما رأيْتُ رسول الله ﷺ يصنع: ١١٧٠

(ث)

أضرب به: ٩١٠

اطلبوا من معه فضل ماء: ٦٩٢
 أطمع أن أكون أعظم الأنبياء: ٥٠٧
 الاعتصام بالسنة نجاة: ١١٦٧ (ث)
 أعطى رسول الله ﷺ صفوان بن أمية مئة من
 التَّعَم: ٢٢٨
 أعطيتُ خمساً لم يعطهنَّ: ٣٩٤
 اغفوا عن مسيئهم: ١٣١٧
 أعوذ بالله العظيم: ١٤٩٦
 أعيدك بالله يا عكاشة أن يتعمدك: ١٧٠٧
 اغدُ عَلَيَّ يا عَمَّ مع ولدك: ١٢٧٨
 اغفر لي ما قدمت: ١٦٢٧
 أفضالة؟: ١٠٦٩
 أفضل هذه الأمة أكثرها نساء: ١٤١ (ث)
 أفلا أكون عبداً شكوراً؟: ٣٣١، ٣٣٢
 ١٦٤٥، ٦٣٨، ٣٣٣
 أفلح وجهك: ٨٧١
 اقتدوا باللذين من بعدي: ١٣٠١
 اقرأ فقلت: ما أقرأ؟: ١٥٢٨
 اقعد فاشرب: ٧٣٢
 أقول كما قال أخي يوسف: ١٨٢
 اكتب عليماً حكيماً: ١٥٧٣
 اكتب كذا: ١٥٧٣
 اكتب كيف شئت: ١٥٧٣
 أكثروا عليَّ الصلاة يوم الجمعة: ١٤٤٣
 أكثروا من السلام على نبيكم كل جمعة:
 ١٤٣٧ (ث)
 أكثروا من الصلاة عليَّ في الليلة الزهراء:
 ١٤٤٥
 اتلأ لنا الصبح: ١٦٢١
 أكلك الأسد: ٨٨٨
 إلى الأقبال العبايلة: ٩٨
 ألا وإن ما حرَّم رسول الله مثل ما حرَّم الله:
 ١١٨٩
 التثما عليَّ بإذن الله: ٧٣٨

الْحَقِّي بِصَاحِبِكَ: ٧٣٨
 أَلَّتِي الدواة وحرَّف القلم: ١٠٩٣
 الذي أنا عليه اليوم وأصحابي: ١١٦١
 الله: ١٧٤
 الله عز وجل: ١٠٥٠
 الله الله في أصحابي: ١٢٣٣، ١٣٠٤،
 ١٨٢١
 اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً: ٣٠٨
 اللهم اجعل صلواتك: ١٣٩٤، ١٤٥٧ (ث)
 اللهم اجعل منك على فلان صلوات
 قوم: ١٤٦٢ (ث)
 اللهم أجعله حجاً لا رياء فيه: ٢٦٣
 اللهم احفظني من الشيطان الرجيم: ١٤٨٥
 اللهم أرني آية: ٧٤٨
 اللهم اغفر له، اللهم ارحمه: ١٣٣٨
 اللهم اغفر لي ذنوبي: ١٣٧١، ١٤٨٣،
 ١٤٨٤
 اللهم افتح لي أبواب رحمتك: ١٤٨٩
 اللهم أكثر ماله وولده: ٨٦١
 اللهم اكفني بما شئت: ١٠٥٤
 اللهم إِنْ كَانَ كاذباً فلا تبارك: ٨٩٢
 اللهم إنما محمد بشر يغضب: ١٦٩٤
 اللهم إنه كان في طاعتك: ٦٨٤
 اللهم إني أحبه فأحب من يحبه: ١٢٣١
 اللهم إني أحبهما فأحبهما: ١٢٣٠، ١٢٧٩
 اللهم إني أسألك أن تصلي عليَّ محمد:
 ١٣٦٨ (ث)
 اللهم إني أسألك رحمة من عندك: ١١٩
 اللهم إني أسألك الفوز في القضاء: ١١٩
 اللهم إني أسألك من فضلك: ١٤٨٤
 اللهم إني أسألك وأتوجه إليك: ٨٤٣
 اللهم اهْدِ قومي: ١٧١، ١٧٢
 اللهم بارك على محمد: ١٣٩١
 اللهم بارك في شعره وبشره: ٨٧١

اللهم بارك لهم في محضها: ٩٧

اللهم بحق محمد اغفر لي خطيئتي: ٤٢٥

اللهم دَاحِي المدحوات: ١٣٩٢ (ث)

اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة: ١٤١٦

اللهم سلَّط عليه كلباً من كلابك: ٨٨٧

اللهم صلِّ على آل أبي أوفى: ١٤٥٣

اللهم صلِّ على محمد: ١٣٨٦، ١٣٨٧،

١٣٨٨، ١٣٩٠، ١٤٥٤

اللهم صلِّ على محمد وأزواجه: ١٤٥٩

اللهم فقهه في الدين: ٨٧٣

اللهم نوِّز له: ٨٨٢

اللهم هؤلاء أهل بيتي: ١٢٧٣

اللهم هؤلاء أهلي: ١٢٧٤

اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد: ١٤٧١،

١٤٩١

ألم أر البرمة فيها لحم؟: ١٣٥

ألم يَأْنِ لك أن تعلم أن لا إله إلا الله: ١٨٤

أنا أعلم: ١٥٨٩

أنا أفرس بالخيال منك: ١٠٩٠

أنا أقتلك إن شاء الله: ٢٠٧

أنا أكرم الأولين والآخرين: ٣٨٩

أنا أكرم ولد آدم: ٣٨٨، ٦٣٥

أنا أمان لأصحابي: ٣٤

أنا أمانة لأصحابي: ٦٤٩

أنا أول من تشق عنه الأرض: ٦٤١

أنا أول من تنفلق الأرض عن جمجمته: ٥٨٩

أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا: ٤٩٩، ٥٠٠

أنا أول الناس يشفع: ٥٠٥

أنا حامل لواء الحمد: ٥٠٤

أنا دعوة أبي إبراهيم: ٤١٤

أنا سيد الناس يوم القيامة: ٥٠٦

أنا سيد ولد آدم: ٥٠٣، ٥٠٢، ١٥٩١

أنا العاقب: ٦٢٠

أنا قَيِّمٌ: ٦٢٣

أنا محمد النبي الأمي: ٤٠٥

أنا محمد وأحمد: ٦٢٦.

أنا النبي لا كذب: ١٩٩

أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك: ٢٤٣

أنا ولي كل مؤمن: ٦٤٣

أنا وهو إلى غير هذا أحوج: ١٨١

الأنبياء ثم الأئمة: ١٧٢٠

أنت حبيب الرحمن: ٥٤٧

أنت قَسَمٌ: ٦٣١

أنت مع من أحببت: ١١٩٨

أنتم أعلم بأمور دنياكم: ١٦٦٣

أنزل الله عليّ أمانين لأمتي: ٣٣

أنشدكم الله أهل بيتي: ١٢٧٠

انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ: ٦٧٣

انطلق به فإنه سيضيء لك: ٩٠٩

انطلق وقل لهنّ: ٧٣٩

انظر ما تقول: ١٢٤٥

انقادي عليّ ياذن الله: ٧٣٨

إن أحببت أقميت عندي مكرمة: ٢٥١

إن تشهد أن لا إله إلا الله: ١١٤١

إن تغفو عمن ظلمك: ٦٤٥

إن شئت أردك إلى الحائط: ٧٧١

إن كان النبي ليبتلى بالقمل: ١٧٢٨

إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد

رسول الله ﷺ: ٢٧٤

إن كنت تحبني فأعدّ للفقير تجفافاً: ١٢٤٥

إن كنا آل محمد لنمكث شهراً: ٣١٧

إنّ آل أبي ليسوا لي بأولياء: ٢٤٨

إنّ الأبعد شاعر أول مجنون: ١٥٣١

إن ابني هذا سيد: ١٠٢٧

إن أبويك قد أسلما: ٨٣٥

إنّ أحبكم إليّ: ١١١

إنّ أحسن الحديث كتاب الله: ١١٥٦

إن أحسن الهدى هدى محمد ﷺ: ٢٩٨

إن الذي جاء بها هو الذي ذهب بها: ٨١٨
 إن الله اختار أصحابي: ١٣٠٨
 إن الله اختار خلقه: ١٣٠
 إن الله اصطفى من ولد إبراهيم: ١٢٩، ٣٨٧
 إن الله أنزل هذا القرآن أمراً: ٦٧٠
 إن الله تعالى يدخل العبد الجنة بالسَّعة: ١١٦٩
 إن الله خلق الخلق فجعلني: ١٢٨
 إن الله فضل محمداً علي: ٤١٣ (ث)
 إن الله نظر إلى قلوب العباد: ٤٣٠ (ث)
 إن الله قبض أرواحنا: ١٦١٥، ١٦٢٠
 إن الله قد حبس عن مكة: ٤١١
 إن الله قسم الخلق: ٣٨٥
 إن الله يأمر بالعدل: ٦٥٦
 إن الله يحب من عباده الرحماء: ٦٢٨
 إن الأنبياء مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً: ٦٥٥
 إن أول زمرة يدخلون الجنة: ٣٤٩
 إن البخيل كل البخيل من ذكرت عنده فلم: ١٤٢٦
 إن بني إسرائيل افترقوا: ١١٦١
 إن جبريل أتاني فقال: ١٤٢٣
 إن جبريل عليه السلام حملني: ٤٥٩
 إن جبريل ناداني فقال: ١٤٠٥
 إن الحمد لله نحمده: ٦٥٢
 إن الدين النصيحة: ١٢٤٨
 إن الزمان قد استدار: ١٠٨٥
 إن الشيطان أتني بلالاً: ١٥٦٧
 إن شيطاناً تعلَّت البارحة: ١١١٢
 إن الشيطان عرض لي: ١٥٥٦
 إن الشيطان يجري من ابن آدم: ١٦٤٨
 إن عدو الله إبليس جاءني بشهاب: ١٥٥٧
 إن عظم الجزاء مع عظم البلاء: ١٧٢٩
 إن عيسى عليه السلام كُفِّي من لَمِيسِهِ: ١٥٦٢
 إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي: ١٣٩، ١٦١٣، ١٦٥٠

إن الفقر إلى من يحبني منكم أسرع: ١٢٤٤
 إن القرآن صعب مستصعب: ٦٦٤
 إن لكم فراعها ووهاطها: ٩٦
 إن للنبوة أثقالاً: ٦١٦
 إن الله ملائكة سياحين: ١٤٣٥
 إن من البيان لسحراً: ١٧٩٧
 إن من شرار الناس من اتقاء الناس: ١٧١٤
 إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا: ٥٥٣ (ث)
 أن النبي ﷺ أتني بالبراق: ٢، ٣٩١
 أن النبي ﷺ صلى الظهر خمساً: ١٦٠٤
 أن النبي ﷺ قرأ والنجم: ١٥٧٠
 أن النبي ﷺ كانت روحه نوراً: ١٣١
 أن نبياً قرصته نملة: ١٦٤٢
 أن نصرانياً كان يكتب للنبي ﷺ بعد ما أسلم: ١٥٧٤
 إنَّ هذا الأعرابي قال ما قال: ٢٢٩
 إنَّ هذا الأمر بدأ نبوة: ٩٩٤
 إن هذا بكى لما فقد من الذكر: ٧٦٧
 إن هذا وإد به شيطان: ١٥٦٤، ١٥٦٦
 إن اليهود إذا سلّم أحدهم: ١٧٨٢
 إنَّا كنا إذا حمي البأس اتقينا برسول الله: ٢٠٣
 إنا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء: ١٧٢٨
 إنك تجده يصيد البقر: ١٠٤٣
 إنك حجر لا تنفع ولا تضر: ١١٧٩ (ث)
 إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي: ٢٢٩
 إنكم تختصمون إليَّ: ١٥٧٨
 إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل: ٢٧٥
 إنما أنا بشر: ١٦٦٢، ١٦٦٥، ١٦٦٨
 إنما أنا بشر أنسى كما تنسون: ١٥٩٨
 إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون: ١٦٠٩
 إنما أنا عبد: ١٣٨، ٢٥٨
 إنما ظننت ظناً: ١٦٦٤

إنما كان فراشه الذي ينام عليه آدمًا: ٣٢٤

إنما الكريم بن الكريم: ٣٦٠

إنما المدينة كالكير: ١٥١٠

إنه شكا كثرة العمل: ٨٠٧

إنه ﷺ صلى بالأنبياء: ٤٤٧

إنه ﷺ مسح خدّه: ٦٤

إنه لموصوف في التوراة: ١٦، ١٧، ١٨،

١٩ (ث)

إنه ليغان على قلبي: ١٥٣٨، ١٥٤١،

١٦٢٨، ١٦٠١

إنه من أهل النار: ٩٨٤

إنها استأذنت أن تسلم عليّ: ٧٤٤

إنها أمة مرحومة: ٦٢٧

إنها بضعة مني: ١٢٣٤، ١٦٤٨، ١٧٩١

إنها كانت تأتينا أيام خديجة: ٢٤٧

إنها من الشيطان: ١٥٦٣

إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين: ٢٥٠

إنهما في أمتي يوم القيامة: ٥٠٨

إني اتخذتك خليلاً: ٥٤٧ (قدسي)

إني إذا خلوت وحدي سمعت نداءً: ١٥٢٩

إني أرى ما لا ترون: ٣٢٩

إني أنسى كما تنسون: ١٦٢٣

إني إنما أقضي بينكم برأيي: ١٥٤٨

إني تارك فيكم ما إن أخذتم به: ١٢٧١

إني عبدالله وخاتم النبيين: ٤١٢

إني عرض عليّ أن يجعل لي بطحاء مكة:

٣١٥

إني فرط لكم: ٤٠٤

إني قد نهيت عن التعري: ١١٢٠

إني لأبصر من قفائي: ٨٥

إني لأخشاكم لله: ١٥٩٧

إني لأراكم من وراء ظهري: ٨١، ٨٢

إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة: ٣٤٦

إني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة: ٣٤٥

إني لأستغفر الله وأنوب إليه: ١٦٢٩

إني لأسمع صوتاً وأرى ضوءاً: ١٥٣٠

إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ:

٧٧٨

إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً: ١٦٧٤

إني لأنسى أو أنسى لأنسى: ١٥٨٤، ١٥٩٩،

١٦٠٧

إني لأنظر من ورائي: ٨٤

إني لا أعلم إلا ما علمني ربي: ١٥٤٩

إني لا أنسى، ولكن أنسى لأنسى: ١٦٠٨

إني لست كهيتكم: ١٥٢١، ١٦٥١

إني لقائم المقام المحمود: ٥٥٩

إني لم أبعث لعناً: ١٧١

إني نهيت عن أكل الشجرة فعصيت: ١٦٣٤

أما ترضى أن تعيش حميداً؟: ١٢٥٢

أما ترضون أن يكون إبراهيم وعيسى: ٥٠٨

أما الآن فلا: ١٥٣٢

إما أن تركب وإما أن تنصرف: ٢١٧

أما أنا فلا أكل مكتناً: ١٣٦

أمتة الحمادون لله: ٢٠

أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا: ١١٣٩،

١١٤٠

أملكها وما أراك: ٨١٨

أهو الذي بعينه بياض؟: ١٦٧٣

أوصاني النبي ﷺ لا يغسله غيري: ٧٧

أوصيكم بكتاب الله وعترتي: ١٦٩١

أولئك الذين نهاني الله قد قتلهم: ١٧٨٣

أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ

صلاة: ١٤١١

أول ما بدىء به رسول الله من الوحي: ١٥٢٦

أيما رجل سببته أو لعنته: ٢٣٧

أيما رجل من المسلمين سببته: ١٦٩٧

أيما قوم جلسوا مجلساً ثم تفرقوا: ١٤٢٧

أيها الناس احفظوني في أصحابي: ١٣١٤

أيها الناس اذكروا الله: ١٤١٤

أيها الناس إن الله غفر لأهل بدر: ١٣١٤

أيها الناس إني راضٍ عن أبي بكر: ١٣١٤

أيها الناس إني راضٍ عن عمر: ١٣١٤

حرف الباء

بش ابن العشرة: ١٧١٨، ١٧١٦

بش خطيب القوم أنت: ١١

بش ما لأحدكم أن يقول نسيئٌ: ١٥٨٢، ١٦١٠

باسم الله والسلام على رسول الله: ١٤٨٨

بيت المقدس: ٩٦٦

البخيل كل البخيل الذي: ١٤٢٤

بشرني - يعني ربه - أول من يدخل الجنة:

٤٠٨

بضعة مني يؤذيني ما آذاها: ١٨٢٧

بعثت إلى الأحمر والأسود: ٤٠١

بعثت بين يدي الساعة: ٤٠٦

بعثت لأنتم مكارم الأخلاق: ١٥٩

بُعِثْتُ من خير قرون بني آدم: ١٢٧

بُعِضْتُ إليَّ الأصنام: ١٥٤٥

بقيت أنا وأنت: ٧٣٢

بكفرك وافتراك على رسول الله ﷺ: ١٧٦٧

بكم؟: ٦٥٣

بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم: ٢٣٨

بل عبد لنا بمجمع البحرين: ١٥٨٩

بل هو نَعَمَان وماؤه طيب: ٩٠٢

بمحمد تفعل هذا؟: ٣٩١

بمحمد وأصحابه: ١٥ (ث)

بني الدين على النظافة: ٦٢

بهذا أمرت: ١٩٥

بيد أني من قريش: ١٢٥

بين حجرتي ومنبري: ١٥٠٥

بين قبري ومنبري: ١٥٠٦

بينما أنا أسير في الجنة: ٥٩٨

بينما أنا نائم: ٤٥١، ٤٥٧، ٤٦٩

بينما راع يرعى غنماً: ٧٩٤

بينما أنا قاعد ذات يوم: ٤٤٨

حرف التاء

تبني مدينة بين دجلة ودجيل: ١٠٣٩

تحلقوا عشرة عشرة: ٧٣٥

تدرك حاجتك: ١٧٠٨

تربت يمينك: ١٦٩٨

تسموا باسمي: ١٧٤٨

تسمون أولادكم محمداً ثم تلعنونهم؟: ١٧٥٠

تشهد أن لا إله إلا الله وحده: ٧٣٦

تُطْلَقُ هذه الظبية: ٨١٢

تعالني يا شجرة: ٧٤٦

تقدّم يا مصعب: ١١٠٩

تلك العزى: ١١١١

تلك الغرائق العلى: ١٥٦٩

تلك الملائكة لو دنا لاختطفته: ١٠٦٧

تناكحوا تناسلوا: ١٤٢

تنام عياني ولا ينام قلبي: ١٥٢٠

حرف الثاء

ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: ١١٩٥

ثم انطلق بي حتى أتيت سيذرة المستهي: ٤٣٩

ثم رجعت إلى خديجة وما تحوّل عن

جانبها: ٤٦٥

ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى: ٤٣٨

حرف الجيم

جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر: ١٦٣٢

جاء الحق وزهق الباطل: ٧٨٩

جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد:

٧٩٠

جاءت الراجفة: ١٤١٤

جليل المشاش: ٣٨١

الجنة تحت ظلال السيوف: ١٥٠٧

حرف الحاء

حُبِّ إِلَهِي مِنْ دُنْيَاكُمْ: ١٤٥، ٣٠٢
حُبِّسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَائِشَةَ سَنَةً:

١٦٥٩، ١٦٦٠

حِجَابُهُ النُّور: ٤٨٩

حُلُوُ الْمَنْطِقِ، فَضْلٌ، لَا نَزْر وَلَا هَنْدَر: ١٢٦

حَمُّ تَنْزِيلٍ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ٦٦٧

حَمِي الْوُطَيْسِ: ١٢٠

حِمْيَرُ رَأْسِ الْعَرَبِ: ١٠٨٤

حَوْضِي مَسِيرَةِ شَهْرٍ: ٥١٠

حَيَاتِي خَيْرَ لَكُمْ: ٦

حَيْثَمَا كُنْتُمْ فَصَلُّوا عَلَيَّ: ١٤٣٩

حرف الخاء

خَدِمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سَنِينَ: ٢٢١
(ث)

خَذَ مَا جِئْتُ بِهِ: ٧٢٩

خُفِّفَ عَلَيَّ دَاوُدَ الْقِرَانَ: ٣٦٣

الْخِلَافَةُ فِي قَرِيشٍ: ٩٨٧

خَيْرَ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا: ١١٦

خَيْرَ الْحَجَامَةِ يَوْمَ سَبْعِ عَشْرَةٍ: ١٠٧٩

خَيْرَ مَا تَدَاوَيْتُمْ بِهِ السَّعُوطُ: ١٠٧٨

خَيْرَكُمْ قَرْنِي: ١٠٠١

خَيْرٌ أَصْحَابِكَ فِي الْأَسَارَى: ١٦٣٢

خَيْرٌ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مُلْكًا: ٢٥٦

خَيْرَتِ بَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نَصَفَ أُمْتِي الْجَنَّةِ: ٥٦٠

حرف الدال

الدَّعَاءُ بَيْنَ الصَّلَاتَيْنِ لَا يَرُدُّ: ١٣٦٦

دَعَوْنِي فَإِنَّ الَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ: ١٦٨٢، ١٦٩٣

الدُّنْيَا دَارٌ مِنْ لَا دَارَ لَهُ: ٣١٦

حرف الذال

ذَاكَ إِبْرَاهِيمَ: ٢٧٠، ٦١٤

ذَاكَ جَبْرِيلُ لَوْ دَنَا لِأَخْذِهِ: ١٠٦٣

ذَوُ الْوُجْهِينِ لَا يَكُونُ: ١١٣

حرف الزاء

رَأَى جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ١٠٩٧

الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ: ١٠٧٤

رَأَيْتَ رَبِّي: ٤٨٣

رَأَيْتَ الْمَاءَ يَفُورُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ: ٦٩٥

رَأَيْتَ الْمَاءَ يَنْبَعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ: ٦٨٦

رَأَيْتَ مُوسَى فَإِذَا هُوَ صَرَبٌ: ٣٥٠

رَأَيْتَ النَّبِيَّ ﷺ وَأَنَا غَلَامٌ: ٢٥٢ (ث)

رَأَيْتُ نُورًا: ٤٨٨

رَأَيْتُهُ بِفُؤَادِي: ٤٨٢

الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ: ٦٢٩

رَجُلٌ وَلَدَ عَشْرَةَ: ١٠٨٢

رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ خَيْرًا: ١٠٩

رَحِمَ اللَّهُ فَلَانًا لَقَدْ أَذْكَرْنِي: ١٦٠٦

رَدَّوهُ بِمَا لَهُ فَإِنَّ وَطْأَتَهُ: ٣٢٥

رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذَكَرْتُ عَنْهُ فَلَمْ: ١٣٦٩،

١٤٢٢

حرف الزاي

زَنْ وَأَزْجَعْ: ٢٧٦

زَوَايَاهُ سَوَاءٌ: ١٠٨٦

زُوتَ لِي الْأَرْضُ: ٦٦١، ٩٦٤

حرف السين

سَبَحَانَ اللَّهِ كَأَنَّهُ عَلَى غَضَبٍ: ١٧٤٤

سَبَحَانَ ذِي الْجَبُرُوتِ: ٣٤٠

سَبَقَ الْفَرَسَ وَالْدَّمَ: ١٨١٠

سُجِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ١٦٥٥

سَحَرَ يَهُودُ بَنِي زُرَيْقٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: ١٦٥٨

السَّعِيدُ مَنْ وَعَظَ بَغِيرِهِ: ١٢٣

سَلَّ عَمَّا بَدَا لَكَ: ١٥٤٧

سَلْ عَنْكَ: ١٠١

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: ٧٧٧، ٧٧٩

سَلُّوا زَوْجَتَهُ عَنْهُ: ٩٨٦

سَنَةُ سَنَةٍ: ١٠٩٤

سيكون في هذه الأمة رجل يقال له الوليد:
١٠٤٠

سيكون من أمتي: ١٨١٤

حرف الشين

شَرُّ قَبِيلٍ تحت أديم السماء: ١٨٠٤
شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله: ٥٦١

حرف الصاد

صاحب الشيء أحق بشيئه: ٢٧٦
صدق: ٧٩٤

صدقت بارك الله فيك: ١٣٤

الصلاة على النبي ﷺ أمحق للذنوب: ١٤٢١
(ث)

صلاة في المسجد الحرام خير من مئة صلاة:
١٤٩٩ (ث)

صلاة في مسجدي هذا خير: ١٤٩٨

صلى الله على محمد وسلم: ١٤٨٦

صلى الله وملائكته على محمد: ١٤٨٥ (ث)
صلى رسول الله ﷺ حتى انْتَفَخَتْ قدماه:
٣٣٠

صلوا على أنبياء الله ورسله: ١٤٥٢

صلوا واجتهدوا في الدعاء: ١٣٩١

صليت ليلة أسري بي في مقدم المسجد:
٤٦٠

حرف الضاد

ضرس أحدكم في النار أعظم من أحد:
١٠١٧

ضع القلم على أذنك: ١٠٩١

ضع يدك على الذي تألم من جسدك: ٩٤٢

ضعه وادع لي فلاناً: ٧٣٥

حرف الطاء

طوله - أي الحوض - ما بين عُمان إلى أيلة: ٥١١

حرف الظاء

الظلم ظلمات يوم القيامة: ١١٨

حرف العين

عادوا حُماً: ١٥٤٣

عبدى أحمد المختار: ٢٠

عجل هذا: ١٣٥٩

عد إلى غنمك تجدها بوفرها: ٧٩٥

عَدَّهْنُ في يدي جبريل: ١٣٨٩

عرج بي جبريل: ٤٩٦

عرض عَلَيَّ أمتي فلم يَخَفْ عَلَيَّ التابع: ٤٠٠

عسى أن يقوم مقاماً يسرك يا عمر: ١٠٤٢

عطش الناس يوم الحديبية: ٦٩٣ (ث)

عفا الله لكم عن صدقة الخيل: ١٦٣٠

عَفَرُوا حَلَقِي: ١٦٩٩

العلم ثلاثة فما سوى ذلك فهو فضل: ١١٥٧

عليك بالرفق: ٢٤٢

عمران بيت المقدس خرابٌ يثرب: ١٠٤٨

عمل قليل في سَنَةِ خير: ١١٥٨

عملٌ قليل في سَنَةِ خير: ١١٦٦ (ث)

حرف الغين

غزا رسول الله ﷺ غزوة وذكر حنيناً: ٢٢٨

غسلت النبي ﷺ فذهبت أنظر: ٦٩

حرف الفاء

فَأَتَنِي به: ٧٢٩

فإذا أحبيته كنت سمعه: ٥٥١ (قدسي)

فإذا أخرجت منه: ١٠٣٢

فإذا قالوها عصموا مني دماءهم: ١٨٠٠

فإنَّ اليد العليا هي المنطية: ١٠٠

فإنما عليك نبيُّ أو صديق: ٧٨٤

فارقني جبريل وانقطعَت الأصوات عني:

٤٩٥، ٤٩١

فانْطَلَقَ فَتَوَصَّأً: ٨٤٣

فجاءني وأنا نائم فقال: اقرأ: ١٥٢٨

فَرِحَ سَقْفُ بيتي وأنا بمكة: ٤٣٥، ٤٦١

فَسُخِّقَا فَسُخِّقَا: ١١٨٥

فُضِّلْتُ عَلَى النَّاسِ بِأَرْبَعٍ: ١٥٢
 فَعَلِيكُمْ بَسْمَتِي وَسُنَّةَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ: ١١٥٠
 غَفَرَ اللَّهُ لَهُ: ١٨١٨
 قَالِ الْمَلِكُ: اللَّهُ أَكْبَرُ: ٤٩٣
 فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغُ: ١٦٧٠
 فَلْيَذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي: ١١٨٥
 فَلْيَقَاتِلْهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ: ١٥٦٥
 فَمَا زِلْتُ أَحَبَّ الدُّبَابَةِ مِنْ يَوْمُنَا: ١٢٣٨ (ث)
 فَمَنْ أَنَا؟: ٧٩٣
 فِي الْعُودِ الْهِنْدِيِّ سَبْعَةُ أَشْفِيَةٍ: ١٠٨٠

حرف القاف

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ إِنِّي مَنَزَلٌ عَلَيْكَ: ٦٧٢
 قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِآيَةٍ: ٣٤٢
 قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَامًا: ٩٣٩
 قَدْ أَوْدَى مُوسَى بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصِيرٍ: ١٧٧٨
 قَدْ سَمِعْتُ كَلَامَكُمْ وَعَجِبْتُكُمْ: ٥٤٦
 قَدْ فَعَلْتُ: ٧٧١
 قَدْ وَلَدْتُهُ نَظِيفًا مَا بِهِ قَدْرٌ: ٧٥ (ث)
 قَدِمُوا قَرِيشًا وَلَا تَقْدِمُوها: ١٢٨٥
 الْقُرْآنُ صَعَبٌ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ: ١١٥٤
 قُلْ لَتُنَلَّكَ الشَّجَرَةُ: ٧٣٧
 قُلْ لِهَنْ يَغْتَرَفْنَ: ٧٢٩
 قُمْ فَحَدِّثْهُمْ: ٧٩٤
 قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ: ١٣٨٤
 ١٣٨٥
 قَوْمُوا عَنِّي: ١٦٨٥

حرف الكاف

كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَأَى مِنْ أَذْمِ الرِّجَالِ: ٣٥٣
 كَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ مَا كَانَ عَلَى صَفْفٍ: ١٣٣
 كَانَ أَزْهَرَ اللَّوْنِ: ٥٥
 كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقْرَعُونَ بَابَهُ
 بِالْأُظَافِيرِ: ١٢٦٦

كَانَ أَوْسَعُ النَّاسِ صَدْرًا: ٢١٦
 كَانَ خَدَمُ الْمَدِينَةِ يَأْتُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: ٢٢٧
 كَانَ خَلْقُهُ الْقُرْآنَ: ١٥٨، ٥٥٢، ١٢٤٢
 كَانَ دَائِمَ الْبِشْرِ: ٢١٨، ١/٣٧٤
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا: ١٦٠، ١٦١
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَلَسَ فِي الْمَجْلِسِ
 احْتَبَى: ٢٩٢
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَعَا لِرَجُلٍ أَدْرَكَتْ
 دَعْوَتُهُ: ٨٦٠
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا غَضِبَ: ٢٠١
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ فِي الصَّلَاةِ يَرَى مِنْ
 خَلْفِهِ: ٧٩
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعِزْرَاءِ: ٢٠٨
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَائِمَ الْبِشْرِ: ٢١٨، ١/٣٧٤
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَخْمًا مَفْخَمًا: ١/٣٧٤
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ بِقَرْفٍ أَحَدٍ: ٢٧٩
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَجْلِسُ وَلَا يَقُومُ إِلَّا
 عَلَى ذِكْرٍ: ١/٣٧٤
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَوَاصِلَ الْأَحْزَانِ: ٣٤٤، ١/٣٧٤
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُؤَلِّفُهُمْ: ٢١٨
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْخَوِّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ: ٢٤١
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحْدِثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ
 أَحْصَاهُ: ٣٠١
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْزِنُ لِسَانَهُ إِلَّا: ١/٣٧٤
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْكَبُ الْحِمَارَ: ٢٦١
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَلْبِسُهَا: ٨٩٨
 كَانَ سَكُوتُهُ عَلَى أَرْبَعٍ: عَلَى الْحَلَمِ: ٣٠٠، ١/٣٧٤
 كَانَ ﷺ قَدْ وَلَدَ مَخْتُونًا: ٧٤

كان ﷺ يبيت هو وأهله الليالي: ٣٢٢
 كان ﷺ يتألم أحياناً على سرير مرمول: ٣٢٦
 كان عمل رسول الله ﷺ ديمة: ٣٣٤
 كان عندنا داجن فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ قرّ وثبت: ٧٩٢
 كان فراش رسول الله ﷺ في بيته مسحاً: ٣٢٥
 كان في بيته في مهنة أهله: ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣
 كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيل: ٢٩٩
 كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته: ٢٢٥
 كان محروساً: ١٦١٨
 كان المسجد مسقوفاً على جذوع النخل: ٧٦٣ (ث)
 كان موسى رجلاً حَيّاً: ٣٥٩
 كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير: ١٨٨
 كان النبي ﷺ أحسن الناس: ٢٠٥
 كان النبي ﷺ إذا أراد غزوة ورّى بغيرها: ١٥٨٨
 كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل: ٢٩
 كان النبي ﷺ أوقر الناس: ٢٩١
 كان النبي ﷺ لا يدخر شيئاً لغد: ١٩٧
 كان النبي ﷺ يُخرس: ١٠٤٩
 كان النبي ﷺ يرى في الظلمة: ٨٦
 كان النبي ﷺ يعلمنا التشهد: ١٣٥١، ١٣٥٢
 كان - أي: رجل - يبغض عثمان فأبغضه الله: ١٣١٦
 كان يجيب من دعاه: ٢١٩
 كان يدعى إلى خبز الشعير: ٢٦٢
 كان يدور على نسائه في الساعة من الليل: ١٤٧
 كان يشهد على المشركين مشاهدهم: ١٥٤٤
 كان يصوم حتى نقول لا يفطر: ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٣٧

كان يقبل الهدية: ٢٢٠
 كانوا يكرهون أخذة كأخذة الأسيف: ١٧٣٨
 كذّبي قومي: ٢٣
 كذلك كن: ٨٩٠
 كفى بقوم حمقاً: ١١٩٠
 كلّ بيمينك: ٨٨٦
 كل أمّي يدخلون الجنة إلّا: ١١٤٦
 كل تقّي: ١٤٥٦
 كل الخلال يطبع عليها المؤمن: ١٦٧
 كل دعاء محجوب دون السماء فإذا: ١٣٦٧
 كل ذلك لم يكن: ١٥٨٠
 كل ما في القرآن «كاد» فهو ما لا يكون: ١٥٧١ (ث)
 كل نبي أعطي سبعة نجيّاء: ٤١٠
 كلّمكم أننى على ربه: ٤٤١ م
 كلّما دنوت منها من صنم تمثّل لي شخص: ١٥٤٦
 كلّن وأطعمن من غشيكن: ٧٣٤
 كلوا باسم الله: ٨٣٢
 كمثّل من بنى داراً: ١١٤٨
 كنت أفعله أنا ورسول الله ﷺ: ١٥٩٦ (ث)
 كنت أول الأنبياء في الخلق: ٣٢، ٦٣٧، ٦٣٩
 كنت لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً: ٣٣٩
 كنا زهاء ثلاث مئة: ٦٨٧ (ث)
 كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحه: ٧٧٤
 كيف بك إذا أخرجت من خير: ١٥٧٥
 كيف بك إذا أخرجت منه: ١٠٣٢
 كيف بك إذا ألبست سوارى كسرى: ١٠٣٨
حرف اللام
 لأحملنك على ابن الناقة: ١٦٧٢
 لأشفعن يوم القيامة: ٥٩٠
 لأصبح موثقاً يتلاعب به: ١٥٥٧

لا طوفن الليلة على مئة امرأة: ١٥٠، ١٦٤٠
لئن قدر الله عليّ: ١٨١٧
لا: ٨٢٢
لا أسأل قد اكتفيت: ١٥٢٥
لا استطعت: ٨٨٦
لا أشبع الله بطنك: ١٦٩٩
لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته: ١١٥٢، ١١٨٨
لا أقول إن أحداً أفضل منه: ٦١٥
لا بل مثل الشمس والقمر: ٥٨
لا بل هو الرأي والحرب والمكيدة: ١٦٦٦
لا تؤذوني في أصحابي: ١٨٢٥
لا تؤذيني في عائشة: ١٢٨٦، ١٨٢٦
لا تبرح بارك الله فيك: ٨١٩
لا تتخذوا بيتي عيداً: ١٤٤٢
لا تتخذوهم غرضاً بعدي: ١٨٢١
لا تجعلوا قبري عيداً: ١٤٩٢
لا تجعلوني كقدح الراكب: ١٣٦٤
لا تحزن إن الله معنا: ١٠٦٢
لا تخيروني على موسى: ٢٦٨، ٦١٠
لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين: ٩٦٦
لا تسألني بهما: ١٥٤٧
لا تسبوا أصحابي: ١٣٠٥، ١٨٢٢، ١٨٢٣
لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: ١٤٩٥
لا تطروني كما أطرت النصارى: ٢٥٩
لا تفضلوا بين الأنبياء: ٢٦٧، ٦٠٩
لا تفضلوني على يونس بن متى: ٢٦٦
لا تقوم الساعة حتى تقتل فئتان: ١٠٤١
لا تقوم الساعة حتى يسوق الناس بعصاه رجل: ١٠٠٠
لا تقوموا كما تقوم الأعاجم: ٢٥٧
لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله: ١٢٢٥
لا تملدوا بسم الله الرحمن الرحيم: ١٠٩٢
لا خير في صحبة من لا يرى لك: ١٠٥

لا سهم لهم في الإسلام: ١٨٠١
لا صلاة لمن لم يصل عليّ: ١٣٥٦
لا نبيّ بعدي: ١٧٩٣
لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه: ١٠٠٢
لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه: ١١٩٣، ١١٩٤، ١١٩٧
لا يبع حاضر لباد: ١٧٩٤
لا يبلغني أحد منكم عن أحد: ٢٣٠
لا يتحدث أن محمداً يقتل أصحابه: ١٧٧، ١٧٨١
لا يجلس قوم مجلساً لا يصلون فيه: ١٤٣١
لا يحبك إلا مؤمن: ١٢٧٦
لا يخرج أحد من المدينة رغبة عنها: ١٥١١
لا يخلق على كثرة الرد: ٦٦٩
لا يزال أهل الغرب ظاهرين: ٩٦٥
لا يسمى أحد باسم النبي ﷺ: ١٧٥١ (ث)
لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا: ١٥٠٨
لا يفضض الله فاك: ٨٧٢
لا يقاس بأصحاب النبي ﷺ أحد: ١٣١٥ (ث)
لا يقول أنا خير من يونس بن متى: ٦١٣
لا يقول أحدكم ما شاء الله وشاء فلان: ١٠
لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين: ١٢١
لا بلغ الكلب في دم مسلم: ١٧٦١
لا يتطع فيها عتران: ١٧٧٣
ليك: ٢٢٢
ليك اللهم ربي وسعديك: ١٣٩٣ (ث)
ليك وسعديك والخير في يدك: ٥٦٣
لست أنسى ولكن أنسى: ١٥٨٣، ١٦٠٠، ١٦٥٢
لست كهيتكم: ١٦٥٤
لعلك تخلف حتى يتفع: ١٠٢٨
لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً: ١٦٦٢
لعله كان يتكلم بما لا يعنيه: ١١٢

لم يكن النبي ﷺ يمر في طريق فيتبعه أحد إلا

عرف أنه سلكه من طيه: ٦٦

لم يمتلىء جوف النبي ﷺ شبعاً قط: ١٣٤،

٣٢٧

لما أراد الله تعالى أن يعلم رسوله الأذان جاء

جبريل: ٤٤٩

لما استقبلني جبريل بالرسالة: ٧٧٩

لما أسري بي إلى السماء: ٤٢٧

لما تجلّى الله لموسى: ٩٢

لما خلق الله آدم أهبطني: ٣٩٢

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة: ٦٥٠ (ث)

لما نشأت بُعِضْتُ إِلَيَّ الأوثان: ١٦٥

لن تُراعَ لن تُراع: ١٨٠

لن تُراعوا: ٢٠٥

لن تشككي وجع بطنك: ٧٣

لن تصيبه النار: ٧١

لن يؤمن أحدكم حتى أكون: ١١٩٦

لن يزال هذا الأمر في قریش: ٩٨٨

لو استقبلت من أمري: ١٧١٣

لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد: ٧٣٧

لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً: ٣٢٨،

١٦٤٧

لو رآه رسول الله ﷺ لأحبه: ١٢٩٠ (ث)

لو شاء الله لأيقظنا: ١٦١٧

لو قلت له يغسل هذا: ٢١٠

لو كنتم رسول الله ﷺ شيئاً: ١٦٧٩، ١٦٨٠

(ث)

لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي: ٥٤٣، ٥٥٠

لو كنت من هاتين القريتين لأدبتك: ١٤٩٧

(ث)

لو كنا مئة ألف لكفانا: ٦٩٣ (ث)

لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك:

٢٣١

لو لم تكلمه لأكلتم منه: ٧٠٩

لعله يصلي: ١٨٠٧

لعلي أضلّ الله: ١٨١٨

لعن الله زوّارات القبور: ١٤٦٧

لقد أذكّرني كذا وكذا آية: ١٦٢٥

لقد أوتي مزامراً من مزامير: ١٤٥٨

لقد بقي من أجله ثلاث: ١٨١

لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر

جناحيه: ٩٤١ (ث)

لقد خشيت على نفسي: ١٥٢٥

لقد رأيته في الجنّة: ٤٦٣

لقد قف شعري مما قلت: ٤٧٢ (ث)

لقد كان الأنبياء قبلي يتلى أحدهم بالفقر: ٣٧١

لقد كنا نسمع تسييح الطعام: ٧٧٣

لقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد:

٣١٤ (ث)

لقيت جبريل فقال لي إني أبشرك: ١٤٠٦

لكل نبي دعوة دعا بها: ٥٩٢

لكل نبي دعوة مستجابة: ٥٩٣

لكل نبي دعوة يدعو بها: ٥٩١

لكن رسول الله ﷺ لم يفرّ: ١٩٩

لله ولكتابه ولرسوله: ١٢٤٨

لم أره بعيني: ٤٩٠

لم أكن أدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحد:

١١٧١ (ث)

لم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله: ١٦٦

لم يبعث الله نبياً من آدم فمن بعده: ٣٠ (ث)

لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل: ١٥٢٣ (ث)

لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: ١٥٨٦

لم يكن بالمطعم: ٣٨٠

لم يكن سبأياً: ١٧٠٢

لم يكن فحاشاً: ١٧٠١

لم يكن النبي ﷺ فاحشاً: ٢١١

لم يكن النبي ﷺ يمر بحجر ولا شجر إلا:

٧٨٠

لو نزل من السماء عذاب ما نجا منه إلا عمر :
١٦٣٣

لي خمسة أسماء : ٦١٧

لي عشرة أسماء : ٦٢١ ، ٦٢٢

لي في القرآن سبعة أسماء : ٦٢٤

ليس بالأبيض الأمهق : ٣٧٦

ليس بالطويل الممّط : ٣٧٥

ليس بفظ ولا غليظ : ٦٤٦

ليلة الغار أمر الله شجرة فنبتت : ٨١٠

حرف الميم

ما أسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي :
٤٥٨

ما أشك ولا أسأل : ١٥٢٤

ما أعددت لها : ١١٩٨

ما أعظمك وأعظم حرمتك : ١٥١٥

ما أكل رسول الله ﷺ على خوان : ٣٢٣

ما التقم أحد أذن رسول الله ﷺ فينحي رأسه :
٢٢٤

ما انتقم لنفسه : ١٦٨٦

ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ؟ :
١١٥٣

ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا : ٢٠٩

ما بالك ؟ : ١٢٠٦

ما بعث الله تعالى من بعد لوط نبياً إلا : ٣٥٤

ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه : ٣٥٧

ما بين بيتي ومنبري روضة : ١٥٠٢

ما بين السماء والأرض شيء إلا يعلمني
رسول الله : ٨٠٦

ما بين المشرق والمغرب قبلة : ١٠٨٩

ما بين منبري وقبري روضة : ١٤٨٢

ما ترك إلا سلاحه وبغلته : ٣١٣

ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً : ٣١٢

ما تصنعون ؟ : ١٦٦٢

ما تقولون أني فاعل لكم ؟ : ١٨٢

ما جلس قوم مجلساً ثم تفرقوا : ١٤٣٠

ما حاجتك ؟ : ٨١٢

ما حجني رسول الله ﷺ منذ أسلمت : ٢٢٣

ما حملك على ما صنعت ؟ : ٨٢١

ما خيّر رسول الله ﷺ في أمرين قط إلا اختار
أيسرهما : ١٧٠ ، ٢٨٧ ، ٢٤٠

ما دعا أحد بشيء في هذا الملتزم : ١٥١٨

ما رأيت أحداً أسرع من رسول الله ﷺ : ٩٤

ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ :
٢٢٦

ما رأيت أشجع من رسول الله ﷺ : ٢٠٢

ما رأيت رسول الله ﷺ منتصباً من مظلمة :
١٧٩

ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ : ٥٨

ما رأيت فرج رسول الله ﷺ قط : ٧٦ ، ٢١٥

ما رأيت من ذي لمة في حلّة حمراء أحسن
من رسول الله ﷺ : ٥٦

ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على
رسول الله ﷺ : ١٧٢٦

ما زاد داود على أن قال للرجل :
١٦٣٧ ، ١٦٣٦ (ث)

ما زالت أكلة خيبر تعادني : ٨٢٩

ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر : ٨٦٨ (ث)

ما سئل النبي ﷺ عن شيء فقال لا : ١٨٥ ،
١٨٦ ، ١٨٧

ما شئت وإن زدت فهو خير : ١٤١٤

ما شيع آل رسول الله ﷺ من خبز بر : ٣١١

ما شيع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تبعاً :
٣٠٩

ما شممتُ عنبراً قط ولا مسكاً ولا شيئاً أطيب

من ريح رسول الله ﷺ : ٦٣

ما ضرَّ أحدكم أن يكون في بيتي محمد :
٤٢٩ ، ١٧٦٠

ما عندي شيء ولكن ابتغ علي : ١٩٥

ما غرث على امرأة ما غرث على
خديجة: ٢٤٥ (ث)

ما فرشتم لي الليلة؟: ٣٢٥

ما فقدت جسد رسول الله ﷺ: ٤٥٠ (ث)

ما فقد جسده: ٤٧١ (ث)

ما قَصُرَتْ وما نَسِيتُ: ١٥٨١

ما كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:
١٢١١ (ث)

ما كَانَ أَحَدٌ أَحْسَنَ خَلْقاً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:
٢٢٢

ما كَانَ لِلَّهِ لِيَسْلُطَكَ عَلَى ذَلِكَ: ٨٢٢

ما كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ: ١٦٧٥

ما كُنْتُ تَحَدَّثُ بِهِ نَفْسِكَ: ١٠٦٩

ما لَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتِيبَةً إِلَّا كَانَ أَوَّلَ مَنْ
يَضْرِبُ: ٢٠٦

ما لَمَسْتُ يَدَهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ: ٢٨٤

ما لَهُ؟ تَوَيْتُ جَبِينَهُ: ١٧٠٢

ما مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ: ١٣٢،
١٠٨١

ما مِنْ أَحَدٍ إِلَّا أَلَمَ بِذَنْبٍ: ١٦٤٣

ما مِنْ أَحَدٍ يَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَ الرُّكْنِ: ١٥١٦

ما مِنْ أَحَدٍ يَسْلُمُ عَلَيَّ إِلَّا: ١٤٣٣

ما مِنْ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ: ١١٣٨

ما مِنْ مُسْلِمٍ يَصِيْبُهُ أَذَى: ١٧٣٥

ما مِنْ مُصِيبَةٍ تَصِيبُ الْمُسْلِمَ: ١٧٣٣

ما مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ رَعَى الْغَنَمَ: ١٧٩٥

ما مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ: ٤٠٩

ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَكُلٌّ بِهِ قَرِينٌ مِنَ الْجَنِّ:
١٥٥٣

ما هَلَكَ امْرُؤٌ عَرَفَ قَدْرَهُ: ١٠٧

ما هَمَمْتُ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ فِي أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ:
٢٩٠

ما يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ: ١٧٢١

ما يَسْرُنِي أَنْ لِي أَحَدًا ذَهَبًا: ١٥٥

ما يَصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ: ١٧٣٤

ما يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ:
٦٠٨، ٦٠٧

مَاتَ حَتَفَ أَنْفَهُ: ١٢١

الْمَالُ مَالُ اللَّهِ: ١٧٨

الْمَتَمَسِّكُ بِسِتِّي عِنْدَ فُسَادِ أُمَّتِي: ١١٦٠

مِثْلُ أَصْحَابِي كَمِثْلِ الْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ: ١٣٠٣

مِثْلُ الْكَافِرِ كَمِثْلِ الْأَزْوَءِ: ١٧٣٧

مِثْلُ الْمُؤْمِنِ مِثْلُ خَامَةِ الزَّرْعِ: ١٧٣٦

مِثْلِي وَمِثْلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمِثْلِ رَجُلٍ:
١١٤٧

مِثْلِي وَمِثْلُ هَذَا مِثْلُ رَجُلٍ: ٢٢٩

الْمَحْرُومُ مِنْ حَرَمٍ وَصِيَّتِهِ: ١٧٤٤

الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ: ١٠٤، ١١٩٩

الْمِرَاءُ فِي الْقُرْآنِ كَفَرٌ: ١٨١٩

مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ: ٤٣٧

مَرْحَبًا بِكَ مِنْ بَيْتٍ: ١٥١٥

مَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَبِسَ عَنِ النِّسَاءِ:
١٦٦١

مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاخٌ مِنْهُ: ١٧٤٦

الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ: ١٠٨

مَسْجِدِي هَذَا: ١٤٩٣

الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ: ١٠٢

الْمُعْدَةُ حَوْضُ الْبِدَنِ: ١٠٧٧

مَعْرِفَةُ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ: ١٢٧٢

الْمَعْرِفَةُ رَأْسُ مَالِي: ٣٤٧

مَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَكَّةَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً يَسْمَعُ
الصَّوْتِ: ١٥٢٧

مَنْ أَحَبَّ الْعَرَبَ فَبِحَبِي أَحْبَبَهُمْ: ١٢٣٧

مَنْ أَحَبَّ عَمْرَ فَقَدْ أَحْبَبَنِي: ١٣٠٩

مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ: ١٧٤٧

مَنْ أَحْبَبَنِي كَانَ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ: ١٢٠٧

مَنْ أَحْبَبَنِي وَأَحَبَّ هَذَيْنِ وَأَبَاهُمَا: ١٢٠٤،
١٢٨٣

من أحبهما فقد أحبني: ١٢٣٢

من أحدث فيها حدثاً: ١٣٣٢

من أحيا سنة من سني قد أُميتت: ١١٦٣

من أحيا سني فقد أحيانني: ١١٦٢

من أدخل في أمرنا ما ليس فيه فهو رد: ١١٨٧
مَنْ استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها:

١٥١٤

من أشد أمتي لي حباً يكونون بعدي: ١٢٠٨

من أصاب من ذلك شيئاً فعوقب: ١٧٠٣

من أطاعني دخل الجنة: ١١٤٦

من أطاعني فقد أطاع الله: ١١٤٤

من اقتدى بي فهو مني: ١١٥٥

من أنا؟: ٨٣٣، ٨٣٤

من أهان قريباً أهانه الله: ١٢٨٤

مَنْ بدل دينه فاقتلوه: ١٧٩٨

من بقي من قرابتها؟: ٢٥٤

من تعبد؟: ٧٩٣

من تقرب مني شيراً: ٤٩٨ (قدسي)

من جحد آية من كتاب الله: ١٨٢٠

من الجفاء أن أذكر عند الرجل فلا يصلي علي: ١٤٢٩

من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب: ٤٧٢ (ث)

من حفظني في أصحابي كنت له حافظاً: ١٣١٩

من حفظني في أصحابي ورد علي الحوض: ١٣٢٠

من حلف على منبري كاذباً: ١٣٣٤

من خالف الجماعة قيد شبر: ١٨١٥

من ذكرته عنده فلم يصل علي: ١٤٢٥

من رآه بديهة هابه: ٦١، ١٢٤٦

من رغب عن سني فليس مني: ١١٨٦

من زار قبري وجبت له شفاعتي: ١٤٦٣،

١٤٦٩

من زارني بعد موتي فكأنما: ١٤٦٥

من زارني في المدينة محتسباً: ١٤٦٤

من سئل عن علم فكتمه: ١

من سب أصحابي فاجلدوه: ١٨٣٠

من سب أصحابي فاضربوه: ١٧٦٢، ١٨٢٤

من سب أصحابي فعليه لعنة الله: ١٣٠٦

من سب نبياً فاقتلوه: ١٧٦٢

من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى: ١٣٩٠

من سلم عليّ عشراً: ١٤١٨

من شاء فليخذلني: ١٠٥٥

من صلى خلف المقام ركعتين: ١٥١٧

من صلى صلاة لم يصل فيها علي: ١٣٥٧

من صلى عليّ صلاة: ١٤٠٣، ١٤١٣

من صلى عليّ عند قبري سمعته: ١٤٣٤

من صلى عليّ في كتاب لم تزل الملائكة: ١٤١٢، ١٣٨٠

مَنْ غيّر دينه فاضربوا عنقه: ١٧٧٦

مَنْ فضيلتك عند الله أن جعل طاعتك طاعته: ١٣ (ث)

مَنْ قال اللهم صل على محمد: ١٤١٠

مَنْ قال أنا خير من يونس فقد كذب: ٦١٢

من قال حين يسمع المؤذن وأنا أشهد: ١٤١٧

من قال حين يسمع النداء اللهم ربّ: ١٤١٦

مَنْ كان ذا طولٍ فليتزوج: ١٤٤

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل

الحمام: ١١٨٤

من كفر بآية من القرآن فقد كفر به كله:

١٨٢٠ م (ث)

من كنت مولاه فعليّ مولاه: ٦٤٤، ١٢٧٥

مَنْ لكعب بن الأشرف؟: ١٧٦٣

مَنْ لي بها؟: ١٧٧٣

من مات في أحد الحرمين حاجاً: ١٥١٢

من نبي إلى نبي: ٥ (ث)

من نسي الصلاة عليّ نسي طريق الجنة:

١٤٢٨

من يُرد الله به خيراً يصب منه: ١٧٣٢

من يكفيني عدوي؟: ١٧٦٦ ، ١٧٦٨ ، ١٧٦٩

من يمنحك مني؟: ١٧٤

منبري على ترعة: ١٥٠٤

منهوس العقب: ٣٨٤ (ث)

موت الفجاءة، راحة للمؤمن: ١٧٤٥

حرف النون

الناس كاستان المشط: ١٠٣

الناس معادن: ١٠٦

نام حتى سُمع له غطيط: ٧٨

نحن الآخرون السابقون: ٦٤٠

نحن أحق بالشك من إبراهيم: ٢٦٨ ، ١٥٢٢

نسباً وصهرأ وحسباً: ٤

نصرتُ بالرعب: ٤٠٢

نصفه قضاء ونصفه نائل: ١٩٨

نعم: ٧٤٧ ، ١٥٦٨

نعم أنا دعوة أبي إبراهيم: ٤١٤

نعم فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقاً:

١٥٦٨

نعم كل صواب: ١٥٧٢

نغم موضع الحقام هذا: ١٠٨٨

نعم وأرد عليهم: ١٤٤٤

نغمة الجن، من أنت؟: ١١١٠

نُهيتم عن زيارة القبور فزوروها: ١٤٦٨

نور أني أراه؟: ٤٨٧ ، ٤٨٨

نوراني أراه: ٤٨٧

حرف الهاء

هاجث لموت منافق: ١٠١٦

هذا أطيب وأطهر: ١٤٨ ، ١٤٩

هذا تفعله الأعاجم بملوكها: ٢٧٦

هذا عمي وصنو أبي: ١٢٧٨

هذا ممن قضى نحبه: ١٢٦٤

هذه الشجرة تعالي يا شجرة: ٧٤٦

هذه الشجرة السمرة: ٧٣٦

هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا: ١٢٨٩

(ث)

هكذا نفعل بالعلماء: ١٢٨٩ (ث)

هل؟ يعني مكاناً لحاجة رسول الله ﷺ:

٧٣٩

هل أصابك من هذه الرحمة؟: ٨

هل ترى من نخل أو حجارة؟: ٧٣٩

هل تعلم أحداً أعلم منك؟: ١٥٩٠

هل في آباءك من ملك؟: ١٧٩٦ (ث)

هل كنتم تهمونه بالكذب؟: ٢٨٢ (ث)

هل لك إلى خير؟: ٧٣٦

هل معكم شيء يبيعونه؟: ٦٥٣

هل من شيء؟: ٧٢٩

هل من وضوء؟: ٧٠٦

هلاك أمتي على يد أغيلمة من قريش: ١٠٠٣

هلا خبرتها أني أقبل وأنا صائم؟: ١٥٩٥

هلا شقت عن قلبه: ١١٤٢

هلك رسول الله ﷺ ولم يشيع هو: ٣١٨

٣٢١

هلك المتنطعون: ١١٩١

هلموا أكتب كتاباً لن تضلوا بعده: ١٦٨١

هم من شر البرية: ١٨٠٣

هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه: ٥٥٨

هو نهر في الجنة: ٦٠٥

هوّن عليك: ١٥٤ ، ٢٧٥

هي رؤيا عين رآها النبي ﷺ: ٤٥٦ (ث)

هي سيّ محمد وأحمد: ٦٢٥

هي الشفاعة: ٥٥٤

حرف الواو

وآدم بين الروح والجسد: ٣٨٦

وأكسى حلة من حلل الجنة: ٥٠١

والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل:

١٢٧٧

والذي نفسي بيده لا يقولها رجل: ٦٦٢

والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله: ١٦٤٠
والذي نفسي بيده لو لم ألزمه لم يزل: ٧٦٨
والله إني لأمين في السماء: ٢٧٩
والله لا أحلف على يمين فأرى: ١٥٧٧
والله ما هو بكاهن: ٦٥٨ (ث)
والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا: ٦٥٧ (ث)

وإنَّ الحسنة بعشر أمثالها: ١٠٨٧
وأنا أشبه ولد إبراهيم به: ٣٥٢
وأنتم اليوم خير منكم يومئذ: ٩٥٥
وإِنِّي، ولكن الله تعالى أعانني: ١٥٥٣، ١٥٥٤

وتفعلين؟: ٨١٢
وجدنا فرسك بحرًا: ٨٩٣
والجراحة والجبن غرائز: ١٦٨
وجعلت قرة عيني في الصلاة: ١٤٦
وجعلتك فاتحاً وخاتماً: ٦٣٦ (قدسي)
ورس ورس! حُطَّ حُطَّ: ١٧٠٩
والسلام كما قد علمتم: ١٣٨٨
الوسيلة أعلى درجة في الجنة: ٥٩٧
وصلاة في المسجد الحرام أفضل من: ١٥٠٠
وكذلك الأنبياء تنام أعينهم: ٣٦١
وكل ضلالة في النار: ١١٥١
ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس: ٦١١
ولا خطر على قلب بشر: ١٥٥٠
ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر: ٥٤٩
وما يمعني وإنما أنزل القرآن بلساني: ١٢٤
وما يمعني وقد خرج جبريل أنفاً: ١٤١٥
والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون: ١٥٠٩
ويتمارى في الفوق: ١٨١١
ويحك فمن يعدل إن لم أعدل: ١٧٣، ٢٨٦
ويحك يا أبا سفيان: ١٨٤
ويذكر كذباته: ١٥٨٧
ويَقَادُ منك يا أعرابي: ١٧٨

ويكثر الهرج: ١٠٩٥
ويل لك من الناس: ٧٢
ويل للعرب من شر قد اقترب: ٩٦٣
ويل للناس منك: ٩٨٣

حرف الياء

يا ابن أخي إن الله بعث إلينا محمداً: ١١٦٤ (ث)

يا إخوة القردة والخنازير: ١٧٨٥
يا أعرابي! أين تريد؟: ٧٣٦
يا أيها الناس انصرفوا عني: ١٠٤٩
يا بني! إن قدرت أن تصبح وتسمي: ١٢٢٤
يا بني! وذلك من ستي: ١٢٢٤
يا جابراً قل لهذه الشجرة: ٧٣٨
يا جابراً نادِ الوضوء: ٦٩٥
يا جبريل! إن الدنيا دار من لا دار له: ٣١٦
يا رب! علمت أن لا مخافة عليّ: ٧٥٠
يا رسول الله! لأنت أحب إليّ من أهلي: ١٢٠٥ (ث)

يا ضَبُّ: ٧٩٣
يا عائشة! أو ما علمت أن الأرض تبتلع: ٦٨
يا عائشة! مالي وللدينا: ٣٢٧
يا عباد الله: الخشب تحنّ: ٧٧٢ (ث)
يا فتى لقد شققت عليّ: ٢٤٣
يا فلانة أجبي ياذن الله: ٨٣٥
يا محمداً! إن الله يأمرك أن تصل من قطعك: ١٦٩

يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل: ١٥٢٨
يا مسكينة عليك السكينة: ١٥٣
يا معشر أهل الإيمان: ٤٣١
يتلأأ وجهه تَلَأَوُ الْقَمَر: ٦٠
يجمع الله الأولين والآخرين: ٥٠٦، ٥٧١
يجمع الله الناس في صعيد واحد: ٥٦٣
يحشر الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي: ٥٥٥

يكون في ثقيف كذاب ومبير: ٩٨٩
يمجد الجبار نفسه: ٧٨٨
يمرقون من الدين: ١٨٠٩
ينزل ربنا إلى السماء الدنيا: ٤٩٧
يوشك أن يكثر فيكم العجم: ٩٩٩
يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة: ٦٩٩
يوضع للأنبياء منابر يجلسون عليها: ٥٨٨
يوم الأربعاء: ٦٨٥

يخرج في هذه الأمة: ١٨١٢
يخرج من أمتي: ١٨١٣
يخرج من النار من كان في قلبه: ١١٤٣
يخطو تكفوًا: ٢٩٦
يسبقه عضو منه إلى الجنة: ١٠٣٦
يسروا ولا تعسروا: ١٧٨٠
يقتل عثمان وهو يقرأ في المصحف: ٩٧٦
يقتلون أهل الإسلام: ١٨٠٦
يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم: ١٨٠٨

فهرس الأشعار

رقم الصفحة

الباء

- | | |
|----------------------------------|-----------------------------------|
| ٢٧٦ فلما رأينا رسم من لم يدع لنا | ٢٧٦ فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لبنا |
| ٢٧٦ نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة | ٢٧٦ لمن بان عنه أن نلّم به ركبا |



- | | |
|--------------------------------|---------------------------|
| ٤٢٢ فإن يك باقي سحر فرعون فيكم | ٤٢٢ فإن عصا موسى بكفّ خصب |
|--------------------------------|---------------------------|

التاء

- | | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| ٢٧٦ يا دار خير المرسلين ومن به | ٢٧٦ مُدِيّ الأنام وخص بالآيات |
| ٢٧٦ عندي لأجلك لوعة وصبابة | ٢٧٦ وتشوق متوقد الجمرات |
| ٢٧٦ وعلي عهد إن ملأت محاجري | ٢٧٦ من تلكم الجدران والعرصات |



- | | |
|---------------------------------|---------------------------------|
| ٢٧٧ لأعفرن مصون شيبني بينها | ٢٧٧ من كثرة التقبيل والرشفات |
| ٢٧٧ لولا العوادي والأعادي زرتها | ٢٧٧ أبداً ولو سحباً على الوجنات |
| ٢٧٧ لكن سأهدي من حفيل تحيتي | ٢٧٧ لإقطين تلك الدار والحجرات |
| ٢٧٧ أركن من المسك المفتق نفحة | ٢٧٧ تغشاه بالآصال والبُكرات |
| ٢٧٧ وتخضه بزواكي الصلوات | ٢٧٧ ونوامي التسليم والبركات |

الدال

- | | |
|--------------------------|-------------------------------|
| ١٤٦ وشق له من اسمه ليجله | ١٤٦ فذو العرش محمود وهذا محمد |
|--------------------------|-------------------------------|



- | | |
|---------------------------------|----------------------------|
| ٤٢١ كأن أبا بكر أبو بكر الرضا | ٤٢١ وحسان حسان وأنت محمد |
| ٤٢١ لو لا انقطاع الرحي بعد محمد | ٤٢١ قلنا محمد من أبيه بديل |
| ٤٢١ هو مثله في الفضل إلا أنه | ٤٢١ لم يأت به برسالة جبريل |

- أنا في أمة تداركها الله ٤٢١ ه غريب كصالح في ثمود
 لو لم تكن فيه آيات مبينة
 علي محمد صلاة الأبرار
 قد كنت قواماً بكاً بالأسحار
 يا ليت شعري والمنايا أطواز
 هل تجمعتني وحببي الداز



- كنت موسى واقفه بنت شعيب ٤٢١ غير أن ليس فيكما من فقير
 كيف لا يدنيك من أملي
 من رسول الله من نفيه ٤٢٢



- العين
 تعصي الإله وأنت تظهر حبه ٢٤٢ هذا لعمرى في القياس بديع
 لو كان حبك صادقاً لأطعته ٢٤٢ إن المحب لمن يحب مطيع

القاف

- من قبلها طبت في الظلال وفي ١٠٠ مستودع حيث يخصف الورق
 ثم هبطت البلاد لا بشر أن ١٠١ ت ولا مضغة ولا علق
 بل نطفة تركب السفين وقد أل ١٠١ جـم نسراً وأهلكه الغرق
 تنقل من صالب إلى رحم ١٠١ إذا مضى عالم بدا طبع
 حتى احتوى بيتك المهيم من ١٥٠ و ١٠١ خثيف عليها تحتها الثطق
 وأنت لما ولدت أشرق الـ ١٠١ أرض وضأت بنورك الأفق
 فنحن في ذلك الضياء وفي الثور وسبل الرشاد نخترق ١٠١

الكاف

- رب العباد ما لنا وما لكا ٤٦٢ قد كنت تسقينا فما بدا لكا
 أنزل علينا الغيث لا أبا لكا

اللام

- قد تخللت مسلك الروح مني ١٣٠ وبذا سمي الخليل خليلاً
 فإذا ما نطقك كنت حديثي ١٣٠ وإذا ما سكث كنت الغليلاً



- تلك المكارم لا قعبان من لبن ٣٢١ شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

لولا انقطاع الوحي بعد محمد
هو مثله في الفضل إلا أنه

٤٢١ قلنا محمد من أبيه بديل

٤٢١ لم يأت به برسالة جبريل

الميم

رفع الحجاب لنا فلاح لناظر

٢٧٦ قمر تقطع دونه الأوهام

٢٧٦ فظهروهن على الرجال حرام

٢٧٦ ولها علينا حرمة وضمائم

النون

تنازع الأحمدان الشبهة فاشتبهها

٤٢٢ خلقاً وخلقاً كما قُدُّ الشراكان



وإذا ما رفعت راياتها

٤٢١ صفقت بين جناحي جبرين



فر من الخلد واستجار بنا

٤٢١ فصبر الله قلب رضوان

فَهْرَسْتُ الْمَوْضُوعَاتِ

الموضوع	الصفحة
ترجمة المؤلف	٥
مقدمة المصنف	٧
القسم الأول فِي تَعْظِيمِ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى لِقَدْرِ هَذَا النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى قَوْلًا وَفِعْلًا	١١
الباب الأول فِي ثَنَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَإِظْهَارِهِ عَظِيمَ قَدْرِهِ لَدَيْهِ	١٣
الفصل الأولُ فيما جاء من ذلك مجيء المدح والثناء وتعداد المحاسن ...	١٣
الفصل الثاني فِي وَضْفِهِ لَهُ تَعَالَى بِالشَّهَادَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الثَّنَاءِ وَالْكَرَامَةِ	١٩
الفصل الثالثُ فِيمَا وَرَدَ فِي خِطَابِهِ إِيَّاهُ مَوْزِدَ الْمُلَاطَفَةِ وَالْمَبَرَّةِ	٢١
الفصل الرابعُ فِي قَسَمِهِ تَعَالَى بِعَظِيمِ قَدْرِهِ	٢٣
الفصل الخامسُ فِي قَسَمِهِ - تَعَالَى جَدُّهُ - لَهُ، لِيُحَقِّقَ مَكَانَتَهُ عِنْدَهُ	٢٦
الفصل السادسُ فِي مَا وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي جِهَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْزِدَ الشَّقَقَةِ وَالْإِكْرَامِ	٣٠
الفصل السابعُ فِي مَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ مِنْ عَظِيمِ قَدْرِهِ وَشَرِيفِ مَنْزِلَتِهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَخُطْوَةِ رُتْبَتِهِ	٣١
الفصل الثامنُ فِي إِعْلَامِ اللَّهِ تَعَالَى خَلْقَهُ بِصَلَاتِهِ عَلَيْهِ وَوَلَايَتِهِ لَهُ وَرَفْعِهِ الْعَذَابَ بِسَبِيهِ	٣٣
الفصل التاسعُ فِي مَا تَضَمَّنَتْهُ سُورَةُ الْفَتْحِ مِنْ كَرَامَاتِهِ ﷻ	٣٥

الفصل العاشر في ما أظهره الله تعالى في كتابه العزيز من كرامته عليه
ومكانته عنده وما خصه الله به من ذلك سوى ما انتظم فيما ذكرناه
قَبْلُ ٣٧

الباب الثاني في تكميل الله تعالى له المحاسن خلقاً وخلقاً، وقرائه جميع
الفضائل الدينية والدنيوية فيه نسفاً ٤٠

فصل في اجتماع خصال الجلال والكمال في نبينا محمد ﷺ ٤١

فصل في صفاته الخلقية ﷺ ٤٢

فصل في نظافته ﷺ وطيب رينجه وعرقه ودمه ٤٤

فصل في وفور عقله، وذكاء لُبِّه، وقوة حواسه، وفصاحة لسانه، واعتدال
حركاته ﷺ ٤٦

فصل في فصاحة لسانه، وبلاغة قوله ﷺ ٤٨

فصل في شرف نسبه ﷺ وكرم بلده ومنشئه ٥١

فصل فيما كان التمدح والكمال بقلته ٥٢

فصل فيما التمدح بكثرتيه ٥٤

فصل فيما تختلف الحالات في التمدح به والتفاخر بسبه ٥٧

فصل في حسن خلقه ﷺ ٥٩

فصل في نباهة عقله ﷺ ٦٢

فصل في حلمه واختياله وعفوه وصبره ﷺ ٦٣

فصل في جوده وكرمه وسخائه وسماحيته ﷺ ٦٦

فصل في شجاعته ونجدته ﷺ ٦٨

فصل في حياته وإغضائه ﷺ ٧٠

فصل في حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه ﷺ مع أصناف الخلق ٧١

فصل في شفقتيه ورحمته ﷺ ورأفته لجميع الخلق ٧٣

فصل في خلقه ﷺ في الوفاء وحسن العهد وصله الرحم ٧٥

فصل في تواضعه ﷺ ٧٧

فصل في عدله ﷺ وأمانته وعفته وصدق لهجته ٧٩

- ٨١ فصل في وقاره ﷺ وصمته وتؤدبه ومروءته وحسن هديه
- ٨٢ فصل في زهده ﷺ في الدنيا
- ٨٤ فصل في خوفه ﷺ من ربه، وطاعته له، وشدة عبادته
- ٨٦ فصل في صفات الأنبياء والرسل من كمال الخلق وحسن الخلق وشرف النسب
- ٩١ فصل في حديث هند بن أبي هالة وعلي بن أبي طالب في شمائله ﷺ ..
- ٩٥ فصل في تفسير غريب هذا الحديث ومشكله
- ٩٩ الباب الثالث فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم قدره عند ربه ومؤثره، وما خصه به في الدارين من كرامته عليه السلام
- ٩٩ الفصل الأول فيما ورد بذكر مكانته عند ربه، والاضطفاء، ورفعة الذكر والتفضيل وسيادة ولد آدم، وما خصه به في الدنيا من مزايا الرتب وبركة اسمه الطيب
- ٩٩ فصل في تفضيله بما تضمنته كرامته الإسرائ من المناجاة والرؤية وإمامة الأنبياء والعروج به إلى سيرة المتهى وما رأى من آيات ربه الكبرى ..
- ١٠٦ فصل في حقيقة الإسرائ، هل كان بالروح أم بالروح والجسد
- ١١٢ فصل في إنطال حجاج من قال: إنها نوم
- ١١٥ فصل في رؤيته ﷺ لربه عز وجل واختلاف السلف فيها
- ١١٧ فصل في ما ورد في قصة الإسرائ من مناجاته ﷺ لله تعالى وكلامه معه
- ١٢٢ فصل في ما ورد من الدنو والقرب لئله الإسرائ
- ١٢٣ فصل في ذكر تفضيله يوم القيامة بخصوص الكرامة
- ١٢٥ فصل في تفضيله بالمحبة والخلة
- ١٢٧ فصل في تفضيله بالشفاعاة والمقام المحمود
- ١٣١ فصل في تفضيله في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة والكثرة والفضيلة ...
- ١٣٧ فصل في معنى الأحاديث الواردة بنهيه ﷺ عن تفضيله على الأنبياء
- ١٣٨ فصل في أسمائه عليه السلام وما تضمنته من تفضيله
- ١٤٠

- فصل في تَشْرِيفِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِمَا سَمَّاهُ بِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَوَصَفَهُ بِهِ
 ١٤٥ مِنْ صِفَاتِهِ الْعُلَا
- فصل في أَنَّ ذَاتَ اللَّهِ تَعَالَى لَا تُشَبِّهُ ذَوَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، وَصِفَاتِهِ تَعَالَى
 ١٥١ لَا تُشَبِّهُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ
- الباب الرابع فيما أَظْهَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ وَشَرَّفَهُ بِهِ مِنْ
 ١٥٣ الْخَصَائِصِ وَالْكَرَامَاتِ
- فصل في الثُّبُوتِ وَالرِّسَالَةِ وَالْوَحْيِ
 ١٥٥ فَصَلْ فِي مُعْجَزَاتِهِ ﷺ وَمَعْنَى الْمُعْجَزَةِ
- فصل في إِعْجَازِ الْقُرْآنِ
 ١٥٩ فَصَلْ
- فصل
 ١٦٣ فَصَلْ
- فصل
 ١٦٥ فَصَلْ
- فصل في آيَاتٍ وَرَدَتْ بِتَعْجِيزِ قَوْمٍ فِي قَضَايَا وَإِعْلَامِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَهَا،
 ١٦٨ فَمَا فَعَلُوا وَلَا قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ
- فصل في الرُّوْعَةِ الَّتِي تَلْحَقُ سَامِعِيهِ وَأَسْمَاعِهِمْ عِنْدَ سَمَاعِهِ، وَالْهَيْبَةِ الَّتِي
 ١٦٩ تَعْتَزُّ بِهِمْ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ
- فصل في كَوْنِ الْقُرْآنِ آيَةً بَاقِيَةً لَا تَعْدُمُ مَا بَقِيََتِ الدُّنْيَا مَعَ تَكْفُلِ اللَّهِ بِحِفْظِهِ
 ١٧١ فَصَلْ فِي وَجْهِهِ أُخْرَى فِي إِعْجَازِهِ مِنْهَا لَا يَمْلَأُ قَارِئُهُ
- فصل في انشِقَاقِ الْقَمَرِ وَخَسْفِ الشَّمْسِ
 ١٧٥ فَصَلْ فِي نَبْعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ وَتَكْثِيرِهِ بِبَرَكَتِهِ
- فصل في تَفْجِيرِ الْمَاءِ بِبَرَكَتِهِ ﷺ، وَانْبِعَاقِهِ بِمَسِّهِ وَدَعْوَتِهِ
 ١٧٩ فَصَلْ وَمِنْ مُعْجَزَاتِهِ تَكْثِيرُ الطَّعَامِ بِبَرَكَتِهِ وَدُعَائِهِ
- فصل في كَلَامِ الشَّجَرَةِ وَشَهَادَتِهَا لَهُ بِالثُّبُوتِ وَإِجَابَتِهَا دَعْوَتَهُ
 ١٨٥ فَصَلْ فِي قِصَّةِ حَنِينِ الْجَذْعِ
- فصل في مُعْجَزَاتٍ أُخْرَى لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي سَائِرِ الْجَمَادَاتِ كَتَسْبِيحِ الطَّعَامِ
 ١٨٨ وَتَسْلِيمِ الْحَجَرِ

١٩٢	فصل في الآيات في ضروب الحيوانات
	فصل في إحياء الموتى وكلامهم، وكلام الصبيان والمرضى وشهادتهم له
١٩٦	بالبُترة
١٩٩	فصل في إنباء المرضى وذوي العاهات
٢٠١	فصل في إجابة دعائه
٢٠٤	فصل في كراماته وبركاته وانقلاب الأعيان له فيما لمسه أو بآشده
٢٠٨	فصل في ما أطلع عليه من الغيوب
٢١٥	فصل في عصمة الله تعالى له من الناس وكفائته من آداه
٢٢٠	فصل في معجزاته
٢٢٤	فصل في أخباره مع الملائكة والجن ورؤية كثير من أصحابه لهم ...
٢٢٦	فصل في إخبار الرهبان والأخبار وعلماء أهل الكتاب عن صفته وصفة أمته
٢٢٧	فصل في الآيات التي ظهرت عند مولده
٢٢٩	فصل في أن معجزات نبينا محمد
٢٣٥	القسم الثاني فيما يجب على الأنام من حقوقه عليه السلام
٢٣٧	الباب الأول في فرض الإيمان به وجوب طاعته وإتباع سنته
٢٣٩	فصل في وجوب طاعته
٢٤١	فصل في وجوب اتباعه وإمتهال سنته والافتداء بهديه
	فصل في ما ورد عن السلف والأئمة من اتباع سنته والافتداء بهديه
٢٤٤	وسيرته
٢٤٦	فصل في أن مخالفة أمره
٢٤٨	الباب الثاني في لزوم محبته عليه السلام
٢٤٩	فصل في ثواب محبته
٢٥٠	فصل فيما روي عن السلف والأئمة من محبتهم للنبي
٢٥٢	فصل في علامة محبته عليه السلام
٢٥٥	فصل في معنى المحبة للنبي
٢٥٧	فصل في وجوب مناصحته عليه السلام

- الباب الثالث في تعظيم أمره ووجوب توقيره وبره ٢٦٠
- فصل في عادة الصحابة في تعظيمه عليه السلام وإجلاله وتوقيره ٢٦٢
- فصل في تعظيم النبي ﷺ بعد موته، وعند ذكره، وتعظيم أهل بيته وصحابه ٢٦٤
- فصل في سيرة السلف في تعظيم رواية حديث رسول الله ﷺ وسنته ٢٦٦
- فصل ومن توقيره ﷺ وبره، بر آله وذريته وأمهات المؤمنين: أزواجه، كما حض عليه ﷺ، وسلكته السلف الصالح رضي الله عنهم ٢٦٨
- فصل ٢٧١
- فصل ومن إعظامه وإكباره إعظام جميع أسبابه، وإكرام مشاهديه وأمكته من مكة والمدينة، ومعاهديه، وما لَمَسَهُ عليه السلام أو عُرف به. ٢٧٥
- الباب الرابع في ذكر الصلاة عليه والتسليم وفرض ذلك وفضيلته ٢٧٨
- فصل في حكم الصلاة على النبي ﷺ ٢٧٩
- فصل في المواطن التي يستحب فيها الصلاة والسلام على النبي ﷺ ٢٨١
- ويُغْب ٢٨١
- فصل في كيفية الصلاة عليه والتسليم ٢٨٥
- فصل في فضيلة الصلاة على النبي ﷺ والتسليم عليه والدعاء له ٢٨٩
- فصل في دَمَ مَنْ لَمْ يَصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَإِثْمِهِ ٢٩١
- فصل في تخصيصه - عليه السلام - بتبليغ صلاة مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ أَوْ سَلَّمَ مِنْ الْأَنَامِ ٢٩٢
- فصل في الاختلاف في الصلاة على غير النبي ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام ٢٩٤
- فصل في حكم زيارة قبره عليه السلام، وفضيلة مَنْ رَأَاهُ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ وَكَيْفَ يُسَلِّمُ وَيَدْعُو لَهُ ٢٩٦
- فصل فيما يلزم مَنْ دَخَلَ مَسْجِدَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْأَدَبِ سِوَى مَا قَدَّمَاهُ، وَفَضْلِهِ، وَفَضْلِ الصَّلَاةِ فِيهِ، وَفِي مَسْجِدِ مَكَّةَ، وَذِكْرِ قَبْرِهِ وَمَنْبَرِهِ، وَفَضْلِ سُكْنَى الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ ٣٠١

القسم الثالث فِيمَا يَجِبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَمَا يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِ أَوْ يَجُوزُ عَلَيْهِ، وَمَا

يَقْتَضِي أَوْ يَصِحُّ مِنَ الْأَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ تُضَافَ إِلَيْهِ ٣٠٧

الباب الأول فِيمَا يَخْتَصُّ بِأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَالْكَلَامِ فِي عِصْمَةِ نَبِيِّنَا وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ

صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ ٣٠٩

فصل فِي حُكْمِ عَقْدِ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ وَقْتِ بُيُوتِهِ ٣٠٩

فصل فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَ الثَّبُوتِ مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ ٣١٩

فصل فِي أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ الْعِصْمَةُ مِنْ عَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ بِبَعْضِ

أُمُورِ الدُّنْيَا ٣٢٤

فصل فِي إِجْمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَى عِصْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكَيْفَاتِهِ مِنْهُ ٣٢٦

فصل فِي صِدْقِ أَقْوَالِهِ ﷺ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ٣٣٠

فصل فِي رَدِّ الْمُؤَلَّفِ لِبَعْضِ الشُّبُهَاتِ وَالْمَطَاعِينَ، كَرَدِّهِ لِقِصَّةِ الْعَرَانِيْقِ

وَبَعْضِ الشُّبُهَةِ الَّتِي يَتَمَسَّكُ بِهَا الزَّائِعُونَ ٣٣١

فصل فِي حَالِهِ ﷺ فِي أَخْبَارِ الدُّنْيَا ٣٣٩

فصل فِي رَدِّ بَعْضِ الْأَعْتِرَاضَاتِ وَالشُّبُهَةِ، كَسَهْوِهِ ﷺ فِي الصَّلَاةِ، وَقَوْلِ

إِبْرَاهِيمَ إِنِّي سَقِيمٌ ٣٤١

فصل فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الصَّغَائِرِ وَالْكِبَائِرِ ٣٤٦

فصل فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْمَعَاصِي قَبْلَ الثَّبُوتِ ٣٤٩

فصل فِي حُكْمِ السَّهْوِ وَالنِّسْيَانِ فِي الْوُظَائِفِ الشَّرْعِيَّةِ ٣٥٠

فصل فِي الْكَلَامِ عَلَى الْأَحَادِيثِ الْمَذْكُورِ فِيهَا السَّهْوُ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ٣٥٢

فصل فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ أَجَارَ عَلَيْهِمُ الصَّغَائِرَ وَالْكَلَامَ عَلَى مَا احْتَجُّوا بِهِ فِي ذَلِكَ

فصل فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾، وَمَا تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ

وَالْحَدِيثِ مِنْ اعْتِرَافِ الْأَنْبِيَاءِ بِذُنُوبِهِمْ ٣٦٨

فصل فِي فَوَائِدِ الْقَوْلِ بِعِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ ٣٧١

فصل فِي الْقَوْلِ فِي عِصْمَةِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ٣٧٢

الباب الثاني من القسم الثالث فِيمَا يَخْتَصُّهُمْ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَيُطْرَأُ عَلَيْهِمْ مِنَ

الْعَوَارِضِ الْبَشَرِيَّةِ ٣٧٦

- ٣٧٨ فصل في الرُّدِّ عَلَى مَنْ طَعَنَ فِي حَدِيثِ السُّحْرِ
- ٣٨٠ فصل في أخواله ﷺ في أمور الدنيا
- ٣٨١ فصل في ما يُعْتَقَدُ في أمورِ أَحْكَامِ الْبَشَرِ الْجَارِيَةِ عَلَى يَدَيْهِ ﷺ وَقَضَايَاهُمْ
- فصل في أقواله ﷺ الدنيوية مِنْ إخباره عَنْ أَخْوَالِهِ، وَأَخْوَالِ غَيْرِهِ، وَمَا
- ٣٨٢ فَعَلَهُ، أَوْ يَفْعَلُهُ
- ٣٨٥ فصل في شَرْحِ حَدِيثِ الْوَصِيَّةِ فِي مَرَضِهِ ﷺ
- فصل في شَرْحِ حَدِيثِ أَيُّمَا مُؤْمِنٍ آذَنَتْهُ أَوْ سَبَّيْتُهُ أَوْ جَلَدْتُهُ فَاجْعَلْهَا كَفَّارَةً،
- ٣٨٨ وأحاديثَ أُخَرَ
- ٣٩١ فصل في أَنَّ عَامَّةَ أَفْعَالِهِ ﷺ سَدَادٌ وَصَوَابٌ، وَالرُّدُّ عَلَى بَغْضِ الشُّبْهِ
- ٣٩٥ فصل في الْحِكْمَةِ في إِجْرَاءِ الْأَمْرَاضِ وَشِدَّتِهَا عَلَيْهِ ﷺ، وَعَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ
- ٤٠١ القسم الرابع في تَصَرُّفِ وَجْوهِ الْأَحْكَامِ فِيمَنْ تَنَقَّضَتْ أَوْ سَبَّهَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
- الباب الأول في بَيَانِ مَا هُوَ فِي حَقِّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - سَبٌّ، أَوْ نَقْصٌ، مِنْ
- ٤٠٤ تَغْرِيفِ أَوْ نَصٍّ
- ٤٠٧ فصل في الْحُجَّةِ فِي إِنْجَابِ قَتْلِ مَنْ سَبَّهَ أَوْ عَابَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
- ٤١١ فصل في أَسْبَابِ عَفْوِهِ ﷺ عَنْ بَغْضِ مَنْ آذَاهُ
- فصل في حُكْمِ مَنْ تَنَقَّصَ النَّبِيَّ ﷺ غَيْرَ قَاصِدٍ لِلْسَّبِّ وَالْإِزْراءِ وَلَا مُعْتَقِدٍ
- ٤١٦ لَهُ
- ٤١٧ فصل في حُكْمِ مَنْ تَنَقَّصَ النَّبِيَّ ﷺ قَاصِدًا لِذَلِكَ
- ٤١٨ فصل في حُكْمِ مَنْ قَالَ كَلَامًا يَحْتَمِلُ السَّبَّ وَغَيْرَهُ
- فصل في حُكْمِ مَنْ لَمْ يَقْصِدْ نَقْصًا، وَلَمْ يَذْكُرْ عَيْنًا وَلَا سَبًّا. بَلْ قَالَ قَوْلًا
- عَلَى مَقْصِدِ التَّرْفِيعِ لِنَفْسِهِ، أَوْ لغيرِهِ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ وَعَدَمِ التَّوْقِيرِ
- ٤٢٠ لِنَبِيِّهِ، أَوْ عَلَى قَصْدِ الْهَزْلِ وَالتَّنْذِيرِ
- ٤٢٤ فصل في حُكْمِ الْقَائِلِ وَالْحَاكِي لِهَذَا الْكَلَامِ عَنْ غَيْرِهِ
- فصل في حُكْمِ ذِكْرِ مَا يَجُوزُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، أَوْ يُخْتَلَفُ فِي جَوَازِهِ عَلَيْهِ،
- ٤٢٦ عَلَى طَرِيقِ الْمَذَاكِرَةِ وَالتَّغْلِيمِ
- ٤٢٩ فصل في الْأَدَبِ الْأَلَزِمِ عِنْدَ ذِكْرِ أَخْبَارِهِ ﷺ

٤٣١	الباب الثاني في حُكْم سَابِهِ وَشَائِيهِ وَمُتَنَقِّصِهِ وَمُؤْذِنِهِ وَعُقُوبَتِهِ وَذِكْرِ اسْتِنَابَتِهِ وَوِرَاثَتِهِ ...
٤٣٣	فصل في اسْتِنَابَةِ الْمُرْتَدِّ
٤٣٥	فصل في حُكْم الْمُرْتَدِّ إِذَا اشْتَبَهَ ارْتِدَادُهُ
٤٣٦	فصل في حُكْم الذَّمِّي إِذَا صُرِّحَ بِسَبِّهِ ﷺ، أَوْ عَرَّضَ، أَوْ اسْتَحَفَّ بِقُدْرِهِ، أَوْ وَصَفَهُ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي كَفَّرَ بِهِ
٤٤٠	فصل في مِيرَاثِ مَنْ قُتِلَ بِسَبِّ النَّبِيِّ ﷺ وَغَسَلِهِ وَالصَّلَاةَ عَلَيْهِ
٤٤٣	الباب الثالث في حُكْم مَنْ سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ وَأَنْبِيََاءَهُ وَكُتُبَهُ وَآلَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَزْوَاجَهُ وَصَحْبَهُ
٤٤٤	فصل في حُكْم مَنْ أَضَافَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ عَنْ طَرِيقِ التَّأْوِيلِ وَالاجْتِهَادِ وَالْخَطَأِ الْمُفْضِي إِلَى الْهَوَى وَالْبِدْعَةِ
٤٤٦	فصل في تَحْقِيقِ الْقَوْلِ فِي إِكْفَارِ الْمُتَأَوِّلِينَ
٤٥٠	فصل في بَيَانِ مَا هُوَ مِنَ الْمَقَالَاتِ كُفْرًا، وَمَا يُتَوَقَّفُ أَوْ يُخْتَلَفُ فِيهِ، وَمَا لَيْسَ بِكُفْرٍ
٤٥٨	فصل في حُكْم الذَّمِّي السَّابِّ لِلَّهِ تَعَالَى
٤٥٩	فصل في حُكْم الْمُفْتَرِي الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِادْعَاءِ الْإِلَهِيَّةِ أَوْ الرُّسَالَةِ، أَوْ التَّائِفِي أَنْ يَكُونَ اللَّهُ رَبَّهُ أَوْ خَالِقَهُ
٤٦٠	فصل في حُكْم مَنْ تَكَلَّمَ مِنْ سَقَطِ الْقَوْلِ، وَسُخْفِ اللَّفْظِ، وَمَنْ لَمْ يَضْبِطْ كَلَامَهُ، وَأَهْمَلَ لِسَانَهُ، بِمَا يَفْتَضِي الْاسْتِخْفَافَ بِعَظَمَةِ رَبِّهِ، وَجَلَالَةِ مَوْلَاهُ
٤٦٢	فصل في حُكْم مَنْ سَبَّ سَائِرَ أَنْبِيََاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ وَاسْتَحَفَّ بِهِمْ ...
٤٦٤	فصل في حُكْم مَنْ اسْتَحَفَّ بِالْقُرْآنِ، أَوْ الْمُصْحَفِ، أَوْ شَيْءٍ مِنْهُ، أَوْ سَبَّهُمَا
٤٦٦	فصل وَسَبَّ آلِ بَيْنَتِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَصْحَابِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَتَنَقَّصَهُمْ حَرَامٌ مَلْعُونٌ فَاعِلُهُ
٤٧١	فهرس الأحاديث والآثار
٤٩٠	فهرس الأشعار
٤٩٣	فهرس الموضوعات